THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

SUPRA SPEM SPERO

W. Arthur Jeffery

Arthur Jeffery
Cairo. 1922

55391 [illegible]

# فهـــرس

# الجزء الثاني

من كتاب

# فتح القدير

## الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

للعلامة الشوكاني رحمه الله آمين

صحيفة

# سورة المائدة


٢ هل المائدة آخر سورة نزلت
٣ ما المنسوخ من المائدة والتنبيه على حديث موضوع فى فضلها
٣ حادثة فيلسوف فى معارضة القرآن . ماهى العقود المأمور بالوفاء بها
٤ ماهى بهيمة الأنعام ، وما الشعائر التى نهينا عن إحلالها وما معنى الاجرام
٧ المحرّم علينا من الحيوان
١٠ هل للمضطر أن يأكل من الحيوان المحرّم
١١ ماذا أحلّ لنا ؟ والكلام على الصيد
١٣ هل يحلّ لنا طعام أهل الكتاب ونكاح نسائهم
١٥ الكلام بسعة فى الوضوء والتيمم
١٩ ماقباء بنى إسرائيل و بماذا بعثوا . وماذا فعل الله ببنى إسرائيل لما نقضوا العهد ؟
٢٢ هل كان أهل الكتاب يخفون من كتبهم شيئا
الردّ على النصارى فى قولهم ان الله هو المسيح وعلى اليهود والنصارى معا فى دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه
٢٤ الكلام فى الفترة التى بين رسولنا صلى الله عليه وسلم وسيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم
٢٥ تذكير سيدنا موسى لقومه ودعوتهم للجهاد وتمرّدهم عليه وعقابهم على ذلك
٢٨ الكلام فى ابنى آدم وقتل أحدهما أخاه
٣١ الكلام على قاتل النفس والمتسبب فى إحيائها والكلام على البغاة
٣٦ ماهى الوسيلة ، وماحال الكفار يوم القيامة
٣٧ حكم السارق ، والردّ على من قال ان التوبة تسقط الحدود
٣٨ المنافقون واليهود ، وتسلية الرسول عن مسارعتهم فى الكفر وشىء من أخلاق

صحيفة

اليهود وأحكامهم
٤٢ من من الحكام المحكوم عليه بالظلم والفسق والكفر اذا لم يحكم بما أنزل الله ، ومعنى الظلم والفسق والكفر هنا
٤٣ أحكام القصاص فى النفس والجوارح ، والحق فى شرع من قبلنا هل هو شرع لنا
٤٦ حكم موالاة غير المسلمين ووصف المنافقين والمؤمنين حقا فى هذه الموالاة ، ومن هو ولىّ المؤمنين الولاية الصحيحة
٥٠ وصف قوم نهينا عن موالاتهم أيضا ، ووصف شرّ منهم
٥٤ قول اليهود يد الله مغلولة وجزاؤهم على ذلك
٥٥ ماذا كان يفعل الله بأهل الكتاب لو أقاموا التوراة والانجيل
٥٦ استواء أهل البيت بجميع الناس فى التبليغ لم يختصوا وحدهم بشىء من الدين
حظ العلماء المخلصين من العصمة من الناس اذا قاموا ببيان حجج الله
٥٧ استغناء الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحراس لما وعد بالعصمة من الناس
٥٨ تخريج ، والصابئون المرفوع المعطوف على المنصوب
٦٠ حكم من قال ان الله هو المسيح ، ومن قال ان الله ثالث ثلاثة
حقيقة سيدنا المسيح وأمه
٦٢ لماذا لعن الكفار من بنى اسرائيل
٦٣ من أشد الناس عداوة للمؤمنين ، ومن أقربهم مودّة لهم ؟
٦٥ بحث نفيس فى تحريم العوامّ على أنفسهم بعض ما أحلّ الله لهم ، وأنه ليس من الدين فى شىء لو ترك تزهدا
٦٧ ماهو اللغو من الأيمان ، وما كفارة المنعقدة ، وما غلظ الغموس
٦٩ تحريم الخمر ، وسرّ تحريمها بالتدريج ، ومضارها

صحيفة

الدنيوية والأخروية
٧١ الكلام فى الميسر والنرد ، وسواهما من الألاعيب
٧٢ ابتلاء المؤمنين بتحريم الصيد وهم حرم . وجزاؤهم الاخروى ان خالفوا
٧٣ ماالجزاء الدنيوى لقاتل الصيد
٧٤ إباحة صيد البحر للمحرم
مامعنى كون الكعبة والأشهرالحرم والهدى والقلائد قياما للناس
٧٦ ماالخبيث والطيب ومعنى عدم استوائهما ولو كثر الخبيث وأعجب الناظر
النهى عن مسائل يسوء التكليف بها
٧٧ ماذا كان لمن سألوها قبل المنهيين
ماالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام
٧٩ هل يسقط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقوله تعالى عليكم أنفسكم الآية
٨١ آيات ثلاث هى أصعب مافى القرآن والكلام عليها
٨٦ الجواب عن نفى الرسل علمهم بما أجيبوا به من أممهم
٨٧ الجواب عن الحواريين فى قولهم هل يستطيع ربك
٨٨ هل نزلت المائدة ، وماذا كان عليها ؟
٩٠ هل للتوفى معان متعددة ، وما معنى توفى الله تعالى لسيدنا عيسى

٩١ سورة الأنعام

فضل سورة الأنعام ، وهو فضل عظيم
٩٣ ماهى الظلمات والنور . ومعنى ثم فى قوله : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون
٩٤ ماالأجل الذى قضاه الله والأجل المسمى عنده
٩٦ إلى أى حد بلغ تصلب الكفار فى تكذيبهم

صحيفة

للرسول صلى الله عليه وسلم
٩٨ حجج على وحدانية الله تعالى
١٠٠ مبلغ رحمة ربنا عز وجل
١٠٣ فيمن نزل قوله تعالى — وهم ينهون عنه وينأون عنه —
١٠٨ فى أى شىء مثلنا الحيوانات
١١٠ تحريض شديد على التضرع الى الله تعالى
١١١ هل فى الرخاء والسعة خير والمرء مقيم على المعاصى غافل
١١٣ انكار المفسر على من يشتغل بالمفاضلة بين الملائكة والأنبياء
١١٧ حملة على الدجالين الذين يدعون علم الغيب
١١٨ ماهى مفاتيح الغيب
أين تكون الروح اذانام الانسان ، ومامعنى فوق عباده
١٢٢ النهى عن مجالسة أهل الأهواء الباطلة ونسخ الترخيص فى ذلك أولا
١٢٦ انكار سيدنا ابراهيم على أبيه فى عبادة غير الله
١٢٨ الحجة التى أوتيها سيدنا ابراهيم على قومه
١٣٣ ما يكون للظالمين وهم فى غمرات الموت
١٣٦ عدة حجج على أنه تعالى الاله الواحد
١٤١ هل رأى محمد ربه ، ومامعنى لاتدركه الأبصار
١٤٣ هل يترك النهى عن المنكر اذا خيف أن يترتب عليه أشد منه وحملة شديدة جدا على معاندى الشرائع
١٤٤ حل الاشكال فى قوله تعالى : وما يشعركم أنها اذا جاءت الخ بفتح همزة أنها
١٤٧ الجن والشياطين هل بينهما اختلاف ، ومتى يموت كل منهما
١٤٨ ماالمراد بأكثر أهل الأرض الذين يصدون من أطاعهم عن سبيل الله
١٥٠ الكلام على مالم يذكر اسم الله عليه من

صحيفة


الذبائح
١٥١ هل يسمى المؤمن حيا والكافر ميتا
١٥٢ هل للهداية والضلال علامة وما هى
١٥٤ هل يسلط الله على الظالم ظالما بسبب ظلمه
١٥٧ كيف يرجح المشركون أصنامهم على رب العالمين
١٥٨ هل كان المشركون يحللون ويحرّمون افتراء على الله ؟
١٦٠ هل نسخ قول ربنا : وآتوا حقه يوم حصاده
١٦١ هل فى طاعة الله تعالى اسراف
١٦٢ الردّ على المحرّمين بعض الحيوانات بقوله تعالى ثمانية أزواج الخ
١٦٣ ما زيد من المحرّمات على ما تضمنه قوله تعالى : قل لا أجد الخ
١٦٥ ماذا حرّم ربنا على اليهود لما بغوا
١٦٦ احتجاج المشركين بمشيئة الله على جواز اشراكهم والردّ عليهم
١٦٨ الوصايا العشر التى وصانا الله بها
١٦٩ ماورد فى هذه الوصايا
١٧٠ هل هذه الوصايا هى التى فى التوراة ، و إزالة إشكال
١٧٢ ما الذى ينتظره من لم يؤمن ؟
١٧٣ أىّ آية التى اذا كانت لاينفع نفسا إيمانها
١٧٤ كيف يكون جزاء الحسنات والسيئات

## ١٧٨ سورة الأعراف

١٨٠ الجواب الحاسم عما يكون منفيا تارة ومثبتا أخرى يوم القيامة
١٨١ كيف توزن الأعمال ، والبحث فى حقائق أنكرها قوم
١٨٢ هل الطين أفضل من النار ، ولماذا ؟
١٨٣ بناء على أىّ شىء قال ابليس : ولا تجد أكثرهم شاكرين


صحيفة


١٨٨ هل تدل آية : انه يرا كم هو وقبيله من حيث لاترونهم أنا لانرى الشياطين
١٨٩ كلام جليل مع المقلدين
١٩١ هل ترك ما أحلّ الله تعالى يقال له زهد و يمدح
١٩٣ حلّ إشكال الأجل اذا جاء كيف لايتقدم وقد جاء
١٩٤ الكلام فى زيادة العمر ونقصه
١٩٥ مامعنى كون أبواب السماء لاتفتح للكفار
١٩٦ ردّ مفحم للنسفى على الزمخشرى
١٩٧ ماذا يقول الكافرون حين يرون منازلهم فى الجنة . وماذا يقول المؤمنون حينما يرون منازلهم فى النار
مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار
١٩٨ ما الحجاب الذى بين أهل الجنة وأهل النار وما الأعراف ومن أهله ؟
٢٠٠ نداء أهل النار أن يفيض أهل الجنة عليهم من الماء ، والردّ عليهم
٢٠١ الاختلاف فى استواء الله تعالى على العرش ، والحق فى ذلك
٢٠٢ فضل جليل جدّا لعشرين آية من القرآن
٢٠٣ معنى التضرّع ، والاعتداء فى الدعاء ، ومعنى الفساد فى الأرض ، والاصلاح فيها
٢٠٦ قصة سيدنا نوح مع قومه
٢٠٧ قصة سيدنا هود مع قومه
٢٠٩ قصة سيدنا صالح مع قومه
٢١١ قصة سيدنا لوط مع قومه
٢١٢ قصة سيدنا شعيب مع قومه
٢١٦ سياسة الله تعالى مع كل الأمم قبل اهلاكهم
٢١٧ ماذا كان يفعل الله مع أهل القرى الهالكين لو آمنوا واتقوا
٢١٧ تهديد هذه الأمة أن يفعل معها الله كما فعل بالأمم السابقة ان لم تؤمن

صحيفة

٢١٩ قصة سيدنا موسى مع فرعون وملئه
٢٢٦ آيات عظيمة لم يؤمن برؤيتها فرعون وقومه
٢٢٩ أوضح برهان على بله بنى اسرائيل
٢٣٠ جواب ظاهر عن قوله تعالى : فتم ميقات ربه أربعين ليلة
٢٣١ الصدع بالحق فى رؤية الله تعالى يوم القيامة
٢٣٣ ماهى دار الفاسقين ، وماجزاء الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق
٢٣٧ هل كان العجل الذى اتخذه بنواسرائيل إلها ذا لحم ودم ،
٢٣٩ رجفة السبعين الذين اختارهم سيدنا موسى وايضاح كلامه صلى الله عليه وسلم مع ربه
٢٤٤ قصة أصحاب السبت
٢٤٥ هل الأمر بالمعروف ينجى من السوء ؟
٢٥٠ الحق فى أخذ ذرية بنى آدم من ظهورهم
٢٥٢ من الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها
٢٥٥ هل هناك آدمية أضل من الأنعام
كم نوع الالحاد فى أسماء الله ؟ وكم أسماء الله تعالى
٢٥٨ كيف يكون الاستدراج
٢٦٠ هل يعلم متى تقوم الساعة أحد غير الله
٢٦١ اعتراف سيد العالمين أنه لا يعلم الغيب
الكلام على قول الله تعالى : جعلا له شركاء فيما آتاهما
٢٦٤ صفات للأصنام تبين قدرها حق البيان
٢٦٥ كيف يتولى الله الصالحين
٢٦٧ هل يجب سماع القرآن فى كل حال

٢٦٩ سورة الأنفال

٢٧٠ بحث فى الأنفال أول الأمر
٢٧٢ من هم المؤمنون حقا ؟
٢٧٣ أوائل غزوة بدر
٢٧٦ هل مد المؤمنون بملائكة يوم بدر بشرى لهم

صحيفة

٢٧٨ ماذا فعل الله لطمأنة المؤمنين ونصرهم يوم بدر
٢٨٠ الوعيد على الفرار من الزحف
٢٨١ متى كان الرمى فى قوله تعالى : وما رميت اذ رميت
٢٨٩ بماذا تآمر الكفار على النبى صلى الله عليه وسلم ونجاه الله منهم
٢٩١ هل أنزل الله أمانين لهذه الأمة : ذهب أمان وبقى أمان
٢٩٤ كيف تقسم الغنائم
٢٩٩ تثبيت قلوب المؤمنين ببدر برؤيا رسول الله المنامية وبرؤية المؤمنين للكفار قليلين ليطمعوا فيهم
٣٠١ وصايا تضمن النصر للمؤمنين ان راعوها
٣٠٩ تكليف الله للمؤمن أن يحرم عليه أن يفر من عشرة أول الأمر
٣١٠ تخفيف الله ذلك عنهم وجعل الفرار المحرم الفرار من اثنين فقط
الكلام فى فداء الأسرى يوم بدر
٣١٣ المعانى التى كان بها التناصر بين المؤمنين والموالاة والمعانى التى كان بها الاعراض عن بعض المؤمنين والمعانى التى كانت بها المعاداة

٣١٦ سورة براءة

أسماء سورة براءة ، وسبب سقوط البسملة من أولها
٣١٧ براءة الله ورسوله من المشركين لنقضهم العهود وضرب مدة لهم يستعدون فيها للحرب
٣١٩ النداء يوم الحج الأكبر بهذه البراءة وبأشياء معها ، وبيان ماهو الحج الأكبر
٣٢١ استثناء من لم ينقضوا عهدهم من تلك البراءة ، والأمر باتمام عهدهم اليهم

صحيفة

٣٢١ ماهى الأشهر الحرم التى أمر المؤمنون أن يقاتلوا المشركين اذا انسلخت
٣٢٣ المعانى التى من أجلها لم يحترم عهد المشركين الذين لم يستقيموا على عهدهم
٣٢٨ بيان أن عمارة مساجد الله انما تصح وتليق بالمؤمنين فقط
٣٣٠ تحريم موالاة الآباء والاخوان اذا لم يؤمنوا ، والوعيد الشديد عليها
٣٣١ ما كان يوم حنين
٣٣٣ منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، والخلاف فى دخولهم غيره
٣٣٤ الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، والخلاف فى مقدار هذه الجزية
٣٣٧ رأى المفسر فى مقلدى المذاهب الأربعة
٣٣٨ لماذا قال اليهود عزير ابن الله
٣٤٠ وعيد من يكنزون الذهب والفضة ، و بيان أن كل ماأديت زكاته فليس بكنز
٣٤٢ هل نسخ تحريم القتال فى الأشهر الحرم أم لايزال باقيا ، وماهو النسىء ؟
٣٤٤ التحريض الشديد على النفر فى سبيل الله ، والوعيد العظيم لمن لم ينفر
٣٤٨ كلام الله مع رسوله لاذنه للمنافقين أن يتخلفوا عن الجهاد
٣٥٤ مصارف الزكاة
٣٦٦ قصة ثعلبة المنافق الذى عاهد الله ولم يف
٣٦٩ لماذا لاينفع استغفار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمنافقين
تخلف المنافقين عن غزوة تبوك وجزاؤهم على ذلك دنيا وأخرى
٣٧١ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم ، ولماذا ذلك
٣٧٢ ماجزاء من جاهد بماله ونفسه فى سبيل الله
من هم المعذرون الذين جاءوا رسول الله

صحيفة

ليأذن لهم فى التخلف عن الجهاد
٣٧٣ رفع الحرج عن أرباب الأعذار الصحيحة اذا تخلفوا عن الجهاد
٣٧٤ من يؤاخذ بالعقوبة لتخلفه عن الغزو
٣٧٦ اعتذار المنافقين وحلفهم ، وجزاؤهم على ذلك
٣٧٧ هل الأعراب أشد كفرا ونفاقا
هل من الأعراب قسم مؤمن يتقرب الى الله بنفقاته ، خلاف القسم الذى يتخذ ماينفق مغرما و يتربص بالمؤمنين الدوائر
٣٧٩ ماجزاء السابقين الأولين من الصحابة والذين اتبعوهم باحسان
عود الى شرح حال المنافقين الذين بالمدينة وما حولها ، وماجزاؤهم
٣٨٠ طائفة أخرى خلطت عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم
الاختلاف فى الصدقة المأمور بأخذها منهم ، أهى الفرض أم لا
٣٨١ التحريض على التوبة
طائفة أخرى أرجىء أمرهم لم يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها
٣٨٣ مسجد الضرار ومن اتخذوه ، وحكمهم عند الله تعالى ، والمسجد الذى أسس على التقوى وأهله وحكمهم
٣٨٨ فضل المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وصفاتهم
٣٩١ النهى عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، والجواب عن استغفار خليل الله لأبيه
ماهو الأواه ؟
٣٩٣ الكلام على قوله تعالى لقد تاب الله على النبى الآيات
٣٩٥ تحريم التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغزو ، وبيان ماللمجاهدين من

صحيفة

ثواب فى كل حال
٣٩٧ تعليم المؤمنين أن تكون طائفة منهم تغزو ، وطائفة منهم تتعلم العلم ليرشدوا من لم يتعلم
٣٩٨ تعليم المؤمنين أن يبتدئوا بالأدنى فى جهادهم
بقية من فضائح المنافقين
٤٠٠ الكلام على قوله تعالى لقد جاءكم رسول الآيتين

٤٠١ سورة يونس

٤٠٢ انكار عجب الكفار من ارسال الله تعالى لرسوله المنذر المبشر
٤٠٣ ذكر آيات جليلة على قدرته تعالى حتى لا يكون هناك محل لتعجب أولئك الكفار من ارساله الرسول صلى الله عليه وسلم
٤٠٦ شرح حال من يؤمن بالمعاد ومن لا يؤمن ، وجزاء كل منهما
٤٠٨ صفات للكفار يتخللها تهديد ووعيد لهم
٤١٦ مثل الدنيا
٤١٨ الذين أحسنوا والذين كسبوا السيآت ، وجزاء كلّ
٤٢٢ حجج دامغة على توحيده تعالى
٤٢٤ بيان أن المشركين لايتبعون الا ظنا
الحجج على أن القرآن حق
٤٢٦ صفات للكفار وتهديد لهم
٤٢٩ رأى المفسر فيمن يستغيث برسول الله واخوانه الأنبياء وأتباعهم الصالحين
٤٣٤ احاطة علم ربنا بكل شىء
ماهى بشرى الأولياء فى الدنيا
٤٤٠ قصة سيدنا نوح صلى الله عليه وسلم مع قومه
٤٤٢ قصة سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم مع قومه

صحيفة

٤٥١ الكلام على قوله تعالى : فان كنت فى شك الآيتين
٤٥٣ اختصاص قوم سيدنا يونس بنجاتهم من العذاب بعد أن عاينوه
٤٥٥ هل الضارّ النافع ربنا فقط

٤٥٦ سورة هود

ماورد فى هود من الأحاديث
٤٥٨ معنى إحكام آيات الكتاب وتفصيلها
ماجزاء من استغفر ربه وتاب اليه ، وماجزاء من لم يفعل ذلك
٤٥٩ شىء من صفة المنافقين
٤٦١ هل خلق العرش كان قبل السموات والأرض
٤٦٣ الكلام على قوله تعالى : فلعلك تارك الآية
الجواب عن قول الكفار ان القرآن افتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٦٤ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط وجزاؤه
٤٦٧ الكافرون والمؤمنون ، وجزاء كل ومثل كل
٤٦٩ قصة سيدنا نوح صلى الله عليه وسلم مع قومه
٤٨٠ قصة سيدنا هود صلى الله عليه وسلم مع قومه
٤٨٣ قصة سيدنا صالح صلى الله عليه وسلم مع قومه
٤٨٥ قصة سيدنا ابراهيم صلى الله عليه وسلم مع الملائكة الذين أرسلوا لاهلاك قوم سيدنا لوط
٤٨٨ قصة سيدنا لوط صلى الله عليه وسلم مع قومه
٤٩٣ قصة سيدنا شعيب صلى الله عليه وسلم مع مدين
٤٩٨ قصة سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم مع

صحيفة
قومه
٤٩٩ كيف أخذ ربنا اذا أخذ القرى وهى ظالمة الأشقياء والسعداء ، وجزاء كلّ
٥٠٠ مامعنى الاستثناء فى قوله تعالى الا ماشاء ربك وازالة هذا الاشكال
٥٠٤ هل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : شيبتنى هود وأخواتها مرتبط بقول ربنا عزّ وجلّ له : فاستقم الآية
٥٠٥ الكلام على قوله تعالى : ولاتركنوا الى الذين ظلموا

صحيفة
٥٠٧ هل الأعمال الصالحة تكفر صغائر المحرّمات
٥٠٨ هل سبب استئصال الأمم السابقة بالعذاب كان بسبب أنه لم يكن فيهم من ينهون عن الفساد فى الأرض
٥٠٩ هل لا يهلك الله أهل القرى بظلم يتلبسون به وأهلها مصلحون
لم قصّ الله تعالى على رسوله ماقصّ فى هذه السورة ؟
تهديد شديد للكافرين
٥١١ هل خاتمة التوراة خاتمة هود

﴿ تمت ﴾

# فتح القدير

## الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

للقاضي الحافظ الضابط المحدث المفسر الشهير محمد بن على بن محمد
الشوكاني اليماني الصنعاني صاحب ( نيل الأوطار وغيره ) المتوفى
بمدينة صنعاء فى جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ هـ عن ست وسبعين
سنة وسبعة أشهر رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين

---

الطبعة الأولى

على النسخة الوحيدة بقلم المؤلف الامام الشوكاني رحمه الله تعالى
أذن لنا بالطبع عليها فرع الشجرة النبوية حضرة صاحب الفضيلة العلامة السيد
محمد بن محمد زبارة الحسنى الصنعاني أحد عظماء رجال الدولة الاسلامية اليمنية
المتوكلية أدام نصرها رب البرية آمين

---

تنبيه — لايجوز لأحد أن يطبع كتاب « فتح القدير للشوكاني » من هذه
الطبعة وكل من طبعها يكون مكلفا بابراز أصل قديم يثبت أنه طبع منه
والا فيكون مسئولا عن التعويض قانونا

---

# الجزء الثاني

---

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وباشر طبعه — محمد أمين عمران

---

ربيع الأول ١٣٥٠ هجرية رقم ٤٤٦

BP
130.4
.S542
v.2

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

# تفسير سورة المائدة (١)

هى مائة وثلاث وعشرون آية

قال القرطبى : هى مدنية بالاجماع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : المائدة مدنية . وأخرج أحمد والنسائى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة ، فقالت لى ياجبير تقرأ المائدة ، فقلت نعم ، فقالت : أما انها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وماوجدتم من حرام فحرّموه . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن عبدالله بن عمرو قال آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح . وأخرج أحمد عنه قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله ، فنزل عنها ، قال ابن كثير : تفرّد به أحمد ، قلت وفى اسناده ابن لهيعة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة والطبرانى وأبونعيم فى الدلائل والبيهقى فى شعب الايمان عن أسماء بنت يزيد نحوه ؛ وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده والبغوى فى معجمه وابن مردويه والبيهقى فى دلائل النبوّة عن أم عمرو بنت عيسى عن عمها نحوه أيضا . وأخرج أبو عبيد عن محمد بن كعب القرظى نحوه . وزاد أنها نزلت فى حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة ، وهكذا أخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس بهذه الزيادة وأخرج أبوعبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا : قال رسول الله ﷺ « المائدة من آخر القرآن تنزيلا ، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها » . وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما فى الناسخ عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل : قال لم ينسخ من المائدة شىء ؛ وكذا أخرجه سعيدبن منصور وابن المنذرعنه

وكذا

(١) تنبيه : جرى المفسر رحمه الله فى ضبط ألفاظ القرآن فى تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرّضه للقراءات السبع وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثمانى

وكذا أخرجه عبد بن حيد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن الشعبى ، وكذا أخرجه عبد ابن حيد وأبو داود فى ناسخه وابن المنذر عن الحسن البصرى . وأخرج عبد بن حيد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن الشعبى قال : لم ينسخ من المائدة الا هـذه الآية (ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد) . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال . نسخ من هـذه السورة آيتان : آية القلائد * وقوله (فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) . وأخرج عبد بن حيد فى مسنده عن ابن عباس أن النبى ﷺ قرأ فى خطبته سورة المائدة والتوبة ، وذكر النقاش عن أبى سلمة أنه قال : لما رجع ﷺ من الحديبية قال : ياعلى أشعرت أنها نزلت علىّ سورة المائدة ؟ ونعمت الفائدة ، قال ابن العربى : هذا حديث موضوع لايحل لمسلم اعتقاده ، وقال ابن عطية هذا عندى لايشبه كلام النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ *

هذه الآية التى افتتح الله بها هذه السورة الى قوله (ان الله يحكم مايريد) فيها من البلاغة ماتتقاصر عنده القوى البشرية مع شمولها لأحكام عدّة : منها الوفاء بالعقود ، ومنها تحليل بهيمة الأنعام ، ومنها استثناء مايتلى مما لايحل ، ومنها تحريم الصيد على المحرم ، ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم . وقد حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندى قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن . فقال نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج . فقال والله ماأقدر ولايطيق هذا أحد : انى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فاذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين ولايقدر أحد أن يأتى بهذا * قوله (أوفوا بالعقود) يقال أوفى ووفى لغتان ، وقد جمع بينهما الشاعر فقال :

أما ابن طوف فقد أوفى بذمته * كما وفى بقلاص النجم حاديها

والعقود : العهود ، وأصل العقود الربوط ، واحدها عقد ، يقال عقدت الحبل والعهد ، فهو يستعمل فى الأجسام والمعانى ، واذا استعمل فى المعانى كما هنا أفاد أنه شديد الاحكام ، قوىّ التوثيق ، قيل المراد بالعقود هى التى عقدها الله على عباده وألزمهم بها من الأحكام ، وقيل هى العقود التى يعقدونها بينهم من عقود المعاملات * والأولى شمول الآية للأمرين جميعا ، ولا وجه لتخصيص بعضها دون بعض . قال الزجاج : المعنى أوفوا بعقد الله عليكم و بعقدكم على بعض انتهى * والعقد الذى يجب الوفاء به ماوافق كتاب الله وسنة رسول الله ، فان خالفهما فهو ردّ لايجب الوفاء به ولا يحل * قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) الخطاب للذين آمنوا * والبهيمة : اسم لكل ذى أربع ، سميت بذلك لابهامها من جهة

نقص نطقها وفهمها وعقلها ، ومنه باب مبهم : أى مغلق ، وليل بهيم ، وبهمة للشجاع الذى لايدرى من أين يؤتى ، وحلقة مبهمة : لايدرى أين طرفاها * والأنعام : اسم للابل والبقر والغنم ، سميت بذلك لما فى مشيها من اللين ، وقيل بهيمة الأنعام : وحشيها كالظباء وبقر الوحش والحمر الوحشية وغير ذلك ، حكاه ابن جرير الطبرى عن قوم ، وحكاه غيره عن السدى والربيع وقتادة والضحاك . قال ابن عطية : وهذا قول حسن ، وذلك أن الأنعام هى الثمانية الأزواج ، وما انضاف اليها من سائر الحيوانات يقال له أنعام مجموعة معها ، وكأن المفترس كالأسد ، وكل ذى ناب خارج عن حد الأنعام ، فبهيمة الأنعام هى الراعى من ذوات الأربع ، وقيل بهيمة الأنعام : مالم تكن صيدا ، لأن الصيد يسمى وحشا لابهيمة ، وقيل بهيمة الأنعام : الأجنة التى تخرج عند الذبح من بطون الأنعام فهى تؤكل من دون ذكاة ، وعلى القول الأول أعنى تخصيص الأنعام بالابل والبقر والغنم تكون الاضافة بيانية ، ويلحق بها مايحل مما هو خارج عنها بالقياس ، بل وبالنصوص التى فى الكتاب والسنة كقوله تعالى ـ قل لاأجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ـ الآية ، وقوله ﷺ « يحرم كل ذى ناب من السبع ومخلب من الطير » فانه يدل بمفهومه على أن ماعداه حلال ، وكذلك سائر النصوص الخاصة بنوع كما فى كتب السنة المطهرة * قوله (إلا مايتلى عليكم) استثناء من قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) أى إلا مدلول مايتلى عليكم فانه ليس بحلال * والمتلو : هو مانص الله على تحريمه ، نحو قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) الآية ، ويلحق به ماصرحت السنة بتحريمه ، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون المراد به الامايتلى عليكم الآن ، ويحتمل أن يكون المراد به فى مستقبل الزمان ، فيدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ويحتمل الأمرين جميعا قوله (غير محلى الصيد) ذهب البصريون إلى أن قوله (إلا مايتلى عليكم) استثناء من بهيمة الأنعام ، وقوله (غير محلى الصيد) استثناء آخر منه أيضا ، فالاستثناءان جميعا من بهيمة الأنعام ، والتقدير أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم إلا الصيد وأنتم محرمون ، وقيل الاستثناء الأول من بهيمة الأنعام ، والاستثناء الثانى هو من الاستثناء الأول ، ورد بأن هذا يستلزم اباحة الصيد فى حال الاحرام ، لأنه مستثنى من المحظور فيكون مباحا ، وأجاز الفراء أن يكون (إلا مايتلى) فى موضع رفع على البدل ، ولا يجيزه البصريون إلا فى النكرة وما قاربها من الأجناس . قال وانتصاب (غير محلى الصيد) على الحال من قوله (أوفوا بالعقود) وكذا قال الأخفش ، وقال غيرهما حال من الكاف والميم فى (لكم) والتقدير أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلى الصيد ، أى الاصطياد فى البر وأكل صيده * ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادا وهم حرم ، أى محرمون ، وجملة (وأنتم حرم) فى محل نصب على الحال من الضمير فى محلى * ومعنى هذا التقييد ظاهر عند من يخص بهيمة الأنعام بالحيوانات الوحشية البرية التى يحل أكلها كأنه قال أحل لكم صيد البر إلا فى حال الاحرام ، وأما على قول من يجعل الاضافة بيانية * فالمعنى أحلت لكم بهيمة هى الأنعام حال تحريم الصيد عليكم بدخولكم فى الأحرام لكونكم محتاجين إلى ذلك ، فيكون المراد بهذا التقييد الامتنان عليهم بتحليل ماعدا ماهو محرم عليهم فى تلك الحال * والمراد بالحرم من هو محرم بالحج أو العمرة أو بهما ، وسمى محرما لكونه يحرم عليه الصيد والطيب والنساء ، وهكذا وجه تسمية الحرم حرما ، والاحرام إحراما . وقرأ الحسن والنخعى ويحيى بن وثاب حرم بسكون الراء وهى لغة تميمية يقولون فى رسل رسل وفى كتب كتب ونحو ذلك * قوله (ان الله يحكم مايريد) من الأحكام المخالفة لما كانت العرب تعتاده ، فهو مالك الكل يفعل مايشاء ويحكم مايريد لامعقب لحكمه * قوله (ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله) الشعائر جمع شعيرة على وزن فعيلة . قال ابن فارس

ويقال للواحدة شعارة وهو أحسن ، ومنه الاشعار للهدى * والمشاعر : المعالم ، واحدها مشعر ، وهى المواضع التى قد أشعرت بالعلامات ، قيل المراد بها هنا جميع مناسك الحج ، وقيل الصفا والمروة ، والهدى والبدن * والمعنى على هذين القولين لاتحلوا هذه الأمور بأن يقع منكم الاخلال بشىء منها أو بأن تحولوا بينها وبين من أراد فعلها * ذكر سبحانه النهى عن أن يحلوا شعائر الله عقب ذكره تحريم صيد المحرم ، وقيل المراد بالشعائر هنا فرائض الله ، ومنه ــ ومن يعظم شعائر الله ــ ، وقيل هى حرمات الله ، ولامانع من حمل ذلك على الجميع اعتبارا بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، ولا بما يدل عليه السياق * قوله (ولا الشهر الحرام) المراد به الجنس فيدخل فى ذلك جميع الأشهر الحرم وهى أربعة ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرّم ، ورجب أى لاتحلوها بالقتال فيها ، وقيل المراد به هنا شهر الحج فقط * قوله (ولا الهدى) هو مايهدى الى بيت الله من ناقة أو بقرة أو شاة ، الواحدة هدية * نهاهم سبحانه عن أن يحلوا حرمة الهدى بأن يأخذوه على صاحبه أو يحولوا بينه وبين المكان الذى يهدى اليه ، وعطف الهدى على الشعائر مع دخوله تحتها لقصد التنبيه على مزيد خصوصيته والتشديد فى شأنه * قوله (ولا القلائد) جمع قلادة ، وهى مايقلد به الهدى من نعل أو نحوه * وإحلالها بأن تؤخذ غصبا ، وفى النهى عن إحلال القلائد تأكيد للنهى عن إحلال الهدى ، وقيل المراد بالقلائد المقلدات بها ، ويكون عطفه على الهدى لزيادة التوصية بالهدى * والأول أولى ، وقيل المراد بالقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمنة لهم ، فهو على حذف مضاف ، أى ولا أصحاب القلائد * قوله (ولا آمين البيت الحرام) أى قاصديه من قولهم أممت كذا : أى قصدته . وقرأ الأعمش ولا آمى البيت الحرام بالاضافة * والمعنى لاتمنعوا من قصد البيت الحرام لحج أو عمرة أو ليسكن فيه ، وقيل ان سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجون ويعتمرون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم ، فنزل (ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله) الى آخر الآية فيكون ذلك منسوخا بقوله ــ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ــ ، وقوله ــ فلايقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ــ ، وقوله ﷺ « لايحجن بعد العام مشرك » . وقال قوم الآية محكمة وهى فى المسلمين * قوله (يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) جملة حالية من الضمير المستتر فى (آمين) . قال جمهور المفسرين : معناه يبتغون الفضل والأرباح فى التجارة ، ويبتغون مع ذلك رضوان الله ، وقيل كان منهم من يطلب التجارة ، ومنهم من يبتغى بالحج رضوان الله ، ويكون هذا الابتغاء للرضوان بحسب اعتقادهم وفى ظنهم عند من جعل الآية فى المشركين ، وقيل المراد بالفضل هنا : الثواب لاالأرباح فى التجارة * قوله (وإذا حللتم فاصطادوا) هذا تصريح بما أفاده مفهوم (وأنتم حرم) أباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذى حرّم لأجله ، وهو الاحرام * قوله (ولا يجرمنكم شنآن قوم) . قال ابن فارس جرم وأجرم ولاجرم بمعنى قولك لابدّ ولا محالة ، وأصلها من جرم أى كسب * وقيل المعنى لايحملنكم ، قاله الكسائى وثعلب ، وهو يتعدّى إلى مفعولين ، يقال جرمنى كذا على بغضك ، أى حملنى عليه ، ومنه قول الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أى حملتهم على الغضب . وقال أبو عبيدة والفراء معنى (لايجرمنكم) لايكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا الحق إلى الباطل ، والعدل إلى الجور والجريمة والجارم بمعنى الكاسب ، ومنه قول الشاعر :

جريمة ناهض فى رأس نيق * ترى لعظام ماجمعت صليبا

معناه كاسب قوت * والصليب : الودك ، ومنه قول الآخر :

ياأيها المشتكى عكلا وما جرمت * إلى القبائل من قتل وإبآس

أى كسبت * والمعنى فى الآية لايحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم أولا يكسبنكم بغضهم اعتداءكم للحق الى الباطل ، ويقال جرم يجرم جرما : اذا قطع . قال علىّ بن عيسى الرمانى وهو الأصل ، فجرم بمعنى حمل على الشىء لقطعه من غيره ، وجرم بمعنى كسب لانقطاعه الى الكسب ، ولاجرم بمعنى حق لأن الحق يقطع عليه . قال الخليل : معنى ـ لاجرم أن لهم النار ـ لقد حق أن لهم النار . وقال الكسائى جرم وأجرم لغتان بمعنى واحد ، أى اكتسب . وقرأ ابن مسعود (لايجرمنكم) بضم الياء * والمعنى لايكسبنكم ولا يعرف البصريون أجرم ، وإنما يقولون جرم لاغير * والشنآن : البغض . وقرئ بفتح النون واسكانها ، يقال شنئت الرجل أشنؤه شناء ومشناة وشنآنا كل ذلك : اذا أبغضته ، وشنآن هنا مضاف الى المفعول ، أى بغض قوم منكم لابغض قوم لكم * قوله (أن صدوكم) بفتح الهمزة مفعول لأجله ، أى لأن صدوكم . وقرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر الهمزة على الشرطية ، وهو اختيار أبى عبيد ، وقرأ الأعمش (ان يصدوكم) والمعنى على قراءة الشرطية لايحملنكم بغضهم ان وقع منهم الصد لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء عليهم ، قال النحاس : وأما ان صدوكم بكسر إن فالعلماء الجلة بالنحو والحديث والنظر يمنعون القراءة بها لأشياء : منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان ، وكان المشركون صدوا المؤمنين عام الحديبية سنة ست : فالصد كان قبل الآية ، واذاقرئ بالكسر لم يجز أن يكون الا بعده كما تقول لاتعط فلانا شيئا ان قاتلك ، فهذا لا يكون الا للمستقبل وان فتحت كان للماضى ، وما أحسن هذا الكلام . وقد انكر أبو حاتم وأبو عبيدة شنآن بسكون النون ، لأن المصادر انما تأتى فى مثل هذا متحركة وخالفهما غيرهما . فقال ليس هذا مصدرا ، ولكنه اسم فاعل على وزن كسلان وغضبان * ولما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون على البر والتقوى ، أى ليعن بعضكم بعضا على ذلك ، وهو يشمل كل أمر يصدق عليه أنه من البر والتقوى كائنا ما كان ، قيل ان البر والتقوى لفظان لمعنى واحد ، وكرر للتأكيد . وقال ابن عطية : ان البر يتناول الواجب والمندوب ، والتقوى تختص بالواجب ، وقال الماوردى : ان فى البر رضا الناس وفى التقوى رضا الله ، فمن جمع بينهما فقد تمت سعادته * ثم نهاهم سبحانه عن التعاون على الاثم والعدوان ، فالاثم : كل فعل أوقول يوجب إثم فاعله أوقائله ، والعدوان : التعدى على الناس بما فيه ظلم ، فلا يبقى نوع من أنواع الموجبات للاثم ولانوع من أنواع الظلم للناس الذين من جملتهم النفس الاوهو داخل تحت هذا النهى لصدق هذين النوعين على كل مايوجد فيه معناهما ، ثم أمر عباده بالتقوى وتوعد من خالف ماأمر به فتركه أو خالف مانهى عنه ففعله بقوله (ان الله شديد العقاب) .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عباس فى قوله (أوفوا بالعقود) قال : ماأحل الله وماحرم وما فرض وماحد فى القرآن كله لاتغدروا ولاتنكثوا . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : هى عقود الجاهلية الحلف ، وروى عنه ابن جرير أنه قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول « أوفوا بعقد الجاهلية ولا تحدثوا عقدا فى الاسلام » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) قال الابل والبقر والغنم . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر فى قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) قال : مافى بطونها ، قلت ان خرج ميتا آكله ؟ قال نعم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عباس فى قوله (الا مايتلى عليكم) قال الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغيرالله به الى آخرالآية ، فهذا ماحرم الله من بهيمة الأنعام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لاتحلوا شعائر الله) قال كان المشركون يحجون البيت الحرام ويهدون الهدايا ويعظمون حرمة المشاعر وينحرون فى حجهم ، فأراد

المسلمون

المسلمون أن يغيروا عليهم ، فقال الله (لاتحلوا شعائر الله) وفي قوله (ولا الشهر الحرام) يعني لاتستحلوا قتالا فيه (ولا آمين البيت الحرام) يعني من توجه قبل البيت الحرام ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون جميعا ، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا حج البيت أو يتعرضوا له من مؤمن أوكافر ، ثم أنزل الله بعد هذه الآية ـ انما المشركون نجس فلايقربوا المسجد الحرام بعدعامهم هذا ـ وفي قوله (يبتغون فضلا) يعني أنهم يرضون الله بحجهم (ولايجرمنكم) يقول لايحملنكم (شنآن قوم) يقول عداوة قوم (وتعاونوا على البرّ والتقوى) قال البرّ ماأمرت به ، والتقوى مانهيت عنه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : شعائر الله مانهى الله عنه أن تصيبه وأنت محرم ، والهدى مالم يقلد والقلائد مقلدات الهدى (ولا آمين البيت الحرام) يقول من توجه حاجا . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (لاتحلوا شعائر الله) قال : مناسك الحج . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم ، فمرّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ نصدّ هؤلاء كما صدّنا أصحابنا ، فأنزل الله (ولايجرمنكم) الآية . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد والبخاري في تاريخه عن وابصة أن النبي ﷺ قال له «البرما اطمأنّ اليه القلب واطمأنت اليه النفس ، والاثم ماحاك في القلب وتردّد في الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك» . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب ومسلم والترمذي والحاكم والبيهقي عن النواس بن سمعان ، قال : سألت النبي ﷺ عن البرّ والاثم ، فقال : البر حسن الخلق ، والاثم ماحاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أمامة أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الاثم ، فقال : ماحاك في نفسك فدعه . قال فما الايمان ؟ قال من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

هذا شروع في المحرّمات التي أشار اليها سبحانه بقوله (الا مايتلى عليكم) * والميتة قد تقدم ذكرها في البقرة ، وكذلك الدم ولحم الخنزير وماأهلّ به لغير الله ، وماهنا من تحريم مطلق الدم مقيد بكونه مسفوحا كما تقدم حملا للمطلق على المقيد ، وقد ورد في السنة تخصيص الميتة بقوله ﷺ «أحل لناميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال» أخرجه الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وفي إسناده مقال ، ويقوّيه حديث «هوالطهورماؤه والحلّ ميتته» وهو عند أحمد وأهل السنن وغيرهم وصححه جماعة منهم ابن خزيمة وابن حبان ، وقدأطلنا الكلام عليه في شرحنا للمنتقى * والاهلال رفع الصوت لغيرالله ، كأن يقول بسم اللات والعزى ونحوذلك ، ولاحاجة بناهنا الى تكرير ماقد أسلفناه ، ففيه مالايحتاج الناظر فيه الى غيره * (والمنخنقة) هي التي تموت بالخنق : وهوحبس النفس سواء كان ذلك بفعلها كأن تدخل

رأسها فى حبل أو بين عودين ، أو بفعل آدمى أو غيره ، وقد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة ، فاذا ماتت أكلوها * (والموقوذة) هى التى تضرب بحجر أوعصى حتى تموت من غير تذكية ، يقال وقذه يقذه وقذا فهو وقيذ ، والوقذ شدة الضرب وفلان وقيذ : أى مثخن ضربا ، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ، ثم يأكلونها ، ومنه قول الفرزدق :

شغارة تقذ الفصيل برجلها * فطارة لقوادم الأظفار

قال ابن عبد البر : واختلف العلماء قديما وحديثا فى الصيد بالبندق والحجر والمعراض : ويعنى بالبندق قوس البندقة ، وبالمعراض السهم الذى لا ريش له أو العصا التى رأسها محدّد ، قال : فمن ذهب الى أنه وقيذ لم يجزه الا ما أدرك ذكاته على ما روى عن ابن عمر ، وهو قول مالك وأبى حنيفة وأصحابه والثورى والشافعى وخالفهم الشاميون فى ذلك . قال الأوزاعى فى المعراض كله خزق أو لم يخزق ، فقد كان أبو الدرداء وفضالة ابن عبيد وعبدالله بن عمر ومكحول لا يرون به بأسا ، قال ابن عبد البر : هكذا ذكر الأوزاعى عن عبدالله ابن عمر ، والمعروف عن ابن عمر ما ذكر مالك عن نافع ، قال والأصل فى هذا الباب والذى عليه العمل وفيه الحجة حديث عدىّ بن حاتم ، وفيه ما أصاب بعرضه فلا تأكل فانه وقيذ انتهى .

قلت والحديث فى الصحيحين وغيرهما عن عدى ، قال قلت يارسول الله انى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب . فقال : اذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وان أصاب بعرضه فانما هو وقيذ فلا تأكله ، فقد اعتبر ﷺ الخزق وعدمه ، فالحق أنه لا يحل الا ما خزق ، لا ما صدم فلا بد من التذكية قبل الموت والا كان وقيذا * وأما البنادق المعروفة الآن : وهى بنادق الحديد التى تجعل فيها البارود والرصاص ويرمى بها ، فلم يتكلم عليها أهل العلم لتأخر حدوثها ، فانها لم تصل الى الديار اليمنية الا فى المائة العاشرة من الهجرة ، وقد سألنى جماعة من أهل العلم عن الصيد بها اذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حيا * والذى يظهر لى أنه حلال لأنها تخرق وتدخل فى الغالب من جانب منه وتخرج من الجانب الآخر ، وقد قال ﷺ فى الحديث الصحيح السابق «اذا رميت بالمعراض فخزق فكله» فاعتبر الخزق فى تحليل الصيد * قوله (والمتردية) هى التى تتردى من علو الى سفل فتموت من غير فرق بين أن تتردى من جبل أو بئر أو مدفن أو غيرها ، والتردى مأخوذ من الردى : وهو الهلاك وسواء تردّت بنفسها أو ردّاها غيرها * قوله (والنطيحة) هى فعيلة بمعنى مفعولة ، وهى التى تنطحها أخرى فتموت من دون تذكية . وقال قوم أيضا فعيلة بمعنى فاعلة ، لأن الدابتين تتناطحان فتموتان ، وقال نطيحة ولم يقل نطيح مع أنه قياس فعيل ، لأن لزوم الحذف مختص بما كان من هذا الباب صفة لموصوف مذكور فان لم يذكر ثبتت التاء للنقل من الوصفية الى الاسمية . وقرأ أبو ميسرة والمنطوحة * قوله (وما أكل السبع) أى ما افترسه ذو ناب كالأسد والنمر والذئب والضبع ونحوها ، والمراد هنا ما أكل منه السبع ، لأن ما أكله السبع كله قد فنى ، ومن العرب من يخص اسم السبع بالأسد ، وكانت العرب اذا أكل السبع شاة ، ثم خلصوها منه أكلوها ، وان ماتت ولم يذكوها . وقرأ الحسن وأبو حيوة السبع بسكون الباء ، وهى لغة لأهل نجد ، ومنه قول حسان فى عتبة بن أبى لهب :

من يرجع العام الى أهله * فما أكيل السبع بالراجع

وقرأ ابن مسعود وأكيلة السبع . وقرأ ابن عباس وأكيل السبع * قوله (الا ما ذكيتم) فى محل نصب على الاستثناء المتصل عند الجمهور ، وهو راجع على ما أدركت ذكاته من المذكورات سابقا ، وفيه حياة ، وقال المدنيون وهو المشهور من مذهب مالك ، وهو أحد قولى الشافعى انه اذا بلغ السبع منها الى ما لا حياة معه فانها لا تؤكل ، وحكاه فى الموطأ عن زيد بن ثابت ، واليه ذهب اسمعيل القاضى ، فيكون الاستثناء على هذا القول

منقطعا

منقطعا ، أى حرمت عليكم هـذه الأشياء ، لكن ماذكيتم فهو الذى يحل ولا يحرم ، والأول أولى . والذكاة فى كلام العرب الذبح ، قاله قطرب وغيره ، وأصل الذكاة فى اللغة : التمام ، أى تمام استكمال القوة ، والذكاء حدة القلب . والذكاء سرعة الفطنة ، والذكوة ماتذكى منه النار ، ومنه أذكيت الحرب والنار : أوقدتهما وذكاء اسم الشمس ، والمراد هنا الا ماأدركتم ذكاته على التمام ، والتذكية فى الشرع عبارة عن إنهار الدم ، وفرى الأوداج فى المذبوح والنحر فى المنحور والعقر فى غير المقدور مقرونا بالقصد لله ، وذكر اسمه عليه * وأما الآلة التى تقع بها الذكاة ، فذهب الجمهور إلى أن كل ماأنهر الدم . وفرى الأوداج فهو آلة للذكاة ماخلا السن والعظم ، وبهذا جاءت الأحاديث الصحيحة * قوله (وما ذبح على النصب) . قال ابن فارس : النصب حجر كان ينصب فيعبد و يصب عليه دماء الذبائح ، والنصائب حجارة تنصب حوالى شفير البئر فتجعل عضائد * وقيل النصب : جمع واحده نصاب ، كحمار وحمر . وقرأ طلحة بضم النون وسكون الصاد وروى عن أبى عمرو بفتح النون وسكون الصاد . وقرأ الجحدرى بفتح النون والصاد ، جعله اسما موحدا كالجبل والجمل ، والجمع أنصاب كالأجبال والاجمال . قال مجاهد هى حجارة كانت حوالى مكة يذبحون عليها . قال ابن جريج كانت العرب تذبح بمكة وتنضح بالدم ماأقبل من البيت ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة ، فلما جاء الاسلام قال المسلمون للنبى ﷺ نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال فأنزل الله (وما ذبح على النصب) * والمعنى والنية بذلك تعظيم النصب لأن الذبح عليها غير جائز ، ولهذا قيل ان على بمعنى اللام : أى لأجلها . قاله قطرب وهو على هذا داخل فيما أهل به لغير الله ، وخص بالذكر لتأكيد تحريمه ولدفع ما كانوا يظنونه من أن ذلك لتشريف البيت وتعظيمه * قوله (وأن تستقسموا بالأزلام) معطوف على ماقبله ، أى وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام * والأزلام قداح الميسر واحدها زلم قال الشاعر :

* بات يقاسيها غلام كالزلم * ليس براعى إبل ولاغنم * ولا بجزار على لحم وضم *

وقال آخر : فلئن جذيمة قتلت ساداتها * فنساؤها يضربن بالأزلام

والأزلام للعرب ثلاثة أنواع : أحدها مكتوب فيه افعل ، والآخر مكتوب فيه لاتفعل ، والثالث مهمل لاشىء عليه فيجعلها فى خريطة معه ، فاذا أراد فعل شىء أدخل يده وهى متشابهة فأخرج واحدامنها ، فان خرج الأول فعل ماعزم عليه ، وان خرج الثانى تركه ، وان خرج الثالث أعاد الضرب حتى يخرج واحد من الأولين ، وإنما قيل لهذا الفعل استقسام ، لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق وما يريدون فعله كما يقال استسقى : أى استدعى السقى ، فالاستقسام : طلب القسم والنصيب ، وجملة قداح الميسر عشرة . وقد قدمنا بيانها ، وكانوا يضربون بها فى المقامرة ، وقيل ان الأزلام كعاب فارس والروم التى يتقامرون بها ، وقيل هى الشطرنج ، وإنما حرم الله الاستقسام بالأزلام ، لأنه تعرض لدعوى علم الغيب وضرب من الكهانة * قوله (ذلكم فسق) إشارة إلى الاستقسام بالأزلام أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا * والفسق : الخروج عن الحد . وقد تقدم بيان معناه ، وفى هذا وعيد شديد ، لأن الفسق هو أشد الكفر لاماوقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الايمان والكفر * قوله (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) المراد اليوم الذى نزلت فيه الآية ، وهو يوم فتح مكة لثمان بقين من رمضان سنة تسع ، وقيل سنة ثمان ، وقيل المراد باليوم الزمان الحاضر ومايتصل به ، ولم يرد يوما معينا ، ويئس فيه لغتان يئس ييأس يأسا ، وأيس يأيس إياسا وإياسة . قاله النضر بن شميل ، أى حصل لهم اليأس من إبطال دينكم وأن يردوكم إلى دينهم كما كانوا يزعمون (فلا تخشوهم) أى لاتخافوا منهم أن يغلبوكم أو يبطلوا دينكم (واخشون) فأنا القادر على كل

شيء ان نصرتكم فلا غالب لكم ، وان خذلتكم لم يستطع غيرى أن ينصركم * قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) جعله كاملا غير محتاج إلى إكمال لظهوره على الأديان كلها وغلبته لها ولكمال أحكامه التى يحتاج المسلمون اليها من الحلال والحرام والمشتبه ، ووفى ماتضمنه الكتاب والسنة من ذلك ، ولايخفى مايستفاد من تقديم قوله (لكم) . قال الجمهور المراد بالاكمال هنا : نزول معظم الفرائض والتحليل والتحريم . قالوا وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآية الربا ، وآية الكلالة ونحوهما * والمراد باليوم المذكور هنا هو يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع سنة عشر ، هكذا ثبت فى الصحيح من حديث عمر بن الخطاب ، وقيل انها نزلت فى يوم الحج الأكبر * قوله (وأتممت عليكم نعمتى) باكمال الدين المشتمل على الأحكام و بفتح مكة وقهر الكفار و إياسهم عن الظهور عليكم كما وعدتكم بقولى (ولأتم نعمتى عليكم) * قوله (ورضيت لكم الاسلام دينا) أى أخبرتكم برضاى به لكم فانه سبحانه لم يزل راضيا لأمة نبيه ﷺ بالاسلام فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة ان حملناه على ظاهره ، ويحتمل أن يريد رضيت لكم الاسلام الذى أنتم عليه اليوم دينا باقيا الى انقضاء أيام الدنيا * ودينا منتصب على التمييز ، و يجوز أن يكون مفعولا ثانيا * قوله (فمن اضطر فى مخمصة) هذا متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض ، أى من دعته الضرورة (فى مخمصة) أى مجاعة إلى أكل الميتة ومابعدها من المحرمات * والخمص : ضمور البطن ، ورجل خميص وخمصان ، وامرأة خميصة وخمصانة ، ومنه أخمص القدم ، و يستعمل كثيرا فى الجوع ، قال الأعشى :

تبيتون فى المشتاء ملأى بطونكم * وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

قوله (غير متجانف لاثم) الجنف : الميل * والاثم : الحرام ، أى حال كون المضطر فى مخمصة غير مائل لاثم ، وهو بمعنى غير باغ ولا عاد ، وكل مائل فهو متجانف وجنف ، وقرأ النخعى ويحيى بن وثاب والسلمى متجنف (فان الله غفور رحيم) به لايؤاخذه بما ألجأته اليه الضرورة فى الجوع مع عدم ميله بأكل ماحرم عليه إلى الاثم ، بأن يكون باغيا على غيره أو متعديا لما دعت اليه الضرورة حسبما تقدم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبى أمامة : قال بعثنى رسول الله ﷺ إلى قومى أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شعائر الاسلام ، فبينانحن كذلك اذجاءوا بقصعة دم واجتمعوا عليها يأكلونها قالوا هلم ياصدى فكل ، قلت ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم ، لما أنزل الله عليه ، قالوا وماذاك ؟ قال فتلوت عليهم هذه الآية (حرمت عليكم الميتة) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (وماأهل لغير الله به) قال وما أهل للطواغيت به (والمنخنقة) قال التى تخنق فتموت (والموقوذة) قال التى تضرب بالخشبة فتموت (والمتردية) قال التى تتردى من الجبل فتموت (والنطيحة) قال الشاة التى تنطح الشاة (وماأكل السبع) يقول ماأخذ السبع (الا ماذكيتم) يقول ذبحتم من ذلك ، و به روح فكلوه (وماذبح على النصب) قال النصب أنصاب كانوا يذبحون و يهلون عليها (وأن تستقسموا بالأزلام) قال هى القداح كانوا يستقسمون بها فى الأمور (ذلكم فسق) يعنى من أكل ذلك كله فهو فسق . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال الردّاة التى تتردى فى البئر ، والمتردية التى تتردى من الجبل . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير فى قوله (وأن تستقسموا بالأزلام) قال : حصى بيض كانوا يضربون بها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى الآية قال : كانوا اذا أرادوا أمرا أو سفرا يعمدون الى قداح ثلاثة يكتبون على واحد منها أمرنى ، وعلى الآخر نهانى ، ويتركون الثالث محللا بينهما ليس عليه شيء ثم يجيلونها ، فان خرج الذى عليه

٤٥٦



أمرنى مضوا لأمرهم ، وان خرج الذى عليه نهانى كفوا ، وان خرج الذى ليس عليه شيء أعادوها ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) قال : يئسوا أن يرجعوا الى دينهم أبدا . وأخرج البيهقى عنه فى الآية قال : يقول يئس أهل مكة أن يرجعوا الى دينهم عبادة الأوثان أبدا (فلاتخشوهم) فى اتباع محمد (واخشون) فى عبادة الأوثان وتكذيب محمد ، فلما كان واقفا بعرفات نزل عليه جبريل وهو رافع يديه والمسلمون يدعون الله (اليوم أكملت لكم دينكم) يقول حلالكم وحرامكم فلم ينزل بعد هذا حلال ولا حرام (وأتممت عليكم نعمتى) قال : منتى ، فلم يحج معكم مشرك (ورضيت) يقول : اخترت (لكم الاسلام دينا) فمكث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أحدا وثمانين يوما ، ثم قبضه الله اليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه أكمل لهم الايمان فلا يحتاجون الى زيادة أبدا ، وقد أتمه فلا ينقص أبدا ، وقد رضيه فلا يسخطه أبدا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن طارق بن شهاب قال : قالت اليهود لعمر إنكم تقرءون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا ، قال : وأىّ آية ؟ قالوا (اليوم أكملت لكم دينكم) قال عمر : والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التى نزلت فيها ، نزلت على رسول ﷺ عشية عرفة فى يوم جمعة» . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فمن اضطرّ) يعنى الى ماحرّم مما سمى فى صدر هذه السورة (فى مخمصة) يعنى فى مجاعة (غير متجانف لاثم) يقول : غير متعمد لاثم .

يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ *

هذا شروع فى بيان ماأحله الله لهم بعد بيان ماحرمه الله عليهم ، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية * قوله (ماذا أحل لهم) أى شيء أحل لهم ، أو ماالذى أحل لهم من المطاعم اجمالا ومن الصيد ومن طعام أهل الكتاب ومن نسائهم * قوله (قل أحل لكم الطيبات) : هى مايستلذه آكله ويستطيبه مما أحله الله لعباده ، وقيل هى الحلال ، وقد سبق الكلام فى هذا ، وقيل الطيبات : الذبائح لأنها طابت بالتذكية ، وهو تخصيص للعام بغير مخصص ، والسبب والسياق لا يصلحان لذلك * قوله (وماعلمتم من الجوارح) هو معطوف على الطيبات بتقدير مضاف لتصحيح المعنى ، أى أحل لكم الطيبات وأحل لكم صيد ماعلمتم من الجوارح . وقرأ ابن عباس ومحمد ابن الحنفية (علمتم) بضم العين وكسر اللام ، أى علمتم من أمر الجوارح والصيد بها ، قال القرطبى ، وقد ذكر بعض من صنف فى أحكام القرآن أن الآية تدل على أن الاباحة تناولت ماعلمنا من الجوارح وهو يتضمن الكلب وسائر جوارح الطير ، وذلك يوجب اباحة سائر وجوه الانتفاع ، فدلّ على جواز بيع الكلب والجوارح والانتفاع بها بسائر وجوه المنافع الا ماخصه الدليل : وهو الأكل من الجوارح ، أى الكواسب من

الكلاب وسباع الطير . قال أجمعت الأمة على أن الكلب اذا لم يكن أسود وعلمه مسلم ولم يأ كل من صيده الذى صاده وأثر فيه بجرح أو تنيب وصاد بهمسلم وذكر اسم الله عند إرساله أن صيده صحيح يؤكل بلا خلاف ؛ فان انخرم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف ، فان كان الذى يصاد به غير كلب كالفهد وماأشبهه ، وكالبازى والصقر ونحوهما من الطير فجمهور الأمة على أن كل ماصاد بعد التعليم فهو جارح كاسب ، يقال جرح فلان واجترح : اذا اكتسب . ومنه الجارحة لأنه يكتسب بها ، ومنه اجتراح السيئات ، ومنه قوله تعالى ـ و يعلم ماجرحتم بالنهار ـ * وقوله ـ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ـ * قوله (مكلبين) حال * والمكلب : معلم الكلاب لكيفية الاصطياد ، وخص معلم الكلاب وان كان معلم سائر الجوارح مثله ؛ لأن الاصطياد بالكلاب هو الغالب ، ولم يكتف بقوله (وماعلمتم من الجوارح) مع أن التكليب هو التعليم ، لقصد التأكيد لما لابد منه من التعليم ، وقيل ان السبع يسمى كلبا فيدخل كل سبع يصاد به ، وقيل ان هذه الآية خاصة بالكلاب . وقد حكى ابن المنذر عن ابن عمر أنه قال مايصاد بالبزاة وغيرها من الطير فما أدركت ذكاته فهو لك حلال ، والا فلا تطعمه . قال ابن المنذر ، وسئل أبو جعفر عن البازى هل يحل صيده ؟ قال لا إلا أن تدرك ذكاته . وقال الضحاك والسدى (وما علمتم من الجوارح مكلبين) هى الكلاب خاصة ، فان كان الكلب الأسود بهيما فكره صيده الحسن وقتادة والنخعى . وقال أحمد ماأعرف أحدا يرخص فيه إذا كان بهيما ، و به قال ابن راهو يه ، فأما عامة أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب معلم ، واحتج من منع من صيد الكلب الأسود بقوله ﷺ « الكلب الأسود شيطان » . أخرجه مسلم وغيره ، والحق أنه يحل صيد كل مايدخل تحت عموم الجوارح من غير فرق بين الكلب وغيره و بين الأسود من الكلاب وغيره و بين الطير وغيره ، و يؤيد هذا أن سبب نزول الآية سؤال عدى بن حاتم عن صيد البازى كما سيأتى * قوله (تعلمونهن مما علمكم الله) الجملة فى محل نصب على الحال ، أى مما علمكم الله مما أدركتموه بما خلقه فيكم من العقل الذى تهتدون به الى تعليمها وتدريبها حتى تصير قابلة لامساك الصيد عند إرسالكم لها * قوله (فكلوا مما أمسكن عليكم) الفاء للتفريع ، والجملة متفرعة على ماتقدم من تحليل صيد ماعلموه من الجوارح ، ومن فى قوله (مما أمسكن عليكم) للتبعيض ، لأن بعض الصيد لا يؤكل كالجلد والعظم وما أكله الكلب ونحوه ، وفيه دليل على أنه لابد أن يمسكه على صاحبه فان أكل منه فانما أمسكه على نفسه كما فى الحديث الثابت فى الصحيح . وقد ذهب الجمهور الى أنه لايحل أكل الصيد الذى يقصده الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال . وقال عطاء بن أبى رباح والأوزاعى وهو مروى عن سلمان الفارسى وسعد بن أبى وقاص وأبى هريرة وعبد الله بن عمر ، وروى عن على وابن عباس والحسن البصرى والزهرى وربيعة ومالك والشافعى فى القديم أنه يؤكل صيده ، و يرد عليهم قوله تعالى (مما أمسكن عليكم) ، وقوله ﷺ لعدى بن حاتم « اذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ماأمسك عليك » وهو فى الصحيحين وغيرهما ، وفى لفظ لهما « فان أكل فلا تأكل فانى أخاف أن يكون أمسك على نفسه » . وأما ماأخرجه أبوداود باسناد جيد من حديث أبى ثعلبة : قال قال رسول الله ﷺ « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل وان أكل منه » . وقد أخرجه أيضا باسناد جيد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وأخرجه أيضا النسائى فقد جمع بعض الشافعية بين هذه الأحاديث بأنه ان أكل عقب ماأمسكه فانه يحرم لحديث عدى بن حاتم ، وان أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه الانتظار وجاع فأكل من الصيد لجوعه لا لكونه أمسكه على نفسه فانه لايؤثر ذلك ولا يحرم به الصيد ، وحملوا على ذلك حديث أبى ثعلبة الخشنى ، وحديث عمرو بن شعيب ، وهذا جمع حسن ؛ وقال آخرون انه اذا أكل

الكلب

الكلب منه حرم لحديث عدى ، وان أكل غيره لم يحرم للحديثين الآخرين ، وقيل يحمل حديث أبى ثعلبة على ما اذا أمسكه وخلاه ، ثم عاد فأكل منه .

وقد سلك كثير من أهل العلم طريق الترجيح ولم يسلكوا طريق الجمع لما فيها من البعد ، قالوا وحديث عدى بن حاتم أرجح لكونه فى الصحيحين . وقد قررت هذا المسلك فى شرحى للمنتقى بما يزيد الناظر فيه بصيرة * قوله ( واذكروا اسم الله عليه ) الضمير فى ( عليه ) يعود الى ( ماعلمتم ) أى سموا عليه عند إرساله ، أولما أمسكن عليكم ، أى سموا عليه إذا أردتم ذكاته . وقد ذهب الجمهور إلى وجوب التسمية عند إرسال الجارح ، واستدلوا بهذه الآية ، ويؤيده حديث عدى بن حاتم الثابت فى الصحيحين وغيرهما بلفظ « إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله ، واذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله » . وقال بعض أهل العلم ان المراد التسمية عند الأكل . قال القرطبى وهو الأظهر ، واستدلوا بالأحاديث التى فيها الارشاد الى التسمية وهذا خطأ فان النبى ﷺ قد وقت التسمية بارسال الكلب وارسال السهم ، ومشروعية التسمية عند الأكل حكم آخر ، ومسئلة غير هذه المسئلة ، فلا وجه لحمل ماورد فى الكتاب والسنة هنا على ماورد فى التسمية عند الأكل ، ولا ملجىء إلى ذلك ، وفى لفظ فى الصحيحين من حديث عدى « ان أرسلت كلبك وسميت فأخذ فكل » . وقد ذهب جماعة إلى أن التسمية شرط ، وذهب آخرون الى أنها سنة فقط ، وذهب جماعة الى أنها شرط على الذاكر لا الناسى ، وهذا أقوى الأقوال وأرجحها * قوله ( واتقوا الله ان الله سريع الحساب ) أى حسابه سبحانه سريع اتيانه ، وكل آت قريب * قوله ( اليوم أحل لكم الطيبات ) هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى ، وهى قوله ( أحل لكم الطيبات ) . وقد تقدم بيان الطيبات * قوله ( وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ) الطعام : اسم لما يؤكل ، ومنه الذبائح ، وذهب أكثر أهل العلم الى تخصيصه هنا بالذبائح ، وفى هذه الآية دليل على أن جميع طعام أهل الكتب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وان كانوا لا يذكرون على ذبائحهم اسم الله ، وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله ــ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ــ * وظاهر هذا أن ذبائح أهل الكتاب حلال ، وان ذكر اليهودى على ذبيحته اسم عزير ، وذكر النصرانى على ذبيحته اسم المسيح ، وإليه ذهب أبو الدرداء وعبادة ابن الصامت وابن عباس والزهرى وربيعة والشعبى ومكحول . وقال على وعائشة وابن عمر إذا سمعت الكتابى يسمى غير الله فلا تأكل ، وهو قول طاوس ، والحسن ، وتمسكوا بقوله تعالى ــ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ــ ويدل عليه أيضا قوله ــ وما أهل لغير الله به ــ . وقال مالك انه يكره ولا يحرم ، فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير الله ، وأما مع عدم العلم فقد حكى الكيا الطبرى وابن كثير الاجماع على حلها لهذه الآية ، ولما ورد فى السنة من أكله ﷺ من الشاة المصلية التى أهدتها إليه اليهودية ، وهو فى الصحيح ، وكذلك الجراب الشحم الذى أخذه بعض الصحابة من خيبر وعلم بذلك النبى ﷺ وهو فى الصحيح أيضا ، وغير ذلك * والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود والنصارى ، وأما المجوس ، فذهب الجمهور الى أنها لاتؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم ، وخالف فى ذلك أبو ثور ، وأنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال أحمد بن حنبل أبو ثور كاسمه يعنى فى هذه المسئلة ، وكأنه تمسك بما يروى عن النبى ﷺ مرسلا أنه قال فى المجوس سنوا بهم سنة أهل الكتاب ولم يثبت بهذا اللفظ ، وعلى فرض أن له أصلا ففيه زيادة تدفع ماقاله ، وهى قوله غير آكلى ذبائحهم ولا ناكحى نسائهم . وقد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لاخبرة له بفن الحديث من المفسرين والفقهاء ولم يثبت الأصل ولا الزيادة بل الذى ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر ،

وأما بنو تغلب فكان على بن أبى طالب ينهى عن ذبائحهم لأنهم عرب ، وكان يقول انهم لم يتمسكوا بشىء من النصرانية الا بشرب الخمر ، وهكذا سائر العرب المتنصرة كتنوخ ، وجذام ، ولخم ، وعاملة ، ومن أشبههم . قال ابن كثير : وهو قول غير واحد من السلف والخلف . وروى عن سعيد بن المسيب والحسن البصرى أنهما كانا لا يريان بأسا بذبيحة نصارى بنى تغلب . وقال القرطبى . وقال جمهور الأمة ان ذبيحة كل نصرانى حلال سواء كان من بنى تغلب أو من غيرهم ، وكذلك اليهود . قال ولا خلاف بين العلماء أن مالا يحتاج الى ذكاة كالطعام يجوز أكله * قوله (وطعامكم حل لهم) أى وطعام المسلمين حلال لأهل الكتاب ، وفيه دليل على أنه يجوز للمسلمين أن يطعموا أهل الكتاب من ذبائحهم ، وهذا من باب المكافأة والمجازاة وإخبار المسلمين بأن ما يأخذونه منهم من أعراض الطعام حلال لهم بطريق الدلالة الالتزامية * قوله (والمحصنات من المؤمنات) اختلف فى تفسير المحصنات هنا ، فقيل العفائف ، وقيل الحرائر . وقرأ الشعبى بكسر الصاد ، وبه قرأ الكسائى . وقد تقدم الكلام فى هذا مستوفى فى البقرة والنساء ، والمحصنات مبتدأ ومن المؤمنات وصف له والخبر محذوف ، أى حل لكم ، وذكرهن هنا توطئة وتمهيدا لقوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) * والمراد بهن الحرائر دون الاماء هكذا قال الجمهور ، وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف أن هذه الآية تعم كل كتابية حرة أو أمة ، وقيل المراد بأهل الكتاب هنا الاسرائيليات ، وبه قال الشافعى : وهو تخصيص بغير مخصص . وقال عبد الله بن عمر لا تحل النصرانية : قال ولا أعلم شركا أكبر من أن تقول ربها عيسى . وقد قال الله ـ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ـ الآية ، ويجاب عنه بأن هذه الآية مخصصة للكتابيات من عموم المشركات فيبنى العام على الخاص . وقد استدل من حرم نكاح الاماء الكتابيات بهذه الآية لأنه حملها على الحرائر ، وبقوله تعالى (فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) . وقد ذهب الى هذا كثير من أهل العلم وخالفهم من قال ان الآية تعم أو تخص العفائف كما تقدم * والحاصل أنه يدخل تحت هذه الآية الحرة العفيفة من الكتابيات على جميع الأقوال الا على قول ابن عمر فى النصرانية ويدخل تحتها الحرة التى ليست بعفيفة والأمة العفيفة ، على قول من يقول انه يجوز استعمال المشترك فى كلا معنييه ، وأما من لم يجوز ذلك فان حمل المحصنات هنا على الحرائر لم يقل بجواز نكاح الأمة عفيفة كانت أو غير عفيفة الا بدليل آخر ؛ ويقول بجواز نكاح الحرة عفيفة كانت أو غير عفيفة ، وان حمل المحصنات هنا على العفائف قال بجواز نكاح الحرة العفيفة والأمة العفيفة دون غير العفيفة منهما * قوله (اذا آتيتموهن أجورهن) : أى مهورهن وجواب اذا محذوف ، أى فهن حلال أو هى ظرف لخبر المحصنات المقدر ، أى حل لكم * قوله (محصنين) منصوب على الحال ، أى حال كونكم أعفاء بالنكاح ، وكذا قوله (غير مسافحين) منصوب على الحال من الضمير فى محصنين أو صفة لمحصنين ، والمعنى غير مجاهرين بالزنا * قوله (ولا متخذى أخدان) معطوف على (غير مسافحين) أو على (مسافحين) . (ولا) مزيدة للتأكيد ، والخدن يقع على الذكر والأنثى ؛ أى لم يتخذوا معشوقات ، فقد شرط الله فى الرجال العفة وعدم المجاهرة بالزنا وعدم اتخاذ أخدان : كما شرط فى النساء أن يكن محصنات (ومن يكفر بالايمان) أى بشرائع الاسلام (فقد حبط عمله) أى بطل (وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقرأ ابن السميفع فقد حبط بفتح الباء اه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن أبى رافع أن النبى ﷺ أمره بقتل الكلاب فى الناس ، فقالوا يارسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها ، فسكت النبى ﷺ فأنزل الله (يسألونك ماذا أحل لهم) الآية . وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج أيضا عن محمد بن كعب القرظى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير

أن عدى بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين سألا رسول الله ﷺ فقالا يارسول الله انا قوم نصيد بالكلاب والبزاة ، فنزلت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبي أن عدى بن حاتم الطائى أتى رسول الله ﷺ فسأله فذكر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (وماعلمتم من الجوارح مكلبين) قال : هى الكلاب المعلمة ، والبازى والجوارح : يعنى الكلاب والفهود والصقور وأشباهها . وأخرج ابن جرير عنه قال : آية المعلم أن يمسك صيده فلا يأكل منه حتى يأتى صاحبه . وأخرج عنه أيضا قال : اذا أكل الكلب فلا تأكل ، فانما أمسك على نفسه . وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه ، وزاد : واذا أكل الصقر فلا تأكل ، لأن الكلب تستطيع أن تضرب والصقر لاتستطيع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عنه فى قوله (وطعام الذين أوتوا الكتاب) قال : ذبائحهم ، وفى قوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) قال حلّ لكم (اذا آتيتموهنّ أجورهنّ) يعنى مهورهنّ (محصنين) يعنى تنكحونهنّ بالمهر والبينة (غير مسافحين) غير متعالين بالزنا (ولامتخذى أخدان) يعنى يسرّون بالزنا . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله (والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) قال أحل الله لنا محصنتين محصنة مؤمنة ومحصنة من أهل الكتاب ، نساؤنا عليهم حرام ونساؤهم لنا حلال . وأخرج ابن جرير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « نتزوّج نساء أهل الكتاب ولايتزوّجون نساءنا » . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير عن عمر بن الخطاب قال : المسلم يتزوّج النصرانية ولايتزوّج النصرانى المسلمة . وأخرج الطبرانى والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : انما أحلت ذبائح اليهود والنصارى من أجل أنهم آمنوا بالتوراة والانجيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) قال الحرائر . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : العفائف .

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ ٱلْغَائِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *

قوله (اذا قمتم) اذا أردتم القيام تعبيرا بالمسبب عن السبب كما فى قوله ـ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ـ وقد اختلف أهل العلم فى هذا الأمر عند إرادة القيام الى الصلاة ، فقالت طائفة هو عام فى كل قيام اليها سواء كان القائم متطهرا أو محدثا ، فانه ينبغى له اذاقام الى الصلاة أن يتوضأ ، وهومروىّ عن علىّ وعكرمة وقال ابن سيرين كان الخلفاء يتوضئون لكل صلاة ، وقالت طائفة أخرى : انهذا الأمر خاص بالنبى ﷺ وهوضعيف ، فان الخطاب للمؤمنين والأمر لهم ، وقالت طائفة : الأمر للندب طلبا للفضل ، وقال آخرون : ان الوضوء لكل صلاة كان فرضا عليهم بهذه الآية ، ثم نسخ فى فتح مكة ، وقال جماعة : هذا الأمر خاص بمن كان محدثا ، وقال آخرون : المراد اذاقمتم من النوم الى الصلاة ، فيعم الخطاب كل قائم من نوم . وقدأخرج مسلم وأحمد وأهل السنن عن بريدة قال : كان النبى ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يارسول الله انك فعلت شيئا لم تكن تفعله ،

فقال : عمدا فعلته ياعمر ؟ وهو مروى من طرق كثيرة بألفاظ متفقة فى المعنى . وأخرج البخارى وأحمد وأهل السنن عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى ﷺ يتوضأ عند كل صلاة قال قلت فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال كنا نصلى الصلوات بوضوء واحد مالم نحدث ، فتقرر بما ذكر أن الوضوء لايجب الا على المحدث ، وبه قال جمهور أهل العلم وهو الحق * قوله ( فاغسلوا وجوهكم ) الوجه فى اللغة مأخوذ من المواجهة ، وهو عضو مشتمل على أعضاء ، وله طول وعرض ، فحدّه فى الطول من مبتدإ سطح الجبهة الى منتهى اللحيين ، وفى العرض من الأذن الى الأذن ، وقد ورد الدليل بتخليل اللحية ، واختلف العلماء فى غسل ما استرسل ، والكلام فى ذلك مبسوط فى مواطنه ، وقد اختلف أهل العلم أيضا : هل يعتبر فى الغسل الدلك باليد أم يكفى امرار الماء ، والخلاف فى ذلك معروف ، والمرجع اللغة العربية فان ثبت فيها أن الدلك داخل فى مسمى الغسل كان معتبرا والا فلا ، قال فى شمس العلوم : غسل الشيء غسلا اذا أجرى عليه الماء ودلكه انتهى . وأما المضمضة والاستنشاق ، فاذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم والأنف ، فقد ثبت غسلها بالسنة الصحيحة ، والخلاف فى الوجوب وعدمه معروف . وقد أوضحنا ماهو الحق فى مؤلفاتنا * قوله (وأيديكم الى المرافق) الى الغاية ، وأما كون مابعدها يدخل فيما قبلها فمحل خلاف . وقد ذهب سيبويه وجماعة الى أن مابعدها ان كان من نوع ماقبلها دخل والا فلا ، وقيل انها هنا بمعنى مع ، وذهب قوم الى أنها تفيد الغاية مطلقا ، وأما الدخول وعدمه فأمر يدور مع الدليل ، وقد ذهب الجمهور الى أن المرافق تغسل ، واستدلوا بما أخرجه الدارقطنى والبيهقى من طريق القاسم بن محمد بن عبدالله بن محمد ابن عقيل عن جدّه عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ اذا توضأ أدار الماء على مرفقيه ، ولكن القاسم هذا متروك وجدّه ضعيف * قوله (وامسحوا برءوسكم) قيل الباء زائدة ، والمعنى امسحوا رءوسكم ، وذلك يقتضى تعميم المسح لجميع الرأس ، وقيل هى للتبعيض ، وذلك يقتضى أنه يجزىء مسح بعضه واستدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى فى التيمم ( فامسحوا بوجوهكم ) ولا يجزىء مسح بعض الوجه اتفاقا ، وقيل انها للالصاق ، أى ألصقوا أيديكم برءوسكم ، وعلى كل حال : فقد ورد فى السنة المطهرة مايفيدأنه يكفى مسح بعض الرأس كما أوضحناه فى مؤلفاتنا ، فكان هذا دليلا على المطلوب غير محتمل كاحتمال الآية على فرض أنها محتملة ، ولاشك أن من أمرغيره بأن يمسح رأسه كان ممتثلا بفعل مايصدق عليه مسمى المسح ، وليس فى لغة العرب مايقتضى أنه لابد فى مثل هذا الفعل من مسح جميع الرأس ، وهكذا سائر الأفعال المتعدية نحو اضرب زيدا أو اطعنه أو ارجمه ، فانه يوجد المعنى العربى بوقوع الضرب أو الطعن أو الرجم على عضو من أعضائه ، ولايقول قائل من أهل اللغة أو من هو عالم بها انه لايكون ضاربا الا بايقاع الضرب على كل جزء من أجزاء زيد ، وكذلك الطعن والرجم وسائر الأفعال : فاعرف هذا حتى يتبين لك ماهو الصواب من الأقوال فى مسح الرأس ، فان قلت يلزم مثل هذا فى غسل الوجه واليدين والرجلين ، قلت ملتزم لولا البيان من السنة فى الوجه والتحديد بالغاية فى اليدين والرجلين بخلاف الرأس ، فانه ورد فى السنة مسح الكل ومسح البعض * قوله (وأرجلكم الى الكعبين) . قرأ نافع بنصب الأرجل ، وهى قراءة الحسن البصرى والأعمش وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة بالجر ، وقراءة النصب تدل على أنه يجب غسل الرجلين ، لأنها معطوفة على الوجه والى هنا ذهب جمهور العلماء ، وقراءة الجر تدل على أنه يجوز الاقتصار على مسح الرجلين لأنها معطوفة على الرأس ، واليه ذهب ابن جرير الطبرى وهو مروىّ عن ابن عباس . قال ابن العربى اتفقت الأمة على وجوب غسلهما ، وماعلمت من ردّ ذلك الا الطبرى من فقهاء المسلمين ، والرافضة من غيرهم ، وتعلق الطبرى بقراءة الجرّ قال القرطبى : قد روى عن ابن عباس أنه قال : الوضوء غسلتان ومسحتان ، قال وكان عكرمة يمسح رجليه ،

وقال

وقال ليس فى الرجلين غسل ، انما نزل فيهما المسح ، وقال عامر الشعبى نزل جبريل بالمسح ، قال وقال قتادة افترض الله مسحتين وغسلتين ، قال وذهب ابن جرير الطبرى الى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح ، وجعل القراءتين كالروايتين ، وقوّاه النحاس ، ولكنه قد ثبت فى السنة المطهرة بالأحاديث الصحيحة من فعله ﷺ وقوله غسل الرجلين فقط ، وثبت عنه أنه « قال ويل للأعقاب من النار » وهو فى الصحيحين وغيرهما ، فأفاد وجوب غسل الرجلين ، وأنه لايجزئ مسحهما ، لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب ويخطىء ما أخطأ ، فلو كان مجزئا لما قال ويل للأعقاب من النار ، وقد ثبت عنه أنه قال بعد أن توضأ وغسل رجليه : هذا وضوء لايقبل الله الصلاة الابه . وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره أن رجلا توضأ فترك على قدمه مثل موضع الظفر . فقال : له ارجع فأحسن وضوءك . وأما المسح على الخفين فهو ثابت بالأحاديث المتواترة ۞ وقوله ( إلى الكعبين ) الكلام فيه كالكلام فى قوله ( إلى المرافق ) ، وقد قيل فى وجه جمع المرافق ، وتثنية الكعاب انه لما كان فى كل رجل كعبان ولم يكن فى كل يد إلا مرفق واحد ثنيت الكعاب تنبيها على أن لكل رجل كعبين ، بخلاف المرافق فانها جمعت ، لأنه لما كان فى كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره ، ذكر معنى هذا ابن عطية . وقال الكواشى ثنى الكعبين ، وجمع المرافق لنفى توهم أن فى كل واحدة من الرجلين كعبين ، وإنما فى كل واحدة كعب واحد له طرفان من جانبى الرجل ، بخلاف المرفق فهى أبعد عن الوهم انتهى

وبقى من فرائض الوضوء النية والتسمية ولم يذكرا فى هذه الآية ، بل وردت بهما السنة ، وقيل ان فى هذه الآية مايدلّ على النية ، لأنه لما قال ـ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ـ كان تقدير الكلام فاغسلوا وجوهكم لها ، وذلك هو النية المعتبرة ۞ قوله (وان كنتم جنبا فاطهروا) أى فاغتسلوا بالماء . وقد ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود إلى أن الجنب لايتيمم ألبتة بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالا بهذه الآية ، وذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنابة مع عدم الماء ، وهذه الآية هى للواجد ؛ على أن التطهر هو أعمّ من الحاصل بالماء أو بما هو عوض عنه مع عدمه ، وهو التراب . وقد صح عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ماقاله الجمهور للأحاديث الصحيحة الواردة فى تيمم الجنب مع عدم الماء . وقد تقدم تفسير الجنب فى النساء ۞ قوله (وان كنتم مرضى أوعلى سفر أوجاء أحد منكم من الغائط ) قد تقدم تفسير هذا فى سورة النساء مستوفى ، وكذلك تقدم الكلام على ملامسة النساء وعلى التيمم وعلى الصعيد ، ومن فى قوله ( منه ) لابتداء الغاية ، وقيل للتبعيض ، قيل ووجه تكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام فى أنواع الطهارة ( مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ) أى مايريد بأمركم بالطهارة بالماء أو بالتراب التضييق عليكم فى الدين ، ومنه قوله تعالى ـ وماجعل عليكم فى الدين من حرج ـ ثم قال ( ولكن يريد ليطهركم ) من الذنوب ، وقيل من الحدث الأصغر والأكبر ( وليتمّ نعمته عليكم ) أى بالترخيص لكم فى التيمم عند عدم الماء أو بما شرعه لكم من الشرائع التى عرضكم بها للثواب (لعلكم تشكرون) نعمته عليكم فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين .

وقد أخرج مالك والشافعى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن زيد بن أسلم فى قوله ( اذا قمتم الى الصلاة ) قال قمتم من المضاجع ، يعنى النوم . وأخرج ابن جرير عن السدّى مثله . وأخرج ابن جرير أيضا عنه يقول : اذا قمتم وأنتم على غير طهر . وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن فى قوله (فاغسلوا وجوهكم) قال ذلك الغسل الدلك . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير عن أنس أنه قيل له ان الحجاج خطبنا فقال اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برءوسكم وأرجلكم ، وأنه ليس شىء من ابن آدم أقرب إلى الخبث من قدميه فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما . قال أنس صدق الله وكذب الحجاج

V 15-14



قال الله (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) وكان أنس اذا مسح قدميه بلهما . وأخرج سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبى ليلى : قال اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على غسل القدمين . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (من حرج) قال من ضيق . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله (وليتم نعمته عليكم) قال تمام : النعمة دخول الجنة ، لم يتم نعمته على عبد لم يدخل الجنة .

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *

(نعمة الله) قيل هى الاسلام * والميثاق : العهد ، قيل المراد به هنا : ماأخذه على بنى آدم كما قال ـ واذ أخذ ربك من بنى آدم ـ الآية . قال مجاهد وغيره ونحن وان لم نذكره فقد أخبرنا الله به ، وقيل هو خطاب لليهود ، والعهد : ماأخذه عليهم فى التوراة . وذهب جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم الى أنه العهد الذى أخذه النبى ﷺ ليلة العقبة عليهم ، وهوالسمع والطاعة فى المنشط والمكره وأضافه تعالى الى نفسه ، لأنه عن أمره وإذنه كما قال ـ انما يبايعون الله ـ ، وبيعة العقبة مذكورة فى كتب السير ، وهـذا متصل بقوله ـ أوفوا بالعقود ـ * قوله (اذ قلتم سمعنا وأطعنا) أى وقت قولكم هذا القول ، وهذامتعلق بواثقكم ، أو بمحذوف وقع حالا ، أى كائنا هذا الوقت * (وذات الصدور) : ماتخفيه الصدور لكونها مختصة بها لايعلمها أحد ، ولهذا أطلق عليها ذات التى بمعنى الصاحب ، واذا كان سبحانه عالما بها فكيف بما كان ظاهرا جليا * قوله (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين) قد تقدم تفسيرها فى النساء ، وصيغة المبالغة فى (قوامين) تفيد أنهم مأمورون بأن يقوموا بها أتم قيام (لله) أى لأجله تعظيما لأمره وطمعا فى ثوابه * والقسط : العـدل . وقد تقدم الكلام على قوله (يجرمنكم) مستوفى أى لايحملنكم بغض قوم على ترك العدل وكتم الشهادة (اعدلوا هو) أى العـدل المدلول عليه بقوله اعدلوا (أقرب للتقوى) التى أمرتم بها غير مرة : أى أقرب لأن تتقوا الله ، أو لأن تتقوا النار * قوله (لهم مغفرة وأجر عظيم) هـذه الجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لقوله (وعـد) على معنى وعدهم أن لهم مغفرة ، أو وعدهم مغفرة فوقعت الجملة موقع المفرد فأغنت عنه ، ومثله قول الشاعر :

وجدنا الصالحين لهم جزاء * وجنات وعينا سلسبيلا

قوله (أصحاب الجحيم) أى ملابسوها * قوله (إذ هم قوم) ظرف لقوله (اذكروا) أو للنعمة أو لمحذوف وقع حالا منها (أن يبسطوا) أى بأن يبسطوا * وقوله (فكف) معطوف على قوله (هم) وسيأتى بيان سبب نزول هذه الآية ، وبه يتضح المعنى .

وقد أخرج ابن جرير والطبرانى فى الكبير عن ابن عباس فى قوله (إذ قلتم سمعنا وأطعنا) يعنى

حين

Ⅴ 15-17



حين بعث الله النبي ﷺ وأنزل عليه الكتاب قالوا : آمنا بالنبي والكتاب وأقررنا بما في التوراة فذكرهم الله ميثاقه الذي أقرّوا به على أنفسهم وأمرهم بالوفاء به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد : قال النعم : الآلاء وميثاقه الذي واثقهم به ، قال الذي واثق به بني آدم في ظهر آدم عليه السلام . وأخرج ابن جرير عن عبدالله بن كثير في قوله (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط) الآية : قال نزلت في يهود خيبر ذهب إليهم رسول الله ﷺ يستفتيهم في دية فهموا أن يقتلوه ، فذلك قوله (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا) الآية . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ نزل منزلا فتفرّق الناس في العضاة يستظلون تحتها ، فعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابيّ إلى سيفه فأخذه فسلّه ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال من يمنعك مني ؟ قال الله . قال الأعرابي مرتين أو ثلاثا من يمنعك مني ؟ والنبي ﷺ يقول : الله ، فشام الأعرابي السيف ، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابي وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه . قال معمر وكان قتادة يذكر نحو هذا ، ويذكر أن قوما من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبي ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي ، ويتأوّل (اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم) الآية . وأخرج الحاكم وصححه عنه بنحوه ، وذكر أن اسم الرجل غورث بن الحارث وأنه لما قال النبي ﷺ : الله سقط السيف من يده ، فأخذه النبي ﷺ وقال من يمنعك مني ؟ قال كن خير آخذ . قال فشهد أن لا إله إلا الله وأخرجه أيضا ابن اسحق وأبو نعيم في الدلائل عنه . وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس أن بني النضير هموا أن يطرحوا حجرا على النبي ﷺ ومن معه فجاء جبريل فأخبره بما هموا ، فقام ومن معه ، فنزلت (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ همّ قوم) الآية ، وروى نحو هذا من طرق عن غيره ، وقصة الأعرابي وهو غورث المذكور ثابتة في الصحيح .

وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۞ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۞

قوله (ولقد أخذ الله) كلام مستأنف يتضمن ذكر بعض ماصدر من بني اسرائيل من الخيانة . وقد تقدّم بيان الميثاق الذي أخذه الله عليهم . واختلف المفسرون في كيفية بعث هؤلاء النقباء بعد الاجماع منهم على أن النقيب كبير القوم العالم بأمورهم الذي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها ۞ والنقاب : الرجل العظيم الذي هو في الناس على هذه الطريقة ، ويقال نقيب القوم لشاهدهم وضمينهم ۞ والنقيب : الطريق

فى الجبل هـذا أصله ، وسمى به نقيب القوم لأنه طريق الى معرفة أمورهم * والنقيب : أعلى مكانا من العريف ، فقيـل المراد ببعث هؤلاء النقباء أنهم بعثوا أمناء على الاطلاع على الجبارين والنظر فى قوتهم ومنعتهم فساروا ليختبروا حال من بها ويخبروا بذلك فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة وظنوا أنهم لاقبل لهم بها فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بنى اسرائيل وأن يعلموا به موسى ، فلما انصرفوا الى بنى اسرائيل خان منهم عشرة فأخبروا قراباتهم ففشا الخبر حتى بطل أمر الغزو وقالوا اذهب أنت وربك فقاتلا ، وقيـل ان هؤلاء النقباء كفل كل واحـد منهم على سبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله ، وهـذا معنى بعثهم ، وسيأتى ذكر بعض ماقاله جماعة من السلف فى ذلك * قوله (وقال الله انى معكم) أى قال ذلك لبنى اسرائيل ، وقيل للنقباء * والمعنى انى معكم بالنصر والعون ، واللام فى قوله (لئن أقمتم الصلاة) هى الموطئة للقسم المحذوف ، وجوابه (لأكفرنّ) وهو سادّ مسـدّ جواب الشرط * والتعزير : التعظيم والتوقير ، وأنشد أبو عبيدة :

وكم من ماجد لهم كريم * ومن ليث يعزر فى الندىّ

أى يعظم ويوقر ، ويطلق التعزير على الضرب والردّ ، يقال عزّرت فلانا : اذا أدّبته ورددته عن القبيح ، فقوله (وعزّرتموهم) أى عظمتموهم على المعنى الأوّل ، أو رددتم عنهم أعداءهم ومنعتموهم على الثانى * قوله (وأقرضتم الله قرضا حسنا) أى أنفقتم فى وجوه الخير (وقرضا) مصدر محذوف الزوائد كقوله تعالى ـ وأنبتها نباتا حسنا ـ أو مفعول ثان لأقرضتم * والحسن : قيـل هو ماطابت به النفس ، وقيـل ماابتغى به وجه الله ، وقيل الحلال * قوله (فمن كفر بعـد ذلك) أى بعـد الميثاق أو بعـد الشرط المذكور (فقد ضـلّ سواء السبيل) أى أخطأ وسط الطريق * قوله (فبما نقضهم ميثاقهم) الباء سببية ومازائدة ، أى فبسبب نقضهم ميثاقهم (لعناهم) : أى طردناهم وأبعدناهم (وجعلنا قلوبهم قاسية) : أى صلبة لاتعى خيرا ولاتعقله ، وقرأ حمزة والكسائى قسية بتشديد الياء من غير ألف ، وهى قراءة ابن مسعود والنخعى ويحيى بن وثاب ، يقال درهم قسىّ مخفف السين مشدّد الياء ، أى زائف ، ذكر ذلك أبو عبيد ، وقال الأصمعى وأبو عبيدة درهم قسىّ كأنه معرّب قاس . وقرأ الأعمش قسية بتخفيف الياء . وقرأ الباقون (قاسية) (يحرّفون الكلم عن مواضعه) الجملة مستأنفة لبيان حالهم أوحالية ، أى يبدّلونه بغيره أو يتأوّلونه على غير تأويله . وقرأ السلمى والنخعى الكلام * قوله (ولاتزال تطلع على خائنة منهم) أى لاتزال يامحمد تقف على خائنة منهم ، والخائنة : الخيانة ، وقيل هو نعت لمحذوف ، والتقدير فرقة خائنة ، وقد تقع للمبالغة نحو علامة ونسابة اذا أردت المبالغة فى وصفه بالخيانة ، وقيـل خائنة معصية * قوله (إلا قليلا منهم) استثناء من الضمير فى منهم (فاعف عنهم واصفح) قيل هـذا منسوخ بآية السيف ، وقيل خاص بالمعاهدين * قوله (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) الجار والمجرور متعلق بقوله (أخذنا) والتقديم للاهتمام ، والتقدير وأخذنا من الذين قالوا انا نصارى ميثاقهم ، أى فى التوحيد والايمان بمحمد ﷺ وبما جاء به . قال الأخفش : هو كقولك أخذت من زيد ثوبه ودرهمه ، فرتبة الذين بعد أخذنا وقال الكوفيون بخلافه ، وقيل ان الضمير فى قوله (ميثاقهم) راجع الى بنى إسرائيل ، أى أخذنا من النصارى مثل ميثاق المذكورين قبلهم من بنى إسرائيل ، وقال (من الذين قالوا انا نصارى) ولم يقل ومن النصارى للايذان بأنهم كاذبون فى دعوى النصرانيـة وأنهم أنصار الله * قوله (فنسوا حظا مما ذكروا به) أى نسوا من الميثاق المأخوذ عليهم نصيبا وافرا عقب أخذه عليهم (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء) أى ألصقنا ذلك بهم ، مأخوذ من الغراء : وهو مايلصق الشىء بالشىء كالصمغ وشبهه ، يقال غرى بالشىء يغرى غريا

بفتح الغين مقصورا ، وغراء بكسرها ممدودا ، أى أولع به حتى كأنه صار ملتصقا به ، ومثل الاغراء التحريش وأغريت الكلب : أى أولعته بالصيد ، والمراد بقوله (بينهم) اليهود والنصارى لتقدم ذكرهم جميعا ، وقيل بين النصارى خاصة ، لأنهم أقرب مذكور ، وذلك لأنهم افترقوا الى اليعقوبية والنسطورية والملكانية وكفر بعضهم بعضا وتظاهروا بالعداوة فى ذات بينهم ، قال النحاس : وما أحسن ما قيل فى معنى (أغرينا بينهم العداوة والبغضاء) ان الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وابغاضهم ، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبتها وابغاضها * قوله (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) تهديد لهم ، أى سيلقون جزاء نقض الميثاق .

وقد أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل) قال أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره (و بعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) أى كفيلا كفلوا عليهم بالوفاء لله بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (اثنى عشر نقيبا) قال من كل سبط من بنى اسرائيل رجال أرسلهم موسى الى الجبارين فوجدوهم يدخل فى كم أحدهم اثنان منهم ، ولا يحمل عنقود عنبهم الا خمسة أنفس منهم فى خشبة ، و يدخل فى شطر الرمانة اذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة ، فرجع النقباء كلهم ينهى سبطه عن قتالهم الا يوشع بن نون وكالب بن يافنة فانهما أمرا الأسباط بقتال الجبارين ومجاهدتهم فعصوهما وأطاعوا الآخرين ، فهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما ، فتاهت بنو اسرائيل أربعين سنة يصبحون حيث أمسوا و يمسون حيث أصبحوا فى تيههم ذلك فضرب موسى الحجر لكل سبط عينا حجرا لهم يحملونه معهم ، فقال لهم موسى اشربوا ياحمير ، فنهاه الله عن سبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (اثنى عشر نقيبا) قال هم من بنى اسرائيل بعثهم موسى لينظروا الى المدينة فجاءوا بحبة من فاكهتهم وقر رجل فقال اقدروا قوة قوم و بأسهم ، وهذه فاكهتهم فعند ذلك فتنوا ، فقالوا لانستطيع القتال (فاذهب أنت وربك فقاتلا) وقد ذكر ابن اسحق أسماء هؤلاء الأسباط ، وأسماؤهم مذكورة فى السفر الرابع من التوراة ، وفيه مخالفة لما ذكره ابن اسحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وعزرتموهم) قال : أعنتموهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (وعزرتموهم) قال : نصرتموهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فبما نقضهم ميثاقهم) قال : هو ميثاق أخذه الله على أهل التوراة فنقضوه . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (يحرفون الكلم عن مواضعه) يعنى حدود الله ، يقولون ان أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه ، وان خالفكم فاحذروا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (ونسوا حظا مما ذكروا به) قال : نسوا الكتاب . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (ولاتزال تطلع على خائنة منهم) قال : هم يهود مثل الذى هموا به من النبى ﷺ يوم دخل عليهم حائطهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (ولاتزال تطلع على خائنة منهم) قال : كذب وفجور ، وفى قوله (فاعف عنهم واصفح) قال : لم يؤمر يومئذ بقتالهم ، فأمره الله أن يعفو عنهم و يصفح ، ثم نسخ ذلك فى براءة فقال ـ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ـ الآية . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن ابرهيم النخعى فى قوله (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) قال : أغرى بعضهم ببعض بالخصومات والجدال فى الدين .

يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ

سُبُلَ السَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٭

الألف واللام فى الكتاب للجنس والخطاب لليهود والنصارى (قدجاءكم رسولنا) أى محمد ﷺ حال كونه (يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) المنزل عليكم ، وهو التوراة والانجيل : كآية الرجم وقصة أصحاب السبت الممسوخين قردة (و يعفوا عن كثير) مماتخفونه ، فيترك بيانه لعدم اشتماله على مايجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية ، فان مالم يكن كذلك لافائدة تتعلق ببيانه الا مجرد افتضاحكم ، وقيل المعنى انه يعفو عن كثير فيتجاوزه ولا يخبركم به ، وقيل يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذهم بما يصدر منهم والجملة فى محل نصب عطفا على الجملة الحالية : أعنى قوله (يبين لكم) ٭ قوله (قد جاءكم من الله نور) جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمدا ﷺ قد تضمنت بعثته فوائد غير ماتقدم من مجرد البيان . قال الزجاج : النور محمد ﷺ ، وقيل الاسلام ، والكتاب المبين : القرآن ، فانه المبين ، والضمير فى قوله (يهدى به) راجع الى الكتاب أو اليه والى النور لكونهما كالشىء الواحد (من اتبع رضوانه) أى مارضيه الله و (سبل السلام) طرق السلامة من العذاب الموصلة الى دار السلام المنزهة عن كل آفة ، وقيل المراد بالسلام : الاسلام (ويخرجهم من الظلمات) الكفرية (الى النور) الاسلامى (ويهديهم الى صراط مستقيم) الى طريق يتوصلون بها الى الحق لاعوج فيها ولا مخافة .

وقدأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (رسولنا) قال : هو محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير أيضا عن عكرمة قال : ان نبى الله ﷺ أتاه اليهود يسألونه عن الرجم فقال : أيكم أعلم ؟ فأشاروا الى ابن صوريا فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى : والذى رفع الطور بالمواثيق التى أخذت عليهم ، حتى أخذه أفكل فقال انه لما كثر فينا جلدنا مائة جلدة وحلقنا الرءوس ، فحكم عليهم بالرجم ، فنزلت هذه الآية . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله (و يعفو عن كثير) يقول عن كثير من الذنوب . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : سبل السلام ، هى سبيل الله الذى شرعه لعباده ودعاهم اليه وابتعث به رسله : وهو الاسلام .

لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٭ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ اللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٭

ضمير الفصل فى قوله (هو المسيح) يفيد الحصر ، قيل وقد قال بذلك بعض طوائف النصارى ، وقيل لم يقل به أحد منهم ، ولكن استلزم قولهم (ان الله هو المسيح) لاغيره ، وقد تقدم فى آخر سورة النساء مايكفى ويغنى عن التكرار ٭ قوله (قل فمن يملك من الله شيئا) الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والملك : الضبط والحفظ والقدرة ، من قولهم ملكت على فلان أمره ، أى قدرت عليه ، أى فمن يقدر أن يمنع (ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا) واذالم يقدر أحد أن يمنع من ذلك فلا إله إلا الله ولارب غيره

ولا

V 22



ولامعبود بحق سواه ، ولو كان المسيح إلها كما تزعم النصارى لكان له من الأمر شيء ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقل حال ولم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها ، وتخصيصها بالذكر مع دخولها فى عموم من فى الأرض لكون الدفع منه عنها أولى وأحق من غيرها ، فهو اذا لم يقدر على الدفع عنها أعجز عن أن يدفع عن غيرها ، وذكر من فى الأرض للدلالة على شمول قدرته ، وأنه اذا أراد شيئا كان لامعارض له فى أمره ولامشارك له فى قضائه (ولله ملك السموات والأرض ومابينهما) أى مابين النوعين من المخلوقات * قوله (يخلق مايشاء) جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته ، وأنه يقدر على كل شيء لايستصعب عليه شيء * قوله (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزير حيث قالوا ـ عزير ابن الله ـ وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا ـ المسيح ابن الله ـ وقيل هو على حذف مضاف ، أى نحن اتباع أبناء الله وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعوى الباطلة والأمانى العاطلة ، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم ، فقال (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) أى ان كنتم كما تزعمون ، فما باله يعذبكم بما تقترفونه من الذنوب بالقتل والمسخ و بالنار فى يوم القيامة كما تعترفون بذلك لقولكم (لن تمسنا النار الا أياما معدودة) فان الابن من جنس أبيه لايصدر عنه مايستحيل على الأب وأنتم تذنبون والحبيب لايعذب حبيبه وأنتم تعذبون فهذا يدلّ على أنكم كاذبون فى هذه الدعوى ، وهذا البرهان هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف * قوله (بل أنتم بشر ممن خلق) عطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام أى فلستم حينئذ كذلك (بل أنتم بشر ممن خلق) أى من جنس من خلقه الله تعالى يحاسبهم على الخير والشر ، ويجازى كل عامل بعمله (يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض ومابينهما) من الموجودات (واليه المصير) أى تصيرون اليه عند انتقالكم من دار الدنيا الى دار الآخرة .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس : قال أتى رسول الله ﷺ نعمان بن اضاء وبحرى بن عمرو وشاس بن عدى فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم الى الله وحذرهم نقمته ، فقالوا ماتخوّفنا يامحمد (نحن أبناء الله وأحباؤه) كقول النصارى فأنزل الله فيهم (وقالت اليهود والنصارى) الى آخر الآية . وأخرج أحمد فى مسنده عن أنس : قال مرّ النبى ﷺ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول ابنى ابنى فسعت فأخذته ، فقال القوم يارسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار ؟ فقال النبى ﷺ لاوالله لايلقى حبيبه فى النار ، واسناده فى المسند هكذا : حدّثنا ابن أبى عدى عن حميد عن أنس فذكره * ومعنى الآية يشير الى معنى هذا الحديث ، ولهذا قال بعض مشايخ الصوفية لبعض الفقهاء أين تجد فى القرآن ان الحبيب لايعذب حبيبه ؟ فلم يردّ عليه ، فتلا الصوفىّ هذه الآية . وأخرج أحمد فى الزهد عن الحسن أن النبى ﷺ قال « لاوالله لايعذب الله حبيبه ، ولكن قد يبتليه فى الدنيا » . وأخرج ابن جرير عن السدّى فى قوله (يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء) يقول : يهدى منكم من يشاء فى الدنيا فيغفر له ، و يميت من يشاء منكم على كفره فيعذبه .

يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ *

المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى * والرسول هو محمد ﷺ ، ويبين لكم حال * والمبين

V ٣٥٦٥



هو ماشرعه الله لعباده وحذف للعلم به ، لأن بعثة الرسل انما هي بذلك * والفترة أصلها السكون ، يقال فتر الشيء : سكن ، وقيل هي الانقطاع . قاله أبوعلي الفارسي وغيره ، ومنه فتر الماء : اذا انقطع عما كان عليه من البرد الى السخونة ، وفتر الرجل عن عمله : اذا انقطع عما كان عليه من الجد فيه ، وامرأة فاترة الطرف : أى منقطعة عن حدة النظر * والمعنى أنه انقطاع الرسل قبل بعثه ﷺ مدة من الزمان . واختلف فى قدر مدة تلك الفترة ، وسيأتى بيان ذلك * قوله (أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير) تعليل لمجيء الرسول بالبيان على حين فترة ، أى كراهة أن تقولوا هذا القول معتذرين عن تفريطكم ، ومن فى قوله (من بشير) زائدة للمبالغة فى نفى المجيء ، والفاء فى قوله (فقد جاءكم) هى الفصيحة مثل مثل قول الشاعر : * فقد جئنا خراسانا * أى لاتعتذروا فقد جاءكم بشير ونذير ، وهو محمد ﷺ (والله على كل شيء قدير) ، ومن جملة مقدوراته إرسال رسوله على فترة من الرسل .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال دعا رسول الله ﷺ يهود الى الاسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب ، يامعشر يهود اتقوا الله فوالله انكم لتعلمون أنه رسول الله ﷺ لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهوذا ماقلنا لكم هذا وماأنزل الله من كتاب من بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولانذيرا بعده ، فأنزل الله (ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال هو محمد ﷺ جاء بالحق الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، فيه بيان وموعظة ونور وهدى وعصمة لمن أخذ به ، قال وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ستمائة سنة وماشاء الله من ذلك . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير عنه قال كانت خمسمائة سنة وستين سنة . وقال الكلبى خمسمائة سنة وأربعين سنة . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال كانت خمسمائة سنة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال كانت أربعمائة سنة وبضعا وثلاثين سنة . وأخرج ابن سعد فى كتاب الطبقات عن ابن عباس قال كان بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة ولم يكن بينهما فترة فانه أرسل بينهما ألف نبى من بنى اسرائيل سوى من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى ومحمد ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث فى أولها ثلاثة أنبياء كما قال الله تعالى ـ اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ـ والذى عزز به شمعون وكان من الحواريين ، وكانت الفترة التى لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربعة وثلاثين سنة . وقد قيل غير ماذكرناه .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ * يَٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ * قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَا إِنَّا

هٰهُنَا قَٰعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ *

هذه الآيات متضمنة لبيان من الله سبحانه بأن أسلاف اليهود الموجودين فى عصر محمد ﷺ تمردوا على موسى وعصوه كما تمرد هؤلاء على نبينا ﷺ وعصوه ، وفى ذلك تسلية له ﷺ ، وروى عن عبد الله بن كثير أنه قرأ ياقوم اذكروا بضم الميم ، وكذا قرأ فيما أشبهه ، وتقديره ياأيها القوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء ، أى وقت هذا الجعل ، وايقاع الذكر على الوقت مع كون المقصود ماوقع فيه من الحوادث للمبالغة ، لأن الأمر بذكر الوقت أمر بذكر ماوقع فيه بطريق الأولى ، وامتن عليهم سبحانه بجعل الأنبياء فيهم مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم ، لكثرة من بعثه من الأنبياء منهم * قوله (وجعلكم ملوكا) أى وجعل منكم ملوكا ، وانما حذف حرف الجر لظهور أن معنى الكلام على تقديره ، ويمكن أن يقال ان منصب النبوة لما كان لعظم قدره وجلالة خطره بحيث لاينسب إلى غير من هو له قال فيه (إذ جعل فيكم أنبياء) ولما كان منصب الملك مما يجوز نسبته إلى غير من قال به كما تقول قرابة الملك نحن الملوك . قال فيه (وجعلكم ملوكا) ، وقيل المراد بالملك أنهم ملكوا أمرهم بعد أن كانوا ملوكين لفرعون ، فهم جميعا ملوك بهذا المعنى ، وقيل معناه أنه جعلهم ذوى منازل لايدخل عليهم غيرهم إلا باذن ، وقيل غير ذلك * والظاهر أن المراد من الآية الملك الحقيقى ، ولوكان بمعنى آخر لما كان للامتنان به كثير معنى * فان قلت قد جعل غيرهم ملوكا كما جعلهم * قلت قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء ، فهذا وجه الامتنان * قوله (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) أى من المن والسلوى والحجر والغمام وكثرة الأنبياء وكثرة الملوك وغير ذلك * والمراد عالمى زمانهم ، وقيل ان الخطاب هاهنا لأمة محمد ﷺ ، وهو عدول عن الظاهر لغير موجب ، والصواب ماذهب اليه جمهور المفسرين من أنه من كلام موسى لقومه وخاطبهم بهذا الخطاب توطئة وتمهيدا لما بعده من أمره لهم بدخول الأرض المقدسة .

وقد اختلف فى تعيينها فقال قتادة هى الشام . وقال مجاهد : الطور وماحوله . وقال ابن عباس والسدى وغيرهما أريحاء . وقال الزجاج دمشق وفلسطين و بعض الأردن ، وقول قتادة يجمع هذه الأقوال المذكورة بعده * والمقدسة : المطهرة ، وقيل المباركة (التى كتب الله لكم) أى قسمها وقدرها لهم فى سابق علمه وجعلها مسكنا لكم (ولا ترتدوا على أدباركم) أى لاترجعوا عن أمرى وتتركوا طاعتى وما أوجبته عليكم من قتال الجبارين جبنا وفشلا (فتنقلبوا) بسبب ذلك (خاسرين) لخير الدنيا والآخرة (قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين) . قال الزجاج الجبار من الآدميين : العاتى ، وهو الذى يجبر الناس على مايريد ، وأصله على هذا من الاجبار ، وهو الاكراه فانه يجبر غيره على مايريده ، يقال أجبره : اذا أكرهه ، وقيل هو مأخوذ من جبر العظم ، فأصل الجبار على هذا : المصلح لأمر نفسه ، ثم استعمل فى كل من جر الى نفسه نفعا بحق أو باطل ، وقيل ان جبر العظم راجع الى معنى الاكراه . قال الفراء لم أسمع فعالا من أفعل الا فى حرفين ، جبار من أجبر ، ودراك من أدرك * والمراد هنا أنهم قوم عظام الأجسام طوال متعاظمون ، قيل هم قوم من بقية قوم عاد ، وقيل هم من ولد عيص بن اسحق ، وقيل هم من الروم ، ويقال ان منهم عوج ابن عنق المشهور بالطول المفرط ، وعنق هى بنت آدم ، قيل كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع . قال ابن كثير وهذا شىء يستحيا من ذكره ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « ان الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا» ثم لم يزل الخلق ينقص ، ثم قد ذكروا

أن هذا الرجل كان كافرا ، وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب السفينة ، وأن الطوفان لم يصل الى ركبته ، وهذا كذب وافتراء ، فان الله ذكر أن نوحا دعا على أهل الأرض من الكافرين ، فقال — رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا — ، وقال تعالى — فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين — وقال تعالى — لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم — » ، واذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى عوج ابن عنق وهو كافر ولد زنية ، هذا لايسوغ فى عقل ولاشرع ، ثم فى وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر والله أعلم ، انتهى كلامه .

قلت لم يأت فى أمر هذا الرجل مايقتضى تطويل الكلام فى شأنه ، وما هذه بأول كذبة اشتهرت فى الناس ولسنا بملزومين بدفع الأكاذيب التى وضعها القصاص ونفقت عند من لايميز بين الصحيح والسقيم فكم فى بطون دفاتر التفاسير من أكاذيب و بلايا وأقاصيص كلها حديث خرافة ، وما أحق من لا تمييز عنده لفن الرواية ولا معرفة به أن يدع التعرّض لتفسير كتاب الله ، ويضع هذه الحماقات والأضحوكات فى المواضع المناسبة لها من كتب القصاص * قوله (فان يخرجوا منها فانا داخلون) هذا تصريح بما هو مفهوم من الجملة التى قبل هذه الجملة لبيان أن امتناعهم من الدخول ليس الا لهذا السبب * قوله (قال رجلان) هما يوشع وكالب بن يوفنا أوابن فانيا ، وكانا من الاثنى عشر نقيبا كما مرّ بيان ذلك * وقوله (من الذين يخافون) أى يخافون من الله عزّ وجلّ ، وقيل من الجبارين ، أى هذان الرجلان من جملة القوم الذين يخافون من الجبارين ، وقيل من الذين يخافون ضعف بنى اسرائيل وجبنهم ، وقيل ان الواو فى (يخافون) لبنى إسرائيل ، أى من الذين يخافهم بنو اسرائيل . وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير يخافون بضم الياء ، أى يخافهم غيرهم * قوله (أنعم الله عليهما) فى محل رفع على أنه صفة ثانية لرجلان ، بالايمان واليقين بحصول ماوعدوا به من النصر والظفر (ادخلوا عليهم الباب) أى باب بلد الجبارين (فاذا دخلتموه فانكم غالبون) قالا هذه المقالة لبنى اسرائيل * والظاهر أنهما قد علما بذلك من خبر موسى ، أو قالاه ثقة بوعد الله أو كانا قد عرفا أن الجبارين قد ملئت قلوبهم خوفا ورعبا (قالوا) أى بنو اسرائيل لموسى (انا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها) وكان هذا القول منهم فشلا وجبنا أوعنادا وجرءة على الله وعلى رسوله (فاذهب أنت وربك فقاتلا) قالوا هذا جهلا بالله عزّ وجلّ و بصفاته وكفرا بما يجب له أو استهانة بالله ورسوله ، وقيل أرادوا بالذهاب الارادة والقصد ، وقيل أرادوا بالربّ هارون ، وكان أكبر من موسى ، وكان موسى يطيعه (انا ههنا قاعدون) أى لانبرح ههنا لانتقدم معك ولانتأخر عن هذا الموضع ، وقيل أرادوا بذلك عدم التقدم لاعدم التأخر (قال) موسى (رب انى لاأملك الا نفسى وأخى) يحتمل أن يعطف وأخى على نفسى ، وأن يعطف على الضمير فى (انى) أى انى لاأملك الا نفسى وان أخى لايملك الا نفسه . قال هذا تحسرا وتحزنا واستجلابا للنصر من الله عزّ وجلّ (فافرق بيننا و بين القوم الفاسقين) أى افصل بيننا ، يعنى نفسه وأخاه و بين القوم الفاسقين وميزنا عن جملتهم ولا تلحقنا بهم فى العقوبة ، وقيل المعنى فاقض بيننا و بينهم ، وقيل انما أراد فى الآخرة ، وقرأ عبيد بن عمير (فافرق) بكسر الراء (قال فانها) أى الأرض المقدسة (محرّمة عليهم) أى على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم من قتال الجبارين (أربعين سنة) ظرف للتحريم ، أى انه محرّم عليهم دخولها هذه المدّة لازيادة عليها ، فلا يخالف هذا التحريم ماتقدّم من قوله (التى كتب الله لكم) فانها مكتوبة لمن بقى منهم بعد هذه المدّة ، وقيل انه لم يدخلها أحد ممن قال (انا لن ندخلها) فيكون توقيت التحريم بهذه المدّة باعتبار ذراريهم ، وقيل ان (أربعين سنة) ظرف لقوله (يتيهون فى الأرض) أى يتيهون هذا المقدار فيكون التحريم مطلقا * والموقت : هو التيه ، وهو فى اللغة الحيرة ، يقال منه تاه

يتيه تيها أوتوها : اذا تحير، فالمعنى يتحيرون فى الأرض ، قيل ان هذه الأرض التى تاهوا فيها كانت صغيرة نحو ستة فراسخ كانوا يمسون حيث أصبحوا و يصبحون حيث أمسوا ، وكانوا سيارة مستمرين على ذلك لاقرار لهم .

واختلف أهل العلم هل كان معهم موسى وهرون أم لا ؟ فقيل لم يكونا معهم ، لأن التيه عقوبة ، وقيل كانا معهم لكن سهل الله عليهما ذلك كما جعل النار بردا وسلاما على ابراهيم . وقد قيل كيف يقع هذا لجماعة من العقلاء فى مثل هذه الأرض اليسيرة فى هذه المدّة الطويلة ؟ قال أبوعلى يكون ذلك بأن يحوّل الله الأرض التى هم عليها اذا ناموا الى المكان الذى ابتدءوا منه . وقد يكون بغير ذلك من الأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارقة للعادة .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وجعلكم ملوكا) قال ملكهم الخدم ، وكانوا أوّل من ملك الخدم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية : قال كان الرجل من بنى اسرائيل إذا كانت له الزوجة والخادم والدار سمى ملكا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه فى الآية قال : « الزوجة والخادم والبيت » . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الايمان عنه أيضا فى قوله (وجعلكم ملوكا) قال المرأة والخادم (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) قال الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال « كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا » . وأخرج ابن جرير والزبير بن بكار فى الموفقيات عن زيد بن أسلم ، قال قال رسول الله ﷺ « من كان له بيت وخادم فهو ملك » . وأخرج أبو داود فى مراسيله عن زيد بن أسلم فى الآية قال : قال رسول الله ﷺ « زوجة ومسكن وخادم » . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عبدالله بن عمرو ابن العاص أنه سأله رجل ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ قال ألك امرأة تأوى اليها ؟ قال نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ، قال ان لى خادما ، قال : فأنت من الملوك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (وجعلكم ملوكا) قال جعل لهم أزواجا وخدما و بيوتا (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) قال المنّ والسلوى والحجر والغمام . وأخرج ابن جرير من طريق مجاهد عن ابن عباس فى الآية : قال المنّ والسلوى والحجر والغمام . وقد ثبت فى الحديث الصحيح « من أصبح منكم معافى فى جسده آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (ادخلوا الأرض المقدّسة) قال الطور وماحوله . وأخرج عنه أيضا قال هى أريحاء . وأخرج ابن عساكر عن معاذ بن جبل قال : هى مابين العريش الى الفرات . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : هى الشام . وأخرج ابن جرير عن السدّى فى قوله (التى كتب الله لكم) قال التى أمركم الله بها . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية قال : أمر القوم بها كما أمرنا بالصلاة والزكاة والحج والعمرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين فسار بمن معه حتى نزل قريبا من المدينة وهى أريحاء فبعث اليهم اثنى عشر عينا من كل سبط منهم عين ليأتوه بخبر القوم فدخلوا المدينة فرأوا أمرا عظيما من هيئتهم وجسمهم وعظمهم فدخلوا حائطا لبعضهم فجاء صاحب الحائط ليجتنى الثمار من حائطه ، فجعل يجتنى الثمار فنظر الى آثارهم فتبعهم ، فكلما أصاب واحدا منهم أخذه فجعله فى كمه مع الفاكهة حتى التقط الاثنى عشر كلهم فجعلهم فى كمه مع الفاكهة وذهب الى ملكهم فنثرهم بين يديه فقال : الملك قد رأيتم شأننا وأمرنا اذهبوا فأخبروا صاحبكم : قال فرجعوا الى موسى فأخبروه بما

عاينوا من أمرهم فقال اكتموا عنا فجعل الرجل يخبر أباه وصديقه ويقول اكتم عنى ، فأشيع ذلك فى عسكرهم ولم يكتم منهم الا رجلان يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ، وهما اللذان أنزل الله فيهما (قال رجلان من الذين يخافون) . وقد روى نحو هذا مما يتضمن المبالغة فى وصف هؤلاء وعظم أجسامهم ، ولا فائدة فى بسط ذلك ، فغالبه من أكاذيب القصاص كما قدمنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فافرق) يقول : اقض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه يقول افصل بيننا وبينهم . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (فانها محرّمة عليهم) قال أبدا ، وفى قوله (يتيهون فى الأرض) قال أربعين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : قال تاهوا أربعين سنة فهلك موسى وهرون فى التيه ، وكل من جاوز الأربعين سنة ، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون ، وهو الذى قام بالأمر بعد موسى ، وهو الذى افتتحها ، وهو الذى قيل له اليوم يوم جمعة فهموا بافتتاحها فدنت الشمس للغروب فخشى ان دخلت ليلة السبت أن يسبتوا ، فنادى الشمس انى مأمور وأنت مأمورة فوقفت حتى افتتحها فوجد فيها من الأموال مالم ير مثله قط فقرّبوه إلى النار فلم تأت فقال فيكم الغلول ، فدعا رءوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلا ، فبايعهم والتصقت يد رجل منهم بيده ، فقال : الغلول عندك فأخرجه ، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ ، فوضعه مع القربان فأتت النار فأكلتها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : خلق لهم فى التيه ثياب لاتخلق ولاتدرن .

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ آدَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ *

وجه اتصال هذا بما قبله التنبيه من الله على أن ظلم اليهود ونقضهم المواثيق والعهود هو كظلم ابن آدم لأخيه ، فالداء قديم ، والشرّ أصيل .

وقد اختلف أهل العلم فى ابنى آدم المذكورين هل هما لصلبه أم لا ؟ فذهب الجمهور الى الأوّل ، وذهب الحسن والضحاك الى الثانى ، وقالا انهما كانا من بنى اسرائيل فضرب بهما المثل فى إبانة حسد اليهود ، وكانت بينهما خصومة فتقرّبا بقربانين ولم تكن القرابين الا فى بنى اسرائيل . قال ابن عطية وهذا وهم كيف يجهل صورة الدفن أحد من بنى اسرائيل ؟ حتى يقتدى بالغراب . قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم واسمهما قابيل وهابيل ، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل ، لأنه كان صاحب زرع واختارها من أردأ زرعه حتى انه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها ، وكان قربان هابيل كبشا لأنه كان صاحب غنم أخذه من أجود غنمه ، فتقبل قربان هابيل فرفع الى الجنة فلم يزل يرعى فيها الى أن فدى به الذبيح عليه السلام ، كذا قال جماعة من السلف ، ولم يتقبل قربان قابيل فحسده وقال لأقتلنك ، وقيل سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد فى كل بطن ذكرا وأنثى الاشيثا عليه السلام فانها ولدته منفردا ، وكان آدم عليه السلام يزوّج الذكر

من هـذا البطن بالأنثى من البطن الآخر ولا تحلّ له أخته التي ولدت معـه فولدت مع قابيل أخت جميلة واسمها اقليما ، ومع هابيل أخت ليست كذلك واسمها ليوذا ، فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل أنا أحق بأختي فأمره آدم فلم يأتمر وزجره فلم ينزجر ، فاتفقوا على القربان وأنه يتزوّجها من تقبل قربانه * قوله (بالحق) متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر (واتل) أي تلاوة متلبسة بالحق ، أوصفة لنبأ : أي نبأ متلبسا بالحق * والمراد بأحدهما هابيل وبالآخر قابيل ، و (قال لأقتلنك) استئناف بياني كأنه قيل فماذا قال الذي لم يتقبل قربانه ؟ * وقوله (قال إنما يتقبل الله من المتقين) استئناف كالأول كأنه قيل فماذا قال الذي تقبل قربانه ، وإنما للحصر : أي إنما يتقبل الله القربان من المتقين لا من غيرهم ، وكأنه يقول لأخيه إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي ، فإن عدم تقبل قربانك ، بسبب عدم تقواك * قوله (لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني) أي لأن قصدت قتلي ، واللام هي الموطئة ، و (ما أنا بباسط) جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط ، وهذا استسلام للقتل من هابيل ، كما ورد في الحديث إذا كانت الفتنة فكن كخير ابني آدم وتلا النبي ﷺ هذه الآية . قال مجاهد كان الفرض عليهم حينئذ أن لا يسلّ أحد سيفا وأن لا يمتنع ممن يريد قتله . قال القرطبي : قال علماؤنا ، وذلك مما يجوز ورود التعبد به ، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعا وفي وجوب ذلك عليه خلاف ، والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهي عن المنكر ، وفي الحشوية قوم لا يجوّزون للمصول عليه الدفع ، واحتجوا بحديث أبي ذرّ ، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة وكفّ اليد عند الشبهة على ما بيناه في كتاب التذكرة انتهى كلام القرطبي ، وحديث أبي ذرّ المشار إليه هو عند مسلم وأهل السنن إلا النسائي ، وفيه أن النبي ﷺ ، قال له يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا كيف تصنع ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك ، قال فإن لم أترك ، قال فأت من أنت منهم فكن فيهم ، قال فآخذ سلاحي ؟ قال إذن تشاركهم فيما هم فيه ولكن إن خشيت أن يردعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كي يبوء بإثمه وإثمك ، وفي معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة سعد ابن أبي وقاص وأبي هريرة وخباب بن الأرتّ وأبي بكر وابن مسعود وأبي واقد وأبي موسى * قوله (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار) هذا تعليل لامتناعه من المقاتلة بعد التعليل الأول وهو (إني أخاف الله رب العالمين) .

اختلف المفسرون في المعنى فقيل : أراد هابيل إني أريد أن تبوء بالإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصا على قتلك ، وبإثمك الذي تحملته بسبب قتلي ، وقيل المراد بإثمي الذي يختص بي بسبب سيأتي فيطرح عليك بسبب ظلمك لي وتبوء بإثمك في قتلي ، وهـذا يوافق معناه معنى ما ثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ « يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم ، فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد في حسنات المظلوم حتى ينتصف فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه » ، ومثله قوله تعالى ـ وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ـ ، وقيل المعنى : إني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك ، كما في قوله تعالى ـ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ـ ، أي أن لا تميد بكم * وقوله ـ يبين الله لكم أن تضلوا ـ ، أي أن لا تضلوا ، وقال أكثر العلماء : إن المعنى (إني أريد أن تبوء بإثمي) أي بإثم قتلك لي (وإثمك) الذي قد صار عليك بذنوبك من قبل قتلي . قال الثعلبي هذا قول عامة المفسرين ، وقيل هو على وجه الإنكار ، أي أو إني أريد على وجه الإنكار كقوله تعالى ـ وتلك نعمة ـ أي أو تلك نعمة : قاله القشيري ، ووجهه بأن إرادة القتل معصية ، وسئل أبو الحسن بن كيسان كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه وأن يدخل النار ، فقال وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل ، وهذا بعيد جدّا ، وكذلك الذي قبله ، وأصل باء رجع إلى المباءة ، وهي المنزل

– وباءوا بغضب من الله – أى رجعوا * قوله (فطوّعت له نفسه قتل أخيه) أى سهلت نفسه عليه الأمر وشجعته وصوّرت له أن قتل أخيه طوع يده سهل عليه : يقال تطوّع الشيء : أى سهل وانقاد ، وطوّعه فلان له : أى سهله . قال الهروى طوّعت وطاوعت واحد ، يقال طاع له كذا اذا أتاه طوعا ، وفى ذكر تطويع نفسه له بعد ماتقدّم من قول قابيل (لأقتلنك) وقول هابيل (لتقتلنى) دليل على أن التطويع لم يكن قد حصل له عند تلك المقاولة * قوله (فقتله) . قال ابن جريج ومجاهد وغيرهما : روى أنه جهل كيف يقتل أخاه فجاءه إبليس بطائر أو حيوان غيره ، فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدى به قابيل ففعل ، وقيل غير ذلك مما يحتاج الى تصحيح الرواية * قوله (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه) قيل أنه لما قتل أخاه لم يدر كيف يواريه لكونه أوّل ميت مات من بنى آدم ، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثا عليه ، فلما رآه قابيل (قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) فواراه ، والضمير المستكن فى (ليريه) للغراب ، وقيل لله سبحانه و(كيف) فى محل نصب على الحال من ضمير (يوارى) والجملة ثانى مفعولى يريه * والمراد بالسوءة هنا ذاته كلها لكونها ميتة ، و(قال) استئناف جواب سؤال مقدر من سوق الكلام ، كأنه قيل فماذا قال عند أن شاهد الغراب يفعل ذلك * و(ياويلتى) كلمة تحسر وتحزن ، والألف بدل من ياء المتكلم كأنه دعا ويلته بأن تحضر فى ذلك الوقت ، والويلة الهلكة ، والكلام خارج مخرج التعجب منه من عدم اهتدائه لمواراة أخيه كما اهتدى الغراب إلى ذلك (فأوارى) بالنصب على أنه جواب الاستفهام ، وقرئ بالسكون على تقدير فأنا أوارى (فأصبح من النادمين) على قتله ، وقيل لم يكن ندمه ندم توبة بل ندم لفقده ، لا على قتله ، وقيل غير ذلك .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن ابن عباس قال : « نهى أن تنكح المرأة أخاها توءمها ، وأن ينكحها غيره من إخوتها وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة فبيناهم كذلك ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخو الدميمة أنكحنى أختك وأنكحك أختى ، فقال لا أنا أحق بأختى فقربا قربانا ، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض ، وصاحب الحرث بصبرة من طعام ، فتقبل من صاحب الكبش ، ولم يتقبل من صاحب الزرع » . قال ابن كثير فى تفسيره إسناده جيد ، وكذا قال السيوطى فى الدر المنثور . وأخرج ابن جرير عنه : قال كان من شأن بنى آدم أنه لم يكن مسكين يتصدق وعليه ، وانما كان القربان يقربه الرجل فبينا ابنا آدم قاعدان اذ قالا لو قربنا قربانا ثم ذكرا ماقرباه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (لئن بسطت إلىّ يدك) قال : كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلا تركه ولا يمتنع منه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) يقول : إنى أريد أن تكون عليك خطيئتك ودمى فتبوء بهما جميعا . وأخرج ابن جرير عنه بإثمى : قال بقتلك إياى وبإثمك ، قال بما كان منك قبل ذلك . وأخرج عن قتادة والضحاك مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (فطوّعت له نفسه قتل أخيه) قال : شجعته على قتل أخيه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية : قال زينت له نفسه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله (فطوّعت له نفسه قتل أخيه) فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه فى رءوس الجبال فأتاه يوما من الأيام ، وهو يرعى غنما له وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثا عليه ، فلما رآه (قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن

مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أوّل من سنّ القتل » . وقد روى فى صفة قتله لأخيه روايات الله أعلم بصحتها .

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ * إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

قوله (من أجل ذلك) أى من أجل ذلك القاتل وجريرته وبسبب معصيته ، وقال الزجاج : أى من جنايته ، قال : يقال أجل الرجل على أهله شرا يأجل أجلا اذاجنى مثل أخذ يأخذ أخذا . وقرأ أبوجعفر من اجل بكسر النون وحذف الهمزة ، وهى لغة قال فى شرح الدرة قرأ أبوجعفر منفردا من اجل ذلك بكسر الهمزة مع نقل حركتها الى النون قبلها ، وقيل يجوز أن يكون قوله (من أجل ذلك) متعلقا بقوله (من النادمين) فيكون الوقف ، على قوله (من أجل ذلك) ، والأولى ماقدمنا : والمعنى أن نبأ ابنى آدم هو الذى تسبب عنه الكتب المذكور على بنى إسرائيل ، وعلى هذا جمهور المفسرين ، وخصّ بنى إسرائيل بالذكر لأن السياق فى تعداد جناياتهم ، ولأنهم أوّل أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل الأنفس ، ووقع التغليظ فيهم اذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء وقتلهم للأنبياء ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل الذى هو متعلق به أعنى كتبنا : يفيد القصر ، أى من أجل ذلك لامن غيره ، ومن لابتداء الغاية (أنه من قتل نفسا) واحدة من هذه النفوس (بغير نفس) أى بغير نفس توجب القصاص فيخرج عن هذا من قتل نفسا بنفس قصاصا * قوله (أوفساد فى الأرض) . قرأ الجمهور بالجر عطفا على نفس . وقرأ الحسن بالنصب على تقدير فعل محذوف يدلّ عليه أوّل الكلام تقديره : أو أحدث فسادا فى الأرض ، وفى هذا ضعف * ومعنى قراءة الجمهور أن من قتل نفسا بغير سبب من قصاص أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . وقد تقرر أن كل حكم مشروط بتحقق أحد شيئين فنقيضه مشروط بانتفائهما معا ، وكل حكم مشروط بتحققهما معا فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شىء مشروط بنقيض شرطه .

وقد اختلف فى هذا الفساد المذكور فى هذه الآية ماذا هو ؟ فقيل هو الشرك ، وقيل قطع الطريق ، وظاهر النظم القرآنى أنه مايصدق عليه أنه فساد فى الأرض ، فالشرك فساد فى الأرض ، وقطع الطريق فساد فى الأرض ، وسفك الدماء وهتك الحرم ونهب الأموال فساد فى الأرض ، والبغى على عباد الله بغير حق فساد فى الأرض ، وهدم البنيان وقطع الأشجار وتغوير الأنهار فساد فى الأرض ، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد فى الأرض ، وهكذا الفساد الذى سيأتى فى قوله (ويسعون فى الأرض فسادا) يصدق على هذه الأنواع ، وسيأتى تمام الكلام على معنى الفساد قريبا * قوله (فكأنما قتل الناس جميعا) اختلف المفسرون فى تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعا أشدّ من عقاب من قتل واحدا منهم فروى عن ابن عباس أنه قال المعنى من قتل نبيا أو امام عدل فكأنما قتل الناس جميعا

ومن أحياه بأن شدّ عضده ونصره فكأنما أحيا الناس جميعا . أخرج هذا عنه ابن جرير ، وروى عن مجاهد أنه قال المعنى أن الذى يقتل النفس المؤمنة متعمدا جعل الله جزاءه جهنم وغضب عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما فلو قتل الناس جميعا لم يزد على هـذا قال ، ومن سلم من قتل فلم يقتل أحـدا فكأنما أحيا الناس جميعا .

وقد أخرج نحو هذا عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال فى تفسير هذه الآية أو بقى نفسه كما لو قتل الناس جميعا ، أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وروى عن الحسن أنه قال فكأنما قتل الناس جميعا فى الوزر ، وكأنما أحيا الناس جميعا فى الأجر . وقال ابن زيد : المعنى أن من قتل نفسا فيلزمه من القود والقصاص مايلزم من قتل الناس جميعا (ومن أحياها) أى من عفا عمن وجب قتله ، حكاه عنه القرطبى ، وحكى عن الحسن أنه العفو بعد القدرة ، يعنى أحياها ، وروى عن مجاهد أن إحياءها : إنجاؤها من غرق أو حرق أو هـدم أو هلكة ، حكاه عنه ابن جرير وابن المنذر ، وقيـل المعنى أن من قتل نفسا فالمؤمنون كلهم خصماؤه ، لأنه قد وتر الجميع (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) أى وجب على الـكل شكره ، وقيل المعنى ان من استحلّ واحدا فقد استحلّ الجميع لأنه أنكر الشرع ، وعلى كل حال فالاحياء هنا عبارة عن الترك والانقاذ من هلـكة فهو مجاز ، اذ المعنى الحقيقى مختص بالله عزّ وجلّ * والمراد بهذا التشبيه فى جانب القتل تهويل أمر القتل وتعظيم أمره فى النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجرءة والجسارة ، وفى جانب الاحياء الترغيب الى العفو عن الجناة واستنقاذ المتورطين فى الهلـكات * قوله (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للاخبار بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد جاءوا العباد بما شرعه الله لهم من الأحكام التى من جملتها أمر القتل ، وثم فى قوله (ثم ان كثيرا منهم) للتراخى الرتبى والاستبعاد العقلى ، والاشارة بقوله (ذلك) الى ماذكر مما كتبه الله على بنى إسرائيل : أى ان كثيرا منهم بعد ذلك الـكتب (فى الأرض لمسرفون) فى القتل * قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) قد اختلف الناس فى سبب نزول هـذه الآية فذهب الجمهور إلى أنها نزلت فى العرنيين . وقال مالك والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى أنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق ويسعى فى الأرض بالفساد . قال ابن المنذر قول مالك صحيح . قال أبو ثور محتجا لهذا القول ان قوله فى هذه الآية (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) يدلّ على أنها نزلت فى غـير أهل الشرك ، لأنهم قد أجمعوا على أن أهـل الشرك إذا وقعوا فى أيدينا فأسلموا أن دماءهم تحرم فدلّ ذلك على أن الآية نزلت فى أهل الاسلام انتهى ، وهكذا يدلّ على هذا قوله تعالى ــ قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ــ ، وقوله ﷺ « الاسـلام يهدم ماقبله » . أخرجه مسلم وغـيره ، وحكى ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن بعض أهل العلم أن هذه الآية ، أعنى آية المحاربة نسخت فعل النبى ﷺ فى العرنيين ، ووقف الأمر على هذه الحدود ، وروى عن محمد بن سيرين أنه قال كان هـذا قبل أن تنزل الحـدود ، يعنى فعله ﷺ بالعرنيين ، وبهذا قال جماعة من أهل العلم ، وذهب جماعة آخرون الى أن فعله ﷺ بالعرنيين منسوخ بنهى النبى ﷺ عن المثلة ، والقائل بهذا مطالب ببيان تأخر الناسخ ، وسيأتى سياق الروايات الواردة فى سبب النزول ، والحق أن هـذه الآية تعمّ المشرك وغـيره ممن ارتـكب ماتضمنته ، ولااعتبار بخصوص السبب ، بل الاعتبار بعموم اللفظ . قال القرطبى فى تفسيره ولا خلاف بين أهل العلم فى أن حكم هذه الآية مترتب فى المحارب من أهل الاسلام وان كانت نزلت فى المرتدين أو اليهود انتهى * ومعنى قوله : مترتب : أى ثابت ، قيل المراد بمحاربة الله المذكورة فى الآية هى محاربة رسول الله ﷺ ومحاربة المسلمين فى عصره ومن بعد عصره بطريق العبارة دون الدلالة ودون القياس لأن

ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج فى تعميم الخطاب لغيرهم الى دليل آخر ، وقيل انها جعلت محاربة المسلمين محاربة لله ولرسوله إكبارا لحربهم وتعظيما لأذيتهم ، لأن الله سبحانه لايحارب ولايغالب ، والأولى أن تفسر محاربة الله سبحانه بمعاصيه ومخالفة شرائعه ومحاربة الرسول تحمل على معناها الحقيق ، وحكم أمته حكمه وهم أسوته ، والسعى فى الأرض فسادا يطلق على أنواع من الشر كما قدمنا قريبا . قال ابن كثير فى تفسيره : قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب ان قرض الدراهم والدنانير من الافساد فى الأرض . وقد قال تعالى ـ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد ـ انتهى .

اذا تقرر لك ماقررناه من عموم الآية ومن معنى المحاربة والسعى فى الأرض فسادا فاعلم أن ذلك يصدق على كل من وقع منه ذلك سواء كان مسلما أو كافرا فى مصر وغير مصر فى كل قليل وكثير ، وجليل وحقير ، وأن حكم الله فى ذلك هو ماورد فى هذه الآية من القتل ، أو الصلب أو قطع الأيدى والأرجل من خلاف ، أو النفى من الأرض ، ولكن لايكون هذا حكم من فعل أى ذنب من الذنوب ، بل من كان ذنبه هو التعدى على دماء العباد وأموالهم فيما عدا ماقد ورد له حكم غير هذا الحكم فى كتاب الله أو سنة رسوله كالسرقة ومايجب فيه القصاص ، لأنا نعلم أنه قد كان فى زمنه ﷺ من تقع منه ذنوب ومعاص غير ذلك ، ولا يجرى عليه ﷺ هذا الحكم المذكور فى هذه الآية ، وبهذا تعرف ضعف ماروى عن مجاهد فى تفسير المحاربة المذكورة فى هذه الآية أنها الزنا والسرقة ، ووجه ذلك أن هذين الذنبين قد ورد فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ لهما حكم غير هذا الحكم .

واذا عرفت ماهو الظاهر من معنى هذه الآية على مقتضى لغة العرب التى أمرنا بأن نفسر كتاب الله وسنة رسوله بها ، فإياك أن تغتر بشىء من التفاصيل المروية ، والمذاهب المحكية ، إلا أن يأتيك الدليل الموجب لتخصيص هذا العموم أو تقييد هذا المعنى المفهوم من لغة العرب فأنت وذاك اعمل به وضعه فى موضعه ، وأما ماعداه :

فدع عنك نهبا صيح فى حجراته * وهات حديثا ماحديث الرواحل

على أنا سنذكر من هذه المذاهب مانسمعه * اعلم أنه قد اختلف العلماء فيمن يستحق اسم المحاربة فقال ابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصرى وابراهيم النخعى والضحاك وأبو ثور ان من شهر السلاح فى قبة الاسلام وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه ، فامام المسلمين فيه بالخيار : ان شاء قتله ، وان شاء صلبه ، وان شاء قطع يده ورجله ، وبهذا قال مالك وصرح بأن المحارب عنده من حمل على الناس فى مصر أو فى برية أو كابرهم على أنفسهم وأموالهم دون نائرة ولا دخل ولا عداوة . قال ابن المنذر اختلف عن مالك فى هذه المسألة فأثبت المحاربة فى المصر مرة ونفى ذلك مرة ، وروى عن ابن عباس غير ماتقدم فقال فى قطاع الطريق : اذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، واذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، واذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، واذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض ، وروى عن أبى مجلز وسعيد بن جبير وابراهيم النخعى والحسن وقتادة والسدى وعطاء على اختلاف فى الرواية عن بعضهم ، وحكاه ابن كثير عن الجمهور . وقال أيضا وهكذا عن غير واحد من السلف والأئمة . وقال أبو حنيفة : اذا قتل قتل ، واذا أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف ، واذا أخذ المال وقتل فالسلطان مخير فيه : ان شاء قطع يديه ورجليه ، وان شاء لم يقطع وقتله وصلبه . وقال أبو يوسف : القتل يأتى على كل شىء ، ونحوه قول الأوزاعى . وقال الشافعى : اذا

أخذ المال قطعت يده اليمنى وحسمت ، ثم قطعت رجله اليسرى وحسمت وخلى ، لأن هذه الجناية زادت على السرقة بالحرابة ، واذا قتل قتل ، واذا أخذ المال وقتل قتل وصلب ، وروى عنه أنه قال يصلب ثلاثة أيام . وقال أحمد : ان قتل قتل ، وان أخذ المال قطعت يده ورجله كقول الشافعي . ولا أعلم لهذه التفاصيل دليلا لامن كتاب الله ولامن سنة رسوله الا مارواه ابن جرير فى تفسيره وتفرّد بروايته فقال حدّثنا علىّ بن سهل حدّثنا الوليد بن مسلم عن يزيد بن أبى حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب الى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية ، فكتب اليه يخبره أن هذه الآية نزلت فى أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة . قال أنس : فارتدّوا عن الاسلام وقتلوا الراعى واستاقوا الابل وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام . قال أنس : فسأل رسول الله ﷺ جبريل عن القضاء فيمن حارب ، فقال : من سرق وأخاف الطريق فاقطع يده لسرقته ورجله باخافته ، ومن قتل فاقتله ، ومن قتل وأخاف السبيل واستحلّ الفرج الحرام فاصلبه ، وهذا مع مافيه من النكارة الشديدة لايدرى كيف صحته ؟ . قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكره لشىء من هذه التفاصيل التى ذكرناها مالفظه : ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذى رواه ابن جرير فى تفسيره ان صح سنده ثم ذكره * قوله (ويسعون فى الأرض فسادا) هو إما منتصب على المصدرية ، أو على أنه مفعول له ، أو على الحال بالتأويل : أى مفسدين * قوله (أو يصلبوا) ظاهره أنهم يصلبون أحياء حتى يموتوا ، لأنه أحد الأنواع التى خير الله بينها . وقال قوم : الصلب انما يكون بعد القتل ، ولايجوز أن يصلب قبل القتل فيحال بينه وبين الصلاة والأكل والشرب ، ويجاب بأن هذه عقوبة شرعها الله سبحانه فى كتابه لعباده * قوله (أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) ظاهره قطع إحدى اليدين واحدى الرجلين من خلاف سواء كانت المقطوعة من اليدين هى اليمنى أو اليسرى ، وكذلك الرجلان ولايعتبر الا أن يكون القطع من خلاف إما يمنى اليدين مع يسرى الرجلين أو يسرى اليدين مع يمنى الرجلين ، وقيل المراد بهذا قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى فقط * قوله (أو ينفوا من الأرض) اختلف المفسرون فى معناه ، فقال : السدّى هو أن يطلب بالخيل والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه الحدّ أو يخرج من دار الاسلام هاربا ، وهو محكىّ عن ابن عباس وأنس ومالك والحسن البصرى والسدى والضحاك وقتادة وسعيد بن جبير والربيع بن أنس والزهرى : حكاه الرمانى فى كتابه عنهم ، وحكى عن الشافعى أنهم يخرجون من بلد الى بلد ويطلبون لتقام عليهم الحدود ، وبه قال الليث بن سعد ، وروى عن مالك أنه ينفى من البلد الذى أحدث فيه الى غيره ويحبس فيه كالزانى ورجحه ابن جرير والقرطبى ، وقال الكوفيون نفيهم : سجنهم ، فينفى من سعة الدنيا الى ضيقها ، والظاهر من الآية أنه يطرد من الأرض التى وقع منه فيها ماوقع من غير سجن ولاغيره ، والنفى قد يقع بمعنى الاهلاك وليس هو مرادا هنا * قوله (ذلك لهم خزى فى الدنيا) الاشارة الى ماسبق ذكره من الأحكام ، والخزى الذل والفضيحة * قوله (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) استثنى الله سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة ، والظاهر عدم الفرق بين الدماء والأموال وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة ، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشىء من ذلك ، وعليه عمل الصحابة ، وذهب بعض أهل العلم الى أنه لايسقط القصاص وسائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة ، والحق الأوّل ، وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المذكورة فى الآية كما يدل عليه ذكر قيد (قبل أن تقدروا عليهم) قال القرطبى : وأجمع أهل العلم على أن السلطان ولىّ من حارب ، فان قتل محارب أخا امرئ وأتاه فى حال المحاربة . فليس الى طالب الدم من أمر المحاربة شىء ، ولايجوز عفو ولىّ الدم .

وقد

وقد أخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله (من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل) يقول من أجل ابن آدم الذى قتل أخاه ظلما . وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قيل له فى هذه الآية يعنى قوله (فكأنما قتل الناس جميعا) أهى لنا كما كانت لبنى اسرائيل ؟ فقال إى والذى لا إله غيره . وأخرج أبوداود والنسائى عن ابن عباس فى قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) قال نزلت فى المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل ، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد فى الأرض أو حارب الله ورسوله . وأخرج ابن جرير والطبرانى فى الكبير عنه فى هذه الآية قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم و بين رسول الله ﷺ عهد وميثاق ، فنقضوا العهد وأفسدوا فى الأرض ، فخير الله نبيه فيهم : ان شاء قتل وان شاء صلب وان شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأما النفى فهو الضرب فى الأرض ، فان جاء تائبا فدخل فى الاسلام قبل منه ، ولم يؤخذ بما سلف . وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص أن هذه الآية نزلت فى الحرورية . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس أن نفرا من عكل قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا واجتووا المدينة ، فأمرهم النبى ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة : فيشربوا من أبوالها وألبانها ، فقتلوا راعيها واستاقوها ، فبعث النبى ﷺ فى طلبهم قافة ، فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ولم يحسمهم وتركهم حتى ماتوا ، فأنزل الله (إنما جزاء الذين يحاربون) الآية ، وفى مسلم عن أنس أنه قال : انما سمل النبى ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة . وأخرج الشافعى فى الأم وعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : اذا خرج المحارب فأخذ المال ولم يقتل قطع من خلاف . واذا خرج فقتل ولم يأخذ المال قتل ، واذا خرج وأخذ المال وقتل قتل وصلب ، واذا خرج فأخاف السبيل ولم يأخذ المال ولم يقتل نفى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : من شهر السلاح فى قبة الاسلام وأفسد السبيل فظهر عليه وقدر ، فامام المسلمين مخير فيه : ان شاء قتله وان شاء صلبه وان شاء قطع يده ورجله ، قال (أو ينفوا من الأرض) يهربوا ويخرجوا من دار الاسلام الى دار الحرب . وأخرج ابن جرير عنه قال : نفيه أن يطلب . وأخرج أيضا عن أنس نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن أبى حاتم عن الشعبى قال : كان حارثة بن بدر التيمى من أهل البصرة قد أفسد فى الأرض وحارب فكلم رجالا من قريش أن يستأمنوا له عليا فأبوا ، فأتى سعيد ابن قيس الهمدانى ؛ فأتى عليا فقال : ياأمير المؤمنين ماجزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون فى الأرض فسادا؟ قال : (أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) ثم قال (الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) فقال سعيد : وان كان حارثة بن بدر ، قال وان كان حارثة بن بدر ، قال : هذا حارثة بن بدر ، قد جاء تائبا فهو آمن ؛ قال نعم ؛ فجاء به اليه فبايعه ، وقبل ذلك منه وكتب له أمانا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ *

(ابتغوا) اطلبوا (اليه) لا الى غيره ، و (الوسيلة) فعيلة من توسلت اليه اذا تقربت اليه . قال عنترة :

ان الرجال لهم اليك وسيلة * ان يأخذوك تكحلى وتخضبى

وقال آخر :

اذا غفل الواشون عدنا لوصلنا * وعاد التصافى بيننا والوسائل

فالوسيلة : القربة التى ينبغى أن تطلب ، وبه قال أبو وائل والحسن ومجاهد وقتادة والسدى وابن زيد ، وروى عن ابن عباس وعطاء وعبد الله بن كثير ، قال ابن كثير فى تفسيره : وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لاخلاف بين المفسرين فيه * والوسيلة أيضا درجة فى الجنة مختصة برسول الله ﷺ . وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته الا حلت له الشفاعة يوم القيامة» وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع النبى ﷺ يقول «اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا علىّ فانه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة» وفى الباب أحاديث ، وعطف (وابتغوا اليه الوسيلة) على (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله) يفيد أن الوسيلة غير التقوى ، وقيل هى التقوى ، لأنها ملاك الأمر وكل الخير ، فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى ، والظاهر أن الوسيلة التى هى القربة تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التى يتقرب العباد بها الى ربهم (وجاهدوا فى سبيله) من لم يقبل دينه (لعلكم تفلحون) * قوله (ان الذين كفروا) كلام مبتدأ مسوق لزجر الكفار وترغيب المسلمين فى امتثال أوامر الله سبحانه (لو أن لهم ماقى الأرض) من أموالها ومنافعها ، وقيل المراد لكل واحد منهم ليكون أشد تهويلا ، وان كان الظاهر من ضمير الجمع خلاف ذلك و (جميعا) تأكيد * وقوله (ومثله) عطف على ماقى الأرض ، و (معه) فى محل نصب على الحال (ليفتدوا به) ليجعلوه فدية لأنفسهم ، وأفرد الضمير إما لكونه راجعا الى المذكور أو لكونه بمنزلة اسم الاشارة ، أى ليفتدوا بذلك ، و (من عذاب يوم القيامة) متعلق بالفعل المذكور (ماتقبل منهم) ذلك ، وهذا هو جواب لو * قوله (يريدون أن يخرجوا من النار) هذا استئناف بيانى كأنه قيل : كيف حالهم فيما هم فيه من هذا العذاب الأليم ؟ فقيل يريدون أن يخرجوا من النار ، وقرىء (أن يُخرجوا) من أخرج ، و يضعف هذه القراءة (وماهم بخارجين منها) ومحل هذه الجملة أعنى قوله (وماهم بخارجين منها) النصب على الحال ، وقيل انها جملة اعتراضية .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وابتغوا اليه الوسيلة) قال الوسيلة القربة . وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وابتغوا اليه الوسيلة) قال تقربوا الى الله بطاعته والعمل بما يرضيه . وأخرج مسلم وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» قال : يريد الفقير ، فقلت لجابر يقول الله (يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها) قال : اتل أول الآية (إن الذين كفروا لو أن لهم ماقى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به) ألا أنهم الذين كفروا . وأخرج ابن جرير عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس تزعم أن قوما يخرجون من النار . وقد قال الله تعالى (وماهم بخارجين منها) فقال ابن عباس ويحك ، اقرأ مافوقها هذه للكفار . قال الزمخشرى فى الكشاف بعد ذكره لهذا انه مما لفقته المجبرة ويالله العجب من

رجل لايفرق بين أصح الصحيح و بين أ كذب الكذب على رسول الله ﷺ يتعرض للكلام على مالا يعرفه ولايدرى ماهو ؟ وقدتواترت الأحاديث تواترا لايخفى على من له أدنى إلمام بعلم الرواية بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة لانه أنكر ماهو من ضروريات الشريعة ، اللهم غفرا .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

لما ذكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهارا ، وهو المحارب عقبه بذكر من يأخذ المال خفية ، وهو السارق ، وذكر السارقة مع السارق لزيادة البيان لأن غالب القرآن الاقتصار على الرجال فى تشريع الأحكام . وقد اختلف أئمة النحو فى خبر السارق والسارقة هل هو مقدر أم هو فاقطعوا ؟ فذهب الى الأول سيبويه . وقال تقديره فيما فرض عليكم أو فيما يتلى عليكم السارق والسارقة ، أى حكمهما ، وذهب المبرد والزجاج الى الثانى ودخول الفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط اذ المعنى : الذى سرق والتى سرقت ، وقرئ (والسارق والسارقة) بالنصب على تقدير اقطعوا ، ورجح هذه القراءة سيبويه ، قال : الوجه فى كلام العرب النصب كما تقول زيدا اضربه ، ولكن العامة أبت الاالرفع يعنى عامة القراء ، والسرقة بكسر الراء اسم الشىء المسروق والمصدر من سرق يسرق سرقا . قاله الجوهرى ، وهو أخذ الشىء فى خفية من الأعين ، ومنه استرق السمع ، وسارقه النظر * قوله (فاقطعوا) القطع معناه الابانة والازالة ، وجمع الأيدى لكراهة الجمع بين تثنيتين وقد بينت السنة المطهرة أن موضع القطع الرسغ . وقال قوم يقطع من المرفق ، وقال الخوارج من المنكب ، والسرقة لابد أن تكون ربع دينار فصاعدا ولابد أن تكون من حرز كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة . وقد ذهب الى اعتبار الربع الدينار الجمهور . وذهب قوم الى التقدير بعشرة دراهم . وذهب الجمهور الى اعتبار الحرز . وقال الحسن البصرى اذا جمع الثياب فى البيت قطع . وقد أطال الكلام فى بحث السرقة أئمة الفقه وشراح الحديث بما لا يأتى التطويل به هاهنا بكثير فائدة * قوله ( جزاء بما كسبا ) مفعول له ، أى فاقطعوا للجزاء أو مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أى جازوهما جزاء ، والباء سببية ، وما مصدرية : أى بسبب كسبهما ، أو موصولة : أى جزاء بالذى كسباه من السرقة * وقوله ( نكالا ) بدل من جزاء ، وقيل هو علة للجزاء : والجزاء علة للقطع ، يقال نكلت به اذا فعلت به مايجب أن ينكل به عن ذلك الفعل * قوله (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ) السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا السرقة ، أى فمن تاب من بعد سرقته وأصلح أمره (فان الله يتوب عليه) ولكن اللفظ عام فيشمل السارق وغيره من المذنبين ، والاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب . وقد استدل بهذا عطاء وجماعة على أن القطع يسقط بالتوبة ، وليس هذا الاستدلال بصحيح ، لأن هذه الجملة الشرطية لاتفيد الا مجرد قبول التوبة ، وأن الله يتوب على من تاب ، وليس فيها مايفيد أنه لاقطع على التائب . وقد كان فى زمن النبوة يأتى إلى النبى ﷺ من وجب عليه حد تائبا عن الذنب الذى ارتكبه طالبا لتطهيره بالحد فيحده النبى ﷺ . وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال « للسارق بعد قطعه تب إلى الله ، ثم قال تاب الله عليك » . أخرجه الدارقطنى من حديث أبى هريرة . وأخرج أحمد وغيره ، أن هذه الآية نزلت فى المرأة التى كانت تسرق المتاع ، لما قالت للنبى ﷺ بعد قطعها هل لى من توبة . وقد ورد فى السنة مايدل على أن الحدود اذا رفعت إلى الأئمة وجبت وامتنع إسقاطها * قوله ( ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ) هذا الاستفهام للانكار مع تقرير العلم

وهو كالعنوان لقوله (يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء) أى من كان له ملك السموات والأرض ، فهو قادر على هذا التعذيب الموكول إلى المشيئة والمغفرة الموكولة إليها .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (جزاء بما كسبا نكالا من الله) قال : لاترثوا لهم فيه فانه أمر الله الذى أمر به ، قال وذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول اشتدوا على الفساق واجعلوهم يدا يدا ورجلا رجلا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه) يقول : الحد كفارته ، والأحاديث فى قدر نصاب السرقة ، وفى سائر مايتعلق بتفاصيل هذا الحد مذكورة فى كتب الحديث فلا نطيل بذلك .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٭ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٭ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ٭ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٭

قوله (لايحزنك) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى ، والحزن والحزن خلاف السرور ، وحزن الرجل بالكسر فهو حزن وحزين : وأحزنه غيره وحزنه . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم . وقد قرئ بهما ، وفى الآية النهى له ﷺ عن التأثر لمسارعة الكفرة فى كفرهم تأثرا بليغا ، لأن الله سبحانه قد وعده فى غير موطن بالنصر عليهم ، والمسارعة إلى الشىء الوقوع فيه بسرعة ، والمراد هنا وقوعهم فى الكفر بسرعة عند وجود فرصة ، وآثر لفظ فى على لفظ إلى للدلالة على استقرارهم فيه ، ومن فى قوله (من الذين قالوا) بيانية ، والجملة مبينة للمسارعين فى الكفر ، والباء فى (بأفواههم) متعلقة بقالوا لا بآمنا ، وهؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم هم المنافقون (ومن الذين هادوا) يعنى اليهود ، وهو معطوف على (من الذين قالوا آمنا) وهو تمام الكلام ٭ والمعنى : أن المسارعين فى الكفر طائفة المنافقين وطائفة اليهود ٭ وقوله (سماعون للكذب) خبر مبتدأ محذوف ، أى هم سماعون للكذب ، فهو راجع إلى الفريقين أو إلى المسارعين ، واللام فى قوله (للكذب) للتقوية أو لتضمين السماع معنى القبول ، وقيل ان قوله (سماعون) مبتدأ خبره (من الذين هادوا) أى ومن الذين هادوا قوم

(سماعون

(سماعون للكذب) أى قابلون لكذب رءوسائهم المحرّفين للتوراة * قوله (سماعون لقوم آخرين) خبر ثان ، واللام فيه كاللام فى للكذب ، وقيل اللام للتعليل فى الموضعين ، أى سماعون لكلام رسول الله لأجل الكذب عليه ، وسماعون لأجل قوم آخرين وجهوهم عيونا لهم لأجل أن يبلغوهم ماسمعوا من رسول الله ﷺ * قوله (لم يأتوك) صفة لقوم ، أى لم يحضروا مجلسك وهم طائفة من اليهود كانوا لايحضرون مجالس رسول الله ﷺ تكبرا وتمرّدا ، وقيل هم جماعة من المنافقين كانوا يتجنبون مجالس رسول الله ﷺ قال الفراء ، ويجوز سماعين كما قال ــ ملعونين أينما ثقفوا ــ * قوله (يحرّفون الكلم من بعد مواضعه) من جملة صفات القوم المذكورين ، أى يميلونه عن مواضعه التى وضعه الله فيها و يتأوّلونه على غير تأويله ، والمحرّفون هم اليهود ، وقيل انهذه الجملة خبر مبتدأ محذوف ، وقيل فى محل نصب على الحال من (لم يأتوك) ، وقيل مستأنفة لامحل لها من الاعراب لقصد تعداد معايبهم ومثالبهم * ومعنى (من بعد مواضعه) من بعد كونه موضوعا فى مواضعه ، أو من بعد وضعه فى مواضعه التى وضعه الله فيها من حيث لفظه ، أو من حيث معناه * قوله (يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه) جملة حالية من ضمير يحرفون ، أو مستأنفة ، أوصفة لقوم ، أوخبرمبتدا محذوف ، والاشارة بقولهم (هذا) الى الكلام المحرف ، أى ان أوتيتم من جهة محمد هذا الكلام الذى حرفناه فخذوه واعملوا به وان لم تؤتوه بل جاءكم بغيره فاحذروا من قبوله والعمل به * قوله (ومن يرد الله فتنته) أى ضلالته (فلن تملك له من الله شيئا) أىفلاتستطيع دفع ذلك عنه ولاتقدر على نفعه وهدايته ، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وظاهرها العموم ويدخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم دخولا أوّليا ، والاشارة بقوله (أولئك) الى من تقدم ذكرهم من الذين قالوا آمنا بأفواههم ومن الذين هادوا ، وهومبتدا وخبره الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، أى لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق كما طهرقلوب المؤمنين (لهم فى الدنيا خزى) بظهور نفاق المنافقين وبضرب الجزية على الكافرين وظهور تحريفهم وكتمهم لما أنزل الله فى التوراة * قوله (سماعون للكذب) كرره تأكيدا لقبحه ، وليكون كالمقدمة لما بعده ، وهو أكالون للسحت ، وهما من جملة أخبار ذلك المبتدأ المقدّر سابقا * والسحت بضم السين وسكون الحاء : المال الحرام ، وأصله الهلاك ، والشدّة ، من سحته اذا هلكه ، ومنه ــ فيسحتكم بعذاب ــ ، ومنه قول الفرزدق :

وعضّ زمان يابن مروان لم يدع * من المال إلامسحت أومجلف

ويقال للحالق اسحت ، أى استأصل ، وسمى الحرام سحتا ، لأنه يسحت الطاعات : أى يذهبها ويستأصلها ، وقال الفراء أصله كلب الجوع ، وقيل هو الرشوة ، والأوّل أولى والرشوة تدخل فى الحرام دخولا أوّليا . وقد فسره جماعة بنوع من أنواع الحرام خاص كالهدية لمن يقضى له حاجة ، وحلوان الكاهن والتعميم أولى بالصواب * قوله (فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) فيه تخيير لرسول الله ﷺ بين الحكم بينهم والاعراض عنهم .

وقد استدلّ به على أن حكام المسلمين مخيرون بين الأمرين . وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والذمى اذا ترافعا اليهم ، واختلفوا فى أهل الذمة اذا ترافعوا فيما بينهم ، فذهب قوم الى التخيير ، وذهب آخرون الى الوجوب ، وقالوا ان هذه الآية منسوخة بقوله (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) وبه قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والزهرى وعمر بن عبد العزيز والسدّى ، وهو الصحيح من قولى الشافعى ، وحكاه القرطبى عن أكثر العلماء * قوله (وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) أى ان اخترت الاعراض عن الحكم بينهم فلا سبيل لهم عليك ، لأن الله حافظك وناصرك عليهم

وان

وان اخترت الحكم بينهم (فاحكم بينهم بالقسط) أى بالعدل الذى أمرك الله به وأنزله عليك * قوله (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) فيه تعجيب له ﷺ من تحكيمهم إياه مع كونهم لايؤمنون به ولا بما جاء به مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم فى التوراة كالرجم ونحوه ، وانما يأتون اليه ﷺ ويحكمونه طمعا منهم فى أن يوافق تحريفهم وما صنعوه بالتوراة من التغيير * قوله (ثم يتولون) عطف على يحكمونك (من بعد ذلك) أى من بعد تحكيمهم لك ، وجملة قوله (وما أولئك بالمؤمنين) لتقرير مضمون ماقبلها * وقوله (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) استئناف يتضمن تعظيم التوراة وتفخيم شأنها وأن فيها الهدى والنور ، وهو بيان الشرائع والتبشير بمحمد ﷺ وإيجاب اتباعه * قوله (يحكم بها النبيون) هم أنبياء بنى إسرائيل ، والجملة اما مستأنفة أو حالية و (الذين أسلموا) صفة مادحة للنبيين ، وفيه إرغام لليهود المعاصرين له ﷺ بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الاسلام الذى دان به محمد ﷺ ، وقيل المراد بالنبيين محمد ﷺ ، وعبر عنه بلفظ الجمع تعظيما * قوله (للذين هادوا) متعلق بيحكم * والمعنى أنه يحكم بها النبيون للذين هادوا وعليهم ، والربانيون العلماء الحكماء ، وقد سبق تفسيره ، والاحبار العلماء ، مأخوذ من التحبير وهو التحسين فهم يحبرون العلم : أى يحسنونه . قال الجوهرى : الحبر واحد أحبار اليهود بالفتح وبالكسر والكسر أفصح ، وقال الفراء هو بالكسر ، وقال أبو عبيدة هو بالفتح * قوله (بما استحفظوا من كتاب الله) الباء السببية واستحفظوا أمروا بالحفظ : أى أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل ، والجار والمجرور متعلق بيحكم ، أى يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ * قوله (وكانوا عليه شهداء) أى على كتاب الله والشهداء الرقباء ، فهم يحمونه عن التغيير والتبديل بهذه المراقبة ، والخطاب بقوله (فلا تخشوا الناس) لرؤساء اليهود ، وكذا فى قوله (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) ، والاشتراء الاستبدال ، وقد تقدم تحقيقه * قوله (ومن لم يحكم بما أنزل فأولئك هم الكافرون) لفظ من من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة بل بكل من ولى الحكم ، وقيل انها مختصة بأهل الكتاب ، وقيل بالكفار مطلقا لأن المسلم لا يكفر بارتكاب الكبيرة ، وقيل هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل الله وقع استخفافا ، أو استحلالا ، أو جحدا ، والاشارة بقوله (أولئك) إلى من ، والجمع باعتبار معناها ، وكذلك ضمير الجماعة فى قوله (هم الكافرون) .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر) قال هم اليهود (من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) قال هم المنافقون . وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عنه . قال : ان الله أنزل (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون) أنزلها الله فى طائفتين من اليهود قهرت احداهما الأخرى فى فى الجاهلية حتى اصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق فكانوا على ذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يومئذ لم يظهر عليهم ، فقتلت الذليلة من العزيزة فأرسلت العزيزة الى الذليلة أن ابعثوا الينا بمائة وسق . فقالت الذليلة وهل كان هذا فى حيين قط ، دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد ، ودية بعضهم نصف دية بعض ، انما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا وفرقا منكم ، فاما اذ قدم محمد ﷺ فلا نعطيكم ذلك ، فكانت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله ﷺ بينهما ، ففكرت العزيزة ، فقالت والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف مانعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيما وقهرا لهم فدسوا الى رسول الله ﷺ من يخبر لكم رأيه ،

فان أعطاكم ماتريدون حكمتوه وان لم يعطكم حذرتموه ولم تحكموه ، فدسوا الى رسول الله ﷺ ناسا من المنافقين يختبرون لهم رأيه ، فلما جاءوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أداروا ، فأنزل الله ( ياأيها الرسول لايحزنك ) الى قوله ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) ثم قال فيهم والله أنزلت واياهم عنى . وأخرج عبدالرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأبوداود وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : أول مرجوم رجمه رسول الله ﷺ من اليهود زنى رجل منهم وامرأة ، فقال بعضهم لبعض اذهبوا بنا الى هذا النبى ، فانه نبىّ بعث بالتخفيف ، فان أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله وقلنا فتيا نبىّ من أنبيائك ، قال فأتوا النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد وأصحابه ، فقالوا ياأبا القاسم ماترى فى رجل وامرأة منهم زنيا فلم يكلمهم حتى أتى بيت مدراسهم ، فقام على الباب فقال أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ماتجدون فى التوراة على من زنى اذا أحصن ؟ قالوا يحمم ويجبه ويجلد ، والتجبية أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما ويطاف بهما ، وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبى ﷺ سكت ألظّ به النشدة فقال « اللهم اذ نشدتنا نجب فانا نجد فى التوراة الرجم » فقال النبى ﷺ فما أول ماارتخصتم أمر الله ؟ قال زنى رجل ذوقرابة من ملك من ملوكنا فأخرعنه الرجم ، ثم زنى رجل فى أسرة من الناس فأراد رجمه ، فحال قومه دونه ، وقالوا والله لاترجم صاحبنا حتى تجىء بصاحبك فترجمه ، فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم ، قال النبى ﷺ « فانى أحكم بما فى التوراة » فأمر بهما فرجما ، قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ( انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ) فكان النبى ﷺ منهم . وأخرجه ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى سننه من طريق أخرى عن أبى هريرة وذكر فيه أن الشاب المذكور هو عبدالله بن صوريا . وأخرج نحو حديث أبى هريرة أحمد ومسلم وأبوداود والنسائى من حديث البراء بن عازب . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عبدالله ابن عمر أن اليهود جاءوا الى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ ماتجدون فى التوراة ؟ قالوا نفضحهم ويجلدون ، قال عبدالله بن سلام كذبتم ان فيها آية الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ماقبلها ومابعدها ، فقال عبدالله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فاذا آية الرجم ، قالوا صدق ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن جابر بن عبد الله فى قوله ( ومن الذين هادوا سماعون للكذب ) قال يهود المدينة ( سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ) قال يهود فدك ( يحرّفون الكلم ) قال يهود فدك يقولون ليهود المدينة ( ان أوتيتم هذا ) الجلد ( فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ) الرجم . وأخرج أبوداود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عنه قال : زنى رجل من أهل فدك ، فكتب أهل فدك الى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمدا وذكر القصة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله ( أكالون للسحت ) قال : أخذوا الرشوة فى الحكم وقضوا بالكذب . وأخرج عبدالرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن مسعود قال : السحت : الرشوة فى الدين . قال سفيان : يعنى فى الحكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود أيضا قال : من شفع لرجل ليدفع عنه مظلمة أو يردّ عليه حقا فأهدى له هدية فقبلها فذلك السحت ، فقيل له ياأباعبدالرحمن انا كنا نعدّ السحت الرشوة فى الحكم ، فقال ذلك الكفر ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون ) ، وقد روى نحو هذا عنه من طرق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : رشوة الحكام حرام ، وهى السحت الذى ذكرالله فى كتابه . وأخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال : السحت الرشوة . وأخرج عبد بن حميد

عن على بن أبي طالب أنه سئل عن السحت فقال : الرشا ، فقيل له فى الحكم قال : ذاك الكفر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمر قال : بابان من السحت يأكلهما الناس الرشاه فى الحكم ، ومهر الزانية ، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى تحريم الرشوة ماهومعروف . وأخرج أبوداود فى ناسخه وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : آيتان نسختا من سورة المائدة آية القلائد ، وقوله (فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) فكان رسول الله ﷺ مخيرا : ان شاء حكم بينهم وان شاء أعرض عنهم ، فردهم الى أحكامهم ، فنزلت (وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) قال ، فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما فى كتابنا . وأخرج نحوه فى الآية الآخرة عنه أبوعبيدة وابن المنذر وابن مردويه . وأخرج عبد الرزاق عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس أن الآيات من المائدة التى قال فيها (فاحكم بينهم أوأعرض عنهم) الى قوله (المقسطين) انما نزلت فى الدية من بنى النضير وقريظة ، وذلك أن قتلى بنى النضير كان لهم شرف يودون الدية كاملة ، وأن بنى قريظة كانوا يودون نصف الدية فتحاكموا فى ذلك الى رسول الله ﷺ فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فى ذلك ، فجعل الدية سواء . وأخرج نحوه عنه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وعندهم التوراة فيها حكم الله) يعنى حدود الله فأخبره الله بحكمه فى التوراة ، فقال (وكتبنا عليهم فيها) الى قوله (والجروح قصاص) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبوالشيخ عن الحسن فى قوله (يحكم بها النبيون الذين أسلموا يعنى النبى ﷺ (للذين هادوا) يعنى اليهود . وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : الذين أسلموا النبى ومن قبله من الأنبياء يحكمون بمافيها من الحق . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : الربانيون والأحبار : الفقهاء والعلماء . وأخرج عن مجاهد قال : الربانيون العلماء الفقهاء ، وهم فوق الأحبار . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : الربانيون العباد ، والأحبار : العلماء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال الربانيون الفقهاء العلماء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال الربانيون هم المؤمنون ، والأحبارهم القراء . وأخرج ابن جرير عن السدى (فلا تخشوا الناس) فتكتموا ما أنزلت (ولاتشتروا بآياتى ثمناقليلا) على أن تكتموا ماأنزلت . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد (ولاتشتروا بآياتى ثمناقليلا) قال : لاتأكلوا السحت على كتابى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ومن لم يحكم) يقول من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال : انه ليس بالكفر الذين يذهبون اليه وانه ليس كفر ينقل من الملة كفر بل دون كفر ، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء بن أبى رباح فى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون هم الظالمون هم الفاسقون) قال : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق . وأخرج سعيد ابن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : انما أنزل الله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون) فى اليهود خاصة ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن حذيفة ، أن هذه الآيات ذكرت عنده (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون) فقال رجل ان هذا فى بنى اسرائيل ، فقال حذيفة : نعم الاخوة لكم بنو إسرائيل ان كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة كلا ، والله لتسلكن طريقهم قدّ الشراك . وأخرج ابن المنذر نحوه عن ابن عباس .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *

قوله (وكتبنا) معطوف على أنزلنا التوراة ، ومعناه فرضنا ، بين الله سبحانه فى هذه الآية مافرضه على بنى اسرائيل : من القصاص فى النفس ، والعين ، والأنف ، والأذن ، والسن ، والجروح . وقداستدل أبو حنيفة وجماعة من أهل العلم بهذه الآية ، فقالوا انه يقتل المسلم بالذمى لأنه نفس ، وقال الشافعى وجماعة من أهل العلم ان هذه الآية خبر عن شرع من قبلنا وليس بشرع لنا . وقد قدمنا فى البقرة فى شرح قوله تعالى ــ كتب عليكم القصاص فى القتلى ــ مافيه كفاية .

وقد اختلف أهل العلم فى شرع من قبلنا هل يلزمنا أم لا ، فذهب الجمهور الى أنه يلزمنا اذا لم ينسخ وهو الحق . وقدذكر ابن الصباغ فى الشامل اجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على مادلت عليه قال ابن كثير فى تفسيره وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة لعموم هذه الآية الكريمة انتهى .

وقد أوضحنا ماهو الحق فى هذا فى شرحنا على المنتقى ، وفى هذه الآية توبيخ لليهود وتقريع لكونهم يخالفون ما كتبه الله عليهم فى التوراة ، كما حكاه هنا ويفاضلون بين الأنفس كما سبق بيانه وقد كانوا يقيدون بنى النضير من بنى قريظة ولا يقيدون بنى قريظة من بنى النضير * قوله (والعين بالعين) قرأ نافع وعاصم والأعمش وحمزة بالنصب فى جميعها على العطف . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بالنصب أيضا فى الكل الا فى الجروح فبالرفع . وقرأ الكسائى وأبو عبيد بالرفع فى الجميع عطفا على المحل ، لأن النفس قبل دخول الحرف الناصب عليها كانت مرفوعة على الابتداء . وقال الزجاج : يكون عطفا على المضمر فى النفس ، لأن التقدير ان النفس هى مأخوذة بالنفس ، فالأسماء معطوفة على هى . قال ابن المنذر : ومن قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمن بيان الحكم للمسلمين * والظاهر من النظم القرآنى أن العين اذا فقئت حتى لم يبق فيها مجال للادراك أنها تفقأ عين الجانى بها ، والأنف اذا جدعت جميعها فانها

تجدع أنف الجانى بها ، والأذن اذا قطعت جميعها ، فانها تقطع أذن الجانى بها ، وكذلك السن ، فأما لو كانت الجناية ذهبت ببعض إدراك العين ، أو ببعض الأنف ، أو ببعض الأذن ، أو ببعض السن ، فليس فى هذه الآية مايدل على ثبوت القصاص .

وقد اختلف أهل العلم فى ذلك اذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته ، وكلامهم مدون فى كتب الفروع ﴿ والظاهر من قوله ( والسن بالسن ) أنه لافرق بين الثنايا والانياب والاضراس والرباعيات وأنه يؤخذ بعضها ببعض ولا فضل لبعضها على بعض ، واليه ذهب أكثر أهل العلم ، كما قال ابن المنذر وخالف فى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن تبعه ، وكلامهم مدون فى مواطنه ولكنه ينبغى أن يكون المأخوذ فى القصاص من الجانى هو المماثل للسن المأخوذة من المجنى عليه ، فان كانت ذاهبة فبابلها ﴿ قوله ( والجروح قصاص ) أى ذوات قصاص . وقد ذكر أهل العلم أنه لاقصاص فى الجروح التى يخاف منها التلف ولافيما كان لايعرف مقداره عمقا أو طولا أو عرضا . وقد قدر أئمة الفقه أرش كل جراحة بمقادير معلومة ، وليس هذا موضع بيان كلامهم ، ولا موضع استيفاء بيان ماورد له أرش مقدر ﴿ قوله ( فمن تصدق به فهو كفارة له ) أى من تصدق من المستحقين للقصاص بالقصاص ، بأن عفا عن الجانى فهو كفارة للتصدق يكفر الله عنه بها ذنوبه ، وقيل ان المعنى : فهو كفارة للجارح فلا يؤاخذ بجنايته فى الآخرة لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه ﴿ والأول أرجح ، لأن الضمير يعود على هذا التفسير الآخر الى غير مذكور ﴿ قوله ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ) ضمير الفصل مع اسم الاشارة وتعريف الخبر يستفاد منها أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ الى الغاية ﴿ قوله ( وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ) هذا شروع فى بيان حكم الانجيل بعد بيان حكم التوراة ، أى جعلنا عيسى ابن مريم يقفو آثارهم أى آثار النبيين الذين أسلموا من بنى اسرائيل ، يقال قفيته مثل عقبته اذا أتبعته ، ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به فيتعدى الى الثانى بالباء ، والمفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف ، وهو على آثارهم لأنه اذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه ، وانتصاب ( مصدقا ) على الحال من عيسى ( وآتيناه الانجيل ) عطف على قفينا ، ومحل الجملة أعنى ( فيه هدى ) النصب على الحال من الانجيل ( ونور ) عطف على هدى ﴿ وقوله ( ومصدقا ) معطوف على محل ( فيه هدى ) أى ان الانجيل أوتيه عيسى حال كونه مشتملا على الهدى والنور ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وقيل ان مصدقا معطوف على مصدقا الأول فيكون حالا من عيسى مؤكدا للحال الأول ومقررا له ﴿ والأول أولى لأن التأسيس خير من التأكيد ﴿ قوله ( وهدى وموعظة للمتقين ) عطف على مصدقا داخل تحت حكمه منضما اليه ، أى مصدقا وهاديا وواعظا للمتقين ﴿ قوله ( وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ) هذا أمر لأهل الانجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه فانه قبل البعثة المحمدية حق ، وأما بعدها فقد أمروا فى غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد ﷺ فى القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة . وقرأ الأعمش وحمزة بنصب الفعل من يحكم على أن اللام لام كى . وقرأ الباقون بالجزم على أن اللام للأمر ، فعلى القراءة الأولى تكون اللام متعلقة بقوله وآتيناه الانجيل ليحكم أهله بما أنزل الله فيه ، وعلى القراءة الثانية هو كلام مستأنف . قال مكى والاختيار الجزم ، لأن الجماعة عليه ، ولأن مابعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله لأهل الانجيل . وقال النحاس والصواب عندى أنهما قراءتان حسنتان لأن الله سبحانه لم ينزل كتابا الا ليعمل بما فيه ﴿ قوله ( وأنزلنا إليك الكتاب ) خطاب لمحمد ﷺ ، والكتاب القرآن والتعريف للعهد ، و ( بالحق ) متعلق بمحذوف وقع حالا ، أى متلبسا بالحق ، وقيل هو حال من فاعل أنزلنا ، وقيل من ضمير النبى ﷺ و ( مصدقا

لما بين يديه ) حال من الكتاب ، والتعريف في الكتاب ، أعني قوله ( مصدقا لما بين يديه من الكتاب ) للجنس ، أي أنزلنا إليك يامحمد القرآن حال كونه متلبسا بالحق وحال كونه مصدقا لما بين يديه من كتب الله المنزلة لكونه مشتملا على الدعوة إلى الله والأمر بالخير والنهي عن الشر ، كما اشتملت عليه * قوله ( ومهيمنا عليه ) عطف على مصدقا ، والضمير في عليه عائد الى الكتاب الذى صدقه القرآن وهيمن عليه ، والمهيمن الرقيب ، وقيل الغالب المرتفع ، وقيل الشاهد ، وقيل الحافظ ، وقيل المؤتمن . قال المبرد أصله مؤيمن أبدل من الهمزة هاء ، كما قيل في أرقت الماء هرقت ، وبه قال الزجاج وأبو على الفارسي ، وقال الجوهرى : هو من أمن غيره من الخوف ، وأصله أأمن ، فهو مؤأمن بهمزتين قلبت الثانية ياكراهة لاجتماعهما فصار مؤيمن ثم صيرت الأولى هاء ، كما قالوا هراق الماء وأراقه ، يقال هيمن على الشيء يهيمن اذا كان له حافظا ، فهوله مهيمن كذا عن أبي عبيد . وقرأ مجاهد وابن محيصن مهيمنا عليه بفتح الميم ، أى هيمن عليه الله سبحانه * والمعنى على قراءة الجمهور أن القرآن صار شاهدا بصحة الكتب المنزلة ومقررا لما فيها مما لم ينسخ وناسخا لما خالفه منها ، ورقيبا عليها وحافظا لما فيها من أصول الشرائع ، وغالبا لها لكونه المرجع في المحكم منها والمنسوخ ومؤتمنا عليها لكونه مشتملا على ماهو معمول به منها ، وماهو متروك * قوله ( فاحكم بينهم بما أنزل الله ) أي بما أنزله إليك في القرآن لاشتماله على جميع ماشرعه الله لعباده في جميع الكتب السابقة عليه ( ولا تتبع أهواءهم ) أى أهواء أهل الملل السابقة * وقوله ( عما جاءك من الحق ) متعلق بلا تتبع على تضمينه معنى لاتعدل أولا تنحرف ( عما جاءك من الحق ) متبعا لأهوائهم ، وقيل متعلق بمحذوف ، أى لاتتبع أهواءهم عادلا أو منحرفا عن الحق وفيه النهي له ﷺ عن أن يتبع أهوية أهل الكتاب ويعدل عن الحق الذى أنزله الله عليه ، فان كل ملة من الملل تهوى أن يكون الأمر على ماهم عليه ، وماأدركوا عليه سلفهم وان كان باطلا منسوخا أو محرفا ، عن الحكم الذى أنزله الله على الأنبياء ، كما وقع في الرجم ونحوه مما حرفوه من كتب الله * قوله ( لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ) الشرعة والشريعة في الأصل : الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى الماء ، ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدين * والمنهاج : الطريقة الواضحة البينة . وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الشريعة : ابتداء الطريق ، والمنهاج : الطريق المستمر * ومعنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها ، والانجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن ، وأما بعده فلا شرعة ولا منهاج إلا ماجاء به محمد ﷺ * قوله ( ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ) بشريعة واحدة وكتاب واحد ورسول واحد ( ولكن ليبلوكم ) أى ولكن لم يشأ ذلك الاتحاد ، بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع فيكون ( ليبلوكم ) متعلقا بمحذوف دل عليه سياق الكلام وهو ماذكرنا ، ومعنى ( فيما آتاكم ) فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والرسل هل تعملون بذلك وتذعنون له أو تتركونه وتخالفون مااقتضته مشيئة الله وحكمته وتميلون إلى الهوى وتشترون الضلالة بالهدى ، وفيه دليل على أن اختلاف الشرائع هو لهذه العلة ، أعنى الابتلاء والامتحان لالكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص * قوله ( فاستبقوا الخيرات ) أى إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبقوا إلى فعل ماأمرتم بفعله وترك ماأمرتم بتركه * والاستباق : المسارعة ( إلى الله مرجعكم جميعا ) لاإلى غيره ، وهذه الجملة كالعلة لما قبلها * قوله ( وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ) عطف على الكتاب ، أى أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه . وقد استدل بهذا على نسخ التخيير المتقدم في قوله — أو أعرض عنهم — . وقد تقدم تفسير — ولا تتبع أهواءهم — * قوله ( واحذرهم أن

يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك) أى يضلوك عنه و يصرفوك بسبب أهوائهم التى يريدون منك أن تعمل عليها وتؤثرها (فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى ان أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل الله عليك فذلك لما أراده الله من تعذيبهم ببعض ذنوبهم وهوذنب التولى عنك والاعراض عما جئت به (وان كثيرا من الناس لفاسقون) متمردون عن قبول الحق خارجون عن الانصاف * قوله (أفحكم الجاهلية يبغون) الاستفهام للانكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كما فى نظائره * والمعنى أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويبتغون حكم الجاهلية ، والاستفهام فى (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) للانكار أيضا ، أى لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين لاعند أهل الجهل والأهواء .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس (كتبنا عليهم فيها) فى التوراة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه : قال كتب عليهم هذا فى التوراة ، وكانوا يقتلون الحر بالعبد فيقولون كتب علينا أن النفس بالنفس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال يهدم عنه من ذنوبه بقدر ماتصدق به . وأخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله (فهو كفارة له) قال للمجروح . وأخرج أحمد والترمذى وابن ماجه عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مامن مسلم يصاب بشىء فى جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس (ومهيمنا عليه) قال مؤتمنا عليه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عنه قال المهيمن : الأمين ، والقرآن أمين على كل كتاب قبله . وأخرج سعيد بن منصور وعبدبن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه فى قوله (شرعة ومنهاجا) قال سبيلا وسنة . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا أن نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا يامحمد انك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم وانا ان اتبعناك اتبعنا يهود وأن بيننا و بين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك ، وأنزل الله فيهم (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) إلى قوله (لقوم يوقنون) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (أفحكم الجاهلية يبغون) قال يهود . وأخرج عبدبن حميد عن قتادة : قال هذا فى قتيل اليهود .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَٰسِرِينَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ *

قوله (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا) الظاهر أنه خطاب للمؤمنين حقيقة ، وقيل المراد بهم المنافقون ، ووصفهم بالايمان باعتبار ما كانوا يظهرونه . وقد كانوا يوالون اليهود والنصارى فنهوا عن ذلك * والأولى أن يكون خطابا لكل من يتصف بالايمان أعمّ من أن يكون ظاهرا وباطنا أو ظاهرا فقط ، فيدخل المسلم والمنافق ، ويؤيد هذا قوله (فترى الذين فى قلوبهم مرض) والاعتبار بعموم اللفظ ، وسيأتى فى بيان سبب نزول الآية مايتضح به المراد * والمراد من النهى عن اتخاذهم أولياء أن يعاملوا معاملة الأولياء فى المصادقة والمعاشرة والمناصرة * وقوله (بعضهم أولياء بعض) تعليل للنهى ، والمعنى أن بعض اليهود أولياء البعض الآخر منهم ، وبعض النصارى أولياء البعض الآخر منهم ، وليس المراد بالبعض إحدى طائفتى اليهود والنصارى ، وبالبعض الآخر الطائفة الأخرى للقطع بأنهم فى غاية من العداوة والشقاق - وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ، وقيل المراد أن كل واحدة من الطائفتين توالى الأخرى وتعاضدها وتناصرها على عداوة النبى ﷺ وعداوة ماجاء به وان كانوا فى ذات بينهم متعادين متضادّين ، ووجه تعليل النهى بهذه الجملة أنها تقتضى أن هذه الموالاة هى شأن هؤلاء الكفار لاشأنكم فلا تفعلوا ماهو من فعلهم فتكونوا مثلهم ، ولهذا عقب هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال (ومن يتولهم منكم فانه منهم) أى فانه من جملتهم وفى عدادهم ، وهو وعيد شديد فان المعصية الموجبة للكفر هى التى قد بلغت إلى غاية ليس وراءها غاية * وقوله (ان الله لايهدى القوم الظالمين) تعليل للجملة التى قبلها ، أى ان وقوعهم فى الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر كمن يوالى الكافرين * قوله (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم) الفاء للسببية ، والخطاب إما للرسول ﷺ ، أو لكل من يصلح له : أى مارتكبوه من الموالاة ووقعوا فيه من الكفر هو بسبب مافى قلوبهم من مرض النفاق * وقوله (يسارعون) فى محل نصب إما على أنه المفعول الثانى إذا كانت الرؤية قلبية أو على أنه حال إذا كانت بصرية ، وجعل المسارعة فى موالاتهم مسارعة فيهم للمبالغة فى بيان رغوبهم فى ذلك حتى كأنهم مستقرّون فيهم داخلون فى عدادهم . وقد قرئ فيرى بالتحتية ، واختلف فى فاعله ماهو ؟ فقيل هو الله عزّ وجلّ ، وقيل هو كل من تصح منه الرؤية ، وقيل هو الموصول ، ومفعوله (يسارعون فيهم) على حذف أن المصدرية ، أى فيرى القوم الذين فى قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم ، فلما حذفت ارتفع الفعل كقوله : * ألا أيها هذا اللائمى أحضر الوغا * والمرض فى القلوب : هو النفاق والشك فى الدين * وقوله (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) جملة مشتملة على تعليل المسارعة فى الموالاة : أى أن هذه الخشية هى الحاملة لهم على المسارعة ، وقيل ان الجملة حال من ضمير (يسارعون) * والدائرة : مايدور من مكاره الدهر ، أى نخشى أن تظفر الكفار بمحمد ﷺ فتكون الدولة لهم وتبطل دولته فيصيبنا منهم مكروه ، ومنه قول الشاعر :

يردّ عنك القدر المقدورا * ودائرات الدهر أن تدورا

أى دولات الدهر الدائرة من قوم إلى قوم * وقوله (فعسى الله أن يأتى بالفتح) ردّ عليهم ودفع لما وقع لهم من الخشية ، وعسى فى كلام الله وعد صادق لايتخلف * والفتح : ظهور النبى ﷺ على

الكافرين ، ومنه ماوقع من قتل مقاتلة بنى قريظة وسبى ذراريهم ، و إجلاء بنى النضير ، وقيل هو فتح بلاد المشركين على المسلمين ، وقيل فتح مكة * والمراد بالأمر من عنده سبحانه هو كل ماتندفع به صولة اليهود ومن معهم وتنكسر به شوكتهم ، وقيل هو إظهار أمر المنافقين و إخبار النبي ﷺ بما أسرّوا فى أنفسهم وأمره بقتلهم ، وقيل هو الجزية التى جعلها الله عليهم ، وقيل الخصب والسعة للمسلمين فيصبح المنافقون (على ماأسرّوا فى أنفسهم) من النفاق الحامل لهم على الموالاة (نادمين) على ذلك لبطلان الأسباب التى تخيلوها وانكشاف خلافها * قوله (يقول الذين آمنوا) قرأ أبو عمرو وابن أبى إسحق وأهل الكوفة باثبات الواو ، وقرأ الباقون بحذفها ، فعلى القراءة الأولى مع رفع يقول يكون كلاما مبتدأ مسوقا لبيان ماوقع من هذه الطائفة ، وعلى قراءة النصب يكون عطفا على (فيصبحوا) ، وقيل على (يأتى) * والأولى أولى ، لأن هذا القول انما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة الكافرين لاعند إتيان الفتح ، وقيل هو معطوف على الفتح كقول الشاعر : * للبس عباءة وتقرّ عينى * وأما على قراءة حذف الواو ، فالجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والاشارة بقوله (أهؤلاء) إلى المنافقين : أى يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين الى المنافقين (أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم) بالمناصرة والمعاضدة فى القتال ، أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى المنافقين ، وهذه الجملة مفسرة للقول * وجهد الايمان : أغلظها ، وهو منصوب على المصدر أو على الحال ، أى أقسموا بالله جاهدين * قوله (حبطت أعمالهم) أى بطلت وهو من تمام قول المؤمنين أو جملة مستأنفة والقائل الله سبحانه * والأعمال هى التى عملوها فى الموالاة أو كل عمل يعملونه * قوله (ياأيها الذين آمنوا من يرتدد منكم) قرأ أهل المدينة والشام يرتدد بدالين بفك الادغام ، وهى لغة تميم ، وقرأ غيرهم بالادغام ، وهذا شروع فى بيان أحكام المرتدين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر ، وذلك نوع من أنواع الردة * والمراد بالقوم الذين وعد الله سبحانه بالاتيان بهم هم أبو بكر الصديق رضى الله عنه وجيشه من الصحابة والتابعين الذين قاتل بهم أهل الردة ، ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين فى جميع الزمن ، ثم وصف سبحانه هؤلاء القوم بهذه الأوصاف العظيمة المشتملة على غاية المدح ونهاية الثناء من كونهم يحبون الله وهو يحبهم ومن كونهم (أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) * والأذلة : جمع ذليل لاذلول * والأعزّة : جمع عزيز ، أى يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين و يظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين ويجمعون بين المجاهدة فى سبيل الله وعدم خوف الملامة فى الدين ، بل هم متصلبون لايبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان من الازراء بأهل الدين وقلب محاسنهم مساوى ومناقبهم مثالب حسدا و بغضا وكراهة للحق وأهله ، والاشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدم من الصفات التى اختصهم الله بها * والفضل : اللطف والاحسان * قوله (انما وليكم الله) لما فرغ سبحانه من بيان من لاتحلّ موالاته بين من هو الولىّ الذى تجب موالاته ، ومحل (الذين يقيمون الصلاة) الرفع على أنه صفة للذين آمنوا أو بدل منه أو النصب على المدح * وقوله (وهم راكعون) جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله * والمراد بالركوع : الخشوع والخضوع ، أى يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة وهم خاشعون خاضعون لايتكبرون ، وقيل هو حال من فاعل الزكاة * والمراد بالركوع هو المعنى المذكور : أى يضعون الزكاة فى مواضعها غير متكبرين على الفقراء ولا مترفعين عليهم ، وقيل المراد بالركوع على المعنى الثانى ركوع الصلاة ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال ، ثم وعد سبحانه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا بأنهم الغالبون لعدوّهم ، وهو من وضع الظاهر موضع المضمر ، ووضع حزب الله موضع

ضمير

ضمير الموالين لله ولرسوله وللمؤمنين * والحزب : الصنف من الناس من قولهم حزبه كذا : أى نابه ، فكأن المتحزبين مجتمعون كاجتماع أهل النائبة التى تنوب ، وحزب الرجل أصحابه ، والحزب : الورد وفى الحديث « فمن فاته حزبه من الليل » وتحزّبوا : اجتمعوا * والأحزاب : الطوائف . وقد وقع ، ولله الحمد ماوعد الله به أولياءه وأولياء رسله وأولياء عباده المؤمنين من الغلب لعدوّهم فانهم غلبوا اليهود بالسبي والقتل والاجلاء وضرب الجزية حتى صاروا ، لعنهم الله أذلّ الطوائف الكفرية وأقلها شوكة ، وما زالوا تحت كلكل المؤمنين يطحنونهم كيف شاءوا ، ويمتهنونهم كما يريدون من بعد البعثة الشريفة المحمدية الى هذه الغاية .

وقد أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت : قال لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبىّ ابن سلول وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله والى رسوله من حلفهم ، وكان أحد بنى عوف بن الخزرج ، وله من حلفهم مثل الذى كان لهم من عبد الله بن أبىّ ابن سلول فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وقال أتبرأ إلى الله و إلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ، وفيه وفى عبد الله بن أبىّ نزلت الآيات فى المائدة (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) إلى قوله (فان حزب الله هم الغالبون) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أسلم عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، ثم قال ان بينى و بين قريظة والنضير حلفا وانى أخاف الدوائر فارتدّ كافرا . وقال عبادة بن الصامت أتبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير وأتولى الله ورسوله ، فنزلت . وأخرج ابن مردويه أيضا من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جدّه نحو ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد : قال جاء عبادة فذكر نحو ماتقدّم . وأخرج ابن جرير عن الزهرى : قال لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر ، فقال مالك بن ضيف غرّكم أن أصبتم رهطا من قريش لاعلم لهم بالقتال أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يدان بقتالنا ، فقال عبادة وذكر نحو ماتقدّم عنه وعن عبدالله بن أبىّ . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا) قال انها فى الذبائح « من دخل فى دين قوم فهو منهم » . وأخرج عبد بن حميد عن حذيفة قال « ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لايشعر وتلا ومن يتولهم منكم فانه منهم » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية (فترى الذين فى قلوبهم مرض) كعبد الله بن أبىّ (يسارعون فيهم) فى ولايتهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقى فى سننه وابن عساكر عن قتادة . قال أنزل الله هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا من يرتدد منكم) وقد علم أنه سيرتدّ مرتدّون من الناس ، فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتدّ عامّة العرب عن الاسلام إلا ثلاثة مساجد : أهل المدينة ، وأهل مكة ، وأهل الجواثى من عبد القيس . وقال الذين ارتدّوا نصلى الصلاة ولا نزكى والله لاتغصب أموالنا ، فكلم أبو بكر فى ذلك ليتجاوز عنهم ، وقيل له انهم لوقد فقهوا أدّوا الزكاة . فقال والله لاأفرق بين شىء جمعه الله ولو منعونى عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه ، فبعث الله عصائب مع أبى بكر ، فقاتلوا حتى أقروا بالماعون وهو الزكاة . قال قتادة فكنا نتحدث أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وأصحابه (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) الى آخر الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الدلائل عن الحسن نحوه . وأخرج ابن جرير عن شريح بن عبيد قال لما أنزل الله (ياأيها الذين

V. 62-66



آمنوا من يرتد منكم عن دينه) الآية . قال عمر أنا وقومي يارسول الله قال : لا بل هذا وقومه ، يعني أبا موسى الأشعري . وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة في مسنده وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن عياض الأشعري قال : لما نزلت (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال رسول الله ﷺ هم قوم هذا وأشار الى أبي موسى الأشعري . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم في جمعه لحديث شعبة والبيهقي وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال : تليت عند النبي ﷺ (فسوف يأتي الله بقوم) الآية . فقال النبي ﷺ قومك ياأبا موسى أهل اليمن . وأخرج ابن أبي حاتم في الكنى والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ وابن مردويه بسند حسن عن جابر بن عبدالله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله (فسوف يأتي الله بقوم) الآية . فقال هؤلاء قوم من أهل اليمن ثم كندة ثم السكون ثم تجيب . وأخرج البخاري في تاريخه وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال هم قوم من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون . وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال هم أهل القادسية . وأخرج البخاري في تاريخه عن القاسم ابن مخيمرة قال : أتيت ابن عمر فرحب بي ، ثم تلا (من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم) الآية ، ثم ضرب على منكبي وقال : أحلف بالله انهم لمنكم أهل اليمن ثلاثا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عطية بن سعد . قال في قوله (انما وليكم الله ورسوله) انها نزلت في عبادة بن الصامت . وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عباس . قال تصدق علي بخاتم وهو راكع ، فقال النبي ﷺ للسائل : من أعطاك هذا الخاتم قال ذاك الراكع ، فأنزل الله فيه (انما وليكم الله ورسوله) . وأخرج عبدالرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت في علي بن أبي طالب . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب نحوه . وأخرج ابن مردويه عن عمار نحوه أيضا . وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه مجاهيل عنه نحوه

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ ٱللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ أُولَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ * وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَـٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *

قوله (لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا) هذا النهي عن موالاة المتخذين للدين هزوا ولعبا يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع المنتمين الى الاسلام ، والبيان بقوله

(من الذين أوتوا الكتاب) الى آخره لاينافى دخول غيرهم تحت النهى اذا وجدت فيه العلة المذكورة التى هى الباعثة على النهى * قوله (والكفار) قرأ أبو عمرو والكسائى بالجر على تقدير من : أى ومن الكفار قال الكسائى وفى حرف أبىّ ومن الكفار ، وقرأ من عداهما بالنصب . قال النحاس وهو أوضح وأبين ، وقال مكى لولا اتفاق الجماعة على النصب لاخترت الخفض لقوته فى الاعراب وفى المعنى ، والمراد بالكفار هنا المشركون ، وقيل المنافقون (واتقوا الله) بترك مانهاكم عنه من هذا وغيره (ان كنتم مؤمنين) فان الايمان يقتضى ذلك ، والنداء الدعاء برفع الصوت وناداه مناداة ونداء صاح به ، وتنادوا : أى نادى بعضهم بعضا ، وتنادوا : أى جلسوا فى النادى ، والضمير فى اتخذوها للصلاة : أى اتخذوا صلاتكم هزؤا ولعبا ، وقيل الضمير للمناداة المدلول عليها بناديتم . قيل وليس فى كتاب الله تعالى ذكر الأذان الا فى هذا الموضع ، وأما قوله تعالى فى الجمعة ــ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ــ فهو خاص بنداء الجمعة

وقد اختلف أهل العلم فى كون الأذان واجبا أو غير واجب ، وفى ألفاظه وهو مبسوط فى مواطنه * قوله (ذلك بأنهم قوم لايعقلون) أى ذلك بسبب أنهم قوم لايعقلون ، لأن الهزؤ واللعب شأن أهل السفه والخفة والطيش * قوله (قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا) يقال نقمت على الرجل بالكسر فأنا ناقم : اذا عبت عليه . قال الكسائى : نقمت بالكسر لغة ، ونقمت الأمر أيضا ونقمت اذا كرهته ، وانتقم الله منه : أى عاقبه ، والاسم منه النقمة ، والجمع نقمات ، مثل كلمة وكلمات ، وان شئت سكنت القاف ونقلت حركتها الى النون ، والجمع نقم مثل نعمة ونعم ، وقيل المعنى يسخطون ، وقيل ينكرون . قال عبد الله بن الرقيات :

ما نقموا من بنى أمية الا ٭ أنهم يحلمون ان غضبوا

وقال الله سبحانه ــ وما نقموا منهم ــ والمعنى فى الآية هل تعيبون أو تسخطون أو تنكرون أو تكرهون منا الا ايماننا بالله وبكتبه المنزلة ، وقد علمتم بأنا على الحق (وأن أكثركم فاسقون) بترككم للايمان والخروج عن امتثال أوامر الله * وقوله (وأن أكثركم فاسقون) معطوف على أن آمنا أى ماتنقمون منا الا الجمع بين ايماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الايمان ، وفيه أن المؤمنين لم يجمعوا بين الأمرين المذكورين ، فان الايمان من جهتهم والتمرد والخروج من جهة الناقمين ، وقيل هو على تقدير محذوف : أى واعتقادنا أن أكثركم فاسقون وقيل ان قوله (أن آمنا) هو منصوب على أنه مفعول له والمفعول محذوف ، فيكون وان أكثركم فاسقون معطوفا عليه عطف العلة على العلة ، والتقدير وماتنقمون منا الا لأن آمنا ، ولأن أكثركم فاسقون ، وقيل معطوف على علة محذوفة ، أى لقلة انصافكم ، ولأن أكثركم فاسقون ، وقيل الواو فى قوله (وأن أكثركم فاسقون) هى التى بمعنى مع : أى ماتنقمون منا الا الايمان مع أن أكثركم فاسقون ، وقيل هو منصوب بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون : أى ولاتنقمون أن أكثركم فاسقون ، وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف ، أى وفسقكم معلوم فتكون الجملة حالية ، وقرئ بكسر ان من قوله (وان أكثركم فاسقون) فتكون جملة مستأنفة * قوله (قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك) بين الله سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ماهو أولى بالعيب ، وهو ماهم عليه من الكفر الموجب للعن الله وغضبه ومسخه ، والمعنى هل أنبئكم بشر من نقمكم علينا أو بشر مما تريدون لنا من المكروه أو بشر من أهل الكتاب أو بشر من دينهم * وقوله (مثوبة) أى جزاء ثابتا وهى مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر ، ووضعت هنا موضع العقوبة على طريقة ــ فبشرهم بعذاب أليم ــ وهى منصوبة على التمييز من بشرّ * وقوله (من لعنه الله) خبر لمبتدإ محذوف مع تقدير مضاف محذوف أى هو لعن من لعنه الله أو هو دين من لعنه الله ، ويجوز أن يكون فى محل جر بدلا من شر * قوله (وجعل منهم القردة والخنازير) أى مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير ، وهم اليهود ، فان الله مسخ أصحاب السبت قردة

وكفار مائدة عيسى منهم خنازير * قوله (وعبد الطاغوت) . قرأ حمزة بضم الباء من عبد وكسر التاء من (الطاغوت) أى جعل منهم عبد الطاغوت بإضافة عبد الى الطاغوت * والمعنى وجعل منهم من يبالغ فى عبادة الطاغوت ، لأن فعل من صيغ المبالغة ، كحذر وفطن للتبليغ فى الحذر والفطنة . وقرأ الباقون بفتح الباء من (عبد) وفتح التاء من (الطاغوت) على أنه فعل ماض معطوف على فعل ماض ، وهو غضب ولعن كأنه قيل : ومن عبد الطاغوت ، أو معطوف على القردة والخنازير : أى جعل منهم القردة والخنازير وجعل منهم عبد الطاغوت حملا على لفظ من . وقرأ أبىّ وابن مسعود (وعبدوا الطاغوت) حملا على معناها . وقرأ ابن عباس (وعبد) بضم العين والباء : كأنه جمع عبد كما يقال : سقف وسقف ، ويجوز أن يكون جمع عبيد كرغيف ورغف ، أو جمع عابد كبازل و بزل . وقرأ أبو واقد وعُبّاد جمع عابد للمبالغة : كعامل وعمال . وقرأ البصريون وعباد جمع عابد أيضا : كقائم وقيّام ، ويجوز أن يكون جمع عبد . وقرأ أبو جعفر الرقاشى وعُبِدَ الطاغوت على البناء للمفعول ، والتقدير وعبد الطاغوت فيهم . وقرأ عون العقيلى وابن بريدة وعابد الطاغوت على التوحيد . وروى عن ابن مسعود وأبىّ أنهما قرآ (وعَبَدَةَ الطاغوت) وقرأ عبيد بن عمير (وأعْبُدَ الطاغوت) مثل : كلب وأكلب . وقرئ (وعبد الطاغوت) عطفا على الموصول بناء على تقدير مضاف محذوف ، وهى قراءة ضعيفة جدا ، والطاغوت : الشيطان أو الكهنة أو غيرهما مما قد تقدّم مستوفى * قوله (أولئك شر مكانا) الاشارة الى الموصوفين بالصفات المتقدمة ، وجعلت الشرارة للمكان ، وهى لأهله للمبالغة ويجوز أن يكون الاسناد مجازيا * قوله (وأضلّ عن سواء السبيل) معطوف على شر ، أى هم أضلّ من غيرهم عن الطريق المستقيم ، والتفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقا أو لكونهم أشرّ وأضل مما يشاركهم فى أصل الشرارة والضلال * قوله (واذا جاءوكم قالوا آمنا) أى اذا جاءوكم أظهروا الاسلام * قوله (وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) جملتان حاليتان ، أى جاءوكم حال كونهم قد دخلوا عندك متلبسين بالكفر وخرجوا من عندك متلبسين به لم يؤثر فيهم ماسمعوا منك ، بل خرجوا كما دخلوا (والله أعلم بما كانوا يكتمون) عندك من الكفر ، وفيه وعيد شديد ، وهؤلاء هم المنافقون ، وقيل هم اليهود الذين قالوا - آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره - * قوله (وترى كثيرا منهم يسارعون فى الاثم) الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، والضمير فى (منهم) عائد الى المنافقين أو اليهود أو الى الطائفتين جميعا (ويسارعون فى الاثم) فى محل نصب على الحال على أن الرؤية بصرية أوهو مفعول ثان لترى على أنها قلبية ، والمسارعة : المبادرة ، والاثم : الكذب أو الشرك أو الحرام ، والعدوان : الظلم المتعدى الى الغير أو مجاوزة الحدّ فى الذنوب ، والسحت : الحرام ، فعلى قول من فسر الاثم بالحرام يكون تكريره للمبالغة ، والربانيون علماء النصارى ، والأحبار علماء اليهود ، وقيل الكل من اليهود لأن هذه الآيات فيهم ، ثم وبخ علماءهم فى تركهم لنهيهم فقال (لبئس ما كانوا يصنعون) وهذا فيه زيادة على قوله (لبئس ما كانوا يعملون) لأن العمل لايبلغ درجة الصنع حتى يتدرّب فيه صاحبه ، ولهذا تقول العرب سيف صنيع اذا جوّد عامله عمله ، فالصنع هو العمل الجيد لا مطلق العمل ، فوبخ سبحانه الخاصة ، وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعلى المعاصى ، فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم ويفرجوا لها عن قلوبهم ، فانها قد جاءت بما فيه البيان الشافى لهم بأن كفهم عن المعاصى مع ترك انكارهم على أهلها لايسمن ولايغنى من جوع ، بل هم أشدّ حالا وأعظم وبالا من العصاة فرحم الله عالما قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهو أعظم ماافترضه الله عليه وأوجب ماأوجب عليه النهوض به ، اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين

عن

عن المنكر الذين لايخافون فيك لومة لائم ، وأعنا على ذلك وقونا عليه و يسره لنا وانصرنا على من تعدى حدودك وظلم عبادك انه لاناصر لنا سواك ولامستعان غيرك يامالك يوم الدين إياك نعبد و إياك نستعين .

وقد أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الاسلام ونافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبا) الى قوله (والله أعلم بما كانوا يكتمون) . وأخرج البيهقى فى الدلائل من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوًا ولعبا) قال : كان منادى رسول الله ﷺ اذا نادى بالصلاة فقام المسلمون الى الصلاة ، قالت اليهود والنصارى : قد قاموا لاقاموا ، فاذا رأوهم ركعوا وسجدوا استهزءوا بهم وضحكوا منهم . قال وكان رجل من اليهود تاجرا اذا سمع المنادى ينادى بالأذان . قال أحرق الله الكاذب . قال فبيناهو كذلك اذ دخلت جاريته بشعلة من نار ، فطارت شرارة منها فى البيت فأحرقته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى قال : كان رجل من النصارى فذكر نحو قصة الرجل اليهودى . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : أتى النبى ﷺ نفر من اليهود ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ، فقال «أومن بالله وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق و يعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحدمنهم ونحن له مسلمون » فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته ، وقالوا لانؤمن بعيسى ولانؤمن بمن آمن به ، فأنزل الله فيهم (قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا) الى قوله (فاسقون) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وجعل منهم القردة والخنازير) قال مسخت من يهود . وأخرج أبو الشيخ عن أبى مالك أنه قيل له كانت القردة والخنازير قبل أن يمسخوا ؟ قال نعم ، وكانوا مما خلق من الأمم . وأخرج مسلم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير هما مما مسخ الله ، فقال ان الله لم يهلك قوما ، أو قال لم يمسخ قوما فيجعل لهم نسلا ولاعاقبة ، وان القردة والخنازير كانت قبل ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (واذا جاءوكم قالوا آمنا) الآية قال أناس من اليهود كانوا يدخلون على النبى ﷺ فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذى جاء به ، وهم متمسكون بضلالتهم و بالكفر ، فكانوا يدخلون بذلك ويخرجون به من عند رسول الله ﷺ . وأخرج ابن جرير عن السدى فى الآية قال : هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهودا ، يقول دخلوا كفارا وخرجوا كفارا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (وترى كثيرا منهم يسارعون فى الاثم والعدوان) قال : هؤلاء اليهود (لبئس ما كانوا يعملون) الى قوله (لبئس ما كانوا يصنعون) قال : يصنعون و يعملون واحد ، قال لهؤلاء حين لم ينتهوا كما قال لهؤلاء حين عملوا وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) قال فهلا ينهاهم الربانيون والأحبار ، وهم الفقهاء والعلماء . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : مافى القرآن آية أشد توبيخا من هذه الآية (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) . وأخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك بن مزاحم نحوه ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لاحاجة لنا فى بسطها هنا .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ

٧٠٦٥



وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ *

قوله (يد الله مغلولة) اليد عند العرب تطلق على الجارحة ، ومنه قوله تعالى ـ وخذ بيدك ضغثا ـ وعلى النعمة ، يقولون كم يدلى عند فلان ، وعلى القدرة ، ومنه قوله تعالى ـ قل إن الفضل بيد الله ـ وعلى التأييد ، ومنه قوله ﷺ يد الله مع القاضى حين يقضى ، وتطلق على معان آخر ، وهذه الآية هى على طريق التمثيل كقوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) والعرب تطلق غلّ اليد على البخل و بسطها على الجود مجازا ، ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل ومقبوض الكف ، ومنه قول الشاعر :

كانت خراسان أرضا اذ يزيد بها * وكل باب من الخيرات مفتوح
فاستبدلت بعده جعدا أنامله * كأنما وجهه بالخل منضوح

فراد اليهود هنا ، عليهم لعائن الله أن الله بخيل فأجاب سبحانه عليهم بقوله (غلت أيديهم) دعاء عليهم بالبخل ، فيكون الجواب عليهم مطابقا لما أرادوه بقوله (يد الله مغلولة) ويجوز أن يراد غلّ أيديهم حقيقة بالاسر فى الدنيا أو بالعذاب فى الآخرة ، ويقوّى المعنى الأوّل أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس فلا ترى يهوديا ، وان كان ماله فى غاية الكثرة إلا وهو من أبخل خلق الله ، وأيضا المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله * قوله (ولعنوا بما قالوا) معطوف على ماقبله والباء سببية ، أى أبعدوا من رحمة الله بسبب قولهم : يد الله مغلولة ، ثم رد سبحانه بقوله (بل يداه مبسوطتان) أى بل هو فى غاية ما يكون من الجود ، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة فى الردّ عليهم باثبات مايدل على غاية السخاء ، فان نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة ، وهذه الجملة الاضرابية معطوفة على جملة مقدّرة يقتضيها المقام ، أى كلا ليس الأمر كذلك (بل يداه مبسوطتان) وقيل المراد بقوله (بل يداه مبسوطتان) نعمة الدنيا الظاهرة ونعمتها الباطنة ، وقيل نعمة المطر والنبات ، وقيل الثواب والعقاب ، وحكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ بل يداه بسيطتان ، أى منطلقتان كيف يشاء * قوله (ينفق كيف يشاء) جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه ، أى انفاقه على ما تقتضيه مشيئته ، فان شاء وسع ، وان شاء قتر فهو الباسط القابض ، فان قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة لا لشىء آخر فان خزائن ملكه لا تفنى وموادّ جوده لا تتناهى * قوله (وليزيدن كثيرا منهم) الخ ، اللام هى لام القسم ، أى ليزيدن كثيرا من اليهود والنصارى ما أنزل إليك من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة (طغيانا وكفرا) أى طغيانا إلى طغيانهم وكفرا إلى كفرهم * قوله (وألقينا بينهم) أى بين اليهود (العداوة والبغضاء) أو بين اليهود والنصارى * قوله (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أى كلما جمعوا للحرب جمعا وأعدوا له عدّة شتت الله جمعهم ، وذهب بريحهم فلم يظفروا بطائل ولا عادوا بفائدة ، بل لا يحصلون من ذلك إلا على

الغلب لهم ، وهكذا لايزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها ، ثم يبطل الله ذلك ، والآية مشتملة على استعارة بليغة ، وأسلوب بديع (ويسعون فى الأرض فسادا) أى يجتهدون فى فعل مافيه فساد ، ومن أعظمه مايريدونه من ابطال الاسلام وكيد أهله ، وقيل المراد بالنار هنا الغضب : أى كلما أثاروا فى أنفسهم غضبا أطفأه الله بما جعله من الرعب فى صدورهم والذلة والمسكنة المضروبتين عليهم * قوله (والله لايحب المفسدين) ان كانت اللام للجنس فهم داخلون فى ذلك دخولا أوّليا ، وان كانت للعهد ، فوضع الظاهر موضع المضمر لبيان شدّة فسادهم ، وكونهم لاينفكون عنه * قوله (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) أى لو أن المتمسكين بالكتاب ، وهم اليهود والنصارى على أن التعريف للجنس (آمنوا) الايمان الذى طلبه الله منهم ، ومن أهمه الايمان بما جاء به محمد ﷺ كما أمروا بذلك فى كتب الله المنزلة عليهم (واتقوا) المعاصى التى من أعظمها ماهم عليه من الشرك بالله والجحود لما جاء به رسول الله (لكفرنا عنهم سيئاتهم) التى اقترفوها ، وان كانت كثيرة متنوّعة ، وقيل المعنى لوسعنا عليهم فى أرزاقهم (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) أى أقاموا مافيهما من الأحكام التى من جملتها الايمان بما جاء به محمد ﷺ * قوله (وما أنزل إليهم من ربهم) من سائر كتب الله التى من جملتها القرآن فانها كلها وان نزلت على غيرهم فهى فى حكم المنزلة عليهم لكونهم متعبدين بما فيها (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ذكر فوق وتحت للمبالغة فى تيسر أسباب الرزق لهم وكثرتها وتعدد أنواعها * قوله (منهم أمة مقتصدة) جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل هل جميعهم متصفون بالأوصاف السابقة ، أو البعض منهم دون البعض ، والمقتصدون منهم هم المؤمنون كعبد الله بن سلام ومن تبعه وطائفة من النصارى (وكثير منهم ساء مايعملون) وهم المصرّون على الكفر المتمرّدون عن أجابة محمد ﷺ والايمان بما جاء به .

وقد أخرج ابن اسحق والطبرانى فى الكبير وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس ان ربك بخيل لاينفق ، فأنزل الله (وقالت اليهود يد الله مغلولة) الآية . وأخرج أبو الشيخ عنه أنها نزلت فى فنحاص اليهودى . وأخرج مثله ابن جرير عن عكرمة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة) أى بخيلة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه نحوه : وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا) قال حملهم حسد محمد والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه وهم يجدونه مكتوبا عندهم ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (كلما أوقدوا نارا للحرب) قال حرب محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية كلما أجمعوا أمرهم على شىء فرّقه الله وأطفأ حدهم ونارهم وقذف فى قلوبهم الرعب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) قال آمنوا بما أنزل على محمد واتقوا ماحرّم الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) قال العمل بهما ، وأما ماأنزل اليهم فمحمد ﷺ وما أنزل عليه ، وأما لأكلوا من فوقهم فأرسلت عليهم مطرا ، وأما من تحت أرجلهم يقول أنبت لهم من الأرض من رزق مايغنيهم ، منهم أمة مقتصدة وهم مسلمة أهل الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس لأكلوا من فوقهم : يعنى لأرسل عليهم السماء مدرارا ، ومن تحت أرجلهم قال : تخرج الأرض من بركتها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس قال : الأمة المقتصدة الذين لاهم فسقوا فى الدين ولاهم غلوا ، قال : والغلو الرغبة ، والفسق التقصير عنه . وأخرج أبو الشيخ

عن السدّى أمة مقتصدة يقول مؤمنة . وأخرج ابن مردويه قال : حدّثنا عبدالله بن جعفر ، حدّثنا أحمد ابن يونس الضبى حدثنا عاصم بن علىّ حدّثنا أبو معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة عن زيد بن أسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فذكر حديثا ، قال ثم حدّثهم النبى ﷺ قال : تفرقت أمة موسى على اثنتين وسبعين ملة واحدة منها فى الجنة ، و إحدى وسبعون منها فى النار . وتفرّقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة واحدة منها فى الجنة و إحدى وسبعون منها فى النار تعلو أمتى على الفريقين جميعا ملة واحدة فى الجنة وثنتان وسبعون منها فى النار ، قالوا من هم يارسول الله قال الجماعات الجماعات : قال يعقوب بن زيد كان علىّ بن أبى طالب اذا حدّث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآنا ، قال (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم) الى قوله (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون) وتلا أيضا ـ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق و به يعدلون ـ يعنى أمة محمد ﷺ . قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكره لهذا الحديث مالفظه ، وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروىّ من طرق عديدة قد ذكرناها فى موضع آخر انتهى * قلت أما زيادة كونها فى النار الا واحدة : فقد ضعفها جماعة من المحدّثين ، بل قال ابن حزم انها موضوعة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ *

العموم الكائن فى ماأنزل يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ماأنزله الله إليه لايكتم منه شيئا ، وفيه دليل على أنه لم يسر الى أحد مما يتعلق بما أنزله الله اليه شيئا ، ولهذا ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت من زعم أن محمدا ﷺ كتم شيئا من الوحى فقد كذب ، وفى صحيح البخارى من حديث أبى جحيفة وهب بن عبد الله السوائى : قال قلت لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه هل عندكم شىء من الوحى مما ليس فى القرآن ؟ فقال لا والذى فلق الحبة و برأ النسمة الا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن ، وما فى هذه الصحيفة ، قلت وما فى هذه الصحيفة ؟ قال العقل ، وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر (فان لم تفعل) ماأمرت به من تبليغ الجميع بل كتمت ولو بعضا من ذلك (فما بلغت رسالاته) . قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة الا شعبة رسالته على التوحيد . وقرأ أهل المدينة وأهل الشام رسالاته على الجمع ، قال النحاس : والجمع أبين لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحى شيئا فشيئا ، ثم يبينه انتهى ، وفيه نظر فان نفى التبليغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفيه عن الرسالات ، كما ذكره علماء البيان على خلاف فى ذلك ، وقد بلغ رسول الله ﷺ لأمته مانزل إليهم ، وقال لهم فى غير موطن هل بلغت فيشهدون له بالبيان جزاه الله عن أمته خيرا ، ثم ان الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعا لما يظن أنه حامل على كتم البيان ، وهو خوف لحوق الضرر من الناس ، وقد كان ذلك بحمد الله فانه بين لعباد الله مانزل إليهم على وجه التمام ، ثم حمل من أبى من الدخول فى الدين على الدخول فيه طوعا أو كرها وقتل صناديد الشرك وفرّق جموعهم و بدد شملهم ، وكانت كلمة الله هى العليا فأسلم كل من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل حتى قال يوم الفتح لصناديد قريش وأكابرهم ماتظنون أنى فاعل بكم ، فقالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس ، ان قام ببيان حجج الله وايضاح براهينه وصرخ بين ظهرانى من ضادّ الله وعانده ولم يمتثل لشرعه كطوائف

المبتدعة ، وقد رأينا من هذا فى أنفسنا وسمعنا منه فى غيرنا مايزيد المؤمن إيمانا وصلابة فى دين الله وشدّة شكيمة فى القيام بحجة الله وكل مايظنه متزلزلو الأقدام ومضطربو القلوب من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلة وتوهمات باطلة . فإن كل محنة فى الظاهر هى منحة فى الحقيقة لأنها لاتأتى إلا بالخير فى الأولى والأخرى ـ ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد * قوله (ان الله لايهدى القوم الكافرين) جملة متضمنة لتعليل ماسبق من العصمة : أى ان الله لايجعل لهم سبيلا الى الاضرار بك فلاتخف و بلغ ما أمرت بتبليغه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : لما نزلت (بلغ ما أنزل اليك من ربك) قال يارب انما أنا واحد كيف أصنع يجتمع علىّ الناس : فنزلت (وان لم تفعل فما بلغت رسالته) وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال : ان الله بعثنى برسالته فضقت بها ذرعا وعرفت أن الناس مكذبىّ فوعدنى لأبلغن أو ليعذبنى ، فأنزلت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وان لم تفعل فما بلغت رسالته) يعنى ان كتمت آية مما أنزل اليك لم تبلغ رسالته . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى قال : نزلت هذه الآية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك) على رسول الله ﷺ يوم غدير خمّ فى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ان عليا مولى المؤمنين وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . وأخرج ابن أبى حاتم عن عنترة قال كنت عند ابن عباس فجاءه رجل ، فقال أن ناسا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئا لم يبده رسول الله ﷺ للناس ، فقال : ألم تعلم أن الله قال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) والله ماورثنا رسول الله ﷺ سوداء فى بيضاء . وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل ، أىّ آية أنزلت من السماء أشدّ عليك ، فقال : كنت بمنى أيام موسم فاجتمع مشركو العرب وأفناء الناس فى الموسم ، فأنزل علىّ جبريل فقال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) الآية ، قال فقمت عند العقبة فناديت يا أيها الناس من ينصرنى على أن أبلغ رسالة ربى وله الجنة ، أيها الناس قولوا لا إله إلا الله ، وأنا رسول الله اليكم تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة ، قال فما بقى رجل ولا امرأة ولا صبى الا يرمون بالتراب والحجارة ويبزقون فى وجهى ويقولون كذب صابىٌ فعرض علىّ عارض ، فقال يا محمد ان كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك ، فقال النبى ﷺ « اللهمّ اهد قومى فانهم لايعلمون فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه » . قال الأعمش فبذلك يفتخر بنو العباس ، ويقولون فيهم نزلت ـ إنك لاتهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء ـ هوى النبى ﷺ أبا طالب ، وشاء الله عباس بن عبد المطلب . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت (والله يعصمك من الناس) . فأخرج رأسه من القبة ، فقال : أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله . قال الحاكم فى المستدرك صحيح الاسناد ولم يخرّجاه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه من حديث أبى سعيد . وقد روى فى هذا المعنى أحاديث . وأخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال : لما غزا رسول الله ﷺ بنى أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلىّ رجليه ، فقال الوارث من بنى النجار لأقتلنّ محمدا ، فقال له أصحابه كيف تقتله ؟ قال أقول له أعطنى سيفك فاذا أعطانيه قتلته به ، فأتاه

IV 72-69



فقال يا محمد أعطني سيفك أشمه ، فأعطاه إياه فرعدت يده حتى سقط السيف من يده ، فقال رسول الله ﷺ حال الله بينك و بين ما تريد ، فأنزل الله سبحانه (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) الآية . قال ابن كثير وهذا حديث غريب من هـذا الوجه . وأخرج ابن حبان في صحيحه وابن مردويه عن أبي هريرة نحو هذه القصة ولم يسمّ الرجل . وأخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظي نحوه ، وفي الباب روايات ، وقصة غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح ، وهي معروفة مشهورة .

قُلْ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۞ وَحَسِبُوٓا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۞ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۞ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞

قوله (على شيء) فيه تحقير وتقليل لما هم عليه : أي لستم على شيء يعتدّ به حتى تقيموا التوراة والانجيل : أي تعملوا بما فيهما من أوامر الله ونواهيه التي من جملتها أمركم باتباع محمد ﷺ ونهيكم عن مخالفته . قال أبو علي الفارسي ، ويجوز أن يكون ذلك قبل النسخ لهما ۞ قوله (وما أنزل اليكم من ربكم) قيل هو القرآن فان إقامة الكتابين لا تصح بغير إقامته ، ويجوز أن يكون المراد ما أنزل اليهم على لسان الأنبياء من غير الكتابين ۞ قوله (وليزيدنّ كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا) أي كفرا إلى كفرهم وطغيانا إلى طغيانهم ، والمراد بالكثير منهم من لم يسلم ، واستمرّ على المعاندة ، وقيل المراد به العلماء منهم ، وتصدير هذه الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها ۞ قوله (فلا تأس على القوم الكافرين) أي دع عنك التأسف على هؤلاء ، فان ضرر ذلك راجع إليهم ونازل بهم ، وفي المتبعين لك من المؤمنين غنى لك عنهم ۞ قوله (إن الذين آمنوا) الخ ، جملة مستأنفة لترغيب من عداهم من المؤمنين ۞ والمراد بالمؤمنين هنا الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون (والذين هادوا) أي دخلوا في دين اليهود (والصابون) مرتفع على الابتداء وخبره محذوف ، والتقدير والصابون والنصارى كذلك . قال الخليل وسيبويه الرفع محمول على التقديم والتأخير ، والتقدير ان الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف

عليهم

عليهم ولاهم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك ، وأنشد سيبويه ، قول الشاعر :

والا فاعلموا أنا وأنتم * بغاة مابقينا فى شقاق

أى والا فاعلموا أنا بغاة ، وأنتم كذلك ، ومثله قول ضابى البرجمى :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله * فانى وقيار بها لغريب

أى فانى لغريب وقيار كذلك . وقال الكسائى والأخفش ان الصابئون معطوف على المضمر فى هادوا . قال النحاس : سمعت الزجاج يقول ، وقد ذكر له قول الكسائى والأخفش : هذا خطأ من وجهين : أحدهما أن المضمر المرفوع لا يعطف عليه حتى يؤكد ، وثانيهما أن المعطوف شريك المعطوف عليه فيصير المعنى ان الصابئين قد دخلوا فى اليهودية ، وهذا محال . وقال الفراء انما جاز الرفع لأن إنّ ضعيفة فلا تؤثر الا فى الاسم دون الخبر ، فعلى هذا هو عنده معطوف على محل اسم إنّ ، أو على مجموع ان واسمها ، وقيل إن خبر إن مقدر ، والجملة الآتية خبر الصابئون والنصارى ، كما فى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راض والرأى مختلف

وقيل ان إنّ هنا بمعنى نعم : فالصابئون مرتفع بالابتداء ، ومثله قول قيس بن الرقيات :

بكر العواذل فى الصبا * ح يلمننى وألومهنه

ويقلن شيب قد علا * ك وقد كبرت فقلت انه

قال الأخفش انه بمعنى نعم والهاء للسكت . وقد تقدم الكلام على الصابئين والنصارى فى البقرة ؛ وقرئ الصابيون بياء صريحة تخفيفا للهمزة ، وقرئ الصابون بدون ياء ، وهو من صبا يصبو لأنهم صبوا الى اتباع الهوى ، وقرئ والصابئين عطفا على اسم إن * قوله (من آمن بالله) مبتدأ خبره (فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) والمبتدأ وخبره خبر لأنّ ، ودخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والعائد الى اسم إن محذوف : أى من آمن منهم ، ويجوز أن يكون من آمن بدلا من اسم ان وما عطف عليه ، ويكون خبر إن فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * والمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين كما قدمنا أن من آمن من هذه الطوائف إيمانا خالصا على الوجه المطلوب وعمل عملا صالحا ، فهو الذى لاخوف عليه ولا حزن ، وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الاسلام : المخلص والمنافق ، فالمراد بمن آمن من اتصف بالايمان الخالص واستمر عليه ومن أحدث إيمانا خالصا بعد نفاقه * قوله (لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل) كلام مبتدأ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة . وقد تقدم فى البقرة بيان معنى الميثاق (وأرسلنا اليهم رسلا) ليعرّفوهم بالشرائع وينذروهم (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم) جملة شرطية وقعت جوابا لسؤال ناس من الأحبار بإرسال الرسل كأنه قيل : ماذا فعلوا بالرسل ؟ وجواب الشرط محذوف : أى عصوه * وقوله (فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) جملة مستأنفة أيضا جواب عن سؤال ناس عن الجواب الأول كأنه قيل : كيف فعلوا بهم ؟ فقيل فريقا منهم كذبوهم ولم يتعرضوا لهم بضرر ، وفريقا آخر منهم قتلوهم ، وانما قال (وفريقا يقتلون) لمراعاة رءوس الآى ، فمن كذبوه عيسى وأمثاله من الأنبياء ، وممن قتلوه زكريا ويحيى * قوله (وحسبوا أن لا تكون فتنة) أى حسب هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن لا يقع من الله عز وجل ابتلاء واختبار بالشدائد اغترارا بقولهم (نحن أبناء الله وأحباؤه) . قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى (تكون) بالرفع على أنّ أن هى المخففة من الثقيلة ، وحسب بمعنى علم ، لأنّ أن معناها التحقيق . وقرأ الباقون بالنصب على أنّ أن ناصبة للفعل ، وحسب بمعنى الظن ؛ قال النحاس : والرفع عند النحويين فى حسبت وأخواتها أجود ، ومثله :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى * كبرت وأن لا يشهد اللهو أمثالى

قوله (فعموا وصموا) أى عموا عن إبصار الهدى ، وصموا عن استماع الحق ، وهذا اشارة الى ماوقع من بنى اسرائيل فى الابتداء من مخالفة أحكام التوراة ، وقتل شعيا ، ثم تاب الله عليهم حين تابوا ، فكشف عنهم القحط (ثم عموا وصموا كثير منهم) وهذا اشارة الى ماوقع منهم بعد التوبة من قتل يحيى بن زكريا وقصدهم لقتل عيسى ، وارتفاع (كثير) على البدل من الضمير فى الفعلين . قال الأخفش : كما تقول رأيت قومك ثلاثتهم ، وان شئت كان على اضمار مبتدا : أى العمى والصم كثير منهم ، ويجوز أن يكون كثير مرتفعا على الفاعلية على لغة من قال : أكلونى البراغيث ، ومنه قول الشاعر :

ولكن دفافيّ أبوه وأمه ٭ بحوران يعصرن السليط أقاربه

وقرئ (عموا وصموا) بالبناء للمفعول ، أى أعماهم الله وأصمهم ٭ قوله (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض فضائح أهل الكتاب ، والقائلون بهذه المقالة هم فرقة منهم : يقال لهم اليعقوبية ، وقيل هم الملكانية ، قالوا ان الله عز وجل حلّ فى ذات عيسى ، فرد الله عليهم بقوله (وقال المسيح يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) أى والحال أنه قد قال المسيح هذه المقالة فكيف يدعون الالهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم ٭ قوله (انه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة) الضمير للشأن ، وهذا كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يوجب تحريم دخول الجنة ، وقيل هو من قول عيسى (وما للظالمين من أنصار) ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار ٭ قوله (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) وهذا كلام أيضا مبتدأ لبيان بعض مخازيهم ، والمراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة ، ولهذا يضاف الى مابعده ، ولايجوز فيه التنوين كما قال الزجاج وغيره ، وانما ينوّن وينصب مابعده اذا كان مابعده دونه بمرتبة نحو ثالث اثنين ورابع ثلاثة ، والقائل بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة هم النصارى ، والمراد بالثلاثة : الله سبحانه ، وعيسى ، ومريم كما يدل عليه قوله ـ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين ـ وهذا هو المراد بقولهم ثلاثة أقانيم ، اقنيم الأب ، واقنيم الابن ، واقنيم روح القدس ، وقد تقدم فى سورة النساء كلام فى هذا ، ثم ردّ الله سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة فقال (ومامن إله الا إله واحد) أى ليس فى الوجود الا الله سبحانه ، وهذه الجملة حالية ، والمعنى قالوا تلك المقالة ، والحال أنه لاموجود الا الله ، ومن فى قوله (من إله) لتأكيد الاستغراق المستفاد من النفى (وان لم ينتهوا عما يقولون) من الكفر (ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) جواب قسم محذوف سادّ مسدّ جواب الشرط ، ومن فى (منهم) بيانية أو تبعيضية (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه) الفاء للعطف على مقدّر ، والهمزة للانكار ٭ قوله (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قدخلت من قبله الرسل) أى هو مقصور على الرسالة ، لايجاوزها كما زعمتم ، وجملة (قدخلت من قبله الرسل) صفة لرسول ، أى ماهو الا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله ، وماوقع منه من المعجزات لايوجب كونه إلها ، فقد كان لمن قبله من الرسل مثلها ، فان الله أحيا العصا فى يد موسى وخلق آدم من غير أب ، فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى ووجوده من غير أب يوجبان كونه إلها ، فان كان كما تزعمون إلها لذلك فمن قبله من الرسل الذين جاءوا بمثل ماجاء به آلهة ، وأنتم لاتقولون بذلك ٭ قوله (وأمه صدّيقة) عطف على المسيح ، أى وما أمه الا صدّيقة : أى صادقة فيما تقوله أو مصدّقة لما جاء به ولدها من الرسالة ، وذلك لايستلزم الالهية لها ، بل هى كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء ٭ قوله (كانا يأكلان الطعام) استئناف يتضمن التقرير لما أشير اليه من أنهما كسائر أفراد البشر ، أى من كان يأكل الطعام كسائر المخلوقين فليس بربّ : بل هو عبد مربوب ولدته النساء ، فمتى يصلح لأن يكون ربا ؟ وأما قولكم انه كان يأكل الطعام بناسوته لابلاهوته ، فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الاله بغير الاله واجتماع

الناسوت واللاهوت ولوجاز اختلاط القديم بالحادث لجازأن يكون القديم حادثا ، ولو صح هذا فى حق عيسى لصح فى حق غيره من العباد ( انظر كيف نبين لهم الآيات) أى الدلالات ، وفيه تعجيب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزمة للإلهية و يغفلون عن كونها موجودة فى من لايقولون بأنه إله (ثم انظر أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق بعد هـذا البيان ؟ يقال أفكه يأفكه اذا صرفه ، وكرر الأمر بالنظر للمبالغة فى التعجيب ، وجاء بثم لاظهار مابين العجبين من التفاوت .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس قال : جاء نافع ابن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حرملة فقالوا يامحمد ألست تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق ؟ فقال النبى ﷺ «بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم مافيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكفرتم منها بما أمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئت من احداثكم قالوا : فانا نؤخذ بما فى أيدينا وانا على الهدى والحق ولانؤمن بك ولانتبعك ، فأنزل الله فيهم (قل ياأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل) الى قوله (القوم الكافرين) . وأخرج ابن جرير وابن المنذروابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن الحسن فى قوله (وحسبوا أن لا تكون فتنة) قال بلاء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) قال النصارى يقولون ان الله ثالث ثلاثة وكذبوا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال تفرقت بنو اسرائيل ثلاث فرق فى عيسى ، فقالت فرقة هو الله ، وقالت فرقة هو ابن الله ، وقالت فرقة هو عبد الله وروحه ، وهى المقتصدة ، وهى مسلمة أهل الكتاب .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَالَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۞ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ۞ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ۞

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذا القول إلزاما لهم وقطعا لشبهتهم ، أى أتعبدون من دون الله متجاوزين اياه مالايملك لكم ضراولانفعا ؟ بل هوعبد مأمور ، وماجرى على يده من النفع ، أو دفع من الضر فهو باقدار الله له وتمكينه منه ، وأما هو فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئا من ذلك فضلا عن أن يملكه لغيره ، ومن كان لاينفع ولايضر فكيف تتخذونه إلها وتعبدونه ، وأى سبب يقتضى ذلك ؟ والمراد هنا المسيح عليه السلام ، وقدم سبحانه الضر على النفع لأن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح (والله هوالسميع العليم) أى كيف تعبدون مالايملك لكم ضراولانفعا ، والحال أن الله هوالسميع العليم ، ومن كان كذلك فهو القادر على الضر والنفع لاحاطته بكل مسموع ومعلوم ، ومن جملة ذلك مضاركم

ومنافعكم * قوله (لاتغلوا فى دينكم) لما أبطل سبحانه جميع ماتعلقوا به من الشبه الباطلة نهاهم عن الغلوّ فى دينهم وهو المجاوزة للحدّ كاثبات الالهية لعيسى ، كما يقوله النصارى ، أوحطه عن مرتبته العلية كما يقوله اليهود فان كل ذلك من الغلوّ المذموم وسلوك طريقة الافراط أو التفريط واختيارهما على طريق الصواب ، (وغير) منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف ، أى غلوّا غير غلوّ الحق ، وأما الغلوّ فى الحق بابلاغ كلية الجهد فى البحث عنه واستخراج حقائقه فليس بمذموم ، وقيل ان النصب على الاستثناء المتصل ، وقيل على المنقطع (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) وهم أسلاف أهل الكتاب من طائفتى اليهود والنصارى ، أى قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم (وأضلوا كثيرا) من الناس (وضلوا عن سواء السبيل) أى عن قصدهم طريق محمد ﷺ بعد البعثة ، والمراد أن أسلافهم ضلوا من قبل البعثة وأضلوا كثيرا من الناس اذ ذاك وضلوا من بعد البعثة ، إما بأنفسهم ، أوجعل ضلال من أضلوه ضلالا لهم لكونهم سنوا لهم ذلك ونهجوه لهم ، وقيل المراد بالأول كفرهم بما يقتضيه العقل ، وبالثانى كفرهم بما يقتضيه الشرع * قوله (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل) أى لعنهم الله سبحانه (على لسان داود وعيسى ابن مريم) أى فى الزبور والانجيل على لسان داود وعيسى بما فعلوه من المعاصى كاعتدائهم فى السبت وكفرهم بعيسى * قوله (ذلك بما عصوا) جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر ، والاشارة بذلك الى اللعن ، أى ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء لابسبب آخر ، ثم بين سبحانه المعصية والاعتداء بقوله (كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه) فأسند الفعل اليهم لكون فاعله من جملتهم وان لم يفعلوه جميعا * والمعنى أنهم كانوا لاينهون العاصى عن معاودة معصية قد فعلها ، أو تهيأ لفعلها ، ويحتمل أن يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لاحالة ترك الانكار ، وبيان العصيان والاعتداء بترك التناهى عن المنكر لأن من أخلّ بواجب النهى عن المنكر فقد عصى الله سبحانه وتعدّى حدوده * والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أهمّ القواعد الاسلامية وأجلّ الفرائض الشرعية ، ولهذا كان تاركه شريكا لفاعل المعصية ومستحقا لغضب الله وانتقامه كما وقع لأهل السبت ، فان الله سبحانه مسخ من لم يشاركهم فى الفعل ولكن ترك الانكار عليهم كما مسخ المعتدين فصاروا جميعا قردة وخنازير – ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد – ثم ان الله سبحانه . قال مقبحا لعدم التناهى عن المنكر (لبئس ما كانوا يفعلون) أى من تركهم لانكار مايجب عليهم إنكاره (ترى كثيرا منهم) أى من اليهود مثل كعب ابن الأشرف وأصحابه (يتولون الذين كفروا) أى المشركين وليسوا على دينهم (لبئس ماقدمت لهم أنفسهم) أى سوّلت وزينت ، أوماقدموه لأنفسهم ليردوا عليه يوم القيامة ، والمخصوص بالذم هو (أن سخط الله عليهم) أى موجب سخط الله عليهم على حذف مضاف أو هو سخط الله عليهم على حذف المبتدا ، وقيل هو : أى أن سخط الله عليهم بدل من ما (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبىّ) أى نبيهم (وماأنزل اليه من الكتاب (مااتخذوهم) أى المشركين (أولياء) لأن الله سبحانه ورسوله المرسل إليهم وكتابه المنزل عليهم قد نهوهم عن ذلك (ولكنّ كثيرا منهم فاسقون) أى خارجون عن ولاية الله وعن الايمان به وبرسوله وبكتابه .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (لاتغلوا فى دينكم) يقول لاتبتدعوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال كانوا مما غلوا فيه أن دعوا الله صاحبة وولدا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وضلوا عن سواء السبيل) قال يهود . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر

I-55-39



وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن أوّل مادخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول له ياهذا اتق الله ودع ماتصنع فانه لايحلّ لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال ( لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود ) إلى قوله ( فاسقون ) ثم قال كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا » . وقد روى هذا الحديث من طرق كثيرة ، والأحاديث في هـذا الباب كثيرة جدّا فلا نطول بذكرها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ( لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود ) يعني في الزبور ( وعيسى ابن مريم ) يعني في الانجيل . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك الغفاري في الآية : قال لعنوا على لسان داود فجعلوا قردة ، وعلى لسان عيسى فجعلوا خنازير . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أبي عبيـدة بن الجراح مرفوعا « قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أوّل النهار فقام مائة واثنا عشر رجـلا من عبادهم فأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا في آخر النهار فهم الذين ذكر الله ( لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ) الآيات . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ( لبئس ماقدّمت لهم أنفسهم ) قال ماأمرتهم . وأخرج ابن أبي حاتم والخرائطي في مساوي الأخلاق وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان وضعفه عن حـذيفة عن النبي ﷺ قال « يامعشر المسلمين إياكم والزنا فان فيه ست خصال : ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة ، فأما التي في الدنيا فذهاب البهاء ، ودوام الفقر ، وقصر العمر ، وأما التي في الآخرة فسخط الله ، وسوء الحساب ، والخلود في النار ، ثم تلا رسول الله ﷺ ( لبئس ماقدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ) قال ابن كثير في تفسيره : هذا الحديث ضعيف على كل حال . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ( ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيّ وما أنزل إليه مااتخذوهم أولياء ) قال المنافقون .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۞

قوله ( لتجدنّ ) الخ هذه جملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تعـداد مساوي اليهود وهناتهم ودخول لام القسم عليها يزيدها تأكيدا وتقريرا ، والخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز ۞ والمعنى في الآية أن اليهود والمشركين لعنهم الله أشدّ جميع الناس عداوة للمؤمنين وأصلبهم في ذلك ، وأن النصارى أقرب الناس مودّة للمؤمنين ، واللام في ( للذين آمنوا ) في الموضعين

متعلقة بمحذوف وقع صفة لعداوة ومودّة ، وقيل هو متعلق بعداوة ومودّة ؛ والاشارة بقوله (ذلك) الى كونهم أقرب مودّة ، والباء فى (بأن منهم قسيسين) للسببية ، أى ذلك بسبب أن منهم قسيسين ، وهو جمع قسّ وقسيس : قاله قطرب * والقسيس : العالم ، وأصله من قسّ : إذا تتبع الشىء وطلبه . قال الراجز : * يصبحن عن قسّ الأذى غوافلا * وتقسست أصواتهم بالليل تسمعتها والقسّ : النميمة * والقسّ أيضا : رئيس النصارى فى الدين والعلم ، وجمعه قسوس أيضا ، وكذلك القسيس : مثل الشرّ والشرّير ، ويقال فى جمع قسيس تكسيرا قساوسة بإبدال أحد السينين واوا ، والأصل قساسة ، فالمراد بالقسيسين فى الآية : المتبعون للعلماء والعباد ، وهو إما عجمى خلطته العرب بكلامها ، أو عربىّ * والرهبان : جمع راهب كركبان وراكب ، والفعل رهب الله يرهبه : أى خافه * والرهبانية والترهب : التعبد فى الصوامع . قال أبو عبيد وقد يكون رهبان للواحد والجمع . قال الفراء ويجمع رهبان إذا كان للمفرد رهابين ورهابنة كقربان وقرابين . وقد قال جرير فى الجمع : * رهبان مدين لو رأوك ترهبوا * وقال الشاعر فى استعمال رهبان مفردا :

لو أبصرت رهبان دير فى الجبل * لانحدر الرهبان يسعى ونزل

ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم لا يستكبرون عن قول الحق ، بل هم متواضعون ، بخلاف اليهود فانهم على ضدّ ذلك ، وهذه الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول) معطوف على جملة (وأنهم لا يستكبرون) . (تفيض من الدمع) أى تمتلىء فتفيض ، لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء ، جعل الأعين تفيض ، والفائض انما هو الدمع قصدا للمبالغة كقولهم دمعت عينه . قال امرؤ القيس :

ففاضت دموع العين منى صبابة * على النحر حتى بلّ دمعى محملى

قوله (مما عرفوا من الحق) من الأولى لابتداء الغاية ، والثانية بيانية ، أى كان ابتداء الفيض ناشئا من معرفة الحق ، ويجوز أن تكون الثانية تبعيضية ، وقرئ (ترى أعينهم) على البناء للمجهول * وقوله (يقولون ربنا آمنا) استئناف مسوق لجواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل فما حالهم عند سماع القرآن ؟ فقال (يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) أى آمنا بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد وبمن أنزلته عليه فاكتبنا مع الشاهدين على الناس يوم القيامة من أمة محمد ، أو مع الشاهدين بأنه حق ، أو مع الشاهدين بصدق محمد وأنه رسولك إلى الناس * قوله (وما لنا لا نؤمن بالله) كلام مستأنف ، والاستفهام للاستبعاد و (لنا) متعلق بمحذوف ، و (لا نؤمن) فى محل نصب فى الحال ، والتقدير أىّ شىء حصل لنا حال كوننا لا نؤمن بالله وبما جاءنا من الحق ؟ * والمعنى أنهم استبعدوا انتفاء الايمان منهم مع وجود المقتضى له ، وهو الطمع فى إنعام الله ، فالاستفهام والنفى متوجهان إلى القيد والمقيد جميعا كقوله تعالى — مالكم لا ترجون لله وقارا — ، والواو فى (ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) للحال أيضا بتقدير مبتدا : أى أىّ شىء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع فى الدخول مع الصالحين ؟ فالحال الأولى والثانية صاحبهما الضمير فى (لنا) وعاملهما الفعل المقدّر : أى حصل ، ويجوز أن تكون الحال الثانية من الضمير فى (نؤمن) والتقدير : ومالنا نجمع بين ترك الايمان وبين الطمع فى صحبة الصالحين ؟ * قوله (فأثابهم الله بما قالوا) الخ أثابهم على هذا القول مخلصين له معتقدين لمضمونه * قوله (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) التكذيب بالآيات كفر فهو من باب عطف الخاص على العام * والجحيم : النار الشديدة الايقاد ، ويقال جحم فلان النار : إذا شدّد إيقادها ، ويقال أيضا لعين الأسد : جحمة لشدّة إتقادها . قال الشاعر : * والحرب لا تبقى لجاحمها التخيل والمزاح *

وقد

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ولتجدن أقربهم مودة) الآية قال هم الوفد الذين جاءوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة : قال قال رسول الله ﷺ « ماخلا يهودي بمسلم الاهم بقتله » وفي لفظ « الا حدث نفسه بقتله » . قال ابن كثير وهو غريب جدا . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال ماذكر الله به النصارى من خير فانما يراد به النجاشي وأصحابه . وأخرج أبو الشيخ عنه قال هم ناس من الحبشة آمنوا إذ جاءتهم مهاجرة المؤمنين فذلك لهم . وأخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير : قال نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه (واذا سمعوا ماأنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والواحدي من طريق ابن شهاب قال أخبرني سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعروة بن الزبير قالوا بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتابا الى النجاشي فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأرسل النجاشي الى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ عليهم سورة مريم فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع وهم الذين أنزل الله فيهم (ولتجدن أقربهم مودة) الى قوله (من الشاهدين) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد ابن جبير في الآية قال : هم رسل النجاشي باسلامه و إسلام قومه كانوا سبعين رجلا يختارهم من قومه الخير فالخير في الفقه والسن ، وفي لفظ بعث من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ثلاثين رجلا ، فلما أتوا رسول الله ﷺ دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق ، فأنزل الله فيهم (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) الآية ونزلت هذه الآية فيهم أيضا ـ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ـ إلى قوله ـ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ـ . وأخرج عبد بن حميد والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس نحوه بدون ذكر العدد . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : بعث النجاشي الى رسول الله ﷺ اثنى عشر رجلا سبعة قسيسين وخمسة رهبانا ينظرون اليه و يسألونه ، فلما لقوه فقرأ عليهم ماأنزل الله بكوا وآمنوا ، فأنزل الله فيهم (واذا سمعوا ماأنزل الى الرسول) الآية ، والروايات في هذا الباب كثيرة ، وهذا المقدار يكفي ، فليس المراد الا بيان سبب نزول الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (قسيسين) قال : هم علماؤهم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : القسيسون عبادهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله (فاكتبنا مع الشاهدين) قال : أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۞ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۞

الطيبات : هي المستلذات مما أحله الله لعباده ، نهى الذين آمنوا عن أن يحرموا على أنفسهم شيئا منها إما لظنهم أن في ذلك طاعة لله وتقربا اليه ، وأنه من الزهد في الدنيا وقمع النفس عن شهواتها ، أو لقصد أن يحرموا على أنفسهم شيئا مما أحله لهم كما يقع من كثير من العوام من قولهم : حرام علي وحرمته على نفسي ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل تحت هذا النهي القرآني . قال ابن جرير الطبري : لايجوز لأحد من المسلمين

تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح ، ولذلك رد النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون .

فثبت أنه لافضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر انما هو في فعل ماندب الله عباده اليه وعمل به رسول الله ﷺ وسنه لأمته واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون اذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ ، فاذا كان ذلك كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان اذا قدر على لباس ذلك من حله ، وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذرا من عارض الحاجة الى النساء . قال : فان ظن ظان أن الفضل في غير الذي قلنا لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف مافضل بينهما من القيمة الى أهل الحاجة ، فقد ظن خطأ ، وذلك أن الأولى بالانسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها ، ولاشيء أضر للجسم من المطاعم الردية لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سببا الى طاعته * قوله (ولاتعتدوا) أى لاتعتدوا على الله بتحريم طيبات ما أحل الله لكم ، أولاتعتدوا فتحلوا ماحرم الله عليكم ، أى تترخصوا فتحللوا حراما كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال . وقد ذهب جمهور العلماء الى أن من حرم على نفسه شيئا مما أحله الله له فلا يحرم عليه ولايلزمه كفارة . وقال أبو حنيفة وأحمد ومن تابعهما ان من حرم شيئا صار محرما عليه ، واذا تناوله لزمته الكفارة ، وهوخلاف مافي هذه الآية وخلاف مادلت عليه الأحاديث الصحيحة ، ولعله يأتي في سورة التحريم ماهو أبسط من هذا ان شاء الله * وقوله (ان الله لايحب المعتدين) تعليل لما قبله ، وظاهره أن تحريم كل اعتداء : أى مجاوزة لماشرعه الله في كل أمر من الأمور (وكلوا مما رزقكم الله) حال كونه (حلالا طيبا) أى غير محرم ولامستقذر ، أو أكلا حلالا طيبا أو كلوا حلالا طيبا مما رزقكم الله ، ثم وصاهم الله سبحانه بالتقوى فقال (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) .

وقد أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال يارسول الله اني اذا أكلت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوة ، واني حرمت علي اللحم ، فنزلت (ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم) وقد روى من وجه آخر مرسلا ، وروى موقوفا على ابن عباس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في الآية قال : نزلت في رهط من الصحابة . قالوا نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل اليهم فذكر لهم ذلك فقالوا نعم ، فقال النبي ﷺ «لكني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني» وقد ثبت نحو هذا في الصحيحين وغيرهما من دون ذكر أن ذلك سبب نزول الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبوداود في المراسيل وابن جرير عن أبي مالك أن هؤلاء الرهط : هم عثمان بن مظعون وأصحابه ، وفي الباب روايات كثيرة بهذا المعنى ، وكثير منها مصرح بأن ذلك سبب نزول الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد ابن أسلم أن عبدالله بن رواحة ضافه ضيف من أهله وهو عند النبي ﷺ ثم رجع الى أهله ، فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارا له ، فقال لامرأته حبست ضيفي من أجلي هو حرام علي ، فقالت امرأته هو حرام علي ، فقال الضيف : هو حرام علي ، فلما رأى ذلك وضع يده وقال : كلوا بسم الله ، ثم ذهب الى النبي ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ «قد أصبت» فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم) وهذا أثر منقطع ، ولكن في صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه ماهو شبيه بهذا . وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق قال : كنا عند عبدالله بجيء بضرع ، فتنحى رجل ، فقال له عبدالله

ادن . فقال انى حرمت أن آكله ، فقال عبدالله ادن فاطعم وكفر عن يمينك ، وتلا هذه الآية . وأخرجه أيضا الحاكم فى مستدركه ، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞

قد تقدم تفسير اللغو ، والخلاف فيه فى سورة البقرة ، و (فى أيمانكم) صلة يؤاخذكم ، قيل و (فى) بمعنى من والأيمان جمع يمين ۞ وفى الآية دليل على أن أيمان اللغو لا يؤاخذ الله الحالف بها ولا تجب فيها الكفارة . وقد ذهب الجمهور من الصحابة ومن بعدهم الى أنها قول الرجل : لا والله و بلى والله فى كلامه غير معتقد لليمين و به فسر الصحابة الآية وهم أعرف بمعانى القرآن . قال الشافعى : وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة ۞ قوله (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) قرئ بتشديد عقدتم و بتخفيفه ، وقرئ عاقدتم ، والعقد على ضربين حسى : كعقد الحبل ، وحكمى كعقد البيع ، واليمين والعهد . قال الشاعر :

قوم اذا عقدوا عقدا لجارهم ۞ شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

فاليمين المعقدة من عقد القلب ليفعلن أو لا يفعلن فى المستقبل ، أى ولكن يؤاخذكم بأيمانكم المعقدة الموثقة بالقصد والنية اذا حنثتم فيها . وأما اليمين الغموس : فهى يمين مكر وخديعة وكذب قدباء الحالف باثمها ، وليست بمعقودة ولا كفارة فيها كما ذهب اليه الجمهور ، وقال الشافعى : هى يمين معقودة لأنها مكتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم الله ، والراجح الأول وجميع الأحاديث الواردة فى تكفير اليمين متوجهة الى المعقودة ولا يدل شىء منها على الغموس ، بل ما ورد فى الغموس الا الوعيد والترهيب ، وانها من الكبائر ، بل من أكبر الكبائر ، وفيها نزل قوله تعالى ــ ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ــ الآية ۞ قوله (فكفارته) الكفارة : هى مأخوذة من التكفير وهو التستير ، وكذلك الكفر هو الستر ، والكافر هو الساتر ، لأنها تستر الذنب وتغطيه ، والضمير فى كفارته راجع الى ما فى قوله ( بما عقدتم ) . ( اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ) المراد بالوسط هنا المتوسط بين طرفى الاسراف والتقتير ، وليس المراد به الاعلى كما فى غير هذا الموضع : أى أطعموهم من المتوسط مما تعتادون اطعام أهليكم منه ، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه ، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه ، وظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا ، وقد روى عن على بن أبى طالب أنه قال لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغديهم و يعشيهم . قال أبو عمر : هو قول أئمة الفتوى بالأمصار ، وقال الحسن البصرى وابن سيرين : يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزا وسمنا أو خبزا ولحما ، وقال عمر بن الخطاب وعائشة ومجاهد والشعبى وسعيد بن جبير وابراهيم النخعى وميمون بن مهران وأبو مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبو قلابة ومقاتل : يدفع الى كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ، وروى ذلك عن على . وقال أبو حنيفة نصف صاع بر وصاع مما عداه ، وقد أخرج ابن ماجه وابن مردويه عن ابن عباس قال : كفر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وكفر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر ؛ وفى اسناده عمر بن عبدالله بن يعلى الثقفى وهو مجمع على ضعفه . وقال الدارقطنى متروك ۞ قوله (أو كسوتهم) عطف على إطعام . قرئ بضم الكاف وكسرها

وهما لغتان مثل أسوة وإسوة . وقرأ سعيد بن جبير ومحمد بن السميفع اليماني أوكأسوتهم : يعنى كأسوة أهليكم والكسوة فى الرجال تصدق على ما يكسو البدن ولوكان ثوبا واحدا ، وهكذا فى كسوة النساء ، وقيل الكسوة للنساء درع وخمار ، وقيل المراد بالكسوة ماتجزئ به الصلاة * قوله (أوتحرير رقبة) أى اعتاق مملوك والتحرير : الاخراج من الرقّ ، و يستعمل التحرير فى فك الأسير واعفاء المجهود بعمل عن عمله وترك انزال الضرر به ، ومنه قول الفرزدق :

أبنى غدانة اننى حررتكم * فوهبتكم لعطية بن جعال

أى حررتكم من الهجاء الذى كان سيضع منكم ويضرّ بأحسابكم .

ولأهل العلم أبحاث فى الرقبة التى تجزئ فى الكفارة ، وظاهر هذه الآية أنها تجزئ كل رقبة على أىّ صفة كانت ، وذهب جماعة منهم الشافعى الى اشتراط الايمان فيها قياسا على كفارة القتل (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) أى فمن لم يجد شيئا من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام ، وقرئ متتابعات ، حكى ذلك عن ابن مسعود وأبىّ ، فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم ، و به قال أبو حنيفة والثورى وهو أحد قول الشافعى ، وقال مالك والشافعى فى قوله الآخر يجزئ التفريق (ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم) أى ذلك المذكور كفارة أيمانكم اذا حلفتم وحنثتم ، ثم أمرهم بحفظ الأيمان وعدم المسارعة اليها أو الى الحنث بها ، والاشارة بقوله (كذلك) الى مصدر الفعل المذكور بعده ، أى مثل ذلك البيان (يبين الله لكم) وقد تكرر هذا فى مواضع من الكتاب العزيز (لعلكم تشكرون) ما أنتم به عليكم من بيان شرائعه وايضاح أحكامه .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم) فى القوم الذين كانوا حرّموا على أنفسهم النساء واللحم قالوا يارسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها ؟ فأنزل الله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير فى اللغو قال : هو الرجل يحلف على الحلال . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : هما الرجلان يتبايعان ، يقول أحدهما والله لا أبيعك بكذا ، ويقول الآخر والله لا أشتريه بكذا . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن النخعى قال : اللغو أن يصل كلامه بالحلف والله لتأكلنّ والله لتشربنّ ونحو هذا لا يريد به يمينا ولا يتعمد حلفا ، فهو لغو اليمين ليس عليه كفارة ، وقد تقدّم الكلام فى البقرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) قال : بما تعمدتم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ كان يقيم كفارة اليمين مدّا من حنطة وفى اسناده النضر بن زرارة بن عبد الكريم الذهلى الكوفى قال أبو حاتم مجهول ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وقد تقدّم حديث ابن عباس وتضعيفه . وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : كنا نعطى فى كفارة اليمين بالمدّ الذى نقتات به . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : انى أحلف لا أعطى أقواما ، ثم يبدو لى فأعطيهم ، فأطعم عشرة مساكين كل مسكين صاعا من شعير أو صاعا من تمر أو نصف صاع من قمح . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال فى كفارة اليمين اطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع من حنطة . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله . وأخرج عنه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق قال : فى كفارة اليمين مدّ من حنطة لكل مسكين . وأخرج هؤلاء الا ابن أبى حاتم عن زيد ابن ثابت مثله . وأخرج هؤلاء أيضا عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله . وأخرج

عبد

عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال تغديهم وتعشيهم ان شئت خبزا ولحما أو خبزا وزيتا أو خبزا وسمنا أو خبزا وتمرا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال : من عسركم ويسركم . وأخرج ابن ماجه عنه قال : الرجل يقوت أهله قوتا فيه سعة ، وكان الرجل يقوت أهله قوتا فيه شدة ، فنزلت (من أوسط ما تطعمون أهليكم) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه نحو ذلك . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عائشة عن النبي ﷺ في قوله (أو كسوتهم) قال : عباءة لكل مسكين قال ابن كثير حديث غريب . وأخرج ابن مردويه عن حذيفة قال قلت يارسول الله (أو كسوتهم) ماهو ؟ قال «عباءة عباءة» . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : عباءة لكل مسكين أوشملة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : الكسوة ثوب أو إزار . وأخرج ابن جرير والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال في كفارة اليمين هو بالخيار في هؤلاء الثلاثة الأول ، فالأول فان لم يجد من ذلك شيئا فصيام ثلاثة أيام متتابعات . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ * لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ *

قوله (ياأيها الذين آمنوا) خطاب لجميع المؤمنين . وقد تقدم تفسير الميسر في سورة البقرة (والأنصاب) هي الأصنام المنصوبة للعبادة (والأزلام) . قد تقدم تفسيرها في أول هذه السورة ، والرجس يطلق على العذرة والأقذار ، وهو خبر للخمر ، وخبر المعطوف عليه محذوف * وقوله (من عمل الشيطان) صفة لرجس ، أي كائن من عمل الشيطان ، بسبب تحسينه لذلك وتزيينه له ، وقيل هو الذي كان عمل هذه الأمور بنفسه فاقتدى به بنوآدم ، والضمير في (فاجتنبوه) راجع إلى الرجس أو إلى المذكور * وقوله (لعلكم تفلحون) علة لما قبله . قال في الكشاف أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد ، منها تصدير الجملة بإنما ، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام ، ومنه قوله ﷺ شارب الخمر كعابد الوثن ، ومنها أنه جعلهما رجسا ، كما قال — فاجتنبوا الرجس من الأوثان — ، ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت ، ومنها أنه أمر بالاجتناب ، ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح ، واذا كان الاجتناب فلاحا كان الارتكاب خيبة ومحقة ، ومنها أنه ذكر ماينتج منهما من الوبال ، وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقمر وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلوات انتهى .

وفي هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمنه الأمر بالاجتناب من الوجوب وتحريم الصد ، ولما تقرر في الشريعة من تحريم قربان الرجس فضلا عن جعله شرابا يشرب . قال أهل العلم من المفسرين

وغيرهم كان تحريم الخمر بتدريج ونوازل كثيرة ، لأنهم كانوا قد ألفوا شربها وحببها الشيطان إلى قلوبهم ، فأول مانزل فى أمرها ـ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ـ فترك عند ذلك بعض من المسلمين شربها ولم يتركه آخرون ، ثم نزل قوله تعالى ـ لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ فتركها البعض أيضا ، وقالوا لاحاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة ، وشربها البعض فى غير أوقات الصلاة ، حتى نزلت هذه الآية (إنما الخمر والميسر) فصارت حراما عليهم ، حتى كان يقول بعضهم ماحرّم الله شيئا أشدّ من الخمر ، وذلك لما فهموه من التشديد فيما تضمنته هذه الآية من الزواجر ، وفيما جاءت به الأحاديث الصحيحة من الوعيد لشاربها ، وأنها من كبائر الذنوب .

وقد أجمع على ذلك المسلمون إجماعا لاشك فيه ولا شبهة ، وأجمعوا أيضا على تحريم بيعها والانتفاع بها مادامت خمرا ، وكما دلت هذه الآية على تحريم الخمر دلت أيضا على تحريم الميسر والأنصاب والأزلام . وقد أشارت هذه الآية إلى مافى الخمر والميسر من المفاسد الدنيوية بقوله (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء) ومن المفاسد الدينية بقوله (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) * قوله (فهل أنتم منتهون) فيه زجر بليغ يفيده الاستفهام الدال على التقريع والتوبيخ ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه لما سمع هذا : انتهينا ، ثم أكد الله سبحانه هذا التحريم بقوله (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا) أى مخالفتهما : أى مخالفة الله ورسوله ، فان هذا وان كان أمرا مطلقا فالمجىء به فى هذا الموضع يفيد ما ذكرناه من التأكيد ، وهكذا ماأفاده بقوله (فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) أى ان أعرضتم عن الامتثال ، فقد فعل الرسول ماهو الواجب عليه من البلاغ الذى فيه رشادكم وصلاحكم ، ولم تضروا بالمخالفة إلا أنفسكم ، وفى هذا من الزجر مالا يقادر قدره ولايبلغ مداه * قوله (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) أى من المطاعم التى يشتهونها ، والطعم وان كان استعماله فى الأكل أكثر لكنه يجوز استعماله فى الشرب ، ومنه قوله تعالى ـ ومن لم يطعمه فانه منى ـ أباح الله سبحانه لهم فى هذه الآية جميع ماطعموا كائنا ما كان مقيدا بقوله (إذا مااتقوا) أى اتقوا ماهو محرّم عليهم كالخمر وغيره من الكبائر ، وجميع المعاصى (وآمنوا) بالله (وعملوا الصالحات) من الأعمال التى شرعها الله لهم ، أى استمروا على عملها * قوله (ثم اتقوا) عطف على اتقوا الأوّل ، أى اتقوا ماحرّم عليهم بعد ذلك مع كونه كان مباحا فيما سبق (وآمنوا) بتحريمه (ثم اتقوا) ماحرّم عليهم بعد التحريم المذكور قبله مما كان مباحا من قبل (وأحسنوا) أى عملوا الأعمال الحسنة ، هذا معنى الآية ، وقيل التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة ، وقيل ان التكرير باعتبار المراتب الثلاث ، المبدأ ، والوسط ، والمنتهى ، وقيل ان التكرار باعتبار مايتقيه الانسان ، فانه ينبغى له أن يترك المحرّمات توقيا من العذاب ، والشبهات توقيا من الوقوع فى الحرام ، وبعض المباحات حفظا للنفس عن الخسة ، وقيل انه لمجرّد التأكيد ، كما فى قوله تعالى ـ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ـ ، هذه الوجوه كلها مع قطع النظر عن سبب نزول الآية إما مع النظر إلى سبب نزولها ، وهو أنه لما نزل تحريم الخمر ، قال قوم من الصحابة كيف بمن مات منا ، وهو يشربها ويأكل الميسر ؟ فنزلت ، فقد قيل : ان المعنى (اتقوا) الشرك (وآمنوا) بالله ورسوله (ثم اتقوا) الكبائر (وآمنوا) أى ازدادوا إيمانا (ثم اتقوا) الصغائر (وأحسنوا) أى تنفلوا . قال ابن جرير الطبرى الاتقاء الأوّل هو الاتقاء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل ، والاتقاء الثانى الاتقاء بالثبات على التصديق والثالث الاتقاء بالاحسان والتقرّب بالنوافل .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : نزل فى الخمر

ثلاث

ثلاث آيات ، فأول شيء ـ يسألونك عن الخمر والميسر ـ الآية ، فقيل حرّمت الخمر ، فقيل يارسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية ـ لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ ، فقيل حرّمت الخمر ، فقالوا يارسول الله لانشربها قرب الصلاة فسكت عنهم ، ثم نزلت (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر) الآية فقال رسول الله ﷺ حرّمت الخمر . وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال : حرّمت الخمر ثلاث مرات ، وذكر نحو حديث ابن عمر ، فقال الناس يارسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على فراشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان ، فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا) الآية ، وقال النبي ﷺ لو حرّم عليهم لتركوه كما تركتم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : فيّ نزل تحريم الخمر ، صنع رجل من الأنصار طعاما فدعا ناسا فأتوه فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر ، وذلك قبل تحريم الخمر فتفاخروا ، فقالت الأنصار : الأنصار خير من المهاجرين ، وقالت قريش : قريش خير ، فأهوى رجل بلحي جمل فضرب على أنفي فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له ، فنزلت هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) الآية . وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : أنزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار شربوا ، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته ، فيقول صنع بي هذا أخي فلان وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن ، والله لو كان بي رءوفا رحيما ماصنع بي هذا حتى وقعت الضغائن في قلوبهم ، فأنزل الله هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) إلى قوله (فهل أنتم منتهون) فقال ناس من المتكلفين ، هي رجس ، وهي في بطن فلان قتل يوم بدر وفلان قتل يوم أحد فأنزل الله هذه الآية (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية . وقد رويت في سبب النزول روايات كثيرة موافقة لما قد ذكرناه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : الميسر هو القمار كله . وأخرج ابن مردويه عن وهب بن كيسان قال : قلت لجابر متى حرّمت الخمر ؟ قال بعد أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : نزل تحريم الخمر في سورة المائدة ، بعد غزوة الأحزاب . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كل القمار من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب قال : النرد والشطرنج من الميسر . وأخرج عبد بن حميد عن عليّ قال : الشطرنج ميسر الأعاجم . وأخرج ابن أبي حاتم عن القاسم بن محمد أنه سئل عن النرد أهي من الميسر ؟ قال كل من ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي في الشعب عنه أيضا أنه قيل له هذه النرد تكرهونها فما بال الشطرنج ؟ قال : كل ماألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر ، وأخرجوا أيضا عن ابن الزبير قال : ياأهل مكة بلغني عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها النردشير ، والله يقول في كتابه (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) إلى قوله (فهل أنتم منتهون) وإني أحلف بالله لاأوتى بأحد يلعب بها إلا عاقبته في شعره وبشره ، وأعطيت سلبه من أتاني به . وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك بن أنس قال : الشطرنج من النرد ، بلغنا عن ابن عباس أنه ولي مال يتيم فأحرقها . وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمير قال : سئل ابن عمر عن الشطرنج ؟ فقال هي شرّ من النرد . وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن عبيد قال : رأى رجل من أهل الشام أنه يغفر لكل مؤمن في كل يوم اثنتي عشرة مرّة إلا أصحاب الشاه يعني أصحاب الشطرنج . وأخرج

ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر أنه سئل عن الشطرنج فقال : تلك المجوسية فلا تلعبوا بها . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ «من لعب بالنردشير فقد عصى الله ورسوله» . وأخرج أحمد عن عبد الرحيم الخطمي سمعت رسول الله ﷺ يقول «مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي» . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن عبدالله بن عمر قال : اللاعب بالنرد قمارا كآكل لحم الخنزير ، واللاعب بها من غير قمار كالمدهن بودك الخنزير . وأخرج ابن أبي الدنيا عن يحيى بن كثير قال : مر رسول الله ﷺ بقوم يلعبون بالنرد فقال «قلوب لاهية وأيدي عليلة وألسنة لاغية» . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن قتادة قال الميسر : القمار . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق ليث عن عطاء وطاوس ومجاهد قالوا : كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن سيرين قال : القمار من الميسر . وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عنه قال : ما كان من لعب فيه قمار أو قيام أو صياح أو شر فهو من الميسر . وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن شريح أن النبي ﷺ قال «ثلاث من الميسر الصفير بالحمام والقمار والضرب بالكعاب» . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأنصاب حجارة كانوا يذبحون لها ، والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها الأمور . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانت لهم حصيات اذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الأزلام قال : هي كعاب فارس التي يقتمرون بها ، وسهام العرب . وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الخمر وشاربها والوعيد الشديد عليه وأن كل مسكر حرام وهي مدونة في كتب الحديث فلا نطول المقام بذكرها فلسنا بصدد ذلك بل نحن بصدد ماهو متعلق بالتفسير .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ * أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ *

قوله (ليبلونكم) أي ليختبرنكم ، واللام جواب قسم محذوف ، كان الصيد أحد معايش العرب فابتلاهم الله بتحريمه مع الاحرام ، وفي الحرم كما ابتلى بني اسرائيل أن لايعتدوا في السبت ، وكان نزول الآية في عام الحديبية ، أحرم بعضهم وبعضهم لم يحرم : فكان اذا عرض صيد اختلفت فيه أحوالهم

وقد اختلف العلماء فى المخاطبين بهذه الآية هل هم المحلون أو المحرمون ؟ فذهب الى الأول مالك والى الثانى ابن عباس ، والراجح أن الخطاب للجميع ، ولاوجه لقصره على البعض دون البعض ، ومن فى (من الصيد) للتبعيض وهو صيد البر ، قاله ابن جرير الطبرى وغيره ، وقيل ان من بيانية : أى شىء حقير من الصيد، وتنكير شىء للتحقير * قوله (تناله أيديكم ورماحكم) قرأ ابن وثاب (يناله) بالياء التحتية ، هذه الجملة تقتضى تعميم الصيد ، وانه لافرق بين مايؤخذ باليد وهو مالايطيق الفرار كالصغار والبيض ، و بين ماتناله الرماح : وهو مايطيق الفرار ، وخص الأيدى بالذكر : لأنها أكثر مايتصرف به الصائد فى أخذ الصيد ، وخص الرماح بالذكر لأنها أعظم الآلات للصيد عند العرب * قوله (ليعلم الله من يخافه بالغيب) أى ليتميز عند الله من يخافه منكم بسبب عقابه الأخروى فانه غائب عنكم غير حاضر (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) أى بعد هذا البيان الذى امتحنكم الله به ، لأن الاعتداء بعد العلم بالتحريم معاندة لله سبحانه وتجرئة عليه * قوله (لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم) نهاهم عن قتل الصيد فى حال الاحرام ، وفى معناه — غير محلى الصيد وأنتم حرم — وهذا النهى شامل لكل أحد من ذكور المسلمين واناثهم ، لأنه يقال رجل حرام وامرأة حرام والجمع حرم ، وأحرم الرجل : دخل فى الحرم * قوله (ومن قتله منكم متعمدا) المتعمد هو القاصد للشىء مع العلم بالاحرام والمخطىء : هو الذى يقصد شيئا فيصيب صيدا ، والناسى : هو الذى يتعمد الصيد ولايذكر احرامه ، وقد استدل ابن عباس وأحمد فى رواية وداود عنه باقتصاره سبحانه على العامد بأنه لا كفارة على غيره ، بل لاتجب الا عليه وحده ، و به قال سعيد بن جبير وطاوس وأبو ثور ، وقيل انها تلزم الكفارة المخطىء والناسى كما تلزم المتعمد وجعلوا قيد التعمد خارجا مخرج الغالب ، روى عن عمر والحسن والنخعى والزهرى ، و به قال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم ، وروى عن ابن عباس ، وقيل انه يجب التكفير على العامد الناسى لاحرامه ، و به قال مجاهد قال : فان كان ذاكرا لاحرامه فقد حل ولاحج له لارتكابه محظور احرامه ، فبطل عليه كما لو تكلم فى الصلاة أو أحدث فيها * قوله (فجزاء مثل ماقتل من النعم) أى فعليه جزاء مماثل لما قتله ، ومن النعم بيان للجزاء المماثل ، قيل المراد المماثلة فى القيمة ، وقيل فى الخلقة ، وقد ذهب الى الأول أبو حنيفة وذهب الى الثانى مالك والشافعى وأحمد والجمهور وهو الحق لأن البيان للمماثل بالنعم يفيد ذلك ، وكذلك يفيده هديا بالغ الكعبة ، وروى عن أبى حنيفة أنه يجوز اخراج القيمة ولو وجد المثل ، وأن المحرم مخير . وقرىء (فجزاؤه مثل ماقتل) وقرىء (فجزاء مثل) على اضافة جزاء الى مثل ، وقرىء بنصبهما على تقدير فليخرج جزاء مثل ماقتل ، وقرأ الحسن (النعم) بسكون العين تخفيفا (يحكم به) أى بالجزاء أو بمثل ماقتل (ذوا عدل منكم) أى رجلان معروفان بالعدالة بين المسلمين ، فاذا حكما بشىء لزم ، وان اختلفا رجع الى غيرهما ، ولايجوز أن يكون الجانى أحد الحكمين ، وقيل يجوز ، وبالأول قال أبو حنيفة ، وبالثانى قال الشافعى فى أحد قوليه : وظاهر الآية يقتضى حكمين غير الجانى * قوله (هديا بالغ الكعبة) نصب هديا على الحال أو البدل من مثل ، و (بالغ الكعبة) صفة لهديا ، لأن الاضافة غير حقيقية والمعنى أنهما اذا حكما بالجزاء فانه يفعل به ما يفعل بالهدى من الارسال الى مكة والنحر هنالك ، والاشعار والتقليد ، ولم يرد الكعبة بعينها فان الهدى لايبلغها ، وانما أراد الحرم ، ولاخلاف فى هذا * قوله (أو كفارة) معطوف على محل من النعم : وهو الرفع لأنه خبر مبتدا محذوف ، و (طعام مساكين) عطف بيان لكفارة أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف (أو عدل ذلك) معطوف على طعام ، وقيل هو معطوف على جزاء ، وفيه ضعف ، فالجانى مخير بين هذه الأنواع المذكورة ، وعدل الشىء ماعادله من غير جنسه ، و (صياما) منصوب على التمييز ، وقد قرر العلماء عدل كل صيد من الاطعام والصيام ، وقد ذهب الى أن الجانى مخير بين الأنواع

المذكورة جمهور العلماء ، وروى عن ابن عباس أنه لايجزئ المحرم الاطعام والصوم الا اذا لم يجد الهدى ، والعدل بفتح العين وكسرها لغتان وهما الميل قاله الكسائى . وقال الفراء عدل الشيء بكسر العين مثله من جنسه ، و بفتح العين مثله من غيرجنسه و بمثل قول الكسائى قال البصريون * قوله (ليذوق وبال أمره) عليه لايجاب الجزاء أى أوجبنا ذلك عليه ليذوق و بال أمره ، والذوق مستعار لادراك المشقة ، ومثله ـ ذق إنك أنت العزيز الكريم ـ والوبال سوء العاقبة ، والمرعى الوبيل الذى يتأذى به بعد أكله ، وطعام و بيل اذا كان ثقيلا * قوله (عفا الله عما سلف) يعنى فى جاهليتكم من قتلكم للصيد وقيل عما سلف قبل نزول الكفارة (ومن عاد) الى مانهيتم عنه من قتل الصيد بعد هذا البيان (فينتقم الله منه) خبر مبتدأ محذوف : أى فهو ينتقم الله منه ، قيل المعنى ان الله ينتقم منه فى الآخرة فيعذبه بذنبه وقيل ينتقم منه بالكفارة . قال شريح وسعيد بن جبير يحكم عليه فى أول مرة فاذا عاد لم يحكم عليه بل يقال له : اذهب ينتقم الله منك : أى ذنبك أعظم من أن يكفر * قوله (أحل لكم صيد البحر) الخطاب لكل مسلم أو للمحرمين خاصة ، وصيد البحر ما يصاد فيه ، والمراد بالبحر هنا كل ماء يوجد فيه صيد بحرى وان كان نهرا أوغديرا * قوله (وطعامه متاعا لكم وللسيارة) الطعام لكل مايطعم ، وقد تقدم وقد اختلف فى المراد به هنا فقيل : هو ماقذف به البحر وطفا عليه ، و به قال كثير من الصحابة والتابعين وقيل طعامه ماملح منه و بقى ، و به قال جماعة ، وروى عن ابن عباس ، وقيل طعامه ملحه الذى ينعقد من مائه وسائر مافيه من نبات وغيره ، و به قال قوم ، وقيل المراد به مايطعم من الصيد : أى مايحل أكله وهو السمك فقط ، و به قالت الحنفية ، والمعنى أحل لكم الانتفاع بجميع مايصاد فى البحر ، وأحل لكم المأكول منه : وهو السمك ، فيكون كالتخصيص بعد التعميم ، وهو تكلف لاوجه له ، ونصب متاعا على أنه مصدر : أى متعتم به متاعا ، وقيل مفعول له مختص بالطعام ، أى أحل لكم طعام البحر متاعا ، وهو تكلف جاء به من قال بالقول الأخير ، بل اذا كان مفعولا له كان من الجميع : أى أحل لكم مصيد البحر وطعامه تمتيعا لكم : أى لمن كان مقيما منكم يأكله طريا (وللسيارة) أى المسافرين منكم يتزودونه ويجعلونه قديدا ، وقيل السيارة : هم الذين يركبونه خاصة * قوله (وحرّم عليكم صيد البر مادمتم حرما) أى حرّم عليكم مايصاد فى البرّ مادمتم محرمين ، وظاهره تحريم صيده على المحرم ولو كان الصائد حلالا ، واليه ذهب الجمهور ان كان الحلال صاده لمحرم لا اذا لم يصده لأجله : وهو القول الراجح ، و به يجمع بين الأحاديث ، وقيل انه يحلّ له مطلقا ، واليه ذهب جماعة ، وقيل يحرم عليه مطلقا ، واليه ذهب آخرون ، وقد بسطنا هذا فى شرحنا للمنتقى * قوله (واتقوا الله الذى اليه تحشرون) أى اتقوا الله فيما نهاكم عنه الذى اليه تحشرون لا إلى غيره ، وفيه تشديد ومبالغة فى التحذير . وقرئ (وحرم عليكم صيد البر) بالبناء للفاعل ، وقرئ (مادمتم) بكسر الدال * قوله (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) جعل هنا بمعنى خلق ، وسميت الكعبة كعبة لأنها مربعة والتكعيب التربيع وأكثر بيوت العرب مدوّرة لامربعة ، وقيل سميت كعبة لنتوئها و بروزها ، وكل بارز كعب مستديرا كان أوغير مستدير ، ومنه كعب القدم ، وكعوب القنا ، وكعب ثدى المرأة ، و (البيت الحرام) عطف بيان وقيل مفعول ثان ولا وجه له ، وسمى بيتا لأن له سقوفا وجدرا وهى حقيقة البيت وان لم يكن به ساكن ، وسمى حراما لتحريم الله سبحانه اياه * وقوله (قياما للناس) كذا قرأ الجمهور وقرأ ابن عامر (قيما) وهو منصوب على أنه المفعول الثانى ان كان جعل هو المتعدى إلى مفعولين ، وان كان بمعنى خلق كما تقدم فهو منتصب على الحال ، ومعنى كونه قياما أنه مدار لمعاشهم ودينهم ، أى يقومون

فيه بما يصلح دينهم ودنياهم : يأمن فيه خائفهم ، وينصر فيه ضعيفهم ، ويربح فيه تجارهم ، ويتعبد فيه متعبدهم * قوله (والشهر الحرام) عطف على الكعبة ، وهو ذوالحجة ، وخصه من بين الأشهر الحرم لكونه زمان تأدية الحج ، وقيل هو اسم جنس * والمراد به الأشهر الحرم ذوالقعدة ، وذوالحجة ، ومحرّم ، ورجب ، فانهم كانوا لا يطلبون فيها دما ، ولا يقاتلون بها عدوا ، ولا يهتكون فيها حرمة ، فكانت من هذه الحيثية قياما للناس (والهدى والقلائد) أى وجعل الله الهدى والقلائد قياما للناس * والمراد بالقلائد : ذوات القلائد من الهدى ، ولا مانع من أن يراد بالقلائد أنفسها ، والاشارة بذلك إلى الجعل : أى ذلك الجعل (لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض) أى لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل أمر السموات والأرض ويعلم مصالحكم الدينية والدنيوية فانها من جملة مافيهما ، فكل ماشرعه لكم فهو جلب لمصالحكم ، ودفع لما يضرّكم (وأن الله بكل شيء عليم) هذا تعميم بعد التخصيص ، ثم أمرهم بأن يعلموا بأن الله لمن انتهك محارمه ولم يتب عن ذلك شديد العقاب ، وأنه لمن تاب وأناب غفور رحيم ، ثم أخبرهم أن ماعلى رسوله إلا البلاغ لهم ، فان لم يمتثلوا ويطيعوا فما ضرّوا إلا أنفسهم وما جنوا إلا عليها ، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد فعل مايجب عليه ، وقام بما أمره الله به .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (ومن قتله منكم متعمدا) قال ان قتله متعمدا أو ناسيا أو خطأ حكم عليه ، فان عاد متعمدا عجلت له العقوبة إلا أن يعفو الله عنه ، وفى قوله (فجزاء مثل ماقتل من النعم) قال إذا قتل المحرم شيئا من الصيد حكم عليه فيه ، فان قتل ظبيا أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ، فان لم يجد فاطعام ستة مساكين ، فان لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فان قتل أيلا ونحوه فعليه بقرة ، فان لم يجد أطعم عشرين مسكينا ، فان لم يجد صام عشرين يوما ، وان قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنه ، فان لم يجد أطعم ستين مسكينا ، فان لم يجد صام ثلاثين يوما ، والطعام مدّ مدّ يشبعهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن الحكم أن عمر كتب أن يحكم عليه فى الخطأ والعمد . وأخرجا نحوه عن عطاء . وقد روى نحو هذا عن جماعات من السلف من غير فرق بين العامد والخاطئ والناسى ، وروى عن آخرين اختصاص ذلك بالعامد .

وللسلف فى تقدير الجزاء المماثل ، وتقدير القيمة أقوال مبسوطة فى مواطنها . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال فى بيضة النعام « صيام يوم أو إطعام مسكين » . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد الله بن ذكوان عن النبى ﷺ مثله . وأخرج أيضا عن عائشة عنه ﷺ نحوه . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه من طريق أبى المهزّم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « فى بيض النعام ثمنه » . وقد استثنى النبى ﷺ من حيوانات الحرم الخمس الفواسق كما ورد ذلك فى الأحاديث فانه يجوز للمحرم أن يقتلها ولا شيء عليه . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى (أحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم) مالفظه ميتا فهو طعامه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى هريرة موقوفا مثله . وأخرج أبو الشيخ عن أبى بكر الصدّيق نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة أن أبا بكر الصدّيق قال فى قوله (أحلّ لكم صيد البحر وطعامه) قال صيد البحر : مااصطاده أيدينا ، وطعامه مالاثه البحر ، وفى لفظ « طعامه كل مافيه » . وفى لفظ « طعامه ميتته » . ويؤيد هذا مافى الصحيحين من حديث العنبرة التى ألقاها البحر فأكل الصحابة منها وقرّرهم رسول الله ﷺ على ذلك ، وحديث هو « الطهور ماؤه والحلّ ميتته » . وحديث « أحلّ لكم ميتتان ودمان » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (جعل الله الكعبة البيت

V ١٥٥-١٥٦



الحرام قياما للناس ) قال قياما لدينهم ومعالم حجهم . وأخرج ابن جرير عنه : قال قيامها أن يأمن من توجه إليها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال : جعل الله الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام قياما للناس يأمنون به في الجاهلية الأولى لايخاف بعضهم من بعض حين يلقونهم عند البيت أو في الحرم أو في الشهر الحرام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد) قال حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية ، فكان الرجل لو جرّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب ، وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل لو لقي الهدى مقلدا وهو يأكل العصب من الجوع لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل اذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فحمته ومنعته من الناس ، وكان إذا نفر تقلد قلادة من الاذخر أو من السمر ، فتمنعه من الناس حتى يأتي أهله حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية . وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم (قياما للناس) قال أمنا .

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ * مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ *

قيل المراد بالخبيث والطيب : الحرام والحلال ، وقيل المؤمن والكافر ، وقيل العاصي والمطيع ، وقيل الرديء والجيد * والأولى أن الاعتبار بعموم اللفظ فيشمل هذه المذكورات وغيرها مما يتصف بوصف الخبث والطيب من الأشخاص والأعمال والأقوال ، فالخبيث لايساوي الطيب بحال من الأحوال * قوله (ولو أعجبك كثرة الخبيث) قيل الخطاب للنبي ﷺ ، وقيل لكل مخاطب يصلح لخطابه بهذا * والمراد نفي الاستواء في كل الأحوال ، ولو في حال كون الخبيث معجبا للرائي للكثرة التي فيه ، فان هذه الكثرة مع الخبث في حكم العدم ، لأن خبث الشيء يبطل فائدته ، ويمحق بركته ، ويذهب بمنفعته ، والواو إما للحال أو للعطف على مقدّر ، أي لايستوي الخبيث والطيب لو لم تعجبك كثرة الخبيث ، ولو أعجبك كثرة الخبيث كقولك أحسن الى فلان وان أساء اليك ، أي أحسن اليه ان لم يسيء اليك وان أساء اليك ، وجواب لو محذوف ، أي ولو أعجبك كثرة الخبيث فلا يستويان * قوله (ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) أي لاتسألوا عن أشياء لاحاجة لكم بالسؤال عنها ولاهي مما يعنيكم في أمر دينكم ، فقوله (ان تبد لكم تسؤكم) في محل جر صفة لأشياء ، أي لاتسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها اذا بدت لكم ، أي ظهرت وكلفتم بها ساءتكم ، نهاهم الله عن كثرة مساءلتهم لرسول الله ﷺ فان السؤال عما لايعني ولا تدعو إليه حاجة قد يكون سببا لايجابه على السائل وعلى غيره * قوله (وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) هذه الجملة من جملة صفة أشياء * والمعنى لاتسألوا عن أشياء ان تسألوا عنها حين ينزل القرآن ، وذلك مع وجود رسول الله ﷺ بين أظهركم ونزول الوحي عليه (تبد لكم)

أى

أى تظهر لكم بما يجب عليكم به النبى ﷺ أو ينزل به الوحى فيكون ذلك سببا للتكاليف الشاقة وايجاب مالم يكن واجبا وتحريم مالم يكن محرّما ، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحى بموت رسول الله ﷺ فانه لا ايجاب ولا تحريم يتسبب عن السؤال .

وقد ظنّ بعض أهل التفسير أن الشرطية الثانية فيها إباحة السؤال مع وجود رسول الله ﷺ ونزول الوحى عليه ، فقال ان الشرطية الأولى أفادت عدم جواز السؤال ، والثانية أفادت جوازه ، فقال ان المعنى وان تسألوا عن غيرها مما مست اليه الحاجة تبد لكم بجواب رسول الله ﷺ عنها ، وجعل الضمير فى (عنها) راجعا الى أشياء غير الأشياء المذكورة ، وجعل ذلك كقوله ـ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ـ وهو آدم ، ثم قال ـ ثم جعلناه نطفة ـ أى ابن آدم * قوله (عفا الله عنها) أى عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا الى ذلك ، وقيل المعنى ان تلك الأشياء التى سألتم عنها هى مما عفا عنه ولم يوجبه عليكم فكيف تتسببون بالسؤال لايجاب ماهو عفو من الله غير لازم ، وضمير (عنها) عائد الى المسئلة على الأوّل ، والى أشياء على الثانى على أن تكون جملة (عفا الله عنها) صفة ثالثة لأشياء * والأوّل أولى ، لأن الثانى يستلزم أن يكون ذلك المسئول عنه قد شرعه الله ثم عفا عنه ، ويمكن أن يقال ان العفو بمعنى الترك ، أى تركها الله ولم يذكرها بشىء فلا تبحثوا عنها ، وهذا معنى صحيح لا يستلزم ذلك اللازم الباطل ، ثم جاء سبحانه بصيغة المبالغة فى كونه غفورا حليما ليدلّ بذلك على أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة لكثرة مغفرته وسعة حلمه * قوله (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) الضمير يرجع الى المسئلة المفهومة من (لاتسألوا) لكن ليست هذه المسئلة بعينها ، بل مثلها فى كونها مما لا حاجة اليه ولا توجبه الضرورة الدينية ثم لم يعملوا بها ، بل أصبحوا بها كافرين ، أى ساترين لها تاركين للعمل بها ، وذلك كسؤال قوم صالح الناقة ، وأصحاب عيسى المائدة ، ولا بدّ من تقييد النهى فى هذه الآية بما لاتدعو اليه حاجة كما قدّمنا ، لأن الأمر الذى تدعو الحاجة اليه فى أمور الدين والدنيا قد أذن الله بالسؤال عنه فقال ـ فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون ـ ، وقال ﷺ « قاتلهم الله ألا سألوا فانما شفاء العىّ السؤال » * قوله (ماجعل الله من بحيرة) هذا كلام مبتدأ يتضمن الردّ على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه ، وجعل ههنا بمعنى سمى كما قال ـ إنا جعلناه قرآنا عربيا ـ * والبحيرة : فعيلة بمعنى مفعولة كالنطيحة والذبيحة ، وهى مأخوذة من البحر ، وهو شق الاذن . قال ابن سيده : البحيرة هى التى خليت بلا راع ، قيل هى التى يجعل درّها للطواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس ، وجعل شق أذنها علامة لذلك . وقال الشافعى كانوا اذا نتجت الناقة خمسة أبطن اناثا بحرت أذنها فحرّمت ، وقيل ان الناقة اذا نتجت خمسة أبطن ، فان كان الخامس ذكرا بحروا أذنه فأكله الرجال والنساء ، وان كان الخامس أنثى بحروا أذنها ، وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها ، وقيل اذا نتجت الناقة خمسة أبطن من غير تقييد بالاناث شقوا أذنها وحرّموا ركوبها ودرّها * والسائبة : الناقة تسيب ، أوالبعير يسيب بنذر على الرجل ان سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة ، فلا يحبس عن رعى ولا ماء ، ولا يركبه أحد : قاله أبو عبيد . قال الشاعر :

وسائبة لله تنمى تشكرا * ان الله عافا عامرا ومجاشعا

وقيل هى التى تسيب لله فلا قيد عليها ولا راعى لها ، ومنه قول الشاعر :

عقرتم ناقة كانت لربى * مسيبة فقوموا للعقاب

وقيل هى التى تابعت بين عشر اناث ليس بينهن ذكر فعند ذلك لا يركب ظهرها ، ولا يجزّ وبرها ولا يشرب لبنها الا ضيف ، وقيل كانوا يسيبون العبد فيذهب حيث يشاء لا يد عليه لأحد * والوصيلة : قيل

هى الناقة اذا ولدت أنثى بعد أنثى ، وقيل هى الشاة ، كانت اذا ولدت أنثى فهى لهم ، وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ، وان ولدت ذكرا وأنثى ، قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ، وقيل كانوا اذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا ، فان كان السابع ذكرا ذبح فأكل منه الرجال والنساء ، وان كانت أنثى تركت فى الغنم ، وان كان ذكرا وأنثى ، قالوا وصلت أخاها فلم يذبح لمكانها ، وكان لحمها حراما على النساء إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء * والحام الفحل الحامى ظهره عن أن يركب ، وكانوا اذا ركب ولد ولد الفحل قالوا حمى ظهره فلا يركب ، قال الشاعر :

حماها أبو قابوس فى عز ملكه * كما قد حمى أولاد أولاده الفحل

وقيل هو الفحل اذا نتج من صلبه عشرة ، قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم مافالوا ذلك إلا افتراء على الله وكذبا ، لاشرع شرعه الله لهم ولا العقل دلهم عليه وسبحان الله العظيم ماأرك عقول هؤلاء وأضعفها ، يفعلون هذه الافاعيل التى هى محض الرقاعة ونفس الحق (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا) وهذه أفعال آبائهم وسننهم التى سنوها لهم ، وصدق الله سبحانه حيث يقول (أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يهتدون) أى ولو كانوا جهلة ضالين ، والواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام ، وقيل للعطف على جملة مقدرة ، أى أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى البقرة . وقد صارت هذه المقالة التى قالتها الجاهلية نصب أعين المقلدة وعصاهم التى يتوكئون عليها ، ان دعاهم داعى الحق وصرخ لهم صارخ الكتاب والسنة فاحتجاجهم بمن قلدوه ممن هو مثلهم فى التعبد بشرع الله مع مخالفة قوله لكتاب الله أولسنة رسوله هو كقول هؤلاء ، وليس الفرق إلا فى مجرد العبارة اللفظية ، لافى المعنى الذى عليه ، تدور الافادة والاستفادة اللهم غفرا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية : قال الخبيث هم المشركون والطيب هم المؤمنون . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : خطب النبى ﷺ خطبة ماسمعت مثلها قط ، فقال رجل من أبى ؟ فقال فلان ، فنزلت هذه الآية (لاتسألوا عن أشياء) . وأخرج البخارى وغيره نحوه من حديث ابن عباس ، وقد بين هذا السائل فى روايات أخر أنه عبد الله بن حذافة وأنه قال من أبى ؟ قال النبى ﷺ أبوك حذافة . وأخرج ابن حبان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ خطب فقال : « ياأيها الناس ان الله قد افترض عليكم الحج ، فقام رجل ، فقال أكل عام يارسول الله ؟ فسكت عنه فأعادها ثلاث مرات ، فقال : لوقلت نعم لوجبت ولو وجبت ماقمتم بها ذرونى ماتركتكم ، فانما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، واذا أمرتكم بشىء فأتوا منه مااستطعتم » وذلك أن هذه الآية أعنى لاتسألوا عن أشياء نزلت فى ذلك . وقد أخرج عنه نحو هذا ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن أبى أمامة الباهلى نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا . وأخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم والدارقطنى والحاكم وابن مردويه عن على نحوه ، وكل هؤلاء صرحوا فى أحاديثهم أن الآية نزلت فى ذلك . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : كانوا يسألون عن الشىء وهو لهم حلال ، فما زالوا يسألون حتى يحرم عليهم ، وإذا حرم عليهم وقعوا فيه . وأخرج ابن المنذر عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم فيحرم من أجل مسئلته » . وأخرج ابن

جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله ﷺ « ان الله حد حدودا فلا تعتدوها وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها » . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (لا تسألوا عن أشياء) قال : البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درّها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء ، والوصيلة الناقة البكر تبكر في أوّل نتاج الابل ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ان وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحامي فحل الابل يضرب الضراب المعدود ، فاذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : البحيرة الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس ، فان كان ذكرا ونحوه فأكله الرجال دون النساء ، وان كانت أنثى جدعوا آذانها ، فقالوا هذه بحيرة ، وأما السائبة فكانوا يسيبون من أنعامهم لآلهتهم لا يركبون لها ظهرا ، ولا يحلبون لها لبنا ، ولا يجزون لها وبرا ، ولا يحملون عليها شيئا ، وأما الوصيلة فالشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع ، فان كان ذكرا أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وان كانت أنثى استحيوها ، وان كان ذكرا أو أنثى في بطن استحيوهما ، وقالوا وصلته أخته فحرّمته علينا ، وأما الحام فالفحل من الابل إذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئا ، ولا يجزون له وبرا ، ولا يمنعونه من حمى ولا من حوض يشرب منه ، وان كان الحوض لغير صاحبه . وأخرج نحوه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق العوفيّ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝

أي الزموا أنفسكم أو احفظوها كما تقول عليك زيدا : أي الزمه ، قرئ (لا يضركم) بالجزم على أنه جواب الأمر الذي يدل عليه اسم الفعل . وقرأ نافع وغيره بالرفع على أنه مستأنف ، كقول الشاعر :

* فقال رائدهم أرسوا نزاولها * أو على أن ضم الراء للاتباع ، وقرئ (لا يضركم) بكسر الضاد ، وقرئ (لا يضيركم) * والمعنى لا يضركم ضلال من ضل من الناس إذا اهتديتم للحق أنتم في أنفسكم ، وليس في الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فان من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد . وقد قال الله سبحانه (إذا اهتديتم) وقد دلت الآيات القرآنية ، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوبا مضيقا متحتما ، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو لا يظن التأثير بحال من الأحوال ، أو يخشى على نفسه أن يحل به ما يضره ضررا يسوغ له معه الترك (إلى الله مرجعكم) يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم تعملون) في الدنيا فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والدارقطني والضياء في المختارة وغيرهم عن قيس بن أبي حازم قال : قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال يا أيها الناس انكم تقرءون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا

عليكم أنفسكم لايضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم ) وانكم تضعونها على غيرمواضعها ، وانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » ، وفى لفظ لابن جرير عنه والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله منه بعقاب » . وأخرج الترمذى وصححه وابن ماجه وابن جرير والبغوى فى معجمه وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى ، فقلت له كيف تصنع فى هذه الآية قال : أية آية ، قلت قوله (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضلّ إذا اهتديتم) قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله ﷺ قال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة و إعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام ، فان من ورائكم أياما الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم » وفى لفظ « قيل يارسول الله أجر خمسين رجلا منا أومنهم ؟ قال بل أجر خمسين منكم » . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن عامر الأشعرى أنه كان فيهم أعمى فاحتبس على رسول الله ﷺ ثم أتاه : فقال ماحبسك ؟ قال يارسول الله قرأت هذه الآية ( ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم ) قال : فقال له النبى ﷺ أين ذهبتم إنما هى لايضرّكم من ضلّ من الكفار إذا اهتديتم . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ عن الحسن أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله (عليكم أنفسكم) فقال : ياأيها الناس انه ليس بزمانها انها اليوم مقبولة ، ولكنه قد أوشك أن يأتى زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا ، أو قال فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لايضركم من ضلّ إذا اهتديتم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عنه فى الآية قال : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر مالم يكن من دون ذلك السوط والسيف ، فاذا كان كذلك فعليكم أنفسكم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر أنه قال فى هذه الآية انها لأقوام يجيئون من بعدنا ان قالوا لم يقبل منهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن رجل قال كنت فى خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة فى حلقة فيهم أصحاب رسول الله ﷺ فاذا فيهم شيخ حسبت أنه قال أبىّ بن كعب ، فقرأ (عليكم أنفسكم) فقال انما تأويلها فى آخر الزمان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن أبى مازن قال انطلقت على عهد عثمان الى المدينة فاذا قوم جلوس فقرأ أحدهم (عليكم أنفسكم) فقال أكثرهم لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم . وأخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال : كنت فى حلقة فيها أصحاب النبى ﷺ وانى لأصغر القوم فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقلت أليس الله يقول عليكم أنفسكم فأقبلوا علىّ بلسان واحد ، فقالوا تنزع آية من القرآن لانعرفها ولا ندرى ماتأويلها ؟ حتى تمنيت أنى لم أكن تكلمت ، ثم أقبلوا يتحدثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : انك غلام حدث السن ، وانك نزعت آية لاندرى ماهى ؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان اذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك لايضرك من ضل اذا اهتديت . وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ بنحو حديث أبى ثعلبة الخشنى المتقدّم ، وفى آخره كأجر خمسين رجلا منكم . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدى قال : ذكرت هذه الآية عند رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ « لم يجئ تأويلها لايجىء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام » والروايات فى هذا الباب كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية ، ففيه مايرشد الى ماقدّمناه من الجمع بين هذه الآية و بين الآيات والأحاديث الواردة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

V 105-47

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ * فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *

قال مكيّ هذه الآيات الثلاث عند أهل المعانى من أشكل مافى القرآن اعرابا ومعنى وحكما . قال ابن عطية هذا كلام من لم يقع له الثلج فى تفسيرها ، وذلك بين من كتابه رحمه الله يعنى من كتاب مكى . قال القرطبى ماذكره مكى ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضا . قال السعد فى حاشيته على الكشاف واتفقوا على أنها أصعب مافى القرآن اعرابا ونظما وحكما * قوله (شهادة بينكم) أضاف الشهادة الى البين توسعا لأنها جارية بينهم ، وقيل أصله شهادة مابينكم فحذفت ما وأضيفت الى الظرف كقوله تعالى — بل مكر الليل والنهار — ومنه قول الشاعر :

تصافح من لاقيت لى ذا عداوة * صفايا وعنى بين عينيك منزوى

أراد مابين عينيك ، ومثله قول الآخر : * ويوماشهدناه سليما وعامرا * أى شهدنا فيه ، ومنه قوله تعالى — هذا فراق بينى وبينك — قيل والشهادة هنا بمعنى الوصية ، وقيل بمعنى الحضور للوصية . وقال ابن جرير الطبرى هى هنا بمعنى اليمين فيكون المعنى يمين مابينكم أن يحلف اثنان ، واستدل على ماقاله بأنه لايعلم لله حكما يجب فيه على الشاهد يمين ، واختار هذا القول القفال وضعف ذلك ابن عطية واختار أن الشهادة هنا هى الشهادة التى تؤدى من الشهود * قوله (اذا حضر أحدكم الموت) ظرف للشهادة ، والمراد اذا حضرت علاماته ، لأن من مات لايمكنه الاشهاد ، وتقديم المفعول للاهتمام ولكمال تمكن الفاعل عند النفس * وقوله (حين الوصية) ظرف لحضر أو للموت ، أو بدل من الظرف الأول * وقوله (اثنان) خبر شهادة على تقدير محذوف أى شهادة اثنين أو فاعل للشهادة على أن خبرها محذوف : أى فيما فرض عليكم شهادة بينكم اثنان على تقدير أن يشهد اثنان ذكر الوجهين أبو على الفارسى * قوله (ذوا عدل منكم) صفة للاثنان وكذا منكم أى كائنان منكم : أى من أقاربكم (أو آخران) معطوف على اثنان ، و (من غيركم) صفة له : أى كائنان من الأجانب ، وقيل ان الضمير فى (منكم) للمسلمين ، وفى (غيركم) للكفار وهو الأنسب لسياق الآية ، و به قال أبو موسى الأشعرى وعبد الله بن عباس وغيرهما ، فيكون فى الآية دليل على جواز شهادة أهل الذمة على المسلمين فى السفر فى خصوص الوصايا كما يفيده النظم القرآنى ، ويشهد له السبب للنزول ، وسيأتى ، فاذا لم يكن مع الموصى من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر فاذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدلا ، وان ماشهدا به حق ، فيحكم حينئذ بشهادتهما (فان عثر) بعد ذلك (على أنهما) كذبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الموصى وغرم الشاهدان الكافران ماظهر عليهما من خيانة أو نحوها : هذا معنى الآية عند من تقدم ذكره ، وبه قال

سعيد بن المسيب ويحيى بن يعمر وسعيد بن جبير وأبو مجاز والنخعى وشريح وعبيدة السلمانى وابن سيرين ومجاهد وقتادة والسدّى والثورى وأبو عبيد وأحمد بن حنبل ، وذهب الى الأوّل : أعنى تفسير ضمير (منكم) بالقرابة أو العشيرة ، وتفسير (من غيركم) بالأجانب الزهرى والحسن وعكرمة ، وذهب مالك والشافعى وأبو حنيفة وغيرهم من الفقهاء أن الآية منسوخة واحتجوا بقوله ـ ممن ترضون من الشهداء ـ * وقوله ـ وأشهدوا ذوى عدل منكم ـ والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول ، وخالفهم الجمهور فقالوا : الآية محكمة وهو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ . وأما قوله تعالى ـ ممن ترضون من الشهداء ـ وقوله ـ وأشهدوا ذوى عدل منكم ـ فهما عامان فى الأشخاص والأزمان والأحوال ، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب فى الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين ، ولا تعارض بين عامّ وخاص * قوله (إن أنتم) هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم ، أو مبتدأ وما بعده خبره ، والأوّل مذهب الجمهور من النحاة ، والثانى مذهب الأخفش والكوفيين ، والضرب فى الأرض هو السفر * وقوله (فأصابتكم مصيبة الموت) معطوف على ماقبله وجوابه محذوف ، أى ان ضربتم فى الأرض فنزل بكم الموت وأردتم الوصية ولم تجدوا شهودا عليها مسلمين ، ثم ذهبا الى ورثتكم بوصيتكم وبما تركتم فارتابوا فى أمرهما وادّعوا عليهما خيانة ، فالحكم أن تحبسوهما ، ويجوز أن يكون استئنافا لجواب سؤال مقدّر كأنهم قالوا فكيف نصنع ان ارتبنا فى الشهادة ؟ فقال تحبسونهما من بعد الصلاة ان ارتبتم فى شهادتهما ، وخصّ بعد الصلاة ، أى صلاة العصر : قاله الأكثر لكونه الوقت الذى يغضب الله على من حلف فيه فاجرا كما فى الحديث الصحيح ، وقيل لكونه وقت اجتماع الناس وقعود الحكام للحكومة ، وقيل صلاة الظهر ، وقيل أىّ صلاة كانت . قال أبو على الفارسى (تحبسونهما) صفة لآخران ، واعترض بين الصفة والموصوف بقوله (ان أنتم ضربتم فى الأرض) ، والمراد بالحبس : توقيف الشاهدين فى ذلك الوقت لتحليفهما ، وفيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام ، وعلى جواز التغليظ على الحالف بالزمان والمكان ونحوهما * قوله (فيقسمان بالله) معطوف على (تحبسونهما) أى يقسم بالله الشاهدان على الوصية أو الوصيان .

وقد استدلّ بذلك ابن أبى ليلى على تحليف الشاهدين مطلقا إذا حصلت الريبة فى شهادتهما ، وفيه نظر لأن تحليف الشاهدين هنا انما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها * قوله (ان ارتبتم) جواب هذا الشرط محذوف دلّ عليه ماتقدّم كما سبق * قوله (لانشترى به ثمنا) جواب القسم ، والضمير فى (به) راجع إلى الله تعالى * والمعنى لانبيع حظنا من الله تعالى بهذا العرض النزر فنحلف به كاذبين لأجل المال الذى ادّعيتموه علينا ، وقيل يعود إلى القسم ، أى لانستبدل بصحة القسم بالله عرضا من أعراض الدنيا ، وقيل يعود إلى الشهادة ، وانما ذكر الضمير لأنها بمعنى القول ، أى لانستبدل بشهادتنا ثمنا . قال الكوفيون : المعنى ذا ثمن ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ؛ وهذا مبنىّ على أن العروض لاتسمى ثمنا ، وعند الأكثر أنها تسمى ثمنا كما تسمى مبيعا * قوله (ولو كان ذا قربى) أى ولو كان المقسم له أو المشهود له قريبا فانا نؤثر الحق والصدق ، ولا نؤثر العرض الدنيوى ولا القرابة ، وجواب لو محذوف لدلالة ماقبله عليه ، أى ولو كان ذا قربى لانشترى به ثمنا * قوله (ولا نكتم شهادة الله) معطوف على (لانشترى) داخل معه فى حكم القسم ، وأضاف الشهادة إلى الله سبحانه لكونه الآمر باقامتها والناهى عن كتمها * قوله (فان عثر على أنهما استحقا إثما) عثر على كذا : اطلع عليه : يقال عثرت منه على خيانة : أى اطلعت وأعثرت غيرى عليه ، ومنه قوله تعالى ـ وكذلك أعثرنا عليهم ـ وأصل العثور الوقوع والسقوط على الشىء ، ومنه قول الأعشى :

بذات

بذات لوث عصرناه اذا عثرت * فالتعس أولى لها من أن أقول لعا

والمعنى أنه اذا اطلع بعد التحليف على أن الشاهدين أو الوصيين استحقا إثما : أى استوجبا إثما إما بكذب فى الشهادة أو اليمين أو بظهور خيانة . قال أبو على الفارسى : الاثم هنا اسم الشىء المأخوذ ، لأن آخذه يأثم بأخذه ، فسمى إثما كما سمى ما يؤخذ بغير حق مظلمة . وقال سيبويه : المظلمة اسم ما أخذ منك ، فكذلك سمى هذا المأخوذ باسم المصدر * قوله ( فآخران يقومان مقامهما ) أى فشاهدان آخران أو فحالفان آخران يقومان مقام اللذين عثر على أنهما استحقا إثما فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق ، وليس المراد أنهما يقومان مقامهما فى أداء الشهادة التى شهدها المستحقان الاثم * قوله ( من الذين استحق عليهم الأوليان ) استحق مبنى للمفعول ، فى قراءة الجمهور ؛ وقرأ على وأبى وابن عباس وحفص على البناء للفاعل ، و ( الأوليان ) على القراءة الأولى مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هما الأوليان ، كأنه قيل من هما ؟ فقيل هما الأوليان ، وقيل هو بدل من الضمير فى يقومان أو من آخران . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة الأولين : جمع أول على أنه بدل من الذين ، أو من الهاء والميم فى عليهم . وقرأ الحسن الأولان * والمعنى على بناء الفعل للمفعول من الذين استحق عليهم الاثم : أى جنى عليهم : وهم أهل الميت وعشيرته فانهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم ، فالأوليان تثنية أولى * والمعنى على قراءة البناء للفاعل من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما للقيام بالشهادة و يظهروا بهما كذب الكاذبين لكونهما الأقربين إلى الميت فالأوليان فاعل استحق ومفعوله أن يجردوهما للقيام بالشهادة ، وقيل المفعول محذوف ، والتقدير من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التى أوصى بها * قوله ( فيقسمان بالله ) عطف على يقومان ، أى فيحلفان بالله لشهادتنا : أى يميننا ؛ فالمراد بالشهادة هنا اليمين ، كما فى قوله تعالى ـ فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله ـ ، أى يحلفان لشهادتنا على أنهما كاذبان خائنان أحق من شهادتهما ، أى من يمينهما على أنهما صادقان أمينان ( وما اعتدينا ) أى تجاوزنا الحق فى يميننا ( إنا إذا لمن الظالمين ) ان كنا حلفنا على باطل * قوله ( ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ) أى ذلك البيان الذى قدمه الله سبحانه فى هذه القصة وعرفنا كيف يصنع من أراد الوصية فى السفر ؟ ولم يكن عنده أحد من أهله وعشيرته وعنده كفار أدنى : أى أقرب إلى أن يؤدى الشهود المتحملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها فلا يحرفوا ولا يبدلوا ولا يخونوا ، وهذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر المنفعة والفائدة فى هذا الحكم الذى شرعه الله فى هذا الموضع من كتابه ، فالضمير فى ( يأتوا ) عائد إلى شهود الوصية من الكفار ، وقيل انه راجع الى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم * والمراد تحذيرهم من الخيانة ، وأمرهم بأن يشهدوا بالحق * قوله ( أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ) أى ترد على الورثة فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية فيفتضح حينئذ شهود الوصية ، وهو معطوف على قوله ( أن يأتوا ) فتكون الفائدة فى شرع الله سبحانه لهذا الحكم هى أحد الأمرين : إما احتراز شهود الوصية عن الكذب والخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها ، أو يخافوا الافتضاح اذا ردت الايمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سببا لتأدية شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب ولا خيانة ، وقيل ان ( يخافوا ) معطوف على مقدر بعد الجملة الأولى ، والتقدير ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها و يخافوا عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة أو يخافوا الافتضاح برد اليمين ، فأى الخوفين وقع حصل المقصود ( واتقوا الله ) فى مخالفة أحكامه ( والله لا يهدى القوم الفاسقين ) الخارجين عن طاعته بأى ذنب ، ومنه الكذب فى اليمين أو الشهادة .

وحاصل ماتضمنه هذا المقام من الكتاب العزيز أن من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عدلين من عدول المسلمين ، فان لم يجد شهودا مسلمين ، وكان فى سفر ، ووجد كفارا جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته ، فان ارتاب بهما ورثة الموصى حلفا بالله على أنهما شهدا بالحق وما كتما من الشهادة شيئا ولا خانا مما ترك الميت شيئا ، فان تبين بعد ذلك خلاف ما أقسما عليه من خلل فى الشهادة أو ظهور شىء من تركة الميت زعما أنه قد صار فى ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة وعمل بذلك .

وقد أخرج الترمذى وضعفه وابن جرير وابن أبى حاتم والنحاس فى تاريخه وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم فى المعرفة من طريق أبى النضر وهو الكلبى عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس عن تميم الدارى فى هذه الآية ( ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ) قال : برئ الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الاسلام فأتيا الشام لتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبنى سهم : يقال له بديل بن أبى مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو عظم تجارته فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ماترك أهله . قال تميم فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدى بن بداء ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه ، فقلنا ما ترك غير هذا ، أو ما دفع الينا غيره . قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت اليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها فأتوا به رسول الله ﷺ ، فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فأنزل الله ( ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم ) الى قوله (أن ترد أيمان بعد أيمانهم) فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدى بن بداء ، وفى إسناده أبو النضر ، وهو محمد بن السائب الكلبى صاحب التفسير : قال الترمذى بركة أهل العلم بالحديث . وأخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر والنحاس والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى بن بداء فمات السهمى بأرض ليس فيها مسلم فأوصى اليهما فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتمتماها ولا اطلعتما ثم وجدوا الجام بمكة ، فقيل اشتريناه من تميم وعدى ، فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وان الجام لصاحبهم وأخذوا الجام ، قال وفيهم نزلت ( ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم ) الآية ، وفى إسناده محمد بن أبى القاسم الكوفى : قال الترمذى قيل انه صالح الحديث وقد روى ذلك أبو داود من طريقه . وقد روى جماعة من التابعين أن هذه القصة هى السبب فى نزول الآية ، وذكرها المفسرون فى تفاسيرهم . وقال القرطبى انه أجمع أهل التفسير على أن هذه القصة هى سبب نزول الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ( ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم ) الآية : قال هذا لمن مات وعنده المسلمون أمره الله أن يشهد على وصيته عدلين مسلمين ، ثم قال ( أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم فى الأرض ) فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين أمر الله بشهادة رجلين من غير المسلمين فان ارتيب بشهادتهما استحلفا بالله بعد الصلاة ماشتريا بشهادتهما ثمنا قليلا ، فان اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا فى شهادتهما ، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة . فذلك قوله (فان عثر على أنهما استحقا إثما) يقول : ان اطلع على أن الكافرين كذبا ( ذلك أدنى أن ) يأتى الكافران (بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد

ايمان

أيمان بعد أيمانهم ) فتترك شهادة الكافرين ويحكم بشهادة الأولياء ، فليس على شهود المسلمين أقسام : إنما الأقسام اذا كانا كافرين . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية فقال هذا رجل خرج مسافرا ومعه مال فأدركه قدره ، فان وجد رجلين من المسلمين دفع اليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين ، فان لم يجد عدلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب ، فان أدى فسبيل ماأدى ، و إن جحد استحلف بالله الذى لا إله إلا هو دبر صلاة أن هذا الذى دفع إلىّ وما غيبت منه شيئا ، فاذا حلف برئ ، فاذا أتى بعد ذلك صاحبا الكتاب فشهدا عليه ، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم مالهم جعلت أيمان الورثة مع شهادتهم ثم اقتطعوا حقه فذلك الذى يقول الله ( اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله ( أو آخران من غيركم ) قال من غير المسلمين من أهل الكتاب . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال هذه الآية منسوخة . وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم فى الآية قال كان ذلك فى رجل توفى وليس عنده أحد من أهل الاسلام وذلك فى أول الاسلام والأرض حرب والناس كفار الارسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة وكان الناس يتوارثون بالوصية ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل المسلمون بها . وأخرج ابن جرير أيضا عن الزهرى قال مضت السنة أن لاتجوز شهادة كافر فى حضر ولاسفر انما هى فى المسلمين . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عبيدة فى قوله ( تحبسونهما من بعد الصلاة ) قال صلاة العصر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (لانشترى به ثمنا) قال لانأخذ به رشوة (ولانكتم شهادة الله) وان كان صاحبها بعيدا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله ( فان عثر على أنهما استحقا إثما ) أى اطلع منهما على خيانة على أنهما كذبا أو كتما . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله (الأوليان) قال بالميت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) يقول ذلك أحرى أن يصدقوا فى شهادتهم (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) يقول وأن يخافوا العتب . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله ( أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ) قال فيبطل أيمانهم ويؤخذ أيمان هؤلاء .

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ *

قوله ( يوم يجمع الله الرسل) العامل فى الظرف فعل مقدّر ، أى اسمعوا ، أو اذكروا ، أو احذروا . وقال الزجاج هو منصوب بقوله ( واتقوا الله ) المذكور فى الآية الأولى ، وقيل بدل من مفعول (اتقوا) بدل اشتمال ، وقيل ظرف لقوله ــ لايهدى ــ المذكور قبله ، وقيل منصوب بفعل مقدّر متأخر تقديره (يوم يجمع

الله الرسل) يكون من الأحوال كذا وكذا * قوله (ماذا أجبتم) أى أىّ إجابة أجابتكم به أممكم الذين بعثكم الله اليهم ، أو أىّ جواب أجابوكم به ، وعلى الوجهين تكون ما منصوبة بالفعل المذكور بعدها ، وتوجيه السؤال الى الرسل لقصد توبيخ قومهم ، وجوابهم بقولهم (لاعلم لنا) مع أنهم عالمون بما أجابوا به عليهم تفويض منهم ، واظهار للعجز ، وعدم القدرة ، ولا سيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيخ فان تفويض الجواب الى الله أبلغ فى حصول ذلك ، وقيل المعنى لاعلم لنا بما أحدثوا بعدنا ، وقيل لاعلم لنا بما اشتملت عليه بواطنهم ، وقيل المعنى لاعلم لنا إلا علم ماأنت أعلم به منا ، وقيل انهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشر * قوله (إذ قال الله ياعيسى ابن مريم) إذ بدل من يوم يجمع ، وهو تخصيص بعد التعميم وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتى اليهود والنصارى فيه إفراطا وتفريطا ، هذه تجعله إلها ، وهذه تجعله كاذبا ، وقيل هو منصوب بتقدير اذكر * قوله (اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك) ذكره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه مع كونه ذاكرا لها عالما بتفضل الله سبحانه بها لقصد تعريف الأمم بما خصهما الله به من الكرامة وميزهما به من علوّ المقام ، أولتأكيد الحجة وتبكيت الجاحد بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة وتوبيخ من اتخذهما إلهين ببيان أن ذلك الانعام عليهما كله من عند الله سبحانه ، وأنهما عبدان من جملة عباده منعم عليهما بنعم الله سبحانه ليس لهما من الأمر شىء * قوله (إذ أيدتك بروح القدس) اذ ظرف للنعمة لأنها بمعنى المصدر ، أى اذكر إنعامى عليك وقت تأييدى لك ، أوحال من النعمة : أى كائنة ذلك الوقت (أيدتك) قوّيتك مأخوذ من الأيد ، وهو القوّة ، وفى روح القدس وجهان : أحدهما أنها الروح الطاهرة التى خصه الله بها ، وقيل انه جبريل عليه السلام ، وقيل انه الكلام الذى يحيى به الأرواح ، والقدس : الطهر ، واضافته اليه لكونه سببه ، وجملة (تكلم الناس) مبينة لمعنى التأييد ، و(فى المهد) فى محل نصب على الحال : أى تكلم الناس حال كونك صبيا وكهلا لايتفاوت كلامك فى الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتا بينا * وقوله (و إذ علمتك الكتاب) معطوف على (اذ أيدتك) أى واذكر نعمتى عليك وقت تعليمى لك الكتاب ، أى جنس الكتاب ، أوالمراد بالكتاب الخط ، وعلى الأول يكون ذكر التوراة والانجيل من عطف الخاص على العام ، وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصه بهما : أما التوراة فقد كان يحتج بها على اليهود فى غالب مايدور بينه و بينهم من الجدال كما هو مصرح بذلك فى الانجيل ، وأما الانجيل فلكونه نازلا عليه من عند الله سبحانه ، والمراد بالحكمة جنس الحكمة ، وقيل هى الكلام المحكم (واذ تخلق من الطين كهيئة الطير) أى تصوّر تصويرا مثل صورة الطير (باذنى) لك بذلك وتيسيرى له (فتنفخ) فى الهيئة المصوّرة (فتكون) هذه الهيئة (طائرا) متحركا حيا كسائر الطيور (وتبرئ الأكمه والأبرص باذنى) لك وتسهيله عليك وتيسيره لك ، وقد تقدّم تفسير هذا مطوّلا فى البقرة فلا نعيده (و إذ تخرج الموتى) من قبورهم فيكون ذلك آية لك عظيمة (باذنى) ، وتكرير باذنى فى المواضع الأربعة للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل الا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه * قوله (و إذ كففت) معطوف على (اذ تخرج) كففت معناه : دفعت وصرفت بنى اسرائيل عنك حين هموا بقتلك (اذ جئتهم بالبينات) بالمعجزات الواضحات (فقال الذين كفروا منهم ان هذا إلا سحر مبين) أى ما هذا الذى جئت به إلا سحر بين لما عظم ذلك فى صدورهم وانبهروا منه لم يقدروا على جحده بالكلية ، بل نسبوه الى السحر * قوله (و إذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى و برسولى) هو معطوف على ماقبله ، وقد تقدم تفسير ذلك * والوحى فى كلام العرب معناه الالهام ، أى ألهمت الحواريين وقذفت فى قلوبهم ، وقيل معناه أمرتهم على ألسنة الرسل أن يؤمنوا بى بالتوحيد والاخلاص و يؤمنوا برسالة رسولى * قوله (قالوا آمنا)

جملة

جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قالوا ؟ فقال : قالوا آمنا (واشهد بأنا مسلمون) أى مخلصون للإيمان ، أى واشهد يارب ، أو واشهد ياعيسى .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) فيفزعون فيقولون لاعلم لنا فترد اليهم أفئدتهم فيعلمون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : ذلك أنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا : لاعلم لنا ، ثم نزلوا منزلا آخر فشهدوا على قومهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قالوا لاعلم لنا فرقا يذهل عقولهم ، ثم يرد الله اليهم عقولهم فيكونون هم الذين يسألون بقول الله ـ فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين ـ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « اذا كان يوم القيامة يدعى بالأنبياء وأممها ثم يدعى بعيسى فيذكره نعمته عليه فيقر بها ، فيقول ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك الآية ، ثم يقول ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدى الله مقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم الى النار » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات) أى بالآيات التى وضع على يديه من احياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير وإبراء الأسقام والخبر بكثير من الغيوب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (واذ أوحيت الى الحواريين) يقول قذفت فى قلوبهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه .

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝

قوله (اذ قال الحواريون) الظرف منصوب بفعل مقدر : أى اذكر أو نحوه كما تقدم ، قيل والخطاب لمحمد ﷺ قرأ الكسائى (هل تستطيع) بالفوقية ، ونصب ربك ؛ وبه قرأ على وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد ، وقرأ الباقون بالتحتية ورفع ربك ، واستشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا ( آمنا واشهد بأنا مسلمون) والسؤال عن استطاعته لذلك ينافى ماحكوه عن أنفسهم . وأجيب بأن هذا كان فى أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله ، ولهذا قال عيسى فى الجواب عن هذا الاستفهام الصادر منهم ( اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ) أى لاتشكوا فى قدرة الله ، وقيل انهم ادعوا الايمان والاسلام دعوى باطلة ، ويرده أن الحواريين هم خلصاء عيسى وأنصاره كما قال ـ من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ـ وقيل ان ذلك صدر عمن كان معهم ، وقيل انهم لم يشكوا فى استطاعة البارى سبحانه : فانهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك ، وانما هو كقول الرجل : هل يستطيع فلان أن يأتى مع علمه بأنه يستطيع

ذلك ويقدر عليه ، فالمعنى هل يفعل ذلك وهل يجيب اليه ، وقيل انهم طلبوا الطمأنينة كما قال ابراهيم عليه السلام ـ رب أرنى كيف تحيي الموتى ـ الآية ، ويدل على هذا قولهم من بعد (وتطمئن قلوبنا) وأما على القراءة الأولى ، فالمعنى هل تستطيع أن تسأل ربك . قال الزجاج : المعنى هل تستدعى طاعة ربك فيما تسأله فهو من باب ـ واسأل القرية ـ ، والمائدة الخوان اذا كان عليه الطعام ، من ماده اذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم اليه ، قاله قطرب وغيره ، وقيل هي فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية : قاله أبو عبيدة ، فأجابهم عيسى عليه السلام بقوله (اتقوا الله ان كنتم مؤمنين) أى اتقوه من هذا السؤال وأمثاله ان كنتم صادقين فى إيمانكم فان شأن المؤمن ترك الاقتراح على ربه على هذه الصفة ، وقيل انه أمرهم بالتقوى ليكون ذلك ذريعة الى حصول ماطلبوه ＊ قوله (قالوا نريد أن نأكل منها) بينوا به الغرض من سؤالهم نزول المائدة وكذا ماعطف عليه من قولهم (وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) والمعنى تطمئن قلوبنا بكمال قدرة الله ، أو بأنك مرسل الينا من عنده ، أو بأن الله قد أجابنا الى ماسألناه ونعلم علما يقينا بأنك قد صدقتنا فى نبوتك ونكون عليها من الشاهدين عند من لم يحضرها من بنى اسرائيل أو من سائر الناس أو من الشاهدين لله بالوحدانية ، أو من الشاهدين : أى الحاضرين دون السامعين ، ولما رأى عيسى ماحكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة قال : (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) أى كائنة أو نازلة من السماء ، وأصل اللهم عند سيبويه وأتباعه : ياالله ، جعلت الميم بدلا من حرف النداء ، وربنا نداء ثان ، وليس بوصف ، و(تكون لنا عيدا) وصف لمائدة . وقرأ الأعمش يكون لنا عيدا : أى يكون يوم نزولها لنا عيدا . وقد كان نزولها يوم الأحد ، وهو يوم عيد لهم ، والعيد واحد الأعياد ، وانما جمع بالياء وأصله الواو للزومها فى الواحد ، وقيل للفرق بينه وبين أعواد جمع عود : ذكر معناه الجوهرى ، وقيل أصله من عاد يعود : أى رجع فهو عود بالواو ، وتقلب ياء لانكسار ماقبلها ، مثل الميزان والميقات والميعاد ، فقيل ليوم الفطر والأضحى عيدان ، لأنهما يعودان فى كل سنة ، وقال الخليل : العيد كل يوم جمع كأنهم عادوا اليه ＊ قوله (لأولنا وآخرنا) بدل من الضمير فى لنا بتكرير العامل : أى لمن فى عصرنا ولمن يأتى بعدنا من ذرارينا وغيرهم ＊ قوله (وآية منك) عطف على عيدا ، أى دلالة وحجة واضحة على كمال قدرتك وصحة ارسالك من أرسلته (وارزقنا) أى أعطنا هذه المائدة المطلوبة ، أو ارزقنا رزقا نستعين به على عبادتك (وأنت خير الرازقين) بل لارازق فى الحقيقة غيرك ولامعطى سواك ، فأجاب الله سبحانه سؤال عيسى عليه السلام فقال (انى منزلها) أى المائدة (عليكم) .

وقد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدة أم لا ، فذهب الجمهور الى الأول وهو الحق لقوله سبحانه (انى منزلها عليكم) ووعده الحق وهو لايخلف الميعاد . وقال مجاهد : مانزلت وانما هو ضرب مثل ضربه الله لخلقه نهيا لهم عن مسئلة الآيات لأنبيائه ، وقال الحسن وعدهم بالاجابة ، فلما قال (فمن يكفر بعد منكم) استغفروا الله وقالوا لانريدها ＊ قوله (فمن يكفر بعد منكم) أى بعد تنزيلها (فانى أعذبه عذابا) أى تعذيبا (لاأعذبه) صفة لعذابا ، والضمير عائد الى العذاب بمعنى التعذيب ، أى لاأعذب مثل ذلك التعذيب (أحدا من العالمين) قيل المراد عالمى زمانهم ، وقيل جميع العالمين ، وفى هذا من التهديد والترهيب مالايقادر قدره .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة قالت : كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا (هل يستطيع ربك) انما قالوا هل تستطيع أنت ربك أن تدعوه ، ويؤيد هذا ماأخرجه الحاكم وصححه والطبرانى وابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال : أقرأنى

رسول

رسول الله ﷺ (هل تستطيع ربك) بالتاء يعنى الفوقية . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه قرأها كذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : المائدة الخوان ، وتطمئن : توقن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (تكون لنا عيدا) يقول نتخذ اليوم الذى نزلت فيه عيدا نعظمه نحن ومن بعدنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه كان يحدّث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبنى إسرائيل هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوما ثم تسألوه فيعطيكم ماسألتم فان أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا يامعلم الخير ، قلت لنا ان أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوما إلا أطعمنا (فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة) إلى قوله (أحدا من العالمين) فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأمروا أن لا يخونوا ولا يدّخروا لغد فخانوا وادّخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير » وقد روى موقوفا على عمار . قال الترمذى : والوقف أصح . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : المائدة سمكة وأريغفة . وأخرج ابن جرير من طريق العوفىّ عنه قال : نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه سمك وخبز يأكلون منه أينما تولوا اذا شاءوا . وأخرج ابن جرير نحوه عنه من طريق عكرمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمرو قال : ان أشدّ الناس عذابا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون .

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ *

قوله (واذ قال الله) معطوف على ماقبله فى محل نصب بعامله أو بعامل مقدر هنا ، أى اذكر . وقد ذهب جمهور المفسرين الى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة * والنكتة توبيخ عباد المسيح وأمه من النصارى . وقال السدّى وقطرب انه قال له هذا القول عند رفعه الى السماء لما قالت النصارى فيه ماقالت * والأوّل أولى ، قيل (واذ) هنا بمعنى اذا كقوله تعالى ـ ولو ترى اذ فزعوا ـ : أى اذا فزعوا ، وقول أبى النجم :

ثم جزاك الله عنى اذ جزى * جنات عدن فى السموات العلى

أى اذاجزى ، وقول الأسود بن جعفر الأسدى :

وفى الآن اذ هازلتهن فانما * يقلن ألا لم يذهب الشيخ مذهبا

أى اذا هازلتهن تعبيرا عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقيق وقوعه . وقد قيل فى توجيه هذا الاستفهام منه تعالى انه لقصد التوبيخ كما سبق ، وقيل لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيروا بعده وادّعوا عليه مالم يقله * وقوله (من دون الله) متعلق بقوله (اتخذونى) على أنه حال : أى متجاوزين الحدّ ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لالهين ، أى كائنين من دون الله * قوله (سبحانك) تنزيه له سبحانه أى أنزهك تنزيها (ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق) أى ماينبغى لى أن أدّعى لنفسى ماليس من حقها (ان كنت قلته فقد علمته) ردّ ذلك إلى علمه سبحانه . وقد علم أنه لم يقله ، فثبت بذلك عدم القول منه * قوله (تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) هذه الجملة فى حكم التعليل لما قبلها ، أى تعلم معلومى ولا أعلم معلومك ، وهذا الكلام من باب المشاكلة كما هو معروف عند علماء المعانى والبيان ، وقيل المعنى تعلم مافى غيبى ولا أعلم مافى غيبك ، وقيل تعلم ماأخفيه ولا أعلم ماتخفيه ، وقيل تعلم ماأريد ولا أعلم ماتريد * قوله (ماقلت لهم الا ماأمرتنى به) هذه جملة مقرّرة لمضمون ماتقدم ، أى ماأمرتهم الا بما أمرتنى (أن اعبدوا الله ربى وربكم) هذا تفسير لمعنى (ماقلت لهم) أى ماأمرتهم ، وقيل عطف بيان للضمير فى (به) وقيل بدل منه (وكنت عليهم شهيدا) أى حفيظا ورقيبا أرعى أحوالهم وأمنعهم عن مخالفة أمرك (مادمت فيهم) أى مدّة دوامى فيهم (فلما توفيتنى) قيل هذا يدلّ على أن الله سبحانه توفاه قبل أن يرفعه وليس بشىء لأن الأخبار قد تظافرت بأنه لم يمت ، وأنه باق فى السماء على الحياة التى كان عليها فى الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان ، وانما المعنى : فلما رفعتنى إلى السماء ، قيل الوفاة فى كتاب الله سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه بمعنى الموت ، ومنه قوله تعالى ــ الله يتوفى الأنفس حين موتها ــ وبمعنى النوم ، ومنه قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى ينيمكم ، وبمعنى الرفع ، ومنه (فلما توفيتنى) ــ واذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ــ (كنت أنت الرقيب عليهم) أصل المراقبة : المراعاة ، أى كنت الحافظ لهم ، والعالم بهم ، والشاهد عليهم (ان تعذبهم فانهم عبادك) تصنع بهم ماشئت وتحكم فيهم بما تريد (وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) أى القادر على ذلك الحكيم فى أفعاله ، قيل قاله على وجه الاستعطاف كما يستعطف السيد لعبده . ولهذا لم يقل ان تعذبهم فانهم عصوك ، وقيل قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له ، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم * قوله (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) أى صدقهم فى الدنيا ، وقيل فى الآخرة * والأوّل أولى ، قرأ نافع وابن محيصن (يوم) بالنصب ، وقرأ الباقون بالرفع ، فوجه النصب أنه ظرف للقول ، أى قال الله هذا القول يوم ينفع الصادقين ، ووجه الرفع أنه خبر للمبتدأ هو وما أضيف إليه . وقال الكسائى نصب (يوم) ههنا لأنه مضاف الى الجملة ، وأنشد :

على حين عاتبت المشيب على الصبا * وقلت ألما أصح والشيب وازع

وبه قال الزجاج ، ولايجيز البصريون ماقالاه الا اذا أضيف الظرف الى فعل ماض ، وقرأ الأعمش (هذا يوم ينفع) بتنوين يوم كما فى قوله ــ واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ــ فكلاهما مقطوع عن الاضافة بالتنوين . وقد تقدّم تفسير قوله (لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) * قوله (رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى رضى عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له ، ورضوا عنه بما جازاهم به مما لايخطر لهم على بال ولا تتصوّره عقولهم ، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم وأعلى منازل الكرامة ، والاشارة بذلك الى نيل مانالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبدا ، ورضوان الله عنهم * والفوز : الظفر

بالمطلوب

بالمطلوب على أتم الأحوال * قوله (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير) جاء سبحانه بهذه الخاتمة دفعا لما سبق من إثبات من أثبت إلهية عيسى وأمه ، وأخبر بأن ملك السموات والأرض له دون عيسى وأمه ودون سائر مخلوقاته ، وأنه القادر على كل شيء دون غيره ، وقيل المعنى : أن له ملك السموات والأرض يعطى الجنات للمطيعين : جعلنا الله منهم .

وقد أخرج الترمذى وصححه والنسائى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال « تلقى عيسى حجته والله لقاه فى قوله واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله . قال أبو هريرة عن النبى ﷺ فلقاه الله سبحانه مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية : قال يقول الله هذا يوم القيامة ألا ترى أنه يقول هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : قال الله ذلك لما رفع عيسى اليه ، وقالت النصارى ماقالت . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (أن اعبدوا الله ربى وربكم) قال سيدى وسيدكم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (كنت أنت الرقيب عليهم) قال : الحفيظ . وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : قال النبى ﷺ (وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم) قال ما كنت فيهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (ان تعذبهم فانهم عبادك) يقول : عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم (وان تغفر لهم) أى من تركت منهم ومد فى عمره حتى أهبط من السماء الى الأرض لقتل الدجال فزالوا عن مقالتهم ووحدوك (فانك أنت العزيز الحكيم) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) يقول هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم .

# تفسير سورة الانعام

قال الثعلبى سورة الأنعام مكية الا ست آيات نزلت بالمدينة وهى ـ وما قدروا الله حق قدره ـ إلى آخر ثلاث آيات ، و ـ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ـ الى آخر ثلاث آيات . قال ابن عطية وهى الآيات المحكمات ، يعنى فى هذه السورة . وقال القرطبى هى مكية الا آيتين هما ـ وما قدروا الله حق قدره ـ نزلت فى مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين ، وقوله تعالى ـ وهو الذى أنشأ جنات معروشات ـ نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عنه : قال أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة وحولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود : قال نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن أسماء : قال نزلت سورة الأنعام على النبى ﷺ وهو فى مسير فى زجل من الملائكة . وقد نظموا مابين السماء

والأرض . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد نحوه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت علىّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد » وهو من طريق ابراهيم بن نائلة شيخ الطبرانى عن إسماعيل بن عمرو عن يوسف ابن عطية بن عون عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ فذكره وابن مردويه رواه عن الطبرانى عن اسماعيل المذكور به . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسدّ مابين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، والأرض ترتج ، ورسول الله ﷺ يقول سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم » . وأخرج الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ، والاسماعيلى فى معجمه والبيهقى عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ماسدّ الأفق » . وأخرج البيهقى وضعفه والخطيب فى تاريخه عن علىّ بن أبى طالب : قال أنزل القرآن خمسا خمسا ، ومن حفظه خمسا خمسا لم ينسه إلا سورة الأنعام فانها نزلت جملة يشيعها من كل سماء سبعون ملكا حتى أدّوها الى النبى ﷺ ، ماقرئت على عليل الا شفاه الله . وأخرج أبو الشيخ عن أبىّ بن كعب مرفوعا نحو حديث ابن عمر . وأخرج النحاس فى تاريخه عن ابن عباس قال : سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهى مكية الا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة (قل تعالوا أتل ماحرّم) الى تمام الآيات الثلاث . وأخرج الديلمى بسند ضعيف عن أنس مرفوعا « ينادى مناد ياقارئ سورة الأنعام هلمّ إلى الجنة بحبك إياها وتلاوتها » . وأخرج ابن المنذر عن أبى جحيفة قال : نزلت سورة الأنعام جميعا معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا ــ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ــ فانها مدنية . وأخرج أبو عبيد فى فضائله والدارمى فى مسنده ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : الأنعام من نواجب القرآن . وأخرج محمد بن نصر عن ابن مسعود مثله . وأخرج السلفى بسند واه عن ابن عباس مرفوعا « من قرأ اذا صلى الغداة ثلاث آيات من أوّل سورة الأنعام إلى و يعلم ماتكسبون ، نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم ، ونزل إليه ملك من فوق سبع سموات ومعه مرزبة من حديد فان أوحى الشيطان فى قلبه شيئا من الشرّ ضربه ضربة حتى يكون بينه و بينه سبعون حجابا ، فاذا كان يوم القيامة ، قال الله تعالى أنا ربك وأنت عبدى امش فى ظلى واشرب من الكوثر واغتسل من السلسبيل وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب » . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من صلى الفجر فى جماعة وقعد فى مصلاه ، وقرأ ثلاث آيات من أوّل سورة الأنعام وكل الله به سبعين ملكا يسبحون الله ويستغفرون له إلى يوم القيامة » ، وفى فضائل هذه السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة وغير مرفوعة . قال القرطبى : قال العلماء هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة لأنها فى معنى واحد من الحجة وان تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين .

بسم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ * وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ *

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمدلله ، للدلالة على أن الحمد كله له ، ولاقامة الحجة على الذين هم بربهم يعدلون . وقد تقدّم فى سورة الفاتحة مايغنى عن الاعادة له هنا ، ثم وصف نفسه بأنه الذى خلق السموات والأرض إخبارا عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد ، فان من اخترع ذلك وأوجده هو الحقيق بافراده بالثناء وتخصيصه بالحمد ، والخلق يكون بمعنى الاختراع ، و بمعنى التقدير . وقد تقدّم تحقيق ذلك ، وجمع السموات لتعدد طباقها ، وقدّمها على الأرض لتقدّمها فى الوجود ـ والأرض بعد ذلك دحاها ـ * قوله (وجعل الظلمات والنور) معطوف على خلق ، ذكر سبحانه خلق الجواهر بقوله (خلق السموات والأرض) ثم ذكر خلق الأعراض بقوله (وجعل الظلمات والنور) لأن الجواهر لاتستغنى عن الاعراض .

واختلف أهل العلم فى المعنى المراد بالظلمات والنور ، فقال جمهور المفسرين : المراد بالظلمات سواد الليل وبالنور ضياء النهار ، وقال الحسن الكفر والايمان . قال ابن عطية وهذا خروج عن الظاهر انتهى * والأولى أن يقال : ان الظلمات تشمل كل مايطلق عليه اسم الظلمة ، والنور يشمل كل مايطلق عليه اسم النور فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الايمان ـ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ـ وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه ، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها . قال النحاس جعل هنا بمعنى خلق ، واذا كانت بمعنى خلق لم تتعدّ الا إلى مفعول واحد ، وقال القرطبى : جعل هنا بمعنى خلق لايجوز غيره . قال ابن عطية وعليه يتفق اللفظ والمعنى فى النسق ، فيكون الجمع معطوفا على الجمع ، والمفرد معطوفا على المفرد ، وتقديم الظلمات على النور لأنها الأصل ، ولهذا كان النهار مسلوخا من الليل * قوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) معطوف على الحمدلله ، أوعلى خلق السموات والأرض ، وثم لاستبعاد ماصنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون مع ماتبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السموات والأرض والظلمات والنور ، فان هذا يقتضى الايمان به وصرف الثناء الحسن إليه ، لا الكفر به واتخاذ شريك له ، وتقديم المفعول للاهتمام ، ورعاية الفواصل ، وحذف المفعول لظهوره ، أى يعدلون به مالا يقدر على شىء مما يقدر عليه ، وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه تلك النعم ، ويكون من الكفرة الكفر * قوله (هو الذى خلقكم من طين) فى معناه قولان : أحدهما وهو الأشهر ، و به قال الجمهور : أن المراد آدم عليه السلام . وأخرجه مخرج الخطاب للجميع ، لأنهم ولده ونسله ، الثانى أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها مخلوقة من الطين ، ذكر الله سبحانه خلق آدم و بنيه بعد خلق السموات والأرض إتباعا للعالم الأصغر بالعالم الأكبر ، والمطلوب بذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث وردّ لجحودهم بما هو مشاهد لهم لايمترون فيه * قوله (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) جاء بكلمة (ثم) لما بين خلقهم و بين موتهم من التفاوت .

وقد اختلف السلف ومن بعدهم فى تفسير الأجلين ، فقيل (قضى أجلا) يعنى الموت (وأجل مسمى

عنده ) يعنى القيامة ، وهو مروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك ومجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم وعطية والسدى وخصيف ومقاتل وغيرهم : وقيل الأول مابين أن يخلق إلى أن يموت ، والثانى مابين أن يموت إلى أن يبعث ، وهو قريب من الأول ، وقيل الأول مدة الدنيا ، والثانى عمر الانسان إلى حين موته ، وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد ، وقيل الأول قبض الأرواح فى النوم ، والثانى قبض الروح عند الموت ، وقيل الأول مايعرف من أوقات الأهلة والبروج وما يشبه ذلك ، والثانى أجل الموت ، وقيل الأول لمن مضى ، والثانى لمن بقى ولمن يأتى ، وقيل ان الأول الأجل الذى هو محتوم ، والثانى الزيادة فى العمر لمن وصل رحمه ، فان كان برا تقيا وصولا لرحمه زيد فى عمره ، وان كان قاطعا للرحم لم يزد له ، ويرشد إلى هذا قوله تعالى — وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب — . وقد صح عن رسول الله ﷺ أن صلة الرحم تزيد فى العمر ، وورد عنه أن دخول البلاد التى قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت ، وجاز الابتداء بالنكرة فى قوله (وأجل مسمى عنده) لأنها قد تخصصت بالصفة

* قوله ( ثم أنتم تمترون ) استبعاد لصدور الشك منهم مع وجود المقتضى لعدمه ، أى كيف تشكون فى البعث مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الابتداء والانتهاء مايذهب بذلك ويدفعه ، فان من خلقكم من طين وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون وخلق لكم هذه الحواس والاطراف ، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتا وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية لايعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت ويرد إليها الأرواح التى فارقتها بقدرته وبديع حكمته * قوله (وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون) قيل ان فى السموات وفى الأرض متعلق باسم الله باعتبار مايدل عليه من كونه معبودا ومتصرفا ومالكا ، أى هو المعبود أو المالك أو المتصرف فى السموات والأرض كما تقول زيد الخليفة فى الشرق والغرب ، أى حاكم أو متصرف فيهما ، وقيل المعنى : وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض فلا تخفى عليه خافية ، فيكون العامل فيهما مابعدهما . قال النحاس وهذا من أحسن ماقيل فيه ، وقال ابن جرير : هو الله فى السموات ويعلم سركم وجهركم فى الأرض * والأول أولى ويكون يعلم سركم وجهركم جملة مقررة لمعنى الجملة الأولى لأن كونه سبحانه فى السماء والأرض يستلزم علمه بأسرار عباده وجهرهم وعلمه بما يكسبونه من الخير والشر وجلب النفع ودفع الضرر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على أن هذه الآية أعنى الحمد لله إلى قوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) نزلت فى أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية فى الزنادقة ، قالوا ان الله لم يخلق الظلمة ، ولا الخنافس ، ولا العقارب ، ولا شيئا قبيحا ، وإنما يخلق النور وكل شىء حسن ، فأنزلت فيهم هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (وجعل الظلمات والنور) قال : الكفر والايمان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ان الذين بربهم يعدلون هم أهل الشرك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : يعدلون يشركون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) قال : الآلهة التى عبدوها عدلوها بالله ، وليس لله عدل ولا ند ، وليس معه آلهة ولا اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (هو الذى خلقكم من طين) يعنى آدم (ثم قضى أجلا) يعنى أجل الموت (وأجل مسمى عنده) أجل الساعة والوقوف عند الله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر

وابن

وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عنه في قوله (ثم قضى أجلا) قال: أجل الدنيا، وفي لفظ أجل موته (وأجل مسمى عنده) قال: الآخرة لايعلمه إلا الله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (قضى أجلا) قال: هو اليوم يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه من اليقظة (وأجل مسمى عنده) قال: هو أجل موت الانسان.

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزءون * ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين * ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون * ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون * قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين *

قوله (وما تأتيهم) الخ كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم وتمردهم، وهو الاعراض عن آيات الله التي تأتيهم كمعجزات الأنبياء، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة مما لا يشك من له عقل أنه فعل الله سبحانه، والاعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله، ومن في من آية مزيدة للاستغراق ومن في من آيات تبعيضية: أي وما تأتيهم آية من الآيات التي هي بعض آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين، والفاء في (فقد كذبوا) جواب شرط مقدر: أي ان كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هو أعظم من ذلك وهو الحق (لما جاءهم) قيل المراد بالحق هنا القرآن، وقيل محمد ﷺ (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون، أي أخبار الشيء الذي كانوا به يستهزءون وهو القرآن أو محمد ﷺ، على أن ما عبارة عن ذلك تهويلا للأمر وتعظيما له، أي سيعرفون أن هذا الشيء الذي استهزءوا به ليس بموضع للاستهزاء، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم؛ كما يقال: اصبر فسوف يأتيك الخبر عند ارادة الوعيد والتهديد، وفي لفظ الأنباء ما يرشد الى ذلك فانه لايطلق الا على خبر عظيم * قوله (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن) كلام مبتدأ لبيان ماتقدمه، والهمزة للانكار، وكم يحتمل أن تكون الاستفهامية وأن تكون الخبرية: وهي معلقة لفعل الرؤية عن العمل فيما بعده، و (من قرن) تمييز، والقرن يطلق على أهل كل عصر، سموا بذلك لاقترانهم: أي ألم يعرفوا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة في عصر بعد عصر لتكذيبهم أنبياءهم، وقيل القرن مدة من الزمان: وهي ستون عاما أو سبعون أو ثمانون أو مائة على اختلاف الأقوال، فيكون ما في الآية على تقدير مضاف محذوف: أي من أهل قرن * قوله (مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم) مكن له في الأرض جعل له مكانا فيها، ومكنه في الأرض: أثبته فيها، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: كيف ذلك، وقيل ان هذه الجملة صفة لقرن، والأول أولى، وما في مالم نمكن نكرة موصوفة بما بعدها، أي مكناهم تمكينا لم نمكنه لكم، والمعنى أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم

مالم نعطكم من الدنيا وطول الأعمار وقوة الأبدان وقد أهلكناهم جميعا ، فاهلاككم وأنتم دونهم بالأولى * قوله (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) يريد المطر الكثير ، عبر عنه بالسماء ، لأنه ينزل من السماء ، ومنه قول الشاعر : * اذا نزل السماء بأرض قوم * والمدرار صيغة مبالغة تدل على الكثرة كمذكار للمرأة التى كثرت ولادتها للذكور ، ومئناث للتى تلد الاناث ، يقال درّ اللبن يدرّ إذا أقبل على الحالب بكثرة ، وانتصاب مدرارا على الحال ، وجريان الأنهار من تحتهم معناه من تحت أشجارهم ومنازلهم ، أى ان الله وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم فى الأرض فكفروها : فأهلكهم الله بذنوبهم (وأنشأنا من بعدهم) أى من بعد إهلاكهم (قرنا آخرين) فصاروا بدلا من الهالكين ، وفى هذا بيان لكمال قدرته سبحانه وقوة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء * قوله (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين) فى هذه الجملة بيان شدة صلابتهم فى الكفر ، وأنهم لا يؤمنون ولو أنزل الله على رسوله كتابا مكتوبا فى قرطاس بمرأى منهم ومشاهدة (فلمسوه بأيديهم) حتى يجتمع لهم ادراك الحاستين : حاسة البصر وحاسة اللمس (لقال الذين كفروا) منهم (ان هذا إلا سحر مبين) ولم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا ، واذا كان هذا حالهم فى المرئى المحسوس ، فكيف فيما هو مجرد وحى الى رسول الله ﷺ بواسطة ملك لا يرونه ولا يحسونه ، والكتاب مصدر بمعنى الكتابة ، والقرطاس : الصحيفة * قوله (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوته ﷺ وكفرهم بها : أى قالوا هلا أنزل الله عليك ملكا نراه ويكلمنا انه نبى حتى نؤمن به ونتبعه كقولهم ـ لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ـ (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) أى لو أنزلنا ملكا على الصفة التى اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم (لقضى الأمر) أى لأهلكناهم اذا لم يؤمنوا عند نزوله ورؤيتهم له ، لأن مثل هذه الآية البينة ، وهى نزول الملك على تلك الصفة اذا لم يقع الايمان بعدها فقد استحقوا الاهلاك والمعاجلة بالعقوبة (ثم لا ينظرون) أى لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له ، وقيل ان المعنى ان الله سبحانه لو أنزل ملكا مشاهدا لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء ، بل تزهق أرواحهم عند ذلك فيبطل ما أرسل الله له رسله وأنزل به كتبه من هذا التكليف الذى كلف به عباده ـ ليبلوهم أيهم أحسن عملا ـ * قوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) أى لو جعلنا الرسول الى النبى ملكا يشاهدونه ويخاطبونه لجعلنا ذلك الملك رجلا لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التى خلقه الله عليها الا بعد أن يتجسم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بنى آدم ، لأن كل جنس يأنس بجنسه فلو جعل الله سبحانه الرسول الى البشر أو الرسول الى رسوله ملكا مشاهدا مخاطبا لنفروا منه ولم يأنسوا به ولداخلهم الرعب وحصل معهم من الخوف ما يمنعهم من كلامه ومشاهدته : هذا أقل حال فلا تتم المصلحة من الارسال ، وعند أن يجعله الله رجلا ، أى على صورة رجل من بنى آدم ليسكنوا اليه ويأنسوا به سيقول الكافرون انه ليس بملك ، وانما هو بشر ويعودون الى مثل ما كانوا عليه * قوله (وللبسنا عليهم ما يلبسون) أى لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم لأنهم اذا رأوه فى صورة انسان قالوا هذا انسان وليس بملك ، فان استدل لهم بأنه ملك كذبوه قال الزجاج : المعنى للبسنا عليهم ، أى على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم ، وكانوا يقولون لهم : انما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم فأعلم الله عز وجل أنه لو نزل ملكا فى صورة رجل لوجدوا سبيلا الى اللبس كما يفعلون * واللبس : الخلط يقال : لبست عليه الأمر ألبسه لبسا ، أى خلطته ، وأصله التستر بالثوب ونحوه ، ثم قال سبحانه مؤنسا لنبيه ﷺ ومسليا له (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) يقال حاق الشىء يحيق حيقا وحيوقا وحيقانا نزل : أى فنزل ما كانوا به يستهزءون ، وأحاط بهم : وهو الحق حيث أهلكوا من

أجل الاستهزاء به (قل سيروا فى الأرض) أى قل يامحمد لهؤلاء المستهزئين سافروا فى الأرض وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ماحلّ بهم من العقوبات : وكيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النعيم العظيم الذى يفوق ما أنتم فيه ؛ فهذه ديارهم خاربة وجناتهم مغبرة وأراضيهم مكفهرة : فاذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون و بعد هلاكهم هالكون .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) يقول ماياتيهم من شىء من كتاب الله إلا أعرضوا عنه ، وفى قوله (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون) يقول سيأتيهم يوم القيامة أنباء مااستهزءوا به من كتاب الله عز وجل . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (من قرن) قال أمة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن قتادة فى قوله (مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم) يقول : أعطيناهم مالم نعطكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس فى قوله (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) يقول : يتبع بعضها بعضا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن هارون التيمى فى الآية قال : المطر فى إبانه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم) يقول لو أنزلنا من السماء صحفا فيها كتاب (فلمسوه بأيديهم) لزادهم ذلك تكذيبا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد فى قوله (فلمسوه بأيديهم) قال : فمسوه ونظروا اليه لم يصدقوا به . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن اسحق قال : دعا رسول الله ﷺ قومه الى الاسلام وكلمهم فأبلغ اليهم فيما بلغنى ؛ فقال له زمعة ابن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلدة وعبدة بن عبد يغوث وأبىّ بن خلف بن وهب والعاص ابن وائل بن هشام لو جعل معك يامحمد ملك يحدّث عنك الناس و يرى معك ، فأنزل الله (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) قال ملك فى صورة رجل (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) لقامت الساعة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (لقضى الأمر) يقول لو أنزل الله ملكا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ولو أنزلنا ملكا) قال : ولو أتاهم ملك فى صورته (لقضى الأمر) لأهلكناهم (ثم لاينظرون) لايؤخرون (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) يقول : لو أتاهم ملك ماأتاهم الا فى صورة رجل ، لأنهم لايستطيعون النظر الى الملائكة (وللبسنا عليهم مايلبسون) يقول : لخلطنا عليهم مايخلطون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) قال : فى صورة رجل فى خلق رجل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) يقول فى صورة آدمى . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وللبسنا عليهم) يقول : شبهنا عليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن السدى فى الآية قال : شبهنا عليهم مايشبهون على أنفسهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن اسحق قال : مرّ رسول الله ﷺ فيما بلغنى بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبى جهل بن هشام فهمزوه واستهزءوا به فغاظه ذلك ، فأنزل الله (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) .

VI 12-21



قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ
بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهٰدَةً قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَأُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّٰهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ
لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنٰهُمُ الْكِتٰبَ يَعْرِفُونَهُ
كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللّٰهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيٰتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظّٰلِمُونَ *

قوله (قل لمن مافى السموات والأرض) هذا احتجاج عليهم وتبكيت لهم * والمعنى قل: لهم هذا القول، فان قالوا، فقل: لله، واذا ثبت أن له مافى السموات والأرض إما باعترافهم، أو بقيام الحجة عليهم فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقاب، ولكنه كتب على نفسه الرحمة، أى وعد بها فضلا منه وتكرّما، وذكر النفس هنا عبارة عن تأكد وعده وارتفاع الوسائط دونه، وفى الكلام ترغيب للمتولين عنه إلى الاقبال إليه وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده لايعاجلهم بالعقوبة وأنه يقبل منهم الانابة والتوبة، ومن رحمته لهم إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ونصب الأدلة * قوله (ليجمعنكم إلى يوم القيامة) اللام جواب قسم محذوف . قال الفراء وغيره يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله (الرحمة) ويكون مابعدها مستأنفا على جهة التبيين فيكون المعنى (ليجمعنكم) ليمهلنكم وليؤخرن جمعكم، وقيل المعنى ليجمعنكم فى القبور إلى اليوم الذى أنكرتموه، وقيل (إلى) بمعنى فى، أى ليجمعنكم فى يوم القيامة، وقيل يجوز أن يكون موضع (ليجمعنكم) النصب على البدل من الرحمة، فتكون اللام بمعنى أن * والمعنى: كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعنكم كما قالوا فى قوله تعالى ـ ثم بدا لهم من بعد ماراوا الآيات ليسجننه ـ أى أن يسجنوه، وقيل ان جملة (ليجمعنكم) مسوقة للترهيب بعد الترغيب، وللوعيد بعد الوعد، أى ان أمهلكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم ثم معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة، والضمير فى (لاريب فيه) لليوم أو للجمع * قوله (الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون) . قال الزجاج ان الموصول مرتفع على الابتداء، وما بعده خبره كما تقول: الذى يكرمنى فله درهم، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط . وقال الأخفش ان شئت كان (الذين) فى موضع نصب على البدل من الكاف والميم فى (ليجمعنكم) أى ليجمعنّ المشركين الذين خسروا أنفسهم، وأنكره المبرد وزعم أنه خطأ، لأنه لايبدل من المخاطب ولا من المخاطب لايقال مررت بك زيد ولا مررت بى زيد، وقيل يجوز أن يكون (الذين) مجرورا على

البدل من المكذبين الذين تقدم ذكرهم أو على النعت لهم ، وقيل انه منادى وحرف النداء مقدر * قوله (وله ماسكن فى الليل والنهار) أى لله ، وخص الساكن بالذكر ، لأن مايتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة ، وقيل المعنى : ماسكن فيهما أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر ، وهذا من جملة الاحتجاج على الكفرة * قوله (قل أغير الله أتخذ وليا) الاستفهام للانكار ، قال لهم ذلك لما دعوه إلى عبادة الأصنام ، ولما كان الانكار لاتخاذ غير الله وليا ، لا لاتخاذ الولى مطلقا دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل * والمراد بالولى هنا : المعبود ، أى كيف أتخذ غير الله معبودا ؟ ، و (فاطر السموات والأرض) مجرور على أنه نعت لاسم الله ، وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ ، وأجاز الزجاج النصب على المدح ، وأجاز أبو على الفارسى نصبه بفعل مضمر كأنه قيل أترك فاطر السموات والأرض * قوله (وهو يطعم ولا يطعم) قرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين فى الأول ، وضمها وفتح العين فى الثانى ، أى يرزق ولا يرزق ، وقرأ سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش بفتح الياء فى الثانى وفتح العين ، وقرئ بفتح الياء والعين فى الأول وضمها وكسر العين فى الثانى على أن الضمير يعود إلى الولى المذكور ، وخص الاطعام دون غيره من ضروب الانعام ، لأن الحاجة إليه أمس * قوله (قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم) أمره سبحانه بعد ماتقدم من اتخاذ غير الله وليا أن يقول لهم انه مأمور بأن يكون أول من أسلم وجهه لله من قومه ، وأخلص من أمته ، وقيل معنى (أسلم) استسلم لأمر الله ، ثم نهاه الله عز وجل أن يكون من المشركين * والمعنى : أمرت بأن أكون أول من أسلم ونهيت عن الشرك ، أى يقول لهم هذا ، ثم أمره أن يقول (انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى ان عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهيه * والخوف : توقع المكروه ، وقيل هو هنا بمعنى العلم ، أى انى أعلم ان عصيت ربى أن لى عذابا عظيما * قوله (من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه) قرأ أهل المدينة وأهل مكة وابن عامر على البناء للمفعول ، أى من يصرف عنه العذاب ، واختار هذه القراءة سيبويه ، وقرأ الكوفيون على البناء للفاعل وهو اختيار أبى حاتم ، فيكون الضمير على هذه القراءة لله * ومعنى (يومئذ) يوم العذاب العظيم (فقد رحمه الله) أى نجاه وأنعم عليه وأدخله الجنة ، والاشارة بذلك إلى الصرف أو إلى الرحمة ، أى فذلك الصرف أو الرحمة (الفوز المبين) أى الظاهر الواضح ، وقرأ أبى (من يصرف الله عنه) * قوله (وان يمسسك الله بضر) أى ان ينزل الله بك ضرا من فقر أو مرض (فلا كاشف له إلا هو) أى لاقادر على كشفه سواه (وان يمسسك بخير) من رخاء أو عافية (فهو على كل شيء قدير) ومن جملة ذلك المس بالشر والخير * قوله (وهو القاهر فوق عباده) القهر : الغلبة * والقاهر : الغالب ، وأقهر الرجل : إذا صار مقهورا ذليلا ، ومنه قول الشاعر :

تمنى حصين أن يسود خزاعة * فأمسى حصين قد أذل وأقهرا

ومعنى (فوق عباده) فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم ، لافوقية المكان ، كما تقول : السلطان فوق رعيته ، أى بالمنزلة والرفعة ، وفى القهر معنى زائد ليس فى القدرة ، وهو منع غيره عن بلوغ المراد (وهو الحكيم) فى أمره (الخبير) بأفعال عباده * قوله (قل أى شيء أكبر شهادة) . (أى) مبتدأ ، و (أكبر) خبره ، و (شهادة) تمييز ، والشيء يطلق على القديم والحادث ، والمحال والممكن * والمعنى أى شهيد أكبر شهادة ، فوضع شيء موضع شهيد ، وقيل ان (شيء) هنا موضوع موضع اسم الله تعالى * والمعنى الله أكبر شهادة ، أى انفراده بالربوبية ، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم فهو شهيد بينى وبينكم ، وقيل ان قوله (الله شهيد بينى وبينكم) هو الجواب ، لأنه اذا كان الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شهادة له ﷺ ، وقيل انه قد تم الجواب عند قوله (قل الله) يعنى الله أكبر

شهادة ، ثم ابتدأ فقال (شهيد بيني وبينكم) أى هو شهيد بيني وبينكم * قوله (وأوحى الىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أى أوحى الله إلىّ هذا القرآن الذى تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به وأنذر به من بلغ إليه ، أى كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد فى الأزمنة المستقبلة ، وفى هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجودا وقت النزول مالا يحتاج معه إلى تلك الخزعبلات المذكورة فى علم أصول الفقه ، وقرأ أبو نهيك (وأوحى) على البناء للفاعل ، وقرأ ابن عداة على البناء للمفعول * قوله (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) الاستفهام للتوبيخ والتقريع على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل وبقلب الثانية ، وأما من قرأ على الخبر فقد حقق عليهم شركهم ، وانما قال (آلهة أخرى) لأن الآلهة جمع والجمع يقع عليه التأنيث . كذا قال الفراء ، ومثله قوله تعالى — ولله الأسماء الحسنى — وقال — فما بال القرون الأولى — (قل لاأشهد) أى فأنا لاأشهد معكم حذف لدلالة الكلام عليه ، وذلك لكون هذه الشهادة باطلة ، ومثله — فان شهدوا فلا تشهد معهم — وما فى (مما تشركون) موصولة أو مصدرية : أى من الأصنام التى تجعلونها آلهة ، أو من اشراككم بالله * قوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) الكتاب للجنس فيشمل التوراة والانجيل وغيرهما : أى يعرفون رسول الله ﷺ . قال به جماعة من السلف ، واليه ذهب الزجاج : وقيل ان الضمير يرجع الى الكتاب ، أى يعرفونه معرفة محققة بحيث لايلتبس عليهم منه شىء ، و (كما يعرفون أبناءهم) بيان لتحقق تلك المعرفة وكمالها وعدم وجود شك فيها فان معرفة الآباء للأبناء هى البالغة الى غاية الاتقان اجمالا وتفصيلا * قوله (الذين خسروا أنفسهم) فى محل رفع على الابتداء ، وخبره (فهم لايؤمنون) ودخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدا معنى الشرط ، وقيل ان الموصول خبر مبتدأ محذوف ، وقيل هو نعت للموصول الأول ، وعلى الوجهين الأخيرين يكون (فهم لايؤمنون) معطوفا على جملة (الذين آتيناهم الكتاب) * والمعنى على الوجه الأول أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم وتمردهم لايؤمنون بما جاء به رسول الله ﷺ ، وعلى الوجهين الأخيرين أن أولئك الذين آتاهم الله الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحق وعدم العمل بالمعرفة التى ثبتت لهم فهم لايؤمنون * قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى اختلق على الله الكذب فقال ان فى التوراة أو الانجيل مالم يكن فيهما (أو كذب بآياته) التى يلزمه الايمان بها من المعجزة الواضحة البينة ، فجمع بين كونه كاذبا على الله ومكذبا بما أمره الله بالايمان به ، ومن كان هكذا فلا أحد من عباد الله أظلم منه ، والضمير فى (انه لايفلح الظالمون) للشأن .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سلمان الفارسىّ قال : انا نجد فى التوراة أن الله خلق السموات والأرض ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة فبها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وبها يتباذلون ، وبها يتزاورون ، وبها تحنّ الناقة ، وبها تنتج البقرة ، وبها تيعر الشاة ، وبها تتابع الطير ، وبها تتابع الحيتان فى البحر فاذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة الى ماعنده ، ورحمته أفضل وأوسع . وقد أخرج مسلم وأحمد وغيرهما عن سلمان عن النبىّ ﷺ قال « خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة : منها رحمة يتراحم بها الخلق ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة ، فاذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة » ، وثبت فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش ان رحمتى سبقت غضبى » . وقد روى من طرق أخرى بنحو هذا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (وله ماسكن فى الليل

والنهار)

والنهار) يقول ما استقرّ فى الليل والنهار ، وفى قوله (قل أغير الله أتخذ وليا) قال : أما الولى فالذى تولاه ويقرّ له بالربوبية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (فاطر السموات والأرض) قال بديع السموات والأرض . وأخرج أبو عبيد فى فضائله وابن جرير وابن الأنبارى عنه قال : كنت لاأدرى ما فاطر السموات والأرض ؟ حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما أنا فطرتها : يقول : أنا ابتدأتها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله (وهو يطعم ولا يطعم) قال يرزق ولا يرزق . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (من يصرف عنه) قال من يصرف عنه العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله (وان يمسسك بخير) يقول : بعافية . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس : قال جاء النحام بن زيد وقردم ابن كعب وبحرى بن عمرو : فقالوا يا محمد ما تعلم مع الله إلها غيره ؟ فقال رسول الله ﷺ لا إله إلا الله بذلك بعثت والى ذلك أدعو ، فأنزل الله (قل أىّ شىء أكبر شهادة) الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مجاهد قال : أمر محمد ﷺ أن يسأل قريشا أىّ شىء أكبر شهادة ، ثم أمره أن يخبرهم فيقول الله شهيد بينى وبينكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (وأوحى الىّ هذا القرآن لأنذركم به) يعنى أهل مكة (ومن بلغ) يعنى من بلغه هذا القرآن من الناس فهو له نذير . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية (وأوحى الىّ هذا القرآن) كتب رسول الله ﷺ الى كسرى وقيصر والنجاشى وكل جبار يدعوهم الى الله عز وجل ، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه النبى ﷺ . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب وابن النجار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من بلغه القرآن فكأنما شافهته به . ثم قرأ وأوحى الىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد ابن كعب القرظى قال « من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ » وفى لفظ «من بلغه القرآن حتى تفهمه وتعقله كان كمن عاين رسول الله ﷺ وكلمه » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مجاهد فى قوله (وأوحى الىّ هذا القرآن لأنذركم به) قال العرب (ومن بلغ) قال : العجم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال النضر وهو من بنى عبد الدار اذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى ، فأنزل الله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) الآية .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝

قوله (ويوم نحشرهم) قرأ الجمهور بالنون فى الفعلين وقرئ بالياء فيهما وناصب الظرف محذوف مقدر متأخرا أى يوم نحشرهم كان كيت وكيت ، والاستفهام فى (أين شركاؤكم) للتقريع والتوبيخ للمشركين. وأضاف الشركاء اليهم ، لأنها لم تكن شركاء لله فى الحقيقة بل لما سموها شركاء أضيفت اليهم ، وهى ما كانوا يعبدونه من دون الله أو يعبدونه مع الله ۝ قوله (الذين كنتم تزعمون) أى تزعمونها شركاء ، فحذف المفعولان معا ، ووجه التوبيخ بهذا الاستفهام أن معبوداتهم غابت عنهم فى تلك الحال أو كانت حاضرة ولكن لاينتفعون بها بوجه من الوجوه ، فكان وجودها كعدمها ۝ قوله (ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) قال الزجاج : تأويل هذه الآية أن الله عزّ وجلّ أخبر بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم ، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حتى رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك ، ونظير هذا فى اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا . فاذا وقع فى هلكة تبرأ منه فتقول : ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه انتهى ، فالمراد بالفتنة على هذا كفرهم ، أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى افتخروا به وقاتلوا عليه إلا ماوقع منهم من الجحود والحلف على نفيه بقولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) ، وقيل المراد بالفتنة هنا جوابهم ، أى لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبرى ، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذبا ، وجملة (ثم لم تكن فتنتهم) معطوفة على عامل الظرف المقدر كما مرّ والاستثناء مفرّغ ، وقرئ فتنتهم بالرفع و بالنصب ، ويكن وتكن والوجه ظاهر ، وقرئ (وما كان فتنتهم) وقرئ (ربنا) بالنصب على النداء (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) بانكار ماوقع منهم فى الدنيا من الشرك (وضلّ عنهم ما كانوا يفترون) أى زال وذهب افتراؤهم وتلاشى و بطل ما كانوا يظنونه من أن الشركاء يقرّبونهم إلى الله ، هذا على أن ما مصدرية ، وقيل هى موصولة عبارة عن الآلهة ، أى فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئا ، وهذا تعجيب لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة ، وقيل لايجوز أن يقع منهم كذب فى الآخرة لأنها دار لايجرى فيها غير الصدق ، فمعنى (والله ربنا ما كنا مشركين) نفى شركهم عند أنفسهم ، وفى اعتقادهم و يؤيد هذا قوله تعالى ـ ولا يكتمون الله حديثا ـ ۝ قوله (ومنهم من يستمع إليك) هذا كلام مبتدأ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين فى الدنيا ، والضمير عائد إلى الذين أشركوا ، أى و بعض الذين أشركوا يستمع اليك حين تتلو القرآن (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أى فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم ، والأكنة : الأغطية جمع كنان مثل : الأسنة والسنان ، كننت الشيء فى كنه : اذا جعلته فيه ، وأكننته أخفيته ، وجملة (جعلنا على قلوبهم أكنة) مستأنفة للاخبار بمضمونها ، أو فى محل نصب على الحال ، أى وقد جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا القرآن ، أو لئلا يفقهوه ، والوقر الصمم ، يقال وقرت أذنه تقر وقرا ، أى صمت ، وقرأ طلحة ابن مصرف ، وقرا بكسر الواو ، أى جعل فى آذانهم ماسدّها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير ، وهو مقدار مايطيق أن يحمله ، وذكر الأكنة والوقر تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه كأن قلوبهم لاتعقل وأسماعهم لاتدرك (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى لايؤمنوا بشىء من الآيات التى يرونها من المعجزات ونحوها لعنادهم وتمرّدهم ۝ قوله (حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا

أساطير

أساطير الأوّلين) حتى هنا هى الابتدائية التى تقع بعدها الجمل ، وجملة يجادلونك فى محل نصب على الحال ، والمعنى أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم اذا جاءوك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الايمان ، بل يقولون ان هذا الا أساطير الأوّلين ، وقيل حتى هى الجارة ومابعدها فى محل جر ، والمعنى حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون ان هـذا الا أساطير الأوّلين ، وهذا غاية التكذيب ونهاية العناد ، والأساطير قال الزجاج : واحدها أسطار وقال الأخفش : أسطورة . وقال أبو عبيدة : أسطارة . وقال النحاس : أسطور . وقال القشيرى : اسطير ، وقيل هو جمع لاواحـد له كعبابيد وأبابيل ، والمعنى ماسطره الأوّلون فى الكتب من القصص والأحاديث . قال الجوهرى : الأساطير الأباطيل والترهات * قوله (وهم ينهون عنـه وينئون عنـه) أى ينهى المشركون الناس عن الايمان بالقرآن أو بمحمد ﷺ ويبعدون هم فى أنفسهم عنه ، وقيـل انها نزلت فى أبى طالب فانه كان ينهى الكفار عن أذية النبى ﷺ ويبعد هو عن اجابتـه (وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون) أى مايهلكون بما يقع منهم من النهى والنأى الا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله وسخطه ، والحال أنهم مايشعرون بهذا البلاء الذى جلبوه على أنفسهم * قوله (ولو ترى إذ وقفوا على النار) الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية ، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعانى ، و (وقفوا) معناه حبسوا ، يقال وقفته وقفا ووقف وقوفا ، وقيل معنى (وقفوا على النار) أدخلوها فتكون على بمعنى فى ، وقيل هى بمعنى الباء أى وقفوا بالنار ، أى بقربها معاينين لها ، ومفعول ترى محذوف ، وجواب لو محذوف ليذهب السامع كل مذهب ، والتقدير لو تراهم اذ وقفوا على النار لرأيت منظرا هائلا وحالا فظيعا (فقالوا ياليتنا نرد) أى الى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا) أى التى جاءنا بها رسوله ﷺ (ونكون من المومنين) بها العاملين بما فيها ، والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمنى ، أى تمنوا الردّ وأن لايكذبوا وأن يكونوا من المؤمنين برفع الأفعال الثلاثة كما هى قراءة الكسائى وأهل المدينة وشعبة وابن كثير وأبى عمرو . وقرأ حفص وحمزة بنصب نكذب ونكون باضمار أن بعد الواو على جواب التمنى ، واختار سيبويه القطع فى (ولا نكذب) فيكون غير داخل فى التمنى ، والتقدير ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب ، أى لا نكذب رددنا أو لم نرد ، قال : وهو مثل دعنى ولا أعود ، أى لا أعود على كل حال تركتنى أو لم تتركنى ، واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمنى بقوله (وانهم لكاذبون) لأن الكذب لا يكون فى التمنى . وقرأ ابن عامر (ونكون) بالنصب وأدخل الفعلين الأوّلين فى التمنى . وقرأ أبىّ (ولا نكذب بآيات ربنا أبدا) . وقرأ هو وابن مسعود (ياليتنا نرد فلا نكذب) بالفاء والنصب ، والفاء ينصب بها فى جواب التمنى كما ينصب بالواو كما قال الزجاج ، وقال أكثر البصريين لا يجوز الجواب الا بالفاء * قوله (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) هذا اضراب عما يدل عليـه التمنى من الوعد بالايمان والتصديق : أى لم يكن ذلك التمنى منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد بل هو لسبب آخر وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون : أى يجحدون من الشرك وعرفوا أنهم هالكون بشركهم فعدلوا الى التمنى والمواعيد الكاذبة ، وقيـل بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم ، وقيـل بدا لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى ـ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ـ وقال المبرد بدا لهم جزاء كفرهم الذى كانوا يخفونه وهو مثل القول الأوّل ، وقيل المعنى أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة (ولو ردوا) الى الدنيا حسبما تمنوا (لعادوا) لفعل مانهوا عنـه من القبائح التى رأسها الشرك كما عاين ابليس ما عاين من آيات الله ثم عاند (وانهم لكاذبون) أى متصفون بهذه الصفة لاينفكون عنها بحال من الأحوال ولو شاهدوا ماشاهدوا ، وقيل

المعنى وانهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والايمان ، وقرأ يحيى بن وثاب ولو رِدّوا بكسر الراء لأن الأصل رددوا فنقلت كسرة الدال الى الراء ، وجملة (وانهم لكاذبون) معترضة بين المعطوف وهو وقالوا و بين المعطوف عليه وهو لعادوا : أى لعادوا الى مانهوا عنه (وقالوا ان هى إلا حياتنا الدنيا) أى ماهى الا حياتنا الدنيا (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت ، وهذا من شدّة تمرّدهم وعنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا الى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث * قوله (ولو ترى اذ وقفوا على ربهم) قد تقدّم تفسيره فى قوله (ولو ترى اذ وقفوا على النار) أى حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم ، وقيل على بمعنى عند ، وجواب لو محذوف أى لشاهدت أمرا عظيما ، والاستفهام فى (أليس هذا بالحق) للتقريع والتوبيخ : أى أليس هذا البعث الذى ينكرونه كائنا موجودا ، وهذا الجزاء الذى يجحدونه حاضرا . (قالوا بلى وربنا) اعترفوا بما أنكروا وأكدوا اعترافهم بالقسم (قال فذوقوا العذاب) الذى تشاهدونه وهو عذاب النار (بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم به أو بكل شىء مما أمرتم بالايمان به فى دار الدنيا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ثم لم تكن فتنتهم) قال : معذرتهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه (ثم لم تكن فتنتهم) قال : حجتهم (الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) يعنى المنافقين والمشركين قالوا وهم فى النار : هلم فلنكذب فلعله أن ينفعنا ، فقال الله (انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم) فى القيامة (ما كانوا يفترون) يكذبون فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) ثم قال — ولا يكتمون الله حديثا — قال بجوارحهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) قال : باعتذارهم الباطل (وضلّ عنهم ما كانوا يفترون) قال ما كانوا يشركون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ومنهم من يستمع إليك) قال : قريش ، وفى قوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة) قال كالجعبة للنبل . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) قال : يسمعونه بآذانهم ولا يعون منه شيئا كمثل البهيمة التى لاتسمع النداء ولا تدرى مايقال لها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى : قال الغطاء أكنّ قلوبهم أن يفقهوه ، والوقر الصمم ، و(أساطير الأوّلين) أساجيع الأوّلين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أساطير الأوّلين أحاديث الأوّلين . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : أساطير الأوّلين كذب الأوّلين وباطلهم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (وهم ينهون عنه وينأون عنه) قال : نزلت فى أبى طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاءبه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن القاسم بن مخيمرة نحوه . وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية ، قال ينهون عنه الناس أن يؤمنوا به وينأون عنه : يتباعدون . وأخرج ابن جرير من طريق العوفىّ عنه قال : لايلقونه ولايدعون أحدايأتيه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد ابن الحنفية فى الآية قال : كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه ولا يجيبونه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة

قال

قال : ينهون عن القرآن وعن النبي ﷺ وينأون عنه يتباعدون عنه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال في الآية : قال نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة فكانوا أشدّ الناس معه في العلانية ، وأشدّ الناس عليه في السرّ . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل) قال : من أعمالهم (ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه) يقول : ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التي كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم أعمال السوء التي كانوا نهوا عنها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أخبر الله سبحانه أنهم لو ردّوا لم يقدروا على الهدى ، فقال (ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه) أي ولو ردّوا إلى الدنيا لحيل بينهم و بين الهدى كما حيل بينهم و بينه أوّل مرّة وهم في الدنيا .

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ * وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ *

قوله (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) هم الذين تقدّم ذكرهم * والمراد من تكذيبهم بلقاء الله تكذيبهم بالبعث ، وقيل تكذيبهم بالجزاء * والأوّل أولى ، لأنهم الذين قالوا قريبا ـ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ـ (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) أي القيامة ، وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها * ومعنى بغتة : فجأة يقال بغتهم الأمر يبغتهم بغتا و بغتة . قال سيبويه : وهي مصدر في موضع الحال قال ولا يجوز أن يقاس عليه ، فلا يقال جاء فلان سرعة ، و(حتى) غاية للتكذيب لا للخسران ، فانه لا غاية له (قالوا ياحسرتنا) هذا جواب اذا جاءتهم ، أوقعوا النداء على الحسرة ، وليست بمنادى في الحقيقة ليدلّ ذلك على كثرة تحسرهم * والمعنى : ياحسرتنا احضري فهذا أوانك ، كذا قال سيبويه في هذا النداء وأمثاله كقولهم ياللعجب و ياللرجل ، وقيل هو تنبيه للناس على عظم ما يحل بهم من الحسرة ، كأنهم قالوا ياأيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة ، والحسرة الندم الشديد (على ما فرّطنا فيها) أي على ما فرّطنا في الساعة : أي في الاعتداد لها ، والاحتفال بشأنها ، والتصديق بها * ومعنى فرّطنا ضيعنا ، وأصله التقدّم ، يقال فرط فلان ، أي تقدّم وسبق إلى الماء ، ومنه قوله ﷺ : وأنا فرطكم على الحوض ، ومنه الفارط : أي المتقدم فكأنهم أرادوا بقولهم (على ما فرّطنا) أي على ما قدّمنا من عجزنا عن التصديق بالساعة والاعتداد لها ، وقال ابن جرير الطبري ان الضمير في فرّطنا فيها يرجع إلى الصفقة ، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الايمان بالكفر ، والدنيا بالآخرة (قالوا ياحسرتنا على ما فرّطنا) في صفقتنا ، وان لم تذكر في الكلام فهو دالّ عليها ، لأن الخسران لا يكون الا في صفقة ، وقيل الضمير راجع إلى الحياة ، أي على ما فرّطنا في

حياتنا * قوله ( وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ) هذه الجملة حالية ، أى يقولون تلك المقالة ، والحال أنهم ( يحملون أوزارهم على ظهورهم ) أى ذنوبهم ، جمع وزر : يقال وزر يزر ، فهو وازر وموزور ، وأصله من الوزر . قال أبو عبيدة : يقال للرجل اذا بسط ثوبه ، فجعل فيه المتاع : احمل وزرك : أى ثقلك ، ومنه الوزير ، لأنه يحمل أثقال مايسند إليه من تدبير الولاية * والمعنى أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها ، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل ( ألا ساء مايزرون ) أى بئس مايحملون * قوله ( وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ) أى وما متاع الدنيا إلا لعب ولهو على تقدير حذف مضاف ، أوما الدنيا من حيث هى إلا لعب ولهو ، والقصد بالآية تكذيب الكفار فى قولهم ( ماهى إلا حياتنا الدنيا ) واللعب معروف ، وكذلك اللهو ، وكل مايشغلك فقد ألهاك ، وقيل أصله الصرف عن الشىء ، وردّ بأن اللهو بمعنى الصرف لامه ياء ، يقال لهيت عنه ، ولام اللهو واو ، يقال لهوت بكذا ( وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ) سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا ، أى هى خير للذين يتقون الشرك ، والمعاصى أفلا تعقلون ذلك قرأ ابن عامر ( ولدار الآخرة ) بلام واحدة وبالاضافة . وقرأ الجمهور باللام التى للتعريف معها ، وجعل الآخرة نعتا لها والخبر خير ، وقرئ تعقلون بالفوقية والتحتية * قوله ( قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ) هذا الكلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما ناله من الغم والحزن بتكذيب الكفار له ، ودخول قد للتكثير فانها قد تأتى لافادته كما تأتى رب ، والضمير فى (إنه) للشأن ، وقرئ بفتح الياء من يحزنك وضمها ، وقرئ يكذبونك مشددا ومخففا ، واختار أبو عبيد قراءة التخفيف . قال النحاس : وقد خولف أبو عبيد فى هذا * ومعنى يكذبونك على التشديد ينسبونك الى الكذب ويردّون عليك ماقلته * ومعنى المخفف أنهم لايجدونك كذابا ، يقال أكذبته وجدته كذابا ، وأبخلته وجدته بخيلا ، وحكى الكسائى عن العرب : أكذبت الرجل أخبرت أنه جاء بالكذب ، وكذّبته أخبرت أنه كاذب . وقال الزجاج : كذّبته اذا قلت له كذبت ، وأكذبته اذا أردت أن ماأتى به كذب * والمعنى أن تكذيبهم ليس يرجع اليك فانهم يعترفون لك بالصدق ، ولكن تكذيبهم راجع الى ماجئت به ، ولهذا قال ( ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ) ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التوبيخ لهم والازراء عليهم ، ووصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذى وقع منهم ظلم بين * قوله ( ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ) هذا من جملة التسلية لرسول الله ﷺ : أى ان هذا الذى وقع من هؤلاء اليك ليس هو بأول ماصنعه الكفار مع من أرسله الله اليهم ، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك فاقتد بهم ولاتحزن واصبر كما صبروا على ما كذبوا به وأوذوا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فانا لانخلف الميعاد ـ ولكل أجل كتاب ـ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ـ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ـ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى ـ ولا مبدّل لكلمات الله ـ بل وعده كائن وأنت منصور على المكذبين ، ظاهر عليهم . وقد كان ذلك ولله الحمد ( ولقد جاءك من نبأ المرسلين ) ماجاءك من تجرى قومهم عليهم فى الابتداء وتكذيبهم لهم ثم نصرهم عليهم فى الانتهاء ، وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسل فيرجعون إليك ويدخلون فى الدين الذى تدعوهم إليه طوعا أوكرها * قوله ( وان كان كبر عليك إعراضهم ) كان النبى ﷺ يكبر عليه إعراض قومه ويتعاظمه ويحزن له فبين له الله سبحانه أن هذا الذى وقع منهم من توليهم عن الاجابة له ، والاعراض عما دعا إليه هو كائن لامحالة لما سبق فى علم الله عزّ وجلّ وليس فى استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك ، ثم علق ذلك بما هو محال ، فقال ( فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض ) فتأتيهم بآية منه ( أو سلما فى

السماء

السماء (فتأتيهم بآية) منها فافعل ولكنك لاتستطيع ذلك فدع الحزن ـ ولاتذهب نفسك عليهم حسرات ـ وما أنت عليهم بمسيطر ـ ، والنفق السرب والمنفذ ، ومنه النافقاء لجحر اليربوع ، ومنه المنافق . وقدتقدم فى البقرة مايغنى عن الاعادة : والسلم الدرج الذى يرتقى عليه ، وهو مذكر لايؤنث ، وقال الفراء : انه يؤنث . قال الزجاج : وهو مشتق من السلامة ، لأنه يسلك به إلى موضع الأمن ، وقيل ان الخطاب وان كان لرسول الله ﷺ فالمراد به أمته لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم ولا يشعرون أن لله سبحانه فى ذلك حكمة لاتبلغها العقول ولاتدركها الأفهام ، فان الله سبحانه لو جاء لرسوله ﷺ بآية تضطرهم إلى الايمان لم يبق للتكليف الذى هو الابتلاء والامتحان معنى ، ولهذا قال (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) جمع إلجاء وقسر ، ولكنه لم يشأ ذلك ولله الحكمة البالغة (فلاتكونن من الجاهلين) فان شدة الحرص والحزن لاعراض الكفار عن الاجابة قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ولست منهم فدع الأمور مفوضة الى عالم الغيب والشهادة فهو أعلم بما فيه المصلحة ، ولاتحزن لعدم حصول مايطلبونه من الآيات التى لو بدالهم بعضها لكان ايمانهم بها اضطرارا (إنما يستجيب الذين يسمعون) أى انما يستجيب لك الى ماتدعو اليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول وتوجبه الأفهام وهؤلاء ليسوا كذلك بل هم بمنزلة الموتى الذين لايسمعون ولايعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة وفى آذانهم من الوقر ، ولهذا قال (والموتى يبعثهم الله) شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعا لايفهمون الصواب ولايعقلون الحق ، أى ان هؤلاء لا يلجئهم الله الى الايمان وان كان قادرا على ذلك كما يقدر على بعثة الموتى للحساب (ثم اليه يرجعون) الى الجزاء فيجازى كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (قالوا ياحسرتنا) قال : الحسرة الندامة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وأبوالشيخ وابن مردويه والخطيب بسند صحيح عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله (ياحسرتنا) قال الحسرة : أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة ، فتلك الحسرة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ألا ساء مايزرون) قال مايعملون . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (لعب ولهو) قال كل لعب لهو . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والضياء فى المختارة عن علىّ بن أبى طالب قال : قال أبو جهل للنبى ﷺ انا لانكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله (فانهم لايكذبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى يزيد المدنى أن أبا جهل قال : والله انى لأعلم انه صادق ولكن متى كنا تبعا لبنى عبد مناف ؟ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبى ميسرة نحو رواية علىّ بن أبى طالب . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون) قال يعلمون انك رسول الله ويجحدون . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله (ولقد كذبت رسل من قبلك) قال يعزّى نبيه ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : (فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض) والنفق : السرب فتذهب فيه فتأتيهم بآية أوتجعل لهم سلما فى السماء فتصعد عليه (فتأتيهم بآية) أفضل مما أتيناهم به فافعل (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) يقول سبحانه لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (نفقا فى الأرض) قال سربا (أوسلما فى السماء) قال : يعنى الدرج . وأخرج ابن أبى شيبة

II 61-69



وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله (انما يستجيب الذين يسمعون) قال: المؤمنون (والموتى) قال الكفار. وأخرج هؤلاء عن مجاهد مثله.

وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

هذا كان منهم تعنتا ومكابرة حيث لم يقتدوا بما قد أنزله الله على رسوله من الآيات البينات التى من جلتها القرآن، وقد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله، ومرادهم بالآية هنا هى التى تضطرهم الى الايمان كنزول الملائكة بمرءى منهم ومسمع، أو نتق الجبل كما وقع لبنى اسرائيل، فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله آية تضطرهم إلى الايمان، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف الذى هو الابتلاء والامتحان، وأيضا لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها بل سيعاجلهم بالعقوبة اذا لم يؤمنوا. قال الزجاج طلبوا أن يجمعهم على الهدى: يعنى جمع إلجاء (ولكن أكثرهم لايعلمون) ان الله قادر على ذلك، وانه تركه لحكمة بالغة لاتبلغها عقولهم * قوله (ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) الدابة من دبّ يدبّ فهو دابّ: اذا مشى مشيا فيه تقارب خطو. وقد تقدّم بيان ذلك فى البقرة (ولاطائر) معطوف على (دابة) مجرور فى قراءة الجمهور. وقرأ الحسن وعبد الله بن أبى اسحق (ولاطائر) بالرفع عطفا على موضع من دابة على تقدير زيادة من، و(بجناحيه) لدفع الابهام، لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير كقولهم: طرفى حاجتى: أى أسرع، وقيل ان اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ومع عدم الاعتدال يميل، فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين، وقيل ذكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينيه ونحو ذلك * والجناح: أحد ناحيتى الطير الذى يتمكن به من الطيران فى الهواء، وأصله الميل الى ناحية من النواحى * والمعنى مامن دابة من الدواب التى تدبّ فى أى مكان من أمكنة الأرض ولاطائر يطير فى أىّ ناحية من نواحيها (الا أمم أمثالكم) أى جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم، ورزقهم كما رزقكم داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شىء، وقيل (أمثالنا) فى ذكر الله والدلالة عليه، وقيل (أمثالنا) فى كونهم محشورين، روى ذلك عن أبى هريرة. وقال سفيان بن عيينة: أى مامن صنف من الدواب والطير الا فى الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشره كالخنزير، ومنهم من يعوى كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاوس، وقيل (أمثالكم) فى أن لها أسماء تعرف بها. وقال الزجاج (أمثالكم) فى الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص * والأولى أن تحمل المماثلة على كل مايمكن وجود شبه فيه كائنا ما كان * قوله (مافرّطنا فى الكتاب من شىء) أى ماأغفلنا عنه ولا ضيعنا فيه من شىء * والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ فان الله أثبت فيه جميع الحوادث، وقيل ان المراد به القرآن، أى ماتركنا فى القرآن من شىء من أمر الدين إما تفصيلا أو إجمالا، ومثله قوله تعالى ــ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ــ، وقال ــ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ــ، ومن جملة ماأجمله فى الكتاب العزيز قوله ــ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ــ فأمر فى هذه الآية باتباع ماسنه رسول الله ﷺ، فكل حكم سنه الرسول

لأمته قد ذكره الله سبحانه فى كتابه العزيز، بهذه الآية وبنحو قوله تعالى ـ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى ـ و بقوله ـ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ـ، ومن فى (من شىء) مزيدة للاستغراق * قوله (ثم إلى ربهم يحشرون) يعنى الأمم المذكورة، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء، ومنهم أبوذرّ وأبو هريرة والحسن وغيرهم، وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها، و به قال الضحاك، والأول أرجح، للآية، ولما صح فى السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ولقول الله تعالى ـ واذا الوحوش حشرت ـ، وذهبت طائفة من العلماء الى أن المراد بالحشر المذكور فى الآية حشر الكفار، وماتخلل كلام معترض، قلوا وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص، واستدلوا أيضا بأن فى هذا الحديث خارج الصحيح عن بعض الرواة زيادة، ولفظه «حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء، وللحجر لم ركب على الحجر؟ والعود لم خدش العود؟» قالوا والجمادات لايعقل خطابها ولا ثوابها ولاعقابها * قوله (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم) أى لايسمعون بأسماعهم ولا ينطقون بألسنتهم، نزلهم منزلة من لايسمع ولا ينطق لعدم قبولهم لما ينبغى قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة. وقال أبوعلى يجوز أن يكون صممهم وبكمهم فى الآخرة * قوله (فى الظلمات) أى فى ظلمات الكفر والجهل والحيرة لايهتدون لشىء مما فيه صلاحهم * والمعنى كائنين فى الظلمات التى تمنع من إبصار المبصرات وضموا الى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار لتراكم الظلمة عليهم فكانت حواسهم كالمسلوبة التى لاينتفع بها بحال. وقد تقدم فى البقرة تحقيق المقام بما يغنى عن الاعادة، ثم بين سبحانه أن الأمر بيده ماشاء يفعل، من شاء تعالى أن يضله أضله، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم لايذهب به إلى غير الحق، ولا يمشى فيه إلا إلى صوب الاستقامة.

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله (إلا أمم أمثالكم) قال أصنافا مصنفة تعرف بأسمائها. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: الطير أمة، والانس أمة، والجن أمة. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى: قال خلق أمثالكم. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى الآية: قال الذرة فما فوقها من ألوان ماخلق الله من الدواب. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (مافرطنا فى الكتاب من شىء) يعنى ماتركنا شيئا الا وقد كتبناه فى أم الكتاب. وأخرج عبد الرزاق وأبو اليشخ عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ثم الى ربهم يحشرون) قال موت البهائم حشرها، وفى لفظ قال يعنى بالحشر: الموت. وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال «مامن دابة ولا طائر الا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتص لبعضها من بعض حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن، ثم يقال لها كونى ترابا، فعند ذلك يقول الكافر ـ ياليتنى كنت ترابا ـ، وان شئتم فاقرءوا (ومامن دابة فى الأرض) الآية». وأخرج ابن جرير عن أبى ذرّ: قال انتطحت شاتان عند النبى ﷺ فقال لى ياأباذرّ أتدرى فيم انتطحتا؟ قلت لا: قال لكنّ الله يدرى وسيقضى بينهما. قال أبو ذرّ ولقد تركنا رسول الله ﷺ ومايقلب طائر جناحيه فى السماء ولا ذكرنا منه علما. وأخرجه أيضا أحمد، وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال «لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَٰدِقِينَ *

VI-991-45



بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *

قوله (أرأيتكم) الكاف والميم عند البصريين للخطاب ولاحظ لهما فى الاعراب ، وهو اختيار الزجاج . وقال الكسائى والفراء وغيرهما ان الكاف والميم فى محل نصب بوقوع الرؤية عليهما * والمعنى : أرأيتم أنفسكم . قال فى الكشاف مرجحا للمذهب الأول انه لامحل للضمير الثانى يعنى الكاف من الاعراب ، لأنك تقول : أرأيتك زيدا ماشأنه ، فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول : أرأيت نفسك زيدا ماشأنه وهو خلف من القول انتهى * والمعنى أخبرونى (ان آتاكم عذاب الله) كما أتى غيركم من الأمم (أو أتتكم الساعة) أى القيامة (أغير الله تدعون) هذا على طريقة التبكيت والتوبيخ ، أى أتدعون غير الله فى هذه الحالة من الأصنام التى تعبدونها أم تدعون الله سبحانه * وقوله (ان كنتم صادقين) تأكيد لذلك التوبيخ ، أى أغير الله من الأصنام تدعون ان كنتم صادقين أن أصنامكم تضر وتنفع وأنها آلهة كما تزعمون * قوله (بل إياه تدعون) معطوف على منفى مقدر : أى لاتدعون غيره بل إياه تخصون بالدعاء (فيكشف ماتدعون اليه) أى فيكشف عنكم ماتدعونه الى كشفه ان شاء أن يكشفه عنكم لا اذا لم يشأ ذلك * قوله (وتنسون ماتشركون) أى وتنسون عند أن يأتيكم العذاب ماتشركون به تعالى : أى ماتجعلونه شريكا له من الأصنام ونحوها فلا تدعونها ولاترجون كشف ما بكم منها بل تعرضون عنها اعراض الناسى ، وقال الزجاج يجوز أن يكون المعنى وتتركون ما تشركون * قوله (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك) كلام مبتدأ مسوق لتسلية النبى ﷺ أى ولقد أرسلنا الى أمم كائنة من قبلك رسلا فكذبوهم (فأخذناهم بالبأساء والضراء) أى البؤس والضر ، وقيل : البأساء المصائب فى الأموال ، والضراء المصائب فى الأبدان ، وبه قال الأكثر (لعلهم يتضرعون) أى يدعون الله بضراعة ، مأخوذ من الضراعة وهى الذل ، يقال : ضرع فهو ضارع ، ومنه قول الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

قوله (فلولا إذجاءهم بأسنا تضرعوا) أى فهلا إذجاءهم بأسنا تضرعوا لكنهم لم يتضرعوا ، وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء فى كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة تمردهم وغلوهم فى الكفر ، ويجوز أن يكون المعنى أنهم تضرعوا عند أن نزل بهم العذاب ، وذلك تضرع ضرورى لم يصدر عن اخلاص فهو غير نافع لصاحبه ، والأول أولى كما يدل عليه — ولكن قست قلوبهم — أى صلبت وغلظت (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) أى أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصى * قوله (فلما نسوا ماذكروا به) أى تركوا ماذكروا به ، أو أعرضوا عما ذكروا به ، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به اذ ليس هو من فعلهم ، وبه قال ابن عباس وابن جريج وأبو على الفارسى ، والمعنى أنهم لما تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء والضراء وأعرضوا عن ذلك (فتحنا عليهم أبواب كل شىء) أى لما نسوا ماذكروا

به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) من الخير على أنواعه فرح بطر وأشر وأعجبوا بذلك وظنوا أنهم انما أعطوه لكون كفرهم الذى هم عليه حقا وصوابا (أخذناهم بغتة) أى فجأة وهم غير مترقبين لذلك ، والبغتة : الأخذ على غرة من غير تقدمة أمارة ، وهى مصدر فى موضع الحال لايقاس عليها عند سيبويه * قوله (فاذا هم مبلسون) المبلس الحزين الآيس من الخير لشدة مانزل به من سوء الحال ، ومن ذلك اشتق اسم ابليس ، يقال أبلس الرجل اذا سكت ، وأبلست الناقة اذا لم ترع . قال العجاج :

صاح هل تعرف رسما مكرسا * قال نعم أعرفه وأبلسا

أى تحير لهول مارأى ، والمعنى فاذا هم محزونون متحيرون آيسون من الفرج * قوله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) الدابر الآخر ، يقال دبر القوم يدبرهم دبرا : اذا كان آخرهم فى المجىء ، والمعنى أنه قطع آخرهم أى استؤصلوا جميعا حتى آخرهم ، قال قطرب : يعنى أنهم استؤصلوا وأهلكوا ، قال أمية بن أبى الصلت :

فأهلكوا بعذاب حص دابرهم * فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا

ومنه التدبير لأنه احكام عواقب الأمور * قوله (والحمد لله رب العالمين) أى على هلاكهم ، وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التى من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون فانهم أشد على عباد الله من كل شديد ، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين واقطع دابرهم وأبدلهم بالعدل الشامل لهم .

وقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله (فأخذناهم بالبأساء والضراء) قال خوف السلطان وغلاء السعر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فلما نسوا ماذكروا به) قال يعنى تركوا ماذكروا به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج (فلما نسوا ماذكروا به) قال : مادعاهم الله اليه ورسله أبوه وردوه عليهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (فتحنا عليهم أبواب كل شىء) قال رخاء الدنيا و يسرها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) قال من الرزق (أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) قال مهلكون متغير حالهم (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) يقول فقطع أصل الذين ظلموا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثى فى قوله (أخذناهم بغتة) قال أمهلوا عشرين سنة ، ولا يخفى أن هذا مخالف لمعنى البغتة لغة ومحتاج الى نقل عن الشارع والا فهو كلام لاطائل تحته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : المبلس المجهود المكروب الذى قد نزل به الشر الذى لايدفعه ، والمبلس أشد من المستكين ، وفى قوله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) قال استؤصلوا

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ *

VI 50-55



هذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم ، ووحد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر وهذا جمعه ، والختم : الطبع ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة ، والمراد أخذ المعانى القائمة بهذه الجوارح أو أخذ الجوارح نفسها ، والاستفهام فى (من إله غير الله يأتيكم به) للتوبيخ ، ومن مبتدأ ، وإله خبره ، وغير الله صفة للخبر ، ووحد الضمير فى به مع أن المرجع متعدد على معنى فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المذكور ، وقيل الضمير راجع الى أحد هذه المذكورات ، وقيل ان الضمير بمنزلة اسم الاشارة ، أى يأتيكم بذلك المذكور ، ثم أمر رسول الله ﷺ بالنظر فى تصريف الآيات وعدم قبولهم لها تعجيبا له من ذلك ، والتصريف المجىء بها على جهات مختلفة ، تارة انذار وتارة اعذار وتارة ترغيب وتارة ترهيب ، وقوله (ثم هم يصدفون) عطف على نصرف ، ومعنى يصدفون : يعرضون ، يقال : صدف عن الشىء اذا أعرض عنه صدفا وصدوفا * قوله (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله) أى أخبرونى عن ذلك ، وقد تقدم تفسير البغتة قريبا أنها الفجأة قال الكسائى : بغتهم يبغتهم بغتا وبغتة : اذا أتاهم فجأة : أى من دون تقديم مقدمات تدل على العذاب ، والجهرة أن يأتى العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه ؛ وقيل البغتة اتيان العذاب ليلا ، والجهرة اتيان العذاب نهارا كما فى قوله تعالى ــ بياتا أو نهارا ــ (هل يهلك الا القوم الظالمون) الاستفهام للتقرير ، أى ما يهلك هلاك تعذيب وسخط الا القوم الظالمون . وقرئ يهلك على البناء للفاعل . قال الزجاج : معناه هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم انتهى * قوله (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل : أى مبشرين لمن أطاعهم بما أعد الله له من الجزاء العظيم ، ومنذرين لمن عصاهم بما له عند الله من العذاب الوبيل ، وقيل مبشرين فى الدنيا بسعة الرزق وفى الآخرة بالثواب ، ومنذرين مخوفين بالعقاب وهما حالان مقدرتان أى ما نرسلهم إلا مقدرين تبشيرهم وانذارهم (فمن آمن وأصلح) أى آمن بما جاءت به الرسل (وأصلح) حال نفسه بفعل ما يدعونه اليه (فلا خوف عليهم) بوجه من الوجوه (ولا هم يحزنون) بحال من الأحوال ، هذا حال من آمن وأصلح ، وأما حال المكذبين فهو أنه يمسهم العذاب بسبب فسقهم أى خروجهم عن التصديق والطاعة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (يصدفون) قال : يعدلون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (يصدفون) قال : يعرضون ، وقال فى قوله (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة) قال : فجأة آمنين ، أو جهرة قال : وهم ينظرون . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : كل فسق فى القرآن فمعناه الكذب .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ * وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ

وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ *

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه وتعنتهم بانزال الآيات التى تضطرهم الى الايمان أنه لم يكن عنده خزائن الله حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات ، والمراد خزائن قدرته التى تشتمل على كل شيء من الأشياء ، ويقول لهم انه لايعلم الغيب حتى يخبرهم به ويعرّفهم بما سيكون فى مستقبل الدهر (ولا أقول لكم إنى ملك) حتى تكلفونى من الأفعال الخارقة للعادة مالا يطيقه البشر ، وليس فى هذا مايدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ، وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية . بل الكلام فى مثل هذا من الاشتغال بما لايعنى ، ومن حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه (إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) أى ما أتبع إلا ما يوحيه الله إلىّ ، وقد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملا بما يفيده القصر فى هذه الآية ، والمسئلة مدوّنة فى الأصول والأدلة عليها معروفة ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال أوتيت القرآن ، ومثله معه (قل هل يستوى الأعمى والبصير) هذا الاستفهام للانكار ، والمراد أنه لايستوى الضال والمهتدى ، أوالمسلم والكافر ، أومن اتبع ماأوحى اليه ومن لم يتبعه ، والكلام تمثيل (أفلا تتفكرون) فى ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما ، فانه بين لا يلتبس على من له أدنى عقل وأقلّ تفكر * قوله (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) الانذار : الاعلام ، والضمير فى به راجع الى ما يوحى ، وقيل الى الله ، وقيل الى اليوم الآخر ، وخص الذين يخافون أن يحشروا ، لأن الانذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف ، بخلاف من لايخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وانكاره له ، فانه لايؤثر فيه ذلك ، قيل ومعنى يخافون : يعلمون ويتيقنون أنهم محشورون ، فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين وأهل الذمة وبعض المشركين ، وقيل معنى الخوف على حقيقته ، والمعنى أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبى ﷺ يذكره وان لم يكن مصدقا به فى الأصل ، لكنه يخاف أن يصح ماأخبر به النبى ﷺ فان من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع * قوله (ليس لهم من دونه ولىّ ولاشفيع) الجملة فى محل نصب على الحال ، أى أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لاولىّ لهم يواليهم ولا نصير يناصرهم ولاشفيع يشفع لهم من دون الله ، وفيه ردّ على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم ، وهم أهل الكتاب ، أوأن أصنامهم تشفع لهم ، وهم المشركون * قوله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه) الدعاء العبادة مطلقا ، وقيل المحافظة على صلاة الجماعة ، وقيل الذكر وقراءة القرآن ، وقيل المراد الدعاء لله بجلب النفع ودفع الضرر ، قيل : والمراد بذكر الغداة والعشىّ الدوام على ذلك والاستمرار ، وقيل هو على ظاهره ، و (يريدون وجهه) فى محل نصب على الحال * والمعنى أنهم مخلصون فى عبادتهم لايريدون بذلك إلا وجه الله تعالى : أى يتوجهون بذلك اليه لا إلى غيره * قوله (ماعليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء) هذا كلام معترض بين النهى وجوابه متضمن لنفى الحامل على الطرد ، أى حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ماعليك منه شيء ، وحسابك على نفسك ماعليهم منه شيء فعلام تطردهم ؟ هذا على فرض صحة وصف من وصفهم بقوله ــ مانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ــ وطعن عندك فى دينهم وحسبهم فكيف وقد زكاهم الله عزّ وجلّ بالعبادة والاخلاص ، وهذا هو مثل قوله تعالى ــ ولاتزر وازرة وزر أخرى ــ وقوله ــ وأن ليس للانسان إلا ماسعى ــ وقوله ــ إن حسابهم إلا على ربى ــ * وقوله (فتطردهم)

جواب النفى فى قوله ( ماعليك من حسابهم من شىء ) وهو من تمام الاعتراض ، أى اذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم فى الدين والفضل ، ومن فى ماعليك من حسابهم من شىء للتبعيض ، والثانية للتوكيد ، وكذا فى مامن حسابك عليهم من شىء * قوله ( فتكون من الظالمين ) جواب للنهى أعنى ( ولا تطرد الذين يدعون ربهم ) أى فان فعلت ذلك كنت من الظالمين ، وحاشاه عن وقوع ذلك ، وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الاسلام كقوله تعالى ـ لئن أشركت ليحبطن عملك ـ ، وقيل ان فتكون من الظالمين معطوف على فتطردهم على طريق التسبب ، والأول أولى * قوله ( وكذلك فتنا بعضهم ببعض ) أى مثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض ، والفتنة الاختبار ، أى عاملناهم معاملة المختبرين ، واللام فى ( ليقولوا ) للعاقبة ، أى ليقول البعض الأول مشيرين إلى البعض الثانى ( أهؤلاء ) الذين ( منّ الله عليهم من بيننا ) أى أكرمهم باصابة الحق دوننا . قال النحاس : وهذا من المشكل ، لأنه يقال كيف فتنوا ليقولوا هذا القول وهو ان كان على طريقة الانكار كفر ، وأجاب بجوابين : الأول أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الانكار ، والثانى أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبته هذا القول منهم كقوله ـ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا ـ * قوله ( أليس الله بأعلم بالشاكرين ) هذا الاستفهام للتقرير * والمعنى أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر ، وهو أعلم بالشاكرين له فما بالكم تعترضون بالجهل وتنكرون الفضل * قوله ( وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ) هم الذين نهاه الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين ، كما سيأتى بيانه ( فقل سلام عليكم ) أمره الله بأن يقول لهم هذا القول تطييبا لخواطرهم وإكراما لهم * والسلام ، والسلامة : بمعنى واحد ، فمعنى سلام عليكم : سلمكم الله . وقد كان النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام ، وقيل : ان هذا السلام هو من جهة الله : أى أبلغهم منا السلام * قوله ( كتب ربكم على نفسه الرحمة ) أى أوجب ذلك إيجاب فضل واحسان ، وقيل كتب ذلك فى اللوح المحفوظ ، قيل هذا من جملة ماأمره الله سبحانه بابلاغه إلى أولئك الذين أمره بابلاغ السلام اليهم تبشيرا بسعة مغفرة الله وعظيم رحمته * قوله ( أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ) قرأ ابن عامر وعاصم ونافع بفتح أن من أنه . وقرأ الباقون بكسرها ، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة بدلا من الرحمة ، أى كتب ربكم على نفسه أنه من عمل الى آخره ، وعلى القراءة الثانية تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستئناف وموضع بجهالة النصب على الحال ، أى عمله وهو جاهل ، قيل : والمعنى أنه فعل فعل الجاهلين ، لأن من عمل مايؤدّى الى الضرر فى العاقبة مع علمه بذلك أوظنه . فقد فعل فعل أهل الجهل والسفه لا فعل أهل الحكمة والتدبير ، وقيل المعنى : أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلق به من المضرة ، فتكون فائدة التقييد بالجهالة الايذان بأن المؤمن لايباشر مايعلم أنه يؤدّى إلى الضرر * قوله ( ثم تاب من بعده ) أى من بعد عمله ( وأصلح ) ماأفسده بالمعصية فراجع الصواب وعمل الطاعة ( فانه غفور رحيم ) . قرأ ابن عامر وعاصم بفتح الهمزة من فانه . وقرأ الباقون بالكسر ، فعلى القراءة الأولى تكون أن ومابعدها خبر مبتدأ محذوف ، أى فأمره أن الله غفور رحيم ، وهذا اختيار سيبويه ، واختار أبو حاتم أن الجملة فى محل رفع على الابتداء والخبر مضمر ، كأنه قيل فله ( أنه غفور رحيم ) قال لأن المبتدأ هو مابعد الفاء ، وأما على القراءة الثانية فالجملة مستأنفة * قوله ( وكذلك نفصل الآيات ) أى مثل ذلك التفصيل نفصلها ، والتفصيل التبيين * والمعنى أن الله فصل لهم مايحتاجون إليه من أمر الدين وبين لهم حكم كل طائفة * قوله ( ولتستبين سبيل المجرمين ) . قال الكوفيون هو معطوف على مقدّر ، أى وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين .

قال النحاس : وهـذا الحذف لايحتاج إليه ، وقيـل ان دخول الواو للعطف على المعنى : قرئ لتستبين بالفوقية والتحتية ، فالخطاب على الفوقية للنبي ﷺ ، أى لتستبين يامحمد سبيل المجرمين ، وسبيل منصوب على قراءة نافع ، وأما على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحفص بالرفع ، فالفعل مسند إلى سبيل ، وأما على التحتية فالفعل مسند إلى سبيل أيضا ، وهي قراءة حمزة والكسائي وشعبة بالرفع ، واذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين .

وقد أخرج عبد بن حميـد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (قل هل يستوي الأعمى والبصير) قال الأعمى : الكافر الذى عمى عن حق الله وأمره ونعمه عليه ، والبصير العبد المؤمن الذى أبصر بصرا نافعا فوحد الله وحده ، وعمل بطاعة ربه ، وانتفع بما آتاه الله . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية عن عبد الله بن مسعود : قال مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار و بلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يامحمد أرضيت بهؤلاء من قومك (أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا) أنحن نكون تبعا لهؤلاء ، اطردهم عنا فلعلك ان طردتهم أن نتبعك ، فأنزل الله فيهم القرآن (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) إلى قوله (والله عليم بالظالمين) . وقد أخرج هذا السبب مطوّلا ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ، وفيه إن الذين جاءوا إلى النبي ﷺ عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وقرظة ابن عبد عمرو بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدى بن الخيار بن نوفل فى أشراف الكفار من عبد مناف . وأخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم فى الحليـة والبيهق فى الدلائل عن خباب قال : جاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى فذكر نحو حديث عبد الله بن مسعود مطوّلا . قال ابن كثير هذا حديث غريب ، فان هذه الآية مكية ، والأقرع وعيينة انما أسلما بعد الهجرة بدهر . وأخرج مسلم والنسائى وابن ماجه وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال : لقد نزلت هذه الآية فى ستة : أنا وعبدالله بن مسعود و بلال ورجل من هذيل ورجلان لست أسميهما ، فقال المشركون للنبي ﷺ اطرد هؤلاء عنك لايجترئون علينا فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع فحدّث نفسه ، فأنزل الله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ) . وقد روى فى بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا فى المعنى . وأخرج ابن جرير وابن المنـذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (بالغداة والعشيّ) قال : يعنى الصلاة المكتوبة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهـد قال : الصلاة المكتوبة الصبح والعصر . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابراهيم النخعى فى الآية قال : هم أهل الذكر لاتطردهم عن الذكر . قال سفيان : أى أهل الفقه . وأخرج ابن جرير وابن المنـذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) يعنى : أنه جعل بعضـهم أغنياء و بعضهم فقراء ، فقال الأغنياء للفقراء (أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا) يعنى : أهؤلاء هـداهم الله ، و إنما قالوا ذلك استهزاء وسخريا . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا أى لو كان لهم كرامة على الله ماأصابهم هذا الجهد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ماهان قال : أتى قوم النبي ﷺ ، فقالوا إنا أصبنا ذنوبا عظاما فما ردّ عليهم شيئا فانصرفوا ، فأنزل الله (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) الآية فدعاهم فقرأها عليهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أخبرت أن قوله (سلام عليكم) كانوا اذا دخلوا على النبي ﷺ بدأهم بالسلام ، فقال (سلام عليكم) واذا لقيهم

XI 220-26



فكذلك أيضا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله (وكذلك نفصل الآيات) قال : تبين الآيات . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (ولتستبين سبيل المجرمين) قال : الذين يأمرونك بطردهؤلاء .

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قُلْ لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ * قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ * وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُبِينٍ *

قوله (قل انى نهيت) أمره الله سبحانه أن يعود إلى مخاطبة الكفار ويخبرهم بأنه نهى عن عبادة مايدعونه ويعبدونه من دون الله . أى نهاه الله عن ذلك وصرفه وزجره ، ثم أمره سبحانه بأن يقول لهم (لاأتبع أهواءكم) أى لاأسلك المسلك الذى سلكتموه فى دينكم من اتباع الأهواء والمشى على ماتوجبه المقاصد الفاسدة التى يتسبب عنها الوقوع فى الضلال * قوله (قد ضللت إذا) أى اتبعت أهواءكم فيما طلبتموه من عبادة معبوداتكم وطرد من أردتم طرده (وما أنا من المهتدين) ان فعلت ذلك ، وهذه الجملة الاسمية معطوفة على الجملة التى قبلها ، والمجىء بها اسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام والثبات ، وقرئ (ضللت) بفتح اللام وكسرها وهما لغتان . قال أبو عمرو ضللت بكسر اللام لغة تميم ، وهى قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف ، والأولى هى الأصح والأفصح ، لأنها لغة أهل الحجاز ، وهى قراءة الجمهور . قال الجوهرى : والضلال والضلالة ضدّ الرشاد ، وقد ضللت أضلّ . قال الله تعالى ــ قل ان ضللت فانما أضلّ على نفسى ــ قال فهذه يعنى المفتوحة لغة نجد وهى الفصيحة ، وأهل العالية يقول : ضللت بالكسر أضلّ انتهى * قوله (قل انى على بينة من ربى) البينة : الحجة والبرهان : أى انى على برهان من ربى ويقين ، لاعلى هوى وشك ، أمره الله سبحانه بأن يبين لهم أن ماهو عليه من عبادة ربه هو عن حجة برهانية يقينية لا كما هم عليه من اتباع الشبه الداحضة والشكوك الفاسدة التى لامستند لها الا مجرد الأهوية الباطلة * قوله (وكذبتم به) أى بالربّ أو بالعذاب أو بالقرآن أو بالبينة ، والتذكير للضمير باعتبار المعنى ، وهذه الجملة إما حالية بتقدير قد ، أى والحال ان قد كذبتم به ، أوجملة مستأنفة مبينة لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول الله ﷺ من الحجج الواضحة والبراهين البينة * قوله (ماعندى ماتستعجلون به) أخبرهم بأنه لم يكن عنده ماتستعجلونه من العذاب فانهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء ، نحو قوله ــ أوتسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ــ ، وقولهم ــ اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ــ ، وقولهم ــ متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ــ ، وقيل (ماعندى ماتستعجلون به) من الآيات التى تقترحونها علىّ * قوله (ان الحكم إلا لله) : أى ما الحكم فى كل شىء إلا لله سبحانه ، ومن جملة ذلك ماتستعجلون به من العذاب أو الآيات المقترحة * والمراد : الحكم الفاصل بين الحق والباطل * قوله (يقصّ الحق) قرأ نافع وابن كثير وعاصم (يقص)

بالقاف

بالقاف والصاد المهملة ، وقرأ الباقون (يقضى) بالضاد المعجمة والياء ، وكذا قرأ على وأبو عبد الرحمن السلمى وسعيد بن المسيب ، وهو مكتوب فى المصحف بغير ياء ، فعلى القراءة الأولى هو من القصص ، أى يقص القصص الحق ، أو من قص أثره : أى يتبع الحق فيما يحكم به ، وعلى القراءة الثانية هو من القضاء ، أى يقضى القضاء بين عباده ، والحق منتصب على المفعولية ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف : أى يقضى القضاء الحق ، أو يقص القصص الحق (وهو خير الفاصلين) ، أى بين الحق والباطل بما يقضى به بين عباده ويفصله لهم فى كتابه ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم (لو أن عندى ماتستعجلون به) أى ماتطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقدورا لى وفى وسعى (لقضى الأمر بينى وبينكم) أى لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزله الله سبحانه بكم بسؤالى له وطلبى ذلك ، أو المعنى لو كان العذاب الذى تطلبونه وتستعجلون به عندى وفى قبضتى لأنزلته بكم وعند ذلك يقضى الأمر بينى وبينكم (والله أعلم بالظالمين) وبالوقت الذى ينزل فيه عذابهم وبما تقتضيه مشيئته من تأخيره استدراجا لهم وإعذارا إليهم * قوله (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الاهو) المفاتح جمع مفتح بالفتح : وهو المخزن ، أى عنده مخازن الغيب ، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة ، أو جمع مفتح بكسر الميم ، وهو المفتاح ، جعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إلى ما فى المخازن منها على طريق الاستعارة أيضا ، ويؤيد أنها جمع مفتح بالكسر قراءة ابن السميفع (وعنده مفاتيح الغيب) فإن المفاتيح جمع مفتاح ، والمعنى إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب ، أو المفاتح التى يتوصل بها إلى المخازن * وقوله (لايعلمها الاهو) جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى ، وأنه لاعلم لأحد من خلقه بشىء من الأمور الغيبية التى استأثر الله بعلمها ، ويندرج تحت هذه الآية علم مايستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجا أوليا * وفى هذه الآية الشريفة مايدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدعين ماليس من شأنهم ، ولايدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم ، ولقد ابتلى الاسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق ﷺ «من أتى كاهنا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد» * قوله (ويعلم ما فى البر والبحر) خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله : أى يعلم مافيهما من حيوان وجماد علما مفصلا لايخفى عليه منه شىء ، أو خصهما لكونهما أكثر مايشاهده الناس ويتطلعون لعلم مافيهما (وما تسقط من ورقة الا يعلمها) أى من ورق الشجر وهو تخصيص بعد التعميم : أى يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه ، وقيل المراد بالورقة مايكتب فيه الآجال والأرزاق . وحكى النقاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها هنا السقط من أولاد بنى آدم ، قال ابن عطية : وهذا قول جار على طريقة الرموز ولايصح عن جعفر بن محمد ولاينبغى أن يلتفت إليه (ولا حبة) كائنة (فى ظلمات الأرض) أى فى الأمكنة المظلمة ، وقيل فى بطن الأرض (ولا رطب ولا يابس) بالخفض عطفا على حبة : وهى معطوفة على ورقة . وقرأ ابن السميفع والحسن وغيرهما بالرفع عطفا على موضع من ورقة ، وقد شمل وصف الرطوبة واليبوسة جميع الموجودات * قوله (إلا فى كتاب مبين) هو اللوح المحفوظ ، فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من (إلا يعلمها) وقيل هو عبارة عن علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله (قل إنى على بينة من ربى) قال : على ثقة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله (لقضى الأمر بينى وبينكم) قال : لقامت الساعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (وعنده مفاتح الغيب) قال : يقول خزائن الغيب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وعنده مفاتح

VI.60-62



الغيب) قال : هن خمس — ان الله عنده علم الساعة — الى قوله — عليم خبير — . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لايعلمها الا الله ، لايعلم ما فى غد الا الله ، ولايعلم ماتغيض الأرحام الا الله ، ولايعلم متى يأتى المطر الا الله ، ولاتدرى نفس بأى أرض تموت الا الله ، ولايعلم أحد متى تقوم الساعة الا الله » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (وماتسقط من ورقة إلا يعلمها) قال : مامن شجرة فى بر ولابحر الا وبها ملك يكتب مايسقط من ورقها . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن جحادة فى قوله (ماتسقط من ورقة) قال : لله تبارك وتعالى شجرة تحت العرش ليس مخلوق الا له فيها ورقة فاذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده : فذلك قوله (وماتسقط من ورقة الا يعلمها) . وأخرج الخطيب فى تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « مامن زرع على الأرض ولاثمار على أشجار الا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم هذا رزق فلان بن فلان » فذلك قوله تعالى (وماتسقط من الآية . وقد رواه يزيد بن هرون عن محمد بن اسحق عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ فذكره . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية (ولارطب ولايابس) فقال : الرطب واليابس من كل شىء

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ *

قوله (يتوفاكم بالليل) أى ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التى بها تميزون وليس ذلك موتا حقيقة ، فهو مثل قوله — الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها — والتوفى استيفاء الشىء ، وتوفيت الشىء واستوفيته ، اذا أخذته أجمع ، قال الشاعر :

ان بنى الأورم ليسوا من أحد * ولاتوفاهم قريش فى العدد

قيل الروح اذا خرجت من البدن فى المنام بقيت فيه الحياة ، وقيل لاتخرج منه الروح بل الذهن فقط ، والأولى أن هذا أمر لايعرفه إلا الله سبحانه * قوله (ويعلم ماجرحتم بالنهار) أى كسبتم بجوارحكم من الخير والشر * قوله (ثم يبعثكم فيه) أى فى النهار يعنى اليقظة ، وقيل يبعثكم من القبور فيه ، أى فى شأن ذلك الذى قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل والكسب بالنهار ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير هو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ماجرحتم فيه ، وقيل ثم يبعثكم فيه : أى فى المنام ، ومعنى الآية أن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم ، فانه عالم بذلك ولكن (ليقضى أجل مسمى) أى معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق (ثم اليه مرجعكم) أى رجوعكم بعد الموت (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازى المحسن باحسانه والمسىء باساءته * قوله (وهو القاهر فوق عباده) المراد فوقية القدرة والرتبة كما يقال : السلطان فوق الرعية ، وقد تقدم بيانه فى أول السورة * قوله (ويرسل عليكم حفظة) أى ملائكة جعلهم الله حافظين لكم ، ومنه قوله — وان عليكم لحافظين — والمعنى أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الآفات ويحفظ أعمالكم ، والحفظة جمع حافظ : مثل كتبة جمع كاتب (وعليكم) متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء ، وتقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه وأنه أمر حقيق بذلك ، وقيل هو متعلق

بحفظة * قوله (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) حتى يحتمل أن تكون هي الغائية : أى ويرسل عليكم حفظة يحفظون ماأمروا بحفظه ممايتعلق بكم ( حتى اذا جاء أحدكم الموت ) ويحتمل أن تكون الابتدائية ، والمراد بمجيء الموت مجيء علاماته . وقرأ حمزة توفاه رسلنا . وقرأ الأعمش تتوفاه . والرسل هم أعوان ملك الموت ، ومعنى توفته استوفت روحه (لايفرطون) أى لايقصرون و يضيعون ، وأصله من التقدم ، وقال أبو عبيدة لايتوانون . وقرأ عبيد بن عمير لايفرطون بالتخفيف أى لايجاوزون الحد فيما أمروا به من الاكرام والاهانة * قوله (ثم ردّوا الى الله مولاهم الحق) معطوف على توفته ، والضمير راجع الى أحد لأنه فى معنى الكل مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة : أى ردّوا بعد الحشر إلى الله ، أى إلى حكمه وجزائه (مولاهم) مالكهم الذى يلى أمورهم (الحق) قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم الله . وقرأ الحسن (الحق) بالنصب على إضمار فعل ، أى أعنى أو أمدح ، أو على المصدر (وهو أسرع الحاسبين) لكونه لايحتاج الى مايحتاجون اليه من الفكر والروية والتدبر .

وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال قال : رسول الله ﷺ «مع كل إنسان ملك اذا نام يأخذ نفسه فاذا أذن الله فى قبض روحه قبضه والا ردّها اليه فذلك قوله تعالى : يتوفاكم بالليل» . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال مامن ليلة الاوالله يقبض الأرواح كلها فيسأل كل نفس عما عمل صاحبها من النهار ثم يدعو ملك الموت فيقول اقبض روح هذا ، وما من يوم إلاوملك الموت ينظر فى كتاب حياة الانسان » قائل يقول ثلاثا وقائل يقول خمسا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : أما وفاته إياهم بالليل فنامهم ، وأما (جرحتم بالنهار) فيقول ما كسبتم بالنهار ( ثم يبعثكم فيه ) قال فى النهار ( ليقضى أجل مسمى ) وهو الموت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (و يعلم ماجرحتم ) قال : ما كسبتم من الاثم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله (ويرسل عليكم حفظة) قال هم المعقبات من الملائكة يحفظونه و يحفظون عمله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية : قال أعوان ملك الموت من الملائكة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وهم لايفرّطون) يقول لايضيعون .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ *

قيل المراد بظلمات البر والبحر : شدائدهما . قال النحاس : والعرب تقول يوم مظلم : اذا كان شديدا فاذا عظمت ذلك قالت : يوم ذو كوكب ، أى يحتاجون فيه لشدّة ظلمته الى كوكب ، وأنشد سيبويه :

بنى أسد هل تعلمون بلاءنا * اذا كان يوم ذو كواكب أشنعا

والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى من ينجيكم من شدائدهما العظيمة ؟ قرأ أبو بكر عن عاصم (خفية) بكسر الخاء ، وقرأ الباقون بضمها ، وهما لغتان ، وقرأ الأعمش (وخيفة) من الخوف ، وجملة (تدعونه) فى محل نصب على الحال ، أى من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له دعاء تضرّع وخفية أومتضرّعين ومخفين *

والمراد بالتضرّع هنا : دعاء الجهر * قوله ( لئن أنجيتنا ) كذا قرأ أهل المدينة وأهل الشام . وقرأ الكوفيون ( لئن أنجانا ) والجملة فى محل نصب على تقدير القول ، أى قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدّة التى نزلت بنا وهى الظلمات المذكورة (لنكوننّ من الشاكرين) لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد * قوله (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) قرأ الكوفيون وهشام (ينجّيكم) بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، وقراءة التشديد تفيد التكثير ، وقيل معناهما واحد ، والضمير فى (منها) راجع الى الظلمات * والكرب : الغم يأخذ بالنفس ، ومنه رجل مكروب . قال عنترة :

ومكروب كشفت الكرب عنه * بطعنة فيصل لما دعانى اهـ

(ثم أنتم تشركون) بالله سبحانه بعد أن أحسن اليك بالخلاص من الشدائد وذهاب الكروب شركاء لا ينفعونكم ولا يضرونكم ولا يقدرون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم فكيف وضعتم هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم (هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) أى الذى قدر على إنجائكم من تلك الشدائد ودفع عنكم تلك الكروب قادر على أن يعيدكم فى شدّة ومحنة وكرب يبعث عذابه عليكم من كل جانب ، فالعذاب المبعوث من جهة الفوق : ما ينزل من السماء من المطر والصواعق * والمبعوث من تحت الأرجل : الخسف والزلازل والغرق ، وقيل (من فوقكم) يعنى الأمراء الظلمة (ومن تحت أرجلكم) يعنى السفلة وعبيد السوء * قوله (أو يلبسكم شيعا) قرأ الجمهور بفتح التحتية ، من لبس الأمر : إذا خلطه ، وقرأ أبو عبد الله المدنى بضمها ؛ أى يجعل ذلك لباسا لكم ، قيل والأصل أو يلبس عليكم أمركم فحذف أحد المفعولين مع حرف الجرّ كما فى قوله تعالى — واذا كالوهم أو وزنوهم — والمعنى : يجعلكم مختلفى الأهواء مختلفى النحل متفرقى الآراء ، وقيل يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا * والشيع : الفرق ، أى يخالطكم فرقا * قوله (ويذيق بعضكم بأس بعض) أى يصيب بعضكم بشدّة بعض من قتل وأسر ونهب (ويذيق) معطوف على (يبعث) ، وقرئ (نذيق) بالنون (انظر كيف نصرّف الآيات) نبين لهم الحجج والدلالات من وجوه مختلفة (لعلهم يفقهون) الحقيقة فيعودون الى الحق الذى بيناه لهم بيانات متنوّعة .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر) يقول من كرب البر والبحر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسير الآية عن ابن عباس قال يقول : اذا أضلّ الرجل الطريق دعا الله لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال يعنى من أمرائكم (أو من تحت أرجلكم) يعنى سفلتكم (أو يلبسكم شيعا) يعنى بالشيع الأهواء المختلفة (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه من وجه آخر فى تفسير الآية قال (عذابا من فوقكم) أئمة السوء (أو من تحت أرجلكم) قال خدم السوء . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا من وجه آخر قال (من فوقكم) من قبل أمرائكم وأشرافكم (أو من تحت أرجلكم) قال من قبل سفلتكم وعبيدكم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبى مالك (عذابا من فوقكم) قال : القذف (أو من تحت أرجلكم) قال الخسف . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد أيضا (من فوقكم) قال الصيحة والحجارة والريح (أو من تحت أرجلكم) قال : الرجفة والخسف ، وهما عذاب أهل التكذيب (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال : عذاب أهل الاقرار . وأخرج البخارى وغيره عن جابر بن عبدالله قال : لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن

يبعث

يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال رسول الله ﷺ «أعوذ بوجهك (أو من تحت أرجلكم) قال أعوذ بوجهك (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) قال هذا أهون أو أيسر» . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم من حديث طويل عن ثوبان ، وفيه «وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها» . وأخرج مسلم وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيهما ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها . وأخرج أحمد والحاكم وصححه من حديث جابر بن عتيك نحوه . وأخرج نحوه أيضا ابن مردويه من حديث أبي هريرة . وأخرج أيضا ابن أبي شيبة وابن مردويه من حديث حذيفة ابن اليمان نحوه . وأخرج أحمد والنسائي وابن مردويه عن أنس نحوه أيضا . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) فقال النبي ﷺ أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والضياء في المختارة عن أبيّ بن كعب في هذه الآية قال هن أربع وكلهن عذاب وكلهن واقع لا محالة فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة فألبسوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة : الخسف ، والرجم ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية .

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *

قوله (وكذب به قومك) الضمير راجع إلى القرآن أو إلى العذاب ، وقومه المكذبون : هم قريش

وقيل كل معاند ، وجملة (وهو الحق) فى محل نصب على الحال ، أى كذبوا بالقرآن أو العذاب ، والحال أنه حق ، وقرأ ابن أبى عبلة (وكذبت) بالتاء (قل لست عليكم بوكيل) أى لست بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها ، قيل وهذه الآية منسوخة بآية القتال ، وقيل ليست بمنسوخة اذ لم يكن إيمانهم فى وسعه * قوله (لكل نبأ مستقر) أى لكل شىء وقت يقع فيه * والنبأ : الشىء الذى ينبأ عنه ، وقيل المعنى لكل عمل جزاء . قال الزجاج يجوز أن يكون وعيدا لهم بما ينزل بهم فى الدنيا . وقال الحسن هذا وعيد من الله للكفار ، لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث (وسوف تعلمون) ذلك بحصوله ونزوله بهم كما علموا يوم بدر بحصول ما كان النبى ﷺ يتوعدهم به * قوله (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم) الخطاب للنبى ﷺ ، أو لكل من يصلح له * والخوض : أصله فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء التى هى مجاهل تشبيها بغمرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول ، وقيل هو مأخوذ من الخلط ، وكل شىء خضته فقد خلطته ، ومنه خاض الماء بالعسل : خلطه * والمعنى : اذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والردّ والاستهزاء فدعهم ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا فى حديث مغاير له ، أمره الله سبحانه بالاعراض عن أهل المجالس التى يستهان فيها بآيات الله الى غاية هى الخوض فى غير ذلك

وفى هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرّفون كلام الله ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ويردّون ذلك الى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة فانه اذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقلّ الأحوال أن يترك مجالستهم ، وذلك يسير عليه غير عسير . وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة فيكون فى حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر .

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتى عليه الحصر ، وقمنا فى نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت اليه طاقتنا ، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما فى مجالسة من يعصى الله بفعل شىء من المحرّمات ، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم فى علم الكتاب والسنة فانه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان فينقدح فى قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه فيعمل بذلك مدة عمره ويلقى الله به معتقدا أنه من الحق وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر * قوله (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى) إما هذه هى الشرطية وتلزمها غالبا نون التأكيد ولا تلزمها نادرا ، ومنه قول الشاعر :

إما يصبك عدوّ فى منازله * يوما فقد كيف يستعلى وينتصر

وقرأ ابن عباس ينسيك بتشديد السين ، ومثله قول الشاعر : * وقد ينسيك بعض الحاجة الكسل *

والمعنى ان أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد الذكرى اذا ذكرت (مع القوم الظالمين) أى الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها ، قيل وهذا الخطاب وان كان ظاهره للنبى ﷺ فالمراد التعريض لأمته لتنزهه عن أن ينسيه الشيطان ، وقيل لا وجه لهذا فالنسيان جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة « انما أنا بشر أنسى كما تنسون فاذا نسيت فذكرونى » ونحو ذلك * قوله (وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء) أى ما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم فى آيات الله من حساب الكفار من شىء ، وقيل المعنى ما على الذين يتقون ما يقع منهم من الخوض فى آيات الله فى مجالستهم لهم من شىء ، وعلى هذا التفسير ففى الآية الترخيص للمتقين من المؤمنين فى مجالسة الكفار اذا اضطروا الى ذلك كما سيأتى عند ذكر السبب ، قيل وهذا الترخيص كان فى أول الاسلام وكان الوقت وقت تقية ، ثم نزل قوله تعالى ــ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا

تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ـ فنسخ ذلك * قوله (ولكن ذكرى لهم)، ذكرى فى موضع نصب على المصدر، أو رفع على أنها مبتدأ، وخبرها محذوف، أى ولكن عليهم ذكرى. وقال الكسائى المعنى ولكن هذه ذكرى * والمعنى على الاستدراك من النفى السابق، أى ولكن عليهم الذكرى للكافرين بالموعظة والبيان لهم بأن ذلك لا يجوز، أما على التفسير الأول فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون فى آيات الله لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأما على التفسير الثانى فالترخيص فى المجالسة لا يسقط التذكير (لعلهم يتقون) الخوض فى آيات الله اذا وقعت منكم الذكرى لهم، وأما جعل الضمير للمتقين فبعيد جدًا * قوله (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذى كان يجب عليهم العمل به والدخول فيه لعبا ولهوا ولا تعلق قلبك بهم فانهم أهل تعنت وان كنت مأمورا بابلاغهم الحجة، وقيل هذه الآية منسوخة بآية القتال، وقيل المعنى أنهم اتخذوا دينهم الذى هم عليه لعبا ولهوا كما فى فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات والضلالات المتقدم ذكرها، وقيل المراد بالدين هنا العيد: أى اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا، وجملة (وغرّتهم الحياة الدنيا) معطوفة على (اتخذوا) أى غرّتهم حتى آثروها على الآخرة وأنكروا البعث وقالوا ـ ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ـ * قوله (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت) الضمير فى (به) للقرآن أو للحساب * والابسال: تسليم المرء نفسه للهلاك، ومنه أبسلت ولدى: أى رهنته فى الدم، لأن عاقبة ذلك الهلاك. قال النابغة:

ونحن رهنا بالافاقة عامرا * بما كان فى الدرداء رهنا فأبسلا اهـ

أى فهلك، والدرداء كتيبة كانت لهم معروفة بهذا الاسم، فالمعنى وذكر به خشية أو مخافة أو كراهة أن تهلك نفس بما كسبت: أى ترتهن وتسلم للهلكة، وأصل الابسال: المنع، ومنه شجاع باسل: أى يمتنع من قرنه * قوله (وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) العدل هنا: الفدية * والمعنى، وان بذلت تلك النفس التى سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك، وفاعل (يؤخذ) ضمير يرجع الى العدل، لأنه بمعنى المفدى به كما فى قوله ـ ولا يؤخذ منها عدل ـ وقيل فاعله منها، لأن العدل هنا مصدر لا يسند اليه الفعل، وكل عدل منصوب على المصدر، أى عدلا كل عدل، والاشارة بقوله (أولئك) الى المتخذين دينهم لعبا ولهوا، وخبره (الذين أبسلوا بما كسبوا) أى هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا هم الذين سلموا للهلاك بما كسبوا، و (لهم شراب من حميم) جواب سؤال مقدّر كأنه قيل كيف حال هؤلاء؟ فقيل لهم شراب من حميم، وهو الماء الحارّ، ومثله قوله تعالى ـ يصبّ من فوق رءوسهم الحميم ـ وهو هنا شراب يشربونه فيقطع أمعاءهم * قوله (قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرّنا) أمره الله سبحانه بأن يقول لهم هذه المقالة، والاستفهام للتوبيخ، أى كيف ندعوا من دون الله أصناما لا تنفعنا بوجه من وجوه النفع ان أردنا منها نفعا ولا نخشى ضرها بوجه من الوجوه، ومن كان هكذا فلا يستحق العبادة (ونردّ على أعقابنا) عطف على ندعوا * والأعقاب، جمع عقب: أى كيف ندعوا من كان كذلك ونرجع الى الضلالة التى أخرجنا الله منها. قال أبو عبيدة، يقال لمن ردّ عن حاجته ولم يظفر بها قد ردّ على عقبيه. وقال المبرد: * تعقب بالشر بعد الخير * وأصله من المعاقبة والعقبى، وهما ما كان تاليا للشىء واجبا أن يتبعه، ومنه ـ والعاقبة للمتقين ـ، ومنه عقب الرجل، ومنه العقوبة، لأنها تالية للذنب * قوله (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض) هوى يهوى الى الشىء أسرع إليه. وقال الزجاج هو من هوى النفس، أى زين له الشيطان هواه، و (استهوته الشياطين) هوت به، والكاف فى (كالذى) إما نعت مصدر محذوف، أى نردّ على أعقابنا ردًا كالذى، أو فى محل

نصب على الحال من فاعل نردّ ، أى نردّ حال كوننا مشبهين للذى استهوته الشياطين : أى ذهبت به مردة الجنّ بعد أن كان بين الانس ، قرأ الجمهور استهوته ، وقرأ حمزة استهواه على تذكير الجمع ، وقرأ ابن مسعود والحسن (استهواه الشيطان) وهو كذلك فى قراءة أبىّ ، و (حيران) حال : أى حال كونه متحيرا تائها لايدرى كيف يصنع ؟ والحيران هو الذى لايهتدى لجهة ، وقد حار يحار حيرة وحيرورة : اذا تردّد ، و به سمى الماء المستنقع الذى لامنفذ له حائرا * قوله (له أصحاب يدعونه الى الهدى) صفة لحيران أو حالية ، أى له رفقة يدعونه الى الهدى يقولون له ائتنا فلايجيبهم ولايهتدى بهديهم * قوله (قل ان هدى الله هو الهدى) أمره الله سبحانه بأن يقول لهم (ان هدى الله) أى دينه الذى ارتضاه لعباده (هو الهدى) وما عداه باطل ــ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ــ (وأمرنا) معطوف على الجملة الاسمية ، أى من جملة ماأمره الله بأن يقوله ، واللام فى (لنسلم) هى لام العلة ، والمعلل هو الأمر : أى أمرنا لأجل نسلم لربّ العالمين . وقال الفراء : المعنى أمرنا بأن نسلم لأن العرب تقول أمرتك لتذهب ، و بأن تذهب بمعنى . وقال النحاس سمعت ابن كيسان يقول هى لام الخفض * قوله (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) معطوف على لنسلم على معنى وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا ، ويجوز أن يكون عطفا على يدعونه على المعنى : أى يدعونه إلى الهدى و يدعونه أن أقيموا (وهو الذى إليه تحشرون) فكيف تخالفون أمره (وهو الذى خلق السموات والأرض) خلقا (بالحق) : أو حال كون الخلق بالحق فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة * قوله (و يوم يقول كن فيكون * قوله الحق) أى واذكر يوم يقول كن فيكون أو واتقوا يوم يقول كن فيكون ، وقيل هو عطف على الهاء فى (واتقوه) وقيل ان يوم ظرف لمضمون جملة (قوله الحق) والمعنى وأمره المتعلق بالأشياء الحق : أى المشهود له بأنه حق ، وقيل قوله مبتدأ ، والحق صفة له (و يوم يقول كن فيكون) خبره مقدّما عليه ، والمعنى قوله المتصف بالحق كائن يوم يقول كن فيكون ، وقيل ان قوله مرتفع بيكون ، والحق صفته : أى يوم يقول كن يكون قوله الحق . وقرأ ابن عامر (فنكون) بالنون ، وهو اشارة إلى سرعة الحساب . وقرأ الباقون بالياء التحتية وهو الصواب * قوله (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) الظرف منصوب بما قبله ، أى له الملك فى هذا اليوم ، وقيل هو بدل من اليوم الأوّل والصور قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء ، والثانية للانشاء ، وكذا قال الجوهرى : ان الصور القرن ، قال الراجز :

لقد نطحناهم غداة الجمعين * نطحا شديدا لا كنطح الصورين

والصور بضم الصاد و بكسرها لغة ، وحكى عن عمرو بن عبيد أنه قرأ (يوم ينفخ فى الصور) بتحريك الواو ، جمع صورة ، والمراد : الخلق ، قال أبوعبيدة : وهذا وان كان محتملا يردّ بما فى الكتاب والسنة ، وقال الفراء : كن فيكون ، يقال انه للصور خاصة ، أى و يوم يقول للصور كن فيكون * قوله (عالم الغيب والشهادة) رفع عالم على أنه صفة للذى خلق السموات والأرض ، ويجوز أن يرتفع على اضمار مبتدا : أى هو عالم الغيب والشهادة ، وروى عن بعضهم أنه قرأ ينفخ بالبناء للفاعل ، فيجوز على هذه القراءة أن يكون الفاعل (عالم الغيب) ويجوز أن يرتفع بفعل مقدّر كما أنشد سيبويه :

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

أى يبكيه مختبط . وقرأ الحسن والأعمش (عالم) بالخفض على البدل من الهاء فى (له الملك) (وهو الحكيم) فى جميع مايصدر عنه (الخبير) بكل شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله (وكذب به قومك) يقول كذبت

قريش

قريش بالقرآن (وهو الحق) وأما الوكيل : فالحفيظ ، وأما (لكل نبأ مستقر) فكان نبأ القوم استقر يوم بدر بما كان يعدهم من العذاب . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله (وما أنا عليكم بوكيل) قال نسخ هذه الآية آية السيف ـ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ـ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (لكل نبأ مستقر) يقول حقيقة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال فى قوله (لكل نبأ مستقر) قال : حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها أرسلت عقوبتها . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (لكل نبأ مستقر) قال فعل وحقيقة ما كان منه فى الدنيا وما كان منه فى الآخرة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم) ونحو هذا فى القرآن ، قال أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) قال : يستهزئون بها ، نهى محمدا ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسى فاذا ذكر فليقم وذلك قول الله (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين أنه كان يرى أن هذه الآية نزلت فى أهل الأهواء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم فى الحلية عن أبى جعفر قال : لاتجالسوا أهل الخصومات فانهم الذين يخوضون فى آيات الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن على قال : ان أصحاب الأهواء من الذين يخوضون فى آيات الله . وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال كان المشركون بمكة اذا سمعوا القرآن من أصحاب النبى ﷺ خاضوا واستهزءوا ، فقال المسلمون لاتصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم فأنزل الله هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ أيضا عن السدى أنه قال : ان هذه الآية منسوخة بآية السيف . وأخرج النحاس عن ابن عباس فى قوله (وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء) قال : نسخت هذه الآية المكية بالآية المدنية ، وهى قوله ـ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ـ الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد (وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء) ان قعدوا ولكن لايقعدوا . وأخرج ابن أبى شيبة عن هشام بن عروة عن عمر بن عبد العزيز أنه أتى بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم فضربه ، وقال لاتقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) قال : هو مثل قوله ـ ذرنى ومن خلقت وحيدا ـ يعنى أنه للتهديد . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه عن قتادة فى هذه الآية قال : نسختها آية السيف . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (لعبا ولهوا) قال : أكلا وشربا . وأخرج ابن جرير والمنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أن تبسل) قال أن تفضح ، وفى قوله (أبسلوا) قال : فضحوا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (أن تبسل) قال : تسلم ، وفى قوله (أبسلوا بما كسبوا) قال : أسلموا بجرائرهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (قل أندعوا من دون الله) قال هذا مثل ضربه الله للآلهة وللدعاة الذين يدعون الى الله ، وقوله (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض) يقول أضلته ، وهم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها ويرى أنه فى شىء فيصبح وقد ألقته فى هلكة ، وربما أكلته أو تلقيه فى مضلة من الأرض يهلك فيها عطشا ، فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تعبد من دون الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (كالذى استهوته الشياطين) قال : هو الرجل لايستجيب لهدى الله ، وهو الرجل أطاع الشيطان وعمل فى الأرض

VI 64-83



بالمعصية وحاد عن الحق وضلّ عنه ، و (له أصحاب يدعونه الى الهدى) و يزعمون أن الذى يأمرونه به هدى يقول الله ذلك لأوليائهم من الانس يقول (ان الهدى هدى الله) والضلالة ماتدعو اليه الجن . وأخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد بن حميد وأبوداود والترمذى وحسنه والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن عمرو ، قال سئل النبى ﷺ عن الصور فقال « قرن ينفخ فيه » والأحاديث الواردة فى كيفية النفخ ثابتة فى كتب الحديث لاحاجة لنا الى ايرادها هاهنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (عالم الغيب والشهادة) يعنى أن عالم الغيب والشهادة هو الذى ينفخ فى الصور .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *

قوله (لأبيه آزر) قال الجوهرى : آزر اسم أعجمى ، وهو مشتق من آزر فلان فلانا اذا عاونه فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام ، وقال ابن فارس انه مشتق من القوة ، قال الجوينى فى النكت من التفسير له ليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد ابراهيم تارخ ، والذى فى القرآن يدل على أن اسمه آزر ، وقد تعقب فى دعوى الاتفاق بما روى عن ابن اسحق والضحاك والكلبى أنه كان له اسمان : آزر وتارخ ، وقال مقاتل : آزر لقب ، وتارخ اسم ، وقال سليمان التيمى : ان آزر سب وعتب ، ومعناه فى كلامهم المعوج ، وقال الضحاك : معنى آزر الشيخ الهم بالفارسية ، وقال الفراء هى صفة ذم بلغتهم كأنه قال : يامخطئ ، وروى مثله عن الزجاج ، وقال مجاهد : هو اسم صنم ، وعلى هذا فاطلاق اسم الصنم على أبيه اما للتعيير له لكونه معبوده أو على حذف مضاف : أى قال لأبيه عابد آزر أو أتعبد آزر على حذف الفعل ، وقرأ ابن عباس أأزر بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ، وروى عنه أنه قرأ بهمزتين مفتوحتين ، ومحل (اذ قال) النصب على تقدير واذكر ، اذ قال ابراهيم ويكون هذا المقدر معطوفا على (قل أندعوا من دون الله) وقيل هو معطوف على (وذكر به أن تبسل) وآزر عطف بيان * قوله (أتتخذ أصناما آلهة) الاستفهام للانكار ، أى أتجعلها

آلهة لك تعبدها (انى أراك وقومك) المتبعين لك فى عبادة الأصنام (فى ضلال) عن طريق الحق (مبين) واضح (وكذلك نرى ابراهيم) أى ومثل تلك الاراءة نرى ابراهيم ، والجملة معترضة ، و (ملكوت السموات والأرض) ملكهما ، وزيدت التاء والواو للمبالغة فى الصفة ؛ ومثله الرغبوت والرهبوت مبالغة فى الرغبة والرهبة ، قيل أراد بملكوت السموات والأرض مافيهما من الخلق ؛ وقيل كشف الله عن ذلك حتى رأى الى العرش والى أسفل الأرضين ، وقيل رأى من ملكوت السموات والأرض ماقصه الله فى هذه الآية ، وقيل المراد بملكوتهما الربوبية والالهية : أى نريه ذلك ونوفقه لمعرفته بطريق الاستدلال التى سلكها ومعنى (نرى) أريناه ، حكاية حال ماضية * قوله (وليكون من الموقنين) متعلق بمقدر ، أى أريناه ذلك (ليكون من الموقنين) وقد كان آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر ، فأراد أن ينبههم على الخطأ ، وقيل أنه ولد فى سرب وجعل رزقه فى أطراف أصابعه فكان يمصها * وسبب جعله فى السرب أن النمروذ رأى رؤيا أن ملكه يذهب على يد مولود فأمر بقتل كل مولود والله أعلم * قوله (فلما جنّ عليه الليل) أى ستره بظلمته ، ومنه الجنة والمجنّ والجن كله من الستر ، قال الشاعر .

ولولا جنان الليل أدرك ركضنا * بذى الرمث والارطى عياض بن ثابت

والفاء للعطف على قال ابراهيم : أى واذكر اذ قال واذ جن عليه الليل فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه ، وجواب لما (رأى كوكبا) قيل رآه من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب الذى كان فيه ، وقيل رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس ، قيل رأى المشترى ، وقيل الزهرة * قوله (هذا ربى) جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال عند رؤية الكوكب ؟ قيل وكان هذا منه عند قصور النظر لأنه فى زمن الطفولية ، وقيل أراد قيام الحجة على قومه كالحاكى لما هو عندهم ومايعتقدونه لأجل الزامهم ، وبالثانى قال الزجاج ، وقيل هو على حذف حرف الاستفهام ، أى أهذا ربى ، ومعناه انكار أن يكون مثل هذا ربا ، ومثله قوله تعالى ـ أفائن مت فهم الخالدون ـ أى أفهم الخالدون ، ومثله قول الهذلى :

رفونى وقالوا ياخويلد لم ترع * فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

أى أهم هم ، وقول الآخر .

لعمرك ماأدرى وان كنت داريا * بسبع رمين الجمر أم بثمانيا

أى أبسبع ، وقيل المعنى وأنتم تقولون هذا ربى فأضمر القول ، وقيل المعنى على حذف مضاف ، أى هذا دليل ربى (فلما أفل) أى غرب (قال) ابراهيم (لا أحب الآفلين) أى الآلهة التى تغرب ، فان الغروب تغير من حال الى حال ، وهو دليل الحدوث (فلما رأى القمر بازغا) أى طالعا ، يقال بزغ القمر اذا ابتدأ فى الطلوع ، والبزغ الشق كان يشق بنوره الظلمة (فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى) أى لئن لم يثبتنى على الهداية ويوفقنى للحجة (لأكونن من القوم الضالين) الذى لايهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ويحرمونها حظها من الخير (فلما رأى الشمس بازغة) بازغا وبازغة منصوبان على الحال ، لأن الرؤية بصرية ، وانما قال هذا ربى مع كون الشمس مؤنثة ، لأن مراده هذا الطالع قاله الكسائى والأخفش ، وقيل هذا الضوء ، وقيل الشخص (هذا أكبر) أى مما تقدمه من الكوكب والقمر (قال ياقوم إنى برىء مما تشركون) أى من الأشياء التى تجعلونها شركاء لله وتعبدونها ، وما موصولة أو مصدرية ، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لاتنفع ولاتضر مستدلا على ذلك بأفولها الذى هو دليل حدوثها (انى وجهت وجهى) أى قصدت بعبادتى وتوحيدى الله عزّ وجل ، وذكر الوجه لأنه العضو الذى يعرف به الشخص ، أولأنه يطلق على

الشخص كله كما تقدم ، وقد تقدم معنى (فطر السموات والأرض . حنيفا) مائلا الى الدين الحق * قوله (وحاجه قومه) أى وقعت منهم المحاججة له فى التوحيد بما يدل على ما يدّعونه من أن ما يشركون به و يعبدونه من الأصنام آلهة ، فأجاب ابراهيم عليه السلام بما حكاه الله عنه أنه قال (أتحاجونى فى الله) أى فى كونه لاشريك له ولا ندّ ولا ضدّ . قرأ نافع بتخفيف نون أتحاجونى . وقرأ الباقون بتشديدها بادغام نون الجمع فى نون الوقاية ونافع خفف بحذف احدى النونين ، وقد أجاز ذلك سيبويه ، وحكى عن أبى عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن ، وجملة (وقد هدانى) فى محل نصب على الحال أى هدانى الى توحيده وأنتم تريدون أن أكون مثلكم فى الضلالة والجهالة وعدم الهداية * قوله (ولا أخاف ماتشركون به) قال هذا لما خوفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه : أى انى لا أخاف ماهو مخلوق من مخلوقات الله لايضر ولاينفع ، والضمير فى به يجوز رجوعه إلى الله و إلى معبوداتهم ، المدلول عليها بما فى (ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا) أى إلا وقت مشيئته ربى بأن يلحقنى شيئا من الضرر بذنب عملته فالأمر إليه ، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التى لاتضر ولا تنفع * والمعنى على نفى حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال ، واثبات الضرر والنفع لله سبحانه وصدورهما حسب مشيئته ، ثم علل ذلك بقوله (وسع ربى كل شىء علما) أى ان علمه محيط بكل شىء ، فاذا شاء الخير كان حسب مشيئته ، واذا شاء إنزال شرّ بى كان ، ماشاء الله كان ومالم يشاء لم يكن ، ثم قال لهم مكملا للحجة عليهم ودافعا لما خوّفوه به (وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا) أى كيف أخاف مالا يضر ، ولا ينفع ، ولا يخلق ، ولايرزق ، والحال أنكم لاتخافون ماصدر منكم من الشرك بالله ، وهو الضارّ النافع ، الخالق الرازق ، أورد عليهم هذا الكلام الالزامى الذى لايجدون عنه مخلصا ولامتحوّلا ، والاستفهام للانكار عليهم والتقريع لهم ، و (ما) فى (مالم ينزل به عليكم سلطانا) مفعول أشركتم : أى ولاتخافون أنكم جعلتم الأشياء التى لم ينزل بها عليكم سلطانا شركاء لله ، أو المعنى أن الله سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له ولانزل عليهم باشراكها حجة يحتجون بها ، فكيف عبدوها واتخذوها آلهة وجعلوها شركاء الله سبحانه ؟ * قوله (فأىّ الفريقين أحق بالأمن) المراد بالفريقين فريق المؤمنين وفريق المشركين ، أى إذا كان الأمر على ماتقدم من أن معبودى هو الله المتصف بتلك الصفات ، ومعبودكم هى تلك المخلوقات ، فكيف تخوّفونى بها ، وكيف أخافها ؟ وهى بهذه المنزلة ولا تخافون من اشراككم بالله سبحانه ، و بعد هذا فأخبرونى : أىّ الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف (إن كنتم تعلمون) بحقيقة الحال وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة ، ثم قال الله سبحانه قاضيا بينهم ومبينا لهم (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا ، وقيل هو من تمام قول إبراهيم ، وقيل هو من قول قوم إبراهيم * ومعنى (لم يلبسوا إيمانهم بظلم) لم يخلطوه بظلم * والمراد بالظلم الشرك ، لما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان ـ يابنىّ لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ـ ، والعجب من صاحب الكشاف حيث يقول فى تفسير هذه الآية ، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس وهو لايدرى أن الصادق المصدوق . قد فسرها بهذا ، واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، والاشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول المتصف بما سبق و (لهم الأمن) جملة وقعت خبرا عن اسم الاشارة ، هذا أوضح ماقيل مع احتمال غيره من الوجوه (وهم مهتدون) الى الحق ثابتون عليه ، وغيرهم على ضلال وجهل ، والاشارة بقوله (تلك حجتنا) الى ماتقدم من الحجج التى أوردها ابراهيم عليهم ، أى تلك البراهين التى أوردها ابراهيم عليهم من قوله (فلما

VI ٩٤-٦٦



جنّ عليه الليل ) الى قوله( وهم مهتدون . حجتنا آتيناها ابراهيم ) أى أعطيناه إياها وأرشدناه اليها ، وجملة ( آتيناها ابراهيم) فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر ثان لاسم الاشارة (على قومه) أى حجة على قومه ( نرفع درجات من نشاء ) بالهداية والارشاد الى الحق وتلقين الحجة ، أو بما هوأعم من ذلك ( إن ربك حكيم عليم ) أى حكيم فى كل مايصدرعنه عليم بحال عباده ، وأن منهم من يستحق الرفع ومنهم من لايستحقه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : فى قوله تعالى ( وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ) قال : الآزر الصنم وأبو إبراهيم اسمه يازر وأمّه اسمها مثلى وامرأته اسمها سارة ، وسريته أم اسماعيل اسمها هاجر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : آزر لم يكن بأبيه ولكنه اسم صنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : اسم أبيه تارخ واسم الصنم آزر . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سليمان التيمى ، أنه قرأ ( وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر ) قال : بلغنى أنها أعوج وأنها أشدّ كلمة قالها ابراهيم لأبيه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال : ان والد ابراهيم لم يكن اسمه آزر ، وإنما اسمه تارخ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى قوله تعالى ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ) قال : الشمس ، والقمر ، والنجوم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : فى الآية كشف ما بين السموات حتى نظر إليهن على صخرة ، والصخرة على حوت ، وهو الحوت الذى منه طعام الناس ، والحوت فى سلسلة ، والسلسلة فى خاتم العزّة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى الآية : قال سلطانهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله ( وحاجه قومه ) يقول خاصموه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ( أتحاجونى ) قال أتخاصمونى . وأخرج ابن أبى شيبة والحكيم الترمذى وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى بكر الصديق أنه فسر ولم يلبسوا إيمانهم بظلم بالشرك ، وكذلك أخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب ، وكذلك أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن حذيفة بن اليمان ، وكذلك أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سلمان الفارسى ، وكذلك أخرجا أيضا عن أبىّ بن كعب ، وكذلك أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس . وأخرج عنه من طريق أخرى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ مثله ، وقد روى عن جماعة من التابعين مثل ذلك ، ويغنى عن الجميع ماقدّمنا عن رسول الله ﷺ فى تفسير الآية كما هو ثابت فى الصحيحين وغيرهما . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله تعالى ( وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ) قال خصمهم . وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى قوله ( نرفع درجات من نشاء ) قال بالعلم . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّآءَ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ

VI ٩٤-٩٥



مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ *

قوله (ووهبنا له) معطوف على جملة وتلك حجتنا عطف جملة فعلية على جملة اسمية ، وقيل معطوف على آتيناها ، والأول أولى * والمعنى ووهبنا له ذلك جزاء له على الاحتجاج فى الدين وبذل النفس فيه ، و (كلا هدينا) انتصاب كلا على أنه مفعول لما بعده مقدم عليه للقصر ، أى كل واحد منهما هديناه ، وكذلك نوحا منصوب بهدينا الثانى أو بفعل مضمر يفسره مابعده (ومن ذريته) أى من ذرية ابراهيم ، وقال الفراء من ذرية نوح ، واختاره ابن جرير الطبرى والقشيرى وابن عطية ، واختار الأول الزجاج ، واعترض عليه بأنه عدّ من هذه الذرية يونس ولوطا وما كانا من ذرية ابراهيم فان لوطا هو ابن أخى ابراهيم ، وانتصب (داود وسليمان) بفعل مضمر ، أى وهدينا من ذريته داود وسليمان ، وكذلك مابعدهما ، وانما عدّ الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التى عددها على ابراهيم ، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء * ومعنى من قبل فى قوله (ونوحا هدينا من قبل) أى من قبل ابراهيم ، والاشارة بقوله (وكذلك) الى مصدر الفعل المتأخر : أى ومثل ذلك الجزاء (نجزى المحسنين) والياس . قال الضحاك هو من ولد اسماعيل ، وقال القتيبى هو من سبط يوشع بن نون ، وقرأ الأعرج والحسن وقتادة والياس بوصل الهمزة ، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم واليسع مخففا ، وقرأ الكوفيون الا عاصما بلامين ، وكذا قرأ الكسائى ورد القراءة الأولى ولاوجه للرد فهو اسم أعجمى ، والعجمة لا تؤخذ بالقياس بل تؤدى على حسب السماع ، ولا يمتنع أن يكون فى الاسم لغتان للعجم ، أو تغيره العرب تغييرين . قال المهدوى من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع والألف واللام مزيدتان ، كما فى قول الشاعر :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا * شديدا بأعباء الخلافة كاهله

ومن قرأ بلامين فالاسم ليسع ، وقد توهم قوم أن اليسع هو إلياس ، وهو وهم فان الله أفرد كل واحد منهما ، وقال وهب اليسع صاحب إلياس ، وكانوا قبل يحيى وعيسى وزكريا ، وقيل إلياس هو إدريس ، وهذا غير صحيح لأن إدريس جدّ نوح وإلياس من ذريته ، وقيل إلياس هو الخضر ، وقيل لا بل اليسع هو الخضر (وكلا فضلنا على العالمين) أى كل واحد فضلناه بالنبوة على عالمى زمانه ، والجملة معترضة * قوله (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم) أى هدينا ، ومن للتبعيض ، أى هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وأزواجهم (واجتبيناهم) معطوف على فضلنا ، والاجتباء الاصطفاء ، أو التخليص ، أو الاختيار ، مشتق من جبيت الماء فى الحوض جمعته ، فالاجتباء ضم الذى تجتبيه الى خاصيتك . قال الكسائى جبيت الماء فى الحوض جبى مقصور والجابية الحوض ، قال الشاعر : * كجابية الشيخ العراقى تفهق * والاشارة بقوله (ذلك هدى الله) الى الهداية والتفضيل والاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة (يهدى به) الله (من يشاء من عباده) وهم الذين وفقهم للخير واتباع الحق (ولو أشركوا) أى هؤلاء المذكورون بعبادة غير الله (لحبط عنهم) من حسناتهم (ما كانوا يعملون) والحبوط البطلان . وقد تقدم تحقيقه فى البقرة ، والاشارة بقوله (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) الى الأنبياء المذكورين سابقا ، أى جنس الكتاب ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين (والحكم) العلم (والنبوة) الرسالة أو ماهو أعم من ذلك (فان يكفر بها هؤلاء) الضمير فى بها للحكم

والنبوة

والنبوّة والكتاب ، أو للنبوّة فقط ، والاشارة بهؤلاء الى كفار قريش المعاندين لرسول الله ﷺ (فقد وكلنا بها قوما) هذا جواب الشرط ، أى ألزمنا بالايمان بها قوما (ليسوا بها بكافرين) وهم المهاجرون والأنصار ، أوالأنبياء المذكورون سابقا ، وهذا أولى لقوله فيما بعد (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فان الاشارة الى الأنبياء المذكورين لاالى المهاجرين والأنصار اذ لايصح أن يؤمر النبى ﷺ بالاقتداء بهداهم ، وتقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء ، والاقتداء طلب موافقة الغير فى فعله ، وقيل المعنى : اصبر كما صبروا ، وقيل اقتدهم فى التوحيد ، وان كانت جزئيات الشرائع مختلفة ، وفيها دلالة على أنه ﷺ مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نص * قوله (قل لاأسألكم عليه أجرا) أمره الله بأن يخبرهم بأنه لايسألهم أجرا على القرآن ، وأن يقول لهم ما (هو الا ذكرى) يعنى القرآن (للعالمين) أى موعظة وتذكير للخلق كافة الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب قال : الخال والد والعم والد نسب الله عيسى الى أخواله ، فقال (ومن ذريته) حتى بلغ الى قوله (وزكريا ويحيى وعيسى) . وأخرج أبو الشيخ والحاكم والبيهقى عن عبد الملك بن عمير قال : دخل يحيى بن يعمر على الحجاج فذكر الحسين ، فقال الحجاج لم يكن من ذرية النبى ، فقال يحيى كذبت ، فقال لتأتينى على ماقلت ببينة فتلا : ومن ذريته الى قوله (وعيسى) فأخبر الله أن عيسى من ذرية آدم بأمه ؟ فقال صدقت . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى حرب بن أبى الأسود قال : أرسل الحجاج الى يحيى بن يعمر ، فقال بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى تجده فى كتاب الله ، وقد قرأته من أوله الى آخره فلم أجده فذكر يحيى بن يعمر نحو ماتقدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (واجتبيناهم) قال أخلصناهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) قال : يريد هؤلاء الذين هديناهم وفعلنا بهم . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : الحكم اللب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فان يكفر بها هؤلاء) يعنى أهل مكة ، يقول ان يكفروا بالقرآن (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) يعنى : أهل المدينة والأنصار . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فقد وكلنا بها قوما) قال : هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله فيهم (فبهداهم اقتده) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى رجاء العطاردى قال : فى الآية هم الملائكة . وأخرج البخارى والنسائى وغيرهما عن ابن عباس فى قوله (فبهداهم اقتده) قال : أمر رسول الله ﷺ أن يقتدى بهداهم وكان يسجد فى ص ؛ ولفظ ابن أبى حاتم عن مجاهد سألت ابن عباس عن السجدة التى فى ص ، فقال هذه الآية ؟ وقال أمر نبيكم أن يقتدى بداود عليه السلام . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (قل لاأسألكم عليه أجرا) قال : قل لهم يامحمد لاأسألكم على ماأدعوكم اليه عرضا من عروض الدنيا .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ

صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ
وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا
أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ
مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ
تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ *

قوله (وماقدروا الله حق قدره) قدرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره ، وأصله : الستر ، ثم استعمل فى معرفة الشيء : أى لم يعرفوه حق معرفته حيث أنكروا ارساله للرسل وانزاله للكتب ، وقيل المعنى وماقدروا نعم الله حق تقديرها . وقرأ أبو حيوة (وماقدروا الله حق قدره) بفتح الدال : وهى لغة ، ولما وقع منهم هذا الانكار وهم من اليهود أمر الله نبيه ﷺ أن يورد عليهم حجة لايطيقون دفعها ، فقال (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ) وهم يعترفون بذلك و يذعنون له ، فكان فى هذا من التبكيت لهم والتقريع مالا يقادر قدره مع إلجائهم الى الاعتراف بما أنكروه من وقوع انزال الله على البشر وهم الأنبياء عليهم السلام ، فبطل جحدهم وتبين فساد انكارهم ، وقيل ان القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش فيكون الزامهم بانزال الله الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك و يعلمونه بالاخبار من اليهود ، وقد كانوا يصدقونهم و (نوراوهدى) منتصبان على الحال و (للناس) متعلق بمحذوف هو صفة لهدى : أى كائنا للناس * قوله (تجعلونه قراطيس) أى تجعلون الكتاب الذى جاء به موسى فى قراطيس تضعونه فيها ليتمّ لكم ماتريدونه من التحريف والتبديل وكتم صفة النبى ﷺ المذكورة فيه ، وهذا ذمّ لهم ، والضمير فى (تبدونها) راجع الى القراطيس ، وفى (تجعلونه) راجع الى الكتاب ، وجملة تجعلونه فى محل نصب على الحال ، وجملة تبدونها صفة لقراطيس (وتخفون كثيرا) معطوف على تبدونها : أى وتخفون كثيرا منها ، والخطاب فى (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) لليهود : أى والحال أنكم قد علمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية مقررة لما قبلها ، والذى علموه هو الذى أخبرهم به نبينا محمد ﷺ من الأمور التى أوحى الله اليه بها فانها اشتملت على مالم يعلموه من كتبهم ولا على لسان أنبيائهم ولا علمه آباؤهم ، ويجوز أن يكون مافى مالم تعلموا عبارة عما علموه من التوراة ، فيكون ذلك على وجه المنّ عليهم بانزال التوراة ، وقيل الخطاب للمشركين من قريش وغيرهم ، فتكون ما عبارة عما علموه من رسول الله ﷺ ، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عن ذلك الالزام الذى ألزمهم به حيث قال (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) فقال (قل الله) أى أنزله الله (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أى ذرهم فى باطلهم حال كونهم يلعبون ، أى يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون * قوله (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) هذا من جملة الرد عليهم فى قولهم (ماأنزل الله على بشر من شيء ) أخبرهم بأن الله أنزل التوراة على موسى ، وعقبه بقوله (وهذا كتاب أنزلناه) يعنى على محمد ﷺ فكيف تقولون ( ماأنزل الله على بشر من شيء ) ومبارك ومصدق صفتان لكتاب ، والمبارك كثير البركة ، والمصدق كثير التصديق ، والذى بين يديه ما أنزله الله من الكتب على الأنبياء من قبله كالتوراة والانجيل فانه يوافقها فى الدعوة الى الله والى توحيده وان خالفها فى بعض الأحكام * قوله

(ولتنذر) قيل هو معطوف على مادل عليه مبارك كأنه قيل أنزلناه للبركات ولتنذر ، وخص أم القرى وهى مكة لكونها أعظم القرى شأنا ولكونها أول بيت وضع للناس ولكونها قبلة هذه الأمة ومحل حجهم ، فالانذار لأهلها مستتبع لانذار سائر أهل الأرض ، والمراد بمن حولها جميع أهل الأرض ، والمراد بانذر أم القرى انذار أهلها وأهل سائر الأرض فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية (والذين يؤمنون بالآخرة) مبتدأ و (يؤمنون به) خبره ، والمعنى أن من حق من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب و يصدقه و يعمل بما فيه ، لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس الى ما ينال به خيرها و يندفع به ضرها ، وجملة (وهم على صلاتهم يحافظون) فى محل نصب على الحال ، وخص المحافظة على الصلاة من بين سائر الواجبات لكونها عمادها و بمنزلة الرأس لها * قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) هذه الجملة مقررة لمضمون ماتقدم من الاحتجاج عليهم بأن الله أنزل الكتب على رسله : أى كيف تقولون ماأنزل الله على بشر من شىء ، وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام ، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا فزعم أنه نبىّ ، وليس بنبىّ ، أو كذب على الله فى شىء من الأشياء (أو قال أوحى الىّ ولم يوح اليه شىء) أى والحال أنه لم يوح اليه شىء ، وقد صان الله أنبياءه عما تزعمون عليهم ، وانما هذا شأن الكذابين رءوس الاضلال كمسيلمة الكذاب والأسود العنسى وسجاح * قوله (ومن قال سأنزل مثل ماأنزل الله) معطوف على من افترى أى ومن أظلم ممن افترى أو ممن قال أوحى الىّ ولم يوح اليه شىء أو ممن قال سأنزل مثل ماأنزل الله ، وهم القائلون ــ لو نشاء لقلنا مثل هذا ــ وقيل هو عبدالله بن أبى سرح : فانه كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ فأملى عليه رسول الله ﷺ ــ ثم أنشأناه خلقا آخر ــ فقال عبدالله ــ فتبارك الله أحسن الخالقين ــ فقال رسول الله ﷺ « هكذا أنزلت » فشكّ عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أوحى الىّ كما أوحى اليه ، ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال ؛ ثم ارتدّ عن الاسلام ولحق بالمشركين ، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف * قوله (ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت) الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، والمراد كل ظالم ، و يدخل فيه الجاحدون لما أنزل الله والمدّعون للنبوات افتراء على الله دخولا أوّليا ، وجواب لو محذوف : أى لرأيت أمرا عظيما ، والغمرات جمع غمرة : وهى الشدّة ، وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها ، ومنه غمرة الماء ، ثم استعملت فى الشدائد ، ومنه غمرة الحرب ، قال الجوهرى : والغمرة الشدّة والجمع غمر : مثل نوبة ونوب ، وجملة (والملائكة باسطوا أيديهم) فى محل نصب : أى والحال أن الملائكة باسطوا أيديهم لقبض أرواح الكفار ، وقيل للعذاب وفى أيديهم مطارق الحديد ، ومثله قوله تعالى ــ ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ــ * قوله (أخرجوا أنفسكم) أى قائلين لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التى وقعتم فيها ، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب ، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وسلموها الينا لنقبضها (اليوم تجزون عذاب الهون) أى اليوم الذى تقبض فيه أرواحكم ، أو أرادوا باليوم الوقت الذى يعذبون فيه الذى مبدؤه عذاب القبر ، والهون والهوان بمعنى : أى اليوم تجزون عذاب الهوان الذى تصيرون به فى اهانة وذلة بعد ما كنتم فيه من التكبر والتعاظم ، والباء فى (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) للسببية ، أى بسبب قولكم هذا من انكار انزال الله كتبه على رسله والاشراك به (وكنتم عن آياته تستكبرون) عن التصديق لها والعمل بها فكان ماجوزيتم به من عذاب الهون ــ جزاء وفاقا ــ * قوله (ولقد جئتمونا فرادى) قرأ أبو حيوة فرادى بالتنوين ، وهى لغة تميم ، وقرأ الباقون بألف التأنيث للجمع فلم ينصرف ، وحكى ثعلب فراد بلا تنوين مثل : ثلاث ورباع ، وفرادى جمع فرد كسكارى جمع سكران وكسالى جمع كسلان ، والمعنى جئتمونا منفردين واحدا واحدا كل واحد منفرد عن

أهله وماله وما كان يعبده من دون الله فلم ينتفع بشيء من ذلك (كما خلقناكم أوّل مرة) أى على الصفة التى كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم ، والكاف نعت مصدر محذوف : أى جئتمونا مجيئا مثل مجيئكم عند خلقنا لكم ، أوحال من ضمير فرادى ، أى مشابهين ابتداء خلقنا لكم (وتركتم ماخوّلناكم وراء ظهوركم) أى أعطيناكم ، والخول ماأعطاه الله للانسان من متاع الدنيا ، أى تركتم ذلك خلفكم لم تأتونا بشيء منه ولاانتفعتم به بوجه من الوجوه (ومانرى معكم شفعاءكم الذين) عبدتموهم وقلتم - مانعبدهم إلاليقربونا الى الله زلفى - و(زعمتم أنهم فيكم شركاء) لله يستحقون منكم العبادة كما يستحقها * قوله (لقد تقطع بينكم) . قرأ نافع والكسائى وحفص بنصب بينكم على الظرفية ، وفاعل تقطع محذوف ، أى تقطع الوصل بينكم أنتم وشركاؤكم كما يدل عليه (ومانرى معكم شفعاءكم) . وقرأ الباقون بالرفع على اسناد التقطع الى البين : أى وقع التقطع بينكم ، ويجوز أن يكون معنى قراءة النصب معنى قراءة الرفع فى اسناد الفعل الى الظرف ، وانما نصب لكثرة استعماله ظرفا . وقرأ ابن مسعود لقد تقطع مابينكم على اسناد الفعل الى ما : أى الذى بينكم (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) من الشركاء والشرك ، وحيل بينكم و بينهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وماقدروا الله حق قدره) قال هم الكفار لم يؤمنوا بقدرة الله فمن آمن أن الله على كل شيء قدير قد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . قالت اليهود يامحمد أنزل الله عليك كتابا . قال : نعم ، قالوا والله ماأنزل الله من السماء كتابا ، فأنزل الله (قل) يامحمد (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) الى آخر الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) قالها مشركو قريش . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى قال : قال فنحاص اليهودى ماأنزل الله على محمد من شيء فنزلت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال نزلت فى مالك بن الصيف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ وكان حبرا سمينا فغضب . وقال والله ماأنزل الله على بشر من شيء ، فقال له أصحابه ويحك ولاعلى موسى . قال ماأنزل الله على بشر من شيء ، فنزلت . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (تجعلونه قراطيس) قال اليهود ، وقوله (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولاآباؤكم) قال هذه للمسلمين . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وعلمتم مالم تعلموا) قال هم اليهود آتاهم الله علما فلم يقتدوا به ولم يأخذوا به ولم يعملوا به فذمهم الله فى عملهم ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) قال هو القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ . وأخرج عبد بن حميد عنه قال (مصدّق الذى بين يديه) أى من الكتب التى قد خلت قبله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (ولتنذر أمّ القرى) قال مكة ومن حولها . قال يعنى ماحولها من القرى الى المشرق والمغرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : انما سميت أمّ القرى ، لأن أوّل بيت وضعت بها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (ولتنذر أمّ القرى) قال : هى مكة ، قال : و بلغنى أن الأرض دحيت من مكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار نحوه . وأخرج الحاكم فى المستدرك عن شرحبيل بن سعد قال : نزلت فى عبدالله بن أبى سرح (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلىّ ولم يوح اليه شيء) الآية ، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة فرّ الى عثمان أخيه من الرضاعة فغيبه

عنده

عنده حتى اطمأنّ أهل مكة ، ثم استأمن له . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي خلف الأعمى أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح ، وكذلك روى ابن أبي حاتم عن السدّى . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جريج في قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوقال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شيء) قال نزلت في مسيلمة الكذاب ونحوه ممن دعا الى مثل مادعا اليه (ومن قال سأنزل مثل ماأنزل الله) قال نزلت في عبدالله بن سعد ابن أبي سرح . وأخرج ابن جرير وأبوالشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرج عبدبن حميد عن عكرمة لما نزلت ــ والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا ــ قال : النضروهومن بني عبدالدار : والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا قولا كثيرا ، فأنزل الله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس في قوله (غمرات الموت) قال : سكرات الموت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال في قوله (والملائكة باسطوا أيديهم) هذا عند الموت ، والبسط : الضرب ــ يضربون وجوههم وأدبارهم ــ . وأخرج أبوالشيخ عنه قال : في الآية هذا ملك الموت عليه السلام . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله (والملائكة باسطوا أيديهم) قال : بالعذاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (عذاب الهون) قال : الهوان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : قال النضر بن الحارث سوف تشفع لي اللات والعزى ، فنزلت (ولقد جئتمونا فرادى) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن سعيد بن جبير في قوله (ولقد جئتمونا فرادى) الآية قال : كيوم ولد يردّ عليه كل شيء نقص منه يوم ولد . وأخرج ابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن السدّى في قوله (وتركتم ماخوّلناكم) قال : من المال والخدم (وراء ظهوركم) قال : في الدنيا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبوالشيخ عن قتادة في قوله (لقد تقطع بينكم) قال ما كان بينهم من الوصل . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد في قوله (لقد تقطع بينكم) قال : تواصلكم في الدنيا :

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *

قوله (ان الله فالق الحب والنوى) هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى وذكر مايعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه ، والفلق الشق : أي هو سبحانه فالق الحب فيخرج منه النبات ، وفالق النوى فيخرج منه الشجر ، وقيل معنى (فالق الحب والنوى) الشق الذى فيهما من أصل الخلقة ، وقيل معنى (فالق) خالق * والنوى : جمع نواة يطلق على كل مافيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ * قوله (يخرج الحيّ من الميت) هذه الجملة خبر بعد خبر فهي في محل رفع ، وقيل هي جملة مفسرة لما قبلها ، لأن معناها معناه ، والأول أولى فان معنى (يخرج

الحىّ من الميت) يخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة وهى ميتة * ومعنى (ومخرج الميت من الحىّ) مخرج النطفة والبيضة وهى ميتة من الحىّ ، وجملة (ومخرج الميت من الحىّ) معطوفة على (يخرج الحىّ من الميت) عطف جملة اسمية على جملة فعلية ولا ضير فى ذلك ، وقيل معطوفة على (فالق) على تقدير أن جملة (يخرج الحىّ من الميت) مفسرة لما قبلها ، والأوّل أولى ، والاشارة بـ(ذلكم) إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقاو(الله) خبره * والمعنى أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكل كمال والمفضل بكل إفضال ، والمستحق لكل حمد وإجلال (فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عن الحق مع ماترون من بديع صنعه وكمال قدرته * قوله (فالق الاصباح) مرتفع على أنه من جملة أخبار إنّ فى (إن الله فالق الحب والنوى) ، وقيل هو نعت للاسم الشريف فى (ذلكم الله) ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر (فالق الأصباح) بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بكسرها ، وهو على قراءة الفتح جمع صبح ، وعلى قراءة الكسر مصدر أصبح ، والصبح والصباح : أوّل النهار ، وكذا الاصباح ، وقرأ النخعى (فلق الاصباح) بفعل وهمزة مكسورة * والمعنى فى (فالق الاصباح) أنه شاق الضياء عن الظلام وكاشفه ، أو يكون المعنى على حذف مضاف : أى فالق ظلمة الاصباح ، وهى الغبش ، أو فالق عمود الفجر عن بياض النهار ، لأنه يبدو مختلطا بالظلمة ثم يصير أبيض خالصا ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وعاصم وحمزة والكسائى (وجعل الليل سكنا) حملا على معنى (فالق) عند حمزة والكسائى ، وأما عند الحسن وعيسى فعطفا على فلق ، وقرأ الجمهور وجاعل عطفا على فالق ، وقرئ فالق وجاعل بنصبهما على المدح ، وقرأ يعقوب وجاعل الليل ساكنا * والسكن : محل السكون ، من سكن إليه : إذا اطمأنّ إليه ، لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة فى معاشهم و يستريحون من التعب والنصب * قوله (والشمس والقمر حسبانا) بالنصب على إضمار فعل : أى وجعل الشمس والقمر ، و بالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر مجعولان حسبانا و بالجر عطفا على الليل على قراءة من قرأ وجاعل الليل . قال الأخفش ، والحسبان : جمع حساب مثل شهبان وشهاب . وقال يعقوب حسبان مصدر حسبت الشىء أحسبه حسبا وحسبانا * والحساب : الاسم ، وقيل الحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح * والحسبان بالكسر مصدر حسب * والمعنى : جعلهما محل حساب تتعلق به مصالح العباد وسيرهما على تقدير لايزيد ولا ينقص ليدلّ عباده بذلك على عظيم قدرته و بديع صنعه ، وقيل الحسبان : الضياء ، وفى لغة ان الحسبان : النار ، ومنه قوله تعالى ــ و يرسل عليها حسبانا من السماء ــ والاشارة بـ(ذلك تقدير العزيز العليم) إلى الجعل المدلول عليه بجاعل أو بجعل على القراءتين * والعزيز : القاهر الغالب * والعليم : كثير العلم ، ومن جملة معلوماته تسييرهما على هذا التدبير المحكم * قوله (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها) أى خلقها للاهتداء بها (فى ظلمات) الليل عند المسير فى (البرّ والبحر) وإضافة الظلمات إلى البرّ والبحر لكونها ملابسة لهما ، أو المراد بالظلمات : اشتباه طرقهما التى لايهتدى فيها إلا بالنجوم ، وهذه إحدى منافع النجوم التى خلقها الله لها ، ومنها ماذكره الله فى قوله ــ وحفظا من كل شيطان مارد ــ * وجعلناها رجوما للشياطين ــ ، ومنها جعلها زينة للسماء ، ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية (قد فصلنا الآيات) أى بيناها بيانا مفصلا لتكون أبلغ فى الاعتبار (لقوم يعلمون) بما فى هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته و بديع حكمته * قوله (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) أى آدم عليه السلام كما تقدّم ، وهذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته (فمستقرّ ومستودع) قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعى بكسر القاف والباقون بفتحها ، وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن وخبرهما محذوف ، والتقدير فمنكم مستقرّ أو فلكم

مستقرّ ، التقدير الأوّل على القراءة الأولى ، والثانى على الثانية : أى فمنكم مستقرّ على ظهر الأرض ، أو فلكم مستقرّ على ظهرها ، ومنكم مستودع فى الرحم أو فى باطن الأرض أو فى الصلب ، وقيل المستقرّ فى الرحم ، والمستودع فى الأرض ، وقيل المستقرّ فى القبر . قال القرطبى وأكثر أهل التفسير يقولون المستقرّ ما كان فى الرحم ، والمستودع ما كان فى الصلب ، وقيل المستقرّ من خلق ، والمستودع من لم يخلق ، وقيل الاستيداع اشارة الى كونهم فى القبور الى المبعث .

ومما يدلّ على تفسير المستقر بالكون على الأرض قول الله تعالى — ولكم فى الأرض مستقرّ ومتاع الى حين — ، وذكر سبحانه هاهنا (يفقهون) وفيما قبله (يعلمون) لأن فى إنشاء الأنفس من نفس واحدة وجعل بعضها مستقرا و بعضها مستودعا من الغموض والدقة ماليس فى خلق النجوم للاهتداء فناسبه ذكر الفقه لاشعاره بمزيد تدقيق و إمعان فكر * قوله (وهو الذى أنزل من السماء ماء) هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته * والماء هو ماء المطر ، وفى (فأخرجنا به) التفات من الغيبة الى التكلم إظهارا للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه ، والضمير فى (به) عائد الى الماء ، و (نبات كل شىء) يعنى كل صنف من أصناف النبات المختلفة ، وقيل المعنى رزق كل شىء ، والتفسير الأوّل أولى ، ثم فصل هذا الاجمال فقال (فأخرجنا منه خضرا) قال الأخفش أى أخضر * والخضر : رطب البقول ، وهو ماينشعب من الأغصان الخارجة من الحبة ، وقيل يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب (نخرج منه حبا) هذه الجملة صفة لخضرا : أى نخرج من الأغصان الخضر حبا متراكبا : أى مركبا بعضه على بعضه كما فى السنابل (ومن النخل) خبر مقدّم ، و (من طلعها) بدل منه ، وعلى قراءة من قرأ يخرج منه حب يكون ارتفاع قنوان على أنه معطوف على حب ، وأجاز الفراء فى غير القرآن قنوانا عطفا على حبا ، وتميم يقولون قنيان ، وقرىء بضم القاف وفتحها باعتبار اختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز * والطلع : الكفرى قبل أن ينشق عن الاغريض ، والاغريض يسمى طلعا أيضا * والقنوان : جمع قنو ، والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثنى مكسور النون ، والجمع على مايقتضيه الاعراب ، ومثله صنوان * والقنو : العذق * والمعنى أن القنوان أصله من الطلع * والعذق هو عنقود النخل ، وقيل القنوان : الجمار * والدانية : القريبة التى ينالها القائم والقاعد . قال الزجاج المعنى منهادانية ومنها بعيدة فحذف ، ومثله — سرابيل تقيكم الحرّ — وخصّ الدانية بالذكر ، لأن الغرض من الآية بيان القدرة والامتنان ، وذلك فيما يقرب تناوله أكثر * قوله (وجنات من أعناب) قرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى والأعمش وعاصم فى قراءته الصحيحة عنه برفع جنات ، وقرأ الباقون بالنصب ، وأنكر القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم حتى قال أبو حاتم هى محال ، لأن الجنات لاتكون من النخل . قال النحاس ليس تأويل الرفع على هذا ولكنه رفع بالابتداء ، والخبر محذوف : أى ولهم جنات كما قرأ جماعة من القراء — وحور عين — . وقد أجاز مثل هذا سيبويه والكسائى والفراء ، وأما على النصب فقيل هو معطوف على (نبات كل شىء) أى وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب ، أو النصب بفعل يقدّر متأخرا : أى وجنات من أعناب أخرجناها ، وهكذا القول فى انتصاب الزيتون والرمان ، وقيل هما منصوبان على الاختصاص لكونهما عزيزين ، و (مشتبها) منتصب على الحال : أى كل واحدا منهما يشبه بعضه بعضا فى بعض أوصافه ولا يشبه بعضه بعضا فى البعض الآخر ، وقيل ان أحدهما يشبه الآخر فى الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن و باعتبار حجمه ، ولايشبه أحدهما الآخر فى الطعم ، وقيل خصّ الزيتون والرمان لقرب منابتهما من العرب كما فى قول الله سبحانه — أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت — ، ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار الى ثمره اذا أثمر والى ينعه

اذا أينع ، والثمر فى اللغة : جنى الشجر ، واليانع : الناضج الذى قد أدرك وحان قطافه . قال ابن الأنبارى الينع جمع يانع ، كركب وراكب . وقال الفراء أينع : احمرّ ، قرأ حمزة والكسائى ثمره بضم الثاء والميم ، وقرأ الباقون بفتحها الا الأعمش فانه قرأ ثمره بضم الثاء وسكون الميم تخفيفا ، وقرأ محمد بن السميقع وابن محيصن وابن أبى اسحاق وينعه بضم الياء التحتية . قال الفراء هى لغة بعض أهل نجد ، وقرأ الباقون بفتحها ، والاشارة بقوله ( ان فى ذلكم ) الى ماتقدم ذكره مجملا ومفصلا ( لآيات لقوم يؤمنون ) بالله استدلالا بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التى قصها عليهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى ( ان الله فالق الحب والنوى ) يقول خلق الحب والنوى . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : يفلق الحبّ والنوى عن النبات . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال الشقان اللذان فيهما . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى مالك نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله ( يخرج الحىّ من الميت ) قال النخلة من النواة والسنبلة من الحبة ( ومخرج الميت من الحىّ ) قال النواة من النخلة والحبة من السنبلة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ( يخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحىّ ) قال الناس الأحياء من النطف ، والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء ، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ( فأنى تؤفكون ) أى فكيف تكذبون . وأخرج أيضا عن الحسن قال أنى تصرفون . وأخرج أيضا عن ابن عباس فى ( فالق الاصباح ) قال خلق الليل والنهار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال يعنى بالاصباح ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى ( فالق الاصباح ) قال إضاءة الفجر . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (فالق الاصباح ) قال فالق الصبح . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وجاعل الليل سكنا ) قال سكن فيه كل طير ودابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (والشمس والقمر حسبانا ) يعنى عدد الأيام والشهور والسنين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر) قال يضلّ الرجل وهو فى الظلمة والجور عن الطريق . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر والخطيب فى كتاب النجوم عن عمر ابن الخطاب قال : تعلموا من النجوم ماتهتدون به فى برّكم وبحركم ثم أمسكوا فانها والله ماخلقت إلا زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن مردويه والخطيب عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « تعلموا من النجوم ماتهتدون به فى ظلمات البرّ والبحر ثم انتهو » .

وقد ورد فى استحباب مراعاة الشمس والقمر لذكر الله سبحانه لالغير ذلك أحاديث ، منها عند الحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أحبّ عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر لذكر الله » . وأخرج ابن شاهين والطبرانى والحاكم والخطيب عن عبد الله بن أبى أوفى قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه . وأخرج أحمد فى الزهد والخطيب عن أبى الدرداء نحوه . وأخرج الخطيب فى كتاب النجوم عن أبى هريرة نحو حديثه الأوّل مرفوعا . وأخرج الحاكم فى تاريخه والديلمى بسند ضعيف عن أبى هريرة أيضا قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل الا ظله : التاجر الأمين ، والامام المقتصد ، وراعى الشمس بالنهار » . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن

سلمان الفارسى قال سبعة فى ظل الله يوم لاظل الا ظله فذكر منهم الرجل الذى يراعى الشمس لمواقيت الصلاة ، فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر الله والصلاة لالغير ذلك . وقد جعل الله اقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس ، وأول صلاة الظهر زوالها ، ووقت العصر مادامت الشمس بيضاء نقية ، ووقت المغرب غروب الشمس ، وورد فى صلاة العشاء أن النبى ﷺ كان يصليها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر ، وبها يعرف أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها ، فمن راعى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذى أراده ﷺ ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد ، وهكذا النجوم ، ورد النهى عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه والخطيب عن على قال : نهانى رسول الله ﷺ عن النظر فى النجوم . وأخرج ابن مردويه والمرهبى والخطيب عن أبى هريرة قال : نهى رسول الله ﷺ عن النظر فى النجوم . وأخرج الخطيب عن عائشة مرفوعا مثله . وأخرج الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية والخطيب عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ « اذا ذكر أصحابى فأمسكوا ، واذا ذكر القدر فأمسكوا ، واذا ذكرت النجوم فأمسكوا » . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ « من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد مازاد » ، فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكر والاعتبار ، وما ورد فى جواز النظر فى النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكر والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق ، وعليه يحمل ماروى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه أنه سأل رجلا عن حساب النجوم فجعل الرجل يتحرج أن يخبره ، فقال عكرمة سمعت ابن عباس يقول : علم عجز الناس عنه وددت أنى علمته . وقد أخرج أبو داود والخطيب عن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثا عن رسول الله ﷺ أنه قال « أما بعد فان ناسا يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض ، وانهم قد كذبوا ، ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر مايحدث لهم من توبة . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما فى كسوف الشمس والقمر عن النبى ﷺ أنهما لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بهما عباده . وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة مرفوعا « ان الله نصب آدم بين يديه ، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت ذريته من صلبه حتى ملئوا الأرض ، فهذا الحديث هو معنى مافى الآية ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله ( فمستقر ومستودع ) قال : المستقر ما كان فى الرحم ، والمستودع مااستودع فى أصلاب الرجال والدواب ، وفى لفظ المستقر مافى الرحم وعلى ظهر الأرض و بطنها مما هو حى ومما قد مات ، وفى لفظ المستقر ما كان فى الأرض والمستودع ما كان فى الصلب . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى الآية : قال مستقرها فى الدنيا ومستودعها فى الآخرة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : المستقر الرحم ، والمستودع المكان الذى يموت فيه . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن وقتادة فى الآية : قالا مستقر فى القبر ، ومستودع فى الدنيا أوشك أن يلحق بصاحبه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله ( نخرج منه حبا متراكبا ) قال : هذا السنبل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن البراء ابن عازب ( قنوان دانية ) قال قريبة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ( قنوان دانية ) قال : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قنوان الكبائس ، والدانية المنصوبة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى ( قنوان دانية ) قال : تهدل العذوق من الطلع .

XI 150-152



وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (مشتبها وغير متشابه) قال : متشابها ورقه مختلفا ثمره . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله (انظروا إلى ثمره إذا أثمر) قال : رطبه وعنبه . وأخرج أبوعبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن البراء (وينعه) قال نضجه .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ * لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ *

هذا الكلام يتضمن ذكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم . قال النحاس : الجن المفعول الأول ، وشركاء المفعول الثانى كقوله تعالى ــ وجعلكم ملوكا ــ وجعلت له مالا ممدودا ــ وأجاز الفراء : أن يكون الجن بدلا من شركاء ومفسرا له ، وأجاز الكسائى رفع الجن : بمعنى هم الجن ، كأنه قيل من هم ؟ فقيل الجن وبالرفع قرأ يزيد بن أبى قطيب وأبو حيان ، وقرئ بالجر على إضافة شركاء الى الجن للبيان * والمعنى أنهم جعلوا شركاء لله فعبدوهم كما عبدوه ، وعظموهم كما عظموه ، وقيل المراد بالجن هاهنا الملائكة لاجتنانهم ، أى استتارهم ، وهم الذين قالوا الملائكة بنات الله ، وقيل نزلت فى الزنادقة الذين قالوا ان الله تعالى وابليس أخوان ، فالله خالق الناس والدواب ، وابليس خالق الحيات والسباع والعقارب ، روى ذلك عن الكلبى ، ويقرب من هذا قول المجوس ، فانهم قالوا للعالم صانعان هما الرب سبحانه والشيطان ، وهكذا القائلون كل خير من النور وكل شر من الظلمة وهم المانوية * قوله (وخلقهم) جملة حالية بتقدير قد : أى وقد علموا أن الله خلقهم ، أو خلق ما جعلوه شريكا لله * قوله (وخرقوا له بنين و بنات) قرأ نافع بالتشديد على التكثير ، لأن المشركين ادّعوا أن الملائكة بنات الله ، والنصارى ادّعوا أن المسيح ابن الله ، واليهود ادّعوا أن عزيرا ابن الله ، فكثر ذلك من كفرهم فشدّد الفعل لمطابقة المعنى . وقرأ الباقون بالتخفيف ، وقرئ (حرفوا) من التحريف : أى زوّروا . قال أهل اللغة : معنى خرقوا اختلقوا وافتعلوا وكذبوا ، يقال اختلق الافك واخترقه وخرقه ، أو أصله من خرق الثوب : اذا شقه : أى اشتقوا له بنين و بنات * قوله (بغير علم) متعلق بمحذوف هو حال ، أى كائنين بغير علم ، بل قالوا ذلك عن جهل خالص ، ثم بعد حكاية هذا الضلال البين والبهت الفظيع من جعل الجن شركاء لله ، واثبات بنين و بنات له نزه الله نفسه ، فقال (سبحانه وتعالى عما يصفون) وقد تقدّم الكلام فى معنى سبحانه * ومعنى تعالى تباعد وارتفع عن قولهم الباطل الذى وصفوه به * قوله (بديع السموات والأرض) أى مبدعهما ، فكيف يجوز أن (يكون له ولد) وقد جاء البديع : بمعنى المبدع كالسميع بمعنى المسمع كثيرا ، ومنه قول عمرو بن معدى كرب :

أمن ريحانة الداعى السميع * يؤرقنى وأصحابى هجوع اهـ

أى المسمع ، وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة الى الفاعل ، والأصل بديع سمواته وأرضه ، وأجاز الكسائى خفضه على النعت لله * والظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف ، أو على انه مبتدأ وخبره (أنى يكون له ولد) وقيل هو مرفوع على أنه فاعل تعالى ، وقرئ بالنصب على المدح ، والاستفهام فى (أنى يكون له ولد) للانكار والاستبعاد : أى من كان هذا وصفه ، وهو أنه خالق السموات والأرض وما فيهما كيف يكون له ولد ؟ وهو من جملة مخلوقاته ، وكيف يتخذ ما يخلقه ولدا ، ثم بالغ فى نفى الولد ، فقال (ولم

تكن

تكن له صاحبة) أى كيف يكون له ولد ، والحال أنه لم تكن له صاحبة ، والصاحبة اذا لم توجد استحال وجود الولد ، وجملة (وخلق كل شيء) لتقرير ماقبلها لأن من كان خالقا لكل شيء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولدا (وهو بكل شيء عليم) لاتخفى عليه من مخلوقاته خافية ، والاشارة بقوله (ذلكم) الى الأوصاف السابقة ، وهو فى موضع رفع على الابتداء وما بعده خبره ، وهو الاسم الشريف ، و (ربكم) خبر ثان ، و (لاإله إلاهو) خبر ثالث ، و (خالق كل شيء) خبر رابع ، ويجوز أن يكون (الله ربكم) بدلا من اسم الاشارة ، وكذلك (لاإله إلا هو خالق كل شيء) خبر المبتدأ ، ويجوز ارتفاع خالق على إضمار مبتدأ وأجاز الكسائى والفراء النصب فيه (فاعبدوه) أى من كانت هذه صفاته ، فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء * قوله (لاتدركه الأبصار) * الأبصار : جمع بصر ، وهو الحاسة ، وادراك الشيء عبارة عن الاحاطة به . قال الزجاج : أى لاتبلغ كنه حقيقته ، فالمنفىّ هو هذا الادراك لامجرّد الرؤية . فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لاشك فيه ولا شبهة ، ولايجهله الامن يجهل السنة المطهرة جهلا عظيما ، وأيضا قد تقرّر فى علم البيان والميزان أن رفع الايجاب الكلى سلب جزئى ، فالمعنى لاتدركه بعض الأبصار ، وهى أبصار الكفار هذا على تسليم أن نفى الادراك يستلزم نفى الرؤية ، فالمراد به هذه الرؤية الخاصة ، والآية من سلب العموم لامن عموم السلب ، والأول تخلفه الجزئية ، والتقدير لاتدركه كل الأبصار بل بعضها ، وهى أبصار المؤمنين : والمصير الى أحد الوجهين متعين لما عرّفناك من تواتر الرؤية فى الآخرة ، واعتضادها بقوله تعالى ــ وجوه يومئذ ناضرة ــ الآية * قوله (وهو يدرك الأبصار) أى يحيط بها ويبلغ كنهها لاتخفى عليه منها خافية ، وخصّ الأبصار ليجانس ماقبله ، وقال الزجاج : فى هذا دليل على أن الخلق لايدركون الأبصار : أى لايعرفون كيفية حقيقة البصر وما الشيء الذى صار به الانسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه انتهى (وهو اللطيف) أى الرفيق بعباده : يقال لطف فلان بفلان : أى رفق به ، واللطف فى العمل الرفق فيه ، واللطف من الله التوفيق والعصمة وألطفه بكذا : اذا أبرّه * والملاطفة : المبارّة ، هكذا قال الجوهرى وابن فارس ، و (الخبير) المختبر بكل شيء بحيث لايخفى عليه شيء .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم) قال والله خلقهم (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال تخرّصوا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (وخرقوا) قال جعلوا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال كذبوا . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والعقيلى وابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه بسند ضعيف عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ فى قوله (لاتدركه الأبصار) قال لو أن الانس والجنّ والملائكة والشياطين منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفا واحدا ماأحاطوا بالله أبدا . قال الذهبى هذا حديث منكر انتهى . وفى إسناده عطية العوفى وهو ضعيف . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال رأى محمد ربه . قال عكرمة فقلت له أليس الله يقول (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال لا أمّ لك ذاك نوره اذا تجلى بنوره لايدركه شيء ، وفى لفظ « انما ذلك اذا تجلى بكيفيته لم يقم له بصر » . وأخرج ابن جرير عنه قال لايحيط بصر أحد بالله . وأخرج أبو الشيخ والبيهقى فى كتاب الرؤية عن الحسن فى قوله (لاتدركه الأبصار) قال فى الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن اسماعيل بن علية مثله .

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

البصائر جمع بصيرة ، وهى فى الأصل : نور القلب ، والمراد بها هنا الحجة البينة والبرهان الواضح ، وهذا الكلام وارد على لسان رسول الله ﷺ ، ولهذا قال فى آخره (وما أنا عليكم بحفيظ) ووصف البصائر بالمجيء تفخيما لشأنها وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه كما يقال جاءت العافية ، وانصرف المرض ، وأقبلت السعود ، وأدبرت النحوس (فمن أبصر فلنفسه) أى فمن تعقل الحجة وعرفها وأذعن لها فنفع ذلك لنفسه لأنه ينجو بهذا الابصار من عذاب النار (ومن عمى) عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذعن لها فضرر ذلك على نفسه لأنه يتعرض لغضب الله فى الدنيا ويكون مصيره النار (وما أنا عليكم بحفيظ) برقيب أحصى عليكم أعمالكم ، وانما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى وهو الحفيظ عليكم . قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان (وكذلك نصرّف الآيات) أى مثل ذلك التصريف البديع نصرفها فى الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه * قوله (وليقولوا درست) العطف على محذوف : أى نصرّف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست ، أو علة لفعل محذوف يقدّر متأخرا : أى وليقولوا درست صرفناها ، وعلى هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة * والمعنى : ومثل ذلك التصريف نصرّف الآيات وليقولوا درست فانه لا احتفال بقولهم ولا اعتداد بهم فيكون معناه الوعيد والتهديد لهم وعدم الاكتراث بقولهم . وقد أشار الى مثل هذا الزجاج . وقال النحاس وفى المعنى قول آخر حسن ، وهو أن يكون معنى (نصرّف الآيات) نأتى بها آية بعد آية (ليقولوا درست) علينا فيذكرون الأوّل بالآخر ، فهذا حقيقته ، والذى قاله أبو اسحاق : يعنى الزجاج مجاز ، وفى (درست) قراءات ، قرأ أبو عمرو وابن كثير دارست بألف بين الدال والراء كفاعلت ، وهى قراءة علىّ وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وأهل مكة ، وقرأ ابن عامر درست بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف كخرجت ، وهى قراءة الحسن ، وقرأ الباقون درست كضربت ، فعلى القراءة الأولى المعنى : دارست أهل الكتاب ودارسوك : أى ذاكرتهم وذاكروك ، ويدلّ على هذا ما وقع فى الكتاب العزيز من إخبار الله عنهم بقوله ـ وأعانه عليه قوم آخرون ـ أى أعان اليهود النبى ﷺ على القرآن ، ومثله قولهم ـ أساطير الأوّلين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ـ ، وقولهم ـ إنما يعلمه بشر ـ * والمعنى على القراءة الثانية : قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت ، وهو كقولهم ـ أساطير الأوّلين ـ * والمعنى على القراءة الثالثة مثل المعنى على القراءة الأولى . قال الأخفش هى بمعنى دارست الا أنه أبلغ ، وحكى عن المبرد أنه قرأ (وليقولوا) باسكان اللام فيكون فيه معنى التهديد : أى وليقولوا ماشاءوا فان الحق بين ، وهذا اللفظ أصله درس يدرس دراسة فهو من الدرس وهو القراءة ، وقيل من درسته : أى ذللته بكثرة القراءة ، وأصله درس الطعام : أى داسه * والدياس : الدراس بلغة أهل الشام ، وقيل أصله من درست الثوب أدرسه درسا : أى أخلقته ، ودرست المرأة درسا : أى حاضت ،

ويقال

ويقال ان فرج المرأة يكنى أبادراس وهو من الحيض ، والدرس أيضا : الطريق الخفى ، وحكى الأصمعى : بعير لم يدرس : أى لم يركب * وروى عن ابن عباس وأصحابه وأبى ّ وابن مسعود والأعمش أنهم قرءوا درس أى درس محمد الآيات ، وقرئ درست ، وبه قرأ زيد بن ثابت : أى الآيات على البناء للمفعول ، ودارست أى دارست اليهود محمدا ، واللام فى (لنبينه) لام كى : أى نصرّف الآيات لكى نبينه لقوم يعلمون ، والضمير راجع الى الآيات لأنها فى معنى القرآن ، أو الى القرآن وان لم يجر له ذكر ، لأنه معلوم من السياق أو الى التبيين المدلول عليه بالفعل * قوله (اتبع ماأوحى اليك من ربك) أمره الله باتباع ماأوحى إليه وأن لايشغل خاطره بهم ، بل يشتغل باتباع ماأمره الله ، وجملة (لا إله الا هو) معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لقصد تأكيد ايجاب الاتباع (وأعرض) معطوف على (اتبع) أمره الله بالاعراض عن المشركين بعد أمره باتباع ماأوحى اليه ، وهذا قبل نزول آية السيف (ولو شاء الله ماأشركوا) أى لو شاء الله عدم إشراكهم ماأشركوا ، وفيه أن الشرك بمشيئة الله سبحانه ، والكلام فى تقرير هذا على الوجه الذى يتعارف به أهل علم الكلام والميزان معروف فلا نطيل بإيراده (وما جعلناك عليهم حفيظا) أى رقيبا (وما أنت عليهم بوكيل) أى قيم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم ، ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة * قوله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) الموصول عبارة عن الآلهة التى كانت تعبدها الكفار * والمعنى : لاتسبّ يامحمد آلهة هؤلاء الكفار التى يدعونها من دون الله فيتسبب عن ذلك سبهم لله عدوانا وتجاوزا عن الحق ، وجهلا منهم .

وفى هذه الآية دليل على أن الداعى الى الحق والناهى عن الباطل اذا خشى أن يتسبب عن ذلك ماهو أشدّ منه من انتهاك حرم ، ومخالفة حق ، ووقوع فى باطل أشدّ كان الترك أولى به ، بل كان واجبا عليه ، وما أنفع هذه الآية وأجلّ فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله المتصدين لبيانها للناس اذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه وتركوا غيره من المعروف ، واذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات عنادا للحق وبغضا لاتباع المحقين وجراءة على الله سبحانه ، فان هؤلاء لايؤثر فيهم الا السيف : وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهجيراه كما يشاهد ذلك فى أهل البدع الذين اذا دعوا الى حق وقعوا فى كثير من الباطل ، واذا أرشدوا الى السنة قابلوها بما لديهم من البدعة ، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع : وهم شرّ من الزنادقة ، لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون الى البدع ويتظهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين ، والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الاسلام وتحاماهم أهله ، وقد ينفق كيدهم ويتمّ باطلهم وكفرهم نادرا على ضعيف من ضعفاء المسلمين مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل ، وقد ذهب جمهور أهل العلم الى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة : وهى أصل أصيل فى سدّ الذرائع وقطع التطرق الى الشبه . وقرأ أهل مكة عدوّا بضم العين والدال وتشديد الواو ، وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وقتادة . وقرأ من عداهم بفتح العين وضم (١) الدال وتشديد الواو ، ومعنى القراءتين واحد : أى ظلما وعدوانا ، وهو منتصب على الحال ، أو على المصدر أو على أنه مفعول له (كذلك زينا لكل أمة عملهم) أى مثل ذلك التزيين زينا لكل أمة من أمم الكفار عملهم من الخير والشر — يضل من يشاء ويهدى من يشاء — (ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) فى الدنيا من المعاصى التى لم ينتهوا عنها ولاقبلوا من المرسلين ماأرسلهم الله به اليهم وماتضمنته كتبه المنزلة عليهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (قد جاءكم بصائر) أى بينة (فمن أبصر فلنفسه) أى فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه (ومن عمى) أى من ضلّ (فعليها) . وأخرج

This reading عَدْوًا is given by Zam. from Ibn Mas'ud.

---

(١) صوابه وسكون الدال وتخفيف الواو اه مصحح القرآن

سعيد بن منصور وعبد بن حيد وابن المنذر وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس أنه كان يقرأ دارست ، وقال قارأت . وأخرج عبد بن حيد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه درست قال : قرأت وتعلمت . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضا قال دارست خاصمت جادلت تلوت . وأخرج أبو الشيخ عن السدى (وأعرض عن المشركين) قال : كف عنهم ، وهذا منسوخ نسخه القتال — فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم — . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (ولوشاء الله ماأشركوا) يقول الله تبارك وتعالى لوشئت لجمعتهم على الهدى أجمعين . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وما أنت عليهم بوكيل) أى بحفيظ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله) قال : قالوا يامحمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم (فيسبوا الله عدوا بغير علم) . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « ملعون من سب والديه قالوا يارسول وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال يسب أبا الرجل فيسب أباه و يسب أمه فيسب أمه » .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ *

قوله (وأقسموا بالله) أى الكفار مطلقا ، أو كفار قريش ، وجهد الايمان أشدها : أى أقسموا بالله أشد أيمانهم التى بلغتها قدرتهم ، وقد كانوا يعتقدون أن الله هو الاله الأعظم ، فلهذا أقسموا به ، وانتصاب جهد على المصدرية وهو بفتح الجيم المشقة ، و بضمها الطاقة ، ومن أهل اللغة من يجعلهما لمعنى واحد ، والمعنى أنهم اقترحوا على النبى ﷺ آية من الآيات التى كانوا يقترحونها وأقسموا لئن جاءتهم هذه الآية التى اقترحوها (ليؤمنن بها) وليس غرضهم الايمان ، بل معظم قصدهم التحكم على رسول الله ﷺ والتلاعب بآيات الله ، فأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بقوله (انما الآيات عند الله) هذه الآية التى يقترحونها وغيرها وليس عندى من ذلك شىء فهو سبحانه ان أراد انزالها أنزلها ، وان أراد أن لاينزلها لم ينزلها * قوله (ومايشعركم أنها اذاجاءت لايؤمنون) . قرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر الهمزة من أنها وهى قراءة مجاهد ، و يؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود (ومايشعركم اذاجاءت لايؤمنون) قال مجاهد وابن زيد : المخاطب بهذا المشركون : أى وما يدريكم ثم حكم عليهم بقوله (أنها اذا جاءت لايؤمنون) وقال الفراء وغيره الخطاب للمؤمنين لأن المؤمنين قالوا للنبى ﷺ يارسول الله لونزلت الآية لعلهم يؤمنون ، فقال الله تعالى (ومايشعركم أنها اذاجاءت لايؤمنون) . وقرأ أهل المدينة والأعمش وحمزة والكسائى وعاصم وابن عامر أنها اذاجاءت بفتح

الهمزة ، قال الخليل : أنها بمعنى لعلها وفى التنزيل — ومايدريك لعله يزكى — أى انه يزكى ، وحكى عن العرب ائت السوق أنك تشترى لنا شيئا : أى لعلك ، ومنه قول عدى بن زيد :

أعاذل مايدريك أن منيتى * الى ساعة فى اليوم أوفى ضحى الغد

أى لعل منيتى ، ومنه قول دريد بن الصمة :

أريني جوادا مات هزلا لأننى * أرى ماترين أو بخيلا مخلدا

أى لعلنى ، وقول أبى النجم :

قلت لشيبان ادن من لقائه * أنى يغدى اليوم من سوائه

أى لعلى ، وقول جرير :

هل أنتم عائجون بنا لأنا * نرى العرصات أو أثر الخيام

أى لعلنا اه . وقد وردت فى كلام العرب كثيرا بمعنى لعل ، وحكى الكسائى انها كذلك فى مصحف أبى بن كعب ، وقال الكسائى أيضا والفراء : ان لا زائدة ، والمعنى ومايشعركم أنها أى الآيات اذاجاءت يؤمنون كما زيدت فى قوله تعالى — وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون — وفى قوله — مامنعك أن لاتسجد ، وضعف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة لا وقالوا : هو غلط وخطأ ، وذكر النحاس وغيره أن فى الكلام حذفا والتقدير أنها اذاجاءت لايؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع * قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) معطوف على لايؤمنون ، قيل والمعنى تقليب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لهب النار وحر الجمر (كما لم يؤمنوا) فى الدنيا (ونذرهم) فى الدنيا أى نمهلهم ولانعاقبهم فعلى هذا بعض الآية فى الآخرة . و بعضها فى الدنيا ، وقيل المعنى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم فى الدنيا : أى نحول بينهم و بين الايمان لو جاءتهم تلك الآية كما حلنا بينهم و بين مادعوتهم اليه أول مرة عند ظهور المعجزة ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير والتقدير أنها اذا جاءت لايؤمنون كما لم يؤمنوا ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ونذرهم فى طغيانهم يعمهون أى يتحيرون ، والكاف فى (كما لم يؤمنوا) نعت مصدر محذوف ، وما مصدرية ، و (يعمهون) فى محل نصب على الحال * قوله (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة) أى لايؤمنون ولو نزلنا اليهم الملائكة كما اقترحوه بقولهم — لولا أنزل عليه ملك — (وكلمهم الموتى) الذين يعرفونهم بعد احيائنا لهم ، فقالوا لهم ان هذا النبى صادق مرسل من عند الله فآمنوا به لم يؤمنوا (وحشرنا عليهم كل شىء) مما سألوه من الآيات (قبلا) أى كفلا وضمنا بما جئناهم به من الآيات البينات : هذا على قراءة من قرأ قبلا بضم القاف وهم الجمهور . وقرأ نافع وابن عامر قبلا بكسرها : أى مقابلة ، وقال محمد بن يزيد المبرد : قبلا بمعنى ناحية كما تقول لى قبل فلان مال ، فقبلا نصب على الظرف ، وعلى المعنى الأول ورد قوله تعالى — أوتأتى بالله والملائكة قبيلا — أى يضمنون كذا قال الفراء ، وقال الأخفش : هو بمعنى قبيل قبيل : أى جماعة جماعة ، وحكى أبو زيد لقيت فلانا قبلا ومقابلة وقبلا كله واحد بمعنى المواجهة ، فيكون على هذا الضم كالكسر وتستوى القراءتان ، والحشر : الجمع (ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله) ايمانهم ، فان ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، والاستثناء مفرغ (ولكن أكثرهم يجهلون) جهلا يحول بينهم و بين درك الحق والوصول الى الصواب * قوله (وكذلك جعلنا لكل نبى) هذا الكلام لتسلية رسول الله ﷺ ودفع ماحصل معه من الحزن بعدم ايمانهم ، أى مثل هذا الجعل (جعلنا لكل نبى عدوا) والمعنى كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار ، فجعلنا لكل واحد منهم عدوا من كفار زمنهم ، و (شياطين الانس والجن) بدل من عدوا ، وقيل هو المفعول الثانى لجعلنا . وقرأ الأعمش الجن والانس بتقديم الجن ، والمراد بالشياطين المردة من الفريقين ، والاضافة

بيانية أومن اضافة الصفة الى الموصوف ، والأصل الانس والجن الشياطين ، وجملة (يوحى بعضهم الى بعض) فى محل نصب على الحال : أى حال كونه يوسوس بعضهم لبعض ، وقيل ان الجملة مستأنفة لبيان حال العدوّ ، وسمى وحيا لأنه انما يكون خفية بينهم ، وجعل تمويههم زخرف القول لتزيينهم إياه ، والمزخرف : المزين ، وزخارف الماء طرائقه ، و (غرورا) منتصب على المصدر ، لأن معنى يوحى بعضهم الى بعض يغرونهم بذلك غرورا ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، ويجوز أن يكون مفعولا له ، والغرور : الباطل * قوله (ولوشاء ربك مافعلوه) الضمير يرجع الى ماذكر سابقا من الأمور التى جرت من الكفار فى زمنه وزمن الأنبياء قبله : أى لوشاء ربك عدم وقوع ماتقدّم ذكره مافعلوه وأوقعوه ، وقيل مافعلوا الايحاء المدلول عليه بالفعل (فذرهم) : أى اتركهم ، وهذا الأمر للتهديد للكفار كقوله ـ ذرنى ومن خلقت وحيدا ـ (ومايفترون) ان كانت مامصدرية ، فالتقدير اتركهم وافتراءهم وان كانت موصولة ، فالتقدير اتركهم والذى يفترونه * قوله (ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) اللام فى لتصغى لام كى ، فتكون علة لقوله (يوحى) والتقدير يوحى بعضهم الى بعض ليغروهم ولتصغى ، وقيل هو متعلق بمحذوف يقدر متأخرا ، أى لتصغى (جعلنا لكل نبي عدوّا) وقيل ان اللام للأمر وهو غلط ، فانها لوكانت لام الأمر جزمت الفعل ، والاصغاء : الميل يقال صغوت أصغو صغوا ، وصغيت أصغى ، ويقال صغيت بالكسر ، ويقال أصغيت الاناء : اذا أملته ليجتمع مافيه وأصله الميل الى الشيء لغرض من الأغراض ، ويقال صغت النجوم : اذا مالت للغروب ، وأصغت الناقة إذا أمالت رأسها ، ومنه قول ذى الرمة :

تصغى إذا شدّها بالكور جانحة * حتى اذا مااستوى فى غرزها وثبت

والضمير فى اليه لزخرف القول ، أولما ذكر سابقا من زخرف القول وغيره : أى أوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروهم (ولتصغى اليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) من الكفار (وليرضوه) لأنفسهم بعد الاصغاء اليه (وليقترفوا ماهم مقترفون) من الآثام ، والاقتراف الاكتساب ، يقال خرج ليقترف لأهله : أى ليكتسب لهم وقارف فلان هذا الأمر : اذا واقعه ، وقرفه اذا رماه بالريبة ، واقترف كذب ، وأصله اقتطاع قطعة من الشيء

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال ، نزلت (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) فى قريش ومايشعركم بأيها المسلمون ( انها اذا جاءت لايؤمنون) وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : كلم رسول الله ﷺ قريشا فقالوا يامحمد تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر وأن عيسى كان يحيى الموتى وأن ثمود لهم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله ﷺ «أىّ شيء تحبون أن آتيكم به» قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا ، قال فان فعلت تصدقونى ، قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاءه جبريل فقال له ان شئت أصبح ذهبا فان لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم ، وان شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال بل يتوب تائبهم ، فأنزل الله ( وأقسموا بالله جهد أيمانهم ) الى قوله (يجهلون) وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) قال لما جحد المشركون ماأنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه (وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ) قال معاينة (ماكانوا ليؤمنوا) أى أهل الشقاء (الا أن يشاء الله) أى أهل السعادة والذين سبق لهم فى علمه أن يدخلوا فى الايمان . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ( وحشرنا عليهم كل شيء قبلا) أى فعاينوا ذلك معاينة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : أفواجا قبيلا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله ( وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّا شياطين الأنس والجن )

قال

قال : ان للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الانس يضلونهم فيلتقى شيطان الانس وشيطان الجن ، فيقول هذا لهذا أضلله بكذا وأضلله بكذا : فهو (يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) وقال ابن عباس الجن : هم الجان وليسوا شياطين ، والشياطين ولد ابليس وهم لايموتون الا مع ابليس ، والجن يموتون ، فنهم المؤمن ومنهم الكافر . وأخرج أبوالشيخ عن ابن مسعود قال : الكهنة هم شياطين الانس . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (يوحى بعضهم الى بعض) قال شياطين الجن يوحون الى شياطين الانس ، فان الله يقول (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : من الانس شياطين ومن الجن شياطين يوحى بعضهم الى بعض . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس زخرف القول قال : يحسن بعضهم لبعض القول ليتبعوهم فى فتنتهم . وقد أخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « ياأبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن والانس . قال يانبى الله وهل للانس شياطين ؟ قال نعم . شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » . وأخرج أحمد وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى ذر مرفوعا نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (ولتصغى) لتميل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عنه (ولتصغى) تزيغ (وليقترفوا) يكتسبوا .

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ *

قوله (أفغير الله) الاستفهام للانكار ، والفاء للعطف على فعل مقدر ، والكلام هو على إرادة القول والتقدير قل لهم يامحمد كيف أضل وأبتغى غير الله حكما ؟ ، وغير مفعول لأبتغى مقدم عليه ، وحكما المفعول الثانى أو العكس ، ويجوز أن ينتصب حكما على الحال ، والحكم أبلغ من الحاكم كما تقرر فى مثل هذه الصفة المشتقة ، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينكر عليهم ماطلبوه منه من أن يجعل بينه وبينهم حكما فيما اختلفوا فيه ، وان الله هو الحكم العدل بينه وبينهم ، وجملة (وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا) فى محل نصب على الحال : أى كيف أطلب حكما غير الله وهو الذى أنزل عليكم القرآن مفصلا مبينا واضحا مستوفيا لكل قضية على التفصيل ، ثم أخبر نبيه ﷺ بأن أهل الكتاب وان أظهروا الجحود والمكابرة فانهم يعلمون أن القرآن منزل من عند الله بما دلهم عليه كتب الله المنزلة كالتوراة والانجيل من أنه رسول الله وأنه خاتم الأنبياء ، و (بالحق) متعلق بمحذوف وقع حالا : أى متلبسا بالحق الذى لاشك فيه ولاشبهة ، ثم نهاه الله عن أن يكون من الممترين فى أن أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند الله بالحق أو نهاه عن مطلق الامتراء ، ويكون ذلك تعريضا لأمته عن أن يمترى أحد منهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له : أى فلا يكونن أحد من الناس من الممترين ، ولا يقدح فى ذلك كون الخطاب لرسول الله ﷺ فان خطابه خطاب لأمته * قوله (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا) قرأ أهل الكوفة كلمة بالتوحيد ، وقرأ

VI ١١٥-١٥٥



الباقون بالجمع ، والمراد بالكلمات العبارات أومتعلقاتها من الوعد والوعيد * والمعنى : أن الله قد أتمّ وعده ووعيده فظهر الحق وانطمس الباطل ، وقيل المراد بالكلمة ، أو الكلمات القرآن ، و (صدقا وعدلا) منتصبان على التمييز أو الحال أو على أنهما نعت مصدر محذوف ، أى تمام صدق وعدل (لامبدّل لكلماته) لاخلف فيها ولا مغير لما حكم به ، والجملة المنفية فى محل نصب على الحال أو مستأنفة (وهو السميع) لكل مسموع (العليم) بكل معلوم * قوله (وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) أخبره الله سبحانه بأنه اذا رام طاعة أكثر من فى الأرض أضلوه ، لأن الحق لايكون الا بيد الأقلين ، وهم الطائفة التى لاتزال على الحق ولا يضرّها خلاف من خالفها ، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ ، وقيل المراد بالأكثر الكفار ، وقيل المراد بالأرض مكة ، أى أكثر أهل مكة ، ثم علل ذلك سبحانه بقوله (ان يتبعون إلا الظنّ) أى مايتبعون إلا الظنّ الذى لا أصل له ، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة وأنها تقربهم إلى الله (وان هم إلا يخرصون) أى وما هم إلا يخرصون : أى يحدسون و يقدّرون ، وأصل الخرص القطع ، ومنه خرص النخل يخرص اذا حزره ليأخذ منه الزكاة ، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به اذ لا يقين منه ، واذا كان هذا حال أكثر من فى الأرض فالعلم الحقيقى هو عند الله فاتبع ما أمرك به ودع عنك طاعة غيره ، وهو العالم بمن يضلّ عن سبيله ومن يهتدى إليه . قال بعض أهل العلم ان (أعلم) فى الموضعين : بمعنى يعلم ، قال ومنه قول حاتم الطائى :

فحالفت طىّ من دوننا حلفا * والله أعلم ما كنا لهم خولا     اه

والوجه فى هذا التأويل أن أفعل التفضيل لاينصب الاسم الظاهر ، فتكون من منصوبة بالفعل الذى جعل أفعل التفضيل نائبا عنه ، وقيل ان أفعل التفضيل على بابه والنصب بفعل مقدّر ، وقيل انها منصوبة بأفعل التفضيل ، أى ان ربك أعلم أىّ الناس يضلّ عن سبيله ، وقيل فى محل نصب بنزع الخافض : أى بمن يضلّ ، قاله بعض البصريين : وقيل فى محل جر باضافة أفعل التفضيل اليها .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (مفصلا) قال مبينا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (صدقا وعدلا) قال : صدقا فيما وعد ، وعدلا فيما حكم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وأبو نصر السجزى فى الابانة عن محمد بن كعب القرظى فى قوله (لامبدّل لكلماته) قال لاتبديل لشىء قاله فى الدنيا والآخرة لقوله ـ مايبدّل القول لدىّ ـ . وأخرج ابن مردويه وابن النجار عن أنس عن النبى ﷺ فى قوله (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا) قال لا إله إلا الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى اليمان عامر بن عبد الله قال دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخصرة ، ولكل قوم صنم يعبدونه ، فجعل يأتيها صنما صنما و يطعن فى صدر الصنم بعصا ثم يعقره ، فكلما طعن صنما أتبعه ضربا بالقوس حتى يكسروه و يطرحوه خارجا من المسجد ، والنبى ﷺ يقول (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لامبدّل لكلماته وهو السميع العليم) .

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ * وَذَرُوا ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ *

لما تقدم ذكر مايصنعه الكفار فى الأنعام من تلك السنن الجاهلية أمر الله المسلمين بأن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقيل انها نزلت فى سبب خاص وسيأتى ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، فكل ماذكر الذابح عليه اسم الله حل ان كان مما أباح الله أكله . وقال عطاء فى هذه الآية الأمر بذكر الله على الشراب والذبح وكل مطعوم ، والشرط فى ( ان كنتم بآياته مؤمنين ) للتهييج والالهاب أى بأحكامه من الأوامر والنواهى التى من جملتها الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ، والاستفهام فى ( ومالكم ألاتأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ) للانكار : أى ماالمانع لكم من أكل ماسميتم عليه بعد أن أذن الله لكم بذلك ؟ (و) الحال أن (قدفصل لكم ماحرم عليكم) أى بين لكم بيانا مفصلا يدفع الشك ويزيل الشبهة بقوله (قل لاأجد فيما أوحى الى محرما) الى آخر الآية ، ثم استثنى فقال (إلا مااضطررتم إليه) أى من جميع ماحرمه عليكم فان الضرورة تحلل الحرام . وقد تقدم تحقيقه فى البقرة ، قرأ نافع ويعقوب (وقد فصل لكم ماحرم عليكم) بفتح الفعلين على البناء للفاعل ، وهوالله سبحانه ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما على البناء للمفعول ، وقرأ عطية العوفى فصل بالتخفيف : أى أبان وأظهر * قوله (وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم) هم الكفار الذين كانوا يحرمون البحيرة والسائبة ونحوهما فانهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل كانوا يضلون الناس فيتبعونهم ولا يعلمون أن ذلك جهل وضلالة لايرجع إلى شىء من العلم ، ثم أمرهم الله أن يتركوا ظاهر الاثم وباطنه * والظاهر : ما كان يظهر كأفعال الجوارح * والباطن : ما كان لايظهر كأفعال القلب ، وقيل ما أعلنتم وما أسررتم ، وقيل الزنا الظاهر والزنا المكتوم ، وأضاف الظاهر والباطن الى الاثم لأنه يتسبب عنهما ، ثم توعد الكاسبين للاثم بالجزاء بسبب افترائهم على الله سبحانه .

وقد أخرج أبو داود والترمذى وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال جاءت اليهود الى النبى ﷺ قالوا انا نأكل مماقتلنا ولانأكل مماقتل الله ، فأنزل الله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) الى قوله (وان أطعتموهم انكم لمشركون) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) فانه حلال (ان كنتم بآياته) يعنى القرآن (مؤمنين) قال مصدقين (وما لكم ألاتأكلوا مماذكر اسم الله عليه) يعنى الذبائح (وقد فصل لكم ماحرم عليكم) يعنى ماحرم عليكم من الميتة (وان كثيرا) يعنى من مشركى العرب (ليضلون بأهوائهم بغير علم) يعنى فى أمر الذبائح . وأخرج عبد الرزاق وعبدبن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (إلا مااضطررتم إليه) أى من الميتة والدم ولحم الخنزير . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وذروا ظاهر الاثم) قال هو نكاح الأمهات والبنات (وباطنه) قال هوالزنا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيدبن جبير : قال الظاهر منه ـ لاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء ـ * و ـ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ـ الآية ، والباطن : الزنا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : علانيته وسره .

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ *

نهى الله سبحانه عن أكل مالم يذكر اسم الله عليه بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه

وفيه دليل على تحريم أكل مالم يذكر اسم الله عليه .

وقد اختلف أهل العلم فى ذلك فذهب ابن عمر ونافع مولاه والشعبى وابن سيرين وهو رواية عن مالك وعن أحمد بن حنبل ، وبه قال أبو ثور وداود الظاهرى أن مالم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسى لهذه الآية ، ولقوله تعالى فى آية الصيد ــ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ــ ، ويزيد هذا الاستدلال تأكيدا قوله سبحانه فى هذه الآية (وانه لفسق) .

وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة الأمر بالتسمية فى الصيد وغيره ، وذهب الشافعى وأصحابه وهو رواية عن مالك ورواية عن أحمد أن التسمية مستحبة لاواجبة ، وهو مروىّ عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء ابن أبى رباح ، وحمل الشافعى الآية على من ذبح لغير الله وهو تخصيص للآية بغير مخصص . وقد روى أبو داود فى المرسل أن النبى ﷺ قال « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أولم يذكر » ، وليس فى هذا المرسل مايصلح لتخصيص الآية ، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبى ﷺ ان قوما يأتوننا بلحمان لاندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا أنتم وكلوا » يفيد أن التسمية عند الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح ، وذهب مالك وأحمد فى المشهور عنهما وأبو حنيفة وأصحابه واسحاق بن راهويه أن التسمية ان تركت نسيانا لم تضرّ ، وان تركت عمدا لم يحلّ أكل الذبيحة ، وهو مروىّ عن علىّ وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصرى وأبى مالك وعبد الرحمن بن أبى ليلى وجعفر ابن محمد وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، واستدلوا بما أخرجه البيهقى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « المسلم ان نسى أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله » ، وهذا الحديث رفعه خطأ ، وانما هو من قول ابن عباس ، وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق وسعيد بن منصو وعبد بن حميد وابن المنذر : نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى ــ ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أوأخطأنا ــ كما سبق تقريره ، وبقوله ﷺ « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان » ، وأما حديث أبى هريرة الذى أخرجه ابن عدى أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ؟ فقال النبى ﷺ « اسم الله على كل مسلم » فهو حديث ضعيف قد ضعفه البيهقى وغيره * قوله (وانه لفسق) الضمير يرجع الى (ما) بتقدير مضاف : أى وان أكل مالم يذكر لفسق ، ويجوز أن يرجع الى مصدر تأكلوا : أى فان الأكل لفسق . وقد تقدّم تحقيق الفسق .

وقد استدلّ من حمل هذه الآية على ماذبح لغير الله بقوله (وانه لفسق) ، ووجه الاستدلال أن الترك لايكون فسقا ، بل الفسق الذبح لغير الله ، ويجاب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك مافرضه الله عليه غير ممتنع شرعا (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم) أى يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق المباينة للصواب قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم (وان أطعتموهم) فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه (انكم لمشركون) مثلهم .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : قال المشركون وفى لفظ قال « اليهود لاتأكلوا مما قتل الله وتأكلوا مما قتلتم أنتم » ، فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) . وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال لما نزلت (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) أرسلت فارس الى قريش أن خاصموا محمدا فقالوا له ماتذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله بشمشار من ذهب : يعنى الميتة فهو حرام ، فنزلت (وان الشياطين ليوحون إلى

أوليائهم

أوليائهم ليجادلوكم) قال الشياطين من فارس ، وأولياؤهم من قريش . وقد روى نحو ماتقدم فى حديث ابن عباس الأول من غير طريق . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضا فى قوله (وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) قال إبليس أوحى إلى مشركى قريش . وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله (ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق) فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال ـ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد الخطمى قال كلوا ذبائح المسلمين وأهل الكتاب مما ذكر اسم الله عليه ، وروى ابن أبى حاتم عن مكحول نحو قول ابن عباس فى النسخ .

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ *

قوله (أومن كان ميتا فأحييناه) . قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام . وقرأ نافع وابن أبى نعيم باسكانها قال النحاس : يجوز أن يكون محمولا على المعنى : أى انظروا وتدبروا (أغير الله أبتغى حكما . أومن كان ميتا فأحييناه) والمراد بالميت هنا الكافر أحياه الله بالاسلام ، وقيل معناه كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه ، والأول أولى ، لأن السياق يشعر بذلك لكونه فى تنفير المسلمين عن اتباع المشركين ، وكثيرا ماتستعار الحياة للهداية وللعلم ، ومنه قول القائل :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله * فأجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحى بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور

والنور عبارة عن الهداية والايمان ، وقيل هو القرآن ، وقيل الحكمة ، وقيل هو النور المذكور فى قوله تعالى ـ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ـ والضمير فى به راجع الى النور (كمن مثله فى الظلمات) أى كمن صفته فى الظلمات ، ومثله مبتدأ والظلمات خبره ، والجملة صفة لمن ، وقيل مثل زائدة ، والمعنى كمن فى الظلمات كما تقول : أنا أكرم من مثلك : أى منك ، ومثله ـ فجزاء مثل ماقتل من النعم ـ ليس كمثله شىء ـ وقيل المعنى كمن مثله مثل من هو فى الظلمات ، و (ليس بخارج منها) فى محل نصب على الحال : أى حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال * قوله (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها) أى مثل ذلك الجعل جعلنا فى كل قرية ، والأكابر جمع أكبر ، قيل هم الرؤساء والعظماء ، وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد . والمكر : الحيلة فى مخالفة الاستقامة ، وأصله الفتل ؛ فالماكر يفتل عن الاستقامة أى يصرف عنها (وما يمكرون إلا بأنفسهم) أى وبال مكرهم عائد عليهم (ومايشعرون) بذلك لفرط جهلهم (واذا جاءتهم آية) من الآيات (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله) يريدون أنهم لايؤمنون حتى يكونوا أنبياء ، وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة ونظيره ـ يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ـ * والمعنى اذا جاءت الأكابر آية قالوا هذه المقالة ، فأجاب الله عنهم بقوله (الله أعلم حيث

VI ١٤٣-١٤٩



يجعل رسالاته) أى ان الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولا ويكون موضعا لها وأمينا عليها ، وقد اختار أن يجعل الرسالة فى محمد صفيه وحبيبه ، فدعوا طلب ماليس من شأنكم ، ثم توعدهم بقوله (سيصيب الذين أجرموا صغار) أى ذلّ وهوان ، وأصله من الصغر كأن الذلّ يصغر إلى المرء نفسه ، وقيل الصغار هو الرضا بالذلّ ، روى ذلك عن ابن السكيت

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (أو من كان ميتا فأحييناه) قال كان كافرا ضالا فهديناه (وجعلنا له نورا) هو القرآن (كمن مثله فى الظلمات) الكفر والضلالة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فى عمار بن ياسر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس) يعنى عمر بن الخطاب (كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) يعنى أبا جهل بن هشام . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى الآية قال : نزلت فى عمر بن الخطاب وأبى جهل بن هشام كانا ميتين فى ضلالتهما فأحيا الله عمر بالاسلام وأعزّه ، وأقرّ أبا جهل فى ضلالته وموته ، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال « اللهم أعزّ الاسلام بأبى جهل بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) قال نزلت فى المستهزئين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : سلطنا شرارها فعصوا فيها ، فاذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال (أكابر مجرميها) عظماءها . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (واذا جاءتهم آية) الآية قال : قالوا لمحمد حين دعاهم إلى مادعاهم اليه من الحق لو كان هذا حقا لكان فينا من هو أحق أن يؤتى به من محمد ـ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ـ . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (سيصيب الذين أجرموا) قال : أشركوا (صغار) قال : هوان .

فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا ٱلَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *

قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) الشرح . الشق وأصله التوسعة وشرحت الامر بينته وأوضحته ، والمعنى من يرد الله هدايته للحق يوسع صدره حتى يقبله بصدر منشرح ، ومن يرد إضلاله (يجعل صدره ضيقا حرجا) . قرأ ابن كثير (ضيقا) بالتخفيف مثل هين ولين . وقرأ الباقون بالتشديد وهما لغتان . وقرأ نافع (حرجا) بالكسر ، ومعناه الضيق ، كرر المعنى تأكيدا ، وحسن ذلك اختلاف اللفظ . وقرأ الباقون بالفتح ، جمع حرجة وهى شدة الضيق ، والحرجة الغيظة ، والجمع حرج وحرجات ، ومنه فلان يتحرج : أى يضيق على نفسه ، وقال الجوهرى : مكان حرج وحرج : أى ضيق كثير الشجر لاتصل اليه الراعية ،

والحرج

والحرج الاثم ، وقال الزجاج : الحرج أضيق الضيق ، وقال النحاس : حرِج اسم الفاعل وحرَج مصدر وصف به كما يقال : رجل عدل * قوله (كأنما يصعد فى السماء) . قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود ، شبه الكافر فى ثقل الايمان عليه بمن يتكلف مالا يطيقه كصعود السماء . وقرأ النخعى يصاعد ، وأصله يتصاعد وقرأ الباقون يصعّد بالتشديد وأصله يتصعد ، ومعناه يتكلف مالا يطيق مرة بعد مرة كما يتكلف من يريد الصعود الى السماء ، وقيل المعنى على جميع القراءات كاد قلبه يصعد الى السماء نبوّا على الاسلام ، وما فى كأنما هى المهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية * قوله (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) : أى مثل ذلك الجعل الذى هو جعل الصدر ضيقا حرجا يجعل الله الرجس ، والرجس فى اللغة : النتن ، وقيل هو العذاب ، وقيل هو الشيطان يسلطه الله عليهم ، وقيل هو مالا خير فيه ، والمعنى الأوّل هو المشهور فى لغة العرب ، وهو مستعار لما يحلّ بهم من العقوبة وهو يصدق على جميع المعانى المذكورة ، والاشارة بقوله (وهذا صراط ربك) إلى ما عليه النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين : أى هذا طريق دين ربك لا اعوجاج فيه ، وقيل الاشارة الى ما تقدّم مما يدل على التوفيق والخذلان : أى هذا هو عادة الله فى عباده يهدى من يشاء و يضل من يشاء ، وانتصاب (مستقيما) على الحال كقوله تعالى ــ وهو الحق مصدقا ، وهذا بعلى شيخا ــ (قد فصلنا الآيات) أى بيناها وأوضحناها (لقوم يذكرون) ما فيها و يتفهمون معانيها (لهم دار السلام عند ربهم) أى لهؤلاء المتذكرين الجنة لأنها دار السلامة من كل مكروه ، أو دار الرب السلام مدخرة لهم عند ربهم يوصلهم اليها (وهو وليهم) أى ناصرهم ، والباء فى (بما كانوا يعملون) للسببية ، أى بسبب أعمالهم * قوله (ويوم نحشرهم جميعا) الظرف منصوب بمضمر يقدر متقدما ، أى واذكر يوم نحشرهم أو (ويوم نحشرهم) نقول (يا معشر الجن) ، والمراد حشر جميع الخلق فى القيامة ، والمعشر الجماعة ، أى يوم الحشر نقول ، يا جماعة الجن (قد استكثرتم من الانس) أى من الاستمتاع بهم كقوله (ربنا استمتع بعضنا ببعض) وقيل استكثرتم من إغوائهم و إضلالهم حتى صاروا فى حكم الأتباع لكم فحشرناهم معكم ، ومثله قولهم : استكثر الأمير من الجنود ، والمراد التقريع والتوبيخ ، وعلى الأوّل ، فالمراد بالاستمتاع التلذذ من الجن بطاعة الانس لهم ودخولهم فيما يريدون منهم (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) أما استمتاع الجن بالانس فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم ، وأما استمتاع الانس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصى فوقعوا فيها وتلذذوا بها ، فذلك هو استمتاعهم بالجن ، وقيل استمتاع الانس بالجن أنه كان اذا مرّ الرجل بواد فى سفره وخاف على نفسه قال ، أعوذ برب هذا الوادى من جميع ما أحذر ، يعنى ربه من الجن ، ومنه قوله تعالى ــ وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ــ وقيل استمتاع الجن بالانس أنهم كانوا يصدّقونهم فيما يقولون من الاخبار الغيبية الباطلة واستمتاع الانس بالجن أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه اليهم من الأكاذيب و ينالون بذلك شيئا من حظوظ الدنيا كالكهان (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) أى يوم القيامة اعترافا منهم بالوصول الى ما وعدهم الله به مما كانوا يكذبون به ، ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم فـ(قال النار مثواكم) أى موضع مقامكم ، والمثوى المقام ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر * قوله (خالدين فيها الا ما شاء الله) المعنى الذى تقتضيه لغة العرب فى هذا التركيب أنهم يخلدون فى النار فى كل الأوقات الا فى الوقت الذى يشاء الله عدم بقائهم فيها ، وقال الزجاج ، ان الاستثناء يرجع الى يوم القيامة ، أى خالدين فى النار الا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدّتهم فى الحساب ، وهو تعسف ، لأن الاستثناء هو من الخلود الدائم ولا يصدق على من لم يدخل النار ، وقيل الاستثناء راجع الى النار : أى إلا ما شاء الله من تعذيبهم بغيرها فى بعض الأوقات كالزمهرير ، وقيل الاستثناء لأهل الايمان ، وما بمعنى من : أى

VI ١٢٩-١٣٢



إلا من شاء الله إيمانه فإنه لا يدخل النار ، وقيل المعنى إلا ماشاء الله من كونهم فى الدنيا بغير عذاب ، وكل هذه التأويلات متكلفة ، والذى ألجأ اليها ماورد فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من خلود الكفار فى النار أبدا ، ولكن لاتعارض بين عام وخاص لاسيما بعد وروده فى القرآن مكررا كما سيأتى فى سورة هود — خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد — ولعله يأتى هنالك ان شاء الله زيادة تحقيق .

وقد أخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى جعفر المدائنى رجل من بنى هاشم ، وليس هو محمد بن على قال سئل النبى ﷺ عن هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) قالوا كيف يشرح صدره يارسول الله ؟ قال «نور يقذف فيه فينشرح صدره له وينفسح له» قالوا فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال «الانابة الى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت» . وأخرج عبد بن حميد عن فضيل نحوه . وأخرج ابن أبى الدنيا عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وابن جرير وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية فذكر نحوه وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا من طريق أخرى . وأخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن النجار فى تاريخه عن عبد الله بن المستورد وكان من ولد جعفر بن أبى طالب قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه ، وهذه الطرق يقوى بعضها بعضا ، والمتصل يقوى المرسل ، فالمصير الى هذا التفسير النبوى متعين . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : كما لايستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء كذلك لايقدر على أن يدخل الايمان والتوحيد قلبه حتى يدخله الله فى قلبه . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى الآية يقول من أراد أن يضله يضيق عليه حتى يجعل الاسلام عليه ضيقا ، والاسلام واسع وذلك حين يقول — ماجعل عليكم فى الدين من حرج — يقول : ماجعل عليكم فى الاسلام من ضيق . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله دار السلام قال : الجنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن زيد قال : السلام هو الله . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال : الله هو السلام ، وداره الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (قد استكثرتم من الانس) يقول من ضلالتكم إياهم ، يعنى أضللتم منهم كثيرا ، وفى قوله (خالدين فيها إلا ماشاء الله) قال ، ان هذه الآية لاينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه لاينزلهم جنة ولانارا .

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ * ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ *

قوله (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) أى مثل ماجعلنا بين الجن والانس ماسلف (كذلك نولى بعض الظالمين بعضا) والمعنى نجعل بعضهم يتولى البعض فيكونون أولياء لبعضهم بعضا ، ثم يتبرأ بعضهم من البعض فمعنى نولى على هذا نجعله وليا له ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معناه نسلط ظلمة الجن على ظلمة الانس ،

وروى عنه أيضا أنه فسر هذه الآية بأن المعنى نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه و يذله، فيكون فى الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلط الله عليه ظالما آخر ، وقال فضيل بن عياض : اذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجبا ، وقيل معنى نولى نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر ، والباء فى (بما كانوا يكسبون) للسببية : أى بسبب كسبهم للذنوب ولينا بعضهم بعضا * قوله (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) أى يوم نحشرهم نقول لهم (ألم يأتكم) أو هو شروع فى حكاية ماسيكون فى الحشر ، وظاهره أن الله يبعث فى الدنيا الى الجن رسلا منهم ، كما يبعث الى الانس رسلا منهم ، وقيل معنى منكم : أى ممن هو مجانس لكم فى الخلق والتكليف ، والقصد بالمخاطبة ، فان الجنّ والانس متحدون فى ذلك ، وان كان الرسل من الأنس خاصة ، فهم من جنس الجنّ من تلك الحيثية ، وقيل انه من باب تغليب الانس على الجنّ كما يغلب الذكر على الأنثى ، وقيل المراد بالرسل الى الجنّ هاهنا هم النذر منهم ، كما فى قوله ــ ولوا إلى قومهم منذرين ــ * قوله (يقصون عليكم آياتى) صفة أخرى لرسل ، وقد تقدّم بيان معنى القص * قوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) هذا إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم بارسال رسله اليهم ، والجملة جواب سؤال مقدّر فهى مستأنفة ، وجملة (وغرّتهم الحياة الدنيا) فى محل نصب على الحال ، أو هى جملة معترضة (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا بالرسل المرسلين اليهم والآيات التى جاءوا بها ، وقد تقدّم مايفيد أن مثل هذه الآية المصرّحة باقرارهم بالكفر على أنفسهم ، ومثل قولهم ــ والله ربنا ما كنا مشركين ــ محمول على أنهم يقرّون فى بعض مواطن يوم القيامة و ينكرون فى بعض آخر لطول ذلك اليوم ، واضطراب القلوب فيه وطيشان العقول ، وانغلاق الأفهام وتبلد الأذهان ، والاشارة بقوله (ذلك) الى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل اليهم ، وأن فى (أن لم يكن ربك مهلك القرى) هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف * والمعنى ذلك أن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى ، أو هى المصدرية ، والباء فى (بظلم) سببية : أى لم أكن أهلك القرى بسبب ظلم من يظلم منهم ، والحال أن أهلها غافلون ، لم يرسل الله اليهم رسولا * والمعنى : أن الله أرسل الرسل الى عباده لانه لايهلك من عصاه بالكفر من القرى ، والحال انهم غافلون عن الاعذار والانذار بارسال الرسل ، وانزال الكتب ، بل انما يهلكهم بعد إرسال الرسل اليهم ، وارتفاع الغفلة عنهم بانذار الأنبياء لهم ــ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ــ ، وقيل المعنى ما كان الله مهلك أهل القرى بظلم منه ، فهو سبحانه يتعالى عن الظلم بل انما يهلكهم بعد أن يستحقوا ذلك وترتفع الغفلة عنهم بارسال الأنبياء ، وقيل المعنى : أن الله لايهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم مع كون الآخرين غافلين عن ذلك ، فهو مثل قوله ــ ولا تزر وازرة وزر أخرى ــ (ولكل درجات مما عملوا) أى لكل من الجنّ والانس درجات متفاوتة مما عملوا فنجازيهم بأعمالهم ، كما قال فى آية أخرى ــ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون ــ ، وفيه دليل على أن المطيع من الجنّ فى الجنة ، والعاصى فى النار (وما ربك بغافل عما يعملون) من أعمال الخير والشر ، والغفلة ذهاب الشىء عنك لاشتغالك بغيره . قرأ ابن عامر (تعملون) بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) قال : يولى الله بعض الظالمين بعضا فى الدنيا يتبع بعضهم بعضا فى النار . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن زيد فى الآية مثل ماحكينا عنه قريبا . وأخرج أبو الشيخ عن الأعمش فى تفسير الآية : قال سمعتهم يقولون اذا فسد الزمان أمّر عليهم شرارهم . وأخرج الحاكم فى التاريخ والبيهقى

فى الشعب من طريق يحيى بن هاشم حدّثنا يونس بن أبى اسحق عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « كما تكونون ، كذلك يؤمّر عليكم » قال البيهقى هذا منقطع ، ويحيى ضعيف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (رسل منكم) قال : ليس فى الجنّ رسل ، وإنما الرسل فى الانس ، والنذارة فى الجنّ ، وقرأ ـ فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ـ . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة أيضا عن الضحاك قال : الجنّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة أيضا عن ليث بن أبى سليم قال : مسلمو الجنّ لايدخلون الجنة ولا النار ، وذلك أن الله أخرج أباهم من الجنة فلايعيده ولا يعيد ولده . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة أيضا عن ابن عباس قال : الخلق أربعة خلق فى الجنة كلهم ، وخلق فى النار كلهم ، وخلقان فى الجنة والنار ، فأما الذين فى الجنة كلهم فالملائكة ، وأما الذين فى النار كلهم فالشياطين ، وأما الذين فى الجنة والنار فالانس والجنّ ، لهم الثواب وعليهم العقاب .

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ *

قوله (وربك الغنىّ) أى عن خلقه لايحتاج اليهم ولا الى عبادتهم لاينفعه إيمانهم ولايضرّه كفرهم ومع كونه غنيا عنهم ، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعا من رحمته لهم ، وما أحسن هذا الكلام الربانى وأبلغه وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة فى هذا المقام ، فان الرحمة لهم مع الغنى عنهم هى غاية التفضل والتطوّل (ان يشأ يذهبكم) أيها العباد العصاة فيستأصلكم بالعذاب المفضى الى الهلاك (ويستخلف من بعد) اهلاككم (مايشاء) من خلقه ممن هو أطوع له وأسرع الى امتثال أحكامه منكم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) الكاف نعت مصدر محذوف ، وما مصدرية : أى ويستخلف استخلافا مثل إنشائكم من ذرية قوم آخرين ، قيل : هم أهل سفينة نوح ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم ولا استخلف غيرهم رحمة لهم ولطفا بهم (ان ماتوعدون) من البعث والمجازاة (لآت) لامحالة فان الله لايخلف الميعاد (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين عن ماهو نازل بكم ، وواقع عليكم : يقال أعجزنى فلان : أى فاتنى وغلبنى * قوله (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) المكانة الطريقة : أى اثبتوا على ماأنتم عليه ، فانى غير مبال بكم ولا مكترث بكفركم ، انى ثابت على ماأنا عليه (فسوف تعلمون) من هو على الحق ومن هو على الباطل ، وهذا وعيد شديد ، فلايرد مايقال كيف يأمرهم بالثبات على الكفر ؟ و (عاقبة الدار) هى العاقبة المحمودة التى يحمد صاحبها عليها : أى من له النصر فى دار الدنيا ، ومن له وراثة الأرض ، ومن له الدار الآخرة ، وقال الزجاج : معنى مكانتكم تمكنكم فى الدنيا : أى اعملوا على تمكنكم من أمركم ، وقيل على ناحيتكم ، وقيل على موضعكم . قرأ حمزة والكسائى من يكون بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، والضمير فى (انه لايفلح

الظالمون) للشأن: أى لايفلح من اتصف بصفة الظلم، وهو تعريض لهم بعدم فلاحهم لكونهم المتصفين بالظلم * قوله (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم وتأثيرهم لآلهتهم على الله سبحانه: أى جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم نصيبا ولآلهتهم نصيبا من ذلك يصرفونه فى سدنتها والقائمين بخدمتها، فاذا ذهب مالآلهتهم باتفاقه فى ذلك عوّضوا عنه ماجعلوه لله، وقالوا: الله غنىّ عن ذلك، والزعم الكذب. قرأ يحيى بن وثاب والسلمى والأعمش والكسائى (بزعمهم) بضم الزاى، وقرأ الباقون بفتحها، وهما لغتان (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله) أى الى المصارف التى شرع الله الصرف فيها كالصدقة وصلة الرحم، وقرى الضيف (وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) أى يجعلونه لآلهتهم وينفقونه فى مصالحها (ساء مايحكمون) أى ساء الحكم حكمهم فى إيثار آلهتهم على الله سبحانه، وقيل معنى الآية أنهم كانوا اذا ذبحوا ماجعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم، واذا ذبحوا مالأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى الوصول الى الله، والوصول الى شركائهم، وقدقدّمنا الكلام فى ذرأ * قوله (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) أى ومثل ذلك التزيين الذى زينه الشيطان لهم فى قسمة أموالهم بين الله وبين شركائهم زين لهم قتل أولادهم. قال الفراء والزجاج: شركاؤهم هاهنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان، وقيل هم الغواة من الناس وقيل هم الشياطين، واشار بهذا الى الوأد، وهودفن البنات مخافة السبى والحاجة، وقيل كان الرجل يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرنّ أحدهم كما فعله عبد المطلب، قرأ الجمهور زين بالبناء للفاعل ونصب قتل على أنه مفعول زين، وجرّ أولاد باضافة قتل إليه، ورفع شركاؤهم على أنه فاعل زين، وقرأ الحسن بضم الزاى ورفع قتل، وخفض أولاد، ورفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل، ورفع شركاؤهم بتقدير فعل يرفعه: أى زينه شركاؤهم، ومثله قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

أى يبكيه ضارع، وقرأ ابن عامر وأهل الشام بضم الزاى ورفع قتل ونصب أولاد وخفض شركائهم على أن قتل مضاف الى شركائهم، ومعموله أولادهم، ففيه الفصل بين المصدر وما هومضاف إليه بالمفعول، ومثله فى الفصل بين المصدر وما أضيف إليه قول الشاعر:

تمرّ على ماتستمرّ وقد شفت * غلائل عبد القيس منها صدورها

بجر صدورها، والتقدير شفت عبد القيس غلائل صدورها. قال النحاس ان هذه القراءة لاتجوز فى كلام ولا فى شعر، وانما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف فى الشعر لاتساعهم فى الظروف، وهوأى الفصل بالمفعول به فى الشعر بعيد، فاجازته فى القرآن أبعد. وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوى ان قراءة ابن عامر هذه لاتجوز فى العربية وهى زلة عالم، واذا زلّ العالم لم يجز اتباعه وردّ قوله الى الاجماع، وانما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف اليه بالظرف كقول الشاعر:

كما خط الكتاب بكف يوما * يهودى يقارب أو يزيل

وقول الآخر: * لله درّ اليوم من لامها * . وقال قوم ممن انتصر لهذه القراءة انها اذا ثبتت بالتواتر عن النبى ﷺ فهى فصيحة لاقبيحة. قالوا وقد ورد ذلك فى كلام العرب وفى مصحف عثمان رضى الله عنه شركائهم بالياء.

وأقول دعوى التواتر باطلة باجماع القراء المعتبرين كما بينا ذلك فى رسالة مستقلة، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوى فقراءته ردّ عليه، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل فى النظم كما

قدمنا ، وكقول الشاعر :

فزججتها بمزجة * زج القلوص أبى مزاده

فان ضرورة الشعر لايقاس عليها ، وفى الآية قراءة رابعة وهى جرّ الأولاد والشركاء ، ووجه ذلك أن الشركاء بدل من الأولاد لكونهم شركاءهم فى النسب والميراث * قوله (ليردوهم) اللام لام كى : أى لكى يردوهم ، من الارداء ، وهو الاهلاك (وليلبسوا عليهم دينهم) معطوف على ماقبله : أى فعلوا ذلك التزيين لاهلاكهم وخلط دينهم عليهم (ولو شاء الله مافعلوه) أى لو شاء الله عدم فعلهم مافعلوه ، فما شاء كان ، ومالم يشأ لم يكن ، واذا كان ذلك بمشيئة الله (فذرهم ومايفترون) فدعهم وافتراءهم فذلك لايضرك .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبان بن عثمان قال : الذرية الأصل ، والذرية : النسل . وأخرجا أيضا عن ابن عباس (وما أنتم بمعجزين) قال بسابقين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (على مكانتكم) قال على ناحيتكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله (وجعلوا لله) الآية قال جعلوا لله من ثمارهم ومائهم نصيبا وللشيطان والأوثان نصيبا ، فان سقط من ثمره ماجعلوه لله فى نصيب الشيطان تركوه ، وان سقط مما جعلوه للشياطين فى نصيب الله ردّوه الى نصيب الشيطان وان انفجر من سقى ماجعلوه لله فى نصيب الشيطان تركوه ، وان انفجر من سقى ماجعلوه للشيطان فى نصيب الله نزحوه ، فهذا ماجعلوا لله من الحرث وسقى الماء ، وأما ماجعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله ـ ماجعل الله من بحيرة ـ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عنه نحوه من طريق أخرى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال جعلوا لله مما ذرأ من الحرث جزءا ولشركائهم جزءا ، فما ذهب به الريح مما سموا لله الى جزء أوثانهم تركوه وقالوا الله عن هذا غنى ، وماذهب به الريح من جزء أوثانهم الى جزء الله أخذوه * والأنعام التى سموا لله : البحيرة والسائبة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) قال شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خوف العيلة .

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ *

هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم * والحجر بكسر أوّله وسكون ثانيه فى قراءة الجمهور . وقرأ أبان بن عثمان حجر بضم الحاء والجيم ، وقرأ الحسن وقتادة بفتح الحاء واسكان الجيم ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير حرج بتقديم الراء على الجيم ، وكذا هو فى مصحف أبىّ ، وهو من الحرج ، يقال فلان يتحرّج : أى يضيق على نفسه الدخول فيما يشتبه عليه ، والحجر على اختلاف القراءات فيه هو مصدر بمعنى اسم المفعول : أى محجور ، وأصله المنع ، فمعنى الآية هذه أنعام وحرث ممنوعة ، يعنون أنها لأصنامهم لايطعمها الامن يشاءون بزعمهم وهم خدام الأصنام ، والقسم الثانى قولهم (وأنعام حرّمت ظهورها) وهى البحيرة والسائبة والحام ، وقيل ان هذا القسم

الثانى

الثانى مما جعلوه لآلهتهم أيضا ، والقسم الثالث (أنعام لايذكرون اسم الله عليها) وهى ماذبحوا لآلهتهم فانهم يذبحونها باسم أصنامهم لاباسم الله ، وقيل ان المراد لايحجون عليها افتراء على الله : أى للافتراء عليه (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى بافترائهم أو بالذى يفترونه ، ويجوز أن يكون افتراء منتصبا على أنه مصدر : أى افتروا افتراء أوحال : أى مفترين ، وانتصابه على العلة أظهر ، ثم بين الله سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال (وقالوا مافى بطون هذه الأنعام) يعنون البحائر والسوائب من الأجنة (خالصة لذكورنا) أى حلال لهم (ومحرم على أزواجنا) أى على جنس الأزواج ، وهنّ النساء فيدخل فى ذلك البنات والأخوات ونحوهنّ ، وقيل هو اللبن جعلوه حلالا للذكور ومحرّما على الأناث ، والهاء فى خالصة للمبالغة فى الخلوص كعلامة ونسابة ، قاله الكسائى والاخفش وقال الفراء تأنيثها لتأنيث الأنعام ، ورد بأن مافى بطون الأنعام غير الأنعام ، وتعقب هذا الردّ بأن مافى بطون الأنعام أنعام ، وهى الاجنة ، وما عبارة عنها ، فيكون تأنيث خالصة باعتبار معنى ما ، وتذكير محرّم باعتبار لفظها . وقرأ الأعمش خالص . قال الكسائى : معنى خالص وخالصة واحد الا أن الهاء للمبالغة كما تقدم عنه . وقرأ قتادة خالصة بالنصب على الحال من الضمير فى متعلق الظرف الذى هو صلة لما ، وخبر المبتدا محذوف كقولك : الذى فى الدار قائما زيد ، هذا قول البصريين ، وقال الفراء : انه انتصب على القطع . وقرأ ابن عباس خالصه باضافة خالص الى الضمير على انه بدل من ما . وقرأ سعيد بن جبير خالصا (وان يكن ميتة) . قرئ بالتحتية والفوقية ، أى وان يكن الذى فى بطون الأنعام (ميتة فهم فيه) أى فى الذى فى البطون (شركاء) يأكل منه الذكور والاناث (سيجزيهم وصفهم) أى بوصفهم على انه منتصب بنزع الخافض ، والمعنى سيجزيهم بوصفهم الكذب على الله ، وقيل المعنى سيجزيهم جزاء وصفهم ، ثم بين الله سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها) أى بناتهم بالوأد الذى كانوا يفعلونه سفها : أى لأجل السفه : وهو الطيش والخفة لا لحجة عقلية ولا شرعية كائنا ذلك منهم (بغير علم) يهتدون به * قوله (وحرّموا مارزقهم الله) من الأنعام التى سموها بحائر وسوائب (افتراء على الله) أى للافتراء عليه أو افتروا افتراء عليه (قد ضلوا) عن طريق الصواب بهذه الأفعال (وما كانوا مهتدين) الى الحق ، ولاهم من أهل الاستعداد لذلك .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) قال ، الحجر ماحرموا من الوصيلة وتحريم ماحرموا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) قال ، ماجعلوا لله ولشركائهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد عن قتادة (وحرث حجر) قال حرام . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال يقولون حرام أن يطعم الا ابن شيئا (وأنعام حرّمت ظهورها) قال ، البحيرة والسائبة والحامى (وأنعام لايذكرون اسم الله عليها) اذا نحروها . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى وائل فى قوله (وأنعام لايذكرون اسم الله عليها) قال لم تكن يحج عليها وهى البحيرة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس وقالوا مافى بطون هذه الأنعام) الآية قال ، اللبن . وأخرج هؤلاء إلا ابن جرير عن مجاهد فى الآية قال ، السائبة والبحيرة محرّم على أزواجنا قال : النساء (سيجزيهم وصفهم) قال : قولهم الكذب فى ذلك . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال ، كانت الشاة اذا ولدت ذكرا ذبحوه ، فكان للرجال دون النساء وان كانت أنثى تركوها فلم تذبح ، وان كانت ميتة كانوا فيها شركاء . وأخرج عبد بن حميد والبخارى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال ، اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) الى قوله (وما كانوا مهتدين) . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن

XI. 142-143



عكرمة فى الآية قال ، نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر وربيعة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : هذا صنع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبى والفاقة ويغذو كلبه ( وحرموا مارزقهم الله ) قال : جعلوه بحيرة ، وسائبة ، ووصيلة وحاميا تحكما من الشيطان فى أموالهم .

وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞

هذا فيه تذكير لهم ببديع قدرة الله وعظيم صنعه ( أنشأ ) أى خلق ، والجنات : البساتين (معروشات) مرفوعات على الأعمدة (وغير معروشات) غير مرفوعات عليها ، وقيل المعروشات ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ ، وغير المعروشات ماقام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار ، وقيل المعروشات ما أنبته الناس وعرشوه ، وغير المعروشات مانبت فى البرارى والجبال ۞ قوله (والنخل والزرع) معطوف على جنات ، وخصهما بالذكر مع دخولهما فى الجنات لما فيهما من الفضيلة (مختلفا أكله) أى حال كونه مختلفا أكله فى الطعم والجودة والرداءة . قال الزجاج : وهذه مسألة مشكلة فى النحو ، يعنى انتصاب مختلفا على الحال لأنه يقال قد أنشأها ولم يختلف أكلها : فالجواب أن الله سبحانه أنشأها مقدرا فيها الاختلاف ، وقد بين هذا سيبويه بقوله مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، أى مقدر الصيد به غدا ، كما تقول لتدخلن الدار آكلين شاربين : أى مقدرين ذلك ، وهذه هى الحال المقدرة المشهورة عند النحاة المدونة فى كتب النحو ، وقال (مختلفا أكله) ولم يقل أكلهما اكتفاء باعادة الذكر على أحدهما كقوله ــ واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها ــ أو الضمير بمنزلة اسم الاشارة : أى أكل ذلك ۞ قوله (والزيتون والرمان) معطوف على جنات : أى وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه متشابها وغير متشابه ، وقد تقدم الكلام على تفسير هذا ( كلوا من ثمره ) ، أى من ثمر كل واحد منهما ، أو من ثمر ذلك (اذا أثمر) أى اذا حصل فيه الثمر وان لم يدرك ويبلغ حد الحصاد ۞ قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) .

قد اختلف أهل العلم هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على الندب ، فذهب ابن عمر وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير الى أن الآية محكمة ، وانه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطى من حضر من المساكين القبضة والضغث ونحوهما ، وذهب ابن عباس ومحمد ابن الحنفية والحسن والنخعى وطاوس وأبو الشعثاء وقتادة والضحاك وابن جريج أن هذه الآية منسوخة بالزكاة ، واختاره ابن جرير ، ويؤيده أن هذه الآية مكية وآية الزكاة مدنية فى السنة الثانية بعد الهجرة ، والى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف ، وقالت طائفة من العلماء ان الآية محمولة على الندب لا على الوجوب ۞ قوله (ولا تسرفوا) أى فى التصدق ، وأصل الاسراف فى اللغة : الخطأ ، والاسراف فى النفقة التبذير ، وقيل هو خطاب للولاة يقول لهم لا تأخذوا فوق حقكم ، وقيل المعنى لا تأخذوا الشىء بغير حقه وتضعونه فى غير مستحقه ۞ قوله ( ومن الأنعام حمولة وفرشا) معطوف على جنات أى وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشا ، والحمولة مايحمل عليها : وهو يختص بالابل فهى فعولة بمعنى فاعلة ، والفرش مايتخذ من الوبر والصوف والشعر فراشا يفترشه الناس ، وقيل : الحمولة

الابل ، والفرش : الغنم ؛ وقيل الحمولة كل ماحمل عليه من الابل ، والبقر، والخيل ، والبغال ، والحمير ، والفرش الغنم ، وهذا لايتم إلا على فرض صحة اطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المذكورات ، وقيل الحمولة مايركب والفرش مايؤكل لحمه (كلوا مما رزقكم) من هذه الأشياء (ولاتتبعوا خطوات الشيطان) كما فعل المشركون من تحريم مالم يحرمه الله وتحليل مالم يحلله (انه) أى الشيطان (لكم عدو مبين) مظهر للعداوة ومكاشف بها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وهو الذى أنشأ جنات معروشات) قال المعروشات ماعرش الناس (وغير معروشات) ماخرج فى الجبال والبرّية من الثمار . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : معروشات بالعيدان والقصب وغير معروشات قال : الضاحى . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس معروشات قال : الكرم خاصة . وأخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) قال : ماسقط من السنبل . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وابن المنذر والنحاس والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) قال : كانوا يعطون من اعترّبهم شيئا سوى الصدقة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن مجاهد فى الآية قال : اذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران و يزيد الأصم قال : كان أهل المدينة اذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه فى المسجد فيجىء السائل فيضرب بالعصا فيسقط منه ، فهو قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن حماد بن أبى سليمان فى الآية قال : كانوا يطعمون منه رطبا . وأخرج أحمد وأبو داود فى سننه من حديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ أمر من كل جادّ عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق فى المسجد للمساكين ، واسناده جيد . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : وآتوا حقه يوم حصاده نسخها العشر ونصف العشر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن المنذر عن السدّى نحوه . وأخرج النحاس وأبو الشيخ والبيهقى عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة نحوه . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الشعبى قال : ان فى المال حقا سوى الزكاة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى العالية قال : ما كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة ثم انهم تباذروا وأسرفوا ، فأنزل الله (ولاتسرفوا انه لايحب المسرفين) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس جدّ نخلا فقال لايأتينى اليوم أحد الا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليس له تمرة فأنزل الله (ولاتسرفوا انه لايحب المسرفين) . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : لو أنفقت مثل أبى قبيس ذهبا فى طاعة الله لم يكن اسرافا ولو أنفقت صاعا فى معصية الله كان اسرافا ، وللسلف فى هذا مقالات طويلة .

وأخرج الفريابى وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : الحمولة ماحمل عليه من الابل ، والفرش صغار الابل التى لاتحمل . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الحمولة الكبار من الابل ، والفرش الصغار من الابل . وأخرج أبو الشيخ عنه قال الحمولة ماحمل عليه ، والفرش ما أكل منه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الحمولة الابل والخيل والبغال والحمير وكل شىء يحمل عليه ، والفرش الغنم . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال : الحمولة الابل والبقر ، والفرش الضأن والمعز .

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ *

اختلف فى انتصاب (ثمانية) على ماذا ؟ فقال الكسائى بفعل مضمر ، أى وأنشأ ثمانية أزواج ، وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من حمولة وفرشا ، وقال الأخفش على بن سليمان هو منصوب بكلوا : أى كلوا لحم ثمانية أزواج ، وقيل منصوب على أنه بدل من ما فى مما رزقكم الله ، والزوج خلاف الفرد ، يقال زوج أو فرد : كما يقال شفع أو وتر ، فقوله ( ثمانية أزواج ) يعنى ثمانية أفراد ، وإنما سمى الفرد زوجا فى هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة الى الآخر ، ويقع لفظ الزوج على الواحد ، فيقال هما زوج وهو زوج ، و يقول اشتريت زوجى حمام ، أى ذكرا وأنثى * والحاصل أن الواحد إذا كان منفردا سواء كان ذكرا أو أنثى ، قيل له فرد وان كان الذكر مع أنثى من جنسه ، قيل لهما زوج ولكل واحد على انفراده منهما زوج و يقال لهما أيضا زوجان ، ومنه قوله تعالى ـ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ـ * قوله (من الضأن اثنين) بدل من ثمانية منتصب بناصبه على حسب الخلاف السابق ، والضأن ذوات الصوف من الغنم ، وهو جمع ضائن ، و يقال للأنثى ضائنة ، والجمع ضوائن ، وقيل هو جمع لا واحد له ، وقيل فى جمعه ضئين كعبد وعبيد ، وقرأ طلحة بن مصرف الضأن بفتح الهمزة ، وقرأ الباقون بسكونها ، وقرأ أبان بن عثمان (ومن الضأن اثنان ومن المعز اثنان) رفعا بالابتداء * قوله (ومن المعز اثنين) معطوف على ماقبله مشارك له فى حكمه ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وابن كثير وأهل البصرة بفتح العين من المعز ، وقرأ الباقون بسكونها . قال النحاس : الأكثر فى كلام العرب المعز والضأن بالاسكان ، والمعز من الغنم خلاف الضأن ، وهى ذوات الأشعار والأذناب القصار ، وهو اسم جنس ، وواحد المعز ماعز ، مثل صحب وصاحب ، وركب وراكب ، وتجر وتاجر ، والأنثى ماعزة * والمراد من هذه الآية : أن الله سبحانه بين حال الأنعام وتفاصيلها الى الأقسام المذكورة توضيحا للامتنان بها على عباده ، ودفعا لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها وتحريم بعضها تقوّلا على الله سبحانه وافتراء عليه ، والهمزة فى ( قل آلذكرين حرّم أم الأنثيين ) للانكار * والمراد بالذكرين الكبش والتيس ، و بالأنثيين النعجة والعنز ، وانتصاب الذكرين بحرّم ، والأنثيين معطوف عليه منصوب بناصبه * والمعنى الانكار على المشركين فى أمر البحيرة وماذكر معها ، وقولهم (ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا ) أى قل : لهم ان كان حرم الذكور فكل ذكر حرام ، وان كان حرم الأناث فكل أنثى حرام ، وان كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين يعنى : من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ذكرا كان أو أنثى ، وكلها مولود فيستلزم أن كلها حرام * وقوله (نبئونى بعلم ان كنتم صادقين ) أى أخبرونى بعلم لا بجهل ان كنتم صادقين * والمراد من هذا التبكيت لهم و إلزام الحجة لأنه يعلم أنه لا علم عندهم ، وهكذا الكلام فى قوله ( ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ) الى آخره * قوله ( أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا ) أم هى المنقطعة ، والاستفهام للانكار ، وهى بمعنى بل والهمزة :

أى بل أكنتم شهداء حاضرين مشاهدين إذوصاكم الله بهذا التحريم * والمراد التبكيت وإلزام الحجة كما سلف قبله * قوله (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لاأحد أظلم ممن افترى على الله كذبا فحرّم شيئا لم يحرّمه الله ونسب ذلك اليه افتراء عليه كما فعله كبراء المشركين ، واللام فى (ليضلّ الناس بغير علم) للعلة : أى لأجل يضل الناس بجهل وهو متعلق بافترى (إن الله لايهدى القوم الظالمين) على العموم ، وهؤلاء المذكورون فى السياق داخلون فى ذلك دخولا أوّليا ، وينبغى (١) أن ينظر فى وجه تقديم المعز والضأن على الابل والبقر مع كون الابل والبقر أكثر نفعا وأكبر أجساما ، وأعود فائدة لاسيما فى الحمولة والفرش اللذين وقع الابدال منهما على ماهو الوجه الأوضح فى إعراب ثمانية .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن عباس قال : الأزواج الثمانية من الابل والبقر والضأن والمعز * وليت شعرى مافائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة فانها لاتتعلق به فائدة ، وكون الأزواج الثمانية هى المذكورة هو هكذا فى الآية مصرحا به تصريحا لالبس فيه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : الذكر والأنثى زوجان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ثمانية أزواج) قال : فى شأن مانهى الله عنه من البحيرة والسائبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ليث بن أبى سليم قال : الجاموس والبختى من الأزواج الثمانية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) قال : فهذه أربعة (قل آلذكرين حرم أم الانثيين) يقول لم أحرّم شيئا من ذلك (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) يعنى : هل تشتمل الرحم الا على ذكر أوأنثى فلم تحرّمون بعضا وتحلون بعضا ؟ (نبئونى بعلم إن كنتم صادقين) يقول كلها حلال يعنى ماتقدم ذكره مما حرّمه أهل الجاهلية .

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أنه لايجد فى شىء مما أوحى اليه محرّما غير هذه المذكورات فدلّ ذلك على انحصار المحرّمات فيها لولا أنها مكية ، وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرّمات المنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة ، وصح عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ونحو ذلك ، وبالجملة فهذا العموم ان كان بالنسبة إلى مايؤكل من الحيوانات كما يدلّ عليه السياق ويفيده الاستثناء فيضم إليه كل ماورد بعده فى الكتاب أو السنة مما يدلّ على تحريم شىء من الحيوانات ، وان كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شىء حرّمه الله من حيوان وغيره فانه يضمّ إليه كل ماورد بعده مما فيه تحريم شىء من الأشياء . وقد روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة أنه لاحرام إلاماذكره الله فى هذه الآية ، وروى ذلك عن مالك وهو قول ساقط ، ومذهب فى غاية الضعف لاستلزامه لاهمال غيرها مما نزل بعدها من القرآن واهمال ماصح عن النبى ﷺ أنه قاله بعد نزول هذه الآية بلا سبب يقتضى ذلك ولا موجب يوجبه * قوله (محرّما) صفة لموصوف محذوف : أى طعاما محرّما (على) أى (طاعم يطعمه) من المطاعم ، وفى (يطعمه) زيادة تأكيد وتقرير لماقبله (إلا أن يكون

---

(١) الترقّى من أدنى إلى أعلى نوع من أنواع تحسين الكلام فلعل هذا منه والله أعلم اه من حاشية بالأصل

ميتة ) أى ذلك الشيء أو ذلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس ، وقرئ يكون بالتحتية والفوقية ، وقرئ ميتة بالرفع على أن يكون تامة * والدم المسفوح : الجارى ، وغير المسفوح معفوّ عنه كالدم الذى يبقى فى العروق بعد الذبح ، ومنه الكبد والطحال ، وهكذا مايتلطخ به اللحم من الدم . وقد حكى القرطبى الاجماع على هذا * قوله (أولحم خنزير) ظاهر تخصيص اللحم أنه لايحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم والضمير فى (فانه) راجع الى اللحم أو الى الخنزير * والرجس : النجس ، وقد تقدم تحقيقه * قوله (أو فسقا) عطف على لحم خنزير ، و (أهلّ به لغير الله) صفة فسق : أى ذبح على الأصنام ، وسمى فسقا لتوغله فى باب الفسق ، قيل ويجوز أن يكون (فسقا) مفعولا له لأهلّ : أى أهلّ به لغير الله فسقا على عطف أهلّ على يكون ، وهو تكلف لاحاجة إليه (فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد) قد تقدم تفسيره فى سورة البقرة فلا نعيده (فان ربك غفور رحيم) أى كثير المغفرة والرحمة فلا يؤاخذ المضطرّ بما دعت إليه ضرورته .

وقد أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال إن أهل الجاهلية كانوا يحرّمون أشياء ويحلون أشياء ، فنزلت (قل لا أجد) الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو دارد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا فبعث الله نبيه وأنزل كتابه ، وأحلّ حلاله ، وحرّم حرامه ، فما أحلّ فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، ثم تلا هذه الآية (قل لا أجد) إلى آخرها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه أنه تلا هذه الآية فقال : ماخلا هذا فهو حلال . وأخرج البخارى وأبو داود وابن المنذر وأبو الشيخ عن عمرو ابن دينار : قال قلت لجابر بن زيد انهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر فقال قد كان يقول ذلك الحكم ابن عمرو الغفارى عندنا بالبصرة عن رسول الله ﷺ ولكن أبى ذلك البحر ابن عباس ، وقرأ (قل لا أجد) الآية * وأقول وان أبى ذلك البحر فقد صح عن رسول الله ﷺ والتمسك بقول صحابى فى مقابلة قول النبى ﷺ من سوء الاختيار وعدم الانصاف . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال « ليس شيء من الدواب حرام إلا ما حرّم الله فى كتابه قل لا أجد فيما أوحى الىّ محرّما الآية » . وأخرج سعيد بن منصور وأبو داود وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن أكل القنفذ ، فقرأ (قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرّما) الآية ، فقال شيخ عنده سمعت أبا هريرة يقول ذكر عند النبى ﷺ فقال « خبيثة من الخبائث » ، فقال ابن عمر ان كان النبى ﷺ قاله فهو كما قال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير تلت (قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرّما) الآية . وأخرج أحمد والبخارى والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس أن شاة لسودة بنت زمعة ماتت فقالت يارسول الله ماتت فلانة : تعنى الشاة ، قال فلولا أخذتم مسكها : قالت يارسول الله أنأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقرأ رسول الله ﷺ (قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرّما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) وأنتم لاتطعمونه وانما تدبغونه حتى تستنفعوا به ، فأرسلت إليها فسلختها ثم دبغته فاتخذت منه قربة حتى تخرّقت عندها ، ومثل هذا حديث شاة ميمونة ، وهو فى الصحيح ، ومثله حديث « إنما حرم من الميتة أكلها » ، وهو أيضا فى الصحيح . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (أو دما مسفوحا) قال مهراقا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة وأخذوا الدم فأكلوه قال هو دم مسفوح . وأخرج أبو الشيخ عن الشعبى أنه سئل عن لحم الفيل والأسد فتلا (قل لا أجد فيما أوحى إلىّ) الآية ، والأحاديث الواردة بتحريم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير والحمر الأهلية ونحوها مستوفاة فى كتب الحديث .

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ *

قدّم (على الذين هادوا) على الفعل للدلالة على أن هذا التحريم مختص بهم لايجاوزهم إلى غيرهم * والذين هادوا : اليهود ، ذكر الله ماحرّمه عليهم عقب ذكر ماحرّمه على المسلمين * والظفر : واحد الأظفار ، ويجمع أيضا على أظافير ، وزاد الفراء فى جموع ظفر أظافر وأظافرة * وذو الظفر : ماله أصبع من دابة أو طائر ويدخل فيه الحافر والخف والمخلب ، فيتناول الابل والبقر والغنم والنعام والأوز والبط وكل ماله مخلب من الطير ، وتسمية الحافر والخف ظفرا مجاز * والأولى حمل الظافر على مايصدق عليه اسم الظفر فى لغة العرب ، لأن هذا التعميم يأباه ماسيأتى من قوله (ومن البقر والغنم) فان كان فى لغة العرب بحيث يقال على البقر والغنم كان ذكرهما من بعد تخصيصا ، حرم الله ذلك عليهم عقوبة لهم على ماوقعوا فيه من الظلم كما قال تعالى ـ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم ـ * قوله (ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما) لاغير هذه المذكورات كلحمهما ، والشحوم يدخل فيها الثروب وشحم الكلية ، وقيل الثروب جمع ثرب ، وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش ، ثم استثنى الله سبحانه من الشحوم ماحملت ظهورهما من الشحم فانه لم يحرّمه الله عليهم ، و (ما) فى موضع نصب على الاستثناء (أو الحوايا) معطوف على (ظهورهما) أى إلا ماحملت ظهورهما أو حملت الحوايا ، وهى المباعر التى يجتمع البعر فيها ، فما حملته من الشحم غير حرام عليهم ، وواحدها حاوية ، مثل ضاربة وضوارب ، وقيل واحدها حاوياء ، مثل قاصعاء وقواصع ، وقيل حوية : كسفينة وسفائن . وقال أبو عبيدة : الحوايا ماتحوّى من البطن : أى استدار ، وهى متحوية : أى مستديرة ، وقيل الحوايا : خزائن اللبن ، وهى تتصل بالمباعر ، وقيل الحوايا : الأمعاء التى عليها الشحوم * قوله (أو مااختلط بعظم) معطوف على مافى (ماحملت) كذا قال الكسائى والفراء وثعلب ، وقيل ان الحوايا وما اختلط بعظم معطوفة على الشحوم * والمعنى : حرّمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو مااختلط بعظم إلا ماحملت ظهورهما فانه غير محرّم ، ولا وجه لهذا التكلف ولا موجب له ، لأنه يكون المعنى : ان الله حرّم عليهم إحدى هذه المذكورات * والمراد بما اختلط بعظم : مالصق بالعظام من الشحوم فى جميع مواضع الحيوان ، ومنه الألية فانها لاصقة بعجب الذنب ، والاشارة بقوله (ذلك) إلى التحريم المدلول عليه بحرّمنا أى ذلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيهم ، وقيل ان الاشارة إلى الجزاء المدلول عليه بقوله (جزيناهم) أى ذلك الجزاء جزيناهم ، وهو تحريم ماحرّمه الله عليهم (وانا لصادقون) فى كل مانخبر به ، ومن جملة ذلك هذا الخبر ، وهو موجود عندهم فى التوراة * ونصها « حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكل دابة ليست مشقوقة الحافر وكل حوت ليس فيه سفاسف » أى بياض انتهى * والضمير فى (كذبوك) لليهود : أى فان كذبك اليهود فيما وصفت من تحريم الله عليهم تلك الأشياء (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) ومن رحمته حلمه عنكم وعدم معاجلته لكم بالعقوبة فى الدنيا ، وهو وان أمهلكم ورحمكم (فلا يردّ بأسه عن القوم المجرمين) إذا أنزله بهم واستحقوا المعاجلة بالعقوبة ، وقيل المراد : لايردّ بأسه فى الآخرة عن القوم المجرمين * والأوّل أولى فانه سبحانه قد عاجلهم بعقوبات منها تحريم الطيبات عليهم فى الدنيا ، وقيل الضمير يعود الى المشركين الذين قسموا الأنعام الى تلك الأقسام وحللوا بعضها وحرّموا بعضها ، وقيل المراد : أنه

ذو رحمة للمطيعين (ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) ولاملجىء لهذا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (كل ذى ظفر) قال هو الذى ليس بمنفرج الأصابع يعنى ليس بمشقوق الاصابع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عنه (كل ذى ظفر) قال : البعير والنعامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هوكل شىء لم تنفرج قوائمه من البهائم ، وما انفرج أكلته اليهود ، قال انفرجت قوائم الدجاج والعصافير فيهود تأكله ، ولم ينفرج خف البعير ولا النعامة ، ولا قائمة الوزينة فلا تأكل اليهود الابل ولا النعام ولا الوزينة ، ولا كل شىء لم تنفرج قائمته كذلك ، ولا تأكل حمار الوحش . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلا ماحملت ظهورهما) يعنى : ماعلق بالظهر من الشحم (أوالحوايا) هى المبعر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى صالح فى قوله (إلاماحملت ظهورهما) قال الألية (أوالحوايا) قال : المبعر (أوما اختلط بعظم) ، قال الشحم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (أوالحوايا) قال المباعر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن الضحاك (أوالحوايا) قال : المرائض والمباعر . وأخرج ابن المنذر وأبوالشيخ عن ابن عباس (أوما اختلط بعظم) قال : الألية اختلط شحم الألية بالعصعص فهوحلال ، وكل شحم القوائم ، والجنب ، والرأس والعين ، والأذن يقولون قد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم ، إنما حرّم عليهم الثرب وشحم الكلية وكل شىء كان كذلك ليس فى عظم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد فى قوله (فان كذبوك) قال اليهود . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : كانت اليهود يقولون ان ماحرّمه إسرائيل فنحن نحرّمه ، فذلك قوله (فان كذبوك) الآية .

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ *

أخبر الله عن المشركين أنهم سيقولون هذه المقالة ، وهم كفار قريش أوجميع المشركين ، يريدون أنه لوشاء الله عدم شركهم ماأشركوا هم ولا آباؤهم ولاحرّموا شيئا من الأنعام كالبحيرة ونحوها ، وظنوا أن هذا القول يخلصهم عن الحجة التى ألزمهم بها رسول الله ﷺ وان مافعلوه حق ولولم يكن حقا لأرسل الله إلى آبائهم الذى ماتوا على الشرك ، وعلى تحريم مالم يحرمه الله رسلا يأمرونهم بترك الشرك و بترك التحريم لما لم يحرمه الله ، والتحليل لما لم يحلله (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى مثل ما كذب هؤلاء كذب من قبلهم من المشركين أنبياء الله (حتى ذاقوا بأسنا) أى استمرّوا على التكذيب حتى ذاقوا بأسنا الذى أنزلناه بهم ، ثم أمره الله أن يقول لهم (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) أى هل عندكم دليل صحيح بعد من العلم النافع فتخرجوه إلينا لننظر فيه ونتدبره ، والمقصود من هذا التبكيت لهم ، لأنه قد علم أنه لاعلم عندهم يصلح للحجة ويقوم به البرهان ، ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شىء من العلم ، وأنهم إنما يتبعون

الظنون : أى مايتبعون إلا الظنّ الذى هو محل الخطأ ومكان الجهل (وان أنتم إلا تخرصون) أى تتوهمون مجرّد توهم فقط كما يتوهم الخارص ، وقد سبق تحقيقه ، ثم أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أن لله الحجة البالغة على الناس : أى التى تنقطع عندها معاذيرهم وتبطل شبههم وظنونهم وتوهماتهم * والمراد بها الكتب المنزلة ، والرسل المرسلة ، وماجاءوا به من المعجزات (فلوشاء) هدايتكم جميعا (لهداكم أجمعين) ولكنه لم يشأ ذلك ، ومثله قوله تعالى ـ ولوشاء الله ماأشركوا ـ وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ـ ومثله كثير ، ثم أمره الله أن يقول لهؤلاء المشركين (هلمّ شهداءكم) أى هاتوهم وأحضروهم ، وهو اسم فعل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والمفرد والمثنى ، والجموع عند أهل الحجاز ، وأهل نجد يقولون هلما هلمى هلموا ، فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال ، وبلغة أهل الحجاز نزل القرآن ، ومنه قوله تعالى ـ والقائلين لاخوانهم هلمّ إلينا ـ والأصل عند الخليل ها ضمت إليها لم ، وقال غيره أصلها هل زيدت عليها الميم ، وفى كتاب العين للخليل : أن أصلها هل أؤم : أى هل أقصدك ، ثم كثر استعمالهم لها ، وهذا أيضا من باب التبكيت لهم حيث يأمرهم باحضار الشهود على أن الله حرّم تلك الأشياء مع علمه أنه لاشهود لهم (فان شهدوا) لهم بغير علم بل مجازفة وتعصب (فلا تشهد معهم) أى فلا تصدقهم ولا تسلم لهم فانهم كاذبون جاهلون ، وشهادتهم باطلة (ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) أى ولا تتبع أهواءهم ، فانهم رأس المكذبين بآياتنا * قوله (والذين لايؤمنون بالآخرة) معطوف على الموصول : أى لاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، وأهواء الذين لايؤمنون بالآخرة (وهم بربهم يعدلون) أى يجعلون له عدلا من مخلوقاته : كالأوثان ، والجملة اما فى محل نصب على الحال ، أومعطوفه على لايؤمنون .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مجاهد فى قوله (سيقول الذين أشركوا) قال : هذا قول قريش ان الله حرّم هذا : أى البحيرة والسائبة ، والوصيلة والحام . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة (قل فلله الحجة البالغة) قال السلطان . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ، أنه قيل له ان ناسا يقولون ليس الشر بقدر ، فقال ابن عباس بيننا و بين أهل القدر هذه الآية (سيقول الذين أشركوا) إلى قوله (فلله الحجة البالغة فلوشاء لهداكم أجمعين) . قال ابن عباس : والعجز ، والكيس من القدر . وأخرج أبو الشيخ عن علىّ بن زيد قال : انقطعت حجة القدرية عند هذه الآية (قل فلله الحجة البالغة فلوشاء لهداكم أجمعين) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله (قل هلمّ شهداءكم) قال : أرونى شهداءكم .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *

قوله (قل تعالوا) أى تقدّموا . قال ابن الشجرى ان المأمور بالتقدّم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعدا ، فقيل له تعال : أى ارفع شخصك بالقيام وتقدّم ، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى ، وهكذا قال الزمخشرى فى الكشاف انه من الخاص الذى صار عاما ، وأصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم كثر واتسع فيه ، حتى عمّ * قوله (أتل ما حرّم ربكم) أتل جواب الأمر ، وما موصولة فى محل نصب به : أى أتل الذى حرّمه ربكم عليكم * والمراد من تلاوة ما حرّم الله تلاوة الآيات المشتملة عليه ، ويجوز أن تكون ما مصدرية : أى أتل تحريم ربكم * والمعنى ما اشتمل على التحريم ، قيل ويجوز أن تكون ما استفهامية: أى أتل أىّ شىء حرّم ربكم على جعل التلاوة بمعنى القول ، وهو ضعيف جدّا ، وعليكم ان تعلق بأتل ، فالمعنى أتل عليكم الذى حرّم ربكم ، وان تعلق بحرّم ، فالمعنى : أتل الذى حرّم ربكم عليكم ، وهذا أولى ، لأن المقام مقام بيان ما هو محرّم عليكم لا مقام بيان ما هو محرّم مطلقا ، وقيل ان عليكم للاغراء ولا تعلق لها بما قبلها * والمعنى عليكم أن لا تشركوا إلى آخره : أى الزموا ذلك كقوله تعالى ــ عليكم أنفسكم ــ وهو أضعف مما قبله ، وأن فى (أن لا تشركوا) مفسرة لفعل التلاوة ، وقال النحاس : يجوز أن تكون فى موضع نصب بدلا من ما ، أى أتل عليكم تحريم الاشراك ، وقيل يجوز أن يكون فى محل رفع بتقدير مبتدأ : أى المتلوّ أن لا تشركوا ، وشيئا مفعول أو مصدر : أى لا تشركوا به شيئا من الأشياء ، أو شيئا من الاشراك * قوله (وبالوالدين إحسانا) أى أحسنوا بهما إحسانا ، والاحسان إليهما البرّ بهما ، وامتثال أمرهما ونهيهما . وقد تقدّم الكلام على هذا * قوله (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) لما ذكر حق الوالدين على الأولاد ، ذكر حق الأولاد على الوالدين ، وهو أن لا يقتلوهم من أجل إملاق ، والاملاق الفقر ، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكر والأناث خشية الاملاق وتفعله بالأناث خاصة خشية العار ، وحكى النقاش عن مؤرّج : أن الاملاق الجوع بلغة لخم ، وذكر منذر بن سعيد البلوطى : أن الاملاق الانفاق ، يقال أملق ماله بمعنى أنفقه * والمعنى الأوّل هو الذى أطبق عليه أئمة اللغة ، وأئمة التفسير ههنا (ولا تقربوا الفواحش) أى المعاصى ، ومنه ــ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ــ وما فى (ما ظهر) بدل من الفواحش ، وكذا ما بطن * والمراد بما ظهر ما أعلن به منها ، وما بطن : ما أسر . وقد تقدّم (ولا تقتلوا النفس) اللام فى النفس للجنس ، و (التى حرّم الله) صفة للنفس : أى لا تقتلوا شيئا من الأنفس التى حرّمها الله (إلا بالحق) أى إلا بما يوجبه الحق ، والاستثناء مفرّغ : أى لا تقتلوها فى حال من الأحوال إلا فى حال الحق ، أو لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق ، ومن الحق قتلها قصاصا وقتلها بسبب زنا المحصن ، وقتلها بسبب الردّة ، ونحو ذلك من الأسباب التى ورد الشرع بها ، والاشارة بقوله (ذلكم) إلى ما تقدّم مما تلاه عليهم ، وهو مبتدأ (ووصاكم به) خبره : أى أمركم به ، وأوجبه عليكم (ولا تقربوا مال اليتيم) أى لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه (إلا) بالخصلة (التى هى أحسن) من غيرها ، وهى ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته ، فيشمل كل وجه من الوجوه التى فيها نفع لليتيم وزيادة فى ماله ، وقيل المراد بالتى هى أحسن التجارة (حتى يبلغ أشدّه) أى الى غاية هى أن يبلغ اليتيم أشدّه ، فان بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله ، كما قال تعالى ــ فان آنستم منه رشدا . فادفعوا إليهم أموالهم .

واختلف أهل العلم فى الأشد ، فقال أهل المدينة بلوغه وايناس رشده . وقال أبو حنيفة خمس وعشرون سنة ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو البلوغ ، وقيل انه انتهاء الكهولة ، ومنه قول سحيم الرياحى :

أخو الخمسين مجتمع أشدّى * ونجدنى مداورة الشئون

والأولى فى تحقيق بلوغ الأشد أنه البلوغ الى سن التكليف مع إيناس الرشد ، وهو أن يكون فى

تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء ، لامسلك أهل السفه والتبذير ، ويدل على هذا قوله تعالى فى سورة النساء ــ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ــ فجعل بلوغ النكاح ، وهو بلوغ سن التكليف مقيدا بإيناس الرشد ، ولعله قد سبق هنالك كلام فى هذا ، والأشد واحد لاجمع له ، وقيل واحده شد كفلس وأفلس ، وأصله من شدّ النهار : أى ارتفع ، وقال سيبويه : واحده شدة . قال الجوهرى : وهو حسن فى المعنى ، لأنه يقال بلغ الكلام شدته ، ولكن لاتجمع فعلة على أفعل * قوله ( وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ) أى بالعدل فى الأخذ والاعطاء عند البيع والشراء ( لا نكلف نفسا إلا وسعها ) أى الا طاقتها فى كل تكليف من التكاليف ، ومنه التكاليف بإيفاء الكيل والوزن فلا يخاطب المتولى لهما بمالا يمكن الاحتراز عنه فى الزيادة والنقصان ( وإذا قلتم فاعدلوا ) أى اذا قلتم بقول فى خبر أوشهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه وتحرّوا الصواب ولا تعصبوا فى ذلك لقريب ولا على بعيد ولا تميلوا الى صديق ولا على عدوّ بل سوّوا بين الناس ، فان ذلك من العدل الذى أمر الله به ، والضمير فى ( ولو كان ) راجع الى مايفيده . وإذا قلتم فانه لابد للقول من مقول فيه . أو مقول له . أى ولو كان المقول فيه . أو المقول له ( ذا قربى ) أى صاحب قرابة لكم . وقيل ان المعنى ولو كان الحق على مثل قراباتكم ، والأوّل أولى ، ومثل هذه الآية * قوله ــ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ــ * قوله ( وبعهد الله أوفوا ) أى أوفوا بكل عهد عهده الله اليكم ، ومن جملة ماعهده اليكم ماتلاه عليكم رسوله بأمره فى هذا المقام ، ويجوز أن يراد به كل عهد ولو كان بين المخلوقين ، لأن الله سبحانه لما أمر بالوفاء به فى كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوّغا لاضافته اليه ، والاشارة بقوله ( ذلكم ) الى ماتقدم ذكره ( وصاكم به ) أمركم به أمرا مؤكدا ( لعلكم تذكرون ) فتتعظون بذلك * قوله ( وأن هذا صراطى مستقيما ) أنّ فى موضع نصب ، أى وأتل أن هذا صراطى ، قاله الفراء والكسائى ، قال الفراء ويجوز أن يكون خفضا : أى وصاكم به ، و بأن هذا ، وقال الخليل وسيبويه : ان التقدير ولأن هذا صراطى مستقيما كما فى قوله سبحانه ــ وأن المساجد لله ــ . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى ( وإن هذا ) بكسر الهمزة على الاستئناف ، والتقدير الذى ذكر فى هذه الآيات صراطى . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب ( وإن هذا صراطى ) بالتخفيف على تقدير ضمير الشأن . وقرأ الأعمش ( وهذا صراطى ) وفى مصحف عبد الله بن مسعود ( وهذا صراط ربكم ) وفى مصحف أبىّ ( وهذا صراط ربك ) ، والصراط : الطريق ، وهو طريق دين الاسلام ، ونصب مستقيما على الحال ، والمستقيم المستوى الذى لا اعوجاج فيه ، ثم أمرهم باتباعه ونهاهم عن اتباع سائر السبل : أى الأديان المتباينة طرقها ( فتفرّق بكم ) أى تميل بكم ( عن سبيله ) أى عن سبيل الله المستقيم الذى هو دين الاسلام ، قال ابن عطية : وهذه السبل تعمّ اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الاهواء والشذوذ فى الفروع وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدل والخوض فى الكلام ، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد ، والاشارة بـ ( ذلكم ) الى ماتقدم ، وهو مبتدأ وخبره ( وصاكم به ) أى أكد عليكم الوصية به ( لعلكم تتقون ) مانهاكم عنه .

وقد أخرج الترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة ابن الصامت قال قال رسول الله ﷺ « أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث » ثم تلا ( قل تعالوا ) الى ثلاث آيات ، ثم قال « فمن وفى بهنّ فأجره على الله ومن انتقص منهنّ شيئا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره الى الآخرة كان أمره الى الله ان شاء آخذه وان شاء عفا عنه » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن الضريس وابن المنذر عن كعب الأحبار قال : أوّل ماأنزل فى التوراة عشر آيات ، وهى العشر التى أنزلت

من آخر الأنعام (قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم) إلى آخرها . وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عبد الله بن عدى بن الخيار قال : سمع كعب رجلا يقرأ (قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) فقال كعب ، والذى نفس كعب بيده انها لأول آية فى التوراة : بسم الله الرحمن الرحيم (قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم) الى آخر الآيات انتهى * قلت هى الوصايا العشر التى فى التوراة ، وأولها «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك إله آخر غيرى ، ومنها أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك ، لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بنت قريبك ، ولا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك » ؛ فلعل مراد كعب الأحبار هذا ، واليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة ، وقد كتبها أهل الزبور فى آخر زبورهم ، وأهل الانجيل فى أوّل انجيلهم . وهى مكتوبة فى لوحين ، وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) قال : من خشية الفاقة ، قال وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبى (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال : سرّها وعلانيتها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) قال : خشية الفقر (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال : كانوا فى الجاهلية لا يرون بالزنا بأسا فى السر ويستقبحونه فى العلانية ، فحرّم الله الزنا فى السر والعلانية . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (وأن هذا صراطى مستقيما) قال : اعلموا أن السبيل سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة ، وأن ابليس اشترع سبلا متفرقة جماعه الضلالة ومصيرها النار . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال « هذا سبيل الله مستقيما ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل الا عليه شيطان يدعو اليه ؛ ثم قرأ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن مردويه من حديث جابر نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود أن رجلا سأله ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه الجنة ، وعن يمينه جواد وعن شماله جواد ، وثم رجال يدعون من مرّ بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به الى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به الى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (ولا تتبعوا السبل) قال : الضلالات .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ *

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التى وصى الله عباده بها ، وقد استشكل العطف بثم مع كون

قصة موسى وإيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه ، وهو ماتقدم من قوله (ذلكم وصاكم به) فقيل ان ثم هاهنا بمعنى الواو ، وقيل تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل انزالنا القرآن على محمد ﷺ وقيل : المعنى قل تعالوا أتل ماحرّم ربكم عليكم ثم أتل إيتاء موسى الكتاب ، وقيل ان التوصية المعطوف عليها قديمة : لم يزل كل نبيّ يوصى بها أمته ، وقيل ان ثم للتراخى فى الاخبار كما تقول بلغنى ماصنعت اليوم ثم ماصنعت بالأمس أعجب * قوله (تماما) مفعول لأجله أو مصدر ، و (على الذى أحسن) قرئ بالرفع وهى قراءة يحيى بن يعمر وابن أبى اسحق ، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ : أى على الذى هو أحسن ومنه ماحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع : ما أنا بالذى قائل لك شيئا . وقرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماض عند البصريين ، وأجاز الفراء والكسائى أن يكون اسما نعتا للذى ، وهذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم قبل أن يتمّ ، والمعنى عندهم تماما على من أحسن قبوله والقيام به كائنا من كان ، و يؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ (تماما على الذين أحسنوا) وقال الحسن كان فيهم محسن وغير محسن ، فأنزل الله الكتاب تماما على المحسنين ، وقيل المعنى أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه الله قبل نزول التوراة عليه ، وقيل المعنى تماما على الذى أحسن به الله عزّ وجلّ الى موسى من الرسالة وغيرها ، وقيل تماما على احسان موسى بطاعة الله عزّ وجلّ . قاله الفراء * قوله (وتفصيلا لكل شىء) معطوف على تماما ، أى ولأجل تفصيل كل شىء ، وكذا (هدى ورحمة) معطوفتان عليه ، أى وللهدى والرحمة ، والضمير فى لعلهم راجع الى بنى اسرائيل المدلول عليه بذكر موسى ، والباء فى (بلقاء) متعلقة بيؤمنون * قوله (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) الاشارة الى القرآن ، واسم الاشارة مبتدأ وخبره كتاب ، وأنزلناه صفة لكتاب ومبارك صفة أخرى له ، وتقديم صفة الانزال لكون الانكار متعلقا بها ، والمبارك كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية والدينية (فاتبعوه) فانه لما كان من عند الله وكان مشتملا على البركة ، كان اتباعه متحتما عليكم (واتقوا) مخالفته والتكذيب بما فيه (لعلكم) ان قبلتموه ولم تخالفوه (ترحمون) برحمة الله سبحانه ، وأن فى (أن تقولوا) فى موضع نصب ، قال الكوفيون لئلا تقولوا ، وقال البصريون كراهة أن تقولوا ، وقال الفراء والكسائى : المعنى فاتقوا أن تقولوا ياأهل مكة (إنما أنزل الكتاب) : أى التوراة والانجيل (على طائفتين من قبلنا) وهم اليهود والنصارى ولم ينزل علينا كتاب (وان كنا عن دراستهم) أى عن تلاوة كتبهم بلغاتهم (لغافلين) أى لا ندرى مافيها ، ومرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع مافيهما بعدم الدراية منهم والغفلة عن معناهما * قوله (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب) معطوف على (تقولوا) أى أو أن تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا (لكنا أهدى منهم) الى الحق الذى طلبه الله ، فان هذه المقالة والمعذرة منهم مندفعة بارسال محمد ﷺ اليهم و إنزال القرآن عليه ، ولهذا قال (فقد جاءكم بينة من ربكم) : أى كتاب أنزله الله على نبيكم ، وهو منكم يامعشر العرب فلا تعتذروا بالأعذار الباطلة وتعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة ، فقد أسفر الصبح لذى عينين (وهدى ورحمة) معطوف على (بينة) أى جاءكم البينة الواضحة والهدى الذى يهتدى به كل من له رغبة فى الاهتداء ، ورحمة من الله يدخل فيها كل من يطلبها ويريد حصولها ، ولكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات الله والصدوف عنها : أى الانصراف عنها ، وصرف من أراد الاقبال اليها (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله) التى هى رحمة وهدى للناس (وصدف عنها) فضلّ بانصرافه عنها ، وأضل بصرف غيره عن الاقبال اليها (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) أى العذاب السىء (ب)سبب (ما كانوا يصدفون) وقيل معنى صدف : أعرض ، و يصدفون يعرضون ، وهو مقارب لمعنى

الصرف ، وقد تقدّم تحقيق معنى هذا اللفظ ، والاستفهام فى فن أظلم للانكار ، أى انكار أن يكون أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها مع مايفيده ذلك من التبكيت لهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (تماما على الذى أحسن) قال على المؤمنين المحسنين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صخر (تماما على الذى أحسن) قال تماما لما كان قد أحسن الله . وأخرج أيضا عن ابن زيد قال تماما لنعمته عليهم وإحسانه اليهم . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (وهذا كتاب) قال : هو القرآن الذى أنزل الله على محمد (فاتبعوه واتقوا) يقول فاتبعوا ماأحل الله فيه واتقوا ماحرم . وأخرج هؤلاء عن مجاهد فى قوله (على طائفتين من قبلنا) قال اليهود والنصارى ، خاف أن تقوله قريش . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هم اليهود والنصارى (وإن كنا عن دراستهم) قال تلاوتهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (لكنا أهدى منهم) قال : هذا قول كفار العرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (فقد جاءكم بينة من ربكم) يقول : قد جاءتكم بينة لسان عربى مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (صدف عنها) قال : أعرض عنها . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك فى قوله (يصدفون) قال يعرضون .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ٭

أى لما أقمنا عليهم الحجة وأنزلنا الكتاب على رسولنا المرسل اليهم لم ينفعهم ذلك ولم يرجعوا به عن غوايتهم فما بقى بعد هذا الا أنهم (ينظرون) أى ينتظرون (أن تأتيهم الملائكة) أى ملائكة الموت لقبض أرواحهم ، وعند ذلك لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل (أو يأتى ربك) يامحمد كما اقترحوه بقولهم — لولا أنزل علينا الملائكة أونرى ربنا — وقيل معناه (أو يأتى أمر ربك) باهلاكهم ، وقيل المعنى أو يأتى كل آيات ربك بدليل قوله (أو يأتى بعض آيات ربك) وقيل هو من المتشابه الذى لايعلم تأويله الا الله ، وقد جاء فى القرآن حذف المضاف كثيرا كقوله — واسأل القرية — وقوله — وأشربوا فى قلوبهم العجل — أى حب العجل ، وقيل إتيان الله مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كقوله — وجاء ربك والملك صفا صفا — ٭ قوله (يوم يأتى بعض آيات ربك) . قرأ ابن عمر وابن الزبير (يوم تأتى) بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية . قال المبرد التأنيث على المجاورة لمؤنث لاعلى الأصل ، ومنه قول جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت ٭ سور المدينة والجبال الخشع

وقرأ ابن سيرين لاتنفع بالفوقية . قال أبو حاتم ان هذا غلط عن ابن سيرين . وقد قال الناس فى هذا شىء دقيق من النحو ذكره نقطويه ، وذلك أن الايمان والنفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر فأنث الايمان إذ هو من النفس . قال النحاس وفيه وجه آخر وهو ان يؤنث الايمان ، لأنه مصدر كما يذكر المصدر المؤنث مثل — فمن جاءه موعظة من ربه — ٭ ومعنى (يوم يأتى بعض آيات ربك) يوم يأتى الآيات التى اقترحوها ، وهى التى تضطرهم إلى الايمان (لاينفع نفسا إيمانها) أو ماهو أعمّ من ذلك

فيدخل

VI. ١٥٥-١٦١



فيدخل فيه ماينتظرونه ، وقيل هي الآيات التي هي علامات القيامة المذكورة في الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ فهي التي إذا جاءت لاينفع نفسا إيمانها * قوله (لم تكن آمنت من قبل) أي من قبل إتيان بعض الآيات ؛ فأما التي قد كانت آمنت من قبل مجيء بعض الآيات فإيمانها ينفعها ، وجملة (لم تكن آمنت من قبل) في محل نصب على أنها صفة نفسا * قوله (أو كسبت في إيمانها خيرا) معطوف على (آمنت) والمعنى : أنه لاينفع نفسا إيمانها عند حضور الآيات متصفة بأنها لم تكن آمنت من قبل ، أوآمنت من قبل ولكن لم تكسب في إيمانها خيرا ، فحصل من هذا أنه لاينفع إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجيء بعض الآيات مع كسب الخير في الإيمان ، فمن آمن من قبل فقط ولم يكسب خيرا في إيمانه أو كسب خيرا ولم يؤمن فإن ذلك غير نافعه ، وهذا التركيب هو كقولك : لاأعطي رجلا اليوم أتاني لم يأتني بالأمس أولم يمدحني في إتيانه إليّ بالأمس ، فإن المستفاد من هذا أنه لايستحق العطاء إلا رجل أتاه بالأمس ومدحه في إتيانه إليه بالأمس ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم انتظروا ماتريدون إتيانه إنا منتظرون له ، وهذا تهديد شديد ووعيد عظيم ، وهو يقوّي ماقيل في تفسير (يوم يأتي بعض آيات ربك) أنها الآيات التي اقترحوها من إتيان الملائكة وإتيان العذاب لهم من قبل الله كما تقدم بيانه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) قال عند الموت (أو يأتي ربك) قال يوم القيامة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في تفسير الآية مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل (أو يأتي ربك) قال يوم القيامة في ظلل من الغمام . وأخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده والترمذي وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله (يوم يأتي بعض آيات ربك) قال طلوع الشمس من مغربها . قال الترمذي غريب ، ورواه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي سعيد موقوفا . وأخرجه الطبراني وابن عدي وابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعا . وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد والطبراني عن ابن مسعود موقوفا ، فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لاقادح فيه فهو واجب التقديم له متحتم الأخذ به ، ويؤيده ماثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لاينفع نفسا إيمانها ، ثم قرأ الآية » . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي ذرّ مرفوعا نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدّي في قوله (أو كسبت في إيمانها خيرا) يقول كسبت في تصديقها عملا صالحا هؤلاء أهل القبلة وإن كانت مصدّقة لم تعمل قبل ذلك خيرا فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها ، وإن عملت قبل الآية خيرا ، ثم عملت بعد الآية خيرا قبل منها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل في قوله (أو كسبت في إيمانها خيرا) قال : يعني المسلم الذي لم يعمل في إيمانه خيرا وكان قبل الآية مقيما على الكبائر ، والآيات التي هي علامات القيامة . قد وردت الأحاديث المتكاثرة في بيانها وتعدادها ، وهي مذكورة في كتب السنة .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

قرأ حمزة والكسائى فارقوا دينهم ، وهى قراءة على بن أبى طالب : أى تركوا دينهم وخرجوا عنه . وقرأ الباقون فرّقوا بالتشديد الا النخعى فانه قرأ بالتخفيف * والمعنى أنهم جعلوا دينهم متفرقا فأخذوا بعضه وتركوا بعضه ، قيل المراد بهم اليهود والنصارى . وقد ورد فى معنى هذا ، فى اليهود قوله تعالى ــ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة ــ ، وقيل المراد بهم المشركون عبد بعضهم الصنم و بعضهم الملائكة ، وقيل الآية عامة فى جميع الكفار وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله ، وهذا هو الصواب لأن اللفظ يفيد العموم فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب وطوائف المشركين وغيرهم ممن ابتدع من أهل الاسلام ، ومعنى شيعا فرقا وأحزابا فتصدق على كل قوم كان أمرهم فى الدين واحدا مجتمعا ، ثم اتبع كل جماعة منهم رأى كبير من كبرائهم يخالف الصواب و يباين الحق (لست منهم فى شىء) أى لست من تفرقهم ، أومن السؤال عن سبب تفرقهم والبحث عن موجب تحزبهم فى شىء من الأشياء فلا يلزمك من ذلك شىء ولا تخاطب به إنما عليك البلاغ ، وهو مثل قوله ﷺ «من غشنا فليس منا» : أى نحن برآء منه ، وموضع (فى شىء) نصب على الحال . قال الفراء هو على حذف مضاف : أى لست من عقابهم فى شىء ، وانما عليك الانذار ، ثم سلاه الله تعالى بقوله (إنما أمرهم الى الله) فهو مجازيهم بما تقتضيه مشيئته ، والحصر بانما هو فى حكم التعليل لما قبله والتأكيد له (ثم) هو يوم القيامة (ينبئهم) أى يخبرهم بما ينزله بهم من المجازاة (بما كانوا يعملون) ه من الأعمال التى تخالف ماشرعه الله لهم وأوجبه عليهم ، وهذه الآية من جملة ماهو منسوخ بآية السيف * قوله (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد بين عقب ذلك مقدار جزاء العاملين بما أمرهم به الممتثلين لما شرعه لهم بأن من جاء بحسنة واحدة من الحسنات فله من الجزاء عشر حسنات ، والتقدير فله عشر حسنات أمثالها ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف . قال أبو على الفارسى حسن التأنيث فى عشر أمثالها لما كان الأمثال مضافا إلى مؤنث ، نحو ذهبت بعض أصابعه . وقرأ الحسن وسعيد بن جبير والأعمش (فله عشر أمثالها) برفعهما .

وقد ثبت هذا التضعيف فى السنة بأحاديث كثيرة ، وهذا التضعيف هو أقل مايستحقه عامل الحسنة . وقد وردت الزيادة على هذا عموما وخصوصا ، ففى القرآن كقوله ــ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ــ . وورد فى بعض الحسنات أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب ، وورد فى السنة المطهرة تضعيف الجزاء إلى ألوف مؤلفة . وقد قدمنا تحقيق هذا فى موضعين من هذا التفسير فليرجع اليهما (ومن جاء بالسيئة) من الأعمال السيئة (فلا يجزى إلا مثلها) من دون زيادة عليها على قدرها فى الخفة والعظم ، فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده فى النار ، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرحة بأن من عمل كذا فعليه كذا ، ومالم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب فعلينا أن نقول يجازيه الله بمثله ، وان لم نقف على حقيقة مايجازى به ، وهذا ان لم يتب ، أما إذا تاب أو غلبت حسناته سيئاته أو تغمده الله برحمته وتفضل عليه بمغفرته فلا مجازاة ، وأدلة الكتاب والسنة مصرحة بهذا تصريحا لايبقى بعده ريب لمرتاب ، (وهم) أى من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة (لايظلمون) بنقص ثواب حسنات المحسنين ولا بزيادة عقوبات المسيئين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : قال اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ فتفرقوا ، فلما بعث محمد أنزل عليه (إن الذين فرقوا دينهم) الآية . وأخرج النحاس عنه فى ناسخه (إن الذين فرقوا دينهم) قال اليهود والنصارى تركوا الاسلام والدين الذى أمروا به (وكانوا شيعا) فرقا أحزابا مختلفة (لست منهم فى شىء) نزلت بمكة ثم نسخها ــ قاتلوا المشركين ــ . وأخرج أبو الشيخ

عنه

عنه (وكانوا شيعا) قال مللا شتى . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله (إن الذين فرّقوا دينهم) الآية قال هم فى هذه الأمة . وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير والطبرانى والشيرازى فى الألقاب وابن مردويه عنه عن النبى ﷺ فى الآية قال هم أهل البدع والأهواء من هـذه الأمة ، وفى إسناده عبد بن كثير وهو متروك الحديث ولم يرفعه غيره ، ومن عداه وقفوه على أبى هريرة . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أمامة فى الآية : قال هم الحرورية . وقد رواه ابن أبى حاتم والنحاس وابن مردويه عن أبى غالب عن أبى أمامة مرفوعا ولا يصح رفعه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن شاهين وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية وأبو نصر السجزى فى الابانة والبيهقى فى شعب الايمان عن عمر أن رسول الله ﷺ قال لعائشة « ياعائش إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة ، ياعائشة ان لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وهم منى براء . قال ابن كثير هو غريب ولا يصح رفعه . وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير : قال لما نزلت (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) قال رجل من المسلمين يارسول الله لا إله إلا الله حسنة ؟ قال نعم أفضل الحسنات ، وهذا مرسل ولا ندرى كيف إسناده إلى سعيد ؟ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود (من جاء بالحسنة) قال لا إله إلا الله . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة مثله أيضا . وقد قدّمنا الاشارة إلى أنها قد ثبتت الأحاديث الصحيحة بمضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فلا نطيل بذكرها ، ووردت أحاديث كثيرة فى الزيادة على هذا المقدار ، وفضل الله واسع ، وعطاؤه جم .

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *

لما بين سبحانه أن الكفار تفرّقوا فرقا وتحزبوا أحزابا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم (إننى هدانى ربى) أى أرشدنى بما أوحاه إلىّ (إلى صراط مستقيم) وهو ملة ابراهيم عليه السلام ؛ و(دينا) منتصب على الحال ، كما قال قطرب ، أوعلى انه مفعول هـدانى ، كما قال الأخفش : وقيل منتصب بفعل يدل عليه هدانى ، لأن معناه عرّفنى : أى عرفنى دينا ، وقيل انه بدل من محل الى صراط ، لأن معناه هـدانى صراطا مستقيما كقوله تعالى ـ ويهديكم صراطا مستقيما ـ وقيل منصوب باضمار فعل ، كأنه قيل اتبعوا دينا * قوله (قيما) قرأه الكوفيون وابن عامر بكسر القاف ، والتخفيف وفتح الياء . وقرأه الباقون بفتح القاف وكسر الياء المشدّدة ، وهما لغتان : ومعناه الدين المستقيم الذى لاعوج فيه ، وهو صفة لدينا وصف به مع كونه مصدرا مبالغة ، وانتصاب (ملة ابراهيم) على أنها عطف بيان لدينا ، ويجوز نصبها بتقدير أعنى ، و(حنيفا) منتصب على أنه حال من ابراهيم . قاله الزجاج ، وقال على بن سليمان هو منصوب باضمار أعنى ، والحنيف المائل الى الحق . وقد تقدّم تحقيقه (وما كان من المشركين) فى محل نصب معطوف على حنيفا ، أوجملة معترضة مقرّرة لما قبلها * قوله (قل ان صلاتى) أمره الله سبحانه ، أن يقول لهم بهذه المقالة عقب أمره : بأن يقول لهم بالمقالة السابقة ، قيل ووجـه ذلك أن ما تضمنه القول الأوّل إشارة إلى

?

أصول الدين ، وهذا إلى فروعها * والمراد بالصلاة جنسها فيدخل فيه جميع أنواعها ، وقيل المراد بها هنا صلاة الليل ، وقيل صلاة العيد * والنسك : جمع نسيكة ، وهي الذبيحة كذا قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم : أي ذبيحتي في الحج والعمرة ، وقال الحسن ديني ، وقال الزجاج : عبادتي من قولهم : نسك فلان هو ناسك : إذا تعبد ، وبه قال جماعة من أهل العلم ، (ومحياي ومماتي) أي ما أعمله في حياتي ومماتي من أعمال الخير ، ومن أعمال الخير في الممات الوصية بالصدقات وأنواع القربات ، وقيل نفس الحياة ونفس الموت (لله) قرأ الحسن نسكي بسكون السين ، وقرأ الباقون بضمها ، وقرأ أهل المدينة محياي بسكون الياء ، وقرأ الباقون بفتحها لئلا يجتمع ساكنان . قال النحاس لم يجزه : أي السكون أحد من النحويين إلا يونس ، وإنما أجازه لأن المدّة التي في الألف تقوم مقام الحركة . وقرأ ابن أبي اسحق وعيسى بن عمر وعاصم الجحدري محيّ من غير ألف وهي لغة عليا مضر ، ومنه قول الشاعر :

سبقوا هويّ وأعنقوا لهواهم * فتخرموا ولكل جنب مصرع

(لله رب العالمين) أي خالصا له لا شريك له فيه ، والاشارة (بذلك) الى ما أفاده (لله رب العالمين لا شريك له) من الاخلاص في الطاعة وجعلها لله وحده * قوله (وأنا أوّل المسلمين) أي أوّل مسلمي أمته ، وقيل أوّل المسلمين أجمعين ، لأنه وإن كان متأخرا في الرسالة فهو أوّلهم في الخلق ، ومنه قوله تعالى ـ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ـ الآية ، والأوّل أولى . قال ابن جرير الطبري : استدل بهذه الآية الشافعي على مشروعية افتتاح الصلاة بهذا الذكر ، فان الله أمر به نبيه وأنزله في كتابه ، ثم ذكر حديث عليّ : أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » الى قوله ـ وأنا أوّل المسلمين ـ قلت هذا هو في صحيح مسلم مطوّلا ، وهو أحد التوجهات الواردة ، ولكنه مقيد بصلاة الليل كما في الروايات الصحيحة ، وأصح التوجهات الذي كان يلازمه النبي ﷺ ويرشد إليه هو « اللهم باعد بيني وبين خطاياي » الى آخره ، وقد أوضحنا هذا في شرحنا للمنتقى بما لا يحتاج إلى زيادة عليه هنا .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله (إن صلاتي) قال : يعني المفروضة (ونسكي) يعني الحج . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير (ونسكي) قال : ذبيحتي . وأخرجا أيضا عن قتادة (إن صلاتي ونسكي) قال : حجي وذبيحتي . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ونسكي) قال ذبيحتي في الحج والعمرة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ونسكي) قال : ضحيتي * وفي قوله (وأنا أوّل المسلمين) قال : من هذه الأمة . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك فإنه يغفر لك بأوّل قطرة تقطر من دمها كل ذنب عملته ، وقولي إن صلاتي الى وأنا أوّل المسلمين ، قلت يا رسول الله هذا لك ولأهل بيتك خاصة فأهل ذلك أنتم أم للمسلمين عامة ؟ قال لا بل للمسلمين عامة » .

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي
جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ

سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿

الاستفهام فى (أغير الله أبغى ربا) للانكار وهو جواب على المشركين لما دعوه الى عبادة غير الله ، أى كيف أبغى غير الله ربا مستقلا وأترك عبادة الله أو شريكا لله فأعبدهما معا ، والحال أنه رب كل شيء والذى تدعوننى الى عبادته هو من جملة من هو مربوب له مخلوق مثلى لا يقدر على نفع ولاضر ، وفى هذا الكلام من التقريع والتوبيخ لهم مالا يقادر قدره ، وغير منصوب بالفعل الذى بعده ، وربا تميز أو مفعول ثان على جعل الفعل ناصبا لمفعولين ﴿ قوله (ولاتكسب كل نفس الا عليها) أى لايؤاخذ مما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها ، فكل كسبها للشر عليها لايتعداها الى غيرها ، وهو مثل قوله تعالى ـ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ـ وقوله ـ ولتجزى كل نفس بما تسعى ﴿ قوله (ولاتزر وازرة وزر أخرى) أصل الوزر الثقل ، ومنه قوله تعالى ـ ووضعنا عنك وزرك ـ وهو هنا الذنب ـ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ـ قال الأخفش ، يقال وزر يوزر، ووزر يزر وزرا ، ويجوز إزرا ، وفيه رد لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه ، والواحد من القبيلة بذنب الآخر ، وقد قيل ان المراد بهذه الآية فى الآخرة وكذلك التى قبلها لقوله تعالى ـ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ـ ومثله قول زينب بنت جحش : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم اذا كثر الخبث ، والأولى حمل الآية على ظاهرها : أعنى العموم وماورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التى تحملها العاقلة ونحو ذلك ، فيكون فى حكم المخصص بهذا العموم ويقر فى موضعه ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى ـ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ـ فان المراد بالأثقال التى مع أثقالهم هى أثقال الذين يضلونهم كما فى الآية الأخرى ـ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم (ثم الى ربكم مرجعكم) يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) فى الدنيا ، وعند ذلك يظهر حق المحقين وباطل المبطلين ﴿ قوله (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) خلائف جمع خليفة : أى جعلكم خلفاء الأمم الماضية والقرون السالفة ، قال الشماخ :

أصيبهم وتخطئنى المنايا ﴿ وأخلف فى ربوع عن ربوع

أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضا ، أو أن هذا النوع الانسانى خلفاء الله فى أرضه (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فى الخلق والرزق والقوة والفضل والعلم ، ودرجات منصوب بنزع الخافض ، أى الى درجات (ليبلوكم فيما آتاكم) : أى ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور ، أوليبتلى بعضكم ببعض كقوله تعالى ـ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ـ ثم خوفهم فقال (إن ربك سريع العقاب) فانه وان كان فى الآخرة فكل آت قريب كما قال ـ وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ـ ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال (وإنه لغفور رحيم) أى كثير الغفران والرحمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولاتزر وازرة) قال لايؤاخذ أحد بذنب غيره . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) قال أهلك القرون الأولى فاستخلفنا فيها بعدهم (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) قال : فى الرزق

# تفسير سورة الأعراف

هى مكية إلا ثمان آيات ، وهى قوله ـ واسألهم عن القرية ـ إلى قوله ـ وإذ نتقنا الجبل فوقهم ـ . وقد أخرج ابن الضريس والنحاس فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس ، قال : سورة الأعراف نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة : قال آية من الأعراف مدنية ، وهى ـ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ـ الى آخر الآية ، وسائرها مكية ، وقد ثبت أن النبى ﷺ كان يقرأ بها فى المغرب يفرقها فى الركعتين * وآياتها مائتان وست آيات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ * كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ *

قوله ( المص ) قد تقدّم فى فاتحة سورة البقرة مايغنى عن الاعادة ، وهو إما مبتدأ وخبره كتاب : أى ( المص ) حروف ( كتاب أنزل إليك ) أو هو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا المص : أى المسمى به ، وأما اذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التعديد فلا محل له ، وكتاب خبر المبتدا على الوجه الأوّل أو خبر مبتدأ محذوف على الثانى : أى هو كتاب . قال الكسائى : أى هذا كتاب ، وأنزل اليك صفة له ( فلا يكن فى صدرك حرج منه ) الحرج : الضيق ، أى لا يكن فى صدرك ضيق منه من إبلاغه الى الناس مخافة أن يكذبوك و يؤذوك فان الله حافظك وناصرك ، وقيل المراد لايضق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك ( فانما عليك البلاغ ) ، وقال مجاهد وقتادة : الحرج هنا الشك ، لأن الشاك ضيق الصدر : أى لاتشك فى أنه منزل من عند الله ، وعلى هذا يكون النهى له ﷺ من باب التعريض ، والمراد أمته : أى لايشك أحد منهم فى ذلك ، والضمير فى منه راجع إلى الكتاب ، فعلى الوجه الأوّل يكون على تقدير مضاف محذوف : أى من إبلاغه ، وعلى الثانى يكون التقدير من إنزاله ، والضمير فى ( لتنذر به ) راجع إلى

الكتاب

الكتاب : أى لتنذر الناس بالكتاب الذى أنزلناه إليك ، وهو متعلق بأنزل : أى أنزل إليك لانذارك للناس به ، أومتعلق بالنهى ، لأن انتفاء الشك فى كونه منزلا من عند الله أو انتفاء الخوف من قومه يقوّيه على الانذار ويشجعه ؛ لأن المتيقن يقدم على بصيرة ويباشر بقوّة نفس * قوله (وذكرى للمؤمنين) الذكرى التذكير ، قال البصريون : الذكرى فى محل رفع على إضمار مبتدأ ، وقال الكسائى : هى فى محل رفع عطفا على كتاب ، ويجوز النصب على المصدر : أى وذكر به ذكرى ، قاله البصريون ، ويجوز الجر حملا على موضع لتنذر : أى للانذار والذكرى ، وتخصيص الذكرى بالمؤمنين لأنهم الذين ينجع فيهم ذلك ، وفيه إشارة الى تخصيص الانذار بالكافرين * قوله (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) يعنى الكتاب ومثله السنة لقوله ـ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ـ ونحوها من الآيات ، وهو أمر للنبى ﷺ ولأمته ، وقيل هو أمر للأمة بعد أمره ﷺ بالتبليغ ، وهو منزل إليهم بواسطة إنزاله الى النبى ﷺ (ولا تتبعوا من دونه أولياء) نهى للأمة عن أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله ، فالضمير على هذا فى (من دونه) يرجع إلى رب ، ويجوز أن يرجع إلى ما فى ما أنزل إليكم : أى لا تتبعوا من دون كتاب الله أولياء تقلدونهم فى دينكم كما كان يفعله أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحللونه لهم ويحرمونه عليهم * قوله (قليلا ما تذكرون) انتصاب قليلا على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر : أى تذكرا قليلا ، وما مزيدة للتوكيد أوهو منتصب على الحال من فاعل لا تتبعوا ، وما مصدرية : أى لا تتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكرهم . قرئ (تذكرون) بالتخفيف بحذف إحدى التاءين ، وقرىء بالتشديد على الادغام * قوله (وكم من قرية أهلكناها) كم هى الخبرية المفيدة للتكثير وهى فى موضع رفع على الابتداء ، و (أهلكناها) الخبر ، ومن قرية تمييز ، ويجوز أن تكون فى محل نصب باضمار فعل بعدها لا قبلها ، لأن لها صدر الكلام ، ولولا اشتغال أهلكناها بالضمير لجاز انتصاب كم به ، والقرية موضع اجتماع الناس : أى كم من قرية من القرى الكبيرة أهلكناها نفسها باهلاك أهلها ، أو أهلكنا أهلها والمراد أردنا إهلاكها * قوله (فجاءها بأسنا) معطوف على أهلكنا بتقدير بتقدير الارادة كما مرّ ، لأن ترتيب مجىء البأس على الاهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير ، إذ الاهلاك هو نفس مجىء البأس . وقال الفراء : ان الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير ، والمعنى أهلكناها وجاءها بأسنا ، والواو لمطلق الجمع لا ترتيب فيها ، وقيل ان الاهلاك واقع لبعض أهل القرية ، فيكون المعنى وكم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع ، وقيل المعنى وكم من قرية حكمنا باهلاكها فجاءها بأسنا ، وقيل أهلكناها بارسال ملائكة العذاب اليها فجاءها بأسنا ، والبأس : هو العذاب ، وحكى عن الفراء أنه اذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت فيكون المعنى وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ، مثل دنا فقرب وقرب فدنا (بياتا) أى ليلا ، لأنه يبات فيه ، يقال بات يبيت بيتا وبياتا ، وهو مصدر واقع موقع الحال : أى بائتين * قوله (أوهم قائلون) معطوف على بياتا : أى بائتين أو قائلين ، وجاءت الجملة الحالية بدون واو استثقالا لاجتماع الواوين ، واو العطف وواو الحال ، هكذا قال الفراء ، واعترضه الزجاج فقال : هذا خطأ بل لا يحتاج الى الواو ، تقول جاءنى زيد راكبا أو هو ماش لأن فى الجملة ضميرا قد عاد الى الأوّل ، وأو فى هذا الموضع للتفصيل لا للشك ، والقيلولة هى نوم نصف النهار ، وقيل هى مجرد الاستراحة فى ذلك الوقت لشدّة الحرّ من دون نوم ، وخص الوقتين لأنهما وقت السكون والدعة فمجىء العذاب فيهما أشدّ وأفظع * قوله (فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا انا كنا ظالمين) الدعوى : الدعاء : أى فما كان دعاؤهم ربهم عند نزول العذاب الا اعترافهم بالظلم على أنفسهم ، ومثله ـ وآخر دعواهم ـ أى آخر دعائهم ، وقيل الدعوى

هنا بمعنى الادعاء ، والمعنى ما كان مايدّعونه لدينهم وينتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه وفساده ؛ واسم كان (إلا أن قالوا) وخبرها (دعواهم) ويجوز العكس ، والمعنى ما كان دعواهم إلا قولهم إنا كنا ظالمين ؛ قوله (فلنسألن الذين أرسل إليهم) هذا وعيد شديد ، والسؤال للقوم الذين أرسل الله إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ ، واللام لام القسم : أى لنسألنهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم ، والفاء لترتيب الأحوال الأخروية على الأحوال الدنيوية (ولنسألن المرسلين) أى الأنبياء الذين بعثهم الله : أى نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم ومن أطاع منهم ومن عصى ، وقيل المعنى فلنسألن الذين أرسل إليهم : يعنى الأنبياء ولنسألن المرسلين ، يعنى الملائكة ، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه ـ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ـ لما قدمنا غير مرة أن الآخرة مواطن ، فنى موطن يسألون ، وفى موطن لا يسألون ، وهكذا سائر ماورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة ونفى أخرى بالنسبة الى يوم القيامة : فانه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا عظيما (فلنقصن عليهم بعلم) أى على الرسل والمرسل إليهم ماوقع بينهم عند الدعوة منهم لهم بعلم لا بجهل : أى عالمين بما يسرون وما يعلنون (وما كنا غائبين) عنهم فى حال من الأحوال حتى يخفى علينا شىء مما وقع بينهم.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن النجار فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله (المص) قال : أنا الله أفصل . وأخرج ابن جرير عن سعيد ابن جبير مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن هذا ونحوه من فواتح السور قسم أقسم الله به ، وهى من أسماء الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (المص) قال ، هو المصور . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى فى قوله (المص) قال : الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من الصمد . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال معناه أنا الله الصادق ؛ ولا يخفى عليك أن هذا كله قول بالظن وتفسير بالحدس ، ولا حجة فى شىء من ذلك ، والحق ماقدمنا فى فاتحة سورة البقرة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس (فلا يكن فى صدرك حرج منه) قال الشك ، وقال لاعرابى ما الحرج فيكم ؟ قال ، اللبس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : ضيق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود ماهلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم ، ثم قرأ (فما كان دعواهم) الآية . وأخرجه ابن جرير عنه مرفوعا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) قال ، نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ونسأل المرسلين عما بلغوا ، فلنقصن عليهم بعلم قال : يوضع الكتاب يوم القيامة فتتكلم بما كانوا يعملون . وأخرج عبد بن حميد عن فرقد فى الآية قال : أحدهما الأنبياء ، وأحدهما الملائكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : نسأل الناس عن قول لا إله إلا الله ونسأل جبريل .

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا

وَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ *

قوله (والوزن يومئذ الحق) الوزن مبتدأ وخبره الحق : أى الوزن فى هذا اليوم العدل الذى لاجور فيه ، أو الخبر يومئذ ، والحق وصف للمبتدأ ، أى الوزن العدل كائن فى هذا اليوم ، وقيل ان الحق خبر مبتدأ محذوف .

واختلف أهل العلم فى كيفية هذا الوزن الكائن فى هذا اليوم ، فقيل المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزنا حقيقيا ، وهذا هو الصحيح ، وهو الذى قامت عليه الأدلة ، وقيل توزن نفس الأعمال وان كانت أعراضا ، فان الله يقلبها يوم القيامة أجساما كما جاء فى الخبر الصحيح ان البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف ، وكذلك ثبت فى الصحيح أنه يأتى القرآن فى صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك ، وقيل الميزان الكتاب الذى فيه أعمال الخلق ، وقيل الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء ، وذكرهما من باب ضرب المثل كما تقول هذا الكلام فى وزن هذا . قال الزجاج هذا سائغ من جهة اللسان ، والأولى أن تتبع ماجاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان . قال القشيرى وقد أحسن الزجاج فيما قال ، إذ لو حمل الصراط على الدين الحق ، والجنة والنار على مايرد على الأرواح دون الأجساد ، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة ، والملائكة على القوى المحمودة ، ثم قال وقد أجمعت الأمة فى الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل ، واذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر وصارت هذه الظواهر نصوصا انتهى * والحق هو القول الأول ، وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون فى استبعادهم بشىء من الشرع يرجع إليه ، بل غاية ماتشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس فى ذلك حجة على أحد ، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هى أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال كل ماشاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، و يتحد قبولهم لها ، بل كل فريق يدعى على العقل مايطابق هواه ويوافق مايذهب اليه هو أو من هو تابع له فتتناقض عقولهم على حسب ماتناقضت مذاهبهم ، يعرف هذا كل منصف ، ومن أنكره فليصف فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب فانه ان فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه .

وقد ورد ذكر الوزن والموازين فى مواضع من القرآن كقوله ــ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ــ * وقوله ــ فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، وقوله فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * وقوله ــ إن الله لايظلم مثقال ذرة ــ * وقوله ــ فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ــ ، والفاء فى (فمن ثقلت موازينه) للتفصيل * والموازين : جمع ميزان ، وأصله موزان قلبت الواو ياء لكسرة ماقبلها ، وثقل الموازين هذا يكون بثقل ماوضع فيها من صحائف الأعمال ، وقيل ان الموازين جمع موزون : أى فمن رجحت أعماله الموزونة ، والأول أولى * وظاهر جمع

الموازين المضافة الى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله ، وقيل هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال : خرج فلان إلى مكة على البغال ، والاشارة بقوله (فأولئك) الى من ، والجمع باعتبار معناه كما رجع إليه ضمير (موازينه) باعتبار لفظه ، وهو مبتدأ خبره (هم المفلحون) والكلام فى قوله (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) مثله ، والباء فى (بما كانوا بآياتنا يظلمون) سببية ، وما مصدرية * ومعنى (يظلمون) يكذبون * قوله (ولقد مكناكم فى الأرض) أى جعلنا لكم فيها مكانا وهيأنا لكم فيها أسباب المعايش * والمعايش جمع معيشة : أى ما يتعايش به من المطعوم والمشروب وما تكون به الحياة ، يقال عاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشا . قال الزجاج : المعيشة ما يتوصلون به الى العيش ، والمعيشة عند الأخفش وكثير من النحويين مفعلة ، وقرأ الأعرج معائش بالهمز ، وكذا روى خارجة بن مصعب عن نافع . قال النحاس والهمز لحن لا يجوز ، لأن الواحدة معيشة والياء أصلية كمدينة ومدائن ، وصحيفة وصحائف * قوله (قليلا ما تشكرون) الكلام فيه كالكلام فيما تقدم قريبا من قوله تعالى ــ قليلا ما تذكرون ــ * قوله (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) هذا ذكر نعمة أخرى من نعم الله على عبيده * والمعنى خلقناكم نطفا ثم صورناكم بعد ذلك ، وقيل المعنى : خلقنا آدم من تراب ثم صورناكم فى ظهره ، وقيل (ولقد خلقناكم) يعنى آدم ذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر (ثم صورناكم) راجع اليه ، ويدل عليه (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فان ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصور آدم عليه السلام . وقال الأخفش ان ثم فى (ثم صورناكم) بمعنى الواو ، وقيل المعنى : خلقناكم من ظهر آدم ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق . قال النحاس وهذا أحسن الأقوال ، وقيل المعنى ولقد خلقنا الأرواح أولا ، ثم صورنا الأشباح ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم : أى أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر ، وفعلوا السجود بعد الأمر (الا ابليس) قيل الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس لأنه كان منفردا بينهم ، أو كما قيل لأن من الملائكة جنسا يقال لهم الجن ، وقيل غير ذلك ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة * قوله (لم يكن من الساجدين) جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء ومن جعل الاستثناء منقطعا قال معناه : لكن ابليس لم يكن من الساجدين ، وجملة (قال ما منعك ألا تسجد) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل فماذا قال له الله ؟ ولا فى (أن لا تسجد) زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى فى سورة ص ــ ما منعك أن تسجد ــ ، وقيل ان منع بمعنى قال ، والتقدير من قال لك أن لا تسجد ، وقيل منع بمعنى دعا : أى ما دعاك الى أن لا تسجد ، وقيل فى الكلام حذف ، والتقدير ما منعك من الطاعة وأحوجك الى أن لا تسجد (اذ أمرتك) : أى وقت أمرتك ، وقد استدل به على أن الأمر للفور ، والبحث مقرر فى علم الأصول ، والاستفهام فى (ما منعك) للتقريع والتوبيخ ، والا فهو سبحانه عالم بذلك ، وجملة (قال أنا خير منه) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فما قال ابليس ؟ وانما قال فى الجواب أنا خير منه ، ولم يقل منعنى كذا ، لأن فى هذه الجملة التى جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع وهو اعتقاده أنه أفضل منه ، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من انكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله ، ثم علل ما ادعاه من الخيرية بقوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) اعتقادا منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ، وقد أخطأ عدو الله فان عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزانته وسكونه وطول بقائه وهى خفيفة مضطربة سريعة النفاد ، ومع هذا فهو موجود فى الجنة دونها ، وهى عذاب دونه ، وهى محتاجة اليه لتتحيز فيه ، وهو مسجد وطهور ، ولولا سبق شقاوته وصدق كلمة الله عليه لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقدوة ، فعنصرهم النورى أشرف من عنصره النارى ، وجملة (قال فاهبط) استئنافية

كالتى قبلها ، والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر : أى اهبط من السماء التى هى محل المطيعين من الملائكة الذين لايعصون الله فيما أمرهم إلى الأرض التى هى مقرّ من يعصى ويطيع ، فإن السماء لاتصلح لمن يتكبر ويعصى أمر ربه مثلك ، ولهذا قال (فما يكون لك أن تتكبر فيها) * ومن التفاسير الباطلة ماقيل ان معنى (اهبط منها) أى اخرج من صورتك النارية التى افتخرت بها إلى صورة مظلمة مشوّهة ، وقيل المراد هبوطه من الجنة ، وقيل من زمرة الملائكة ، وجملة (فاخرج) لتأكيد الأمر بالهبوط ، وجملة (إنك من الصاغرين) تعليل للأمر : أى انك من أهل الصغار والهوان على الله وعلى صالحى عباده ، وهكذا كل من تردّى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان والصغار ، ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع ، وجملة (قال أنظرنى إلى يوم يبعثون) استئنافية كما تقدّم فى الجمل السابقة : أى أمهلنى إلى يوم البعث ، وكأنه طلب أن لايموت ، لأن يوم البعث لاموت بعده ، والضمير فى (يبعثون) لآدم وذريته ، فأجابه الله بقوله (انك من المنظرين) أى الممهلين الى ذلك اليوم ، ثم تعاقب بما قضاه الله لك ، وأنزله بك فى دركات النار * قيل الحكمة فى إنظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه ، وجملة (قال فبما أغويتنى) مستأنفة كالجمل السابقة واردة جوابا لسؤال مقدّر ، والباء فى (فبما) للسببية والفاء لترتيب الجملة على ماقبلها ، وقيل الباء للقسم كقوله (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) أى فباغوائك إياى (لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) * والاغواء : الايقاع فى الغىّ ، وقيل الباء بمعنى اللام ، وقيل بمعنى مع * والمعنى فمع إغوائك اياى ، وقيل (ما) فى (فبما أغويتنى) للاستفهام * والمعنى : فبأىّ شىء أغويتنى * والأوّل أولى ، ومراده بهذا الاغواء الذى جعله سببا لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه وان ذلك كان باغواء الله له : حتى اختار الضلالة على الهدى ، وقيل أراد به اللعنة التى لعنه الله : أى فبما لعنتنى فأهلكتنى لأقعدنّ لهم ، ومنه — فسوف يلقون غيا — أى هلاكا . وقال ابن الأعرابى : يقال غوى الرجل يغوى غيا : اذا فسد عليه أمره أو فسد هو فى نفسه ، ومنه — فعصى آدم ربه فغوى — أى فسد عيشه فى الجنة (لأقعدن لهم) أى لأجهدنّ فى إغوائهم حتى يفسدوا بسببى كما فسدت بسبب تركى السجود لأبيهم * والصراط المستقيم هو الطريق الموصل الى الجنة ، وانتصابه على الظرفية : أى فى صراطك المستقيم كما حكى سيبويه ضرب زيد الظهر والبطن ، واللام فى (لأقعدنّ) لام القسم ، والباء فى (بما أغويتنى) متعلقة بفعل القسم المحذوف : أى فبما أغويتنى أقسم لأقعدنّ * قوله (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) ذكر الجهات الأربع لأنها هى التى يأتى منها العدوّ عدوّه ، ولهذا ترك ذكر جهة الفوق والتحت ، وعدى الفعل الى الجهتين الأوليين بمن ، والى الأخريين بعن ، لأن الغالب فيمن يأتى من قدّام وخلف أن يكون متوجها إلى مايأتيه بكلية بدنه ، والغالب فيمن يأتى من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفا ، فناسب فى الأوليين التعدية بحرف الابتداء ، وفى الأخريين التعدية بحرف المجاوزة ، وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتى حقيقة ، وقيل المراد (من بين أيديهم) من دنياهم (ومن خلفهم) من آخرتهم (وعن أيمانهم) من جهة حسناتهم (وعن شمائلهم) من جهة سيئاتهم ، واستحسنه النحاس * قوله (ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى وعند أن أفعل ذلك لاتجد أكثرهم شاكرين لتأثير وسوستى فيهم وإغوائى لهم ، وهذا قاله على الظنّ ، ومنه قوله تعالى — ولقد صدّق عليهم ابليس ظنه — ، وقيل انه سمع ذلك من الملائكة فقاله ، وعبر بالشكر عن الطاعة أو هو على حقيقته وأنهم لم يشكروا الله بسبب الاغواء ، وجملة (قال اخرج منها) استئناف كالجمل التى قبلها : أى من السماء أو الجنة أو من بين الملائكة كما تقدّم (مذءوما) : أى مذموما من ذأمه اذاذمّه ، يقال ذأمته وذممته بمعنى ؛

وقرأ الأعمش مذموما ، وقرأ الزهرى مذوما بغير همزة ، وقيل المذءوم : المنفى ، والمدحور : المطرود * قوله (لمن تبعك منهم) قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم ، وجوابه (لأملأنّ جهنم منكم أجمعين) ، وقيل اللام فى (لمن تبعك) للتوكيد ، وفى (لأملأنّ) لام القسم * والأوّل أولى ، وجواب القسم سدّ مسدّ جواب الشرط ، لأن من شرطية ، وفى هذا الجواب من التهديد مالا يقادر قدره ، وقرأ عاصم فى رواية عنه (لمن تبعك) بكسر اللام ، وأنكره بعض النحويين . قال النحاس وتقديره والله أعلم من أجل من اتبعك كما يقال أكرمت فلانا لك ، وقيل هو علة لاخرج ، وضمير (منكم) له ولمن اتبعه ، وغلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة ، والأصل منك ومنهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (والوزن يومئذ الحق) قال العدل (فمن ثقلت موازينه) قال حسناته (ومن خفت موازينه) قال حسناته . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال توزن الأعمال ، وقد ورد فى كيفية الميزان والوزن والموزون أحاديث كثيرة . وأخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن عبد الله ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « يصاح برجل من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مدّ البصر ، فيقول أتنكر من هذا شيئا ، أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول لايارب ، فيقول أفلك عذر أوحسنة ؟ فيهاب الرجل ، فيقول لايارب ، فيقول بلى ان لك عندنا حسنة وانه لاظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال انك لاتظلم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة . وقد صححه أيضا الترمذى و إسناد أحمد حسن . وأخرج عبد الرازق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم) قال خلقوا فى أصلاب الرجال وصوّروا فى أرحام النساء . وأخرج الفريابى عنه أنه قال خلقوا فى ظهر آدم ثم صوّروا فى الأرحام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال أما خلقناكم فآدم ، وأما ثم صورناكم فذريته . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال خلق ابليس من نار العزة . وقد ثبت فى الصحيح من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ « خلقت الملائكة من نور ، وخلق ابليس من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : أوّل من قاس ابليس فى قوله : خلقتنى من نار وخلقته من طين ، و إسناده صحيح الى الحسن . وأخرج أبونعيم فى الحلية والديلمى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ﷺ قال « أوّل من قاس أمر الدين برأيه ابليس قال الله له اسجد لآدم فقال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال جعفر فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بابليس لأنه اتبعه بالقياس * وينبغى أن ينظر فى إسناد هذا الحديث فما أظنه يصح رفعه وهو لايشبه كلام النبوّة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال (فبما أغويتنى) أضللتنى . وأخرج عبد بن حميد عنه فى قوله (لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) . قال طريق مكة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (ثم لآتينهم من بين أيديهم) قال أشككهم فى آخرتهم (ومن خلفهم) قال أرغبهم فى دنياهم (وعن أيمانهم) أشبه عليهم أمر دينهم (وعن شمائلهم) قال أسنّ لهم المعاصى وأحق عليهم الباطل (ولا تجد أكثرهم شاكرين) قال موحدين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه (ثم لآتينهم من بين أيديهم) يقول من

حيث

حيث يبصرون (ومن خلفهم) من حيث لايبصرون (وعن أيمانهم) من حيث يبصرون (وعن شمائلهم) من حيث لايبصرون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا فى الآية : قال لم يستطع أن يقول من فوقهم ، وفى لانا علم أن الرحمة تنزل من فوقهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (مذءوما) قال ملوما ، مدحورا : قال مقيتا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (مذءوما) قال منفيا (مدحورا) قال مطرودا .

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *

قوله (ويا آدم) هو على تقدير القول : أى وقلنا يا آدم ، قال له هذا القول بعد إخراج ابليس من الجنة ، أومن السماء ، أومن بين الملائكة كما تقدم . وقد تقدم معنى الاسكان ، ومعنى لاتقربا هذه الشجرة فى البقرة ، ومعنى (من حيث شئتما) من أى نوع من أنواع الجنة شئتما أكله ، ومثله ماتقدم من قوله تعالى ـ وكلا منها رغدا حيث شئتما ـ وحذف النون من (فتكونا) لكونه معطوفا على المجزوم أومنصوبا على أنه جواب النهى * قوله (فوسوس لهما الشيطان) الوسوسة : الصوت الخفى ، والوسوسة : حديث النفس ، يقال وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواسا بكسر الواو ، والوسوسة بالفتح الاسم : مثل الزلزلة والزلزال ، ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى وسواس . قال الأعشى : * تسمع للحلى وسواسا اذا انصرفت *

والوسواس : اسم الشيطان * ومعنى وسوس له : وسوس إليه أو فعل الوسوسة لأجله * قوله (ليبدى لهما) أى ليظهر لهما ، واللام للعاقبة كما فى قوله ـ ليكون لهم عدوا وحزنا ـ ، وقيل هى لام كى : أى فعل ذلك ليتعقبه الابداء ، أولكى يقع الابداء * قوله (ماوورى) أى ماستر وغطى (عنهما من سوآتهما) سمى الفرج سوءة ، لأن ظهوره يسوء صاحبه ، أراد الشيطان أن يسوءهما بظهورما كان مستورا عنهما من عوراتهما فانهما كانا لايريان عورة أنفسهما ولايراها أحدهما من الآخر ، وانما لم تقلب الواو فى (وورى) همزة ، لأن الثانية مدة ، قيل انما بدت عورتهما لهما لالغيرهما ، وكان عليهما نور يمنع من رؤيتها (وقال) أى الشيطان لهما (مانهاكما ربكما عن) أكل هذه الشجرة (الا أن تكونا ملكين) أن فى موضع نصب ، وفى الكلام مضاف محذوف تقديره ، ولا كراهة أن تكونا ملكين هكذا قال البصريون . وقال الكوفيون التقدير لئلا تكونا ملكين (أو تكونا من الخالدين) فى الجنة أو من الذين لايموتون * قال النحاس : فضل الله الملائكة على جميع الخلق فى غير موضع فى القرآن ، فمنها

هذا ، ومنها ــ ولا أقول إني ملك ــ ، ومنها ــ ولا الملائكة المقربون ــ . قال ابن فورك لاحجة فى هذه الآية ، لأنه يحتمل أن يريد ملكين فى أن لايكون لهما شهوة فى الطعام .

وقد اختلف الناس فى هذه المسألة اختلافا كثيرا وأطالوا الكلام فى غير طائل ، وليست هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه ، فالكلام فيها لايعنينا ، وقرأ ابن عباس ويحيى بن أبى كثير والضحاك ملكين بكسر اللام ، وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال لم يكن قبل آدم ملك فيصيرا ملكين . وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى ــ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ــ . قال أبو عبيد هذه حجة بينة لقراءة الكسر ولكن الناس على تركها ، فلهذا تركناها . قال النحاس هى قراءة شاذة ، وأنكر على أبى عبيد هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش . قال وهل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أن يصل الى أكثر من ملك الجنة وهى غاية الطالبين ، وانما معنى ــ وملك لايبلى ــ المقام فى ملك الجنة والخلود فيه * قوله (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) أى حلف لهما فقال : أقسم اقساما : أى حلف ، ومنه قول الشاعر :

وقاسمهما بالله جهدا لأنتما * ألذ من السلوى اذا مانشورها

وصيغة المفاعلة وان كانت فى الأصل تدل على المشاركة فقد جاءت كثيرا لغير ذلك . وقد قدمنا تحقيق هذا فى المائدة ، والمراد بها هنا المبالغة فى صدور الاقسام لهما من ابليس ، وقيل انهما أقسما له بالقبول كما أقسم لهما على المناصحة * قوله (فدلاهما بغرور) التدلية والادلاء : إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل ، يقال أدلى دلوه : أرسلها * والمعنى : أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة ، وقيل معناه : أوقعهما فى الهلاك ، وقيل خدعهما ، وأنشد نفطويه :

ان الكريم اذا تشاء خدعته * وترى اللئيم مجربا لايخدع

وقيل معنى (دلاهما) دللهما من الدالة ، وهى الجرأة : أى جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة * قوله (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما) أى لما طعماها ظهرت لهما عوراتهما بسبب زوال ما كان ساترا لهما وهو تقلص النور الذى كان عليها . وقد تقدم فى البقرة * قوله (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) طفق يفعل كذا بمعنى : شرع يفعل كذا * وحكى الأخفش : طفق يطفق مثل ضرب يضرب : أى شرعا أوجعلا يخصفان عليهما ، قرأ الحسن يخصفان بكسر الخاء وتشديد الصاد ، والأصل يختصفان فأدغم وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين ، وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء ، وقرأ الزهرى يخصفان من أخصف ، وقرأ الجمهور يخصفان من خصف * والمعنى أنهما أخذا يقطعان الورق و يلزقانه بعورتهما ليستراها من خصف النعل : اذا جعله طبقة فوق طبقة (وناداهما ربهما) قائلا لهما (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) التى نهيتكما عن أكلها ، وهذا عتاب من الله لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ماحذرهما منه (وأقل لكما) معطوف على (أنهكما) . (ان الشيطان لكما عدو مبين) أى مظهر للعداوة * قوله (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل فماذا قالا ؟ وهذا منهما اعتراف بالذنب وأنهما ظلما أنفسهما بما وقع منهما من المخالفة ، ثم قالا (وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ، وجملة (قال اهبطوا) استئناف كالتى قبلها ، والخطاب لآدم وحواء وذريتهما ، أولهما ولابليس ، وجملة (بعضكم لبعض عدو) فى محل نصب على الحال (ولكم فى الأرض مستقر) أى موضع استقرار (و) لكم (متاع) تتمتعون به فى الدنيا وتنتفعون به من المطعم والمشرب ونحوهما (الى حين) أى الى وقت ، وهو وقت موتكم ، وجملة (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) استئنافية كالتى قبلها : أى فى الأرض تحيون ، وفيها يأتيكم

الموت

الموت ، ومنها تخرجون الى دار الآخرة ، ومثله قوله تعالى ـ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى * واعلم أنه قد سبق شرح هذه القصة مستوفى فى البقرة فارجع اليه .

وقد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن وهب بن منبه فى قوله (ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما) قال : كان على كل واحد منهما نور لا يبصر كل واحد منهما سوءة صاحبه ، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أتاهما ابليس فقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكون ملكين مثله : يعنى مثل الله عزّ وجلّ ، فلم يصدّقاه حتى دخل فى جوف الحية فكلمهما . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية (الا أن تكونا ملكين) فان أخطأكما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا خالدين فلا تموتان فيها أبدا (وقاسمهما) قال : حلف لهما (انى لكما لمن الناصحين) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب فى قوله (فدلاهما بغرور) قال : مناهما بغرور . وأخرج ابن المنذر وابن أبى شيبة عن عكرمة قال : لباس كل دابة منها ، ولباس الانسان الظفر فأدركت آدم التوبة عند ظفره . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان لباس آدم وحوّاء كالظفر ، فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما الا مثل الظفر (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قال : ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقى فى أطراف أصابعه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه نحوه من طريق أخرى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك قال : كان لباس آدم فى الجنة الياقوت ، فلما عصى قلص فصار الظفر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وطفقا يخصفان) قال ، يرقعان كهيئة الثوب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) قال آدم رب انه حلف لى بك ولم أكن أعلم أن أحدا من خلقك يحلف بك الا صادقا . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية قال : هى الكلمات التى تلقى آدم من ربه . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله .

يَٰبَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَٰتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَٰبَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ *

عبر سبحانه بالانزال عن الخلق ، أى خلقنا لكم لباسا يوارى سوآتكم التى أظهرها إبليس من أبويكم ، والسوءة : العورة كما سلف ، والكلام فى قدرها وما يجب ستره منها مبين فى كتب الفروع * قوله (وريشا) قرأ الحسن وعاصم من رواية المفضل الضبى وأبو عمرو من رواية الحسن بن علىّ الجعفى ورياشا . وقرأ الباقون (وريشا) والرياش جمع ريش : وهو اللباس . قال الفراء : ريش ورياش كما يقال لبس ولباس ، وريش الطائر ماستره الله به ، وقيل المراد بالريش هنا الخصب ورفاهية العيش . قال القرطبى : والذى عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ماستر من لباس أو معيشة ، وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة وهبت له دابة وريشها : أى وما عليها

من اللباس ، وقيل المراد بالريش هنا لباس الزينة لذكره بعد قوله (قد أنزلنا عليكم لباسا) وعطفه عليه * قوله (ولباس التقوى) . قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب لباس . وقرأ الباقون بالرفع ، فالنصب على أنه معطوف على لباس الأول ، والرفع على أنه مبتدأ ، وجملة (ذلك خير) خبره ، والمراد بلباس التقوى : لباس الورع واتقاء معاصى الله ، وهو الورع نفسه والخشية من الله ، فذلك خير لباس وأجمل زينة ، وقيل لباس التقوى الحياء ، وقيل العمل الصالح ، وقيل هو لباس الصوف والخشن من الثياب لما فيه من التواضع لله ، وقيل هو الدرع والمغفر الذى يلبسه من يجاهد فى سبيل الله ، والأول أولى ، وهو يصدق على كل مافيه تقوى لله فيندرج تحته جميع ماذكر من الأقوال ، ومثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع فى كلام العرب ، ومنه .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى * تقلب عريانا وان كان كاسيا

ومثله

تغط بأثواب السخاء فاننى * أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

والاشارة بقوله (ذلك) الى لباس التقوى ، أى هو خير لباس . وقرأ الأعمش (ولباس التقوى خير) والاشارة بقوله (ذلك من آيات الله) الى الانزال المدلول عليه بأنزلنا : أى ذلك الانزال من آيات الله الدالة على أن له خالقا ، ثم كرر الله سبحانه النداء لبنى آدم تحذيرا لهم من الشيطان ، فقال (يابنى آدم لايفتننكم الشيطان) أى لايوقعنكم فى الفتنة ، فالنهى وان كان للشيطان فهو فى الحقيقة لبنى آدم بأن لايفتتنوا بفتنته ويتأثروا لذلك ، والكاف فى (كما أخرج) نعت مصدر محذوف ، أى لايفتننكم فتنة مثل إخراج أبويكم من الجنة ، وجملة (ينزع عنهما لباسهما) فى محل نصب على الحال ، وقد تقدم تفسيره ، واللام فى (ليريهما سوآتهما) لام كى ، أى لكى يريهما ، وقد تقدم تفسيره أيضا * قوله (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) هذه الجملة تعليل لما قبلها مع ماتتضمنه من المبالغة فى تحذيرهم منه ، لأن من كان بهذه المثابة يرى بنى آدم من حيث لايرونه ، كان عظيم الكيد ، وكان حقيقا بأن يحترس منه أبلغ احتراس (وقبيله) أعوانه من الشياطين وجنوده .

وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة ، وليس فى الآية مايدل على ذلك وغاية مافيها أنه يرانا من حيث لانراه ، وليس فيها أنا لانراه أبدا ، فان انتفاء الرؤية منا له فى وقت رؤيته لنا لايستلزم انتفاءها مطلقا ، ثم أخبر الله سبحانه بأنه جعل الشياطين أولياء للذين لايؤمنون من عباده وهم الكفار .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم) قال : كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة ، وفى قوله (وريشا) قال : المال . وأخرج ابن جرير عن عروة بن الزبير فى قوله (لباسا يوارى سوآتكم) قال : الثياب (وريشا) قال : المال (ولباس التقوى) قال : خشية الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن على فى قوله (لباسا يوارى سوآتكم) قال : لباس العامة (وريشا) قال : لباس الزينة (ولباس التقوى) قال : الاسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله (وريشا) قال المال واللباس والعيش والنعيم ، وفى قوله (ولباس التقوى) قال : الايمان والعمل الصالح (ذلك خير) قال : الايمان والعمل خير من الريش واللباس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (ورياشا) يقول المال . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ينزع عنهما لباسهما) قال : التقوى ، وفى قوله (إنه يراكم هو وقبيله) قال : الجن والشياطين .

وَإِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ *

الفاحشة ما تبالغ في فحشه وقبحه من الذنوب . قال أكثر المفسرين هي طواف المشركين بالبيت عراة ، وقيل هي الشرك ، والظاهر أنها تصدق على ماهو أعم من الأمرين جميعا ، والمعنى أنهم إذا فعلوا ذنبا قبيحا متبالغا في القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين : الأول أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم لما وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة ، والثاني أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه ، وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد ، لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوغ لهم فعله ، والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء ، بل أمرهم باتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلة ونهاهم عن مخالفتهما ، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش ، ولهذا رد الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم ـ ان الله لا يأمر بالفحشاء ـ فكيف تدعون ذلك عليه سبحانه ، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه ، فقال (أتقولون على الله مالا تعلمون) وهو من تمام ما أمر النبي ﷺ بأن يقوله لهم ، وفيه من التقريع والتوبيخ أمر عظيم ، فإن القول بالجهل اذا كان قبيحا في كل شيء فكيف اذا كان في التقول على الله ؛ وان في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق ، فانهم القائلون ـ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ـ والقائلون (وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق لم يبق عليه ، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية والنصراني على النصرانية والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات الا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية أو البدعية وأحسنوا الظن بهم بأن ماهم عليه هو الحق الذى أمر الله به ولم ينظروا لأنفسهم ، ولا طلبوا الحق كما يجب وبحثوا عن دين الله كما ينبغي ، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص ، فيامن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الاسلامية أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة وتستمر على الضلالة ، فقد اختلط الشر بالخير والصحيح بالسقيم وفاسد الرأى بصحيح الرواية ، ولم يبعث الله الى هذه الأمة الا نبيا واحدا أمرهم باتباعه ونهى عن مخالفته فقال ـ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ـ ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد : لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به ، وان من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله ووجود من يأخذونهما عنه ووجود آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم * قوله (قل أمر ربي بالقسط) القسط : العدل ، وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعموه من أن الله أمرهم بالفحشاء ، وقيل القسط هنا هو لا إله إلا الله ، وفي الكلام حذف : أي قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه * قوله (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) معطوف على المحذوف المقدر ، أي توجهوا إليه في صلاتكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم ، أو في كل وقت سجود ، أو في كل مكان سجود ، على أن المراد بالسجود الصلاة (وادعوه مخلصين له الدين) أي ادعوه أو اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء ، أو

العبادة له ، وقيل وحدوه ولا تشركوا به * قوله ( كما بدأكم تعودون) الكاف نعت مصدر محذوف ، وقال الزجاج : هو متعلق بما قبله * والمعنى كما أنشأكم فى ابتداء الخلق يعيدكم ، فيكون المقصود الاحتجاج على منكرى البعث ، فيجازى المحسن باحسانه ، والمسيء باساءته ، وقيل كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شيء ، فيكون مثل قوله تعالى ـ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ـ وقيل كما بدأكم من تراب تعودون الى التراب (فريقا هدى) منتصب بفعل يفسره ما بعده ، وقيل منتصب على الحال من المضمر فى تعودون ، أى تعودون فريقين : سعداء وأشقياء ، ويقوّيه قراءة أبىّ (فريقين فريقا هدى) ، والفريق الذى هداه الله هم المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه ، والفريق الذى حقت عليه الضلالة هم الكفار * قوله (انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) تعليل لقوله (وفريقا حق عليهم الضلالة) ، أى ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين فى معصية الله ، ومع هذا فانهم (يحسبون أنهم مهتدون) ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة ، وهذا أشدّ فى تمرّدهم وعنادهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (والذين إذا فعلوا فاحشة) قال كان يطوفون بالبيت عراة ، فنهوا عن ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية قال : والله ما أكرم الله عبدا قط على معصيته ولا رضيها له ولا أمر بها ، ولكن رضى لكم بطاعته ونهاكم عن معصيته . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (أمر ربى بالقسط) قال بالعدل (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) قال : الى الكعبة حيث صليتم فى كنيسة أو غيرها (كما بدأكم تعودون) قال شقىّ وسعيد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (كما بدأكم تعودون) الآية قال : ان الله بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا ، كما قال ـ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ـ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا . وأخرج ابن جرير عن جابر فى الآية . قال يبعثون على ما كانوا عليه المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه أنه ذكر القدرية ، فقال قاتلهم الله أليس قد قال الله تعالى (كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية : يقول كما خلقناكم أول مرة كذلك تعودون .

يَٰبَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ *

هذا خطاب لجميع بنى آدم ، وان كان واردا على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والزينة ما يتزين به الناس من الملبوس ، أمروا بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف . وقد استدلّ بالآية على وجوب ستر العورة فى الصلاة ، واليه ذهب جمهور أهل العلم ، بل سترها واجب فى كل

حال

حالمن الأحوال ، وان كان الرجل خاليا كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، والكلام على العورة ومايجب ستره منها مفصل فى كتب الفروع * قوله ( وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ) أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب ، ونهاهم عن الاسراف فلا زهد فى ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه وهو من أهل النار ، كما صح فى الأحاديث الصحيحة والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه و يعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أوسعى على نفسه ، وعلى من يعول مخالف لما أمر الله به وأرشد اليه ، والمسرف فى انفاقه على وجه لايفعله إلا أهل السفه والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع فى النهى القرآنى ، وهكذا من حرّم حلالا أوحلل حراما ، فانه يدخل فى المسرفين و يخرج عن المقتصدين ، ومن الاسراف الأكل لاالحاجة ، وفى وقت شبع * قوله ( قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده ) الزينة مايتزين به الانسان من ملبوس أوغيره من الأشياء المباحة كالمعادن التى لم يرد نهى عن التزين بها والجواهر ونحوها وقيل الملبوس خاصة ولاوجه له ، بل هو من جملة ماتشمله الآية فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة اذا لم يكن مما حرّمه الله ولاحرج على من تزين بشىء من الأشياء التى لها مدخل فى الزينة ولم يمنع منها مانع شرعى ، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطا بينا . وقد قدّمنا فى هذا مايكفى ، وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس فانه لازهد فى ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للانكار على من حرّم ذلك على نفسه أوحرّمه على غيره ، وما أحسن ماقال ابن جرير الطبرى ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل اليه من حله ومن أكل البقول والعدس ، واختاره على خبز البر ، ومن ترك أكل اللحم خوفا من عارض الشهوة . وقد قدمنا نقل مثل هذا عنه مطوّلا ، والطيبات المستلذات من الطعام ، وقيل هو اسم عام لما طاب كسبا ومطعما * قوله ( قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ) أى انها لهم بالاصالة وان شاركهم الكفار فيها ماداموا فى الحياة ( خالصة يوم القيامة ) أى مختصة بهم يوم القيامة لايشاركهم فيها الكفار . وقرأنافع خالصة بالرفع ، وهى قراءة ابن عباس على أنها خبر بعد خبر . وقرأ الباقون بالنصب على الحال . قال أبو على الفارسى ولا يجوز الوقف على الدنيا ، لأن مابعدها متعلق بقوله ( للذين آمنوا ) حال منه بتقدير قل هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها لهم يوم القيامة * قوله ( كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ) أى مثل هذا التفصيل نفصل الآيات المشتملة على التحليل والتحريم * قوله ( قل إنما حرّم ربى الفواحش ) جمع فاحشة . وقد تقدم تفسيرها ( ماظهر منها وما بطن ) أى ماأعلن منها وما أسر ، وقيل هى خاصة بفواحش الزنا ولاوجه لذلك ، والاثم يتناول كل معصية يتسبب عنها الاثم ، وقيل هو الخمر خاصة ، ومنه قول الشاعر :

شربت الاثم حتى ضل عقلى * كذلك الاثم تذهب بالعقول

ومثله قول الآخر : * يشرب الاثم بالصواع جهارا * وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الاثم خاصا بالخمر . قال النحاس : فاما أن يكون الاثم الخمر فلا يعرف ذلك ، وحقيقته انه جميع المعاصى ، كما قال الشاعر :

انى وجدت الأمر أرشده * تقوى الاله وشره الاثم

قال الفراء الاثم مادون الحق والاستطالة على الناس انتهى ، وليس فى اطلاق الاثم على الخمر مايدل على اختصاصه به ، فهو أحد المعاصى التى يصدق عليها . قال فى الصحاح وقد يسمى الخمر إثما ، وأنشد : شربت الاثم البيت ، وكذا أنشده الهروى قبله فى غريبته * قوله ( والبغى بغير الحق ) أى

الظلم المجاوز للحد وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنبا عظيما كقوله ـ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ـ (وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) أى وأن تجعلوا لله شريكا لم ينزل عليكم به حجة ، والمراد التهكم بالمشركين ، لأن الله لا ينزل برهانا بأن يكون غيره شريكا له (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) حقيقته وأن الله قاله : وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التى لم يأذن بها.

وقد أخرج ابن أبى شيبة ومسلم والنسائى وغيرهم عن ابن عباس أن النساء كنّ يطفن عراة الا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ٭ وما بدا منه فلا أحله

فنزلت (خذوا زينتكم عند كل مسجد). وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية : قال كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ومايوارى السوءة وماسوى ذلك من جيد البز والمتاع. وأخرج ابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «خذوا زينة الصلاة ، قالوا وما زينة الصلاة ؟ قال البسوا نعالكم فصلوا فيها». وأخرج العقيلى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس عن النبى ﷺ فى قول الله (خذوا زينتكم عند كل مسجد) قال : صلوا فى نعالكم ؛ والأحاديث فى مشروعية الصلاة فى النعل كثيرة جدا ، وأما كون ذلك هو تفسير الآية ، كما روى فى هذين الحديثين فلا أدرى كيف إسنادهما . وقد ورد النهى عن أن يصلى الرجل فى الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شىء ، وهو فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : أحل الله الأكل والشرب مالم يكن سرفا أو مخيلة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (إنه لايحب المسرفين) قال : فى الطعام والشراب . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب من طريق عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير مخيلة ولا سرف فان الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون ، فأنزل الله (قل من حرّم زينة الله) فأمروا بالثياب أن يلبسوها (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) قال : ينتفعون بها فى الدنيا لا يتبعهم فيها مأثم يوم القيامة . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) قال : المشركون يشاركون المؤمنين فى زهرة الدنيا وهى خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (والطيبات من الرزق) قال : الودك واللحم والسمن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها ، وهو قول الله ـ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ـ وهذا هذا ، فأنزل الله (قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) يعنى : شارك المسلمون الكفار فى الطيبات فى الحياة الدنيا فأكلوا من طيبات طعامها ولبسوا من جياد ثيابها ونكحوا من صالحى نسائها ، ثم يخلص الله الطيبات فى الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شىء . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : ماظهر منها العرية وما بطن الزنا وكانوا يطوفون بالبيت عراة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى الآية : قال ماظهر منها طواف الجاهلية عراة ، وما بطن الزنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله (والاثم) قال المعصية (والبغى) قال :

ان

VII 32-36



أن يبغى على الناس بغير حق .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ *

قوله (ولكل أمة أجل) أى وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله أو يميتهم فيه ، ويجوز أن تحمل الآية على ماهو أعم من الأمرين جميعا ، والضمير فى (أجلهم) لكل أمة : أى اذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ماقدّره عليهم واقعا فى ذلك الأجل لايستأخرون عنه ساعة ولايستقدمون عنه ساعة . قال أبو السعود مامعناه : ان قوله (ولا يستقدمون) عطف على يستأخرون لكن لالبيان انتفاء التقدّم مع امكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا ، وقيل المراد بالمجىء الدنوّ بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجىء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة منه وليس بذاك ، وقرأ ابن سيرين آجالهم بالجمع وخصّ الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات * وقد استدلّ بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله وان كان موته بالقتل أو التردّى أونحو ذلك ، والبحث فى ذلك طويل جدّا ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ـ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ـ * قوله (يابنى آدم إما يأتينكم) الآية ، ان هى الشرطية وما زائدة للتوكيد ، ولهذا لزمت الفعل النون المؤكدة ، والقصص . قد تقدّم معناه ، والمعنى ان أتاكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامى ويبينونها لكم (فمن اتقى وأصلح) أى اتقى معاصى الله وأصلح حال نفسه باتباع الرسل ، و إجابتهم (فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون) وهذه الجملة الشرطية هى الجواب للشرط الأوّل ، وقيل جوابه مادلّ عليه الكلام : أى إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فأطيعوهم * والأوّل أولى ، و به قال الزجاج (والذين كذبوا بآياتنا) التى يقصها عليهم رسلنا (واستكبروا) عن إجابتها والعمل بما فيها ف(أولئك أصحاب النارهم فيها خالدون) لايخرجون منها بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوكذب بآياته) أى لاأحد أظلم منه . وقد تقدّم تحقيقه ، والاشارة بقوله (أولئك) الى المكذبين المستكبرين (ينالهم نصيبهم من الكتاب) أى مما كتب الله لهم من خير وشر ، وقيل ينالهم من العذاب بقدر كفرهم ، وقيل الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيه ، وقيل هو اللوح المحفوظ * قوله (حتى إذا جاءتهم رسلنا) أى الى غاية هى هذه ، وجملة (يتوفونهم) فى محل نصب على الحال * والمراد بالرسل هنا ملك الموت وأعوانه ، وقيل حتى هنا هى التى للابتداء ، ولكن

لايخفى أن كونها لابتداء الكلام بعدها ، لاينافى كونها غاية لما قبلها ، والاستفهام فى قوله (أين ما كنتم تدعون من دون الله) للتقريع والتوبيخ : أى أين الآلهة التى كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها ، وجملة (قالوا ضلوا عنا) استئنافية بتقدير سؤال وقعت هى جوابا عنه : أى ذهبوا عنا وغابوا فلا ندرى أين هم (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى أقرّوا بالكفر على أنفسهم * قوله (قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم) القائل هو الله عزّ وجلّ ، وفى بمعنى مع : أى مع أمم ، وقيل هى على بابها ، والمعنى ادخلوا فى جملتهم ، وقيل هو قول مالك خازن النار ، والمراد بالأمم التى قد خلت من قبلهم من الجن والانس هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية (كلما دخلت أمة) من الأمم الماضية (لعنت أختها) : أى الأمة الأخرى التى سبقتها الى النار ، وجعلت أختا لها باعتبار الدين ، أو الضلالة ، أو الكون فى النار (حتى إذا اداركوا فيها) أى تداركوا ، والتدارك : التلاحق والتتابع والاجتماع فى النار . وقرأ الأعمش تداركوا على الأصل من دون إدغام . وقرأ ابن مسعود (حتى اذا أدركوا) أى أدرك بعضهم بعضا ، وروى عن أبى عمرو أنه قرأ بقطع ألف الوصل ، فكأنه سكت على اذا للتذكر ، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها ، وهو مثل قول الشاعر :

يا نفس صبرا كل حيّ لاق * وكل إثنين إلى افتراق

(قالت أخراهم لأولاهم) : أى أخراهم دخولا لأولاهم دخولا ، وقيل أخراهم : أى سفلتهم وأتباعهم (لأولاهم) لرؤسائهم وكبارهم ، وهذا أولى كما يدل عليه (ربنا هؤلاء أضلونا) فان المضلين هم الرؤساء ويجوز أن يراد أنهم أضلوهم ، لأنهم تبعوهم واقتدوا بدينهم من بعدهم ، فيصح الوجه الأوّل ، لأن أخراهم تبعت دين أولاهم * قوله (فآتهم عذابا ضعفا من النار) الضعف الزائد على مثله مرة أو مرات ، ومثله قوله تعالى (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا) وقيل الضعف هنا الأفاعى والحيات ، وجملة (قال لكل ضعف) استئنافية جوابا لسؤال مقدّر ، والمعنى لكل طائفة منكم ضعف من العذاب : أى الطائفة الأولى ، والطائفة الأخرى (ولكن لا تعلمون) بما لكل نوع من العذاب (وقالت أولاهم لأخراهم) أى قال السابقون للاحقين أو المتبوعون للتابعين (فما كان لكم علينا من فضل) بل نحن سواء فى الكفر بالله واستحقاق عذابه (فذوقوا) عذاب النار كما ذقناه (بما كنتم تكسبون) من معاصى الله والكفر به .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب وابن النجار عن أبى الدرداء قال : تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله ﷺ فقلنا من وصل رحمه أنسئ فى أجله ، فقال انه ليس بزائد فى عمره ، قال الله تعالى (فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة ، فيدعون الله من بعده فيبلغه ذلك ، فذلك الذى ينسأ فى أجله ، وفى لفظ فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر ، وهذا الحديث ينبغى أن يكشف عن اسناده ففيه نكارة ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما بخلافه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى عروبة قال كان الحسن يقول ما أحق هؤلاء القوم يقولون اللهم أطل عمره ، والله يقول (فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق الزهرى عن ابن المسيب قال : لما طعن عمر قال كعب لو دعا الله لأخر فى أجله ، فقيل له أليس قد قال الله (فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فقال كعب وقد قال الله — وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب — . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب)

قال ، ماقدر لهم من خير وشر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : من الأعمال من عمل خيرا جزى به ومن عمل شرا جزى به . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضا قال نصيبهم من الشقاوة والسعادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : ماسبق من الكتاب . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في الآية قال : رزقه وأجله وعمله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح في الآية قال من العذاب . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى في قوله (قد خلت) قال : قد مضت ( كلما دخلت أمة لعنت أختها) قال كلما دخلت أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك : يلعن المشركون المشركين ، واليهود اليهود ، والنصارى النصارى ، والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الأولى (حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم) الذين كانوا في آخر الزمان (لأولاهم) الذين شرعوا لهم ذلك الدين (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف) الأولى والآخرة (وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل) وقد ضللتم كما ضللنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (عذابا ضعفا) قال : مضاعفا (قال لكل ضعف) قال : مضاعف ، وفي قوله (فما كان لكم علينا من فضل) قال تخفيف من العذاب .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

قوله (لاتفتح لهم أبواب السماء) . قرأ ابن عباس وحمزة والكسائي بفتح التحتية لكون تأنيث الجمع غير حقيق بجاز تذكيره . وقرأ الباقون بالفوقية على التأنيث . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي تفتح بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد ، والمعنى أنها لاتفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا ، وقد دل على هذا المعنى وأنه المراد من الآية ماجاء في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء ، وقيل لاتفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا : قاله مجاهد والنخعي ، وقيل لأعمالهم : أي لاتقبل ، بل ترد عليهم فيضرب بها في وجوههم ، وقيل المعنى أنها لاتفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها ، لأن الجنة في السماء ، فيكون على هذا القول العطف لجملة (ولا يدخلون الجنة) من عطف التفسير ، ولا مانع من حمل الآية على مايعم الأرواح والدعاء والأعمال ، ولا ينافيه ورود ماورد من أنها لاتفتح أبواب السماء لواحد من هذه ، فان ذلك لايدل على فتحها لغيره مما يدخل تحت عموم الآية *

قوله (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) أي ان هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين لايدخلون الجنة بحال من الأحوال ، ولهذا علقه بالمستحيل ، فقال (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وهو لايلج أبدا ، وخص الجمل بالذكر لكونه يضرب به المثل في كبر الذات ، وخص سم الخياط ، وهو ثقب

الابرة بالذكر لكونه غاية فى الضيق ، والجمل الذكر من الابل ، والجمع جمال وأجمال وجمالات ، وانما يسمى جملا إذا أربع . وقرأ ابن عباس الجمل بضم الجيم وفتح الميم مشددة ، وهو حبل السفينة الذى يقال له القلس وهو حبال مجموعة : قاله ثعلب ، وقيل الحبل الغليظ من القنب ، وقيل الحبل الذى يصعد به فى النخل . وقرأ سعيد بن جبير الجمل بضم الجيم وتخفيف الميم : وهو القلس أيضا . وقرأ أبو السماك الجمل بضم الجيم وسكون الميم . وقرئ أيضا بضمهما . وقرأ عبد الله بن مسعود (حتى يلج الجمل الأصغر فى سم الخياط) وقرئ (فى سم) بالحركات الثلاث ، والسم كل ثقب لطيف ، ومنه ثقب الأبرة ، والخياط مايخاط به ، يقال خياط ومخيط (وكذلك نجزى المجرمين) : أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى المجرمين : أى جنس من أجرم وقد تقدم تحقيقه ، والمهاد : الفراش ، والغواش جمع غاشية : أى نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية (وكذلك نجزى الظالمين) أى مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى من اتصف بصفة الظلم ＊ قوله (لانكلف نفسا إلا وسعها) أى لانكلف العباد الا بما يدخل تحت وسعهم و يقدرون عليه ، ولا نكلفهم مالايدخل تحت وسعهم ، وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر ، ومثله ـ لايكلف الله نفسا الاما آتاها ـ وقرأ الأعمش تكلف بالفوقية ورفع نفس ، والاشارة بقوله (أولئك) الى الموصول ، وخبره (أصحاب الجنة) والجملة خبر الموصول وجملة و (هم فيها خالدون) فى محل نصب على الحال ＊ قوله (ونزعنا مافى صدورهم من غل) هذا من جملة ماينعم الله به على أهل الجنة أن ينزع الله مافى قلوبهم من الغل على بعضهم بعضا حتى تصفو قلوبهم و يود بعضهم بعضا ، فان الغل لو بقى فى صدورهم كما كان فى الدنيا لكان فى ذلك تنغيص لنعيم الجنة ، لأن المتشاحنين لايطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر ، والغل : الحقد الكامن فى الصدور ، وقيل نزع الغل فى الجنة أن لايحسد بعضهم بعضا فى تفاضل المنازل (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) : أى لهذا الجزاء العظيم ، وهو الخلود فى الجنة ونزع الغل من صدورهم ، والهداية هذه لهذا هى الهداية لسببه من الايمان والعمل الصالح فى الدنيا (وماكنا لنهتدى) . قرأ ابن عامر باسقاط الواو ، وقرأ الباقون باثباتها ، وماكنا نطيق أن نهتدى بهذا الأمر لولا هداية الله لنا ، والجملة مستأنفة أوحالية ، وجواب لولا محذوف يدل عليه ماقبله : أى لولا هداية الله لنا ماكنا لنهتدى ＊ قوله (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) اللام لام القسم ، قالوا هذا لما وصلوا الى ماوصلوا اليه من الجزاء العظيم اغتباطا بما صاروا فيه بسبب ماتقدم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبروهم به فى الدنيا من أن جزاء الايمان والعمل الصالح هو هذا الذى صاروا فيه ＊ قوله (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) أى وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فقيل لهم تلكم الجنة أورثتموها : أى ورثتم منازلها بعملكم ، قال فى الكشاف بسبب أعمالكم لابالتفضل كما تقوله المبطلة انتهى .

أقول : يامسكين هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه «سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا ولاأنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » والتصريح بسبب لايستلزم نفى سبب آخر ، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل باقداره على العمل لم يكن عمل أصلا ، فلولم يكن التفضل الا بهذا الاقدار لكان القائلون به محقة لامبطلة ، وفى التنزيل ـ ذلك الفضل من الله ـ وفيه ـ فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ـ .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لاتفتح لهم أبواب السماء) يعنى لايصعد الى الله من عملهم شىء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عنه قال : لاتفتح لهم لعمل ولا لدعاء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عنه أيضا فى الآية

قال : لاتفتح لأرواحهم ، وهى تفتح لأرواح المؤمنين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا حتى يلج الجمل قال : ذوالقوائم (فى سم) الخياط قال : فى خرت الابرة . وأخرج عبدالرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى فى الكبير وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله (حتى يلج الجمل) قال : زوج الناقة . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبوالشيخ من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ الجمل بضم الجيم وتشديد الميم وقال : هو الحبل الغليظ ، وهو من حبال السفن . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر أنه سئل عن سم الخياط فقال : الجمل فى ثقب الابرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ، قال المهاد الفراش ، والغواش اللحف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال ، فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) . وأخرج النسائى وابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول لوهدانا الله فيكون حسرة عليهم ، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول لولا أن هدانا الله فهذا شكرهم » . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والدارمى ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى ﷺ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، قال نودوا أن صحوا فلا تسقموا ، وأنعموا فلا تبأسوا ، وشبوا فلا تهرموا ، واخلدوا فلا تموتوا .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ *

مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الاخبار لهم بما نادوهم به ، بل لقصد تبكيتهم وايقاع الحسرة فى قلوبهم ، و ( أن قد وجدنا ) هو نفس النداء : أى انا قد وصلنا إلى ماوعدنا الله به من النعيم فهل وصلتم إلى ماوعدكم الله به من العذاب الأليم ، والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ ، وحذف مفعول وعد الثانى لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم ، بل لكل الناس كالبعث والحساب والعقاب ، وقيل حذف لاسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد (قالوا نعم) أى وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، وقرأ الأعمش والكسائى نعم بكسر العين . قال مكى من قال نعم بكسر العين فكأنه أراد أن يفرق بين نعم التى هى جواب و بين نعم التى هى اسم للبقر والغنم والابل * والمؤذن : المنادى ، أى فنادى مناد بينهم : أى بين الفريقين ، قيل هو من الملائكة (أن لعنة الله على الظالمين) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى والبزى بتشديد أن وهو الأصل ، وقرأ الباقون بالتخفيف على أنها المخففة من الثقيلة أو المفسرة ، وقرأ الأعمش بكسر همزة ان على إضمار القول ، وجملة ( الذين يصدون عن سبيل الله) صفة للظالمين ، ويجوز الرفع

والنصب على إضمار هم ، أو أعنى * والصدّ : المنع : أى يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق (ويبغونها عوجا) أى يطلبون اعوجاجها : أى ينفرون الناس عنها و يقدحون فى استقامتها بقولهم انها غير حق وان الحق ماهم فيه ، والعوج بالكسر فى المعانى والأعيان مالم يكن منتصبا ، وبالفتح ما كان فى المنتصب كالرمح ، وجملة (وهم بالآخرة كافرون) فى محل نصب على الحال * قوله (و بينهما حجاب) أى بين الفريقين أو بين الجنة والنار * والحجاب هو السور المذكور فى قوله تعالى ـ فضرب بينهم بسور ـ * قوله (وعلى الأعراف رجال) الأعراف : جمع عرف ، وهى شرفات السور المضروب بينهم ، ومنه عرف الفرس وعرف الديك * والأعراف فى اللغة : المكان المرتفع ، وهـذا الكلام خارج مخرج المدح كما فى قوله ـ رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ـ .

وقد اختلف العلماء فى أصحاب الأعراف من هم ؟ فقيل هم الشهداء : ذكره القشيرى وشرحبيل بن سعد ، وقيل هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس ذكره مجاهد ، وقيل هم قوم أنبياء ذكره الزجاج ، وقيل هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبى والضحاك وسعيد بن جبير ، وقيل هم العباس وحمزة وعلى وجعفر الطيار يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسوادها ، حكى ذلك عن ابن عباس ، وقيـل هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم فى كل أمة ، واختار هـذا القول النحاس ، وقيل هم أولاد الزنا ، روى ذلك عن ابن عباس ، وقيل هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار ذكره أبو مجلز ، وجملة (يعرفون كلا بسيماهم) صفة لرجال * والسيما العلامة : أى يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها ، أومواضع الوضوء من المؤمنين ، أوعلامة يجعلها الله لكل فرق فى ذلك الموقف يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء (ونادوا أصحاب الجنة) أى نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم (أن سلام عليكم) أى نادوهم بقولهم سلام عليكم تحية لهم و إكراما وتبشيرا أوأخبروهم بسلامتهم من العذاب * قوله (لم يدخلوها وهم يطمعون) أى لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف ، والحال أنهم يطمعون فى دخولها ، وقيل معنى (يطمعون) يعلمون أنهم يدخلونها وذلك معروف عند أهل اللغة : أى طمع بمعنى علم ، ذكره النحاس ، وهذا القول أعنى كونهم أهل الاعراف مروى عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود . وقال أبو مجلز : هم أهل الجنة : أى ان أهل الأعراف قالوا لهم سلام عليكم حال كون أهل الجنة لم يدخلوها ، والحال أنهم يطمعون فى دخولها * قوله (واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) أى اذا صرفت أبصار أهل الأعراف تلقاء أصحاب النار : أى جهة أصحاب ، وأصل معنى (تلقاء) جهة اللقاء ، وهى جهة المقابلة ولم يأت مصدر على تفعال بكسر أوله غير مصدرين ، أحدهما هذا ، والآخر تبيان ، وماعداهما بالفتح (قالوا) أى قال أهل الاعراف (ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) سألوا الله أن لايجعلهم منهم (ونادى أصحاب الأعراف رجالا) من الكفار (يعرفونهم بسيماهم) أى بعلاماتهم (قالوا) بدل من نادى (ماأغنى عنكم جمعكم) الذى كنتم تجمعون للصدّ عن سبيل الله ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ * قوله (وما كنتم تستكبرون) . (ما) مصدرية : أى وما أغنى عنكم استكباركم (أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة) هذا من كلام أصحاب الأعراف : أى قالوا للكفار مشيرين الى المسلمين الذين صاروا الى الجنة هذه المقالة . وقد كان الكفار يقسمون فى الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم ، وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم * قوله (ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) هذا تمام كلام أصحاب الأعراف : أى قالوا للمسلمين ادخلوا الجنة فقد انتفى

عنكم

عنكم الخوف والحزن بعد الدخول ، وقرأ طلحة بن مصرف أدخلوا بكسر الخاء .
وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله ( أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ) قال من النعيم والكرامة ( فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا ) قال من الخزى والهوان والعذاب . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر أن النبي ﷺ لما وقف على قليب بدر تلا هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن السدّى فى قوله ( وبينهما حجاب ) قال هو السور وهو الأعراف ، وانما سمى الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن حذيفة قال الأعراف : سور بين الجنة والنار . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ والبيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس قال الأعراف هو الشىء المشرف . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عنه قال : الأعراف سور له عرف كعرف الديك . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : الأعراف جبال بين الجنة والنار فهم على أعرافها ، يقول على ذراها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنها تلّ بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال زعموا أنه الصراط . وأخرج ابن جرير عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار وهم آخر من يدخل الجنة قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنهم من استوت حسناتهم وسيئاتهم يقفون على الصراط . وأخرج ابن جرير عن حذيفة نحوه ، وكذا أخرج نحوه عنه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير : قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف ؟ فقال هم آخر من يفصل بينهم من العباد ، فاذا فرغ ربّ العالمين من الفصل بين العباد قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائى فارعوا من الجنة حيث شئتم . قال ابن كثير ، وهذا مرسل حسن . وأخرج البيهقى فى البعث عن حذيفة أراه قال : قال رسول الله ﷺ «يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة الى الجنة ، ويؤمر بأهل النار الى النار ، ثم يقال لأصحاب الأعراف ماتنتظرون ؟ قالوا ننتظر أمرك ، فيقال لهم ان حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا بمغفرتى ورحمتى . وأخرج سعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن عبد الرحمن المزنى قال : سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف ؟ فقال هم قوم قتلوا فى سبيل الله فى معصية آبائهم فمنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله ، ومنعهم من الجنة معصيتهم آباءهم . وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدرى مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبي هريرة مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج الحارث بن أبي أسامة فى مسنده وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن مالك الهلالى عن أبيه مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج أبوالشيخ وابن مردويه عن رجل من مزينة مرفوعا نحوه . وأخرج أبوالشيخ عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار أنه سئل عن قوله ( لم يدخلوها وهم يطمعون ) قال سلمت عليهم الملائكة وهم لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها حين سلمت . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدّى قال : أصحاب الأعراف يعرفون الناس بسيماهم أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة ببياض وجوههم ، فاذا مروا بزمرة يذهب بهم الى الجنة قالوا سلام عليكم ، واذا مروا بزمرة

يذهب بها الى النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) قال فى النار (يعرفونهم بسيماهم قالوا ماأغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) قال الله لأهل التكبر (أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة) يعنى أصحاب الأعراف (ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) .

وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۞ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞

قوله (أن أفيضوا علينا من الماء) الافاضة : التوسعة ، يقال أفاض عليه نعمه ، طلبوا منهم أن يواسوهم بشيء من الماء أو بشيء مما رزقهم الله من غيره من الأشربة أوالأطعمة فأجابوا بقولهم (ان الله حرّمهما) أى الماء ومارزقهم الله من غيره (على الكافرين) فلانواسيكم بشيء مما حرّمه الله عليكم ، قيل ان هذا النداء من أهل النار كان بعد دخول أهل الأعراف الجنة ، وجملة (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) فى محل جر صفة للكافرين . وقد تقدّم تفسير اللهو واللعب والغرر ۞ قوله (فاليوم ننساهم) أى نتركهم فى النار (كما نسوا لقاء يومهم هذا) الكاف نعت مصدر محذوف ، ومامصدرية : أى نسيانا كنسيانهم لقاء يومهم هذا ۞ قوله (وما كانوا بآياتنا يجحدون) معطوف على مانسوا : أى كما نسوا ، وكما كانوا بآياتنا يجحدون : أى ينكرونها ، واللام فى (ولقد جئناهم) جواب القسم ۞ والمراد بالكتاب الجنس ، ان كان الضمير للكفار جميعا ، وان كان للمعاصرين للنبي ﷺ ، فالمراد بالكتاب القرآن ، والتفصيل التبيين ، و (على علم) فى محل نصب على الحال : أى عالمين حال كونه (هدى) للمؤمنين (ورحمة) لهم . قال الكسائى والفراء ، ويجوز هدى ورحمة بالخفض على النعت لكتاب ۞ قوله (هل ينظرون إلا تأويله) بالهمز ، من آل ، وأهل المدينة يخفون الهمزة ، والنظر الانتظار : أى هل ينتظرون الا ماوعدوا به فى الكتاب من العقاب الذى يئول الأمر اليه ، وقيل تأويله جزاؤه ، وقيل عاقبته ۞ والمعنى متقارب ويوم ظرف ليقول : أى يوم يأتى تأويله ، وهو يوم القيامة (يقول الذين نسوه من قبل) أى تركوه من قبل أن يأتى تأويله (قد جاءت رسل ربنا بالحق) الذى أرسلهم الله به إلينا (فهل لنا من شفعاء) استفهام منهم ، ومعناه التمنى (فيشفعوا لنا) منصوب لكونه جوابا للاستفهام ۞ قوله (أونردّ) . قال الفراء المعنى ، أوهل نردّ (فنعمل غيرالذى كنا نعمل) ، وقال الزجاج : نردّ عطف على المعنى : أى هل يشفع لنا أحد أونردّ ، وقرأ ابن أبي اسحاق أونردّ فنعمل بنصبهما ، كقول امرئ القيس :

فقلت له لا تبك عينك انما * تحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقرأ الحسن برفعهما ، ومعنى الآية هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب ، أوهل نرد الى الدنيا فنعمل صالحا غيرما كنا نعمل من المعاصى (قد خسروا أنفسهم) أى لم ينتفعوا بها فكانت أنفسهم بلاء عليهم ومحنة لهم فكأنهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله ، وقيل خسروا النعم وحظ الأنفس (وضلّ عنهم ما كانوا يفترون) أى افتراؤهم أو الذى كانوا يفترونه * والمعنى أنه بطل كذبهم الذى كانوا يقولونه فى الدنيا أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكا لله فلم ينفعهم ولا حضر معهم * قوله (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) هذا نوع من بديع صنع الله وجليل قدرته وتفرده بالايجاد الذى يوجب على العباد توحيده وعبادته ، وأصل ستة سدسة أبدلت التاء من أحد السينين وأدغم فيها الدال ، والدليل على هذا أنك تقول فى التصغير سديسة ، وفى الجمع أسداس ، وتقول جاء فلان سادسا ، واليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، قيل هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل من أيام الآخرة ، وهذه الأيام الست أولها الأحد وآخرها الجمعة ، وهو سبحانه قادر على خلقها فى لحظة واحدة يقول لها كونى فتكون ، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأنى فى الأمور ، أو خلقها فى ستة أيام لكون لكل شىء عنده أجلا ، وفى آية أخرى ـ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ـ * قوله (ثم استوى على العرش) .

قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولا ، وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف بل على الوجه الذى يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه ، والاستواء فى لغة العرب هو العلوّ والاستقرار . قال الجوهرى : استوى على ظهر دابته : أى استقرّ ، واستوى الى السماء : أى صعد ، واستوى : أى استولى وظهر ، ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

واستوى الرجل : أى انتهى شبابه ، واستوى : أى اتسق واعتدل ، وحكى عن أبى عبيدة أن معنى (استوى) هنا : علا ، ومثله قول الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة * وقد حلق النجم اليمانى فاستوى

أى علا وارتفع * والعرش . قال الجوهرى هو سرير الملك ، و يطلق العرش على معان أخر منها عرش البيت : سقفه ، وعرش البئر : طيها بالخشب ، وعرش السماك : أربعة كواكب صغار ، و يطلق على الملك والسلطان والعزّ ، ومنه قول زهير :

تداركتما عبسا وقد ثلّ عرشها * وذبيان اذزلت بأقدامها النعل

وقول الآخر ان يقتلوك فقد ثلت عروشهم * بعتيبة بن الحرث بن شهاب

وقول الآخر رأوا عرشى تثلم جانباه * فلما أن تثلم أفردونى

وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن و إحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما ، وهو المراد هنا * قوله (يغشى الليل النهار) أى يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطى بظلمته ضياءه ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى يغشى بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان ، يقال أغشى يغشى ، وغشى يغشى ، والتغشية فى الأصل : إلباس الشىء الشىء ، ولم يذكر فى هذه الآية يغشى الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى ـ سرابيل تقيكم الحرّ ـ ، وقرأ حميد بن قيس يغشى الليل النهار على إسناد الفعل إلى الليل ؛ ومحل هذه الجملة النصب على الحال ، والتقدير استوى على العرش

مغشيا الليل النهار ، وهكذا قوله (يطلبه حثيثا) حال من الليـل : أى حال كون الليل طالبا للنهار طلبا حثيثا لا يفتر عنـه بحال ، وحثيثا صفة مصدر محذوف ، أى يطلبه طلبا حثيثا : أو حال من فاعل يطلب * والحث : الاستعجال والسرعة ، يقال ولى حثيثا : أى مسرعا * قوله (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) . قال الأخفش معطوف على السموات ، وقرأ ابن عباس برفعها كلها على الابتداء والخبر * والمعنى على الأول ، وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات ، وعلى الثانى الاخبار عن هذه بالتسخير * قوله (ألا له الخلق والأمر) إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له ، والخلق : المخلوق ، والأمر : كلامه ، وهو كن فى قوله ــ إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ــ ، أو المراد بالأمر ، ما يأمر به على التفصيل ، أو التصرف فى مخلوقاته ، ولما ذكر سبحانه فى هذه الآية خلق السموات والأرض فى ذلك الأمد اليسير ، ثم ذكر استواءه على عرشه وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، وأن له الخلق والأمر . قال (تبارك الله رب العالمين) أى كثرت بركته واتسعت ، ومنه بورك الشىء و بورك فيه ، كذا قال ابن عرفة وقال الأزهرى فى (تبارك) معناه تعالى وتعاظم . وقد تقدم تفسير (رب العالمين) فى الفاتحة مستكملا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبـد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) الآية قال ينادى الرجل أخاه فيقول يا أخى أغثنى فانى قد احترقت فأفض على من الماء ، فيقال أجبـه ، فيقول ان الله حرمهما على الكافرين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) قال من الطعام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال يستسقونهم و يستطعمونهم ، وفى قوله (ان الله حرمهما على الكافرين) قال طعام الجنـة وشرابها . وأخرج ابن جرير وابن المنـذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هـذا) يقول نتركهم فى النار كما تركوا لقاء يومهم هـذا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهـد فى قوله (فاليوم ننساهم) قال نؤخرهم . وأخرج عبـد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (هل ينظرون الا تأويله) قال عاقبته . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميـد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال (يوم يأتى تأويله) جزاؤه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (يوم يأتى تأويله) قال يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (ما كانوا يفترون) قال ما كانوا يكذبون فى الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (خلق السموات والأرض فى ستة أيام) قال كل يوم مقداره ألف سنة . وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قال فى قوله (استوى على العرش) الكيف غـير معقول ، والاستواء غـير مجهول ، والاقرار به إيمان ، والجحود كفر . وأخرج اللالكائى عن مالك أن رجلا سأله كيف استوى على العرش ؟ فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غـير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الدعاء والخطيب فى تاريخه عن الحسن بن على قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية فى كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم ، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضارى ، ومن كل لص عادى : آية الكرسى ، وثلاث آيات من الأعراف (ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض) وعشرا من أول سورة الصافات ، وثلاث آيات من الرحمن . أولها ــ يامعشر الجن والانس ــ ، وخاتمة الحشر . وأخرج أبو الشيخ بن عبيد بن أبى مرزوق قال : من قرأ عند نومه (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض) الآية : بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح وعوفى من السرق . وأخرج أبو الشيخ عن محمد

ابن

ابن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز قال : مرض رجل من أهل المدينة فجاءه زمرة من أصحابه يعودونه فقرأ رجل منهم ( إن ربكم الله الذى خلق السموات والارض ) الآية كلها ، وقد أصمت الرجل فتحرك ثم استوى جالسا ، ثم سجد يومه وليلته حتى كان من الغد من الساعة التى سجد فيها ، قال له أهله : الحمد لله الذى عافاك قال : بعث إلى نفسى ملك يتوفاها فلما قرأ صاحبكم الآية التى قرأ سجد الملك وسجدت بسجوده ، فهذا حين رفع رأسه ثم مال فقضى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (يغشى الليل النهار ) قال يغشى الليل النهارفيذهب بضوئه و يطلبه سريعا حتى يدركه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : يلبس الليل النهار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (حثيثا) قال سريعا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله ( ألاله الخلق والأمر ) قال الخلق : مادون العرش ، والأمر : مافوق ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى عنه قال الخلق هو الخلق ، والأمر هو الكلام .

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ *

أمرهم الله سبحانه بالدعاء ، وقيدذلك بكون الداعى متضرعا بدعائه مخفيا له ، وانتصاب ( تضرعا وخفية) على الحال ، أى متضرعين بالدعاء مخفين له ، أوصفة مصدر محذوف ، أى ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية * والتضرع من الضراعة ، وهى الذلة والخشوع والاستكانة ، والخفية : الاسرار به فان ذلك أقطع لعرق الرياء ، وأحسم لباب مايخالف الاخلاص ، ثم علل ذلك بقوله ( انه لايحب المعتدين) أى المجاوزين لما أمروا به فى الدعاء وفى كل شئ ، فمن جاوز ماأمره الله به فى شىء من الأشياء فقد اعتدى ، والله لايحب المعتدين ، وتدخل المجاوزة فى الدعاء فى هذا العموم دخولا أوليا ، ومن الاعتداء فى الدعاء أن يسأل الداعى ماليس له كالخلود فى الدنيا أو إدراك ماهو محال فى نفسه أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء فى الآخرة أو يرفع صوته بالدعاء صارخا به * قوله ( ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ) نهاهم الله سبحانه عن الفساد فى الأرض بوجه من الوجوه قليلا كان أو كثيرا ، ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم وتغوير أنهارهم ، ومن الفساد فى الأرض الكفر بالله والوقوع فى معاصيه ومعنى بعد اصلاحها بعد أن أصلحها الله بارسال الرسل وانزال الكتب وتقرير الشرائع * قوله (وادعوه خوفا وطمعا) اعرابهما يحتمل الوجهين المتقدمين فى تضرعا وخفية ، وفيه أنه يشرع للداعى أن يكون عند دعائه خائفا وجلا طامعا فى اجابة الله لدعائه ، فانه اذا كان عند الدعاء جامعا بين الخوف والرجاء ظفر بمطلوبه ، والخوف : الانزعاج من المضار التى لايؤمن من وقوعها ، والطمع توقع حصول الأمور المحبوبة * قوله (ان رحمت الله قريب من المحسنين) هذا اخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأى نوع من الأنواع كان احسانهم ، وفى هذا ترغيب للعباد الى الخير وتنشيط لهم ، فان قرب هذه الرحمة التى يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عبادة الله .

وقد اختلف أئمة اللغة والاعراب فى وجه تذكير خبر رحمة الله حيث قال : قريب ولم يقل قريبة فقال الزجاج : ان الرحمة مؤوّلة بالرحم لكونها بمعنى العفو والغفران ، ورجح هذا التأويل النحاس ، وقال النضر ابن شميل : الرحمة مصدر بمعنى الترحم ، وحق المصدر التذكير ، وقال الأخفش : سعيد أراد بالرحمة هنا المطر وتذكير بعض المؤنث جائز وأنشد .

فلا مزنة ودقت ودقها * ولا أرض أبقل أبقالها

وقال أبو عبيدة تذكير قريب على تذكير المكان : أى مكان قريب قال على بن سليمان الأخفش : وهذا خطأ ولو كان كما قال لكان قريب منصوبا كما تقول ان زيدا قريبا منك ، وقال الفراء : ان القريب اذا كان بمعنى المسافة فيذكر ويؤنث وان كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم ، وروى عن الفراء انه قال : يقال فى النسب قريبة فلان ، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث فيقال : دارك منا قريب وفلانة منا قريب قال الله تعالى ـ ومايدريك لعل الساعة تكون قريبا ـ ومنه قول امرؤ القيس :

لك الويل أن أمسى ولا أمّ هاشم * قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

وروى عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله ، وقال ان سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما ، وقيل انه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقى جاز فى خبرها التذكير ، ذكر معناه الجوهرى * قوله (وهو الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته) عطف على قوله (يغشى الليل النهار) يتضمن ذكر نعمة من النعم التى أنعم بها على عباده مع مافى ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلاهيته ، ورياح جمع ريح ، وأصل ريح روح . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو نشرا بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب : أى ذات نشر . وقرأ الحسن وقتادة وابن عامر نشرا بضم النون واسكان الشين من نشر . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى نشرا بفتح النون واسكان الشين على المصدر ، ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال ، ومعنى هذه القراءات يرجع الى النشر الذى هو خلاف الطىّ ، فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفتحة ، وقال أبو عبيدة معناه متفرقة فى وجوهها على معنى ننشرها هاهنا وهاهنا . وقرأ عاصم (بشرا) بالباء الموحدة واسكان الشين جمع بشير : أى الرياح تبشر بالمطر ، ومثله قوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح مبشرات) * قوله (بين يدى رحمته) أراد بالرحمة هنا المطر : أى قدام رحمته ، والمعنى أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أومبشرات بين يدى المطر * قوله (حتى اذا أقلت سحابا ثقالا) أقلّ فلان الشىء حمله ورفعه ، والسحاب يذكر ويؤنث ، والمعنى حتى اذا حملت الرياح سحابا ثقالا بالماء الذى صارت تحمله (سقناه) : أى السحاب (لبلد ميت) أى مجدب ليس فيه نبات ، يقال سقته لبلد كذا ، والى بلد كذا ، وقيل اللام هنا لام العلة ، أى لأجل بلد ميت ، والبلد هو الموضع العامر من الأرض (فأنزلنا به الماء) أى بالبلد الذى سقناه لأجله أو بالسحاب : أى أنزلنا بالسحاب الماء الذى تحمله أو بالريح : أى فأنزلنا بالريح المرسلة بين يدى المطر الماء ، وقيل ان الباء هنا بمعنى من : أى فأنزلنا منه الماء (فأخرجنا به) أى بالماء (من كل الثمرات) أى من جميع أنواعها * قوله (كذلك نخرج الموتى) أى مثل ذلك الاخراج ، وهو اخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم (لعلكم تذكرون) أى تتذكرون فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته ، وانه قادر على بعثكم كما قدر على اخراج الثمرات التى تشاهدونها * قوله (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه) : أى التربة الطيبة يخرج نباتها باذن الله وتيسيره اخراجا حسنا تاما وافيا (والذى خبث لايخرج الا نكدا) : أى والتربة الخبيثة لايخرج نباتها الا نكدا : أى لاخير فيه . وقرأ طلحة ابن مصرف (نكدا) بسكون الكاف . وقرأ ابن القعقاع (نكدا) بفتح الكاف : أى ذا نكد . وقرأ

الباقون

الباقون (نكدا) بفتح النون وكسر الكاف . وقرئ (نخرج) أي نخرجه البلد ، قيل ومعنى الآية التشبيه شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب ، والبليد بالبلد الخبيث ، ذكره النحاس ، وقيل هذا مثل للقلوب ، فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب ، والنائي عنه بالبلد الخبيث : قاله الحسن ، وقيل هو مثل لقلب المؤمن والمنافق قاله قتادة ، وقيل هو مثل للطيب والخبيث من بنى آدم ، قاله مجاهد (كذلك نصرّف الآيات) أى مثل ذلك التصريف (لقوم يشكرون) الله ويعترفون بنعمته .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس (ادعوا ربكم تضرّعا وخفية) قال ، السرّ (انه لايحب المعتدين) فى الدعاء ولافى غيره . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال ، التضرّع علانية والخفية سرّ . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) يعنى مستكينا وخفية ، يعنى فى خفض وسكون فى حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة (انه لايحب المعتدين) يقول : لاتدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشرّ : اللهم اخزه والعنه ونحو ذلك ، فان ذلك عدوان . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى مجلز فى قوله (انه لايحب المعتدين) قال لاتسألوا منازل الأنبياء . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن قال : لقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ان كان الاهمسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله يقول (ادعوا ربكم تضرّعا وخفية) وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا فرضى قوله فقال — اذ نادى ربه نداء خفيا — . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح فى قوله (ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها) قال : بعد ما أصلحها الأنبياء وأصحابهم . وأخرج أبو الشيخ عن أبى سنان فى الآية قال : أحللت حلالى وحرّمت حرامى وحدّدت حدودى فلاتفسدوها . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ادعوه خوفا وطمعا) قال : خوفا منه وطمعا لما عنده (ان رحمت الله قريب من المحسنين) يعنى المؤمنين ، ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين . وأخرج ابن جريج وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (وهو الذى يرسل الرياح) قال : ان الله يرسل الريح فيأتى بالسحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض من حيث يلتقيان فيخرجه من ثم ، ثم ينشره فيبسطه فى السماء كيف يشاء ثم يفتح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ، ثم يمطر السحاب بعد ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (بشرا بين يدى رحمته) قال : يستبشر بها الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (بين يدى رحمته) قال : هو المطر ، وفى قوله (كذلك نخرج الموتى) قال : كذلك تخرجون ، وكذلك النشور كما يخرج الزرع بالماء . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (كذلك نخرج الموتى) قال اذا أراد الله أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى يشقق عنهم الأرض ، ثم يرسل الأرواح فيهوى كل روح الى جسده ، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كاحيائه الأرض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (والبلد الطيب) الآية قال : هو مثل ضربه الله للمؤمن ، يقول هو طيب وعمله طيب كما أن البلد الطيب ثمرها طيب (والذى خبث) ضرب مثلا للكافر كالبلد السبخة المالحة التى لاتخرج منها البركة ، فالكافر هو الخبيث وعمله خبيث ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ

مَالَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ *

لما بين سبحانه كمال قدرته و بديع صنعته فى الآيات السابقة ذكر هنا أقاصيص الأمم ومافيها من تحذير الكفار ووعيدهم لتنبيه هذه الأمة على الصواب وأن لايقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة ، واللام جواب قسم محذوف ، وهو أول الرسل الى أهل الأرض بعد آدم ، وقد تقدم ذكر نوح فى آل عمران فأغنى عن الاعادة هنا ، وماقيل من أن ادريس قبل نوح ، فقال ابن العربى انه وهم قال المازرى : فان صح ماذكره المؤرخون كان محمولا على أن ادريس كان نبيا غير مرسل ، وجملة (فقال ياقوم اعبدوا الله) استئنافية جواب سؤال مقدر * قوله (مالكم من إله غيره) هذه الجملة فى حكم العلة لقوله (اعبدوا) أى اعبدوه لأنه لم يكن لكم إله غيره حتى يستحق منكم أن يكون معبودا . قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة وابن كثير وابن عامر برفع غيره على أنه نعت لاله على الموضع . وقرأ الكسائى بالخفض فى جميع القرآن على أنه نعت على اللفظ ، وأجاز الفراء والكسائى النصب على الاستثناء : يعنى مالكم من إله الا إياه ، وقال أبو عمرو : ماأعرف الجر ولاالنصب ، ورده أن بعض بنى أسد ينصبون غير فى جميع الأحوال ، ومنه قول الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت * حمامة فى غصون ذات ارقال

وجملة (انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة : أى ان لم تعبدوه فانى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة أو عذاب يوم الطوفان * قوله (قال الملأ من قومه) جملة استئنافية جواب سؤال مقدر ، والملأ أشراف القوم ورؤساؤهم ، وقيل هم الرجال ، وقد تقدم بيانه فى البقرة ، والضلال : العدول عن طريق الحق والذهاب عنه : أى انا لنراك فى دعائك الى عبادة الله وحده فى ضلال عن طريق الحق ، وجملة (قال ياقوم) استئنافية أيضا جواب سؤال مقدر (ليس بى ضلالة) كما تزعمون (ولكنى رسول من رب العالمين) أرسلنى اليكم لسوق الخير اليكم ودفع الشر عنكم ، نفى عن نفسه الضلالة ، وأثبت لها ماهو أعلى منصبا وأشرف رفعة وهو أنه رسول الله اليهم ، وجملة (أبلغكم رسالات ربى) فى محل رفع على أنها صفة لرسول ، أو هى مستأنفة مبينة لحال الرسول * والرسالات ما أرسله الله به اليهم مما أوحاه اليه (وأنصح لكم) عطف على (أبلغكم) يقال نصحته ونصحت له ، وفى زيادة اللام دلالة على المبالغة فى إمحاض النصح . قال الأصمعى : الناصح الخالص من الغل ، وكل شىء خلص فقد نصح ، فمعنى أنصح هنا أخلص النية لكم عن شوائب الفساد ، والاسم : النصيحة ، وجملة (وأعلم من الله مالا تعلمون) معطوفة على الجملة التى قبلها مقررة لرسالته ومبينة لمزيد علمه ، وأنه يختص بعلم الأشياء التى لايعلمونها باخبار الله له بذلك * قوله (أوعجبتم) فتحت الواو لكونها العاطفة ودخلت عليها همزة الاستفهام للانكار عليهم ، والمعطوف عليه مقدر : كأنه قيل استبعدتم وعجبتم أو أكذبتم وعجبتم أو أنكرتم وعجبتم (أن جاءكم ذكر من ربكم) أى وحى وموعظة (على رجل منكم) أى على لسان رجل منكم تعرفونه ، ولم يكن ذلك على لسان من لاتعرفونه أولا تعرفون لغته ، وقيل على بمعنى مع : أى مع رجل منكم لأجل ينذركم به (ولتتقوا) ماتخالفه (ولعلكم ترحمون) بسبب مايفيده الانذار لكم والتقوى منكم من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم (فكذبوه) أى فبعد ذلك كذبوه ولم يعملوا بما جاء به من الانذار (فأنجيناه والذين معه) من المؤمنين به المستقرين

معه (فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) واستمرّوا على ذلك ولم يرجعوا إلى التوبة ، وجملة (انهم كانوا قوما عمين) علة لقوله (وأغرقنا) أى أغرقنا المكذبين لكونهم عمى القلوب لاتنجع فيهم الموعظة ولا يفيدهم التذكير.

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس أن النبى ﷺ قال «أول نبىّ أرسل نوح» . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وأبو نعيم وابن عساكر عن يزيد الرقاشى قال : انما سمى نوح عليه السلام نوحا لطول ماناح على نفسه . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال : الملأ يعنى الأشراف من قومه . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى (أن جاءكم ذكر من ربكم) يقول بيان من ربكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (انهم كانوا قوما عمين) قال كفارا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (انهم كانوا قوما عمين) قال : عن الحق .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ *

قوله (وإلى عاد أخاهم هودا) أى وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم : أى واحدا من قبيلتهم أوصاحبهم أوسماه أخا لكونه ابن آدم مثلهم، وعاد هو من ولد سام بن نوح ، قيل هو عاد بن عوص بن ارم بن شالخ ابن أرنخشذ بن سام بن نوح ، وهود هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عوص بن ارم بن شالخ ابن ارنخشذ بن سام بن نوح ، و(هودا) عطف بيان (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) . قد تقدّم تفسير هذا قريبا ، والاستفهام فى (أفلا تتقون) للانكار . وقد تقدّم أيضا تفسير الملأ ، والسفاهة الخفة والحمق . وقد تقدّم بيان ذلك فى البقرة ، نسبوه إلى الخفة والطيش ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا (إنا لنظنك من الكاذبين) مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة ، ثم أجاب عليهم بنفى السفاهة عنه ، واستدرك من ذلك بأنه رسول رب العالمين . وقد تقدّم بيان معنى هذا قريبا ، وكذلك سبق تفسير (أبلغكم رسالات ربى) وتقدّم معنى الناصح ، والأمين المعروف بالأمانة ، وسبق أيضا تفسير (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) فى قصة نوح التى قبل هذه القصة * قوله (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من

بعد قوم نوح ) أذكرهم نعمة من نعم الله عليهم ، وهى أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح : أى جعلهم سكان الأرض التى كانوا فيها ، أو جعلهم ملوكا ، وإذ منصوب باذكر وجعل الذكر للوقت * والمراد ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة ، لأن الشيء اذا كان وقته مستحقا للذكر ، فهو مستحق له بالأولى (وزادكم فى الخلق بسطة ) أى طولا فى الخلق وعظم جسم زيادة على ما كان عليه آباؤهم فى الأبدان . وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد * قوله ( فاذكروا آلاء الله) الآلاء : جمع إلى ومن جملتها نعمة الاستخلاف فى الأرض ، والبسطة فى الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم ، وكرر التذكير لزيادة التقرير ، والآلاء النعم ( لعلكم تفلحون ) ان تذكرتم ذلك لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها ، ومن شكر فقد أفلح * قوله ( قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ) هذا استنكار منهم لدعائه الى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التى جعلوها شركاء لله ، وانما كان هذا مستنكرا عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم اليه (ونذر ما كان يعبد آباؤنا ) أى نترك الذى كانوا يعبدونه ، وهذا داخل فى جملة ما استنكروه * قوله ( فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ) هذا استعجال منهم للعذاب الذى كان هود يعدهم به ، لشدة تمردهم على الله ونكوصهم عن طريق الحق و بعدهم عن اتباع الصواب ، فأجابهم بقوله ( قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ) جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيها على تحقق وقوعه ، كما ذكره أئمة المعانى والبيان ، وقيل معنى وقع وجب : والرجس العذاب ، وقيل هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر ، ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة ، فقال ( أتجادلوننى فى أسماء ) يعنى أسماء الأصنام التى كانوا يعبدونها جعلها أسماء ، لأن مسمياتها لا حقيقة لها بل تسميتها بالآلهة باطلة فكأنها معدومة لم توجد بل الموجود أسماؤها فقط ( سميتموها أنتم وآباؤكم ) أى سميتم بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم وآباؤكم ولا حقيقة لذلك ( ما نزل الله بها من سلطان ) أى من حجة تحتجون بها على ما تدعونه لها من الدعاوى الباطلة ثم توعدهم بأشد وعيد ، فقال ( فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ) أى فانتظروا ما طلبتموه من العذاب فانى معكم من المنتظرين له ، وهو واقع بكم لا محالة ونازل عليكم بلا شك ، ثم أخبر الله سبحانه أنه نجى هودا ومن معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به ولم تقبل رسالته ، وأنه قطع دابر القوم المكذبين : أى استأصلهم جميعا . وقد تقدم تحقيق معناه ، وجملة (وما كانوا مؤمنين ) معطوفة على كذبوا : أى استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب بآياتنا وعدم الايمان .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وإلى عاد أخاهم هودا) قال : ليس بأخيهم فى الدين ولكنه أخوهم فى النسب لأنه منهم فلذلك جعل أخاهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن خيثم قال : كانت عاد ما بين اليمن الى الشأم مثل الذر . وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : كان الرجل من عاد ستين ذراعا بذراعهم ، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة ، وكان عين الرجل لتفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم . وأخرج عبد حميد عن قتادة قال : ذكر لنا انهم كانوا اثنى عشر ذراعا طولا . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس قال . كان الرجل منهم ثمانين باعا ، وكانت البرة فيهم ككلية البقرة والرمانة الواحدة يقعد فى قشرها عشرة نفر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه (وزادكم فى الخلق بصطة) قال شدة . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : ان كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه ، وان كان أحدهم ليدخل قدمه فى الأرض فتدخل فيها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله ( آلاء الله ) قال نعم الله ، وفى قوله ( رجس ) قال سخط . وأخرج ابن عساكر قال . لما أرسل

الله

٦١-٦٦



الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة مايصيبهم من الريح الا ماتلين عليه الجلود وتلتذ به الأنفس ، وإنها لتمر بالعادى فتحمله بين السماء والأرض وتدمغه بالحجارة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (وقطعنا دابر الذين كذبوا) قال استأصلناهم . وأخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن عساكر عن علىّ بن أبي طالب قال . قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر عند رأسه سدرة . وأخرج ابن عساكر عن عثمان بن أبي العاتكة قال : قبلة مسجد دمشق قبر هود . وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : كان عمر هود أربعمائة سنة واثنتين وسبعين سنة .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ *

قوله (وإلى ثمود أخاهم صالحا) معطوف على ما تقدم : أى وأرسلنا إلى ثمود أخاهم ، وثمود قبيلة سموا باسم أبيهم ، وهو ثمود بن عاد بن ارم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وصالح عطف بيان ، وهو صالح ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ، وامتناع ثمود من الصرف لأنه جعل اسما للقبيلة ، وقال أبو حاتم لم ينصرف لأنه أعجمىّ . قال النحاس : وهو غلط لأنه من الثمد ، وهو الماء القليل ، وقد قرأ القراء – ألا إن ثمودا كفروا ربهم – على أنه اسم للحىّ ، وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام الى وادى القرى * قوله (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) . قد تقدم تفسيره في قصة نوح (قد جاءتكم بينة من ربكم) أى معجزة ظاهرة ، وهى اخراج الناقة من الحجر الصلد ، وجملة (هذه ناقة الله لكم آية) مشتملة على بيان البينة المذكورة ، وانتصاب آية على الحال ، والعامل فيها معنى الاشارة ، وفي إضافة الناقة إلى الله تشريف لها وتكريم * قوله (فذروها تأكل في أرض الله) أى دعوها تأكل في أرض الله ، فهى ناقة الله ، والأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه (ولا تمسوها) بشىء من السوء : أى لا تتعرّضوا لها بوجه من الوجوه التى تسوءها * قوله (فيأخذكم عذاب أليم) هو جواب النهى : أى اذا لم تتركوا مسها بشىء من السوء أخذكم عذاب أليم : أى شديد الألم * قوله (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) أى استخلفكم في الأرض أو جعلكم ملوكا فيها ، كما تقدم في قصة هود (وبوّأكم في الأرض) أى جعل لكم فيها مباءة ، وهى المنزل الذى تسكنونه (تتخذون من سهولها قصورا) أى تتخذون من سهولة الأرض قصورا ، أو هذه الجملة مبينة لجملة : وبوّأكم في الأرض ، وسهول

الأرض ترابها يتخذون منه اللبن والآجر ونحو ذلك فيبنون به القصور (وتنحتون الجبال بيوتا) أى تتخذون فى الجبال التى هى صخور بيوتا تسكنون فيها ، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها كهوفا يسكنون فيها ، لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم ، وانتصاب بيوتا على أنها حال مقدرة أو على أنها مفعول ثان لتنحتون على تضمينه معنى تتخذون * قوله (فاذكروا آلاء الله) تقدم تفسيره فى القصة التى قبل هذه * قوله (ولاتعثوا فى الأرض مفسدين) العثى والعثو لغتان ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة بما يغنى عن الاعادة (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) : أى قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين استضعفهم المستكبرون ، و (لمن آمن منهم) بدل من الذين استضعفوا باعادة حرف الجر بدل البعض من الكل ، لأن فى المستضعفين من ليس بمؤمن هذا على عود ضمير منهم الى الذين استضعفوا ، فان عاد الى قومه كان بدل كل من المستضعفين ، ومقول القول (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية * قوله (قالوا انا بما أرسل به مؤمنون) أجابوهم بأنهم مؤمنون برسالته مع كون سؤال المستكبرين لهم انما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسالته أم لا مسارعة الى اظهار مالهم من الايمان وتنبيها على أن كونه مرسلا أمر واضح مكشوف لايحتاج الى السؤال عنه ، فأجابوا تمردا وعنادا بقولهم (انا بالذى آمنتم به كافرون) وهذه الجمل المعنونة بقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كما سبق بيانه * قوله (فعقروا الناقة) العقر : الجرح ، وقيل قطع عضو يؤثر فى تلف النفس ، يقال عقرت الفرس : اذا ضربت قوائمه بالسيف ، وقيل أصل العقر : كسر عرقوب البعير ثم قيل للنحر عقر ، لأن العقر سبب النحر فى الغالب ، وأسند العقر الى الجميع مع كون العاقر واحدا منهم ، لأنهم راضون بذلك موافقون عليه * وقد اختلف فى عاقر الناقة ما كان اسمه ، فقيل قدار بن سالف ، وقيل غير ذلك (وعتوا عن أمر ربهم) أى استكبروا ، يقال عتا يعتو عتوا : استكبر ، وتعتى فلان اذا لم يطع ، والليل العاتى : الشديد الظلمة (وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من المرسلين) هذا استعجال منهم للنقمة وطلب منهم لنزول العذاب وحلول البلية بهم (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة ، يقال رجف الشىء يرجف رجفانا ، وأصله حركة مع صوت ، ومنه — يوم ترجف الراجفة — ، وقيل كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم (فأصبحوا فى دارهم) أى بلدهم (جاثمين) لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر ، وأصل الجثوم للأرنب وشبهها ، وقيل للناس والطير * والمراد أنهم أصبحوا فى دورهم ميتين لاحراك بهم (فتولى عنهم) صالح عند اليأس من إجابتهم (وقال) لهم هذه المقالة (لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين) ويحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية كما وقع من النبى ﷺ من التكليم لأهل قليب بدر بعد موتهم أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم ، وكأنه كان مشاهدا لذلك فتحسر على مافاتهم من الايمان والسلامة من العذاب ، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهدا فى إبلاغهم الرسالة ومحض النصح ، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب ، ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى الطفيل قال : قالت ثمود لصالح ائتنا بآية ان كنت من الصادقين ، قال اخرجوا فخرجوا الى هضبة من الأرض فاذا هى تمخض كما تمخض الحامل ، ثم انها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها ، فقال لهم صالح هذه ناقة الله لكم آية فلما ملوها عقروها — فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام — وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة أن صالحا قال لهم حين عقروا الناقة تمتعوا ثلاثة أيام ، ثم قال لهم آية هلاككم أن تصبح وجوهكم غدا مصفرة ، وتصبح اليوم الثانى محمرة ، ثم تصبح اليوم الثالث مسودة

فأصبحت كذلك ، فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك فتكفنوا وتحنطوا ، ثم أخذتهم الصيحة فأهمدتهم وقال عاقر الناقة لاأقتلها حتى ترضوا أجمعين ، فجعلوا يدخلون على المرأة فى خدرها فيقولون أترضين ؟ فتقول نعم ، والصبى حتى رضوا أجمعون ، فعقرها . وأخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال « ياأيها الناس لاتسألوا نبيكم عن الآيات فان قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث اليهم آية فبعث الله لهم الناقة ، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحتلبون من لبنها مثل الذى كانوا يأخذون من مائها يوم غبها وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام وكان وعد من الله غير مكذوب ، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا كان فى حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله ، فقيل يارسول الله من هو ؟ فقال أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ماأصاب قومه . قال ابن كثير هذا الحديث على شرط مسلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث أبى الطفيل مرفوعا مثله . وأخرج أحمد من حديث ابن عمر قال قال رسول ﷺ وهو بالحجر « لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلاتدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ماأصابهم » ، وأصل الحديث فى الصحيحين من غير وجه ، وفى لفظ لأحمد من هذا الحديث قال لما نزل رسول الله ﷺ على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود . وأخرج أحمد وابن المنذر نحوه مرفوعا من حديث أبى كبشة الأنمارى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (ولاتمسوها بسوء) قال لاتعقروها . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (وتنحتون من الجبال بيوتا) قال : كانوا ينقبون فى الجبال البيوت . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وعتوا عن أمر ربهم) قال : غلوا فى الباطل (فأخذتهم الرجفة) قال : الصيحة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) قال : ميتين . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ *

قوله (ولوطا) معطوف على ماسبق : أى وأرسلنا لوطا أو منصوب بفعل مقدر : أى واذكر لوطا وقت قال لقومه . قال الفراء : لوط مشتق من قولهم هذا أليط بقلبى : أى ألصق . قال الزجاج : زعم بعض النحويين أن لوطا يجوز أن يكون مشتقا من لطت الحوض اذا ملسته بالطين ، وهذا غلط ، لأن الأسماء الأعجمية لاتشتق ، وقال سيبويه : نوح ولوط أسماء أعجمية الا أنها خفيفة ، فلذلك صرفت ، ولوط هو ابن هاران ابن تارخ ، فهو ابن أخى ابراهيم ، بعثه الله الى أمة تسمى سدوم (أتأتون الفاحشة) أى الخصلة الفاحشة المتمادية فى الفحش والقبح ، قال ذلك انكارا عليهم وتوبيخا لهم (ماسبقكم بها من أحد من العالمين) أى لم يفعلها أحد قبلكم ، فان اللواط لم يكن فى أمة من الأمم قبل هذه الأمة ، ومن مزيدة للتوكيد للعموم فى النفى ، وانه مستغرق لما دخل عليه ، والجملة مسوقة لتأكيد النكير عليهم والتوبيخ لهم * قوله

(إنكم لتأتون الرجال شهوة) قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة . وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام المقتضى للتوبيخ والتقريع ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد والكسائى وغيرهما ، واختار الخليل وسيبويه القراءة الثانية ، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة مبينة لقوله (أتأتون الفاحشة) وكذلك على القراءة الثانية مع مزيد الاستفهام وتكريره المفيد للمبالغة فى التقريع والتوبيخ ، وانتصاب شهوة على المصدرية : أى تشتهونهم شهوة ، ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال : أى مشتهين ، ويجوز أن يكون مفعولا له : أى لأجل الشهوة ، وفيه أنه لاغرض لهم بإتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة من غير أن يكون لهم فى ذلك غرض يوافق العقل ، فهم فى هذا كالبهائم التى ينزو بعضها على بعض لما يتقاضاها من الشهوة (من دون النساء) : أى متجاوزين فى فعلكم هذا النساء اللاتى هن محل لقضاء الشهوة وموضع لطلب اللذة ، ثم أضرب عن الانكار المتقدم الى الاخبار بما هم عليه من الاسراف الذى تسبب عنه إتيان هذه الفاحشة الفظيعة * قوله (وما كان جواب قومه) الواقعين فى هذه الفاحشة عن ما أنكره عليهم منها (إلا أن قالوا أخرجوهم) : أى لوطا وأتباعه (من قريتكم) : أى ما كان لهم جواب إلا هذا القول المباين للانصاف المخالف لما طلبه منهم وأنكره عليهم ، وجملة (إنهم أناس يتطهرون) تعليل لما أمروا به من الاخراج ، ووصفهم بالتطهر يمكن أن يكون على حقيقته ، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع فى هذه الفاحشة فلا يساكنونا فى قريتنا ، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء ، ثم أخبر الله سبحانه أنه أنجى لوطا وأهله المؤمنين به ، واستثنى امرأته من الأهل لكونها لم تؤمن به ، ومعنى (كانت من الغابرين) أنها كانت من الباقين فى عذاب الله : يقال غبر الشىء إذا مضى وغبر إذا بقى فهو من الأضداد وحكى ابن فارس فى المجمل عن قوم أنهم قالوا الماضى عابر بالعين المهملة والباقى غابر بالمعجمة . وقال الزجاج : (من الغابرين) أى من الغائبين عن النجاة ، وقال أبو عبيد المعنى (من الغابرين) أى من المعمرين وكانت قد هرمت ، وأكثر أهل اللغة على أن الغابر الباقى * قوله (وأمطرنا عليهم مطرا) قيل أمطر بمعنى ارسال المطر ، وقال أبو عبيدة : مطر فى الرحمة وأمطر فى العذاب ، والمعنى هنا أن الله أمطر عليهم مطرا غير ما يعتادونه وهو رميهم بالحجارة كما فى قوله ـ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ـ (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) هذا خطاب لكل من يصلح له ، أو لمحمد ﷺ ، وسيأتى فى هود قصة لوط بأبين مما هنا .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى شعب الايمان وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله (أتأتون الفاحشة) قال : أدبار الرجال . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما كان بدء عمل قوم لوط : أن ابليس جاءهم فى هيئة صبى أجمل صبى رآه الناس فدعاهم الى نفسه فنكحوه ثم جسروا على ذلك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (إنهم أناس يتطهرون) قال : من أدبار الرجال ومن أدبار النساء . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (إلا امرأته كانت من الغابرين) قال : من الباقين فى عذاب الله . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد ابن أبى عروبة قال : كان قوم لوط أربعة آلاف ألف .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ

اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَٰسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَٰسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ *

قوله (والى مدين أخاهم شعيبا) معطوف على ماتقدم : أى وأرسلنا ، ومدين اسم قبيلة ، وقيل اسم بلد والأول أولى ، وسميت القبيلة باسم أبيهم : وهو مدين بن ابراهيم كما يقال بكر وتميم * قوله (أخاهم شعيبا) شعيب عطف بيان ، وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب بن مدين بن ابراهيم : قاله عطاء وابن اسحق وغيرهما وقال الشرقى بن القطامى : انه شعيب بن عيفاء بن نويب بن مدين بن ابراهيم ، وزعم ابن سمعان انه شعيب ابن حزة بن يشجب بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم . وقال قتادة هو شعيب بن صفوان بن عيفاء ابن ثابت بن مدين بن ابراهيم * قوله (قال ياقوم) الى قوله (بينة من ربكم) قد سبق شرحه فى قصة نوح * قوله (فأوفوا الكيل والميزان) أمرهم بايفاء الكيل والميزان لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن ، وكانوا لايوفونهما ، وذكر الكيل الذى هو المصدر وعطف عليه الميزان الذى هو اسم للآلة .

واختلف فى توجيه ذلك : فقيل المراد بالكيل المكيال فتناسب عطف الميزان عليه ، وقيل المراد بالميزان الوزن فيناسب الكيل ، والفاء فى فأوفوا للعطف على اعبدوا * قوله (ولاتبخسوا الناس أشياءهم) البخس النقص وهو يكون بالتعييب للسلعة أو التزهيد فيها أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه ، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وظاهر قوله (أشياءهم) أنهم كانوا يبخسون الناس فى كل الأشياء وقيل كانوا مكاسين يمكسون كل مادخل الى أسواقهم ، ومنه قول زهير .

أفى كل أسواق العراق اتاوة * وفى كل ماباع امرؤ مكس درهم

قوله (ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) قد تقدم تفسيره قريبا ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره ودقيقه وجليله ، والاشارة بقوله (ذلكم) الى العمل بما أمرهم به وترك مانهاهم عنه ، والمراد بالخيرية هنا الزيادة المطلقة ، لأنه لاخير فى عدم ايفاء الكيل والوزن وفى بخس الناس وفى الفساد فى الأرض أصلا * قوله (ولاتقعدوا بكل صراط توعدون) الصراط الطريق : أى لاتقعدوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب ، قيل كانوا يقعدون فى الطرقات المفضية الى شعيب فيتوعدون من أراد المجىء اليه ، ويقولون انه كذاب فلاتذهب اليه كما كانت قريش تفعله مع النبى ﷺ : قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدى وغيرهم

وقيل المراد القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها ، وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة ، ويؤيده (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) وقيل المراد بالآية النهى عن قطع الطريق وأخذ السلب ، وكان ذلك من فعلهم ، وقيل انهم كانوا عشارين يأخذون الجباية فى الطرق من أموال الناس فنهوا عن ذلك ، والقول الأول أقربها الى الصواب مع أنه لامانع من حمل النهى على جميع هذه الأقوال المذكورة ، وجملة توعدون فى محل نصب على الحال ، وكذلك ماعطف عليها : أى لاتقعدوا بكل طريق موعدين لأهله صادّين عن سبيل الله باغين لها عوجا ، والمراد بالصدّ عن سبيل الله صدّ الناس عن الطريق الذى قعدوا عليه ومنعهم من الوصول الى شعيب ، فان سلوك الناس فى ذلك السبيل للوصول الى نبىّ الله هو سلوك سبيل الله ، و (من آمن به) مفعول تصدّون ، والضمير فى آمن به يرجع الى الله ، أو الى سبيل الله ، أو الى كل صراط أو الى شعيب ، (وتبغونها عوجا) : أى تطلبون سبيل الله أن تكون معوجة غير مستقيمة ، وقد سبق الكلام على العوج . قال الزجاج : كسر العين فى المعانى وفتحها فى الاجرام (واذكروا اذ كنتم) أى وقت كنتم (قليلا) عددكم (فكثركم) بالنسل ، وقيل كنتم فقراء فأغناكم (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) من الأمم الماضية ، فان الله أهلكهم وأنزل بهم من العقوبات ماذهب بهم ومحا أثرهم (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به) اليكم من الأحكام التى شرعها الله لكم (وطائفة) منكم (لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم ، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر ، وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين ، ومثله قوله تعالى ــ فتربصوا انا معكم متربصون ــ أو هو أمر للمؤمنين بالصبر على مايحلّ بهم من أذى الكفار حتى ينصرهم الله عليهم (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) أى قال الأشراف المستكبرون (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك) لم يكتفوا بترك الايمان والتمرّد عن الاجابة الى مادعاهم اليه ، بل جاوزوا ذلك بغيا و بطرا وأشرا الى توعد نبيهم ومن آمن به بالاخراج من قريتهم ، أوعوده هو ومن معه فى ملتهم الكفرية : أى لابدّ من أحد الأمرين : اما الاخراج أو العود . قال الزجاج : يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء ، يقال عاد الىّ من فلان مكروه : أى صار وان لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك ، فلا يرد مايقال كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسولا ؟ ويحتاج الى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه فى الخطاب بالعود الى ملتهم ، وجملة (قال أولوكنا كارهين) مستأنفة جواب عن سؤال مقدر ، والهمزة لانكار وقوع ماطلبوه من الاخراج أو العود ، والواو للحال : أى أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا للعود اليها ، أوتخرجوننا من قريتكم فى حال كراهتنا للخروج منها ، أو فى حال كراهتنا للأمرين جميعا ، والمعنى انه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ولايصح لكم ذلك ، فان المكره لااختيار له ولاتعدّ موافقته مكرها موافقة ولاعوده الى ملتكم مكرها عودا ، وبهذا التقرير يندفع مااستشكله كثير من المفسرين فى هذا المقام حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام * (قدافترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم) التى هى الشرك (بعد اذ نجانا الله منها) بالايمان فلا يكون منا عود اليها أصلا (ومايكون لنا) أى مايصح لنا ولايستقيم (أن نعود فيها) بحال من الأحوال (إلا أن يشاء الله) : أى إلا حال مشيئته سبحانه ، فانه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن . قال الزجاج : أى الا بمشيئة الله عزّوجل قال وهذا قول أهل السنة ، والمعنى أنه لا يكون منا العود الى الكفر الا أن يشاء الله ذلك ، فالاستثناء منقطع ، وقيل ان الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عزّ وجلّ كما فى قوله ــ وماتوفيقى إلا بالله ــ وقيل هو كقولهم لاأكلمك حتى يبيضّ الغراب ، وحتى يلج الجمل فى سمّ الخياط ، والغراب لايبيض : والجمل لايلج ، فهو من باب التعليق بالمحال * (وسع ربنا كل شىء علما) أى أحاط علمه بكل المعلومات فلا يخرج عنه منها شىء ، وعلما

منصوب

منصوب على التمييز ، وقيل المعنى (وما يكون لنا أن نعود فيها) أى القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لكم الا أن يشاء الله عودنا اليها (على الله توكلنا) أى عليه اعتمدنا فى أن يثبتنا على الايمان ، ويحول بيننا و بين الكفر وأهله ويتمّ علينا نعمته ويعصمنا من نقمته * قوله (ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) الفتاحة الحكومة أى احكم بيننا و بين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين ، دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم ولا يكون حكمه سبحانه الا بنصر المحقين على المبطلين : كما أخبرنا به فى غير موضع من كتابه فكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين وحلول نقمة الله بهم (وقال الملأُ الذين كفروا من قومه) معطوف على (قال الملأُ الذين استكبروا) يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك ، ويحتمل أن يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين أرسل اليهم شعيب ، واللام فى لئن اتبعتم شعيبا موطئة لجواب قسم محذوف : أى دخلتم فى دينه وتركتم دينكم (انكم اذا لخاسرون) جواب القسم ساد مسدّ جواب الشرط ، وخسرانهم : هلاكهم أو ما يخسرونه بسبب ايفاء الكيل والوزن وترك التطفيف الذى كانوا يعاملون الناس به (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة ، وقيل الصيحة كما فى قوله ـ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ـ (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) قد تقدم تفسيره فى قصة صالح * قوله (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) هذه الجملة مستأنفة مبينة لما حلّ بهم من النعمة ، والموصول مبتدأ ، وكأن لم يغنوا خبره : يقال غنيت بالمكان اذا أقمت به ، وغنى القوم فى دارهم أى طال مقامهم فيها ، والمغنى : المنزل ، والجمع المغانى . قال حاتم الطائى :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى * وكلا سقاناه بكاسيهما الدهر
فما زادنا بغيا على ذى قرابة * غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

ومعنى الآية الذين كذبوا شعيبا كأن لم يقيموا فى دارهم ، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب ، والموصول فى الذين كذبوا شعيبا مبتدأ خبره (كانوا هم الخاسرين) ، وهذه الجملة مستأنفة كالأولى متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين (فتولى عنهم) أى شعيب لما شاهد نزول العذاب بهم (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى) التى أرسلنى بها اليكم (ونصحت لكم) ببيان مافيه سلامة دينكم ودنياكم (فكيف آسى) أى أحزن (على قوم كافرين) بالله مصرّين على كفرهم متمردين عن الاجابة ، والأسى شدّة الحزن ، آسى على ذلك فهو آس . قال شعيب : هذه المقالة تحسرا على عدم ايمان قومه ، ثم سلا نفسه بأنه كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله وعدم قبولهم لما جاء به رسوله .

وقد أخرج ابن اسحق وابن عساكر عن عكرمة والسدى قالا : مابعث الله نبيا مرتين الا شعيبا مرة الى مدين فأخذتهم الصيحة ، ومرة الى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) قال : لاتظلموا الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) قال : لاتظلموهم (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) قال : كانوا يوعدون من أتى شعيبا وغشيه وأراد الاسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ولا تقعدوا بكل صراط توعدون قال : كانوا يجلسون فى الطريق فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبا كذاب فلا يفتنكم عن دينكم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (بكل صراط توعدون) قال : بكل سبيل حق (وتصدّون عن سبيل الله) قال : تصدّون أهلها (وتبغونها عوجا) قال : تلتمسون لها الزيغ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) قال : هو العاشر (وتصدون عن سبيل الله) قال : تصدّون عن الاسلام (وتبغونها عوجا) قال : هلاكا . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هم العشار . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية عن أبى هريرة أوغيره : شك أبو العالية قال : أتى النبى ﷺ ليلة أسرى

به على خشبة على الطريق لايمرّ بها ثوب الاشقته ولاشىء الاخرقته ، قال ماهذا ياجبريل ؟ قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا (ولاتقعدوا بكل صراط توعدون) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله (ومايكون لنا أن نعود فيها) قال : ماينبغى لنا أن نعود فى شرككم بعد اذ نجانا الله (الا أن يشاء الله ربنا) والله لايشاء الشرك ، ولكن يقول الا أن يكون الله قد علم شيئا ، فانه قد وسع كل شىء علما . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن الانبارى فى الوقف والابتداء عن ابن عباس قال : ماكنت أدرى ماقوله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول : تعال أفاتحك ، تعنى أقاضيك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (ربنا افتح) يقول : اقض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : الفتح القضاء لغة يمانية اذا قال أحدهم تعال أقاضيك القضاء ، قال تعال أفاتحك . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (لم يغنوا فيها) قال : لم يعيشوا فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (فكيف آسى) قال : أحزن . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : فى المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما ، قبر اسمعيل وقبر شعيب ، فقبر اسمعيل فى الحجر ، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود . وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه أن شعيبا مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، فقبورهم فى غربى الكعبة بين دار الندوة وبين باب بنى سهم . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم عن ابن اسحق قال ذكر لى يعقوب بن أبى مسلمة أن رسول الله ﷺ كان اذا ذكر شعيبا قال «ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، فيما يريدهم به فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفى من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ *

قوله (وماأرسلنا فى قرية من نبىّ) لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم وهم المذكورون سابقا أجمل حال سائر الأمم المرسل اليها : أى وماأرسلنا فى قرية من القرى من نبىّ من الأنبياء ، وفى الكلام محذوف : أى فكذب أهلها الا أخذناهم ، والاستثناء مفرّغ : أى ماأرسلنا فى حال من الأحوال الا فى حال أخذنا أهلها ، فمحل أخذنا النصب ، والبأساء : البؤس والفقر ، والضراء : الضر ، وقد تقدم تحقيق معنى البأساء والضراء (لعلهم يضرعون) أى لكى يتضرعوا ويتذللوا ، فيدعوا ماهم عليه من الاستكبار وتكذيب الأنبياء * قوله (ثم بدّلنا) معطوف على أخذنا : أى ثم بعد الأخذ لأهل القرى بدّلناهم (مكان السيئة) التى أصبناهم بها من البلاء والامتحان (الحسنة) أى الخصلة الحسنة : فصاروا فى خير وسعة وأمن (حتى عفوا)

يقال عفا كثر، وعفا درس، فهو من أسماء الأضداد، والمراد هنا أنهم كثروا فى أنفسهم وفى أموالهم: أى أعطيناهم الحسنة مكان السيئة حتى كثروا (وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) أى قالوا هذه المقالة عند أن صاروا فى الحسنة بعد السيئة: أى ان هذا الذى مسنا من البأساء والضراء، ثم من الرخاء والخصب من بعد هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله، فمسهم من البأساء والضراء مامسنا، ومن النعمة والخير ما نلناه، ومعناهم أن هذه العادة الجارية فى السلف والخلف، وان ذلك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم واختبارا لما عندهم وفى هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوهم مالايخفى، ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم فقال (فأخذناهم بغتة): أى فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ ولا إمهال، (و) الحال أن (هم لا يشعرون) بذلك ولا يترقبونه، واللام فى (القرى) للعهد: أى (ولو أن أهل القرى) التى أرسلنا اليها رسلنا (آمنوا) بالرسل المرسلين اليهم (واتقوا) ماصمموا عليه من الكفر ولم يصروا على مافعلوا من القبائح (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) أى يسرنا لهم خير السماء والأرض كما يحصل التيسير للابواب المغلقة بفتح أبوابها، قيل المراد بخير السماء: المطر، وخير الأرض النبات، والأولى حمل مافى الآية على ماهو أعم من ذلك، ويجوز أن تكون اللام فى القرى للجنس، والمراد لو أن أهل القرى أين كانوا وفى أى بلاد سكنوا آمنوا واتقوا الى آخر الآية (ولكن كذبوا) بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا (فأخذناهم) بالعذاب (ب) سبب (ما كانوا يكسبون) من الذنوب الموجبة لعذابهم، والاستفهام فى (أفأمن أهل القرى) للتقريع والتوبيخ، وأهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبله، والفاء للعطف، وهو مثل - أفحكم الجاهلية يبغون -، وقيل المراد بالقرى مكة وما حولها لتكذيبهم للنبى ﷺ، والحمل على العموم أولى * قوله (أن يأتيهم بأسنا بياتا) أى وقت بيات، وهو الليل على أنه منصوب على الظرفية، ويجوز أن يكون مصدرا: بمعنى تبييتا، أو مصدرا فى موضع الحال: أى مبيتين، وجملة (وهم نائمون) فى محل نصب على الحال، والاستفهام فى (أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) كالاستفهام الذى قبله، والضحى ضحوة النهار، وهو فى الأصل اسم لضوء الشمس اذا أشرقت وارتفعت. قرأ ابن عامر والحرميان (أوأمن) باسكان الواو، وقرأ الباقون بفتحها، وجملة (وهم يلعبون) فى محل نصب على الحال: أى يشتغلون بما لايعود عليهم بفائدة، والاستفهام فى (أفأمنوا مكر الله) للتقريع والتوبيخ وانكار ماهم عليه من أمان مالا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم، وفى تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لانكار ماأنكره عليهم، ثم بين حال من أمن مكر الله، فقال (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) أى الذين أفرطوا فى الخسران، ووقعوا فى وعيده الشديد، وقيل مكر الله هنا هو استدراجه بالنعمة والصحة * والأولى حمله على ماهو أعم من ذلك * قوله (أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) قرئ نهد بالنون وبالتحتية، فعلى القراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه ومفعول الفعل (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) أى ان الشأن هو هذا، وعلى القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) أى أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم، والهداية هنا بمعنى التبيين، ولهذا عديت باللام * قوله (ونطبع على قلوبهم) أى ونحن نطبع على قلوبهم على الاستئناف ولا يصح عطفه على أصبنا لأنهم ممن طبع الله على قلبه لعدم قبولهم للإيمان، وقيل هو معطوف على فعل مقدر دل عليه الكلام، كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع، وقيل معطوف على يرثون * قوله (فهم لا يسمعون) جواب لو: أى صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم والطبع على قلوبهم لا يسمعون مايتلوه عليهم من أرسله الله اليهم من المواعظ، والاعذار، والانذار.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) قال مكان الشدة الرخاء (حتى عفوا) قال كثروا وكثرت أموالهم. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد

٢٦٦ ٦٩/١٥٨



وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (حتى عفوا) قال جموا . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (قدمس آباءنا الضراء والسراء) قال قالوا قد أتى على آبائنا مثل هذا فلم يكن شيئا (فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه فى قوله (ولو أن أهل القرى آمنوا) قال بما أنزل الله (واتقوا) قال ماحرّمه الله (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) يقول أعطتهم السماء بركتها والأرض نباتها . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق معاذ بن رفاعة عن موسى الطائفى قال : قال رسول الله ﷺ « أكرموا الخبز فان الله أنزله من بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض » . وأخرج البزار والطبرانى . قال السيوطى بسند ضعيف عن عبد الله ابن أم حرام قال : صليت القبلتين مع رسول الله ﷺ وسمعت رسول الله ﷺ يقول « أكرموا الخبز فان الله أنزله من بركات السماء وسخر له بركات الأرض ومن تتبع مايسقط من السفرة غفر له » . وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن قال : كان أهل قرية أوسع الله عليهم حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (أولم نهد) قال : أولم نبين . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) قال المشركون .

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ *

قوله (تلك القرى) أى التى أهلكناها ، وهى قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب المتقدّم ذكرها (نقصّ عليك) أى نتلو عليك (من أنبائها) أى من أخبارها ، وهذه تسلية لرسول ﷺ وللمؤمنين ، ونقصّ إما فى محل نصب على أنه حال ، و(تلك القرى) مبتدأ وخبر ، أو يكون فى محل رفع على أنه الخبر ، و (القرى) صفة لتلك ، ومن فى (من أنبائها) للتبعيض : أى نقصّ عليك بعض أنبائها ، واللام فى (لقد جاءتهم رسلهم بالبينات) جواب القسم * والمعنى : أن من أخبارهم أنها جاءتهم رسل الله ببيناته كما سبق بيانه فى قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا (فما كانوا ليؤمنوا) عند مجىء الرسل (بما كذبوا (به) من قبل) مجيئهم ، أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل فى حال من الأحوال ولا فى وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم ، بل هم مستمرّون على الكفر متشبثون بأذيال الطغيان دائما ، ولم ينجع فيهم مجىء الرسل ولا ظهر له أثر ، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله ، وقيل المعنى : فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم كقوله ــ ولو ردّوا لعادوا ــ وقيل سألوا المعجزات ، فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها * والأوّل أولى ، ومعنى تكذيبهم قبل مجىء الرسل : أنهم كانوا فى الجاهلية يكذبون بكل ماسمعوا به من إرسال الرسل ، وانزال الكتب * قوله (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) أى مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولاترهيب * قوله (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقا : أى ماوجدنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد : أى عهد يحافظون عليه

ويتمسكون به ، بل دأبهم نقض العهود فى كل حال ، وقيل الضمير يرجع إلى الناس على العموم : أى ماوجدنا لأكثر الناس من عهد ، وقيل المراد بالعهد : هو المأخوذ عليهم فى عالم الذرّ ، وقيل الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى : أى الأكثر منهم لاعهد ولا وفاء ، والقليل منهم قد بقى بعهده ويحافظ عليه ، وان فى (وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) هى المخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن محذوف : أى ان الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين ، أو هى النافية ، واللام فى (لفاسقين) بمعنى إلا : أى إلا فاسقين خارجين عن الطاعة خروجا شديدا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبىّ بن كعب فى قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال كان فى علم الله يوم أقرّوا له بالميثاق من يكذب به ممن يصدّق به . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال مثل قوله ـ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ـ . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) قال الوفاء . وأخرج ابن أبى حاتم فى الآية قال هو ذاك العهد يوم أخذ الميثاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) قال ذاك أن الله انما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ماوصاهم به .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ۞ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۞ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ۞ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۞ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ۞ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۞ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۞

قوله (ثم بعثنا من بعدهم موسى) أى من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب : أى ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل ، وقيل الضمير فى (من بعدهم) راجع الى الأمم السابقة : أى من بعد إهلاكهم (إلى فرعون وملائه) فرعون هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العمالقة ، وملأ فرعون : أشراف قومه ، وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم ، لأن من عداهم كالأتباع لهم ۞ قوله (فظلموا بها) أى كفروا بها ، وأطلق الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات التى جاء بها موسى كان كفرا متبالغا لوجود

مايوجب الايمان من المعجزات العظيمة التى جاءهم بها ، والمراد بالآيات هنا : هى الآيات التسع ، أو معنى (فظلموا بها) ظلموا الناس بسببها لما صدّوهم عن الايمان بها ، أوظلموا أنفسهم بسببها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى المكذبين بالآيات الكافرين بها ، وجعلهم مفسدين ، لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد * قوله (وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين) أخبره بأنه مرسل من الله اليه وجعل ذلك عنوانا لكلامه معه ، لأن من كان مرسلا من جهة من هو رب العالمين أجمعين فهو حقيق بالقبول لما جاء به كما يقول من أرسله الملك فى حاجة الى رعيته : أنا رسول الملك اليكم ثم يحكى ماأرسل به فان فى ذلك من تربية المهابة وإدخال الروعة مالا يقادر قدره * قوله (حقيق على أن لاأقول على الله إلا الحق) قرئ حقيق علىّ أن لاأقول : أى واجب علىّ ولازم لى أن لاأقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق ، وقرئ (حقيق على أن لاأقول) بدون ضمير فى على ، قيل فى توجيهه ان على بمعنى الباء : أى حقيق بأن لاأقول ، ويؤيده قراءة أبىّ والأعمش فانهما قرآ حقيق بأن لاأقول ، وقيل ان (حقيق) مضمن معنى حريص ، وقيل إنه لما كان لازما للحق كان الحق لازما له ، فقول الحق حقيق عليه وهو حقيق على قول الحق ، وقيل إنه أغرق فى وصف نفسه فى ذلك المقام حتى جعل نفسه حقيقة على قول الحق كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله ، وقرأ عبد الله بن مسعود حقيق أن لا أقول باسقاط على ، ومعناها واضح ، ثم قال بعد هذا (قدجئتكم ببينة من ربكم) أى بما يتبين به صدق وأنى رسول من رب العالمين . وقد طوى هنا ذكر مادار بينهما من المحاورة كما فى موضع آخر أنه قال فرعون ــ فمن ربكما ياموسى ــ ثم قال بعد جواب موسى ــ ومارب العالمين ــ الآيات الحاكية لما دار بينهما * قوله (فأرسل معى بنى اسرائيل) أمره بأن يدع بنى اسرائيل يذهبون معه ويرجعون إلى أوطانهم وهى الأرض المقدسة . وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم ، والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها ، فلما قال ذلك (قال) له فرعون (إن كنت جئت بآية) من عند الله كما تزعم (فأت بها) حتى نشاهدها وننظر فيها (إن كنت من الصادقين) فى هذه الدعوى التى جئت بها * قوله (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين) أى وضعها على الأرض فانقلبت ثعبانا : أى حية عظيمة من ذكور الحيات ، ومعنى (مبين) أن كونها حية فى تلك الحال أمر ظاهر واضح لالبس فيه (ونزع يده) أى أخرجها وأظهرها من جيبه أومن تحت إبطه ، وفى التنزيل ــ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ــ * قوله (فاذا هى بيضاء للناظرين) أى فاذا يده التى أخرجها بيضاء تتلألأ نورا يظهر لكل مبصر (قال الملأ) أى الأشراف (من قوم فرعون) لما شاهدوا انقلاب العصى حية ، ومصير يده بيضاء من غير سوء (ان هذا) أى موسى (لساحر عليم) أى كثير العلم بالسحر ، ولا تنافى بين نسبة هذا القول الى الملأ هنا ، والى فرعون فى سورة الشعراء فكلهم قد قالوه فكان ذلك مصححا لنسبته اليهم تارة واليه أخرى ، وجملة (يريد أن يخرجكم من أرضكم) وصف لساحر ، والأرض المنسوبة اليهم : هى أرض مصر ، وهذا من كلام الملأ ، وأما (فماذا تأمرون) فقيل هو من كلام فرعون . قال للملأ لما قالوا بما تقدم : أى بأى شىء تأمرونى ، وقيل هو من كلام الملأ : أى قالوا لفرعون فبأى شىء تأمرنا وخاطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظيما له كما يخاطب الرؤساء أتباعهم ، وما فى موضع نصب بالفعل الذى بعدها ، ويجوز أن تكون ذا بمعنى الذى كما ذكره النحاة فى ماذا صنعت ، وكون هذا من كلام فرعون هو الأولى بدليل مابعده وهو (قالوا أرجه وأخاه) قال الملأ جوابا لكلام فرعون حيث استشارهم وطلب ماعندهم من الرأى أرجه أى : أخره وأخاه ، يقال أرجأته وأرجيته : أخرته ، قرأ عاصم والكسائى وحمزة وأهل المدينة ارجه بغير همز ، وقرأ الباقون بالهمز ، وقرأ أهل الكوفة إلا الكسائى

أرجه بسكون الهاء . قال الفراء هي لغة للعرب يقفون على الهاء في الوصل ، وأنكر ذلك البصريون ، وقيل معنى أرجه احبسه ، وقيل هو من رجا يرجو : أي أطمعه ودعه يرجوك ، حكاه النحاس عن محمد بن يزيد المبرد (وأرسل في المدائن حاشرين) أي أرسل جماعة حاشرين في المدائن التي فيها السحرة ، وحاشرين مفعول أرسل ، وقيل هو منصوب على الحال ، و(يأتوك) جواب الأمر : أي يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم (بكل سحار عليم) أي بكل ماهر في السحر كثير العلم بصناعته . قرأ أهل الكوفة الا عاصم سحار ، وقرأ من عداهم ساحر * قوله (وجاء السحرة فرعون) في الكلام طي : أي فبعث في المدائن حاشرين وجاء السحرة فرعون * قوله (قالوا إن لنا لأجرا) أي فلما جاءوا فرعون قالوا له ان لنا لأجرا ، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : أي شيء قالوا له لما جاءوه ؟ والأجر الجائزة والجعل ، ألزموا فرعون أن يجعل لهم جعلا ان غلبوا موسى بسحرهم . قرأ نافع وابن كثير إن لنا على الاخبار ، وقرأ الباقون أئن لنا على الاستفهام ، استفهموا فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة ، ومعنى الاستفهام التقرير ، وأما على القراءة الأولى فكأنهم قاطعون بالجعل وأنه لابد لهم منه ، فأجابهم فرعون بقوله (نعم وانكم لمن المقربين) أي ان لكم لأجرا وانكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقربين لدينا * قوله (قالوا ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين) هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون نعم وانكم لمن المقربين * والمعنى أنهم خيروا موسى بين أن يبتدئ بالقاء مايلقيه عليهم أو يبتدئوه هم بذلك تأدبا معه وثقة من أنفسهم بأنهم غالبون وان تأخروا ، وان في موضع نصب ، قاله الكسائي والفراء : أي إما أن تفعل الالقاء أو نفعله نحن . فأجابهم موسى بقوله (ألقوا) اختار أن يكونوا المتقدمين عليه بالقاء مايلقونه غير مبال بهم ولا هائب لما جاءوا به . قال الفراء في الكلام حذف * والمعنى قال لهم موسى انكم لن تغلبوا ربكم ولن تبطلوا آياته ، وقيل هو تهديد : أي ابتدئوا بالالقاء فستنظرون ماحل بكم من الافتضاح ، والموجب لهذين التأويلين عند من قال بهما أنه لايجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر (فلما ألقوا) أي حبالهم وعصيهم (سحروا أعين الناس) أي قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها بما جاءوا به من التمويه ، والتخييل الذي يفعله المشعوذون وأهل الخفة (واسترهبوهم) أي أدخلوا الرهبة في قلوبهم ادخالا شديدا (وجاءوا بسحر عظيم) في أعين الناظرين لما جاءوا به ، وان كان لاحقيقة له في الواقع * قوله (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك) أمره الله سبحانه عند أن جاء السحرة بما جاءوا به من السحر أن يلقي عصاه (فاذاهي) أي العصا (تلقف مايأفكون) قرأ حفص (تلقف) باسكان اللام ، والتخفيف للقاف من لقف يلقف ، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف من تلقف يتلقف : يقال لقفت الشيء وتلقفته اذا أخذته أو بلعته . قال أبو حاتم و بلغني في بعض القراآت تلقم بالميم والتشديد ، قال الشاعر :

أنت عصا موسى التي لم تزل * تلقم مايأفكه الساحر

وما في (مايأفكون) مصدرية أوموصولة : أي إفكهم أومايأفكونه ، سماه إفكا ، لأنه لاحقيقة له في الواقع بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة (فوقع الحق) أي ظهر وتبين لما جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) من سحرهم : أي تبين بطلانه (فغلبوا) أي السحرة (هنالك) أي في الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم (وانقلبوا) من ذلك الموقف (صاغرين) أذلاء مقهورين (وألقي السحرة ساجدين) أي خروا ساجدين كأنما ألقاهم ملق على هيئة السجود أولم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا أنفسهم ، وجملة (قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل ماذا قالوا عند سجودهم أوفي سجودهم ، وانما قالوا هذه المقالة وصرحوا بأنهم آمنوا برب العالمين ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا : رب

Schafi und Nafi'

موسى وهرون لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرّين بالهيته أن السجود له .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ثم بعثنا موسى) قال انما سمى موسى ، لأنه ألقى بين ماء وشجر ، فالماء بالقبطية مو ، والشجر سى . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد أن فرعون كان فارسيا من أهل إصطخر . وأخرج أيضا عن ابن لهيعة أنه كان من أبناء مصر . وأخرج أيضا وأبو الشيخ عن محمد بن المنكدر قال عاش فرعون ثلثمائة سنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طلحة أن فرعون كان قبطيا ولد زنا طوله سبعة أشبار . وأخرج أيضا عن الحسن قال كان علجا من همذان . وأخرج أبو الشيخ عن ابراهيم بن مقسم الهذلى : قال مكث فرعون أربعمائة سنة لم يصدع له رأس . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (فألقى عصاه) قال ذكر لنا أن تلك العصا عصا آدم أعطاه إياها ملك حين توجه الى مدين ، فكانت تضىء بالليل و يضرب بها الأرض بالنهار فتخرج له رزقه ويهش بها على غنمه (فاذا هى ثعبان مبين) قال حية تكاد تساوره . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال لقد دخل موسى على فرعون وعليه زرمانقة من صوف ماتجاوز مرفقيه فاستأذن على فرعون فقال : أدخلوه فدخل فقال ان إلهى أرسلنى اليك ، فقال للقوم حوله : ماعلمت لكم من إله غيرى خذوه . قال انى قد جئتك بآية قال فائت بها ان كنت من الصادقين : فألقى عصاه فصارت ثعبانا بين لحييه مابين السقف الى الأرض ، وأدخل يده فى جيبه فأخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار فخروا على وجوههم وأخذ موسى عصاه ، ثم خرج ليس أحد من الناس الا نفر منه ، فلما أفاق وذهب عن فرعون الروع قال للملأ حوله ماذا تأمرونى (قالوا أرجه وأخاه) ولاتأتنا به ولايقربنا (وأرسل فى المدائن حاشرين) وكانت السحرة يخشون من فرعون فلما أرسل اليهم قالوا قد احتاج اليكم إلهكم ؟ قال ان هذا فعل كذا وكذا : قالوا ان هذا ساحر سحر (ان لاجرا لنا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم لمن المقرّبين) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال عصى موسى اسمها ماشا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عنه فى قوله (فاذا هى ثعبان مبين) قال الحية : الذكر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (فاذاهى ثعبان مبين) قال الذكر من الحيات فاتحة فمها واضعة لحيها الأسفل فى الأرض والأعلى على سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها ووثب فأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك ، فصاح ياموسى : خذها وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل : فأخذها موسى فصارت عصا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (أرجه) قال أخره . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : احبسه وأخاه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس من طرق فى قوله (وأرسل فى المدائن حاشرين) قال الشرط . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (وجاء السحرة) قال كانوا سبعين رجلا أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

وقد اختلفت كلمة السلف فى عددهم ، فقيل كانوا سبعين كما قال ابن عباس ، وقيل كانوا اثنى عشر ، وقيل خمسة عشر ألفا ، وقيل سبعة عشر ألفا ، وقيل تسعة عشر ألفا ، وقيل ثلاثين ألفا ، وقيل سبعين ألفا ، وقيل ثمانين ألفا ، وقيل ثلثمائة ألف ، وقيل تسعمائة ألف . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ان لنا لأجرا) أى عطاء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فلما ألقوا) قال ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فأقبلت يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى : قال ألقى موسى عصاه فأكلت كل حية لهم ، فلما رأوا ذلك سجدوا . وأخرج

عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن مجاهد في قوله (تلقف ماياًفكون) قال مايكذبون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله (تلقف ماياًفكون) قال تسترط حبالهم وعصيهم . وأخرج ابن جرير وأبوالشيخ عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : التقى موسى وأمير السحرة ، فقال له موسى أرأيتك ان غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ماجئت به حق ؟ فقال الساحر لآتين غدا بسحر لايغلبه سحر ، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنه حق ، وفرعون ينظر اليهما وهو قول فرعون (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة) . وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي قال : لما خر السحرة سجدا رفعت لهم الجنة حتى نظروا اليها .

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *

قوله (آمنتم به) قرئ بحذف الهمزة على الاخبار وباثباتها ، أنكر على السحرة فرعون ايمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم بذلك ، ثم قال بعد الانكار عليهم مبينا لما هو الحامل لهم على ذلك في زعمه (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة) أي حيلة احتلتموها أنتم وموسى عن مواطأة بينكم سابقة (لتخرجوا) من مدينة مصر (أهلها) من القبط وتستولوا عليها وتسكنوا فيها أنتم و بنو إسرائيل ، ومعنى (في المدينة) ان هذه الحيلة والمواطأة كانت بينكم وأنتم بالمدينة مدينة مصر قبل أن تبرزوا أنتم وموسى الى هذه الصحراء ، ثم هددهم بقوله (فسوف تعلمون) عاقبة صنعكم هذا وسوء مغبته ، ثم لم يكتف بهذا الوعيد المجمل ، بل فصله فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أي الرجل اليمنى واليد اليسرى ، أوالرجل اليسرى واليد اليمنى ، ثم لم يكتف عدو الله بهذا ، بل جاوزه الى غيره فقال (ثم لأصلبنكم) في جذوع النخل : أي أجعلكم عليها مصلوبين زيادة تنكيل بهم و إفراطا في تعذيبهم ، وجملة (قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) استئنافية جواب سؤال كما تقدم ، ومعناه : انك وان فعلت بنا هذا الفعل فتعده يوم الجزاء سيجازيك الله بصنعك ويحسن إلينا بما أصابنا في ذاته ، فتوعدوه بعذاب الله في الآخرة لما توعدهم بعذاب الدنيا ، ويحتمل أن يكون المعنى : إنا إلى ربنا منقلبون بالموت : أي لابد لنا من الموت ولا يضرنا كونه بسبب منك * قوله (وما تنقم منا) قرأ الحسن بفتح القاف . قال الأخفش هي لغة ، وقرأ الباقون بكسرها ، يقال نقمت الأمر أنكرته : أي لست تعيب علينا وتنكرمنا (إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) مع أن هذا هوالشرف

العظيم والخير الكامل ، ومثله لايكون موضعا للعيب ومكانا للانكار ، بل هو حقيق بالثناء الحسن والاستحسان البالغ ، ثم تركوا خطابه وقطعوا الكلام معه والتفتوا خطاب الجناب العلىّ مفوضين الأمر إليه طالبين منه عزّ وجلّ أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين (ربنا أفرغ علينا صبرا) الافراغ : الصب : أى اصببه علينا حتى يفيض ويغمرنا : طلبوا أبلغ أنواع الصبر استعدادا منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدوّ الله وتوطينا لأنفسهم على التصلب فى الحق وثبوت القدم على الايمان ، ثم قالوا (وتوفنا مسلمين) أى توفنا إليك حال ثبوتنا على الاسلام غير محرّفين ولامبدّلين ولامفتونين ، ولقد كان ماهم عليه من السحر والمهارة فى علمه مع كونه شرا محضا سببا للفوز بالسعادة ، لأنهم علموا أن هذا الذى جاء به موسى خارج عن طوق البشر وأنه من فعل الله سبحانه فوصلوا بالشرّ الى الخير ولم يحصل من غيرهم ممن لايعرف هذا العلم من أتباع فرعون ماحصل منهم من الاذعان والاعتراف والايمان ، واذا كانت المهارة فى علم الشرّ قد تأتى بمثل هذه الفائدة فما بالك بالمهارة فى علم الخير : اللهم انفعنا بما علمتنا ، وثبت أقدامنا على الحق ، وأفرغ علينا سجال الصبر وتوفنا مسلمين ﴿ قوله (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الارض) هذا الاستفهام منهم للانكار عليه : أى أتتركه وقومه ليفسدوا فى الأرض بايقاع الفرقة وتشتيت الشمل ﴿ والمراد بالأرض هنا : أرض مصر ﴿ قوله (ويذرك وآلهتك) قرأ نعيم بن ميسرة ويذرك بالرفع على تقدير مبتدأ : أى وهو يذرك ، أوعلى العطف على (أتذر موسى) : أى أتذره ويذرك ، وقرأ الأشهب العقيلى (ويذرك) بالجزم : إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة ، أوعلى ماقيل فى (وأكن من الصالحين) فى توجيه الجزم ، وقرأ أنس بن مالك ونذرك بالنون والرفع ، ومعناه : أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سيذرونه وآلهته ، وقرأ الباقون : ويذرك بالنصب بأن مقدّرة على أنه جواب الاستفهام والواو نائبة عن الفاء أوعطفا على (يفسدوا) : أى ليفسدوا ، وليذرك : لأنهم على الفساد فى زعمهم ، وهو يؤدّى الى ترك فرعون وآلهته :

واختلف المفسرون : فى معنى (وآلهتك) لكون فرعون كان يدعى الربوبية كما فى قوله ـ ماعلمت لكم من إله غيرى ـ ، وقوله ـ أنا ربكم ـ فقيل معنى : وآلهتك وطاعتك ، وقيل معناه وعبادتك ، ويؤيده قراءة علىّ وابن عباس والضحاك وإلهتك ، وفى حرف أبىّ (أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض وقد تركوك أن يعبدوك) وقيل انه كان يعبد بقرة ، وقيل كان يعبد النجوم ، وقيل كان له أصنام يعبدها قومه تقربا إليه فنسبت إليه) ولهذا قال ـ أنا ربكم الأعلى ـ قاله الزجاج ، وقيل كان يعبد الشمس . فقال فرعون مجيبا لهم ومثبتا لقلوبهم على الكفر (سنقتل أبناءهم) ، قرأ نافع وابن كثير سنقتل بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد : أى سنقتل الأبناء ونستحيي النساء : أى نتركهن فى الحياة ، ولم يقل سنقتل موسى لأنه يعلم أنه لايقدر عليه (وإنا فوقهم قاهرون) : أى مستعلون عليهم بالقهر والغلبة ، وهم تحت قهرنا وبين أيدينا ، ماشئنا أن نفعله بهم فعلناه ، وجملة (قال موسى لقومه) مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، لما بلغ موسى موسى ماقاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة ، ثم أخبرهم (أن الأرض) يعنى أرض مصر (لله يورثها من يشاء من عباده) أو جنس الأرض ، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه ، وأنّ الله سيورثهم أرضهم وديارهم . ثم بشرهم بأن العاقبة للمتقين : أى العاقبة المحمودة فى الدنيا والآخرة للمتقين من عباده ، وهم موسى ومن معه . وعاقبة كل شىء آخره ، وقرئ والعاقبة بالنصب عطفا على الأرض ، وجملة (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا) مستأنفة جواب سؤال مقدر كالتى قبلها : أى أوذينا من قبل أن تأتينا رسولا وذلك بقتل فرعون أبناءنا عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده (ومن بعد ماجئتنا) رسولا بقتل أبنائنا الآن ، وقيل المعنى أوذينا من قبل أن

VII.276.137



تأتينا باستعمالنا فى الاعمال الشاقة بغير جعل (ومن بعد ماجئتنا) بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا ، وقيل ان الأذى من قبل ومن بعد واحد . وهو قبض الجزية منهم ، وجملة (قال عسى ربكم أن يهلك عدوّكم) مستأنفة كالتى قبلها ، وعدهم باهلاك الله لعدوّهم ، وهو فرعون وقومه * قوله (و يستخلفكم فى الارض) هو تصريح بما رمز إليه سابقا من أن الارض لله . وقد حقق الله رجاءه وملكوا مصر فى زمان داود وسليمان وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق وأنجاهم (فينظر كيف تعملون) من الأعمال بعد أن يمنّ عليكم باهلاك عدوّكم (ويستخلفكم فى الأرض) فيجازيكم بما عملتم فيه من خير وشرّ :

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة) إذ التقيا لتظاهرا فتخرجا منها أهلها (لأقطعن أيديكم) الآية . قال فقتلهم وقطعهم كما قال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان أوّل من صلب فرعون ، وهو أوّل من قطع الأيدى والأرجل من خلاف . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله (من خلاف) قال : يدا من هاهنا ورجلا من هاهنا وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا) قال : من قبل إرسال الله إياك ومن بعده . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه فى الآية قال : قالت بنو إسرائيل لموسى كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تأتينا . فلما جئت كلفنا اللبن مع التبن أيضا ، فقال موسى : أى رب أهلك فرعون حتى متى تبقيه ، فأوحى الله اليه انهم لم يعملوا الذنب الذى أهلكهم به . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية قال : حزا لعدوّ الله حاز أنه يولد فى العام غلام يسلب ملكك قال : فتتبع أولادهم فى ذلك العام بذبح الذكر منهم ، ثم ذبحهم أيضا بعد ماجاءهم موسى . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ان بنا أهل البيت يفتح ويختم ، ولابدّ أن تقع دولة لبنى هاشم فانظروا فيمن تكون من بنى هاشم ؟ وفيهم نزلت (عسى ربكم أن يهلك عدوّكم و يستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) و ينبغى أن ينظر فى صحة هذا عن ابن عباس فالآية نازلة فى بنى اسرائيل لافى بنى هاشم واقعة فى هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى وفرعون .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ *

المراد بآل فرعون هنا قومه ، والمراد بالسنين الجدب ، وهذا معروف عند أهل اللغة ، يقولون أصابتهم سنة : أى جدب سنة ، وفى الحديث «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» وأكثر العرب يعربون السنين

اعراب جمع المذكر السالم ، ومن العرب من يعرب به اعراب المفرد و يجرى الحركات على النون ، وأنشد الفراء :

أرى مر السنين أخذن منى * كما أخذ السرار من الهلال

بكسر النون من السنين . قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون .
أقول قد ورد مالا احتمال فيه ، وهو قول الشاعر :

وماذا تزدرى الأقوام منى * وقد جاوزت حد الأربعين

وبعده

أخو الخمسين مجتمع أشدى * ونجذبنى مداورة السنين

فان الأبيات قبله و بعده مكسورة ، وأول هذه الأبيات :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * متى أضع العمامة تعرفونى

وحكى الفراء عن بنى عامر أنهم يقولون : أقمت عنده سنينا مصروفا قال : و بنو تميم لايصرفونه ، ويقال أسنت القوم : أى أجدبوا ، ومنه قول ابن الزبعرى * ورجال مكة مسنتون عجاف * (ونقص من الثمرات) بسبب عدم نزول المطر وكثرة العاهات (لعلهم يذكرون) فيتعظون و يرجعون عن غوايتهم * قوله (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه) أى الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر وصلاح الثمرات ورخاء الأسعار (قالوا لنا هذه) أى أعطيناها باستحقاق ، وهى مختصة بنا (وان تصبهم سيئة) أى خصلة سيئة من الجدب والقحط وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء (يطيروا بموسى ومن معه) : أى يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به ، والأصل يتطيروا : أدغمت التاء فى الطاء . وقرأ طلحة (تطيروا) على أنه فعل ماض ، وقد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات ، ثم استعمل بعد ذلك فى كل من تشاءم بشىء ، ومثل هذا قوله تعالى (وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) قيل : ووجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع ، ووجه تنكير السيئة ندرة وقوعها * قوله (ألا إنما طائرهم عند الله) أى سبب خيرهم وشرهم بجميع ماينالهم من خصب وقحط هو من عند الله : ليس بسبب موسى ومن معه ، وكان هذا الجواب على نمط مايعتقدونه و بما يفهمونه ، ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذى يجرى بقدر الله وحكمته ومشيئته (ولكن أكثرهم لايعلمون) بهذا بل ينسبون الخير والشر الى غير الله جهلا منهم . وقرأ الحسن طيرهم * قوله (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) قال الخليل : أصل مهما ما الشرطية زيدت عليه ما التى للتوكيد كما تزاد فى سائر الحروف مثل : حيثما وأينما وكيفما ومتى ما ، ولكنهم كرهوا اجتماع المثلين فأبدلوا ألف الأولى هاء . وقال الكسائى : أصله مه : أى اكفف ماتأتينا به من آية ، وزيدت عليها ما الشرطية ، وقيل هى كلمة مفردة يجازى بها ، ومحل مهما الرفع على الابتداء ، أو النصب بفعل يفسره مابعدها ، ومن آية لبيان مهما ، وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيده مابعده ، وهو (لتسحرنا بها) : أى لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم ، والضمير فى به عائد الى مهما ، والضمير فى بها عائد الى آية ، وقيل انهما جميعا عائدان الى مهما ، وتذكير الأول باعتبار اللفظ ، وتأنيث الثانى باعتبار المعنى (فما نحن لك بمؤمنين) جواب الشرط : أى فما نحن لك بمصدقين : أخبروا عن أنفسهم أنهم لايؤمنون بشىء مما يجىء به من الآيات التى هى فى زعمهم من السحر ، فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل المبينة بقوله (فأرسلنا عليهم الطوفان) وهو المطر الشديد . قال الأخفش : واحده طوفانة ، وقيل هو مصدر كالرجحان والنقصان فلا واحد له ، وقيل الطوفان : الموت . وقال النحاس : الطوفان فى اللغة ماكان مهلكا من موت أو سيل : أى مايطيف بهم فيهلكهم (والجراد) هو الحيوان المعروف أرسله الله لأكل زروعهم فأكلها (والقمل) قيل : هى الدباء ، والدباء الجراد قبل أن تطير ، وقيل هى السوس . وقيل البراغيث ، وقيل دواب سود صغار ، وقيل ضرب من القردان ، وقيل الجعلان . قال النحاس يجوز أن تكون هذه

الأشياء كلها أرسلت عليهم . وقرأ الحسن (القمل) بفتح القاف واسكان الميم ، وقرأ الباقون بضم القاف وفتح الميم مشددة . وقد فسر عطاء الخراسانى (القمل) بالقمل (والضفادع) جمع ضفدع وهو الحيوان المعروف الذى يكون فى الماء (والدم) روى أنه سال النيل عليهم دما ، وقيل هوالرعاف * قوله (آيات مفصلات) أى مبينات . قال الزجاج : هو منصوب على الحال * والمعنى أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات (فاستكبروا) أى ترفعوا عن الايمان بالله (وكانوا قوما مجرمين) لايهتدون الى حق ولاينزعون عن باطل * قوله (ولما وقع عليهم الرجز) أى العذاب بهذه الأمور التى أرسلها الله عليهم ، وقرئ بضم الراء وهما لغتان ، وقيل كان هذا الرجز طاعونا مات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفا (قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى بما استودعك من العلم ، أو بما اختصك به من النبوّة أو بما عهد اليك أن تدعو به فيجيبك ، والباء متعلقة بادع على معنى أسعفنا الى ماطلب من الدعاء بحق ماعندك من عهد الله ، أو ادع لنا متوسلا اليه بعهده عندك ، وقيل ان الباء للقسم ، وجوابه لنؤمنن : أى أقسمنا بعهدالله عندك (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك) على أن جواب الشرط سدّ مسدّ جواب القسم ، وعلى أن الباء ليست للقسم تكون اللام فى (لئن كشفت عنا الرجز) جواب قسم محذوف ، و (لنؤمنن) جواب الشرط سادّ مسدّ جواب القسم (ولنرسلنّ معك بنى اسرائيل) معطوف على لنؤمنن ، وقد كانوا حابسين لبنى اسرائيل عندهم يمتهنونهم فى الأعمال فوعدوه بارسالهم معه (فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه) : أى رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا الى موسى وسألوه بما سألوه : لكن لارفعا مطلقا ، بل رفعا مقيدا بغاية هى الأجل المضروب لاهلاكهم بالغرق ، وجواب لما (اذاهم ينكثون) أى ينقضون ماعقدوه على أنفسهم ، واذا هى الفجائية : أى فاجئوا النكث وبادروه (فانتقمنا منهم) أى أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ماتقدّم لهم من الذنوب المتعددة (فأغرقناهم فى اليم) أى فى البحر : قيل هو الذى لايدرك قعره ، وقيل هولجته وأوسطه ، وجملة (بأنهم كذبوا بآياتنا) تعليل للاغراق (وكانوا عنها غافلين) معطوف على كذبوا : أى كانوا غافلين عن النقمة المدلول عليها بانتقمنا ، أو عن الآيات التى لم يؤمنوا بها بل كذبوا بها وكانوا فى تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها ، والثانى أولى لأن الجملتين تعليل للاغراق .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) قال : السنين الجوع . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد قال : السنين الجوائح (ونقص من الثمرات) دون ذلك . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شىء لهم ، وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر ، واجتمعوا إلى فرعون ؟ فقالوا ان كنت كما تزعم فائتنا فى نيل مصر بماء ، قال غدوة يصبحكم الماء ، فلما خرجوا من عنده قال أىّ شىء صنعت ان لم أقدر على أن أجرى فى نيل مصر ماء غدوة كذبونى ، فلما كان جوف الليل قام فاغتسل ولبس مدرعة صوف ثم خرج حافيا حتى أتى نيل مصر ، فقال اللهمّ إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء فما علم الا بخرير الماء يقبل فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (فاذا جاءتهم الحسنة) قال : العافية والرخاء (قالوا لنا هذه) نحن أحق بها (وان تصبهم سيئة) قال : بلاء وعقوبة (يطيروا بموسى) قال يتشاءموا به . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (ألا إنما طائرهم عند الله) قال : الأمر من قبل الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « الطوفان الموت ، قال ابن كثير هو حديث غريب » . وأخرج عبد

ابن حميد وابن جرير وأبوالشيخ عن ابن عباس قال : الطوفان الغرق . وأخرج هؤلاء عن مجاهد قال : الطوفان الموت على كل حال . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس قال : الطوفان مطروا دائما بالليل والنهار ثمانية أيام ، والقمل الجراد الذى له أجنحة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : الطوفان أمر من أمر ربك ، ثم قرأ ــ فطاف عليها طائف من ربك ــ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد قال : الطوفان الماء ، والطاعون والجراد . قال يأكل مسامير أرتجهم : يعنى أبوابهم وثيابهم ، والقمل الدباء والضفادع تسقط على فرشهم ، وفى أطعمتهم ، والدم يكون فى ثيابهم ومائهم وطعامهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس قال : القمل الدباء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برّية ، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف نفسها فى القدر وهى تغلى ، وفى التنانير وهى تفور . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد : قال سال النيل دما فكان الاسرائيلى يستقى ماء طيبا ، ويستقى الفرعونى دما ، ويشتركان فى إناء واحد فيكون مايلى الاسرائيلى ماء طيبا ومايلى الفرعونى دما . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله ( والدم ) قال : سلط الله عليهم الرعاف . وأخرج أبوالشيخ عن ابن عباس قال : مكث موسى فى آل فرعون بعد ماغلب السحرة أربعين سنة يريهم الآيات والجراد والقمل والضفادع . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله ( آيات مفصلات ) قال : كانت آيات مفصلات يتبع بعضها بعضا ليكون لله الحجة عليهم . وأخرج ابن المنذر عنه قال : يتبع بعضها بعضا تمكث فيهم سبتا الى سبت ثم ترفع عنهم شهرا . وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبى ﷺ قال : الرجز العذاب . وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : الرجز الطاعون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله ( إلى أجل هم بالغوه ) قال الغرق . وأخرج ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال : اليم البحر . وأخرج أيضا عن السدى مثله .

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ *

قوله ( وأورثنا القوم ) يعنى بنى إسرائيل ( الذين كانوا يستضعفون ) أى يذلون ويمتهنون بالخدمة لفرعون وقومه ( مشارق الأرض ومغاربها ) منصوبان بأورثنا ، وقال الكسائى والفراء : ان الأصل فى مشارق الأرض ومغاربها ثم حذفت فى ، فنصبا ، والأول أظهر : لأنه يقال أورثته المال ، والأرض هى مصر والشام ، ومشارقها جهات مشرقها ، ومغاربها جهات مغربها ، وهى التى كانت لفرعون وقومه من القبط ، وقيل المراد جميع الأرض لأن داود وسليمان من بنى إسرائيل ، وقد ملكا الأرض * قوله ( التى

باركنا

باركنا فيها ) صفة للمشارق والمغارب ، وقيل صفة للأرض والمباركة فيها إخراج الزرع والثمار منها على أتمّ ما يكون وأنفع ماينفق * قوله ( وتمت كلمة ربك الحسنى ) أى مضت واستمرت على التمام ، والكلمة هى ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ـ ، وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على أملاكهم ، والحسنى : صفة للكلمة ، وهى تأنيث الاحسن وتمام هذه الكلمة ( على بنى إسرائيل ) بسبب صبرهم على ماأصيبوا به من فرعون وقومه * قوله ( ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ) التدمير الاهلاك : أى أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات ( وما كانوا يعرشون ) . قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم يعرشون بضم الراء . قال الكسائى هى لغة تميم ، وقرأ ابراهيم بن أبى عبلة يعرشون بتشديد الراء وضم حرف المضارعة ، وقرأ الباقون بكسر الراء مخففة : أى ما كانوا يعرشونه من الجنات ، ومنه قوله تعالى ـ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ـ وقيل معنى يعرشون يبنون ، يقال عرش يعرش : أى بنى يبنى * قوله ( وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ) هذا شروع فى بيان مافعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه ، ومعنى جاوزنا ببنى إسرائيل البحر جزناه بهم وقطعناه ، وقرئ جوّزنا بالتشديد ، وهو بمعنى قراءة الجمهور ( فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ) . قرأ حمزة والكسائى يعكفون بكسر الكاف ، وقرأ الباقون بضمها ، يقال عكف يعكف : و يعكف بمعنى أقام على الشىء ولزمه ، والمصدر منهما عكوف ، قيل هؤلاء القوم الذين أتاهم بنو إسرائيل هم من لخم كانوا نازلين بالرقة ، كانت أصنامهم تماثيل بقر ، وقيل كانوا من الكنعانيين ( قالوا ) أى بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل ( ياموسى اجعل لنا إلها ) أى صنما نعبده كائنا كالذى لهؤلاء القوم فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة لالها ، فأجاب عليهم موسى ، و ( قال إنكم قوم تجهلون ) وصفهم بالجهل لانهم قد شاهدوا من آيات الله مايزجر من له أدنى علم عن طلب عبادة غير الله ، ولكن هؤلاء القوم : أعنى بنى إسرائيل أشد خلق الله عنادا وجهلا وتلونا . وقد سلف فى سورة البقرة بيان ماجرى منهم من ذلك ، ثم قال لهم موسى ( إن هؤلاء ) يعنى القوم العاكفين على الأصنام ( متبر ماهم فيه ) التبار الهلاك ، وكل إناء منكسر فهو متبر : أى ان هؤلاء هالك ماهم فيه مدمّر مكسر ، والذى هم فيه هو عبادة الأصنام ، أخبرهم بأن هذا الدين الذى هؤلاء القوم عليه هالك مدمّر لايتمّ منه شىء * قوله ( وباطل ما كانوا يعملون ) أى ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام . قال فى الكشاف : وفى إيقاع هؤلاء اسما لان وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرا لها ، وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرّضون للتبار ، وانه لايعدوهم ألبتة ، وانه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة ماطلبوا وتبغض اليهم ماأحبوا * قوله ( أغير الله أبغيكم إلها ) الاستفهام للانكار والتوبيخ : أى كيف أطلب لكم غير الله إلها تعبدونه ؟ وقد شاهدتم من آياته العظام مايكفى البعض منه * والمعنى أن هذا الذى طلبتم لايكون أبدا ، وادخال الهمزة على غير للاشعار بأن المنكر هو كون المبتغى غيره سبحانه إلها ، وغير مفعول للفعل الذى بعده ، و إلها تمييز أو حال ، وجملة ( وهو فضلكم على العالمين ) فى محل نصب على الحال : أى والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنعم به عليكم من إهلاك عدوّكم واستخلافكم فى الأرض واخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره * قوله ( و إذ أنجيناكم من آل فرعون ) أى واذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون بعد أن كانوا مالكين لكم يستعبدونكم فيما يريدونه منكم و يمتهنونكم بأنواع الامتهانات ، هذا على أن هذا الكلام محكى عن موسى ، وأما إذا كان فى حكم الخطاب لليهود الموجودين فى عصر محمد ، فهو بمعنى اذكروا إذ أنجينا أسلافكم من آل فرعون ، وجملة ( يسومونكم

سوء العذاب) فى محل نصب على الحال : أى أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم (يسومونكم سوء العذاب) ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه ، وجملة (يقتلون أبناءكم و يستحيون نساءكم) مفسرة للجملة التى قبلها ، أو بدل منها . وقد سبق بيان ذلك ، والاشارة بقوله (وفى ذلكم) الى العذاب : أى فى هذا العذاب الذى كنتم فيه (بلاء) عليكم (من ربكم عظيم) ، وقيل الاشارة إلى الانجاء ، والبلاء النعمة * والأوّل أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله (مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) قال الشام . وأخرج هؤلاء عن قتادة مثله . وأخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن عبد الله بن شوذب قال : هى فلسطين ، وقد روى عن النبى ﷺ فى فضل الشام أحاديث ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وتمت كلمت ربك الحسنى) قال : ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم فى الأرض وما ورثهم منها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وما كانوا يعرشون) قال يبنون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) قال : لخم وجذام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجونى مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى الآية : قال تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامرىّ شبه لهم أنه من تلك البقر فذلك كان أوّل شأن العجل ليكون لله عليهم الحجة فينتقم منهم بعد ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة ، فقلت يارسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة و يعكفون حولها ، فقال النبى ﷺ الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة انكم تركبون سنن الذين من قبلكم . وأخرج نحوه ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جدّه مرفوعا ، وكثير ضعيف جدّا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (متبر) قال : خسران . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال هلاك .

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ *

هذا من جملة ما كرّم الله به موسى عليه السلام وشرفه ، والثلاثين هى ذو العقدة ، والعشر هى عشر ذى الحجة ، ضرب الله هذه المدّة موعدا لمناجاة موسى ومكالمته ، قيل وكان التكليم فى يوم النحر ، والفائدة فى (فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة) مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون لـئلا يتوهم ، أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها فبين أن العشر غير الثلاثين ، وأربعين ليلة منصوب على الحال : أى فتمّ حال كونه بالغا أربعين ليلة * قوله (وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى) أى كن خليفتى فيهم ، قال موسى هذا لما أراد المضىّ إلى المناجاة (وأصلح) أمر بنى إسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم (ولا تتبع سبيل المفسدين) أى لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عونا للظالمين .

وقد

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله (وواعدنا موسى) الآية قال : ذوالقعدة ، وعشر من ذي الحجة . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال إن موسى قال لقومه : إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلف هرون فيكم ، فلما فصل موسى إلى ربه زاده الله عشرا فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله ، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد أبصر جبريل فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب ، ثم ذكر قصة السامري .

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ * سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

اللام في (لميقاتنا) للاختصاص : أي كان مجيئه مختصا بالميقات المذكور بمعنى أنه جاء في الوقت الموعود (وكلمه ربه) أي أسمعه كلامه من غير واسطة * قوله (أرني أنظر إليك) أي أرني نفسك أنظر إليك : أي سأله النظر إليه اشتياقا إلى رؤيته لما أسمعه كلامه * وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة ، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها ، والجواب بقوله (لن تراني) يفيد أنه لايراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه ، أو أنه لايرى مادام الرائي حيا في دار الدنيا ؛ وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لايخفى على من يعرف السنة المطهرة ، والجدال في مثل هذا والمراوغة لاتأتي بفائدة ، ومنهج الحق واضح ، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الانسان عليه وأدرك عليه آباءه وأهل بلده مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب ؛ والمتعصب وان كان بصره صحيحا فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه مادفع غير الباطل ويحسب أن مانشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلا بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح وتلقي ماجاء به الكتاب والسنة بالاذعان والتسليم ، وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع فانه صار بها باب الحق مرتجا ، وطريق الانصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه ، والهداية منه :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى * ومنهج الحق له واضح

وجملة (قال لن تراني) مستأنفة لكونها جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل فما قال الله له ؟ والاستدراك بقوله (ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) معناه : أنك لاتثبت لرؤيتي ولا يثبت لها

ماهو أعظم منك جرما وصلابة وقوة ، وهو الجبل فانظر اليه (فان استقر) مكانه ولم يتزلزل عند رؤيتي له (فسوف تراني) وان ضعف عن ذلك فأنت منه أضعف ، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل ، وقيل هو من باب التعليق بالمحال ، وعلى تسليم هذا فهو فى الرؤية فى الدنيا لما قدمنا .

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتى المعتزلة والأشعرية : فالمعتزلة استدلوا بقوله (لن تراني) ، و بأمره بأن ينظر الى الجبل ، والأشعرية قالوا ان تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة ، ولا يخفاك أن الرؤية الأخروية هى بمعزل عن هذا كله ، والخلاف بينهم هو فيها لافى الرؤية فى الدنيا فقد كان الخلاف فيها فى زمن الصحابة وكلامهم فيها معروف * قوله (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) تجلى معناه : ظهر ، من قولك جلوت العروس : أى أبرزتها ، وجلوت السيف : أخلصته من الصدأ ، وتجلى الشىء : انكشف * والمعنى : فلما ظهر ربه للجبل جعله دكا ، وقيل المتجلى : هو أمره وقدرته ، قاله قطرب وغيره ، والدك مصدر بمعنى المفعول : أى جعله مدكوكا مدقوقا فصار ترابا ، هذا على قراءة من قرأ دكا بالمصدر ، وهم أهل المدينة وأهل البصرة ، وأما على قراءة أهل الكوفة (جعله دكاء) على التأنيث ، والجمع دكاوات : كحمراء وحمراوات ، وهى اسم للرابية الناشزة من الأرض أو للأرض المستوية ، فالمعنى : أن الجبل صار صغيرا كالرابية أو أرضا مستوية . قال الكسائى الدك : الجبال العراض ، واحدها : أدك ، والدكاوات جمع دكاء ، وهى رواب من طين ليست بالغلاظ ، والدكادك : ما التبد من الأرض فلم يرتفع ، وناقة دكاء : لاسنام لها (وخر موسى صعقا) أى مغشيا عليه مأخوذا من الصاعقة * والمعنى : أنه صار حاله لما غشى عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له ، يقال صعق الرجل فهو صعق ومصعوق : اذا أصابته الصاعقة (فلما أفاق) من غشيته (قال سبحانك) أى أنزهك تنزيها من أن أسأل شيئا لم تأذن لى به (تبت اليك) عن العود إلى مثل هذا السؤال * قال القرطبي : وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية فان الأنبياء معصومون ، وقيل هى توبة من قتله للقبطى ، ذكره القشيرى ، ولاوجه له فى مثل هذا المقام (وأنا أول المؤمنين) بك قبل قومى الموجودين فى هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك ، وجملة (قال ياموسى) مستأنفة كالتى قبلها متضمنة لاكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به * والاصطفاء : الاجتباء والاختيار : أى اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتى كذا قرأ نافع وابن كثير بالافراد ، وقرأ الباقون بالجمع ، والرسالة مصدر ، والأصل فيه الافراد ، ومن جمع فكأنه نظر الى أن الرسالة هى على ضروب فجمع لاختلاف الأنواع ، والمراد بالكلام هنا : التكليم * امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الاكرام ، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة ، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه : أى أعطاه من هذا الشرف الكريم ، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم والاكرام الجليل * قوله (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء) من كل شىء : أى من كل مايحتاج اليه بنو اسرائيل فى دينهم ودنياهم ، وهذه الألواح : هى التوراة ، قيل كانت من زمردة خضراء ، وقيل من ياقوتة حمراء ، وقيل من زبرجد ، وقيل من صخرة صماء . وقد اختلف فى عدد الألواح وفى مقدار طولها وعرضها ، والألواح : جمع لوح ، وسمى لوحا لكونه تلوح فيه المعانى ، وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفا للمكتوب فى الألواح ، وهى مكتوبة بأمره سبحانه ، وقيل هى كتابة خلقها الله فى الألواح ، و (من كل شىء) فى محل نصب على أنه مفعول (كتبنا) و (موعظة وتفصيلا) بدل من محل كل شىء أى موعظة لمن يتعظ بها من بنى اسرائيل وغيرهم وتفصيلا للأحكام المحتاجة الى التفصيل (خذها بقوة) أى خذ الألواح بقوة : أى بجد ونشاط ، وقيل الضمير عائد إلى الرسالات ، أو الى كل شىء ، أو إلى التوراة ،

قيل

قيل وهذا الأمر على إضمار القول : أى فقلنا له خذها ، وقيل ان (خذها) بدل من قوله (خذ ما آتيتك) (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى بأحسن مافيها بما أجره أكثر من غيره ، وهو مثل قوله تعالى ـ اتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم ـ ، وقوله ـ فيتبعون أحسنه ـ ، ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه والعمل بالعزيمة دون الرخصة ، وبالفريضة دون النافلة ، وفعل المأمور به ، وترك المنهى عنه * قوله (سأوريكم دار الفاسقين) قيل هى أرض مصر التى كانت لفرعون وقومه ، وقيل منازل عاد وثمود ، وقيل هى جهنم ، وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها ، وقيل الدار : الهلاك * والمعنى : سأريكم هلاك الفاسقين . وقد تقدم تحقيق معنى الفسق * قوله (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) ، قيل معنى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون) سأمنعهم فهم كتابى ، وقيل سأصرفهم عن الإيمان بها ، وقيل سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما فى قوله ـ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ـ ، وقيل سأطبع على قلوبهم حتى لايتفكروا فيها ولايعتبروا بها .

واختلف فى تفسير الآيات : فقيل هى المعجزات ، وقيل الكتب المنزلة ، وقيل هى خلق السموات والأرض ، وصرفهم عنها أن لايعتبروا بها ، ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك وحمل الصرف على جميع المعانى المذكورة ، و (بغير الحق) إما متعلق بقوله (يتكبرون) أى يتكبرون بما ليس بحق ، أو بمحذوف وقع حالا : أى يتكبرون متلبسين بغير الحق * قوله (وان يروا كل آية لايؤمنوا بها) معطوف على يتكبرون منتظم معه فى حكم الصلة * والمعنى : سأصرف عن آياتى المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات ، ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة ، والآيات التكوينية ، والمعجزات : أى لايؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت ، وقرأ مالك بن دينار يروا بضم الياء فى الموضعين ، وجملة (وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا) معطوفة على ماقبلها داخلة فى حكمها ، وكذلك جملة (وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) * والمعنى : أنهم اذا وجدوا سبيلا من سبل الرشد تركوه وتجنبوه ، وان رأوا سبيلا من سبل الغى سلكوه واختاروه لأنفسهم ، قرأ أهل المدينة وأهل البصرة (١) الرشد بضم الراء وإسكان الشين ، وقرأ أهل الكوفة الا عاصما بفتح الراء والشين . قال أبوعبيدة : فرق أبوعمرو بين الرشد والرشد فقال الرشد : الصلاح والرشد فى الدين . قال النحاس : سيبويه يذهب الى أن الرشد والرشد كالسخط والسخط . قال الكسائى والصحيح عن أبى عمرو وغيره ماقال أبوعبيدة ، وأصل الرشد فى اللغة : أن يظفر الانسان بما يريد ، وهو ضد الخيبة ، والاشارة بقوله (ذلك) إلى الصرف : أى ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو الاشارة الى التكبر وعدم الايمان بالآيات ، وتجنب سبيل الرشد ، وسلوك سبيل الغى ، واسم الاشارة مبتدأ ، وخبره جملة (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها ، والموصول فى (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) مبتدأ ، وخبره (حبطت أعمالهم) ، والمراد بلقاء الآخرة : لقاء الدار الآخرة : أى لقائهم لها أولقائهم ماوعدوا به فيها على أن الاضافة الى الظرف ، وحباط الأعمال بطلانها : أى بطلان ماعملوه مما صورته صورة الطاعة كالصدقة والصلة وان كانوا فى حال كفرهم لاطاعات لهم ، ويحتمل أن يراد أنها تبطل بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير إسلامهم لما فى الحديث الصحيح « أسلمت على ماأسلفت من خير » . (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) من الكفر بالله ، والتكذيب بآياته ، وتنكب سبيل الحق ، وسلوك سبيل الغى .

وقد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن كعب ، قال لما كلم الله موسى : قال يارب أهكذا كلامك ؟ قال ياموسى : انما أكلمك بقوة عشرة آلاف لسان ولى قوة الألسن كلها ، ولو كلمتك بكنه كلامى

(١) وقرأ كذلك ابن كثير وابن عامر وعاصم اه مصحح القرآن

لم تك شيئا . وأخرج البزار وابن أبي حاتم وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الأسماء والصفات من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذى كلمه به يوم ناداه : فقال له موسى : يارب أهذا كلامك الذى كلمتنى به ؟ قال ياموسى : إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولى قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك ، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا ياموسى : صف لنا كلام الرحمن ، فقال لاتستطيعونه : ألم تروا إلى أصوات الصواعق التى تقبل ، فى أحلا حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن أبى الحويرث عبد الرحمن ابن معاوية قال : انما كلم الله موسى بقدر مايطيق من كلامه ولو تكلم بكلامه كله لم يطقه شىء ، فمكث موسى أربعين ليلة لايراه أحد الامات من نور رب العالمين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (قال رب أرنى أنظر اليك) يقول أعطنى أنظر اليك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى الآية ، قال لما سمع الكلام طمع فى الرؤية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى (رب أرنى أنظر اليك) قال الله ياموسى انك لن ترانى قال يقول : ليس ترانى ولا يكون ذلك أبدا ، ياموسى انه لن يرانى أحد فيحيا ، قال موسى رب انى أراك ثم أموت أحب الىّ من أن لا أراك ثم أحيا . فقال الله لموسى ياموسى انظر الى الجبل العظيم الطويل الشديد (فان استقرّ مكانه) يقول فان ثبت مكانه لم يتضعضع ولم ينهد لبعض مايرى من عظمتى (فسوف ترانى) أنت لضعفك وذلتك ، وان الجبل انهدّ بقوّته وشدته وعظمته فأنت أضعف وأذلّ . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى فى الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى كتاب الرؤية من طرق عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال هكذا ، وأشار بأصبعيه ووضع ابهاميه على أنملة الخنصر ، وفى لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل (وخرّ موسى صعقا) وفى لفظ فساخ الجبل فى الأرض فهو يهوى فيها الى يوم القيامة ، وهذا الحديث حديث صحيح على شرط مسلم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الجبل الذى أمره الله أن ينظر اليه الطور . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى كتاب الرؤية عن ابن عباس (فلما تجلى ربه للجبل) قال ماتجلى منه الا قدر الخنصر (جعله دكا) قال ترابا (وخرّ موسى صعقا) قال مغشيا عليه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية والديلمى عن أنس أن النبى ﷺ قال لما تجلى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة ، بالمدينة : أحد ، وورقان ، ورضوى ، وبمكة حراء وثبير وثور . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : لما تجلى الله لموسى تطايرت سبعة أجبل ، ففى الحجاز خمسة منها ، وفى اليمن اثنان : فى الحجاز أحد وثبير وحراء وثور وورقان ، وفى اليمن حضور وصبر . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر اليه فسأله فقال (لن ترانى ولكن انظر الى الجبل) قال فحف حول الجبل الملائكة وحفّ حول الملائكة بنار وحف حول النار بملائكة وحف حولهم بنار ، ثم تجلى ربه للجبل تجلى منه مثل الخنصر فجعل الجبل دكا وخرّ موسى صعقا فلم يزل صعقا ماشاء الله ، ثم أفاق فقال سبحانك تبت اليك وأنا أوّل المؤمنين من بنى اسرائيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال : كتب الله الألواح لموسى وهو يسمع صريف الأقلام فى لوح . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن النبى ﷺ قال : الألواح التى أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثنى عشر ذراعا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانوا يقولون

كانت

كانت الألواح من ياقوتة * وأنا أقول إنما كانت من زمرذ وكتابها الذهب : كتبها الله بيده ، فسمع أهل السموات صريف الأقلام .

أقول رحم الله سعيد أما كان أغناه عن هذا الذي قاله من جهة نفسه ، فمثله لايقال بالرأى ولا بالحدس ، والذي يغلب به الظن أن كثيرا من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور ، فلهذا اختلفت واضطربت : فهذا يقول من خشب ، وهذا يقول من ياقوت ، وهذا يقول من زمرذ ، وهذا يقول من زبرجد ، وهذا يقول من برد ، وهذا يقول من حجر . وأخرج أبو الشيخ عن السدى (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء) كل شىء أمروا به ونهوا عنه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وقد اختلف السلف فى المكتوب فى الألواح اختلافا كثيرا ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (فخذها بقوة) قال بجد وحزم (سأوريكم دار الفاسقين) قال دار الكفار . وأخرج ابن جرير عنه (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال أمر موسى أن يأخذها بأشد مما أمر به قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس (فخذها بقوة) قال بطاعة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (فخذها بقوة) يعنى بجد واجتهاد (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال بأحسن ما يجدون منها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (سأوريكم دار الفاسقين) قال مصيرهم فى الآخرة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة قال : منازلهم فى الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال جهنم . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال مصر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (سأصرف عن آياتى) قال عن أن يتفكروا فى آياتى . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج عن آياتى : قال عن خلق السموات والأرض والآيات التى فيها سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها أو يعتبروا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سفيان بن عيينة فى الآية . قال أنزع عنهم فهم القرآن .

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ *

قوله (واتخذ قوم موسى من بعده) أى من بعد خروجه الى الطور (من حليهم) متعلق باتخذ أو بمحذوف وقع حالا ، ومن للتبعيض ، أو للابتداء ، أو للبيان ، والحلى جمع حلى ، وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة من حليهم بضم الحاء وتشديد الياء ، وقرأ أهل الكوفة الا عاصما بكسر الحاء ، وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء . قال النحاس جمع حلى وحلى وحلى : مثل ثدى وثدى وثدى ، والأصل حلوى أدغمت الواو فى الياء فانكسر اللام لمجاورتها الياء وتكسر الحاء لكسرة اللام وضمها على الأصل ، وأضيفت

الحلى اليهم وان كانت لغيرهم لأن الاضافة تجوز لأدنى ملابسة ، و (عجلا) مفعول اتخذ وقيل هو بمعنى التصيير فيتعدى الى مفعولين ثانيهما محذوف أى اتخذوا عجلا إلها ، و (جسدا) بدل من عجلا ، وقيل وصف له ، والخوار الصياح : يقال خار يخور خورا اذا صاح ، وكذلك خار يخار خوارا ، ونسب اتخاذ العجل الى القوم جميعا مع أنه اتخذه السامرىّ وحده لكونه واحدا منهم وهم راضون بفعله . روى انه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فابطأ عليهم فى العشر المزيدة ، قال السامرى لبنى إسرائيل وكان مطاعا فيهم ان معكم حليا من حلى آل فرعون الذى استعرتموه منهم لتتزينوا به فى العيد وخرجتم وهو معكم وقد أغرق الله أهله من القبط فهاتوها فدفعوها اليه فاتخذ منها العجل المذكور * قوله (ألم يروا أنه لا يكلمهم) الاستفهام للتقريع والتوبيخ أى ألم يعتبروا بأن هذا الذى اتخذوه إلها لا يقدر على تكليمهم فضلا عن أن يقدر على جلب نفع لهم أو دفع ضرّ منهم (ولا يهديهم سبيلا) أى طريقا واضحة يسلكونها (اتخذوه وكانوا ظالمين) أى اتخذوه إلها (وكانوا ظالمين) لأنفسهم فى اتخاذه أو فى كل شىء ، ومن جملة ذلك هذا الاتخاذ * قوله (ولما سقط فى أيديهم) أى ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات ، يقال للنادم المتحير قد سقط فى يده . قال الأخفش : يقال سقط فى يده وأسقط ، ومن قال سقط فى أيديهم على البناء للفاعل ، فالمعنى عنده سقط الندم : وأصله أن من شأن من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعضّ يده غما فتصير يده مسقوطا فيها ، لأن فاه قد وقع فيها ، وقال الأزهرى والزجاج والنحاس وغيرهم : معنى سقط فى أيديهم : أى فى قلوبهم وأنفسهم كما يقال : حصل فى يده مكروه وان كان محالا أن يكون فى اليد تشبيها لما يحصل فى القلب والنفس بما يحصل فى اليد ، لأن مباشرة الأشياء فى الغالب باليد ، قال الله تعالى ـ ذلك بما قدّمت يداك ـ وأيضا الندم وان حلّ القلب فأثره يظهر فى البدن ، لأن النادم يعض يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى ، قال الله تعالى ـ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ـ ومنه ـ ويوم يعض الظالم على يديه ـ أى من الندم ، وأيضا النادم يضع ذقنه فى يده (ورأوا أنهم قد ضلوا) معطوف على سقط : أى تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) . قرأ حمزة والكسائى بالفوقية فى الفعلين جميعا . وقرأ الباقون بالتحتية ، واللام للقسم ، وجوابه (لنكونن من الخاسرين) وفى هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال فى السؤال ، وسيأتى فى سورة طه ان شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكى عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى ، وانما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل فى موضع واحد * قوله (ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا) هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه ، وانتصاب غضبان وأسفا على الحال ، والأسف شديد الغضب ، قيل هو بمنزلة وراء الغضب أشدّ منه ، وهو أسف وأسيف وأسفان وأسوف : قال ابن جرير الطبرى : أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا ، فلذلك رجع وهو غضبان أسفا (قال بئسما خلفتمونى من بعدى) هذا ذمّ من موسى لقومه : أى بئس العمل ما عملتموه من بعدى : أى من بعد غيبتى عنكم ، يقال خلفه بخير وخلفه بشرّ ، استنكر عليهم مافعلوه وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزجار والايمان بالله وحده ، ولكن هذا شأن بنى اسرائيل فى تلوّن حالهم واضطراب أفعالهم ، ثم قال منكرا عليهم (أعجلتم أمر ربكم) والعجلة : التقدّم بالشىء قبل وقته ، يقال عجلت الشىء سبقته وأعجلت الرجل حملته على العجلة ، والمعنى أعجلتم عن انتظار أمر ربكم : أى ميعاده الذى وعدنيه ، وهو الأربعون ففعلتم مافعلتم ، وقيل معناه تعجلتم سخط ربكم ، وقيل معناه أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم (وألقى الألواح) أى طرحها لما اعتراه من شدّة الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل * قوله (وأخذ برأس أخيه يجرّه اليه) أى أخذ برأس أخيه هرون أو بشعر رأسه حال كونه يجرّه اليه : فعل به ذلك لكونه لم

ينكر

ينكر على السامرى ولا غير ما رآه من عبادة بنى اسرائيل العجل ، فقال هرون معتذرا منه (ابن أمّ انّ القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) أى انى لم أطق تغيير مافعلوه لهذين الأمرين : استضعافهم لى ، ومقاربتهم لقتلى ، وانما قال ابن أمّ مع كونه أخاه من أبيه وأمه : لأنها كلمة لين وعطاف ، ولأنها كانت كما قيل مؤمنة . وقال الزجاج : قيل كان هرون أخا موسى لأمه لا لأبيه : قرئ ابن أمّ بفتح الميم تشبيها له بخمسة عشر ، فصار كقولك يا خمسة عشر أقبلوا . وقال الكسائى والفراء وأبو عبيد : ان الفتح على تقدير يا ابن أما ، وقال البصريون هذا القول خطأ : لأن الألف خفيفة لا تحذف ، ولكن جعل الاسمين اسما واحدا كخمسة عشر واختاره الزجاج والنحاس وأما من قرأ بكسر الميم فهو على تقدير ابن أمى ، ثم حذفت الياء وأبقيت الكسرة لتدل عليها ، وقال الاخفش وأبو حاتم : ابن أمّ بالكسر كما تقول يا غلام أقبل ، وهى لغة شاذة والقراءة بها بعيدة ، وانما هذا فيما يكون مضافا اليك . وقرئ (ابن أمى) باثبات الياء * قوله (فلا تشمت بى الأعداء) الشماتة : السرور من الأعداء بما يصيب من يعادونه مع المصائب ، ومنه قوله ﷺ « اللهم انى أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء » وهو فى الصحيح ، ومنه قول الشاعر :

اذا ما الدهر جرّ على أناس * كلا كله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

والمعنى لا تفعل بى ما يكون سببا للشماتة منهم . وقرأ مجاهد ومالك بن دينار (فلا تشمت بى الأعداء) بفتح حرف المضارعة وفتح الميم ورفع الأعداء على أن الفعل مسند اليهم : أى لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بى ، وروى عن مجاهد أنه قرأ (تشمت) كما تقدم عنه مع نصب الأعداء . قال ابن جنى ، والمعنى فلا تشمت بى أنت يارب ، وجاز هذا كما فى قوله ـ الله يستهزئ بهم ـ ونحوه ثم عاد الى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء كأنه قال : ولا تشمت يارب بى الأعداء ، وما أبعد هذه القراءة عن الصواب وأبعد تأويلها عن وجوه الاعراب * قوله (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) : أى لا تجعلنى بغضبك علىّ فى عداد القوم الظالمين : يعنى الذين عبدوا العجل أو لا تعتقد أنى منهم * قوله (قال رب اغفر لى ولأخى) هذا كلام مستأنف ، جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل فماذا قال موسى بعد كلام هرون هذا ، فقيل (قال رب اغفر لى ولأخى) طلب المغفرة له أوّلا ، ولأخيه ثانيا ليزيل عن أخيه ماخافه من الشماتة ، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه ، وأظهر أنه لا وجه له ، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه فى جانبه ، ثم طلب المغفرة لأخيه ان كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الانكار عليهم وتغيير ماوقع منهم ، ثم طلب ادخاله وادخال أخيه فى رحمة الله التى وسعت كل شىء ، فهو (أرحم الراحمين)

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (واتخذ قوم موسى) الآية : قال حين دفنوها ألقى عليها السامرىّ قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية : قال استعاروا حليا من آل فرعون فجمعه السامرىّ فصاغ منه (عجلا) فجعله (جسدا) لحما ودما (له خوار) . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (خوار) قال الصوت . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : خار العجل خورة لم يثنّ ألم تر أن الله ، قال (ألم يروا أنه لا يكلمهم) . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (سقط فى أيديهم) قال ندموا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس (أسفا) قال حزينا . وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال : الأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك . وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب قال : الأسف الغضب الشديد . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت الا سدسها . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : رفع الله منها ستة أسباعها وبقى سبع . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن مجاهد أو سعيد بن جبير

قال : لما ألقاها موسى ذهب التفصيل و بقي الهدى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كانت تسعة رفع منها لوحان و بقي سبعة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله ( ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ) قال : مع أصحاب العجل .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ۞ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۞

الغضب مانزل بهم من العقوبة فى الدنيا بقتل أنفسهم ، وما سينزل بهم فى الآخرة من العذاب ، والذلة هى التى ضربها الله عليهم بقوله ـ ضربت عليهم الذلة ـ ، وقيل هى إخراجهم من ديارهم ، وقيل هى الجزية ، وفيه نظر لأنها لم تؤخذ منهم ، و إنما أخذت من ذراريهم ✽ والأولى أن يقيد الغضب ، والذلة بالدنيا لقوله ( فى الحياة الدنيا ) وان ذلك مختص بالمتخذين للعجل إلها لالمن بعدهم من ذراريهم ومجرّد ماأمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم ، و به يصيرون أذلاء ، وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم ، و به يصيرون أذلاء ، وأما ما نال ذراريهم من الذلة فلا يصح تفسير مافى الآية به الا اذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيق ، وهو لم يتعذر هنا ( وكذلك نجزى المفترين ) أى مثل مافعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين ، والافتراء الكذب ، فمن افترى على الله سيناله من الله غضب وذلة فى الحياة الدنيا ، وان لم يكن بنفس ماعوقب به هؤلاء ، بل المراد مايصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه وأن فيه ذلة بأىّ نوع كان ( والذين عملوا السيئات ) أىّ سيئة كانت ( ثم تابوا ) عنها ( من بعد ) عملها ( وآمنوا ) بالله ( ان ربك من بعدها ) أى من بعد هذه التوبة ، أو من بعد عمل هذه السيئات التى قد تاب عنها فاعلها وآمن بالله ( لغفور رحيم ) أى كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم ✽ قوله ( ولما سكت عن موسى الغضب ) أصل السكوت السكون : والامساك ، يقال جرى الوادى ثلاثا ثم سكن : أى أمسك عن الجرى ، قيل هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على مافعل ، ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجرّ برأس أخيك فترك الاغراء وسكت ، وقيل هذا الكلام فيه قلب ، والأصل سكت موسى عن الغضب كقولهم أدخلت الأصبع الخاتم ، والخاتم الأصبع ، وأدخلت القلنسوة رأسى ، ورأسى القلنسوة ، وقرأ معاوية بن قرة ولما سكن عن موسى الغضب ، وقرئ سُكّت وأُسكت ( أخذ الألواح ) التى ألقاها عند غضبه ( وفى نسختها هدى ورحمة ) النسخ نقل مافى كتاب إلى كتاب آخر ، و يقال للأصل الذى كان النقل منه نسخة وللمنقول نسخة أيضا . قال القشيرىّ والمعنى ، وفى نسختها : أى فيما نسخ من الألواح المتكسرة ، ونقل إلى الألواح الجديدة ، هدى ورحمة ، وقيل المعنى : وفيما نسخ له منها ، أى من اللوح المحفوظ ، وقيل المعنى : وفيما كتب له فيها هدى ورحمة ، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه ، وهذا كما يقال أنسخ مايقول فلان : أى أثبته فى كتابك والنسخة فعلة : بمعنى مفعولة كالخطبة ، والهدى مايهتدون به من الأحكام ، والرحمة مايحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة ، واللام فى ( للذين هم ) متعلقة بمحذوف : أى كائنة لهم أولأجلهم ، واللام فى ( لربهم يرهبون ) للتقوية للفعل لما كان مفعوله متقدما عليه فانه يضعف بذلك بعض الضعف . وقد صرح الكسائى بأنها زائدة ، وقال الأخفش هى لام الأجل : أى لأجل ربهم يرهبون ، وقال محمد بن يزيد المبرد هى متعلقة بمصدر الفعل المذكور ، والتقدير للذين هم رهبتهم لربهم يرهبون .

وقد

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أيوب قال : تلا أبو قلابة هذه الآية ( إن الذين اتخذوا العجل ) إلى قوله (وكذلك نجزي المفترين ) قال : هو جزاء كل مفتر يكون إلى يوم القيامة أن يذله الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أعطى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد ، فيها تبيان لكل شيء وموعظة ، ولما جاء فرأى بني إسرائيل عكوفا على العجل رمى التوراة من يده فتحطمت وأقبل على هرون فأخذ برأسه فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع ( فلما ذهب عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة ) قال : فيما بقي منها . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال : كانت الألواح من زمرذ فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل ، وبقي الهدى والرحمة ، وقرأ ـ وكتبنا له في الألواح موعظة وتفصيلا لكل شيء ـ ، وقرأ (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة ) قال : ولم يذكر التفصيل هاهنا .

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَٰتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ *

قوله (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) هذا شروع في بيان ما كان من موسى ومن القوم الذين اختارهم ، وسبعين مفعول اختار ، وقومه منصوب بنزع الخافض : أي من قومه على الحذف والايصال ، ومثله قول الراعي :

اخترتك الناس اذ رثت خلائقهم * واعتل من كان يرجى عنده السول

يريد اخترتك من الناس ، ومعنى (لميقاتنا) للوقت الذي وقتناه له بعد أن وقع من قومه ماوقع ، والميقات : الكلام الذي تقدم ذكره ، لأن الله أمره أن يأتي الى الطور في ناس من بني اسرائيل يعتذرون اليه سبحانه من عبادة العجل كذا قيل ، والرجفة في اللغة : الزلزلة الشديدة ، قيل انهم زلزلوا حتى ماتوا ، فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) قاله عليه السلام تحسرا وتلهفا ، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ماحكى الله عنهم من قولهم ـ واذ قلتم ياموسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة ـ على ماتقدم في البقرة ، وقيل هؤلاء السبعون غير من قالوا ـ أرنا الله جهرة ـ بل أخذتهم الرجفة بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل ، وقيل انهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل ولا نهوا السامري ومن معه عن عبادته فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم * والمعنى : لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافا منه عليه السلام بالذنب ، وتلهفا على مافرط من قومه ، والاستفهام في قوله

(أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) للجحد : أى لست ممن يفعل ذلك : قاله ثقة منه برحمة الله ، والمقصود منه الاستعطاف والتضرّع ، وقيل معناه الدعاء والطلب : أى لاتهلكنا . قال المبرد : المراد بالاستفهام استفهام الاعظام كأنه يقول ، وقد علم موسى أنه لايهلك أحد بذنب غيره ، ولكنه كقول عيسى ـ إن تعذبهم فانهم عبادك ـ ، وقيل المراد بالسفهاء : السبعون ، والمعنى : أتهلك بنى اسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء فى قولهم ـ أرنا الله جهرة ـ ، وقيل المراد بهم : السامرىّ وأصحابه * قوله ـ إن هى إلا فتنتك) أى ماالفتنة التى وقع فيها هؤلاء السفهاء الا فتنتك التى تختبر بها من شئت وتمتحن بها من أردت ، ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه ـ إنا قد فتنا قومك من بعدك ـ (تضلّ بها من تشاء وتهدى من تشاء) أى تضلّ بهذه الفتنة من تشاء من عبادك وتهدى بها من تشاء منهم ، ومثله ـ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ـ ، ثم رجع الى الاستعطاف والدعاء فقال (أنت ولينا) أى المتولى لأمورنا (فاغفر لنا) ماأذنبناه (وارحمنا) برحمتك التى وسعت كل شىء (وأنت خير الغافرين) للذنوب (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة) بتوفيقنا للأعمال الصالحة ، أوتفضل علينا بافاضة النعم فى هذه الدنيا من العافية وسعة الرزق (وفى الآخرة) أى واكتب لنا فى الآخرة الجنة بما تجازينا به أو بماتتفضل به علينا من النعيم فى الآخرة ، وجملة (إنا هدنا إليك) تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة والرحمة والحسنة فى الدنيا وفى الآخرة أى إنا تبنا إليك ورجعنا عن الغواية التى وقعت من بنى إسرائيل * والهود : التوبة . وقد تقدّم فى البقرة ، وجملة (قال عذابى أصيب به من أشاء) مستأنفة كنظائرها فيما تقدّم ، قيل المراد بالعذاب هنا : الرجفة ، وقيل : أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم : أى ليس هذا اليك ياموسى ، بل ماشئت كان ، وما لم أشأ لم يكن * والظاهر أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولا أوّليا ، وقيل المراد من أشاء من المستحقين للعذاب ، أومن أشاء أن أضله وأسلبه التوفيق (ورحمتى وسعت كل شىء) من الأشياء من المكلفين وغيرهم ثم أخبر سبحانه أنه سيكتب هذه الرحمة الواسعة (للذين يتقون) الذنوب (ويؤتون الزكاة) المفروضة عليهم (والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى يصدّقون بها ويذعنون لها ، ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال (الذين يتبعون الرسول النبىء الأمىّ) وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل ، والامىّ : إما نسبة إلى الأمة الأمية التى لاتكتب ولا تحسب : وهم العرب ، أونسبة الى الأمّ * والمعنى : أنه باق على حالته التى ولد عليها لايكتب ولا يقرأ المكتوب ، وقيل نسبة الى أمّ القرى ، وهى مكة (الذى يجدونه) يعنى اليهود والنصارى : أى يجدون نعته (مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) وهما مرجعهم فى الدين ، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الانجيل فهو من باب الاخبار بما سيكون ، ثم وصف هذا النبىّ الذى يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف : أى بكل ماتعرفه القلوب ولا تنكره من الأشياء التى هى من مكارم الأخلاق (وينهاهم عن المنكر) أى ماتنكره القلوب ولا تعرفه ، وهو ما كان من مساوى الأخلاق ، قيل ان قوله (يأمرهم بالمعروف) إلى قوله (أولئك هم المفلحون) كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التى وعد بها ذكر معناه الزجاج ، وقيل هو فى محل نصب على الحال من النبىّ ، وقيل هو مفسر لقوله (مكتوبا) * قوله (يحلّ لهم الطيبات) أى المستلذات ، وقيل يحلّ لهم ماحرّم عليهم من الأشياء التى حرّمت عليهم بسبب ذنوبهم (ويحرّم عليهم الخبائث) أى المستخبثات كالحشرات والخنازير (ويضع عنهم إصرهم) الاصر الثقل : أى يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة . وقد تقدّم بيانه فى البقرة (والأغلال التى كانت عليهم) أى ويضع عنهم الأغلال التى كانت عليهم : الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة

التى كانوا قد كانوها (فالذين آمنوا به) أى بمحمد ﷺ (واتبعوه) فيما جاءبه من الشرائع (وعزروه) أى عظموه ووقروه : قاله الأخفش ، وقيل : معناه منعوه من عدوّه ، وأصل العزر : المنع ، وقرأ الجحدرىّ وعزروه بالتخفيف (ونصروه) أى قاموا بنصره على من يعاديه (واتبعوا النور الذى أنزل معه) أى اتبعوا القرآن الذى أنزل عليه مع نبوّته ، وقيل المعنى : واتبعوا القرآن المنزل اليه مع اتباعه بالعمل بسنته بما يأمر به وينهى عنه، أواتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه ، والاشارة بـ(أولئك) الى المتصفين بهذه الأوصاف (هم المفلحون) الفائزون بالخير والفلاح لاغيرهم من الأمم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (واختار موسى قومه) الآية قال : كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا ، فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم ، فكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا مالم تعط أحدا من قبلنا ولاتعطه أحدا بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة (قال) موسى (رب لوشئت أهلكتهم من قبل . ان هى الا فتنتك) يقول : ان هى الاعذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عمن تشاء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد (لميقاتنا) قال : لتمام الموعد ، وفى قوله (فلما أخذتهم الرجفة) قال : ماتوا ثم أحياهم . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله (ان هى الافتنتك) قال : بليتك . وأخرج أبوالشيخ عن ابن عباس (ان هى الا فتنتك) قال : مشيئتك . وأخرج عبد بن حميد وأبوالشيخ عن ابن عباس قال : ان السبعين الذين اختارهم موسى من قومه ، انما أخذتهم الرجفة ، لأنهم لم يرضوا بالعمل ولم ينهوا عنه . وأخرج سعيد بن منصور عنه فى قوله (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) فلم يعطها موسى (قال عذابى أصيب به من أشاء) الى قوله (المفلحون) . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) قال : فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (انا هدنا اليك) قال : تبنا اليك . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن أبى وجزة السعدى ، وكان من أعلم الناس بالعربية قال : لاوالله ماأعلمها فى كلام العرب هدنا ، قيل فكيف قال هدنا بكسر الهاء ، يقول ملنا . وأخرج عبدالرزاق وأحمد فى الزهد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن وقتادة فى قوله (ورحمتى وسعت كل شىء) قالا : وسعت رحمته فى الدنيا البر والفاجر : وهى يوم القيامة للذين اتقوا خاصة . وأخرج مسلم وغيره عن سلمان عن النبى ﷺ قال « ان لله مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين الى يوم القيامة» . وأخرج نحوه أحمد وأبوداود والطبرانى والحاكم والضياء المقدسى من حديث جندب بن عبدالله البجلى . وأخرج أبوالشيخ عن السدّى قال : لما نزلت (ورحمتى وسعت كل شىء) قال ابليس : وأنا من الشىء ، فنسخها الله ، فنزلت (فسأكتبها للذين يتقون) الى آخر الآية . وأخرج ابن المنذر وأبوالشيخ عن ابن جريج قال ، لما نزلت (ورحمتى وسعت كل شىء) قال ابليس : أنا من الشىء ، قال الله تعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة) قالت اليهود : فنحن نتقى ونؤتى الزكاة ، قال الله (الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ) فعزلها الله عن إبليس وعن اليهود ، وجعلها لأمة محمد ﷺ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبوالشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج البزار فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه مسألة فأعطاها محمدا ﷺ قوله (واختار موسى قومه) الى قوله (فسأكتبها للذين يتقون) فأعطى محمدا كل شىء سأل موسى ربه فى هذه الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر

وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في قوله (فسأكتبها للذين يتقون) قال: كتبها الله لهذه الأمة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: يتقون الشرك. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن النخعي في قوله (النبيّ الأمي) قال: كان لا يقرأ ولا يكتب. وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: هو نبيكم ﷺ كان أميا لا يكتب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (الذي يجدونه مكتوبا عندهم) قال: يجدون نعته وأمره ونبوته مكتوبا عندهم. وأخرج ابن سعد والبخاري وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت له أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال: أجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ـ يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تعفو وتصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ـ. وأخرج ابن سعد والدارمي في مسنده والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عبد الله بن سلام مثله، وقد روى نحو هذا مع اختلاف في بعض الألفاظ وزيادة في بعض ونقص في بعض عن جماعة. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (ويحل لهم الطيبات) قال: الحلال (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) قال: التثقيل الذي كان في دينهم. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (ويحرّم عليهم الخبائث) قال: كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله، وفي قوله (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) قال: هو ما كان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرّم عليهم. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (ويضع عنهم إصرهم) قال: ما غلظ على بني اسرائيل من قرض البول من جلودهم اذا أصابهم ونحوه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وعزروه) يعني: عظموه ووقروه.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞

لما تقدم ذكر أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والانجيل: أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضي لعموم رسالته الى الناس جميعا لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام، فانهم كانوا يبعثون الى قومهم خاصة، وجميعا منصوب على الحال: أي حال كونكم جميعا، و (الذي له ملك السموات والأرض) إما في محل جرّ على الصفة للاسم الشريف أو منصوب على المدح، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجملة (لا إله إلا هو) بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها، لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله على الحقيقة، وهكذا من كان يحيي ويميت هو المستحق لتفرده بالربوبية ونفي الشركاء عنه، والأمر بالإيمان بالله وبرسوله متفرع على ما قبله، وقد تقدم تفسير النبي الأمي، وهما وصفان لرسوله، وكذلك الذي يؤمن بالله وكلماته وصف له، والمراد بالكلمات ما أنزله الله عليه وعلى الأنبياء من قبله أو القرآن فقط، وجملة (واتبعوه) مقررة لجملة (فآمنوا بالله)، و (لعلكم تهتدون) علة للأمر بالإيمان والاتباع.

وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: بعث الله محمدا ﷺ الى الأحمر والأسود

فقال

VII 159 - 166



فقال (يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا) والأحاديث الصحيحة الكثيرة فى هذا المعنى مشهورة فلا نطيل بذكرها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (يؤمن بالله وكلماته) قال : آياته . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (وكلماته) قال : عيسى .

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ * وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ *

قوله (ومن قوم موسى) لما قص الله علينا ماوقع من السامرى وأصحابه وماحصل من بنى اسرائيل من التزلزل فى الدين : قص علينا سبحانه أن من قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدم ذكرهم ، ووصفهم بأنهم (يهدون بالحق) أى يدعون الناس الى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق (وبه) أى بالحق (يعدلون) بين الناس فى الحكم ، وقيل هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ منهم * قوله (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا) الضمير يرجع الى قوم موسى المتقدم ذكرهم : لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ، والمعنى صيرناهم قطعا متفرقة وميزنا بعضهم من بعض ، وهذا من جملة ماقصه الله علينا من النعم التى أنعم بها على بنى اسرائيل ، والمعنى أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطا كل سبط معروف على انفراده لكل سبط نقيب كما فى قوله تعالى ـ وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ـ وقد تقدم * وقوله (اثنتى عشرة) هو ثانى مفعولى قطعنا لتضمنه معنى التصيير ، وأسباطا تمييز له أو بدل منه ، و (أمما) نعت للأسباط أو بدل منه ، والأسباط جمع سبط : وهو ولد الولد ، صاروا اثنتى عشرة أمة من اثنى عشر ولدا ، وأراد بالأسباط القبائل ، ولهذا أنث العدد كما فى قول الشاعر .

وان قريشا كلها عشر أبطن * وأنت برىء من قبائلها العشر

أراد بالبطن القبيلة ، وقد تقدم تحقيق معنى الأسباط فى البقرة ، وروى المفضل عن عاصم أنه قرأ (قطعناهم)

مخففا ، وسماهم أمما ، لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد : وكانوا مختلفى الآراء يؤم بعضهم غير مايؤمه الآخر ( وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه ) أى وقت استسقائهم له لما أصابهم العطش فى التيه ( أن اضرب بعصاك الحجر ) تفسير لفعل الايحاء (فانبجست) عطف على مقدّر يدل عليه السياق : أى فضرب فانبجست ، والانبجاس : الانفجار : أى فانفجرت (منه اثنتا عشرة عينا) بعدد الأسباط لكل سبط عين يشربون منها (قدعلم كل أناس مشربهم) أى كل سبط منهم العين المختصة به التى يشرب منها ، وقد تقدّم فى البقرة مافيه كفاية مغنية عن الاعادة (وظللنا عليهم الغمام) أى جعلناه ظللا عليهم فى التيه يسير بسيرهم ويقيم باقامتهم (وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى) أى الترنجبين والسمانى كما تقدّم تحقيقه فى البقرة (كلوا من طيبات مارزقناكم) أى وقلنا لهم كلوا من المستلذات التى رزقناكم (وماظلمونا) بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى كان ظلمهم مختصا بهم مقصورا عليهم لايجاوزهم الى غيرهم (واذ قيل لهم) أى واذكر وقت قيل لهم هذا القول ، وهو (اسكنوا هذه القرية) أى بيت المقدس أو أريحاء ، وقيل غير ذلك مما تقدّم بيانه (وكلوا منها) أى من المأكولات الموجودة فيها (حيث شئتم) أى فى أىّ مكان شئتم من أمكنتها لامانع لكم من الأكل فيه (وقولوا حطة) قد تقدّم تفسيرها فى البقرة (وادخلوا الباب) أى باب القرية المتقدّمة حال كونكم (سجدا) أمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة و بين الدخول ساجدين : فلا يقال كيف قدّم الأمر بالقول هنا على الدخول وأخره فى البقرة ، وقد تقدّم بيان معنى السجود الذى أمروا به (نغفر لكم خطيئاتكم) جواب الأمر . وقرئ (خطيتكم) ثم وعدهم بقوله (سنزيد المحسنين) أى سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضل به عليهم من النعم ، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا لهم بعد المغفرة ؟ (فبدّل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم) قد تقدّم بيان ذلك فى البقرة (فأرسلنا عليهم رجزا من السماء) أى عذابا كائنا منها (بما كانوا يظلمون) أى بسبب ظلمهم * قوله (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) معطوف على عامل اذ المقدّر : أى اذكر اذ قيل لهم واسألهم ، وهذا سؤال تقريع وتوبيخ ، والمراد من سؤال القرية : سؤال أهلها : أى اسألهم عن هذا الحادث الذى حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به * وفى ضمن هذا السؤال فائدة جليلة : وهى تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله ﷺ وأن اطلاعه لا يكون الا باخبار له من الله سبحانه ، فيكون دليلا على صدقه .

واختلف أهل التفسير فى هذه القرية : أىّ قرية هى ؟ فقيل أيلة ، وقيل طبرية ، وقيل مدين ، وقيل ايليا ، وقيل قرية من قرى ساحل الشام التى كانت حاضرة البحر : أى التى كانت بقرب البحر ، يقال : كنت بحضرة الدار : أى بقربها ، والمعنى : سل يامحمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة . قرئ واسألهم ، وقرئ سلهم (اذ يعدون) أى وقت يعدون ، وهو ظرف لمحذوف دلّ عليه الكلام لأن السؤال هو عن حالهم وقصتهم وقت يعدون ، وقيل انه ظرف لكانت أو لحاضرة ، وقرئ يعدّون بضم الياء وكسر العين وتشديد الدال من الاعداد للآلة ، وقرأ الجمهور يعدون بفتح الياء وسكون العين وضم الدال مخففة : أى يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت الذى نهوا عن الاصطياد فيه ، وقرئ يعدّون بفتح الياء والعين وضم الدال مشدّدة : بمعنى يعتدون أدغمت التاء فى الدال ، والسبت هو اليوم المعروف وأصله السكون : يقال سبت اذا سكن ، وسبت اليهود تركوا العمل فى سبتهم ، والجمع أسبت ، وسبوت ، وأسبات ، وقرأ ابن السميفع فى الاسبات على الجمع (إذ تأتيهم حيتانهم) ظرف ليعدون * والحيتان : جمع حوت وأضيفت اليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الاتيان يوم السبت دون ماعداه ، و (يوم سبتهم) ظرف لتأتيهم ، وقرئ يوم أسباتهم ، و (شرّعا) حال ، وهو جمع شارع : أى ظاهرة

على

على الماء ، وقيل رافعة رءوسها ، وقيل انها كانت تشرع على أبوابهم كالكباش البيض . قال فى الكشاف : يقال شرع علينا فلان اذا دنى منا وأشرف علينا ، وشرعت على فلان فى بيته فرأيته يفعل كذا انتهى (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) أى لا يفعلون السبت ، وذلك عند خروج يوم السبت لا تأتيهم الحيتان ، كما كانت تأتيهم فى يوم السبت (كذلك نبلوهم) أى مثل ذلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم ، والابتلاء الامتحان ، والاختبار (وإذ قالت أمة) معطوف على اذ يعدون معمول لعامله داخل فى حكمه ، والأمة الجماعة : أى قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد فى وعظ المتعدّين فى السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة ، واقلاعهم عن المعصية (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أى مستأصل لهم بالعقوبة (أو معذبهم عذابا شديدا) بما انتهكوا من الحرمة وفعلوا من المعصية ، وقيل ان الجماعة القائلة لم تعظون قوما هم العصاة الفاعلون للصيد فى يوم السبت ، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم * والمعنى اذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون ، فلم تعظوننا (قالوا معذرة إلى ربكم) أى قال الواعظون للجماعة القائلين لهم لم تعظون ، وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأوّل ، أو الناعلون ، على الوجه الثانى (معذرة إلى ربكم) قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف (معذرة) بالنصب ، وهى قراءة حفص عن عاصم ، وقرأ الباقون بالرفع . قال الكسائى ونصبه على وجهين ، أحدهما على المصدر ، والثانى على تقدير فعلنا ذلك معذرة : أى لأجل المعذرة ، والرفع على تقدير مبتدأ : أى موعظتنا معذرة الى الله حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اللذين أوجبهما علينا ، ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا ويقلعوا عما هم فيه من المعصية . قال جمهور المفسرين : ان بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق ، فرقة عصت وصادت وكانت نحو سبعين ألفا ، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص ، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص ؟ فقالت الطائفة التى لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية (لم تعظون قوما) يريدون الفرقة العاصية (الله مهلكهم أو معذبهم) قالوا ذلك على غلبة الظنّ لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك ، فقالت الناهية موعظتنا معذرة إلى الله ولعلهم يتقون ، ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية ، وعاصية : لقال لعلكم تتقون * قوله (فلما نسوا ما ذكروا به) أى لما ترك العصاة من أهل القرية ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر ترك الناسى للشىء المعرض عنه كلية الاعراض (أنجينا الذين ينهون عن السوء) أى الذين فعلوا النهى ، ولم يتركوه (وأخذنا الذين ظلموا) وهم العصاة المعتدون فى السبت (بعذاب بيس) أى شديد من بؤس الشىء يؤس بأسا اذا اشتد ، وفيه احدى عشرة قراءة للسبعة وغيرهم (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم والجار والمجرور متعلق بأخذنا (فلما عتوا عما نهوا عنه) أى تجاوزوا الحد فى معصية الله سبحانه تمرّدا وتكبرا (قلنا لهم كونوا قردة) أى أمرناهم أمرا كونيا لا أمرا قوليا : أى مسخناهم قردة ، قيل انه سبحانه عذبهم أوّلا بسبب المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم قردة ، وقيل ان قوله (فلما عتوا عما نهوا عنه) تكرير لقوله (فلما نسوا ما ذكروا به) للتأكيد والتقرير ، وأن المسخ هو العذاب البيس ، والخاسىء الصاغر الذليل ، أو المباعد المطرود ، يقال خسأته فخسئ : أى باعدته فتباعد * واعلم أن ظاهر النظم القرآنى هو أنه لم ينج من العذاب الا الفرقة الناهية التى لم تعص لقوله (أنجينا الذين ينهون عن السوء) وأنه لم يعذب بالمسخ الا الطائفة العاصية لقوله (فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فان كانت الطوائف منهم ثلاثا كما تقدّم فالطائفة التى لم تنه ولم تعص ، يحتمل أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهى وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهى عن المنكر ، ويحتمل أنها لم تمسخ لأنها وان كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة ، وهى صيد

الحوت فى يوم السبت ولا عتت عن نهيه لها عن الصيد ، وأما اذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالطائفة الثانية ، و إنما جعلت طائفة مستقلة لكونها قدجوت المقاولة بينها و بين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين فهما فى الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما فى النهى ، والاعتزال والنجاة من المسخ .

وقد أخرج الفريابى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال موسى يارب أجد أمة أناجيلهم فى قلوبهم قال تلك امة تكون بعدك أمة أحد ، قال يارب أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن . قال تلك أمة تكون بعدك أمة أحد ، قال يارب أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ، ثم ترجع فيهم فيأكلون . قال تلك بعدك أمة أحد ، قال يارب اجعلنى من أمة أحد ، فأنزل الله كهيئة المرضاة لموسى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (ومن قوم موسى أمة) الآية : قال بلغنى أن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم و بينهم ، ففتح الله لهم نفقا فى الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا . قال ابن جريج : قال ابن عباس فذلك قوله ــ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ــ ووعد الآخرة عيسى ابن مريم ، قال ابن عباس ساروا فى السرب سنة ونصفا .

أقول : ومثل هذا الخبر العجيب والنبأ الغريب ، محتاج الى تصحيح النقل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة كلها فى النار الافرقة ، وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار الافرقة ، ولتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الافرقة ، فأما اليهود فان الله يقول (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون) فهذه التى تنجو ، وأما النصارى فان الله يقول ــ منهم أمة مقتصدة ــ فهذه التى تنجو ، وأما نحن فيقول (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق و به يعدلون) فهذه التى تنجو من هذه الأمة . وقد قدمنا أن زيادة كلها فى النار لم تصح لا مرفوعة ولا موقوفة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (فانبجست) قال فانفجرت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : دخلت على ابن عباس ، وهو يقرأ هذه الآية (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) قال ياعكرمة هل تدرى : أىّ قرية هذه ؟ قلت لا ، قال هى أيلة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال : هى طبرية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (اذ يعدون فى السبت) قال يظلمون . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (شرّعا) يقول : من كل مكان . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : ظاهرة على الماء . وأخرج ابن المنذر عنه قال واردة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية : قال هى قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة ، يقال لها أيلة ، فحرّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم فكانت تأتيهم يوم سبتهم شرّعا فى ساحل البحر فاذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها فمكثوا كذلك ماشاء الله ، ثم ان طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة فلم يزدادوا الاغيا ، فقالت طائفة من النهاة يعلمون أن هؤلاء قوم حق عليهم العذاب (لم تعظون قوما الله مهلكهم) وكانوا أشدّ غضبا من الطائفة الأخرى وكل قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا (لم تعظون) والذين قالوا (معذرة الى ربكم) وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أنهم ثلاث فرق ، فرقة العصاة ، وفرقة الناهون ، وفرقة القائلون لم تعظون ، فما نجا الا الذين نهوا وهلك سائرهم فأصبح الذين نهوا ذات غداة فى مجالسهم يتفقدون الناس لايرونهم ، وقد باتوا من ليلتهم وغلقوا عليهم دورهم فجعلوا يقولون ان للناس لشأنا فانظروا ماشأنهم ؟

فاطلعوا

فاطلعوا فى دورهم فاذا القوم قد مسخوا يعرفون الرجل بعينه وانه لقرد ، والمرأة بعينها وإنها القردة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن عكرمة عن ابن عباس فذكر القصة ، وفى آخرها أنه قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها . قال عكرمة : فقلت جعلنى الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ماهم عليه وخالفوهم ، وقالوا ( لم تعظون قوما الله مهلكهم ) قال : فأمر بى فكسيت ثوبين غليظين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أيضا قال : نجا الناهون وهلك الفاعلون ، ولا أدرى ماصنع بالساكتين . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عنه قال : والله لأن أكون علمت أن القوم الذين قالوا لم تعظون قوما نجوا مع الذين نهوا عن السوء أحب الىّ مما عدل به ، وفى لفظ من حمر النعم ، ولكن أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : قال ابن عباس ماأدرى أنجا الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أم لا ؟ قال فمازلت أبصره حتى عرف أنهم قد نجوا فكسانى حلة . وأخرج عبد بن حميد عن ليث بن أبى سليم قال : مسخوا حجارة الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله (بعذاب بئيس) قال : أليم وجيع .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ *

قوله (وإذ تأذن ربك) معطوف على ماقبله : أى واسألهم وقت تأذن ربك ، وتأذن تفعل من الايذان ، وهو الاعلام . قال أبو على الفارسى آذن بالمد أعلم ، وأذّن بالتشديد نادى ، وقال قوم كلاهما بمعنى أعلم كما يقال أيقن وتيقن * والمعنى فى الآية واسألهم وقت أن وقع الاعلام لهم من ربك ( ليبعثن عليهم ) قيل : وفى هذا الفعل معنى القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بما يجاب به القسم حيث . قال (ليبعثن عليهم) أى ليرسلن عليهم و يسلطن كقوله ـ بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ـ (الى يوم القيامة) غاية ليسومهم سوء العذاب ممن يبعثه الله عليهم ، وقد كانوا أقماهم الله هكذا أذلاء مستضعفين معذبين بأيدى أهل الملل ، وهكذا هم فى هذه الملة الاسلامية فى كل قطر من أقطار الأرض فى الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار ، يسلمون الجزية بحقن دمائهم و يمتهنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الأعمال التى يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار * ومعنى (يسومهم) يذيقهم . وقد تقدّم بيان أصل معناه ، ثم علل ذلك بقوله ( ان ربك لسريع العقاب ) يعاجل به فى الدنيا كما وقع لهؤلاء ( وانه لغفور رحيم ) أى كثير الغفران والرحمة (وقطعناهم فى الأرض) أى فرّقناهم فى جوانبها ، أو شتتنا أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة ، و ( أمما ) منتصب على الحال أو مفعول ثان لقطعنا على تضمينه معنى صيرنا ، وجملة (منهم الصالحون) بدل من أمما ، قيل هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبدّل ، وقيل هم الذين سكنوا

وراء الصين كما تقدّم بيانه قبل هذا (ومنهم دون ذلك) أى دون هـذا الوصف الذى اتصفت به الطائفة الأولى وهو الصلاح ، ومحل (دون ذلك) الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير ومنهم أناس دون ذلك ، والمراد بهؤلاء هم من لم يؤمن ، بل انهمك فى المخالفـة لما أمره الله به . قال النحاس (دون) منصوب على الظرف ولا نعلم أحـدا رفعه (و بلوناهم بالحسنات والسيئات) أى امتحناهم بالخير والشرّ رجاء أن يرجعوا عما هم فيـه من الكفر والمعاصى (فخلف من بعدهم خلف) المراد بهم أولاد الذين قطعهم الله فى الأرض . قال أبو حاتم الخلف بسكون اللام : الأولاد ، الواحد والجمع سواء ، والخلف بفتح اللام : البدل ولدا كان أو غيره . وقال ابن الأعرابى الخلف بالفتح : الصالح ، وبالسكون : الطالح . قال لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ومنه قيل للردىء من الـكلام خلف بالسكون ، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر ، ومنه قول حسان بن ثابت :

لنا القدم الأولى اليك وخلفنا * لأوّلنا فى طاعة الله تابع

(ورثوا الـكتاب) أى التوراة من أسلافهم يقرءونها ولا يعملون بها (يأخذون عرض هذا الأدنى) أخبر الله عنهم بأنهم يأخـذون مايعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم وقوّة نهمتهم ، والأدنى مأخوذ من الدنوّ ، وهو القرب : أى يأخذون عرض هـذا الشىء الأدنى ، وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشاء وماهو مجعول لهم من السحت فى مقابلة تحريفهم لـكلمات الله ، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة وكتمهم لما يكتمونه منها ، وقيـل ان الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط : أى انهم يأخـذون عرض الشىء الدنىء الساقط (و يقولون سيغفرلنا) أى يعللون أنفسهم بالمغفرة مع تماديهم فى الضلالة وعدم رجوعهم إلى الحق ، وجملة (يأخذون) يحتمل أن تكون مستأنفة لبيان حالهم أو فى محل نصب على الحال ، وجملة (يقولون) معطوفة عليها ، والمراد بهذا الـكلام : التقريع والتو بيخ لهم ، وجملة (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) فى محل نصب على الحال : أى يتعللون بالمغفرة ، والحال أنهم إذا أتاهم عرض مثـل العرض الذى كانوا يأخذونه أخذوه غير مبالين بالعقوبة ولاخائفين من التبعة ، وقيل الضمير فى (يأتهم) ليهود المدينة : أى وان يأت هؤلاء اليهود الذين هم فى عصر محمد ﷺ عرض مثل العرض الذى كان يأخذه أسـلافهم أخذوه كما أخذه أسلافهم (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الـكتاب) أى التوراة (أن لايقولوا على الله إلا الحق) والاستفهام للتقريع والتو بيخ ، وجملة (ودرسوا مافيـه) معطوفة على (يؤخذ) على المعنى ، وقيل على (ورثوا الـكتاب) ، والأولى أن تـكون فى محل نصب على الحال بتقدير قد * والمعنى : أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم فى الـكتاب ، والحال أن قد درسوا مافى الـكتاب وعلموه فـكان الترك منهم عن علم لاعن جهل ، وذلك أشدّ ذنبا وأعظم جرما ، وقيل معنى (درسوا مافيه) أى محوه بترك العمل به والفهم له ، من قولهم درست الريح الآثار : اذا محتها (والدار الآخرة خير) من ذلك العرض الذى أخذوه وآثروه عليها (للذين يتقون) الله ويجتنبون معاصيه (أفلا تعقلون) فتعلمون بهذا وتفهمونه ، وفى هذا من التو بيخ والتقريع مالايقادر قدره * قوله (والذين يمسكون بالـكتاب) ، قرأ الجمهور يمسكون بالتشديد من مسك وتمسك : أى استمسك بالـكتاب وهو التوراة ، وقرأ أبو العاليـة وعاصم فى رواية أبى بكر بالتخفيف من أمسك يمسك ، وروى عن أبىّ بن كعب أنه قرأ مسكوا * والمعنى : أن طائفة من أهل الـكتاب لايمسكون بالـكتاب ولايعملون بمـا فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدّم ذكره ، وطائفة يمسكون بالـكتاب أى التوراة و يعملون بمـا فيه و يرجعون إليه فى أمر دينهم فهم المحسنون الذين لايضيع أجرهم عنـد الله ، والموصول مبتدأ ، و (إنا لانضيع أجر المصلحين) خبره : أى لانضيع أجر المصلحين منهم ، وانما وقع

التنصيص

التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة فى سائر العبادات التى يفعلها المتمسكون بالتوراة لأنها رأس العبادات وأعظمها، فكان ذلك وجها لتخصيصها بالذكر، وقيل لأنها تقام فى أوقات مخصوصة، والتمسك بالكتاب مستمرّ فذكرت لهذا، وفيه نظر. فان كل عبادة فى الغالب تختصّ بوقت معين، ويجوز أن يكون الموصول معطوفا على الموصول الذى قبله وهو للذين يتقون، ولكون (أفلا تعقلون) جملة معترضة.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (يسومهم سوء العذاب) قال محمد وأمته الى يوم القيامة، وسوء العذاب: الجزية. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال سوء العذاب: الخراج، وفى قوله (وقطعناهم) قال هم اليهود بسطهم الله فى الأرض فليس منها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله (ليبعثنّ عليهم) قال على اليهود والنصارى (الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) فبعث الله عليهم أمة محمد ﷺ يأخذون منهم الجزية وهم صاغرون (وقطعناهم فى الأرض أمما) قال يهود (منهم الصالحون) وهم مسلمة أهل الكتاب (ومنهم دون ذلك) قال اليهود (و بلوناهم بالحسنات) قال الرخاء والعافية (والسيئات) قال البلاء والعقوبة. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (و بلوناهم بالحسنات والسيئات) بالخصب والجدب. وأخرج أبو الشيخ عنه أنه سئل عن هذه الآية (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) قال أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها و يتبعون رخص القرآن (و يقولون سيغفر لنا) ولا يعرض لهم شىء من الدنيا الا أخذوه. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (فخلف من بعدهم خلف) قال النصارى (يأخذون عرض هذا الأدنى) قال ماأشرف لهم من شىء من الدنيا حلالا أو حراما يشتهونه أخذوه و يتمنون المغفرة، وان يجدوا الغد مثله يأخذوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (فخلف من بعدهم خلف) الآية يقول يأخذون ماأصابوا و يتركون ماشاءوا من حلال أو حرام (و يقولون سيغفر لنا). وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لايقولوا على الله إلا الحق) فيمايوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لايزالون يعودون إليها ولايتوبون منها. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى زيد فى قوله (ودرسوا مافيه) قال علموا مافى الكتاب لم يأتوه بجهالة. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله (والذين يمسكون بالكتاب) قال هى لأهل الايمان منهم. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (والذين يمسكون بالكتاب) قال من اليهود والنصارى.

**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ❊**

قوله (وإذ) منصوب بفعل مقدّر معطوف على ماقبله: أى واسألهم إذ نتقنا الجبل: أى رفعنا الجبل (فوقهم)، و(كأنه ظلة) أى كأنه لارتفاعه سحابة تظلهم، والظلة: اسم لكل ماأظلّ، وقرئ طلة بالطاء من أطلّ عليه: إذا أشرف (وظنوا أنه واقع بهم) أى ساقط عليهم، قيل الظنّ هنا بمعنى العلم، وقيل هو على بابه (خذوا ما آتيناكم بقوّة) هو على تقدير القول: أى وقلنا لهم خذوا، والقوّة: الجدّ والعزيمة: أى أخذا كائنا بقوّة (واذكروا مافيه) من الأحكام التى شرعها الله لكم ولا تنسوه (لعلكم تتقون) رجاء أن تتقوا مانهيتم عنه وتعملوا بما أمرتم به، وقد تقدّم تفسير ماهنا فى البقرة مستوفى فلانعيده.

VII. ١٦٨-١٧٢



وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (واذ نتقنا الجبل) يقول رفعناه ، وهو قوله — ورفعنا فوقهم الطور — : فقال (خذوا ما آتينا كم بقوة) وإلا أرسلته عليكم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه فى الآية قال : رفعته الملائكة فوق رءوسهم ، فقيل لهم (خذوا ما آتينا كم بقوة) فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا ، واذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا قال انى لأعلم لم تسجد اليهود على حرف ؟ قال الله (و إذ نتقنا الجبل فوقهم) قال لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم ، وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (و إذ نتقنا الجبل) قال انتزعه الله من أصله ، ثم جعله فوق رءوسهم ، ثم قال لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۞ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞

قوله (واذ) منصوب بفعل مقدّر معطوف على ماقبله كما تقدّم ۞ قوله (من بنى آدم) استدلّ بهذا على أن المراد بالمؤخوذين هنا : هم ذرية بنى آدم ، أخرجهم الله من أصلابهم نسلا بعد نسل .

وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين ، قالوا ومعنى (أشهدهم على أنفسهم) دلهم بخلقه على أنه خالقهم فقامت هذه الدلالة مقام الاشهاد ، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما فى قوله تعالى — فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين — ، وقيل المعنى : أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة مافهمت به خطابه سبحانه ، وقيل المراد ببنى آدم هنا آدم نفسه كما وقع فى غير هذا الموضع ۞ والمعنى : أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذرّ ، وهذا هو الحق الذى لاينبغى العدول عنه ولا المصير الى غيره لثبوته مرفوعا الى النبى ﷺ وموقوفا على غيره من الصحابة ولاملجئ للمصير إلى المجاز : واذاجاء نهر الله بطل نهرمعقل ، وسنذكر آخر هذا البحث ان شاء الله بعض ماورد فى ذلك ۞ قوله (من ظهورهم) هو بدل من بنى آدم بدل بعض من كل ، وقيل بدل اشتمال ۞ قوله (ذرياتهم) ، قرأ الكوفيون وابن كثير ذريتهم بالتوحيد ، وهى تقع على الواحد والجمع ، وقرأ الباقون ذرياتهم بالجمع (وأشهدهم على أنفسهم) أى أشهد كل واحد منهم (ألست بربكم) أى قائلا ألست بربكم فهو على إرادة القول (قالوا بلى شهدنا) أى على أنفسنا بأنك ربنا ۞ قوله (أن تقولوا) ، قرأ أبو عمرو بالياء التحتية فى هذا وفى قوله — أو يقولوا — على الغيبة كما كان فيما قبله على الغيبة ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ۞ والمعنى : كراهة أن يقولوا أو لئلا يقولوا : أى فعلنا ذلك الأخذ والاشهاد كراهة أن يقولوا (يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أى عن كون الله ربنا وحده لاشريك له ۞ قوله (أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل) معطوف على (تقولوا) الأوّل : أى فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة أو تنسبوا الشرك الى آبائكم دونكم ، و (أو) لمنع الخلوّ دون الجمع ، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين (من قبل) أى من قبل زماننا (وكنا ذرية من بعدهم)

لانهتدى

لانهتدى الى الحق ولا نعرف الصواب (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر واقتفائنا آثار سلفنا : بين الله سبحانه فى هذه الحكمة التى لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم ، وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة (وكذلك) أى ومثل ذلك التفصيل (نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) الى الحق ويتركون ماهم عليه من الباطل .

وقد أخرج مالك فى الموطأ وأحمد فى المسند وعبد بن حميد والبخارى فى تاريخه وأبو داود والترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات والضياء فى المختارة ، أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (واذ أخذ ربك) الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال «ان الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل يارسول الله ففيم العمل ؟ فقال : ان الله اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار» . وأخرج أحمد والنسائى وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال «ان الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم فقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا الى قوله المبطلون» واسناده لامطعن فيه ، وقد أخرجه ابن أبى حاتم موقوفا على ابن عباس . وأخرج ابن جرير وابن منده فى كتاب الرد على الجهمية عن عبد الله ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم ، قال أخذهم من ظهره كما يؤخذ المشط من الرأس : فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى ، قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين» وفى اسناده أحمد بن أبى طيبة أبو محمد الجرجانى قاضى قومس كان أحد الزهاد . وأخرج له النسائى فى سننه ، وقال أبو حاتم الرازى يكتب حديثه ، وقال ابن عدى حدث بأحاديث كثيرة غرائب ، وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمر ، وهؤلاء أئمة ثقات . وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه عن أبى أمامة ، أن رسول الله ﷺ قال «لما خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء ، فأخذ أهل اليمين بيمينه وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدى الرحمن يمين ، فقال يا أصحاب اليمين فاستجابوا له ، فقالوا لبيك ربنا وسعديك ، قال ألست بربكم قالوا بلى الحديث» والأحاديث فى هذا الباب كثيرة بعضها مقيد بتفسير هذه الآية : وبعضها مطلق يشتمل على ذكر اخراج ذرية آدم من ظهره ، وأخذ العهد عليهم كما فى حديث أنس مرفوعا فى الصحيحين وغيرهما ، وأما المروى عن الصحابة فى تفسير هذه الآية باخراج ذرية آدم من صلبه فى عالم الذر وأخذ العهد عليهم واشهادهم على أنفسهم فهى كثيرة : منها عن ابن عباس عند عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله (واذ أخذ ربك من بنى آدم) الآية قال : خلق الله آدم وأخذ ميثاقه أنه ربه وكتب أجله ورزقه : ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر ، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم : وأخرج نحوه عنه ابن جرير وابن أبى حاتم . وأخرج نحوه عنه أيضا ابن جرير وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبد الرزاق وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم

٦٦٦-١٦٦٢ XII



وأبو الشيخ وابن منده ، وهـذا المعنى مروى عنه من طرق كثيرة غير هـذه موقوفة عليه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبدالله بن عمر فى قوله (واذ أخذ ربك من بنى آدم) الآية قال : أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس . وأخرج ابن عبد البرّ فى التمهيد عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى تفسير الآية نحوه . وأخرج عبد بن حميد وعبدالله بن أحمد بن حنبل فى رواية المسند وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن منده وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات والضياء فى المختارة وابن عساكر فى تاريخه عن أبيّ بن كعب فى قوله (واذ أخـذ ربك من بنى آدم) الآية قال : جمعهم جميعا فجعلهم أرواحا فى صورهم . ثم استنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ، ثم أشهدهم على أنفسهم . وقد روى عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هـذه الآية باخراج ذرية آدم من ظهره ، وفيما قاله رسول الله ﷺ فى تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغنى عن التطويل .

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَٰهُ آيَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ *

قوله (واتل) معطوف على الأفعال المقدّرة فى القصص السابقة : وايراد هذه القصة منه سبحانه وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم فى التوراة ، وقد اختلف فى هذا الذى أوتى الآيات (فانسلخ منها) فقيل : هو بلعم بن باعوراء ، وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة ، وقيل كان قد أوتى النبوة وكان مجاب الدعوة : بعثه الله الى مدين يدعوهم الى الايمان ، فأعطوه الأعطية الواسعة فاتبع دينهم وترك ما بعث به ، فلما أقبل موسى فى بنى اسرائيل لقتال الجبارين : سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى فقام ليدعوا عليه فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه فقيل له فى ذلك فقال : لا أقدر على أكثر مما تسمعون ، واندلع لسانه على صدره فقال : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة فلم يبق الا المكر والخديعة والحيلة وسأمكر لكم ، وانى أرى أن تخرجوا اليهم فتياتكم فان الله يبغض الزنا فان وقعوا فيه هلكوا فوقع بنو اسرائيل فى الزنا ، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا ، وقيل ان هذا الرجل اسمه باعم وهو من بنى اسرائيل ، وقيل المراد به أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا فى ذلك فلما أرسل الله محمدا ﷺ حسده وكفر به ، وقيل هو أبو عامر بن صيفى وكان يلبس المسوح فى الجاهلية ، فكفر بمحمد ﷺ ، وقيل نزلت فى قريش آتاهم الله آياته التى أنزلها على محمد ﷺ فكفروا بها ، وقيل نزلت فى اليهود والنصارى انتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به * قوله (فانسلخ منها) أى من هـذه الآيات التى أوتيها كما تنسلخ الشاة عن جلدها فلم يبق له بها اتصال (فأتبعه الشيطان) عند انسلاخه عن الآيات : أى لحقه فأدركه وصار قرينا له ، أو فأتبعه خطواته ، وقرئ (فاتبعه) بالتشديد بمعنى تبعه (فكان من الغاوين) المتمكنين فى الغواية وهم الكفار * قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) الضمير يعود الى الذى أوتى الآيات ، والمعنى لو شئنا رفعه بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها : أى بسببها ، ولكن لم نشأ ذلك لانسلاخه عنها وتركه للعمل بها ، وقيل المعنى ولو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى

فرفعناه الى الجنة بها : أى بالعمل بها (ولكنه أخلد الى الأرض) أصل الاخلاد اللزوم : يقال أخلد فلان بالمكان اذا أقام به ولزمه ، والمعنى هنا أنه مال الى الدنيا ورغب فيها وآثرها على الآخرة (واتبع هواه) أى اتبع ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذى علمه الله : وهو حطام الدنيا ، وقيل كان هواه مع الكفار ، وقيل اتبع رضا زوجته : وكانت هى التى حملته على الانسلاخ من آيات الله * قوله (فمثله كمثل الكلب) أى فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطا الى أسفل رتبة مشابها لأخس الحيوانات فى الدناءة مماثلا له فى أقبح أوصافه ، وهو أنه يلهث فى كلا حالتى قصد الانسان له وتركه ، فهو لاهث سواء زجر أو ترك طرد أو لم يطرد شد عليه أو لم يشد عليه ، وليس بعد هذا فى الخسة والدناءة شىء ، وجملة إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فى محل نصب على الحال : أى مثله كمثل الكلب حال كونه متصفا بهذه الصفة ، والمعنى أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية فى جميع أحواله سواء وعظه الواعظ وذكره المذكر وزجره الزاجر أو لم يقع شىء من ذلك . قال القتيبى : كل شىء يلهث فانما يلهث من إعياء أو عطش الا الكلب فانه يلهث فى حال الكلال ، وحال الراحة ، وحال المرض ، وحال الصحة ، وحال الرى ، وحال العطش ، فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته ، فقال ان وعظته ضل وان تركته ضل : فهو كالكلب ان تركته لهث وان طردته لهث كقوله تعالى (وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) واللهث اخراج اللسان لتعب أو عطش أو غير ذلك . قال الجوهرى : لهث الكلب بالفتح يلهث لهثا ولهاثا بالضم اذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ، وكذلك الرجل اذا أعيا ؛ قيل معنى الآية : أنك اذا حملت على الكلب نبح وولى هاربا ، وان تركته شد عليك ونبح فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك ، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من اخراج اللسان ، والاشارة بقوله ذلك الى ما تقدم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة . وهو مبتدأ وخبره (مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود بعد أن علموا بها وعرفوها فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله ﷺ وكذبوا بها (فاقصص القصص) أى فاقصص عليهم هذا القصص الذى هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات ، فان مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم (لعلهم يتفكرون) فى ذلك ويعملون فيه أفهامهم فينزجرون عن الضلال ويقبلون على الصواب * قوله (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة فى القبح الى الغاية : يقال ساء الشىء قبح ، فهو لازم ، وساءه يسوءه مساءة : فهو متعد وهو من أفعال الذم : كبئس ، وفاعله ضمير مستتر فيه ، ومثلا تمييز مفسر له والمخصوص بالذم هو الذين كذبوا بآياتنا ، ولا بد من تقدير مضاف محذوف لأجل المطابقة : أى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا . وقال الأخفش : جعل المثل القوم مجازا ، والقوم مرفوع بالابتداء أو على اضمار مبتدأ التقدير ساء المثل مثلا : هو مثل القوم ، كذا قال وقدره أبو على الفارسى ساء مثلا مثل القوم كما قدمنا . وقرأ الجحدرى والأعمش (ساء مثل القوم) * قوله (وأنفسهم كانوا يظلمون) أى ما ظلموا بالتكذيب الا أنفسهم لا يتعداها ظلمهم الى غيرها ولا يتجاوزها ، والجملة معطوفة على التى قبلها على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم (من يهد الله فهو المهتدى) لما أمر به وشرعه لعباده (ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) الكاملون فى الخسران ، من هداه فلا مضل له ، ومن أضله فلا هادى له : ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن .

وقد أخرج الفريابى وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) قال : هو رجل من

VII ١٦٤



بنى اسرائيل يقال له بلعم بن آبر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء ، وفى لفظ بلعام بن باعر الذى أوتى الاسم كان فى بنى اسرائيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ( واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ) قال : هو رجل من مدينة الجبارين : يقال له بلعم تعلم اسم الله الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا ان موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة ، وانه ان يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه قال انى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت دنياى وآخرتى ، فلم يزالوا به حتى دعا الله فسلخ ما كان فيه وفى قوله (ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) قال : ان حمل الحكمة لم يحملها ، وان ترك لم يهتد لخير كالكلب ان كان رابضا لهث وان يطرد لهث . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت اجعل لى منها واحدة قال : فلك واحدة فما الذى تريدين ؟ قالت : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى اسرائيل ، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة فى بنى اسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئا آخر ، فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها ، فقالوا ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها ، فادع الله أن يردها الى الحال التى كانت عليه ، فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن عمرو فى الآية قال : هو أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وفى لفظ نزلت فى صاحبكم أمية بن الصلت . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عنه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الشعبى فى هذه الآية قال : قال ابن عباس هو رجل من بنى اسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء ، وكانت الأنصار تقول : هو ابن الراهب الذى بنى له مسجد الشقاق ، وكانت ثقيف تقول هو أمية بن أبى الصلت . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هو صيفى بن الراهب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (فانسلخ منها) قال : نزع منه العلم ، وفى قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) . قال رفعه الله بعلمه . وأخرج مسلم والنسائى وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن جابر بن عبدالله قال : كان رسول الله ﷺ فى خطبته يحمد الله و يثنى عليه بما هو أهله ، ثم يقول «من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » ثم يقول « بعثت أنا والساعة كهاتين » .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۞

(ولقد ذرأنا) أى خلقنا . وقد تقدم بيان أصل معناه مستوفى ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ماقبلها (لجهنم) أى للتعذيب بها (كثيرا) أى خلقا كثيرا (من الجن والانس) أى من طائفتى الجن والانس جعلهم سبحانه للنار بعدله و بعمل أهلها يعملون . وقد علم ماهم عاملون قبل كونهم ، كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة ، ثم وصف هؤلاء ، فقال (لهم قلوب لايفقهون بها) كما يفقه غيرهم بعقولهم ، وجملة (لايفقهون بها) فى محل رفع على أنها صفة لقلوب ، وجملة (لهم قلوب) فى محل نصب صفة لكثيرا جعل سبحانه

قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم ورشادهم غير فاقهة مطلقا ، وان كانت تفقه فى غير مافيه النفع والرشاد فهو كالعدم ، وهكذا معنى (لهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها) فان الذى انتفى من الأعين هو إبصار مافيه الهداية بالتفكر والاعتبار وان كانت مبصرة فى غير ذلك ، والذى انتفى من الآذان : هو سماع المواعظ النافعة ، والشرائع التى اشتملت عليها الكتب المنزلة ، وما جاءت به رسل الله ، وان كانوا يسمعون غير ذلك ، والاشارة بقوله (أولئك) الى هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف كالأنعام فى انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر ، ثم حكم عليهم بأنهم أضلّ منها ، لأنها تدرك بهذه الأمور ماينفعها و يضرّها فتنتفع بما ينفع ، وتجتنب مايضرّ ، وهؤلاء لايميزون بين ماينفع وما يضرّ باعتبار ماطلبه الله منهم وكلفهم به ، ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذى هو من شأن من له عقل و بصر وسمع .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولقد ذرأنا) قال خلقنا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال خلقنا لجهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ان الله لما ذرأ لجهنم من ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم » . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (ولقد ذرأنا لجهنم) قال لقد خلقنا لجهنم (لهم قلوب لايفقهون بها) قال لايفقهون شيئا من أمور الآخرة (ولهم أعين لايبصرون بها) الهدى (ولهم آذان لايسمعون بها) الحق ، ثم جعلهم كالأنعام ، ثم جعلهم شرا من الأنعام ، فقال (بل هم أضلّ) ثم أخبر أنهم الغافلون .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ●

هذه الآية مشتملة على الاخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل ، والحسنى تأنيث الأحسن : أى التى هى أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول ، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة فانه اذا دعى بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الاجابة ، وقد ثبت فى الصحيح « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » وسيأتى و يأتى أيضا بيان عددها آخر البحث ان شاء الله ● قوله (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) الالحاد : الميل وترك القصد ، يقال لحد الرجل فى الدين وألحد : اذا مال ، ومنه اللحد فى القبر لأنه فى ناحية ، وقرئ يَلْحَدُون ، وهما لغتان ، والالحاد فى أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه إما بالتغيير كما فعله المشركون فانهم أخذوا اسم اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان ، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض ● ومعنى (وذروا الذين يلحدون) اتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرّضوا لهم ، وعلى هذا المعنى ، فالآية منسوخة بآيات القتال ، وقيل معناه الوعيد كقوله تعالى ـ ذرنى ومن خلقت وحيدا ـ ، وقوله ـ ذرهم يأكلوا و يتمتعوا ـ وهذا أولى لقوله (سيجزون ما كانوا يعملون) فانه وعيد لهم بنزول العقوبة وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم . وقد ذكر مقاتل وغيره من المفسرين ان هذه الآية نزلت فى رجل من المسلمين كان يقول فى صلاته يارحمن يارحيم ، فقال رجل من المشركين أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ حكى ذلك القرطبى .

وقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وأبو عوانة وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ان لله تسعة وتسعين إسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر » .

وفى لفظ ابن مردويه وأبى نعيم « من دعى بها استجاب الله دعاءه » وزاد الترمذى فى سننه بعد قوله يحب الوتر ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الرّحمن الرّحيم الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصوّر الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعزّ المذلّ السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلىّ الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوىّ المتين الولىّ الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحىّ القيوم الواجد الماجد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدّم المؤخّر الأوّل الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البرّ التوّاب المنتقم العفوّ الرءوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغنىّ المغنى المانع الضارّ النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور ﴾ .

هكذا أخرج الترمذى هذه الزيادة عن الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبى حمزة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعة وقال هذا حديث غريب . وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ولا يعلم فى كثير شىء من الروايات ذكر الأسماء الافى هذا الحديث ، ورواه ابن حبان فى صحيحه وابن خزيمة والحاكم من طريق صفوان باسناده السابق ، ورواه ابن ماجه فى سننه من طريق أخرى عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعا فسرد الأسماء المتقدمة بزيادة ونقصان . قال ابن كثير فى تفسيره والذى عوّل عليه جماعة من الحفاظ : ان سردالأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، وانما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالواذلك : أى انهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى . قال ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين بدليل مارواه الامام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هرون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال « ماأصاب أحدا قط هم ولاحزن فقال اللهمّ انى عبدك ابن عبدك وأمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هولك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أوعلمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا ، فقيل يارسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » . وقد أخرجه الامام أبو حاتم بن حبان فى صحيحه بمثله انتهى . وأخرجه البيهقى أيضا فى الأسماء والصفات . قال ابن حزم جاءت فى إحصائها : يعنى الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لايصح منهاشىء أصلا . وقدأخرجها بهذا العدد الذى أخرجه الترمذى ابن مردويه وأبونعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله ﷺ فذكراه ولا أدرى كيف إسناده . وأخرج ابن أبى الدنيا والطبرانى كلاهما فى الدعاء وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » : أسأل الله الرحمن الرحيم الاله الربّ الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصوّر الحليم العليم السميع البصير الحىّ القيوم الواسع اللطيف الخبير الحنان المنان البديع الغفور الودود الشكور المجيد المبدئ المعيد النور البارئ ، وفى لفظ القائم الأوّل الآخر الظاهر الباطن العفوّ الغفار الوهاب الفرد ، وفى لفظ القادر الأحد الصمد الوكيل الكافى الباقى المغيث الدائم المتعالى ذا الجلال والاكرام المولى البصير الحق المتين الوارث المنير الباعث القدير ، وفى لفظ المجيب المحيى المميت الحميد ، وفى لفظ الجليل

VII ١٤٥ ١٨١



الصادق الحفيظ المحيط الكبير القريب الرقيب الفتاح التوّاب القديم الوتر الفاطر الرزاق العلام العلىّ العظيم الغنىّ الملك المقتدر الأكرم الرءوف المدبر المالك القاهر الهادى الشاكر الكريم الرفيع الشهيد الواحد ذا الطول ذا المعارج ذا الفضل الخلاق الكفيل الجليل . وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال : سألت أبي جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التى من أحصاها دخل الجنة ؟ فقال : هى فى القرآن ، ففى الفاتحة خمسة أسماء يا ألله يارب يارحمن يارحيم يامالك ، وفى البقرة ثلاثة وثلاثون إسما يامحيط ياقدير ياعليم ياحكيم ياعلى ياعظيم ياتواب يابصير ياولى ياواسع ياكافى يارءوف يابديع ياشاكر ياواحد ياسميع ياقابض ياباسط ياحى ياقيوم ياغنى ياحميد ياغفور ياحليم ياإله ياقريب يامجيب ياعزيز يانصير ياقوى ياشديد ياسريع ياخبير ، وفى آل عمران ياوهاب ياقائم ياصادق ياباعث يامنعم يامتفضل ، وفى النساء يارقيب ياحسيب ياشهيد يامقيت ياوكيل ياعلى ياكبير ، وفى الأنعام يافاطر ياقاهر يالطيف يابرهان ، وفى الأعراف يامحيى ياممیت ، وفى الأنفال يانعم المولى ويانعم النصير ، وفى هود ياحفيظ يامجيد ياودود يافعال لما تريد ، وفى الرعد ياكبير يامتعالى ، وفى ابراهيم يامنان ياوارث ، وفى الحجر ياخلاق ، وفى مريم يافرد ، وفى طه ياغفار ، وفى قد أفلح ياكريم ، وفى النور ياحق يامبين ، وفى الفرقان ياهادى ، وفى سبأ يافتاح ، وفى الزمر ياعالم ، وفى غافر ياقابل التوب ياذا الطول يارفيع ، وفى الذاريات يارزاق ياذا القوة يامتين ، وفى الطور يابرّ ، وفى اقتربت يامقتدر يامليك ، وفى الرحمن ياذا الجلال والاكرام يارب المشرقين يارب المغربين ياباقى يامعين ، وفى الحديد ياأول ياآخر ياظاهر ياباطن ، وفى الحشر ياملك ياقدوس ياسلام يامؤمن يامهيمن ياعزيز ياجبار يامتكبر ياخالق ياباری یامصور ، وفى البروج يامبدئ يامعيد ، وفى الفجر ياوتر ، وفى الاخلاص ياأحد ياصمد انتهى .

وقد ذكر ابن حجر فى التلخيص أنه تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حرّرها منه تسعة وتسعين ثم سردها فانظره ، ويؤيد هذا ماأخرجه أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله ﷺ « لله تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة » وهى فى القرآن . وأخرج البيهقى عن عائشة أنها قالت يارسول الله علمنى اسم الله الذى إذا دعى به أجاب قال : لها « قومى فتوضئى وادخلى المسجد فصلى ركعتين ثم ادعى حتى أسمع » ففعلت ، فلما جلست للدعاء قال النبى ﷺ « اللهمّ وفقها » فقالت : اللهمّ انى أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلها ماعلمنا منها ومالم نعلم ، وأسألك باسمك العظيم الأعظم الكبير الأكبر الذى من دعاك به أجبته ، ومن سألك به أعطيته . قال النبى ﷺ « أصبتيه أصبتيه » .

وقد أطال أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى حتى ان ابن العربى فى شرح الترمذى ، حكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) قال الالحاد : أن يدعو اللات العزى فى أسماء الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : الالحاد . التكذيب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى الآية قال . اشتقوا العزى من العزيز ، واشتقوا اللات من الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى الآية قال . الالحاد : المضاهاة . وأخرج ابن حاتم عن الأعمش انه قرأ يلحدون من لحد وقال تفسيرها : يدخلون فيها ماليس منها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى الآية قال يشركون .

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ

لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *

قوله (وممن خلقنا) خبر مقدّم و (أمة) مبتدأ مؤخر و (يهدون) ومابعده صفة له ، ويجوز أن يكون (وممن خلقنا) هو المبتدأ كما تقدّم فى قوله ـ ومن الناس من يقول ـ والمعنى ان من جملة من خلقه الله أمة يهدون الناس متلبسين بالحق أو يهدونهم بما عرفوه من الحق (و) بالحق (يعدلون) بينهم ، قيل هم من هذه الأمة ، وانهم الفرقة الذين لايزالون على الحق ظاهرين كما ورد فى الحديث الصحيح ، ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون) والاستدراج : هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة ، والدرج : كف الشيء ، يقال أدرجته ودرجته ، ومنه إدراج الميت فى أكفانه ، وقيل هو من الدرجة ، فالاستدراج . أن يخطو درجة بعد درجة الى المقصود ، ومنه درج الصبى اذا قارب بين خطاه ، وأدرج الكتاب طواه شيئا بعد شىء ، ودرج القوم مات بعضهم فى أثر بعض ، والمعنى سنستدنيهم قليلا قليلا الى مايهلكهم ، وذلك بادرار النعم عليهم وانسائهم شكرها ، فينهمكون فى الغواية و ينكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك ، وانه لم يحصل لهم الا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة * قوله (وأملى لهم) معطوف على سنستدرجهم : أى أطيل لهم المدّة وأمهلهم وأؤخر عنهم العقوبة ، وجملة (ان كيدى متين) مقرّرة لماقبلها ، من الاستدراج والاملاء ومؤكدة له ، والكيد : المكر ، والمتين : الشديد القوىّ ، وأصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذى على جانب الصلب . قال فى الكشاف : سماه كيدا ، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه فى الظاهر احسان ، وفى الحقيقة خذلان ، والاستفهام فى (أولم يتفكروا) للانكار عليهم حيث لم يتفكروا فى شأن رسول الله ﷺ وفيما جاء به (وما) فى (مابصاحبهم) للاستفهام الانكارى ، وهى فى محل رفع بالابتداء والخبر بصاحبهم ، والجنة مصدر : أى وقع منهم التكذيب ولم يتفكروا أىّ شىء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون ، فانهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلا ، وقولهم زورا و بهتانا وقيل ان ما نافية واسمها (من جنة) وخبرها بصاحبهم : أى ليس بصاحبهم شىء مما يدّعونه من الجنون ، فيكون هذا ردا لقولهم ـ يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ـ ويكون الكلام قد تمّ عند قوله (أولم يتفكروا) والوقف عليه من الأوقاف الحسنة ، وجملة (إن هو إلا نذير مبين) مقررة لمضمون ماقبلها ، ومبينة لحقيقة حال رسول الله ﷺ والاستفهام فى (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) للانكار والتقريع والتوبيخ ولقصد التعجيب من اعراضهم عن النظر فى الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالالهية : والملكوت من أبنية المبالغة ، ومعناه الملك العظيم ، وقد تقدّم بيانه ، والمعنى ان هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر ولا نظروا فى مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك الى الايمان به ، بل هم سادرون فى ضلالتهم خائضون فى غوايتهم لايعملون فكرا ولا يمعنون نظرا * قوله (وما خلق الله من شىء) أى لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ولا فيما خلق الله من شىء من الأشياء كائنا ما كان ، فان فى كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتفكرين ، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض أو من دقائقها من سائر مخلوقاته * قوله (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) معطوف على ملكوت

وأن

وأن هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان وخبرها عسى وما بعدها : أى أولم ينظروا فى أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتون عن قريب ، والمعنى : انهم اذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فمالهم لاينظرون فيما يهتدون به وينتفعون بالتفكر فيه والاعتبار به (فبأى حديث بعده يؤمنون) الضمير يرجع الى ماتقدم من التفكر والنظر فى الأمور المذكورة : أى فبأى حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون ، وفى هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ مالا يقادر قدره ، وقيل الضمير للقرآن ، وقيل لمحمد ﷺ ، وقيل للأجل المذكور قبله ، وجملة ( من يضلل الله فلا هادى له) مقررة لما قبلها : أى ان هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله الله ومن يضلله فلا هادى له : أى فلا يوجد من يهديه الى الحق وينزعه عن الضلالة ألبتة ( ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ) قرئ بالرفع على الاستئناف وبالجزم عطفا على محل الجزاء ، وقرئ بالنون ، ومعنى يعمهون : يتحيرون ، وقيل يترددون وهو فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق) قال : ذكر لنا أن النبى ﷺ قال « هذه أمتى بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : بلغنا أن نبى الله ﷺ كان يقول « اذا قرأها هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال : قال رسول الله ﷺ « ان من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله ( سنستدرجهم من حيث لايعلمون) يقول سنأخذهم من حيث لايعلمون قال : عذاب بدر . وأخرج أبو الشيخ عن يحيى بن المثنى فى الآية قال : كلما أحدثوا ذنبا جددنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات عن سفيان فى الآية قال : نسبغ عليهم النعمة ونمنعهم شكرها . وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن ثابت البنانى أنه سئل عن الاستدراج فقال : ذلك مكر الله بالعباد المضيعين . وأخرج أبو الشيخ فى قوله (وأملى لهم) يقول أكف عنهم (ان كيدى متين) ان مكرى شديد ، ثم نسخها الله فأنزل ـ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ـ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال . كيد الله العذاب والنقمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا « أن نبى الله ﷺ قام على الصفا ، فدعا قريشا فخذا فخذا يابنى فلان يابنى فلان ، يحذرهم بأس الله ووقائع الله الى الصباح حتى قال قائل : ان صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت حتى أصبح فأنزل الله أولم يتفكروا مابصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين » .

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ

بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ *

قوله (يسألونك عن الساعة) السائلون : هم اليهود ، وقيل قريش ، والساعة : القيامة وهى من الأسماء الغالبة ، واطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها ، وأيان ظرف زمان مبنى على الفتح . قال الراجز :

أيان تقضى حاجتى أيانا * أما ترى لنجحها أوانا

ومعناه معنى متى ، واشتقاقه من أىّ ، وقيل من أين ، وقرأ السلمى إيان بكسر الهمزة وهو فى موضع رفع على الخبر ، و (مرساها) المبتدأ عند سيبويه ، ومرساها بضم الميم : أى وقت إرسائها من أرساها الله : أى أثبتها ، وبفتح الميم من رست : أى ثبتت ، ومنه — وقدور راسيات — ، ومنه رسا الجبل * والمعنى متى يرسيها الله : أى يثبتها ويوقعها ، وظاهر (يسألونك عن الساعة) أن السؤال عن نفس الساعة ، وظاهر (أيان مرساها) أن السؤال عن وقتها ، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها فى الوقت المعين لذلك ، ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله (قل انما علمها عند ربى) أى علمها باعتبار وقوعها عند الله لا يعلمها غيره ولا يهتدى اليها سواه (لا يجليها لوقتها الا هو) أى لا يظهرها لوقتها ولا يكشف عنها الا الله سبحانه ، والتجلية : إظهار الشىء ، يقال جلى لى فلان الخبر : إذا أظهره وأوضحه ، وفى استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة وتدبير بليغ كسائر الأشياء التى أخفاها الله واستأثر بعلمها ، وهذه الجملة مقرّرة لمضمون التى قبلها * قوله (ثقلت فى السموات والأرض) قيل معنى ذلك أنه لما خفى علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة ، لأن كل ماخفى علمه ثقيل على القلوب ، وقيل المعنى : لا تطيقها السموات والأرض لعظمها ، لأن السماء تنشق ، والنجوم تتناثر ، والبحار تنضب ، وقيل عظم وصفها عليهم ، وقيل ثقلت المسئلة عنها ، وهذه الجملة مقرّرة لمضمون ماقبلها أيضا (لا تأتيكم إلا بغتة) إلا فجأة على غفلة ، والبغتة مصدر فى موضع الحال ، وهذه الجملة كالتى قبلها فى التقرير * قوله (يسألونك كأنك حفىّ عنها) . قال ابن فارس الحفىّ ، العالم بالشىء ، والحفى ، المستقصى فى السؤال ، ومنه قول الأعشى :

فان تسألى عنى فيارب سائل * حفىّ عن الأعشى به حيث أصعدا

يقال أحفى فى المسئلة وفى الطلب فهو محف ، وحفىّ على التكثير مثل مخصب وخصيب * والمعنى : يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها ، أو كأنه مستقص للسؤال عنها ومستكثر منه ، والجملة التشبيهية فى محل نصب على الحال : أى يسألونك مشبها حالك حال من هو حفىّ عنها ، وقيل المعنى : يسألونك عنها كأنك حفىّ بهم : أى حفىّ ببرهم ، وفرح بسؤالهم * والأول هو معنى النظم القرآنى على مقتضى المسلك العربى * قوله (قل انما علمها عند ربى) أمره الله سبحانه بأن يكرّر ما أجاب به عليهم سابقا لتقرير الحكم وتأكيده وقيل ليس بتكرير ، بل أحدهما معناه الاستئثار بوقوعها ، والآخر الاستئثار بكنهها نفسها (ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) باستئثار الله بهذا وعدم علم خلقه به ، لم يعلمه ملك مقرّب ولا نبىّ مرسل * قوله (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرّا إلا ماشاء الله) هذه الجملة متضمنة لتأكيد ماتقدّم من عدم علمه بالساعة أيان تكون ومتى تقع ، لأنه اذا كان لا يقدر على جلب نفع له أو دفع ضرّ عنه إلا ماشاء الله سبحانه من النفع

له والدفع عنه ، فبالأولى أن لايقدر على علم مااستأثر الله بعلمه ، وفى هذا من إظهار العبودية والاقرار بالعجز عن الأمور التى ليست من شأن العبيد والاعتراف بالضعف عن انتحال ماليس له صلى الله عليه وسلم مافيه أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ لمن يدّعى لنفسه ماليس من شأنها وينتحل علم الغيب بالنجامة أو الرمل أو الطرق بالحصا أو الزجر ، ثم أكد هذا وقرّره بقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أى لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسى وتوقيت مافيه السوء حتى لايمسنى ، ولكنى عبد لاأدرى ماعند ربى ، ولا ماقضاه فىّ وقدّره لى ، فكيف أدرى غير ذلك وأتكلف علمه ، وقيل المعنى : لو كنت أعلم مايريد الله عزّ وجلّ منى من قبل أن يعرّفنيه لفعلته ، وقيل لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب لقاتلت فلم أغلب ، وقيل لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ماأسأل عنه ، والأولى حمل الآية على العموم فتندرج هذه الأمور وغيرها تحتها ، وقد قيل ان (وما مسنى السوء) كلام مستأنف أى ليس بى ما تزعمون من الجنون ، والأولى أنه متصل بما قبله ، والمعنى : لو علمت الغيب مامسنى السوء ولحذرت عنه كما قدّمنا ذلك * قوله (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) أى ماأنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوما ، وأبشر بها آخرين ، ولست أعلم بغيب الله سبحانه ، واللام فى (لقوم) متعلق بكلا الصفتين : أى بشير لقوم ، ونذير لقوم ، وقيل هو متعلق ببشير ، والمتعلق بنذير محذوف : أى نذير لقوم يكفرون ، وبشير لقوم يؤمنون * قوله (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم الله على عباده وعدم مكافأتهم لها بما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية وأنه المنفرد بالالهية . قال جمهور المفسرين المراد بالنفس الواحدة : آدم ، وقوله (وجعل منها زوجها) معطوف على (خلقكم) أى هو الذى خلقكم من نفس آدم وجعل من هذه النفس زوجها ، وهى حواء خلقها من ضلع من أضلاعه ، وقيل المعنى (جعل منها) من جنسها كما فى قوله — جعل لكم من أنفسكم أزواجا — ، والأوّل أولى (ليسكن إليها) علة للجعل : أى جعله منها لأجل يسكن إليها يأنس إليها ويطمئن بها ، فان الجنس بجنسه أسكن واليه آنس ، وكان هذا فى الجنة كما وردت بذلك الاخبار : ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما فى الدنيا بعد هبوطهما ، فقال (فلما تغشاها) ، والتغشى كناية عن الوقاع : أى فلما جامعها (حملت حملا خفيفا) علقت به بعد الجماع ، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقة ، وعند كونه علقة أخف منه عند كونه مضغة ، وعند كونه مضغة أخف مما بعده ، وقيل انه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه ولم تجد منه ثقلا كما تجده الحوامل من النساء لقوله (فمرت به) أى استمرّت بذلك الحمل تقوم وتقعد وتمضى فى حوائجها لاتجد به ثقلا ، والوجه الأوّل أولى لقوله (فلما أثقلت) فان معناه : فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها ، وقرئ فمرت به بالتخفيف : أى فجزعت لذلك ، وقرئ فمارت به من المور ، وهو المجىء والذهاب ، وقيل المعنى : فاستمرّت به ، وقد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس ويحيى بن يعمر ، ورويت قراءة فمارت عن عبد الله بن عمر ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ فاستمرّت به * قوله (دعوا الله ربهما) جواب لما : أى دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما (لئن آتيتنا صالحا) أى ولدا صالحا ، واللام جواب قسم محذوف ، و (لنكوننّ من الشاكرين) جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط : أى من الشاكرين لك على هذه النعمة ، وفى هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ماحدث فى بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما وعلما بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب (فلما آتاهما) ماطلباه من الولد الصالح وأجاب دعاءهما (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال كثير من المفسرين انه جاء ابليس الى حواء وقال لها ان ولدت ولدا فسميه باسمى ، فقالت وما اسمك ؟ قال الحرث ولو سمى لها نفسه لعرفته فسمته عبد الحرث ، فكان هذا شركا فى التسمية ولم يكن شركا فى العبادة

وإنما قصدا أن الحرث كان سبب نجاة الولد كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه كما قال حاتم الطائى :

وانى لعبد الضيف مادام ثاويا * وما فىّ الا تلك من شيمة العبد

وقال جماعة من المفسرين إن الجاعل شركا فيما آتاهما هم جنس بنى آدم كما وقع من المشركين منهم ، ولم يكن ذلك من آدم وحواء ، ويدلّ على هذا جمع الضمير فى قوله (فتعالى الله عما يشركون) وذهب جماعة من المفسرين الى أن معنى (من نفس واحدة) من هيئة واحدة وشكل واحد (وجعل منها زوجها) أى من جنسها (فلما تغشاها) يعنى جنس الذكر جنس الأنثى ، وعلى هذا لايكون لآدم وحواء ذكر فى الآية وتكون ضمائر التثنية راجعة الى الجنسين . وقد قدّمنا الاشارة الى نحو هذا وذكرنا أنه خلاف الأولى لأمور منها (وجعل منها زوجها) بأن هذا إنما هو لحواء ، ومنها (دعوا الله ربهما) فان كل مولود يولد بين الجنسين لايكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء . وقد قرأ أهل المدينة وعاصم شركا على التوحيد ، وقرأ أبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع ، وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى ، وأجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف : أى جعلا له ذا شرك ، أو ذوى شرك ، والاستفهام فى (أيشركون مالا يخلق شيئا) للتقريع والتوبيخ : أى كيف يجعلون لله شريكا لا يخلق شيئا ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع عنهم * قوله (وهم يخلقون) عطف على (مالايخلق) ، والضمير راجع إلى الشركاء الذين لايخلقون شيئا : أى وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون ، وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء انهم كذلك (ولا يستطيعون لهم) أى لمن جعلهم شركاء (نصرا) ان طلبه منهم (ولا أنفسهم ينصرون) ان حصل عليهم شىء من جهة غيرهم ، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قال حمل بن أبى قيس وشمول ابن زيد لرسول الله ﷺ أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول فانا نعلم ماهى ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى) إلى قوله (ولكنّ أكثر الناس لايعلمون) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة (أيان مرساها) أى متى قيامها ؟ (قل انما علمها عند ربى لايجليها لوقتها الا هو) قال : قالت قريش يامحمد أسرّ الينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة ؟ قال (يسألونك كأنك حفىّ عنها قل انما علمها عند الله) وذكر لنا أن نبىّ الله ﷺ كان يقول « تهيج الساعة بالناس والرجل يسقى على ماشيته ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه ، والرجل يقيم سلعته فى السوق قضاء الله لا تأتيكم إلابغتة » وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أيان مرساها) قال منتهاها . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (لايجليها لوقتها إلاهو) يقول لايأتى بها الا الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال هو يجليها لوقتها لايعلم ذلك إلا الله . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ثقلت فى السموات والأرض) قال ليس شىء من الخلق الا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ثقلت فى السموات والأرض) قال ثقل علمها على أهل السموات والأرض يقول كبرت عليهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (ثقلت فى السموات والأرض) قال اذا جاءت انشقت السماء ، وانتثرت النجوم ، وكوّرت الشمس ، وسيرت الجبال ، وما يصيب الأرض ، وكان ماقال الله سبحانه فذلك ثقلها فيهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (لاتأتيكم إلابغتة) قال فجأة آمنين . وأخرج ابن أبى شيبة

وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في البعث عن مجاهد في قوله (كأنك حفيٌّ عنها) قال استحفيت عنها السؤال حتى علمتها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (كأنك حفيٌّ عنها) يقول كأنك عالم بها : أي لست تعلمها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عنه (كأنك حفيٌّ عنها) قال لطيف بها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عنه أيضا (كأنك حفيٌّ عنها) يقول كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم : قال لما سأل الناس محمدا ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا حفيٌّ بهم ، فأوحى الله إليه (إنما علمها عند الله) استأثر بعلمها فلم يطلع ملكا ولا رسولا . وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن دينار قال كان ابن عباس يقرأ كأنك حفيٌّ بها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرًّا) قال الهدى والضلالة (ولو كنت أعلم الغيب) متى أموت (لاستكثرت من الخير) قال العمل الصالح . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه فلا أبيع شيئا لا ربح فيه (وما مسني السوء) قال ولا يصيبني الفقر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله (وما مسني السوء) قال لاجتنبت ما يكون من الشرّ قبل أن يكون . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والروياني والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن سمرة عن النبي ﷺ قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال سميه عبد الحرث فإنه يعيش فسمته عبد الحرث فعاش ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سمرة في قوله (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركا) قال سمياه عبد الحرث . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبيّ بن كعب نحو حديث سمرة المرفوع موقوفا عليه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال حملت حواء فأتاها إبليس ، فقال إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن يخوّفهما سمياه عبد الحرث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ، ثم حملت فأتاهما أيضا فقال مثل ذلك ، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ، ثم حملت فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حبّ الولد فسمياه عبد الحرث ، فذلك قوله (جعلا له شركاء فيما آتاهما) . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن في الآية : قال كان هذا في بعض أهل الملل وليس بآدم . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن سمرة في قوله (حملت حملا خفيفا) لم يستبن (فمرّت به) لما استبان حملها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فمرّت به) قال فشكت أحملت أم لا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أيوب : قال سئل الحسن عن قوله (فمرّت به) قال لو كنت عربيا لعرفتها إنما هي استمرّت بالحمل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدّي في قوله (حملت حملا خفيفا) قال هي النطفة (فمرّت به) يقول استمرّت به . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (فمرّت به) قال فاستمرّت به . وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران (فمرّت به) يقول استخفته . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح في قوله (لئن آتيتنا صالحا) فقال أشفقا أن يكون بهيمة ، فقالا لئن آتيتنا بشرا سويا . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال غلاما سويا . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله (جعلا له شركاء) قال كان شريكا في طاعة ولم يكن شريكا في عبادة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه : قال ما أشرك آدم إن أولها شكر ، وآخرها مثل ضرب به لمن بعده . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم

XII-1486-2



عن السدّى فى قوله (فتعالى الله عما يشركون) هذا فصل من آية آدم خاصة فى آلهة العرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك نحوه . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الحسن فى الآية . قال هذا فى الكفار يدعون الله فاذا آتاهما صالحا هوّدا أو نصرا ، ثم قال (أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون) يقول يطيعون مالا يخلق شيئا ، وهى الشياطين لاتخلق شيئا وهى تخلق (ولا يستطيعون لهم نصرا) يقول لمن يدعوهم .

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ *

قوله (وان تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم) هذا خطاب للمشركين : أى وان تدعوا هؤلاء الشركاء الى الهدى والرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم لايتبعوكم ولا يجيبوكم الى ذلك ، وهو دون ماتطلبونه منهم من جلب النفع ودفع الضر ، والنصر على الأعداء . قال الأخفش معناه ، وان تدعوهم : أى الأصنام الى الهدى لايتبعوكم ، وقيل : المراد من سبق فى علم الله أنه لايؤمن ، وقرئ لايتبعوكم مشددا ومخففا وهما لغتان . وقال بعض أهل اللغة أتبعه مخففا اذا مضى خلفه ولم يدركه ، واتبعه مشددا اذا مضى خلفه فادركه ، وجملة (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) مقرّرة لمضمون ماقبلها : أى دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء لافرق بينهما ، لأنهم لاينفعون ، ولا يضرون ، ولا يسمعون ، ولايجيبون ، وقال (أم أنتم صامتون) مكان أصمتم لما فى الجملة الاسمية من المبالغة . وقال محمد بن يحيى انما جاء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية : يعنى لمطابقة (ولا أنفسهم ينصرون) وما قبله * قوله (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد لله كما أنتم عباده مع أنكم أكمل منهم ، لأنكم أحياء تنطقون ، تمشون ، وتسمعون ، وتبصرون ، وهذه الأصنام ليست كذلك ولكنها مثلكم فى كونها مملوكة لله مسخرة لأمره ، وفى هذا تقريع لهم بالغ وتوبيخ لهم عظيم ، وجملة (فادعوهم فليستجيبوا لكم) مقررة لمضمون ماقبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لايتبعوهم ، وأنهم لايستطيعون شيئا : أى ادعوا هؤلاء الشركاء ، فان كانوا كما تزعمون (فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضرّ ، والاستفهام فى قوله (ألهم أرجل) وما بعده للتقريع والتوبيخ : أى هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شىء من الآلات التى هى ثابتة لكم فضلا عن أن يكونوا قادرين على ماتطلبونه منهم ، فانهم كما ترون هذه الأصنام التى تعكفون على عبادتها ليست لهم (أرجل يمشون بها) فى نفع أنفسهم فضلا عن أن يمشوا فى نفعكم وليس (لهم أيد يبطشون بها) كما يبطش غيرهم من الأحياء ، وليس (لهم أعين يبصرون) بها كما تبصرون ، وليس (لهم آذان يسمعون بها) كما تسمعون ، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات ، وبهذه المنزلة من العجز ، وأم فى

هذه

VII ١٩٤-٢٠٥.

هـذه المواضع هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة كما ذكره أئمة النحو ، وقرأ سعيد بن جبير (إن الذين تدعون) بتخفيف إن ونصب عبادا : أي ما الذين تدعون (من دون الله عبادا أمثالكم) على أعمال إن النافية عمل ما الحجازية ، وقد ضعفت هـذه القراءة بأنها خلاف مارجحه سيبويه وغيره من اختيار الرفع في خبرها ، وبأن الكسائي قال : انها لاتكاد تأتي في كلام العرب بمعنى ما إلا أن يكون بعدها ايجاب كما في قوله ـ إن الكافرون إلا في غرور ـ ، والبطش : الأخذ بقوة ، وقرأ أبو جعفر (يبطشون) بضم الطاء ، وهي لغة ، ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام ، وتعاور وجوه النقص والعجز لها من كل باب : أمره الله بأن يقول لهم ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضر (ثم كيدون) أنتم وهم جميعا بما شئتم من وجوه الكيد (فلا تنظرون) أي فلا تمهلوني ولاتؤخرون إنزال الضرر بي من جهتها ، والكيد : المكر ، وليس بعد هذا التحدي لهم والتعجيز لأصنامهم شيء ، ثم قال لهم (إن وليي الله الذي نزل الكتاب) أي كيف أخاف هذه الأصنام التي هذه صفتها ، ولي ولي ألجأ اليه وأستنصر به وهو الله عز وجل (الذي نزل الكتاب) ، وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها ، وولي الشيء هو الذي يحفظه ، ويقوم بنصرته ، ويمنع منه الضرر (وهو يتولى الصالحين) أي يحفظهم وينصرهم ، ويحول ما بينهم وبين أعدائهم . قال الأخفش وقرئ (إن ولي الله الذي نزل الكتاب) يعني جبرائيل . قال النحاس هي قراءة عاصم الجحدري والقراءة الأولى أبين لقوله (وهو يتولى الصالحين) * قوله (والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) كرر سبحانه هذا لمزيد التأكيد والتقرير ، ولما في تكرار التوبيخ والتقريع من الاهانة للمشركين والتنقص بهم ، واظهار سخف عقولهم ، وركاكة أحلامهم (وتراهم ينظرون إليك) جملة مبتدأة لبيان عجزهم ، أو حالية : أي والحال أنك تراهم ينظرون اليك حال كونهم لايبصرون ، والمراد : الأصنام انهم يشبهون الناظرين ، ولا أعين لهم يبصرون بها قيل : كانوا يجعلون للأصنام أعينا من جواهر مصنوعة ، فكانوا بذلك في هيئة الناظرين ولايبصرون ، وقيل المراد بذلك المشركون ، أخبر الله عنهم بأنهم لايبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم ، وان أبصروا بها غير ما فيه نفعهم .

وقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : يجاء بالشمس والقمر حتى يلقيا بين يدي الله تعالى ، ويجاء بمن كان يعبدهما : فيقال (ادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (وتراهم ينظرون إليك) قال هؤلاء المشركون . وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد في قوله (وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون) ما يدعوهم إليه من الهدى .

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ * وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ *

قوله (خذ العفو) لما عدّد الله ماعدّده من أحوال المشركين وتسفيه رأيهم وضلال سعيهم : أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاقهم يقال : أخذت حق عفوا : أى سهلا ، وهذا نوع من التيسير الذى كان يأمر به رسول الله ﷺ كما ثبت فى الصحيح : انه كان يقول « يسروا ولا تعسروا و بشروا ولا تنفروا » والمراد بالعفو هنا ضد الجهد ، وقيل المراد خذ العفو من صدقاتهم ولا تشدّد عليهم فيها وتأخذ مايشق عليهم ، وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة (وأمر بالعرف) : أى بالمعروف . وقرأ عيسى بن عمر (بالعرف) بضمتين : وهما لغتان ، والعرف والمعروف والعارفة كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن اليها النفوس ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه * لايذهب العرف بين الله والناس

(وأعرض عن الجاهلين) أى إذا أقمت الحجة عليهم فى أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا ، فأعرض عنهم ولا تمارهم ولا تسافههم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة ، قيل وهذه الآية هى من جملة مانسخ بآية السيف ، قاله عبد الرحمن بن زيد وعطاء ، وقيل هى محكمة : قاله مجاهد وقتادة * قوله (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) النزغ : الوسوسة وكذا النغز والنخس . قال الزجاج : النزغ أدنى حركة تكون ، ومن الشيطان أدنى وسوسة ، وأصل النزغ : الفساد ، يقال نزغ بيننا : أى أفسد ، وقيل النزغ : الاغواء ، والمعنى متقارب ، أمر الله سبحانه نبيه ﷺ اذا أدرك شيئا من وسوسة الشيطان أن يستعيذ بالله ، وقيل انه لما نزل قوله (خذ العفو) قال النبى ﷺ « كيف يارب بالغضب» فنزلت ، وجملة (انه سميع عليم) علة لأمره بالاستعاذة : أى استعذ به والتجئ اليه ، فانه يسمع ذلك منك و يعلم به ، وجملة (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا) مقرّرة لمضمون ماقبلها : أى ان شأن الذين يتقون الله وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعاذة به والالتجاء اليه عند أن يمسهم طائف من الشيطان وان كان يسيرا . قرأ أهل البصرة (طيف) وكذا أهل مكة . وقرأ أهل المدينة والكوفة (طائف) . وقرأ سعيد بن جبير (طيف) بالتشديد . قال النحاس : كلام العرب فى مثل هذا طيف بالتخفيف على انه مصدر من طاف يطيف . قال الكسائى : هو مخفف مثل ميت وميت . قال النحاس : ومعناه فى اللغة مايتخيل فى القلب أو يرى فى النوم وكذا معنى طائف . قال أبو حاتم : سألت الأصمعى عن طيف فقال : ليس فى المصادر فيعل . قال النحاس ليس هو مصدرا ولكن يكون بمعنى طائف ، وقيل : الطيف والطائف معنيان مختلفان . فالأوّل التخيل والثانى الشيطان نفسه ، فالأوّل من طاف الخيال يطوف طيفا : ولم يقولوا من هذا طائف . قال السهيلى لأنه تخيل لاحقيقة له ، فأما قوله ــ فطاف عليها طائف من ربك ــ فلا يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة . قال الزجاج : طفت عليهم أطوف ، فطاف الخيال يطيف . قال حسان :

فدع هذا ولكن من لطيف * يؤرقنى اذا ذهب العشاء

وسميت الوسوسة طيفا لأنها لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال (فاذا هم مبصرون) بسبب التذكر : أى منتبهون وقيل على بصيرة . وقرأ سعيد بن جبير (تذكروا) بتشديد الذال . قال النحاس : ولا وجه له فى العربية * قوله (واخوانهم يمدونهم فى الغى) قيل المعنى واخوان الشياطين وهم الفجار من ضلال الانس على أن الضمير فى اخوانهم يعود الى الشيطان المذكور سابقا ، والمراد به الجنس ، فجاز ارجاع ضمير الجمع اليه يمدونهم فى الغىّ : أى تمدهم الشياطين فى الغىّ ، وتكون مددا لهم ، وسميت الفجار من الانس اخوان الشياطين . لأنهم يقبلون منهم و يقتدون بهم ، وقيل : ان المراد بالاخوان الشياطين و بالضمير الفجار من الانس ، فيكون الخبر جاريا على من هوله ، وقال الزجاج : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى والذين تدعون

من دونه لايستطيعون لكم نصراولاأنفسهم ينصرون (واخوانهم يمدونهم فى الغىّ) لأن الكفار اخوان الشياطين ، ثم لايقصرون الاقصار الانتهاء عن الشيء : أى لاتقصر الشياطين فى مدّ الكفار فى الغىّ ، قيل ان فى الغىّ متصلا بقوله (يمدونهم) وقيل بالاخوان ، والغى : الجهل . قرأ نافع (يُمِدّونهم) بضم حرف المضارعة وكسر الميم . وقرأ الباقون بفتح حرف المضارعة وضم الميم ، وهما لغتان : يقال مدّ وأمد . قال مكى ومدّ أكثر ، وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة انه يقال اذا كثر شيء شيئا بنفسه مدّه ، واذا كثره بغيره ، قيل أمدّه نحو ـ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة ـ وقيل يقال مددت فى الشرّ وأمددت فى الخير . وقرأ عاصم الجحدرى (يمادونهم فى الغى) . وقرأ عيسى بن عمر (ثم لايقصرون) بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف * قوله (واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه : أى جمعه أى هلا اجتمعتها فتعالا لها من عند نفسك ، وقيل المعنى اختلقتها يقال : اجتبيت الكلام انتحلته واختلقته واخترعته اذا جئت به من عند نفسك كانوا يقولون لرسول الله ﷺ اذا تراخى الوحى هذه المقالة ، فأمره الله بأن يجيب عليهم بقوله (انما أتبع مايوحى الىّ) : أى لست ممن يأتى بالآيات من قبل نفسه كما تزعمون (بل انما أتبع مايوحى الىّ من ربى) فما أوحاه الىّ وأنزله علىّ أبلغته اليكم ، و بصائر جمع بصيرة : أى (هذا) القرآن المنزل علىّ هو (بصائر من ربكم) يتبصر بها من قبلها ، وقيل البصائر : الحجج والبراهين . وقال الزجاج : البصائر الطرق (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) معطوف على بصائر : أى هذا القرآن هو بصائر وهدى يهتدى به المؤمنون ورحمة لهم * قوله (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) أمرهم الله سبحانه بالاستماع للقرآن والانصات له عند قراءته لينتفعوا به و يتدبروا مافيه من الحكم والمصالح ، قيل : هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الامام ، ولا يخفاك أن اللفظ أوسع من هذا والعام لايقصر على سببه ، فيكون الاستماع والانصات عند قراءة القرآن فى كل حالة وعلى أىّ صفة مما يجب على السامع ، وقيل هذا خاص بقراءة رسول الله ﷺ للقرآن دون غيره ولاوجه لذلك (لعلكم ترحمون) أى تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه ، ثم أمره الله سبحانه أن يذكره فى نفسه ، فان الاخفاء أدخل فى الاخلاص وادعى للقبول ، قيل المراد بالذكر هنا ماهو أعم من القرآن وغيره من الأذكار التى يذكر الله بها ، وقال النحاس : لم يختلف فى معنى (واذكر ربك فى نفسك) انه الدعاء ، وقيل هو خاص بالقرآن : أى اقرأ القرآن بتأمل وتدبر و (تضرعا وخيفة) منتصبان على الحال : أى متضرعا وخائفا ، والخيفة : الخوف ، وأصلها خوفة قلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها ، وحكى الفراء أنه يقال فى جمع خيفة خيف . قال الجوهرى : والخيفة الخوف والجمع خيف ، وأصله الواو : أى خوف (ودون الجهر من القول) أى دون المجهور به من القول وهو معطوف على ماقبله : أى متضرعا ، وخائفا ، ومتكلما بكلام هو دون الجهر من القول و (بالغدوّ والآصال) متعلق باذكر أى أوقات الغدوات وأوقات الأصائل ، والغدوّ : جمع غدوة ، والآصال : جمع أصيل ، قاله الزجاج والأخفش مثل : يمين وأيمان ، وقيل الآصال جمع أصل ، والأصل جمع أصيل فهو على هذا جمع الجمع : قاله الفراء . قال الجوهرى الأصيل : الوقت من بعد العصر الى المغرب ، وجمعه أصل وآصال وأصائل كأنه جمع أصيلة . قال الشاعر :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله * وأقعد فى أفنائه بالأصائل

ويجمع أيضا على أصلان مثل بعير و بعران ، وقرأ أبو مجلز والايصال ، وهو مصدر . وخصّ هذين الوقتين لشرفهما ، والمراد دوام الذكر لله (ولا تكن من الغافلين) أى عن ذكر الله (ان الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته) المراد بهم الملائكة . قال القرطبى بالاجماع . قال الزجاج . وقال عند ربك والله عزّ وجلّ بكل مكان ، لأنهم قريبون من رحمته ، وكل قريب من رحمة الله عزّ وجلّ فهو عنده

وقال غيره لأنهم فى موضع لاينفذ فيه الا حكم الله ، وقيل انهم رسل الله كما يقال عند الخليفة جيش كثير ، وقيل هذا على جهة التشريف والتكريم لهم ، ومعنى (يسبحونه) يعظمونه وينزهونه عن كل شين (وله يسجدون) أى يخصونه بعبادة السجود التى هى أشرف عبادة ، وقيل المراد بالسجود الخضوع والذلة ، وفى ذكر الملأ الأعلى تعريض لبنى آدم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخارى وأبو داود والنسائى والنحاس فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن عبد الله ابن الزبير فى قوله (خذ العفو) الآية قال مانزلت هذه الآية الا فى أخلاق الناس ، وفى لفظ أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله (خذ العفو) قال أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى : قال لما أنزل الله (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال رسول الله ﷺ ماهذا ياجبريل ؟ قال لاأدرى حتى أسأل العالم فذهب ثم رجع ، فقال « ان الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك » . وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه . وأخرج ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة قال : لما نظر رسول الله ﷺ الى حمزة بن عبد المطلب قال والله لأمثلن بسبعين منهم فجاءه جبريل بهذه الآية . وأخرج ابن مردويه عن عائشة فى قوله (خذ العفو) قال ماعفا لك من مكارم الأخلاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (خذ العفو) قال خذ ماعفا من أموالهم ماأتوك به من شىء فخذه ، وهذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقة وتفصيلها . وأخرج ابن جرير والنحاس فى ناسخه عن السدى فى الآية . قال الفضل من المال نسخته الزكاة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال لما نزل (خذ العفو) الآية . قال رسول الله ﷺ « كيف بالغضب يارب ؟ فنزل : واما ينزغنك من الشيطان نزغ » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ان اتقوا) قال هم المؤمنون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (اذا مسهم طيف من الشيطان) قال الغضب . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال الطيف : الغضب . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (تذكروا) قال اذا زلوا تابوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية . قال الطائف : اللمة من الشيطان تذكروا (فاذاهم مبصرون) يقول فاذاهم منتهون عن المعصية آخذون بأمر الله عاصون للشيطان (واخوانهم) قال اخوان الشياطين (يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون) قال لا الانس يمسكون عما يعملون من السيئات ، ولا الشياطين تمسك عنهم و (اذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) يقول لولا أحدثتها لولا تلقيتها فأنشأتها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه (واخوانهم يمدونهم فى الغى) قال هم الجن يوحون الى أوليائهم من الانس (ثم لايقصرون) يقول لايسأمون (واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) يقول هلا افتعلتها من تلقاء نفسك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أبى هريرة فى قوله (واذا قرئ القرآن) الآية قال نزلت فى رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ فى الصلاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : يعنى فى الصلاة المفروضة . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عنه قال صلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فقرأ خلفه قوم فخلطوا ، فنزلت (واذا قرئ القرآن) الآية ، فهذه فى المكتوبة . قال :

وان

وان كنا لم نستمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والبيهقي عن محمد بن كعب القرظي نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن عبد الله بن مغفل نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن ابن مسعود نحوه أيضا ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف ، وصرّحوا بأن هذه الآية نزلت في قراءة الصلاة من الامام . وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن في الآية قال عند الصلاة المكتوبة ، وعند الذكر . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية : قال في الصلاة وحين ينزل الوحي . وأخرج البيهقي عنه في الآية أنه قال هذا في الصلاة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (واذكر ربك في نفسك) الآية قال أمره الله أن يذكره ، ونهاه عن الغفلة : أما بالغدوّ فصلاة الصبح ، والأصال بالعشيّ . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صخر . قال الآصال : مابين الظهر والعصر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال لاتجهر بذاك (بالغدوّ والآصال) بالبكر والعشيّ . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد (بالغدوّ) قال آخر الفجر : صلاة الصبح ، والآصال آخر العشيّ : صلاة العصر ، والأحاديث والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة ، وعدد المواضع التي يسجد فيها ، وكيفية السجود وما يقال فيه مستوفاة في كتب الحديث والفقه فلا نطوّل بإيراد ذلك هاهنا .

# تفسير سورة الانفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية ولم يستثنوا منها شيئا ، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وقد روى مثل هذا عن ابن عباس أخرجه النحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال سورة الأنفال نزلت بالمدينة . وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير . وأخرجه ابن مردويه أيضا عن زيد بن ثابت . وأخرج سعيد بن منصور والبخاري وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال نزلت في بدر ، وفي لفظ تلك سورة بدر . قال القرطبي : قال ابن عباس هي مدنية إلاسبع آيات من قوله ـ وإذ يمكر بك الذين كفروا ـ إلى آخر سبع آيات ، وجملة آيات هذه السورة ست وسبعون آية ، وقد كان النبيّ ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب . وأخرج أيضا عن زيد بن ثابت عن النبيّ ﷺ أنه كان يقرأ في الركعتين من المغرب بسورة الأنفال .

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

الأنفال جمع نفل محرّكا ، وهو الغنيمة ، ومنه قول عنترة :

إنا إذا احمرّ الوغى نروى القنا * ونعف عند مقاسم الأنفال

أى الغنائم ، وأصل النفل : الزيادة ، وسميت الغنيمة به لأنها زيادة فيما أحلّ الله لهذه الأمّة مما كان محرّما على غيرهم أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد ، ويطلق النفل على معان أخر منها اليمين ، والابتغاء ، ونبت معروف . والنافلة التطوّع لكونها زائدة على الواجب ، والنافلة : ولد الولد ، لأنه زيادة على الولد ، وكان سبب نزول الآية : اختلاف الصحابة رضى الله عنهم فى يوم بدر كما سيأتى بيانه فنزع الله ماغنموه من أيديهم وجعله لله والرسول ، فقال (قل الأنفال لله والرسول) أى حكمها مختص بهما يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه وليس لكم حكم فى ذلك .

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شىء حتى نزل قوله تعالى ـ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأنّ لله خمسه ـ ، ثم أمرهم بالتقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما ، وترك الاختلاف الذى وقع بينهم ، ثم قال (ان كنتم مؤمنين) أى امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة ان كنتم مؤمنين بالله ، وفيه من التهييج والالهاب مالا يخفى ، مع كونهم فى تلك الحال على الايمان فكأنه قال ان كنتم مستمرّين على الايمان بالله ، لأن هذه الثلاثة الأمور التى هى تقوى الله ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول ، لايكمل الايمان بدونها ، بل لايثبت أصلا لمن لم يمتثلها ، فان من ليس بتقى وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن .

وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة : قال سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال ، فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول ﷺ فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء يقول عن سواء . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن عبادة بن الصامت : قال خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا فالتقى الناس فهزم الله العدوّ فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لايصيب العدوّ منه غرّة ، حتى اذا كان الليل وفاء الناس بعضهم الى بعض . قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدوّ لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنه العدوّ وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ لستم بأحق بها منا : نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدوّ منه غرّة فاشتغلنا به ، فنزلت (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ اذا أغار فى أرض العدوّ نفل الربع ، واذا أقبل راجعا وكلّ الناس نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال ويقول : ليرد قوىّ المسلمين على ضعيفهم . وأخرج إسحق ابن راهويه فى مسنده وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارىّ : قال بعث رسول الله ﷺ

سرية فنصرها الله وفتح عليها ، فكان من آتاه بشيء نفله من الخمس ، فرجع رجال كانوا يستقدمون ، و يقتلون و يأسرون ، و تركوا الغنائم خلفهم ، فلم ينالوا من الغنائم شيئا ، فقالوا يارسول الله مابال رجال منا يستقدمون و يأسرون ، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنيمة ؟ فسكت رسول الله ﷺ ونزل (يسألونك عن الأنفال) الآية ، فدعاهم رسول الله ﷺ فقال «ردّوا ما أخذتم واقتسموا بالعدل والسوية فان الله يأمركم بذلك ، فقالوا قد أنفقنا وأكلنا ، فقال احتسبوا ذلك» . وأخرج أحمد وأبوداود الترمذى وصححه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن سعد بن أبى وقاص قال : قلت «يارسول الله : قد شفانى الله اليوم من المشركين فهب لى هذا السيف ، فقال ان هذا السيف لالك ولالى ضعه فوضعته ، ثم رجعت قلت عسى يعطى هذا السيف اليوم من لايبلى بلائى اذا رجل يدعونى من ورائى : قلت قد أنزل الله فىّ شيئا قال : كنت سألتنى هذا السيف . وليس هو لى ، وانه قد وهب لى فهو لك» وأنزل الله هذه الآية (يسألونك عن الأنفال) وفى لفظ لأحمد أن سعدا قال : لما قتل أخى يوم بدر وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، وكان يسمّى ذا الكتيفة ، فأتيت به رسول الله ﷺ ، ثم ذكر نحو ما تقدم ، وقد روى هذا الحديث عن سعد من وجوه أخر . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن الناس سألوا رسول الله ﷺ الغنائم يوم بدر فنزلت (يسألونك عن الأنفال) . وأخرج ابن مردويه عنه قال : لم ينفل النبى ﷺ بعد إذ نزلت عليه (يسألونك عن الانفال) إلا من الخمس ، فانه نفل يوم خيبر من الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبوالشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبى ﷺ «من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا ، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا الى القتل والغنائم . فقالت المشيخة للشبان أشركونا معكم فانا كنا لكم ردءا ، ولو كان منكم شيء للجأتم الينا ، فاختصموا الى النبى ﷺ فنزلت (يسألونك عن الأنفال) الآية ، فقسم النبى صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم بينهم بالسوية» . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (يسألونك عن الأنفال) قال : الأنفال المغانم كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالصة ليس لأحد منها شيء ماأصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه به ، فمن حبس منه إبرة أوسلكا فهو غلول ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعطيهم منها شيئا فأنزل الله (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لى جعلتها لرسولى ليس لكم فيها شيء (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) الى قوله (ان كنتم مؤمنين) ثم أنزل الله ـ واعلموا أنما غنمتم من شيء ـ الآية ، ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولذى القربى واليتامى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء ، للفرس سهمان ولصاحبه سهم وللراجل سهم . وأخرج أبوعبيد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (يسألونك عن الأنفال) قال : هى الغنائم ، ثم نسخها ـ واعلموا أنما غنمتم من شيء ـ الآية . وأخرج مالك وابن أبى شيبة وأبوعبيد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبوالشيخ وابن مردويه عن القاسم بن محمد قال سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال : الفرس من النفل والسلب من النفل ، فأعاد المسألة فقال : ابن عباس هذا مثل ضبيع الذى ضربه عمر ، وفى لفظ فقال : ماأحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بضبيع العراق ، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال الأنفال ، المغانم ، أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها فيرد القوى على الضعيف . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير

VIII-2-4



وابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله (يسألونك عن الأنفال) قال : هو ماشذ من المشركين الى المسلمين بغير قتال ، من عبد أو دابة أو متاع فذلك للنبى ﷺ يصنع به ماشاء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن عمرو قال : أرسلنا الى سعيد بن المسيب نسأله عن الأنفال فقال : تسألونى عن الأنفال وانه لا نفل بعد رسول الله ﷺ . وأخرج عبدالرزاق عن سعيد أيضا قال : ما كانوا ينفلون الا من الخمس ، وروى عبدالرزاق عنه أنه قال : لا نفل فى غنائم المسلمين الا فى خمس الخمس . وأخرج عبدالرزاق عن أنس أن أميرا من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الشعبى فى قوله (يسألونك عن الأنفال) قال : ماأصابت السرايا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير والنحاس فى ناسخه عن مجاهد وعكرمة قال : كانت الأنفال لله والرسول حتى نسخها آية الخمس ـ واعلموا أنما غنمتم من شىء ـ الآية . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عباس فى قوله (وأصلحوا ذات بينكم) قال هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا فى الأنفال . وأخرج ابن أبى حاتم عن مكحول قال : كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم فقسمت بين من ثبت عند رسول الله ﷺ و بين من قاتل وغنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله (وأطيعوا الله ورسوله) قال طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *

الوجل الخوف والفزع ، والمراد أن حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملى الايمان المخلصين لله ، فالحصر باعتبار كمال الايمان لا باعتبار أصل الايمان . قال جماعة من المفسرين هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم ، ولا يخفاك أن هذا وان صح ادراجه تحت معنى الآية ، من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الايمان عند تلاوة آيات الله : يستلزمان امتثال ماأمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول ، ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو اثبات هذه المزية لمن كمل ايمانه من غير تقييد بحال دون حال ، ولا بوقت دون وقت ، ولا بواقعة دون واقعة ، والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة أو التعبير عن بديع صنعته وكمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون ، قيل والمراد بزيادة الايمان : هو زيادة انشراح الصدر ، وطمأنينة القلب وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات ، وقيل المراد بزيادة الايمان زيادة العمل ، لأن الايمان شىء واحد لا يزيد ولا ينقص ، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه (وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره ، والتوكل على الله : تفويض الأمر اليه فى جميع الأمور والموصول فى قوله (الذين يقيمون الصلاة) فى محل رفع على أنه وصف للموصول الذى قبله : أو بدل منه أو بيان له أو فى محل نصب على المدح ، وخص اقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه ومن فى (مما) للتبعيض والاشارة بقوله (أولئك) الى المتصفين بالأوصاف المتقدمة وهو مبتدأ وخبره (هم المؤمنون) أى ان هؤلاء هم الكاملون الايمان البالغون فيه الى أعلا درجاته وأقصى غاياته و (حقا) مصدر مؤكد لمضمون جملة هم المؤمنون : أى

حق

حق ذلك حقا أو صفة مصدر محذوف : أى هم المؤمنون إيمانا حقا ، ثم ذكر ما أعدّ لمن كان جامعا بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال (لهم درجات) أى منازل خير وكرامة وشرف فى الجنة كائنة عند ربهم وفى كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم : وجملة (لهم درجات عند ربهم) خبر ثان (لأولئك) أو مستأنفة جوابا لسؤال مقدّر ، (ومغفرة) معطوف على درجات : أى مغفرة لذنوبهم (ورزق كريم) يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وجلت قلوبهم) قال : فرقت قلوبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ولا يصلون اذا غابوا ، ولا يؤدّون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) فأدّوا فرائضه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أمّ الدرداء قالت : انما الوجل فى القلب كاحتراق السعفة ، ياشهر بن حوشب أما تجد قشعريرة ؟ قلت بلى ، قالت فادع عندها ، فان الدعاء يستجاب عند ذلك . وأخرج الحكيم الترمذى عن ثابت البنانى قال : قال فلان انى لأعلم متى يستجاب لى ؟ قالوا ومن أين لك ؟ قال اذا اقشعرّ جلدى ووجل قلبى وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى . وأخرج أيضا عن عائشة قالت : ما الوجل فى قلب المؤمن الا كضرمة السعفة : فاذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهمّ بمعصية فيقال له اتق الله فيجل قلبه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (زادتهم إيمانا) قال : تصديقا . وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس فى قوله (زادتهم إيمانا) قال : خشية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وعلى ربهم يتوكلون) يقول : لا يرجون غيره . وأخرجا عنه فى قوله (أولئك هم المؤمنون حقا) قال : برئوا من الكفر . وأخرج أبو الشيخ عنه (حقا) قال : خالصا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (لهم درجات) يعنى فضائل ورحمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (لهم درجات) قال : أعمال رفيعة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله (لهم درجات) قال : أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه ، ولا يرى الذى هو أسفل أنه فضل عليه أحد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله (ومغفرة) قال : بترك الذنوب (ورزق كريم) قال : الأعمال الصالحة . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : اذا سمعتم الله يقول (رزق كريم) فهى الجنة .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ *

قوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب : أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق : أى مثل اخراج ربك ، والمعنى امض لأمرك فى الغنائم ونفل من

شئت وان كرهوا ، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال بقى أكثر الناس بغير شىء ، فموضع الكاف نصب كما ذكرنا ، وبه قال الفراء وقال أبوعبيدة : هو قسم : أى والذى أخرجك ، فالكاف بمعنى الواو ، وما بمعنى الذى ، وقال الأخفش : سعيد بن مسعدة المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك ، وقال عكرمة المعنى : أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك ، وقيل كما أخرجك متعلق بقوله (لهم درجات) أى هذا الوعد للمؤمنين حق فى الآخرة (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) الواجب له ، فأنجز وعدك وظفرك بعدوك وأوف لك ، ذكره النحاس واختاره ، وقيل الكاف فى كما كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده كما وجهتك الى أعدائى فاستضعفوك وسألت مددا فأمددتك وقويتك وأزحت علتك فخذهم الآن فعاقبهم ، وقيل ان الكاف فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال اخراجك : يعنى أن حالهم فى كراهة مارأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم فى كراهة خروجك للحرب : ذكره صاحب الكشاف ، وبالحق متعلق بمحذوف والتقدير اخراجا متلبسا بالحق الذى لاشبهة فيه ، وجملة (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) فى محل نصب على الحال : أى كما أخرجك فى حال كراهتهم لذلك ، لأنه لما وعدهم الله احدى الطائفتين : إما العير أو النفير ، رغبوا فى العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال كما سيأتى بيانه ، وجملة (يجادلونك فى الحق بعد ماتبين لهم) اما فى محل نصب على أنها حال بعد حال ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ومجادلتهم لماندبهم الى احدى الطائفتين وفات العير وأمرهم بقتال النفير ولم يكن معهم كثير أهبة ، لذلك شق عليهم وقالوا لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وأكملنا الأهبة ، ومعنى (فى الحق) أى فى القتال بعد ماتبين لهم أنك لاتأمر بالشىء الا باذن الله ، أو بعد ماتبين لهم أن الله وعدهم بالظفر باحدى الطائفتين ، وأن العير اذا فاتت ظفروا بالنفير ، وبعد ظرف ليجادلونك ومامصدرية أى يجادلونك بعد ماتبين الحق لهم * قوله (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) الكاف فى محل نصب على الحال من الضمير فى (لكارهون) أى حال كونهم فى شدة فزعهم من القتال يشبهون حال من يساق ليقتل وهو مشاهد لأسباب قتله ناظر اليها لايشك فيها * قوله (وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم) الظرف منصوب بفعل مقدر : أى واذكروا وقت وعد الله إياكم احدى الطائفتين وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود ذكر مافيه من الحوادث لقصد المبالغة ، والطائفتان : هما العير والنفير ، واحدى هو ثانى مفعولى يعد ، و (أنها لكم) بدل منه بدل اشتمال : ومعناه أنها مسخرة لكم وأنكم تغلبونها وتغنمون منها وتصنعون بها ماشئتم من قتل وأسر وغنيمة لايطيقون لكم دفعا ولا يملكون لأنفسهم منكم ضرا ولانفعا ، وفى هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من النعم التى أنعم الله بها عليهم * قوله (وتودون) معطوف على (يعدكم) من جملة الحوادث التى أمروا بذكر وقتها (أن غير ذات الشوكة) من الطائفتين ، وهى طائفة العير (تكون لكم) دون ذات الشوكة ، وهى طائفة النفير . قال أبوعبيدة : أى غير ذات الحد ، والشوكة : السلاح ، والشوكة النبت الذى له حد ، ومنه رجل شائك السلاح : أى حديد السلاح ، ثم يقلب فيقال شاكى السلاح ، فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك ، والمعنى وتودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ، وهى طائفة العير لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال اذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها * قوله (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) معطوف على (تودون) وهو من جملة ماأمروا بذكر وقته : أى ويريد الله غير مايريدون وهو أن يحق الحق باظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة ، وقتلكم لصناديدهم ، وأسر كثير منهم ، واغتنام ماغنمتم من أموالهم التى أجلبوا بها عليكم وراموا دفعكم بها ، والمراد بالكلمات الآيات التى أنزلها فى محاربة ذات الشوكة ، ووعدكم منه بالظفر بها (ويقطع دابر الكافرين) الدابر الآخر ، وقطعه عبارة

عن

عن الاستئصال * والمعنى : ويستأصلهم جميعا * قوله (ليحق الحق ويبطل الباطل) هـذه الجملة علة لما يريده الله : أى أراد ذلك ، أو يريد ذلك ليظهر الحق ويرفعه (ويبطل الباطل) ويضعه ، أو اللام متعلقة بمحذوف : أى فعل ذلك ليحق الحق ، وقيل متعلق بيقطع ، وليس فى هذه الجملة تكرير لما قبلها لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الارادتين ، وهـذه لبيان الحكمة الداعية الى ذلك والعلة المقتضية له والمصلحة المترتبة عليـه ، واحقاق الحق اظهاره ، وابطال الباطل إعدامه ـ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ـ ومفعول (ولو كره المجرمون) محذوف : أى ولو كرهوا أن يحق الحق ويبطل الباطل ، والمجرمون هم المشركون من قريش ، أو جميع طوائف الكفار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة وبلغه أن عير أبى سفيان قد أقبلت فقال «ماترون فيها لعلّ الله يغنمناها ويسلمنا فخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعادّ ففعلنا فاذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فأخبرنا النبى ﷺ بعدّتنا فسرّ بذلك وحمد الله وقال : عدّة أصحاب طالوت ، فقال : ماترون فى قتال القوم فانهم قد أخبروا بمخرجكم ، فقلنا يارسول لا والله مالنا طاقة بقتال القوم ، انما خرجنا للعير ، ثم قال : ماترون فى قتال القوم ، فقلنا مثل ذلك ، فقال المقداد : لاتقولوا كما قال قوم موسى لموسى ـ اذهب أنت وربك فقاتلا اناهاهنا قاعدون ـ فأنزل الله (كما أخرجك ربك) الى قوله (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم) فلما وعدنا الله احدى الطائفتين : اما القوم واما العير ، طابت أنفسنا ، ثم انا اجتمعنا مع القوم فصففنا فقال رسول الله ﷺ : اللهم انى أنشدك وعدك ، فقال ابن رواحة : يارسول الله انى أريد أن أشير عليك ورسول الله ﷺ أفضل من أن يشير عليه ان الله أجلّ وأعظم من أن تنشده وعده ، فقال : يا ابن رواحة لأنشدنّ الله وعده فان الله لايخلف الميعاد فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله ﷺ فى وجوه القوم فانهزموا ، فأنزل الله (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) فقتلنا وأسرنا ، فقال عمر : يارسول الله ماأرى أن يكون لك أسرى فانما نحن داعون مؤلفون ، فقلنا يامعشر الأنصار انما يحمل عمر على ما قال حسد لنا فنام رسول الله ﷺ ، ثم استيقظ فقال : ادعوا لى عمر فدعى له فقال : ان الله قد أنزل علىّ ـ ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى ـ الآية ، وفى اسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جدّه قال : خرج رسول الله ﷺ الى بدر حتى اذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ، فقال أبو بكر يارسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ، فقال عمر مثل قول أبى بكر ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ، فقال سعد بن معاذ : يارسول الله إيانا تريد فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ماسلكتها قط ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرنّ معك ولا نكونن كالذين قالوا لموسى ـ اذهب أنت وربك فقاتلا اناهاهنا قاعدون ـ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انامعكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله اليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله اليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت فنزل القرآن على قول سعد (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) الى قوله (ويقطع دابر الكافرين) وانما كان رسول الله ﷺ يريد الغنيمة مع أبى سفيان فأحدث الله اليه القتال . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) قال : كذلك يجادلونك فى خروج القتال . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) قال خروج النبى ﷺ الى بدر (وان فريقا

VIII-9.15



من المؤمنين لكارهون) قال : لطلب المشركين (يجادلونك فى الحق بعدما تبين) أنك لا تصنع الا ما أمرك الله به . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) قال : هى عير أبى سفيان ، ودّ أصحاب محمد ﷺ أن العير كانت لهم وأن القتال صرف عنهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة (ويقطع دابر الكافرين) أى شأفتهم ، ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتاريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

قوله (اذ تستغيثون) الظرف متعلق بمحذوف : أى واذكروا وقت استغاثتكم ، وقيل بدل من — واذ يعدكم الله — معمول لعامله ، وقيل متعلق بقوله (ليحق الحق) والاستغاثة : طلب الغوث ، يقال : استغاثنى فلان فأغثته ، والاسم الغياث ، والمعنى أن المسلمين لما علموا أنه لابدّ من قتال الطائفة ذات الشوكة وهم النفير كما أمرهم الله بذلك وأراده منهم ، ورأوا كثرة عدد النفير وقلة عددهم استغاثوا بالله سبحانه ، وقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه «أن عدد المشركين يوم بدر ألف ، وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلا وأن النبى ﷺ لما رأى ذلك استقبل القبلة ، ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه : اللهم أنجزلى ماوعدتنى ، اللهم آتنى ماوعدتنى ، اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد فى الأرض» الحديث (فاستجاب لكم) عطف على تستغيثون داخل معه فى التذكير ، وهو وان كان مستقبلا فهو بمعنى الماضى ، ولهذا عطف عليه استجاب * قوله (أنى ممدكم بألف من الملائكة) أى بأنى ممدكم فحذف حرف الجرّ وأوصل الفعل الى المفعول . وقرئ بكسر الهمزة على ارادة القول ، أو على أن فى استجاب معنى القول * قوله (مردفين) قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول ، وقرأ الباقون بكسرها اسم فاعل وانتصابه على الحال ، والمعنى على القراءة الأولى أنه جعل بعضهم تابعا لبعض ، وعلى القراءة الثانية أنهم جعلوا بعضهم تابعا لبعض ، وقيل ان مردفين على القراءتين نعت لألف ، وقيل انه على القراءة الأولى حال من الضمير المنصوب فى ممدكم : أى ممدكم فى حال إردافكم بألف من الملائكة ، وقد قيل ان ردف وأردف بمعنى واحد ، وأنكره أبو عبيدة قال : لقوله تعالى — تتبعها الرادفة — ولم يقل المردفة . قال سيبويه : وفى الآية قراءة ثالثة وهى مردّفين بضم الراء وكسر الدال مشدّدة . وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال . وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدرى بآلاف جمع ألف : وهو الموافق لما تقدم فى آل عمران ، والضمير فى وما جعله الله راجع الى الامداد المدلول عليه بقوله انى ممدكم (الا بشرى) : أى الا بشارة لكم بنصره ، وهو استثناء مفرّغ : أى ماجعل امدادكم لشىء من الأشياء الا للبشرى لكم بالنصر (ولتطمئن به) أى بالامداد قلوبكم ، وفى هذا اشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا ، بل أمدّ الله المسلمين بهم للبشرى لهم وتطمين قلوبهم وتثبيتها ، واللام فى لتطمئن متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخرا : أى ولتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشىء آخر (وما النصر إلا من عند الله) لامن عند غيره ليس للملائكة فى ذلك أثر : فهو الناصر على الحقيقة وليسوا الا سببا من أسباب النصر التى سببها الله لكم وأمدكم بها (ان الله عزيز) لايغالب (حكيم) فى كل أفعاله .

وقد أخرج ابن جرير عن علىّ رضى الله عنه قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة

النبى

النبي ﷺ وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا فى الميسرة . وأخرج سنيد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ماأمد النبي ﷺ بأكثر من هذه الألف التى ذكر الله فى الأنفال ، وماذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف الابشرى . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (مردفين) قال : متتابعين . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (مردفين) يقول المدد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضا فى الآية قال : وراء كل ملك ملك . وأخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : كان ألف مردفين ، وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف ، وهم مدد المسلمين فى ثغورهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (مردفين) قال : ممدّين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : متتابعين أمدهم الله بألف ، ثم بثلاثة ، ثم أكملهم خمسة آلاف (وماجعله الله إلابشرى لكم (ولتطمئن به قلوبكم) قال : يعنى نزول الملائكة . قال وذكر لنا أن عمر قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا ، وأما بعد ذلك فالله أعلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد (مردفين) قال : بعضهم على أثر بعض .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ *

قوله (إذ يغشاكم) الظرف منصوب بفعل مقدّر كالذى قبله ، أو بدل ثان من إذ يعدكم ، أو منصوب بالنصر المذكور قبله ، وقيل غير ذلك مما لاوجه له ، و (يغشيكم) هى قراءة نافع وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه ، وهذه القراءة هى المطابقة لما قبلها : أعنى قوله (وما النصر إلا من عند الله) ولما بعدها أعنى (وينزل عليكم) فيتشاكل الكلام ويتناسب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (يغشاكم) على أن الفاعل النعاس ، وقرأ الباقون (يغشيكم) بفتح الغين وتشديد الشين ، وهى كقراءة نافع وأهل المدينة فى اسناد الفعل الى الله ، ونصب النعاس . قال مكى : والاختيار ضم الياء والتشديد ، ونصب النعاس لأن بعده (أمنة منه) والهاء فى منه لله فهو الذى يغشيهم النعاس ، ولأن الأكثر عليه ، وعلى القراءة الأولى ، والثالثة يكون انتصاب أمنة على أنها مفعول له ، ولايحتاج فى ذلك الى تأويل وتكلف ، لأن فاعل الفعل المعلل والعلة واحد بخلاف انتصابها على العلة ، باعتبار القراءة الثانية ، فانه يحتاج الى تكلف ، وأما على جعل الأمنة مصدرا فلا اشكال : يقال أمن أمنة وأمنا وأمانا ، وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم ، وهى أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين ، وكان هذا النوم فى الليلة التى كان القتال فى غدها ، قيل وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : أحدهما أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد : الثانى أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم ، وقيل ان النوم غشيهم فى حال التقاء الصفين ، وقد مضى فى يوم أحد نحو من هذا فى سورة آل عمران * قوله (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) هذا المطر كان بعد النعاس ، وقيل قبل

النعاس ، وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين الى ماء بدر ، فنزلوا عليه وبقى المؤمنون لاماء لهم ، فأنزل الله المطر ليلة بدر ، والذى فى سيرة ابن اسحق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا الى ماء بدر وانه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم ولم يصب المسلمين منه إلا ماشد لهم دهس الوادى وأعانهم على المسير ، ومعنى (ليطهركم به) ليرفع عنكم الأحداث (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أى وسوسته لكم بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التى هى منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت (وليربط على قلوبكم) فيجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب ، والضمير فى (به) من قوله (ويثبت به الأقدام) راجع إلى الماء الذى أنزله الله : أى يثبت بهذا الماء الذى أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم فى مواطن القتال ، وقيل الضمير راجع إلى الربط المدلول عليه بالفعل * قوله (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم) الظرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبى ﷺ لأنه لايقف على ذلك سواه : أى واذكر يامحمد وقت ايحاء ربك إلى الملائكة ، وقيل هو بدل من (إذ يعدكم) كما تقدم ولكنه يأبى ذلك أن هذا لايقف عليه المسلمون فلا يكون من جملة النعم التى عددها الله عليهم ، وقيل العامل فيه يثبت فيكون المعنى : يثبت الأقدام وقت الوحى ، وليس لهذا التقييد معنى ، وقيل العامل فيه (ليربط) ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الايحاء ، ومعنى الآية : أنى معكم بالنصر والمعونة ، فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول (يوحى) وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول . ومعنى (فثبتوا الذين آمنوا) بشروهم بالنصر أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم وتكثير سوادهم ، وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم ، والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها * قوله (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) قد تقدم بيان معنى إلقاء الرعب فى آل عمران ، قيل هذه الجملة تفسير لقوله (أنى معكم) * قوله (فاضربوا فوق الأعناق) قيل المراد الأعناق أنفسها ، و (فوق) زائدة : قاله الأخفش وغيره . وقال محمد بن يزيد هذا خطأ ، لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنه أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها ، وقيل المراد بما فوق الأعناق : الرؤوس ، وقيل المراد بفوق الأعناق : أعاليها ، لأنها المفاصل الذى يكون الضرب فيها أسرع الى القطع ، قيل وهذا أمر للملائكة ، وقيل للمؤمنين ، وعلى الأول قيل هو تفسير لقوله (فثبتوا الذين آمنوا) * قوله (واضربوا منهم كل بنان) قال الزجاج واحد البنان بنانة ، وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء ، والبنان مشتق من قولهم أبنّ الرجل بالمكان : اذا أقام به لأنه يعمل بها ما يكون للاقامة والحياة ، وقيل المراد بالبنان هنا : أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب ، فاذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء . قال عنترة :

وقد كان فى الهيجاء يحمى ذمارها * ويضرب عند الكرب كل بنان

وقال عنترة أيضا

وان الموت طوع يدى اذا ما * وصلت بنانها بالهندوانى

قال ابن فارس البنان : الأصابع ، ويقال الأطراف ، والاشارة بقوله (ذلك) الى ماوقع عليهم من القتل ودخل فى قلوبهم من الرعب ، وهو مبتدأ ، و (بأنهم شاقوا الله ورسوله) خبره : أى ذلك بسبب مشاقتهم ، والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين فى شق ، وقد تقدم تحقيق ذلك (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) له يعاقبه بسبب ماوقع منه من الشقاق * قوله (ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) الاشارة الى ماتقدم من العقاب ، والخطاب هنا للكافرين كما أن الخطاب فى قوله (ذلكم) للنبى ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب . قال الزجاج ذلكم رفع باضمار الأمر أو القصة : أى الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه . قال ويجوز أن يضمر ، واعلموا . قال فى الكشاف ويجوز أن

يكون

يكون نصبا على عليكم ذلكم فذوقوه كقولك زيدا فاضربه . قال أبو حيان : لايجوز تقدير عليكم لأنه اسم فعل ، وأسماء الأفعال لاتضمر ، وتشبيهه بزيدا فاضربه غير صحيح لأنه لم يقدر فيه عليك ، بل هو من باب الاشتغال ، وجملة (وأن للكافرين عذاب النار) معطوفة على ماقبلها فتكون الاشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذى أصيبوا به ويكون (وأن للكافرين عذاب النار) إشارة إلى العقاب الآجل .

وقد أخرج أبو يعلى والبيهقى فى الدلائل عن علىّ قال : ماكان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة حتى أصبح . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية : قال بلغنا أن هذه الآية أنزلت فى المؤمنين يوم بدر فيما أغشاهم الله من النعاس أمنة منه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (أمنة منه) قال أمنا من الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (أمنة منه) قال رحمة منه أمنة من العدوّ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه . قال النعاس فى الرأس ، والنوم فى القلب . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال كان النعاس أمنة من الله ، وكان النعاس نعاسين : نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب فى قوله (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) قال طش كان يوم بدر . وأخرج هؤلاء عن مجاهد فى الآية : قال المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار ، والتبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم ، وثبتت به أقدامهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن اسحق عن عروة بن الزبير : قال بعث الله السماء وكان الوادى دهسا ، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه مالبد الأرض ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشا مالم يقدروا على أن يرتحلوا معه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس : قال ان المشركين غلبوا المسلمين فى أوّل أمرهم على الماء فضحى المسلمون وصلوا مجنبين محدثين ، فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن وقال : أتزعمون أن فيكم نبيا وأنكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين ؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء فشرب المسلمون وتطهروا ، وثبتت أقدامهم ، وذهبت وسوسته . وقد قدّمنا أن المشهور فى كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء ، بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء ، وهذا المروى عن ابن عباس فى إسناده العوفى ، وهو ضعيف جدا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (رجز الشيطان) قال وسوسته . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وليربط على قلوبكم) قال بالصبر (ويثبت به الأقدام) قال كان بطن الوادى دهاسا ، فلما مطروا اشتدت الرملة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله (ويثبت به الأقدام) قال حتى تشتدّ على الرمل وهو كهيئة الأرض . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن علىّ قال كان رسول الله ﷺ يصلى تلك الليلة ويقول « اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد» وأصابهم تلك الليلة مطر شديد ، فذلك قوله ويثبت به الأقدام . وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد قال لم تقاتل الملائكة الا يوم بدر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال : قال لى أبى يابنىّ لقد رأيتنا يوم بدر ، وان أحدنا ليشير بسيفه الى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس : قال كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (فاضربوا فوق الأعناق) يقول الرؤوس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطية (فاضربوا فوق الأعناق) قال اضربوا الأعناق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك (فاضربوا فوق الأعناق) يقول اضربوا الرقاب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم

عن ابن عباس فى قوله (واضربوا منهم كل بنان) قال يعنى بالبنان : الأطراف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطية (واضربوا منهم كل بنان) قال كل مفصل .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ *

الزحف : الدنوّ قليلا قليلا ، وأصله الاندفاع على الألية ، ثم سمى كل ماش فى الحرب الى آخر زاحفا والتزاحف : التدانى والتقارب ، تقول زحف الى العدوّ زحفا ، وازدحف القوم : أى مشى بعضهم الى بعض ، وانتصاب زحفا إما على أنه مصدر لفعل محذوف : أى تزحفون زحفا أو على أنه حال من المؤمنين أى حال كونكم زاحفين إلى الكفار أو حال من الذين كفروا : أى حال كون الكفار زاحفين اليكم أو حال من الفريقين : أى متزاحفين (فلا تولوهم الأدبار) نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار اذا لقوهم وقد دبّ بعضهم الى بعض للقتال ، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين فى كل زمن ، وعلى كل حال الا حالة التحرّف والتحيز ، وقد روى عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد وأبى نضرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبى حبيب والضحاك أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية مختص بيوم بدر وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحاوزا ولو انحازوا لانحازوا الى المشركين إذ لم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ولا لهم فئة إلا النبى ﷺ فأما بعد ذلك فان بعضهم فئة لبعض ، وبه قال أبو حنيفة قالوا ويؤيده قوله (ومن يولهم يومئذ دبره) فانه إشارة إلى يوم بدر ، وقيل ان هذه الآية منسوخة بآية الضعف ، وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة ، وأن الفرار من الزحف محرّم ، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب فى يوم بدر ، وأجيب عن قول الأوّلين بأن الاشارة فى (يومئذ) إلى يوم بدر بأن الاشارة إلى يوم الزحف كما يفيده السياق ، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، بل هذه الآية مقيدة بها فيكون الفرار من الزحف محرّما بشرط مابينه الله فى آية الضعف ، ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن فى الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها فقد كان فى المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبى ﷺ بالخروج ، لأنه ﷺ ومن خرج معه لم يكونوا يرون فى الابتداء أنه سيكون قتال ، ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرّحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما فى حديث «اجتنبوا السبع الموبقات ، وفيه : والتولى يوم الزحف» ونحوه من الأحاديث ، وهذا البحث تطول ذيوله ، وتتشعب طرقه ، وهو مبين فى مواطنه . قال ابن عطية ، والأدبار جمع دبر والعبارة بالدبر فى هذه الآية متمكنة فى الفصاحة لما فى ذلك من الشناعة على الفارّ والذمّ له * قوله (الا متحرّفا لقتال) التحرّف الزوال عن جهة الاستواء ، والمراد به هنا : التحرّف من جانب الى جانب فى المعركة طلبا لمكائد الحرب ، وخدعا للعدوّ ، وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدوّ فيكرّ عليه ويتمكن منه ونحو ذلك من مكائد الحرب فان الحرب خدعة * قوله (أو متحيزا الى فئة) أى الى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدوّ ، وانتصاب متحرّفا ومتحيزا على الاستثناء من المولين : أى ومن يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرّفا أو متحيزا ، ويجوز انتصابهما على الحال ، ويكون حرف الاستثناء لغوا لاعمل له ، وجملة (فقد باء

بغضب من الله) جزاء للشرط * والمعنى : من ينهزم ويفرّ من الزحف فقد رجع بغضب كائن من الله الا المتحرّف والمتحيز (ومأواه جهنم) أى المكان الذى يأوى اليه هو النار ، ففراره أوقعه الى ماهو أشدّ بلاء مما فرّ منه وأعظم عقوبة * والمأوى : مايأوى إليـه الانسان (وبئس المصير) ماصار إليه من عذاب النار ، وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفرّ عن الزحف ، وفى ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة * قوله (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) الفاء جواب شرط مقدّر : أى اذا عرفتم ماقصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة وايقاع الرعب فى قلوبهم فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر * قوله (وما رميت اذ رميت ولكنّ الله رمى) اختلف المفسرون فى هذا الرمى على أقوال . فروى عن مالك أن المراد به ما كان منه ﷺ فى يوم حنين فانه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادى فأصابت كل واحد منهم ، وقيل المراد به الرمية التى رمى رسول الله ﷺ أبىّ بن خلف بالحربة فى عنقه فانهزم ومات منها ، وقيل المراد به السهم الذى رمى به رسول الله ﷺ فى حصن خيبر فسار فى الهوى حتى أصاب ابن أبى الحقيق وهو على فراشه وهذه الأقوال ضعيفة . فان الآية نزلت عقب وقعة بدر . وأيضا المشهور فى كتب السير والحديث فى قتل ابن أبى الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة ، والصحيح كما قال ابن اسحق وغيره أن المراد بالرمى المذكور فى هذه الآية هو ما كان منه ﷺ فى يوم بدر فانه أخذ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين فأصابت كل واحد منهم ودخلت فى عينيه ومنخريه وأنفه . قال ثعلب المعنى (ومارميت) الفزع والرعب فى قلوبهم (اذ رميت) بالحصباء فانهزموا (ولكن الله رمى) أى أعانك وأظفرك ، والعرب تقول رمى الله لك : أى أعانك وأظفرك وصنع لك . وقد حكى مثل هـذا أبو عبيدة فى كتاب المجاز ، وقال محمد بن يزيد المبرد : المعنى (ومارميت) بقوتك (اذ رميت) ولكنك بقوة الله رميت ، وقيل المعنى : ان تلك الرمية بالقبضة من التراب التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة لأنك لو رميتها مابلغ أثرها الا مايبلغه رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنـه ، لأن أثرها الذى لايطيقه البشر فعل الله عز وجل فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة . وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلا هكذا فى الكشاف * قوله (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) البلاء هاهنا النعمة ، والمعنى ولينعم على المؤمنين انعاما جميلا ، واللام متعلقة بمحذوف : أى وللانعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لالغيره ، أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقـدرة قبلها : أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا (ان الله سميع عليم) لدعائهم عليم بأحوالهم ، والاشارة بقوله ذلكم الى البلاء الحسن وهو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أى الغرض (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) أى ان الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين ، وقيل المشار اليه القتل والرمى . وقد قرئ بتشديد الهاء وتخفيفها مع التنوين . وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الاضافة ، والكيد : المكر ، وقد تقدّم بيانه .

وقد أخرج البخارى فى تاريخه والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع أنه سأل ابن عمر قال : انا قوم لا نثبت عند قتال عدوّنا ولا ندرى من الفئة أمامنا أو عسكرنا ؟ فقال لى الفئة رسول الله ﷺ فقلت ان الله يقول (اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار) قال انما نزلت هـذه الآية فى أهل بدر لاقبلها ولابعـدها ، وأخرج عبد بن حميـد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنـذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله (ومن يولهم يومئذ دبره) الآية . قال انها كانت لأهل بدر خاصة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر ابن الخطاب قال . لاتغرنكم هذه الآية فانما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم . وأخرج أبو الشيخ وابن

مردويه عن ابن عباس فى الآية . قال نزلت فى أهل بدر خاصة ما كان لهم أن ينهزموا عن رسول الله ﷺ ويتركوه ، وقد روى اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم ، وقد قدمنا الاشارة الى ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله (الا متحرّفا لقتال) يعنى مستطردا يريد الكرّة على المشركين (أو متحيزا الى فئة) يعنى أو ينحاز الى أصحابه من غير هزيمة (فقد باء بغضب من الله) يقول استوجبوا سخطا من الله (ومأواه جهنم وبئس المصير) فهذا يوم بدر خاصة كان شديدا على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : المتحرّف المتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدوّ فيصيبها ، والمتحيز : الفارّ الى رسول الله ﷺ وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح فى قوله (ومن يولهم يومئذ دبره) قال هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال ــ الآن خفف الله عنكم ــ الآية . وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخارى فى الأدب المفرد واللفظ له وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عمر قال : كنا فى غزاة فحاص الناس حيصة : قلنا كيف نلقى رسول الله ﷺ وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب فأتينا رسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا نحن الفرّارون فقال لا : «بل أنتم العكارون» فقبلنا يده فقال : أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين ، ثم قرأ (إلا متحرّفا لقتال أو متحيزا إلى فئة) ، وقد روى فى تحريم الفرار من الزحف ، وأنه من الكبائر أحاديث ، وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس . وأخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عمر . وأخرجه ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (فلم تقتلوهم) قال لأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين قال : هذا قتلت وهذا قتلت (وما رميت إذ رميت) قال لمحمد ﷺ حين حصب الكفار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وما رميت إذ رميت) قال : رماهم يوم بدر بالحصباء وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر سمعنا صوتا من السماء الى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت فى طست ، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال : «شاهت الوجوه فانهزمنا» ، فذلك قوله تعالى (وما رميت إذ رميت) الآية . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن جابر قال : سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن فى طست ، فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن فى وجوه المشركين فانهزموا ، فذلك قوله (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وما رميت اذ رميت) قال : قال رسول الله «لعلىّ ناولنى قبضة من حصباء فناوله فرمى بها فى وجوه القوم فما بقى أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت هذه الآية (وما رميت اذ رميت) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : لما كان يوم أحد أخذ أبى بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول الله ﷺ واعترض رجال من المسلمين لأبىّ بن خلف ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله ﷺ « استأخروا فاستأخروا» فأخذ رسول الله ﷺ حربته فى يده فرمى بها أبىّ بن خلف وكسر ضلعا من أضلاعه فرجع أبىّ بن خلف الى أصحابه ثقيلا فاحتملوه حين ولوا قافلين فطفقوا يقولون لا بأس ؛ فقال أبىّ حين قالوا له ذلك والله لو كانت بالناس لقتلتهم : ألم يقل انى أقتلك ان شاء الله ، فانطلق به أصحابه ينعشونه حتى مات ببعض الطريق فدفنوه

VIII 14



قال ابن المسيب : وفى ذلك أنزل الله (وما رميت إذ رميت) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب والزهرى نحوه ، واسناده صحيح اليهما ، وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك قال ابن كثير : وهذا القول عن هذين الامامين غريب جدا ، ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها ، وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير كما سيأتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبى الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن فأقبل السهم حتى قتل ابن أبى الحقيق فى فراشه ، فأنزل الله (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) . وأخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله (ولكن الله رمى) أى لم يكن ذلك برميتك لولا الذى جعل الله من نصرك وما ألقى فى صدور عدوك حتى هزمهم (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) : أى ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم فى اظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه و يشكروا بذلك نعمته .

إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ *

الاستفتاح طلب النصر : وقد اختلف فى المخاطبين بالآية من هم ؟ فقيل انها خطاب للكفار تهكما بهم والمعنى : ان تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر ، وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتهكم الله بهم ، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصرا ، ومعنى بقية الآية على هذا القول (وان تنتهوا) عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله (فهو) أى الانتهاء (خير لكم وان تعودوا) الى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة (نعد) بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم فى يوم بدر (ولن تغنى عنكم فئتكم) أى جماعتكم (شيئا ولو كثرت) أى لا تغنى عنكم فى حال من الأحوال ولو فى حال كثرتها ، ثم قال (وأن الله مع المؤمنين) ومن كان الله معه فهو المنصور ، ومن كان الله عليه فهو المخذول قرئ بكسر ان وفتحها ، فالكسر على الاستئناف والفتح على تقدير ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك * وقيل ان الآية خطاب للمؤمنين ، والمعنى ان تستنصروا الله فقد جاءكم النصر فى يوم بدر ، وان تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم وفداء الاسرى قبل الاذن لكم بذلك فهو خير لكم ، وان تعودوا الى مثل ذلك نعد الى توبيخكم كما فى قوله ـ لولا كتاب من الله سبق ـ الآية ، ولا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى (ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا) ويأباه أيضا (وأن الله مع المؤمنين) وتوجيه ذلك لا يمكن الا بتكلف وتعسف ، وقيل ان الخطاب فى (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) للمؤمنين وما بعده للكافرين ، ولا يخفى ما فى هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية فى الكلام على نمط واحد الى طائفتين مختلفتين .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة ، فكان ذلك استفتاحا منه فنزلت (ان تستفتحوا) الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية قال : قال أبو جهل يوم بدر : اللهم انصر أهدى الفئتين ، وأفضل الفئتين ، وخير الفئتين فنزلت الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ان تستفتحوا : يعنى المشركين ، أى ان تستنصروا فقد جاءكم المدد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) قال : كفار قريش فى قولهم ربنا افتح بيننا و بين محمد وأصحابه ، ففتح بينهم يوم بدر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير

VIII 20-24



وابن المنذر عن عكرمة فى قوله ان تستفتحوا قال : ان تستقضوا فقد جاءكم القضاء فى يوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (وان تنتهوا) قال : عن قتال محمد ﷺ (وان تعودوا نعد) قال : ان تستفتحوا الثانية أفتح لمحمد (وأن الله مع المؤمنين) قال : مع محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة (وان تعودوا نعد) يقول ، نعد لكم بالأسر والقتل .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۞

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن التولى عن رسوله ، فالضمير فى (عنه) عائد الى الرسول ، لأن طاعة رسول الله ﷺ هى من طاعة الله ، و ـ من يطع الرسول فقد أطاع الله ـ ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعا الى الله والى رسوله كما فى قوله ـ والله ورسوله أحق أن يرضوه ـ وقيل الضمير راجع الى الأمر الذى دلّ عليه أطيعوا ، وأصل تولوا تتولوا فطرحت إحدى التائين هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين ، و به قال الجهور ، وقيل انه خطاب للمنافقين ، والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط . قال ابن عطية وهـذا وان كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدّا ، لأن الله وصف من خاطبه فى هذه الآية بالإيمان وهو التصديق ، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء ، وأبعد من هذا من قال الخطاب لبنى اسرائيل فانه أجنبى من الآية ، وجملة (وأنتم تسمعون) فى محل نصب على الحال ، والمعنى وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين وتصدقون بها ولستم كالصم البكم (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء فانهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل فهم كالذى لم يسمع أصلا ، لأنه لم ينتفع بما سمعه ، ثم أخبر سبحانه (بأن شرّ الدواب) أى ما دبّ على الأرض (عند الله) أى فى حكمه (الصمّ البكم) أى الذين لا يسمعون ولا ينطقون : وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع و ينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق (الذين لا يعقلون) ما فيه النفع لهم فيأتونه ، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه فهم شرّ الدوابّ عند الله ، لأنها تميز بعض تمييز ، وتفرق بين ما ينفعها و يضرّها (ولو علم الله فيهم) أى فى هؤلاء الصمّ البكم (خيرا لأسمعهم) سماعا ينتفعون به و يتعقلون عنـده الحجج والبراهين . قال الزجاج (لأسمعهم) جواب كل ما سألوا عنه ، وقيل (لأسمعهم) كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ، لأنهم طلبوا إحياء قصىّ بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوّة محمد ﷺ (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) لأنه قد سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون وجملة (وهم معرضون) فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وهم لا يسمعون) قال عاصون . وأخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (ان شرّ الدوابّ عنـد الله) الآية قال ان هذه الآية نزلت فى فلان وأصحاب له . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميـد والبخارى وابن جرير وابن المنـذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ان شر الدوابّ عند الله) قال هم نفر من قريش من بنى عبد الدار . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (الصمّ البكم الذين لا يعقلون) قال لا يتبعون الحق . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج : قال نزلت هـذه الآية فى النضر بن الحرث وقومه ، ولعله المكنى عنه بفلان فيما تقدّم من قول علىّ رضى الله عنه . وأخرج

ابن

VIII. 24-26.



ابن اسحق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير في قوله (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) أي لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بألسنتهم، ولكنّ القلوب خالفت ذلك منهم. وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة في الآية قال قالوا نحن صمّ عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه بكم لانجيبه فيه بتصديق قتلوا جميعا بأحد، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد ؛

يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ *

الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الأمر بالطاعة، ووحد الضمير هنا حيث قال (اذا دعاكم) كما وحده في قوله (ولا تولوا عنه) وقد قدمنا الكلام في وجه ذلك، والاستجابة : الطاعة. قال أبو عبيدة معنى استجيبوا : أجيبوا، وان كان استجاب يتعدّى باللام، وأجاب بنفسه كما في قوله – ياقومنا أجيبوا داعي الله –، وقد يتعدّى استجاب بنفسه كما في قول الشاعر :

وداع دعا يامن يجيب الى الندى * فلم يستجبه عند ذاك مجيب

(اذا دعاكم لما يحييكم) اللام متعلقة بقوله (استجيبوا) أي استجيبوا لما يحييكم اذا دعاكم، ولا مانع من أن تكون متعلقة بدعا : أي اذا دعاكم الى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة، فان العلم حياة كما أن الجهل موت، فالحياة هنا مستعارة للعلم. قال الجمهور من المفسرين المعنى : استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية، وقيل المراد بقوله (لما يحييكم) الجهاد فانه سبب الحياة في الظاهر، لأن العدوّ اذا لم يغز غزا : ويستدلّ بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم اذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر الى العمل به كائنا ما كان ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال * وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائنا ما كان * قوله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قيل معناه : بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم، وقيل معناه : انه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدوّ، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا، ويبدل عدوّهم من الأمن خوفا، وقيل هو من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله – ونحن أقرب إليه من حبل الوريد – ومعناه أنه مطلع على ضمائر القلوب لاتخفى عليه منها خافية، واختار ابن جرير أن هذا من باب الاخبار من الله عزّ وجلّ بأنه أملك لقلوب عباده منهم وأنه يحول بينهم وبينها اذا شاء حتى لايدرك الانسان شيئا إلا بمشيئته عزّ وجلّ، ولا يخفاك أنه لامانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني (وأنه إليه تحشرون) معطوف على (ان الله يحول بين المرء وقلبه) وأنكم محشورون اليه وهو مجازيكم بالخير خيرا، وبالشرّ شرا. قال الفراء ولو استأنفت فكسرت همزة (انه) لكان صوابا، ولعلّ مراده أن مثل هذا جائز في العربية * قوله (واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة) أي اتقوا فتنة تتعدّى الظالم فتصيب الصالح والطالح، ولا تختص اصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

وقد اختلف النحاة في دخول هذه النون المؤكدة في (تصيبنّ) فقال الفراء هو بمنزلة قولك : انزل

عن الدابة لا تطرحنك فهو جواب الأمر بلفظ النهي : أى ان تنزل عنها لا تطرحنك ، ومثله قوله تعالى ـ ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده ـ أى ان تدخلوا لايحطمنكم ، فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء . وقال المبرد انه نهي بعد أمر ، والمعنى : النهي للظالمين : أى لايقربن الظلم ، ومثله ماروى عن سيبويه لاأرينك هاهنا ، فان معناه لاتكن هاهنا ، فان من كان هاهنا رأيته . وقال الجرجاني ان لاتصيبن نهي فى موضع وصف لفتنة ، وقرأ على وزيد بن ثابت وأبي وابن مسعود (لتصيبن) على ان اللام جواب لقسم محذوف ، والتقدير اتقوا فتنة والله لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فيكون معنى هذه القراءة مخالفا لمعنى قراءة الجماعة ، لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة بخلاف قراءة الجماعة (واعلموا أن الله شديد العقاب) ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه ، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لايصاب أحد الابذنبه ، ولايعذب الابجنايته ، فيمكن حمل مافى هذه الآية على العقوبات التى تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض ، ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة ، والله أعلم ، ويمكن أن يقال ان الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فتكون الاصابة المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك مايجب عليه عند ظهور الظلم .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (اذا دعاكم لما يحييكم) قال للحق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية : قال هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة فى الدنيا والآخرة . وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله (اذا دعاكم لما يحييكم) أى للحرب التى أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم ، وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبي سعيد بن المعلى : قال «كنت أصلي فى المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ثم أتيته فقلت يارسول الله انى كنت أصلي ، فقال : ألم يقل الله تعالى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم» . الحديث ، وفيه دليل على ماذكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أومن رسوله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قال يحول بين المؤمن و بين الكفر ومعاصي الله ، ويحول بين الكافر و بين الايمان وطاعة الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس فى الآية قال علمه يحول بين المرء وقلبه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لايعقل . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال فى القرب منه . وأخرج أحمد والبزار وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف : قال قلت للزبير ياأبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه . قال الزبير إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن : قال قرأ الزبير (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال البلاء والأمر الذى هو كائن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى الآية : قال نزلت فى علي وعثمان وطلحة والزبير . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال نزلت فى أصحاب النبي ﷺ خاصة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي : قال نزلت فى أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا ، فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي فى الآية : قال تصيب الظالم والصالح عامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية : قال هى مثل (يحول بين المرء وقلبه) حتى يتركه لايعقل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر

وابن

VIII



وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : أمر الله المؤمنين أن لايقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب . وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة اذا لم يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر عمهم الله بعذاب من عنده .

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ *

الخطاب بقوله (واذكروا اذ أنتم قليل) للمهاجرين : أى اذكروا وقت قلتكم ، و (مستضعفون) خبر ثان للمبتدأ ، والأرض : هى أرض مكة ، والخطف : الأخذ بسرعة ، والمراد بالناس : مشركو قريش ، وقيل فارس والروم (فآواكم) يقال آوى اليه بالمد و بالقصر بمعنى : انضم اليه ، فالمعنى : ضمكم الله الى المدينة أو الى الانصار (وأيدكم بنصره) أى قوّاكم بالنصر فى مواطن الحرب التى منها يوم بدر ، أوقوّاكم بالملائكة يوم بدر (ورزقكم من الطيبات) التى من جملتها الغنائم (لعلكم تشكرون) أى ارادة أن تشكروا هذه النعم التى أنعم بها عليكم ، والخون أصله كما فى الكشاف : النقص كما أن الوفاء التمام ، ثم استعمل فى ضدّ الأمانة والوفاء ، لأنك اذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان ، وقيل معناه : الغدر واخفاء الشىء ، ومنه قوله تعالى ــ يعلم خائنة الأعين ــ نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شىء مما افترضه عليهم ، أو يخونوا رسوله بترك شىء مما أمنهم عليه ، أو بترك شىء مما سنه لهم ، أو يخونوا شيئا من الأمانات التى اؤتمنوا عليها ، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق ، مأخوذة من الأمن ، وجملة (وأنتم تعلمون) فى محل نصب على الحال : أى وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد ، أو وأنتم من أهل العلم لامن أهل الجهل ، ثم قال (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) لأنهم سبب الوقوع فى كثير من الذنوب فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده ، وان كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما فى الآية الأخرى (وأن الله عنده أجر عظيم) فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ماعنده من الأجر المذكور .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (واذكروا اذ أنتم قليل) قال : كان هذا الحىّ من العرب أذلّ الناس ذلا ، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالة ، من عاش عاش شقيا ، ومن مات منهم ردّى فى النار يؤكلون ولا يأكلون لاوالله مانعلم قبيلا من حاضرى الأرض يومئذ كان أشرّ منزلا منهم حتى جاء الله بالاسلام ، فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس ، و بالاسلام أعطى الله مارأيتم فاشكروا الله نعمه ، فان ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر فى مزيد من الله عزّ وجلّ . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (يتخطفكم الناس) قال : فى الجاهلية بمكة (فآواكم) الى الاسلام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب فى قوله (يتخطفكم الناس) قال : الناس اذ ذاك فارس والروم . وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فى قوله (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس) قيل يارسول الله ومن الناس ؟ قال أهل فارس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدّي في قوله (فآواكم) قال : الى الأنصار بالمدينة (وأيدكم بنصره) قال : يوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبي ﷺ فقال ان أباسفيان بمكان كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ ان أباسفيان في مكان كذا وكذا فاخرجوا اليه واكتموا ، فكتب رجل من المنافقين الى أبي سفيان ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم ، فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول) الآية . وأخرج سعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبدالله بن أبي قتادة قال : نزلت هذه الآية (لاتخونوا الله والرسول) في أبي لبابة بن عبد المنذر سألوه يوم قريظة ماهذا الأمر ، فأشار الى حلقه انه الذبح فنزلت . قال أبو لبابة : مازالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله . وأخرج سنيد وابن جرير عن الزهري نحوه بأطول منه . وأخرج عبد بن حميد عن الكلبي أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة الى قريظة وكان حليفا لهم ، فأومأ بيده أنه الذبح فنزلت . وأخرج أبو الشيخ عن السدّي في هذه الآية أنها نزلت في أبي لبابة ونسختها الآية التي في براءة ـ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ـ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لاتخونوا الله) قال بترك فرائضه (والرسول) بترك سنته وارتكاب معصيته (وتخونوا أماناتكم) يقول لاتنقصوها ، والأمانة : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد . وأخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان ، ولعل مراده أن من جملة مايدخل تحت عمومها قتل عثمان . وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبي حبيب في الآية قال : هو الاخلال بالسلاح في المغازي ولعل مراده أن هذا مما يندرج تحت عمومها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : مامنكم من أحد الا وهو يشتمل على فتنة ، لأن الله يقول (انما أموالكم وأولادكم فتنة) فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن . وأخرج هؤلاء عن ابن زيد في الآية قال : فتنة الاختبار اختبرهم وقرأ ـ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ـ .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

جعل سبحانه التقوى شرطا في الجعل المذكور مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لايتقون جريا على مايخاطب به الناس بعضهم بعضا ، والتقوى : اتقاء مخالفة أوامره والوقوع في مناهيه ، والفرقان مايفرق به بين الحق والباطل ، والمعنى أنه يجعل لهم من ثبات القلوب ، وثقوب البصائر ، وحسن الهداية مايفرقون به بينهما عند الالتباس ، وقيل الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل مايخافونه ، ومنه قول الشاعر :

مالك من طول الأسى فرقان * بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر :

وكيف أرجي الخلد والموت طالبي * ومالي من كأس المنية فرقان

وقال الفراء : المراد بالفرقان الفتح والنصر . قال ابن اسحق : الفرقان الفصل بين الحق والباطل ، وبمثله قال ابن زيد وقال السدّي : الفرقان النجاة ، ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى ـ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ـ وبه قال مجاهد ومالك بن أنس (ويكفر عنكم سيئاتكم) أي يسترها حتى تكون غير ظاهرة (ويغفر لكم) ما اقترفتم من الذنوب ، وقد قيل ان المراد بالسيئات : الصغائر ، وبالذنوب التي

VIII. 15-13



تغفر الكبائر ، وقيل المعنى أنه يغفر لهم ماتقدم من الذنوب وماتأخر (والله ذو الفضل العظيم) فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (يجعل لكم فرقانا) قال : هو المخرج . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو النجاة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : هو النصر .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ *

قوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا) الظرف معمول لفعل محذوف : أي واذكر يامحمد وقت مكر الكافرين بك أو معطوف على ماتقدم من قوله : واذكروا ، ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التي أنعم بها عليه : وهي نجاته من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتي بيانه (ليثبتوك) أي يثبتوك بالجراحات كما قال ثعلب وأبو حاتم وغيرهما ، ومنه قول الشاعر :

فقلت ويحكم مافي صحيفتكم * قالوا الخليفة أمسى مثبتا وجعا

وقيل المعنى ليحبسوك ، يقال أثبته اذا حبسه ، وقيل ليوثقوك ، ومنه فشدوا الوثاق . وقرأ الشعبي (ليبيتوك) من البيات . وقرئ ليثبتوك بالتشديد (أو يخرجوك) معطوف على ماقبله : أي يخرجوك من مكة التي هي بلدك وبلد أهلك ، وجملة (ويمكرون ويمكر الله) مستأنفة ، والمكر : التدبير في الأمر في خفية ، والمعنى أنهم يخفون مايعدونه لرسول الله ﷺ من المكايد فيجازيهم الله على ذلك ويرد كيدهم في نحورهم ، وسمى مايقع منه تعالى مكرا مشاكلة كما في نظائره (والله خير الماكرين) أي المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لايشعرون ، فيكون ذلك أشد ضررا عليهم وأعظم بلاء من مكرهم * قوله (واذا تتلى عليهم آياتنا) أي التي تأتيهم بها وتتلوها عليهم (قالوا) تعنتا وتمردا وبعدا عن الحق (قد سمعنا) ماتتلوه علينا (لو نشاء لقلنا مثل هذا) الذي تلوته علينا ، قيل انهم قالوا هذا توهما منهم أنهم يقدرون على ذلك ، فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه ، ثم قالوا عنادا وتمردا (ان هذا الا أساطير الأولين) أي مايسطره الوراقون من أخبار الأولين ، وقد تقدم بيانه مستوفى (واذ قالوا) أي واذكر اذ قالوا (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك) بنصب الحق على أنه خبر كان ، والضمير للفصل ، ويجوز الرفع . قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بها ولا اختلاف بين النحويين في اجازتها ، ولكن القراءة سنة ، والمعنى : ان كان القرآن الذي جاءنا به محمد هو الحق (فأمطر علينا) قالوا هذه المقالة مبالغة في الجحود والانكار . قال أبو عبيدة : يقال أمطر في العذاب ، ومطر في الرحمة . وقال في الكشاف : قد كثر الامطار في معنى العذاب (أو ائتنا بعذاب أليم) سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد ، فأجاب الله عليهم بقوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت) يامحمد (فيهم) موجود فانك مادمت فيهم فهم في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) روى أنهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك : أي وما كان الله معذبهم

فى حال كونهم يستغفرونه ، وقيل المعنى لو كانوا ممن يؤمن بالله و يستغفره لم يعذبهم ، وقيل ان الاستغفار راجع الى المسلمين الذين هم بين أظهرهم : أى وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر ومابعده ، وقيل المعنى وما كان الله معذبهم وفى أصلابهم من يستغفر الله .

وقد أخرج عبدالرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وأبوالشيخ وابن مردويه وأبونعيم فى الدلائل والخطيب عن ابن عباس فى قوله (واذ يمكر بك الذين كفروا) قال : تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم اذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم بل أخرجوه فأطلع الله نبيه على ذلك ، فبات علىّ على فراش النبى ﷺ حتى لحق بالغار ، فلما أصبحوا ثاروا اليه ، فلما رأوه عليا ردّ الله مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ فقال لاأدرى فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل فمرّوا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس فذكر القصة بأطول مما هنا ، وفيها ذكر الشيخ النجدى : أى ابليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم فى دار الندوة للمشاورة فى أمر النبى ﷺ وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما و يعطوا كل واحد منهم سيفا ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فاذا قتلوه تفرّق دمه فى القبائل ، فقال الشيخ النجدى هذا والله هو الرأى : فتفرقوا على ذلك . وأخرج سعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن عبيد بن عمير قال : لما ائتمروا بالنبى ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه قال له عمه أبوطالب : هل تدرى ماائتمروا بك ؟ قال « يريدون أن يسجنونى أو يقتلونى أو يخرجونى ، قال من حدّثك بهذا ؟ قال : ربى ، قال : نعم الرب ربك استوص به خيرا ، قال أنا أستوصى به ؟ بل هو يستوصى بى » ، وأخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه ، وهذا لايصح ، فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (واذ يمكر بك الذين كفروا) قال : قال عكرمة هى مكية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن عطاء فى قوله (ليثبتوك) يعنى ليوثقوك . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : قتل النبى ﷺ يوم بدر صبرا عقبة بن أبى معيط وطعيمة بن عدىّ والنضر بن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يارسول الله أسيرى ، فقال رسول الله ﷺ انه كان يقول فى كتاب الله مايقول ، قال وفيه أنزلت هذه الآية (واذا تتلى عليهم آياتنا) وهذا مرسل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى أنها نزلت فى النضر بن الحارث . وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أنس بن مالك قال : قال أبوجهل بن هشام (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك) الآية فنزلت (وما كان الله ليعذبهم) الآية . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنها نزلت فى أبى جهل وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية أنها نزلت فى النضر بن الحارث . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وأبوالشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : كان المشركون يطوفون بالبيت و يقولون لبيك اللهم لبيك لاشريك لك الاشريك هولك تملكه وماملك ، و يقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم) الآية . قال ابن عباس ، كان فيهم أمانان : النبى ﷺ والاستغفار ، فذهب النبىّ ﷺ و بقى الاستغفار . وأخرج الترمذى وضعفه عن أبى موسى الأشعرى قال : قال النبى ﷺ

«أنزل الله على أمانين لأمتى (وما كان الله ليعذبهم) الآية ، فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار» . وأخرج أبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى هريرة قال : كان فيكم أمانان مضى أحدهما ، وبقى الآخر قال (وما كان الله ليعذبهم) الآية . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه والحاكم وابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى نحوه أيضا ، والأحاديث عن رسول الله ﷺ فى مطلق الاستغفار كثيرة جدا معروفة فى كتب الحديث .

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *

قوله (وما لهم ألا يعذبهم الله) لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدمان : وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم ، ووقوع الاستغفار ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار ، أعنى كفار مكة مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح * والمعنى : أى شىء لهم يمنع من تعذيبهم ؟ قال الأخفش ان أن زائدة . قال النحاس لو كان كما قال لرفع يعذبهم ، وجملة (وهم يصدون عن المسجد الحرام) فى محل نصب على الحال : أى وما يمنع من تعذيبهم ؟ والحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت ، وجملة (وما كانوا أولياءه) فى محل نصب على أنها حال من فاعل (يصدون) ، وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاة البيت ، وأن أمره مفوض إليهم ، ثم قال مبينا لمن له ذلك (ان أولياؤه إلا المتقون) أى ما أولياؤه إلا من كان فى عداد المتقين للشرك والمعاصى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك ، والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون * قوله (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) المكاء : الصفير من مكا يمكو مكاء ، ومنه قول عنترة :

وخليل غانية تركت مجدلا * تمكو فريصته كشدق الأعلم

أى تصوت ، ومنه مكت است الدابة : اذا نفخت بالريح ، قيل المكاء : هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء . قال الشاعر :

اذا غرد المكاء فى غير دوحة * فويل لأهل الشاء والحمرات

والتصدية : التصفيق ، يقال صدى يصدى تصدية : اذا صفق ، ومنه قول عمر بن الاطنابة :

وظلوا جميعا لهم ضجة * مكاء لدى البيت بالتصديه

أى بالتصفيق ، وقيل المكاء : الضرب بالأيدى ، والتصدية : الصياح ، وقيل المكاء : إدخالهم أصابعهم فى أفواههم ، والتصدية : الصفير ، وقيل التصدية : صدهم عن البيت ، قيل والأصل على هذا تصددة فأبدل من إحدى الدالين ياء * ومعنى الآية : أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذى هو موضع للصلاة

والعبادة فوضعوا ذلك موضع الصلاة قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة ، وقرئ بنصب صلاتهم على أنها خبر كان ، وما بعده اسمها * قوله (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) هذا التفات الى مخاطبة الكفار تهديدا لهم ومبالغة فى ادخال الروعة فى قلوبهم ، والمراد به : عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة * قوله (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة فى الطاعات البدنية أتبعها شرح أحوالهم فى الطاعات المالية * والمعنى : أن غرض هؤلاء الكفار فى إنفاق أموالهم هو الصدّ عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك ، وانفاق أموالهم عليها وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الأحزاب ، فان الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ، ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الاعجاز فقال (فسينفقونها) أى سيقع منهم هذا الانفاق (ثم تكون) عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم ، كأن ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندما ، (ثم) آخر الأمر (يغلبون) كما وعد الله به فى مثل قوله ــ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى ــ * ومعنى (ثم) فى الموضعين إما التراخى فى الزمان لما بين الانفاق المذكور و بين ظهور دولة الاسلام من الامتداد ، و إما التراخى فى الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة ، ثم قال (والذين كفروا الى جهنم يحشرون) أى استمرّوا على الكفر ، لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم وحسن إسلامه : أى يساقون اليها لا الى غيرها ، ثم بين العلة التى لأجلها فعل بهم ما فعله فقال (ليميز الله الخبيث) أى الفريق الخبيث من الكفار (من) الفريق (الطيب) وهم المؤمنون (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) أى يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض (فيركمه جميعا) عبارة عن الجمع والضم : أى يجمع بعضهم الى بعض ، و يضمّ بعضهم الى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم ، يقال ركم الشىء يركمه : اذا جمعه وألقى بعضه على بعض ، والاشارة بقوله (أولئك) الى الفريق الخبيث (هم الخاسرون) أى الكاملون فى الخسران ، وقيل الخبيث والطيب : صفة للمال ، والتقدير ليميز المال الخبيث الذى أنفقه المشركون من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون فيضمّ تلك الأموال الخبيثة بعضها الى بعض فيلقيه فى جهنم و يعذبهم بها كما فى قوله تعالى ــ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ــ . قال فى الكشاف ، واللام على هذا متعلقة بقوله (ثم تكون عليهم حسرة) ، وعلى الأول بيحشرون ، و (أولئك) اشارة الى الذين كفروا انتهى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ثم استثنى أهل الشرك فقال (وما لهم ألا يعذبهم الله) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى قوله (وما لهم ألا يعذبهم الله) قال عذابهم فتح مكة . وأخرج ابن اسحق وأبو حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير (وما لهم ألا يعذبهم الله) وهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسله . وأخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله (وهم يصدّون عن المسجد الحرام) أى من آمن بالله وعبده ، أنت ومن اتبعك (وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون) الذين يخرجون منه و يقيمون الصلاة عنده : أى أنت ومن آمن بك . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ان أولياؤه إلا المتقون) قال من كانوا حيث كانوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد ابن جبير : قال كانت قريش يعارضون النبىّ ﷺ فى الطواف و يستهزئون و يصفرون و يصفقون ، فنزلت (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء عن ابن عباس : قال كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق ، فأنزل الله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال والمكاء : الصفير إنما شبهوا بصفير الطير ، وتصدية : التصفيق

وأنزل

وأنزل الله فيهم ـ قل من حرّم زينة الله ـ الآية . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر : قال المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : قال المكاء : إدخال أصابعهم في أفواههم ، والتصدية : الصفير ، يخلطون بذلك كله على محمد ﷺ صلاته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي : قال المكاء : الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء يكون بأرض الحجاز ، والتصدية : التصفيق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله (الامكاء) قال كانوا يشبكون أصابعهم و يصفرون فيهنّ (وتصدية) قال صدّهم الناس . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة : قال كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال ، وهو قوله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) فالمكاء مثل نفخ البوق ، والتصدية : طوافهم على الشمال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) قال يعني أهل بدر عذبهم الله بالقتل والأسر . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه : قال حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم الى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم فكلموا أباسفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا يامعشر قريش ان محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينوا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثأرا ، ففعلوا ، ففيهم كما ذكر ابن عباس أنزل الله (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) الى (والذين كفروا الى جهنم يحشرون) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج هؤلاء وغيرهم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحكم بن عتيبة في الآية قال : نزلت في أبي سفيان أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالا من ذهب . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن شمر بن عطية في قوله (ليميز الله الخبيث من الطيب) قال يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا ، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى في جهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (فيركمه جميعا) قال يجمعه جميعا .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ *

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما قال الكسائي انه في مصحف عبد الله بن مسعود (قل للذين كفروا ان تنتهوا) يعني بالتاء المثناة من فوق لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها . وقال في الكشاف : أي قل لأجلهم هذا القول ، وهو (ان ينتهوا) ولو كان بمعنى خاطبهم لقيل ان تنتهوا يغفر لكم وهي قراءة ابن مسعود ، ونحوه

ـ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه ـ خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه : أى ان ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول فى الاسلام (يغفر لهم ماقد سلف) لهم من العداوة انتهى ، وقيل معناه : ان ينتهوا عن الكفر . قال ابن عطية : والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم ماقد سلف ، ومغفرة ماقد سلف لاتكون الا لمنته عن الكفر * وفى هذه الآية دليل على أن الاسلام يجب ماقبله (وان يعودوا) الى القتال والعداوة أو الى الكفر الذى هم عليه ويكون العود بمعنى الاستمرار (فقد مضت سنة الأولين) هذه العبارة مشتملة على الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله : أى قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب فليتوقعوا مثل ذلك (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) أى كفر ، وقد تقدم تفسير هذا فى البقرة مستوفى (فان انتهوا) عما ذكر (فان الله بما يعملون بصير) لايخفى عليه ماوقع منهم من الانتهاء (وان تولوا) عما أمروا به من الانتهاء (فاعلموا) أيها المؤمنون (أن الله مولاكم) أى ناصركم عليهم (نعم المولى ونعم النصير) فمن والاه فاز ، ومن نصره غلب .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (فقد مضت سنة الأولين) قال : فى قريش وغيرها يوم بدر ، والأمم قبل ذلك . وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو ابن العاص قال : لما جعل الله الاسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت ابسط يدك فلأبايعك ، فبسط يمينه فقبضت يدى ، قال مالك ؟ قلت أردت أن أشترط ، قال تشترط ماذا ؟ قلت أن تستغفر لى ، قال أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ، وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « الاسلام يجب ماقبله والتوبة تجب ماقبلها » وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى (فقد مضت سنة الأولين) بما مضى فى الأمم المتقدمة من عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر ، وقال السدى ومحمد بن اسحق : المراد بالآية يوم بدر ، وفسر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا بالكفر ، وقال محمد بن اسحق : بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لاتكون فتنة) حتى لايفتن مسلم عن دينه .

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا * لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ *

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة ذكر حكم الغنيمة ، والغنيمة قد قدمنا أن أصلها اصابة الغنم من العدو ، ثم استعملت فى كل يصاب منهم وقد تستعمل فى كل ماينال بسعى ، ومنه قول الشاعر :

وقد طوفت فى الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالاياب

ومثله قول الآخر :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه * أنى توجه والمحروم محروم

وأما معنى الغنيمة فى الشرع ، فحكى القرطبى الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء) مال الكفار اذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر . قال : ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع ، وقد ادّعى ابن عبد البر الاجماع على أن هـذه الآية بعد قوله ـ يسألونك عن الأنفال ـ وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين ، وان قوله ـ يسألونك عن الأنفال ـ نزلت حين تشاجر أهل بدر فى غنائم بدر على ما تقدّم أوّل السورة ، وقيل انها أعنى قوله ـ يسألونك عن الأنفال ـ محكمة غير منسوخة ، وان الغنيمة لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغانمين وكذلك لمن بعده من الأئمة ، حكاه الماوردى عن كثير من المالكية ، قالوا وللامام أن يخرجها عنهم ، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين ، وكان أبو عبيدة يقول : افتتح رسول الله ﷺ مكة عنوة ومنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئا ، وقد حكى الاجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين ، وممن حكى ذلك ابن المنذر وابن عبد البر والداودى والمازرى والقاضى عياض وابن العربى والأحاديث الواردة فى قسمة الغنيمة بين الغانمين وكيفيتها كثيرة جدّا . قال القرطبى : ولم يقل أحد فيما أعلم ان قوله تعالى ـ يسألونك عن الأنفال ـ الآية ناسخ لقوله (واعلموا أنما غنمتم من شىء) الآية ، بل قال الجمهور ان قوله (واعلموا أنما غنمتم من شىء) ناسخ ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله ، وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها ، قال وأما قصة حنين فقد عوّض الأنصار لما قالوا تعطى الغنائم قريشا وتتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه ، فقال لهم أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ الى بيوتكم كما فى مسلم وغيره ، وليس لغيره أن يقول هـذا القول ، بل ذلك خاص به * قوله (أنما غنمتم من شىء) يشمل كل شىء يصدق عليه اسم الغنيمة و(من شىء) بيان لما الموصولة ، وقد خصص الاجماع من عموم الآية الأسارى ، فان الخيرة فيها الى الامام بلا خلاف ، وكذلك سلب المقتول اذا نادى به الامام ، قيل وكذلك الأرض المغنومة ، وردّ بأنه لا اجماع على الارض * قوله (فأن لله خمسه) قرأ النخعى (فان لله) بكسر ان . وقرأ الباقون بفتحها على أن أنّ وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف ، والتقدير فحق أو فواجب أن لله خمسه .

وقد اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة : الأوّل قالت طائفة يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة ، وهو الذى لله ، والثانى لرسول الله ، والثالث لذوى القربى ، والرابع لليتامى ، والخامس للمساكين ، والسادس لابن السبيل * القول الثانى قاله أبو العالية والربيع : انها تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ويقسم أربعة على الغانمين ، ثم يضرب يده فى السهم الذى عزله فما قبضه من شىء جعله للكعبة ثم يقسم بقية السهم الذى عزله على خمسة للرسول ومن بعده فى الآية * القول الثالث روى عن زين العابدين على بن الحسين أنه قال : ان الخمس لنا فقيل له ان الله يقول (واليتامى والمساكين وابن السبيل) فقال يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا * القول الرابع قول الشافعى : ان الخمس يقسم على خمسة وان سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة فى الآية * القول الخامس قول أبى حنيفة : انه يقسم الخمس على ثلاثة لليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما ارتفع حكم سهمه ، قال ويبدأ من الخمس باصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند ، وروى نحو هذا عن الشافعى * القول السادس قول مالك انه موكول الى نظر الامام واجتهاده فيأخذ منه بغير تقدير ويعطى منه الغزاة باجتهاد ، ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين قال القرطبى : وبه قال الخلفاء الأربعة ، وبه عملوا ، وعليه يدل قوله ﷺ « مالى مما أفاء الله عليكم الا

الخمس ، والخمس مردود عليكم » فانه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا ، وانما ذكر ما فى الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم ، لأنهم من أهمّ من يدفع اليه . قال الزجاج : محتجا لهذا القول ، قال الله تعالى ـ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ـ وجائز باجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف اذا رأى ذلك ٭ قوله (ولذى القربى) قيل إعادة اللام فى ذى القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى ﷺ .

وقد اختلف العلماء فى القربى على أقوال ، الأول أنهم قريش كلها ، روى ذلك عن بعض السلف ، واستدلّ بما روى عن النبى ﷺ انه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا يابنى فلان ، يابنى فلان . وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد هم بنو هاشم و بنو المطلب لقوله ﷺ «انما بنو هاشم و بنو المطلب شىء واحد وشبك بين أصابعه» وهو فى الصحيح . وقيل هم بنو هاشم خاصة ، و به قال مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم ، وهو مروى عن على بن الحسين ومجاهد ٭ قوله ( ان كنتم آمنتم بالله) قال الزجاج عن فرقة ان المعنى : فاعلموا أن الله مولاكم ان كنتم آمنتم بالله ، وقالت فرقة أخرى ان (إن) متعلقة بقوله (واعلموا أنما غنمتم) قال ابن عطية وهذا هو الصحيح لأن قوله (واعلموا) يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله فى الغنائم فعلق إن بقوله (واعلموا) على هذا المعنى : أى ان كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة ، وقال فى الكشاف انه متعلق بمحذوف يدلّ عليه (واعلموا) بمعنى ان كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنّ الخمس من الغنيمة يجب التقرّب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم ، واقتنعوا بالأخماس الأربعة ، وليس المراد بالعلم المجرد ، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله ، لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر انتهى ٭ قوله (وما أنزلنا على عبدنا ) معطوف على الاسم الجليل : أى ان كنتم آمنتم بالله و بما أنزلنا ، و (يوم الفرقان) يوم بدر ، لأنه فرق بين أهل الحق ، وأهل الباطل ، والجمعان : الفريقان من المسلمين والكافرين (والله على كل شىء قدير) ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقلّ على الفريق الأكثر ٭ قوله ( اذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ) قرأ ابن كثير وأبو عمرو و يعقوب بكسر العين فى العدوة فى الموضعين ، وقرأ الباقون بالضم فيهما ، واذ بدل من يوم الفرقان ، ويجوز أن يكون العامل محذوفا : أى واذكروا اذ أنتم ، والعدوة : جانب الوادى ، والدنيا : تأنيث الأدنى ، والقصوى : تأنيث الأقصى ، من دنا يدنو ، وقصا يقصو ، ويقال القصيا . والأصل الواو ، وهى لغة أهل الحجاز ، والعدوة الدنيا كانت مما يلى المدينة ، والقصوى كانت مما يلى مكة ٭ والمعنى : وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادى الى جهة المدينة ، وعدوّكم بالجانب الأقصى منه مما يلى مكة ، وجملة (والركب أسفل منكم) فى محل نصب على الحال ، وانتصاب (أسفل) على الظرف ، ومحله الرفع على الخبرية : أى والحال أنّ الركب فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه ، وأجاز الأخفش والكسائى والفراء رفع أسفل على معنى أشدّ سفلا منكم ، والركب : جمع راكب ، ولا تقول العرب ركب إلا للجماعة الراكبى الابل ولا يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب ، وكذا قال ابن فارس ، وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة ، والمراد بالركب هاهنا ركب أبى سفيان ، وهى المراد بالعير ، فانهم كانوا فى موضع أسفل منهم مما يلى ساحل البحر ، قيل وفائدة ذكر هذه الحالة التى كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا ، وعدوّهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم الدلالة على قوة شأن العدوّ وشوكته ، وذلك لأن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضا لابأس بها ، وأما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها

الأقدام

الأقدام ولا ماء بها ، وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم ، فامتن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه * قوله (ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد) أى لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا فى هذا الموضع للقتال لخالف بعضكم بعضا ، فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد وثبطهم مافى قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ (ولكن) جمع الله بينكم فى هذا الموطن (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر ، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم ، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها . ولم يكن فى حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة ، واللام فى ليقضى متعلقة بمحذوف ، والتقدير جمعهم ليقضى ، وجملة (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى) بدل من الجملة التى قبلها : أى ليموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة لئلا يبقى لأحد على الله حجة ، وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر والاسلام : أى ليصدر اسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه دين الحق ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة ، قرأ نافع وخلف وسهل ويعقوب والبزى وأبو بكر (من حيى) بياءين على الأصل ، وقرأ الباقون بياء واحدة على الادغام ، وهى اختيار أبى عبيد ، لأنها كذلك وقعت فى المصحف (وان الله لسميع عليم) أى سميع بكفر الكافرين عليم به ، وسميع بإيمان المؤمنين عليم به .

وقد أخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : ثم وضع مقاسم الفىء ، فقال (واعلموا أنما غنمتم من شىء) بعد الذى كان مضى من بدر (فأن لله خمسه) إلى آخر الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن قيس بن مسلم الجدلى : قال سألت الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب ابن الحنفية عن قول الله (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه) قال : هذا مفتاح كلام ، لله الدنيا والآخرة (وللرسول ولذى القربى) فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ فى هذين السهمين . قال قائل منهم سهم ذى القربى لقرابة رسول الله ﷺ ، وقال قائل منهم سهم ذى القربى لقرابة الخليفة ، وقال قائل منهم سهم النبى ﷺ للخليفة من بعده ، واجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله فكان ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر . وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك فى خمسه ، ثم قرأ (واعلموا أنما غنمتم) الآية ، قال قوله (فأن لله خمسه) مفتاح كلام ، لله مافى السموات ومافى الأرض ، فجعل الله سهم الله والرسول واحدا ولذى القربى فجعل هذين السهمين قوة فى الخيل والسلاح ، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم ، وجعل الأربعة الأسهم الباقية للفرس سهما ولراكبه سهما وللراجل سهما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس فأربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس فربع لله وللرسول ولذى القربى ، يعنى قرابة رسول الله ﷺ فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبى ﷺ ولم يأخذ النبى ﷺ من الخمس شيئا ، والربع الثانى لليتامى ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل وهو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (واعلموا أنما غنمتم من شىء) الآية : قال كان يجاء بالغنيمة فتوضع فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم فيعزل سهما منها ويقسم أربعة أسهم بين الناس ، يعنى لمن شهد الوقعة ثم يضرب بيده فى جميع السهم الذى عزله فما قبض عليه من شىء جعله للكعبة فهو الذى سمى الله لا تجعلوا لله نصيبا فأن لله الدنيا والآخرة ، ثم يعمد إلى

بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم ، سهم للنبي ﷺ ، وسهم لذى القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يجعل سهم الله فى السلاح والكراع ، وفى سبيل الله وفى كسوة الكعبة وطيبها وماتحتاج إليه الكعبة ، ويجعل سهم الرسول فى الكراع والسلاح ونفقة أهله ، وسهم ذى القربى لقرابته يضعه رسول الله ﷺ فيهم مع سهمهم مع الناس ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله فيمن شاء حيث شاء ليس لبنى عبد المطلب فى هذه الثلاثة الأسهم ولرسول الله ﷺ سهم مع سهام الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن حسين المعلم قال : سألت عبد الله بن بريدة عن قوله (فأن لله خمسه وللرسول) فقال : الذى لله لنبيه ، والذى للرسول لأزواجه . وأخرج الشافعى وعبدالرزاق وابن أبى شيبة ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن نجدة كتب إليه يسأله عن ذوى القربى الذين ذكر الله فكتب إليه انا كنا نرى أناهم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا قريش كلها ذوو قربى ، وزيادة قوله وقالوا قريش كلها تفرد بها أبو معشر ، وفيه ضعف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس أن نجدة الحرورى أرسل اليه يسأله عن سهم ذى القربى ، ويقول لمن تراه ؟ فقال ابن عباس هو لقربى رسول الله ﷺ قسمه لهم رسول الله ﷺ ، وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليهم وأبينا أن نقبله وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم وأن يقضى عن غارمهم وأن يعطى فقيرهم وأبى أن يزيدهم على ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : قال رغبت لكم عن غسالة الأيدى ، لأن لكم فى خمس الخمس مايكفيكم أو يغنيكم . رواه ابن أبى حاتم عن ابراهيم بن مهدى المصيصى حدثنا المعتمر ابن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عنه مرفوعا . قال ابن كثير هذا حديث حسن الاسناد وابراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم . وقال يحيى بن معين يأتى بمناكير . وأخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن الزهرى وعبد الله بن أبى بكر عن جبير بن مطعم أن النبىّ ﷺ قسم سهم ذوى القربى من خيبر على بنى هاشم وبنى المطلب : قال فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه : فقلنا يارسول الله هؤلاء اخوانك من بنى هاشم لاننكر فضلهم لمكانك منهم أرأيت اخواننا من بنى المطلب أعطيتهم دوننا فانما نحن وهم بمنزلة واحدة فى النسب ؟ فقال انهم لم يفارقونا فى الجاهلية والاسلام . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه . وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال : آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل علىّ ، وآل العباس ، وآل جعفر ، وآل عقيل . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان للنبي ﷺ شىء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه ، إما خادم وإما فرس ، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه عن علىّ قال : قلت يارسول الله ألا وليتنى ماخصنا الله به من الخمس فولانيه . وأخرج الحاكم وصححه عنه قال : ولانى رسول الله ﷺ خمس الخمس فوضعته مواضعه حياة رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (يوم الفرقان) قال : هو يوم بدر ، وبدر مابين مكة والمدينة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (يوم الفرقان) قال : هو يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل . وأخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان ، وأخرجه عنه ابن جرير أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) قال : العدوة الدنيا شاطىء الوادى (والركب أسفل منكم) . قال أبو سفيان . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : العدوة الدنيا شفير الوادى الأدنى ، والعدوة القصوى شفير الوادى الأقصى .

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ *

اذ منصوب بفعل مقدّر : أى اذكر أوهو بدل ثان من يوم الفرقان * والمعنى : أن النبي ﷺ رآهم فى منامه قليلا فقصّ ذلك على أصحابه فكان ذلك سببا لثباتهم ، ولو رآهم فى منامه كثيرا لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا فى الأمر هل يلاقونهم أم لا ؟ ( ولكنّ الله سلّم ) أى سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم فى عين رسول الله ﷺ فى المنام ، وقيل عنى بالمنام محل النوم ، وهو العين : أى فى موضع منامك وهو عينك ، روى ذلك عن الحسن . قال الزجاج : هذا مذهب حسن ولكنّ الأوّل أسوغ فى العربية لقوله ( واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ) فدلّ بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء ، وأن تلك رؤية النوم * قوله ( واذ يريكموهم ) الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأوّل : أى واذكروا وقت أراءتكم إياهم حال كونهم قليلا ، حتى قال القائل من المسلمين لآخر أتراهم سبعين ؛ قال هم نحو المائة وقلل المسلمين فى أعين المشركين ، حتى قال قائلهم انما هم أكلة جزور ، وكان هذا قبل القتال فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين فى أعين المشركين ، كما قال فى آل عمران ـ يرونهم مثليهم رأى العين ـ ، ووجه تقليل المسلمين فى أعين المشركين هو أنهم اذا رأوهم قليلا أقدموا على القتال غير خائفين ثم يرونهم كثيرا فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه ، واللام فى ( ليقضى الله أمرا كان مفعولا ) متعلقة بمحذوف كما سبق فى مثله قريبا ، وانما كرره لاختلاف المعلل به ( وإلى الله ترجع الأمور ) كلها يفعل فيها مايريد ويقضى فى شأنها ما يشاء .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله ( إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ) قال : أراه الله إياهم فى منامه قليلا فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتا لهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله ( ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ) يقول لجبنتم ( ولتنازعتم فى الأمر ) قال لاختلفتم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ( ولكنّ الله سلّم ) أى أتمّ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ( ولكنّ الله سلّم ) يقول : سلّم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوّهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله ( وإذ يريكموهم ) الآية : قال لقد قلّلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل الى جنبى تراهم سبعين ؛ قال : لا بل هم مائة حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه ؟ قال كنا ألفا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية : قال حضض بعضهم على بعض . قال ابن كثير إسناده صحيح . وأخرج ابن اسحق عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى قوله ( ليقضى الله أمرا كان مفعولا ) أى ليلف بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والانعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا۟

كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

قوله (إذا لقيتم فئة) اللقاء الحرب ، والفئة الجماعة : أى اذا حاربتم جماعة من المشركين (فاثبتوا) لهم ولاتجبنوا عنهم ، وهذا لاينافى الرخصة المتقدمة فى قوله — إلامتحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة — فان الأمر بالثبات هو فى حال السعة ، والرخصة هى فى حال الضرورة . وقد لايحصل الثبات إلابالتحرف والتحيز (واذكروا الله) أى اذكروا الله عند جزع قلوبكم ، فان ذكره يعين على الثبات فى الشدائد ، وقيل المعنى اثبتوا بقلوبكم ، واذكروا بألسنتكم فان القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان ، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان ، قيل وينبغى أن يكون الذكر فى هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت — ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين — * وفى الآية دليل على مشروعية الذكر فى جميع الأحوال ، حتى فى هذه الحالة التى ترجف فيها القلوب وتزيغ عندها البصائر ، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم اليه ونهاهم عن التنازع ، وهو الاختلاف فى الرأى فان ذلك يتسبب عنه الفشل ، وهو الجبن فى الحرب ، والفاء جواب النهى والفعل منصوب باضمار أن ، ويجوز أن يكون الفعل معطوفا على تنازعوا مجزوما بجازمه * قوله (وتذهب ريحكم) قرئ بنصب الفعل ، وجزمه عطفا على تفشلوا على الوجهين ، والريح القوة والنصر ، كما يقال الريح لفلان اذا كان غالبا فى الأمر ، وقيل الريح الدولة شبهت فى نفوذ أمرها بالريح فى هبوبها ، ومنه قول الشاعر :

اذا هبت رياحك فاغتنمها * فعقبى كل خافقة سكون

وقيل المراد بالريح ريح الصبا لأن بها كان ينصر النبي ﷺ ، ثم أمرهم بالصبر على شدائد الحرب وأخبرهم بأنه مع الصابرين فى كل أمر ينبغى الصبر فيه ، ويا حبذا هذه المعية التى لايغلب من رزقها غالب ولايؤتى صاحبها من جهة من الجهات وان كانت كثيرة ، ثم نهاهم عن أن تكون حالهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس وهم قريش ، فانهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التى مع أبى سفيان ومعهم القيان والمعازف ، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت ، فلم يرجعوا بل قالوا لابد لهم من الوصول الى بدر ليشربوا الخمر وتغنى لهم القيان وتسمع العرب بمخرجهم ، فكان ذلك منهم بطرا وأشرا وطلبا للثناء من الناس والتمدح اليهم والفخر عندهم وهو الرياء ، قيل والبطر فى اللغة التقوى بنعم الله على معاصيه وهو مصدر فى موضع الحال : أى خرجوا بطرين مرائين ، وقيل هو مفعول له وكذا رياء : أى خرجوا للبطر والرياء * وقوله (ويصدون) معطوف على بطرا ، والمعنى كما تقدم : أى خرجوا بطرين مرائين صادين عن سبيل الله أو للصد عن سبيل الله ، والصد : اضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية . ويجوز أن يكون ويصدون معطوفا على يخرجون ، والمعنى يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد (والله بما يعملون محيط) لاتخفى عليه من أعمالهم خافية ، فهو مجازيهم عليها * قوله (واذ زين لهم الشيطان

أعمالهم)

أعمالهم ) الظرف متعلق بمحذوف : أى واذكر يامحمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم ، والتزيين : التحسين ، وقد روى أن الشيطان تمثل لهم وقال لهم تلك المقالة وهى (لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم) أى مجير لكم من كل عدوّ أومن بنى كنانة ، ومعنى الجار هنا : الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار ، وكان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، وهو من بنى بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم ، وقيل المعنى انه ألقى فى روعهم هذه المقالة ، وخيل اليهم أنهم لايغلبون ولا يطاقون (فلما تراءت الفئتان) أى فئة المسلمين والمشركين ( نكص على عقبيه) أى رجع القهقرى ، ومنه قول الشاعر :

ليس النكوص على الأعقاب مكرمة ✽ ان المكارم اقدام على الأمل

وقول الآخر :

وما نفع المستأخرين نكوصهم ✽ ولا ضرّ أهل السابقات التقدّم

وقيل معنى نكص هاهنا ، بطل كيده وذهب ماخيله (وقال انى برىء منكم) أى تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بامداد الله لهم بالملائكة ، ثم علل ذلك بقوله ( انى أرى مالاترون) يعنى الملائكة ، ثم علل بعلة أخرى ، فقال ( انى أخاف الله) قيل خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة ، وقيل ان دعوى الخوف كذب منه ، ولكنه رأى أنه لاقوّة له ولا للمشركين فاعتلّ بذلك ، وجملة (والله شديد العقاب) يحتمل أن تكون من تمام كلام ابليس ، ويحتمل أن تكون كلاما مستأنفا من جهة الله سبحانه ✽ قوله (اذ يقول المنافقون) الظرف معمول لفعل محذوف هواذكر ، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزين أو بشديد العقاب ، قيل المنافقون هم الذين أظهروا الايمان وأبطنوا الكفر (والذين فى قلوبهم مرض) هم الشاكون من غير نفاق بل لكونهم حديثى عهد بالاسلام فوافقوا المنافقين فى قولهم بهذه المقالة أعنى (غرّ هؤلاء )أى المسلمين دينهم حتى تكلفوا مالاطاقة لهم به من قتال قريش ، وقيل الذين فى قلوبهم مرض هم المشركون ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون فى المدينة وماحولها وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين الى بدر لما رأوهم فى قلة من العدد وضعف من العدد ، فأجاب الله عليهم بقوله (ومن يتوكل على الله فان الله عزيز ) لايغلبه غالب ، ولايذل من توكل عليه (حكيم) له الحكمة البالغة التى تقصر عندها العقول .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (واذكروا الله) قال افترض الله ذكره عند أشغل مايكونون عند الضراب بالسيوف . وأخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ ثنتان لاتردّان : الدعاء عند النداء وعند ، البأس حين يلحم بعضهم بعضا . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) يقول : لاتختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله ( وتذهب ريحكم ) قال : نصركم ، وقد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم) الآية يعنى المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى . قال لما خرجت قريش من مكة الى بدر خرجوا بالقيان والدفوف : فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد فى الآية . قال أبو جهل وأصحابه يوم بدر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم

VIII 52-57



وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبىّ الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بغى وفخر ، وقد قيل لهم يومئذ ارجعوا فقد انطلقت عيركم وقد ظفرتم ، فقالوا لا والله حتى يتحدّث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا ، وذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال يومئذ « اللهم ان قريشا قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك » وذكر لنا أنه قال يومئذ جاءت من مكة أفلاذها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال . جاء ابليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مدلج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم (فقال الشيطان لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم) وأقبل جبريل على ابليس ، فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع ابليس يده وولى مدبرا وشيعته ، فقال الرجل ياسراقه انك جار لنا : فقال (انى أرى مالاترون) وذلك حين رأى الملائكة (انى أخاف الله والله شديد العقاب) قال : ولما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين فى أعين المشركين وقلل المشركين فى أعين المسلمين : فقال المشركون وماهؤلاء غرهؤلاء دينهم ، وانما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم وظنوا أنهم سيهزمونهم لايشكون فى ذلك فقال الله (ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) . وأخرج الطبرانى وأبو نعيم عن رفاعة بن رافع الأنصارى قال : لما رآى ابليس مايفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل اليه ، فتشبث به الحرث ابن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز فى صدر الحرث فألقاه ، ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه فى البحر ورفع يديه فقال : اللهم انى أسألك نظرتك إياى . وأخرج الواقدى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (انى أرى مالا ترون) قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة ، فعلم عدوّ الله أنه لايدان له بالملائكة وقال (انى أخاف الله) وكذب عدوّ الله مابه مخافة الله ، ولكن علم أنه لاقوّة له به ولا منعة له . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن معمر قال : ذكروا أنهم أقبلوا على سراقة بن مالك بعد ذلك ، فأنكر أن يكون قال شيئا من ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (اذيقول المنافقون) قال وهم يومئذ فى المسلمين . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (والذين فى قلوبهم مرض) قال هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذ عن الكلبى ، فى قوله (والذين فى قلوبهم مرض) قال هم قوم كانوا أقرّوا بالاسلام وهم بمكة ، ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا المسلمين قالوا (غرّ هؤلاء دينهم) . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن الشعبى نحوه .

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ *

قوله (ولو ترى) الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له كما تقدّم تحقيقه فى غير موضع

والمعنى

والمعنى : ولو رأيت ، لأن لو تقلب المضارع ماضيا ، و (اذ) ظرف لترى ، والمفعول محذوف : أى ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم ، قيل أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر ، وقيل هى فيمن قتل ببدر ، وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما ، وجملة (يضربون وجوههم) فى محل نصب على الحال ، والمراد بأدبارهم أستاههم ، كنى عنها بالأدبار ، وقيل ظهورهم ، قيل هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيده ذكر التوفى ، وقيل هو يوم القيامة حين يسيرون بهم الى النار * قوله (وذوقوا عذاب الحريق) قاله الفراء : المعنى ويقولون : ذوقوا عذاب الحريق ، والجملة معطوفة على يضربون ، وقيل انه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم ، والذوق قد يكون محسوسا ، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار ، وأصله من الذوق بالفم والاشارة بقوله (ذلك) الى ما تقدم من الضرب والعذاب والباء فى (بما قدمت أيديكم) سببية : أى ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصى واقترفتم من الذنوب ، وجملة (وأن الله ليس بظلام للعبيد) فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى والأمر أنه لا يظلمهم ، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبرا لقوله (ذلك) وهى (بما قدمت أيديكم) أى ذلك العذاب بسبب المعاصى ، و بسبب (أن الله ليس بظلام للعبيد) لأنه سبحانه قد أرسل اليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وأوضح لهم السبيل ، وهداهم النجدين كما قال سبحانه — وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون — * قوله (كدأب آل فرعون) لما ذكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته فى فرق الكافرين ، والدأب : العادة ، والكاف فى محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف : أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون (والذين من قبلهم) * والمعنى أنه جوزى هؤلاء كما جوزى أولئك ، فكانت العادة فى عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله فى تعذيب طوائف الكفر ، وجملة قوله (كفروا بآيات الله) مفسرة لدأب آل فرعون : أى دأبهم هذا وأنهم كفروا بآيات الله فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم ، والمراد بذنوبهم : معاصيهم المترتبة على كفرهم ، فيكون الباء فى بذنوبهم للملابسة : أى فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ، وجملة (ان الله قوى شديد العقاب) معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ، والاشارة بقوله (ذلك) الى العقاب الذى أنزله الله بهم : وهو مبتدأ وخبره ما بعده ، والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله * والمعنى أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله فى عباده عدم تغيير نعمه التى ينعم بها عليهم (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمط احسانه واهمال أوامره ونواهيه ، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين ، فان الله فتح لهم أبواب الخيرات فى الدنيا ومن عليهم بارسال الرسل وانزال الكتب فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه ، والعمل به من شكرها وقبولها ، وجملة (وأن الله سميع عليم) معطوفة على (بأن الله لم يك مغيرا نعمة) داخلة معها فى التعليل أى ذلك بسبب أن الله لم يك مغيرا الخ ، و بسبب أن الله سميع عليم يسمع ما يقولونه و يعلم ما يفعلونه . وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف ، ثم كرر ما تقدم ، فقال (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم) لقصد التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالاغراق ، وقيل ان الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم ، والثانى باعتبار ما فعل بهم ، وقيل المراد بالأول كفرهم بالله ، وبالثانى تكذيبهم الأنبياء ، وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف ، والكلام فى (أهلكناهم بذنوبهم) كالكلام المتقدم فى فأخذهم الله بذنوبهم (وأغرقنا آل فرعون) معطوف على أهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الاهلاك ، ثم حكم على كلا الطائفتين : من آل فرعون والذين من قبلهم ، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله و بالظلم لغيرهم كما كان يجرى منهم فى معاملاتهم للناس بأنواع الظلم .

VIII 52-62



وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) قال الذين قتلهم الله ببدر من المشركين . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : قال رجل يارسول الله انى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشوك ، قال ذلك ضرب الملائكة ، وهـذا مرسل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وأدبارهم) قال وأستاههم ، ولكن الله كريم يكنى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) قال نعمة الله محمد ﷺ أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار .

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ * وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ *

قوله (إن شر الدواب) أى شر مايدب على وجه الأرض (عند الله) أى فى حكمه (الذين كفروا) أى المصرون على الكفر المتمادون فى الضلال ، ولهذا قال (فهم لا يؤمنون) أى ان هـذا شأنهم لا يؤمنون أبدا ، ولا يرجعون عن الغواية أصلا ، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس إيماء الى انسلاخهم عن الانسانية ودخولهم فى جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم * قوله (الذين عاهدت منهم) بدل من الذين كفروا أو عطف بيان أو فى محل نصب على الذم * والمعنى : أن هؤلا الكافرين الذين هم شر الدواب عند الله هم هؤلاء الذين عاهدت منهم : أى أخذت منهم عهدهم (ثم) هم (ينقضون عهدهم) الذى عاهدتهم (فى كل مرة) من مرات المعاهدة ، والحال أ(نهم لا يتقون) النقض ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه ، وقيل ان (من) فى قوله (منهم) للتبعيض ، ومفعول عاهـدت محذوف أى الذين عاهـدتهم ، وهم بعض أولئك الكفرة : يعنى الأشراف منهم ، وعطف المستقبل ، وهو ثم ينقضون على الماضى ، وهو عاهدت للدلالة على استمرار النقض منهم ، وهؤلاء هم قريظة ، عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتى ، ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة عليهم ، فقال (فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم) أى فإما تصادفنهم فى ثقاف وتلقاهم فى حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم (فشرد بهم من خلفهم) أى ففرق بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم من المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء والثقاف فى أصل اللغة : مايشد به القناة أو نحوها ، ومنه قول النابغة :

تدعو قعيبا وقد عض الحديد بها * عض الثقاف على ضم الأنابيب

يقال ثقفته : وجدته ، وفلان ثقف : سريع الوجود لما يحاوله ، والتشريد : التفريق مع الاضطراب . وقال أبو عبيـدة (شرد بهم) سمع بهم . وقال الزجاج : افعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم ، يقال شردت بنى فلان : قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . قال الشاعر :

أطوّف فى الأباطح كل يوم * مخافة أن يشردنى حكيم

ومنه شرد البعير : اذا فارق صاحبه ، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ (فشرذ بهم) بالذال المعجمة . قال قطرب التشريذ بالذال المعجمة : هو التنكيل ، وبالمهملة : هو التفريق . وقال المهدوى الذال المعجمة لاوجه لها الا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما . قال ولا يعرف فشرّذ فى اللغة ، وقرئ (من خلفهم) بكسر الميم والفاء * قوله (وإما تخافنّ من قوم خيانة) أى غشا ونقضا للعهد من القوم المعاهدين (فانبذ اليهم) أى فاطرح اليهم العهد الذى بينك وبينهم (على سواء) على طريق مستوية * والمعنى : أنه يخبرهم اخبارا ظاهرا مكشوفا بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة ، وقيل معنى (على سواء) على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم ، أوتستوى أنت وهم فيه . قال الكسائى السواء : العدل وقد يكون بمعنى الوسط ، ومنه قوله ـ فى سواء الجحيم ـ ، ومنه قول حسان :

ياويح أنصار النبى ورهطه * بعدالمغيب فى سواءالملحد

ومن الأوّل قول الشاعر :

فاضرب وجوه الغدّرالاعداء * حتى يجيبوك إلى سواء

وقيل معنى (فانبذإليهم على سواء) على جهر لاعلى سرّ * والظاهرأن هذه الآية عامة فى كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه . قال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عندقوله (فشرّد بهم من خلفهم) ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره بما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة ، وجملة (إن الله لايحب الخائنين) تعليل لما قبلها ، يحتمل أن تكون تحذيرا لرسول الله ﷺ عن المناجزة قبل أن ينبذإليهم على سواء ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة * قوله (ولا تحسبنّ) . قرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالمثناة من فوق ، فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا فاعل الحسبان ، ويكون مفعوله الأوّل محذوفا : أى لايحسبنّ الذين كفروا أنفسهم ، ومفعوله الثانى سبقوا ومعناه فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم ، وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ ، ومفعوله الأوّل الذين كفروا ، والثانى سبقوا ، وقرئ انهم سبقوا ، وقرئ يحسِبنّ بكسر الياء ، وجملة (انهم لايعجزون) تعليل لماقبلها : أى انهم لايفوتون ولايجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم ، وقرأ ابن عامر أنهم بفتح الهمزة ، والباقون بكسرها ، وكلاالقراءتين مفيدة لكون الجملة تعليلية ، وقيل المراد بهذه الآية من أفلت من وقعة بدر من المشركين * والمعنى أنهم وان أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فانهم لايعجزون ، بل هم واقعون فى عذاب الله فى الدنيا ، أوفى الآخرة . وقدزعم جماعة من النحويين منهم أبوحاتم : أن قراءة من قرأيحسبنّ بالتحتية لحن ، لاتحل القراءة بها لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول ، وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهذا تحامل شديد ، ومعنى هذه القراءة : ولايحسبنّ من خلفهم الذين كفروا سبقوا فيكون الضمير يعود على ماتقدم الا أن القراءة بالتاء أبين ، وقال المهدوى يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلا ، والمفعول الأوّل محذوف * والمعنى ولايحسبنّ الذين كفروا أنفسهم سبقوا . قال مكى : ويجوز أن يضمر مع سبقوا أن فتسدّ مسدّ المفعولين ، والتقدير ولايحسبن الذين كفروا أن سبقوا ، فهو مثل ـ أحسب الناس أن يتركوا ـ فى سد أن مسدّ المفعولين ، ثم أمر سبحانه باعداد القوّة للأعداء ، والقوّة كل مايتقوّى به فى الحرب ، ومن ذلك السلاح ، والقسىّ . وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ ، وهو على المنبر يقول « وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة ألا إن القوّة الرمى ، قالها ثلاث مرات » ، وقيل هى الحصون ، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين * قوله (ومن رباط الخيل) . قرأ الحسن وعمرو بن دينار وأبو

حيوة ومن ربط الخيل بضم الراء والباء ، ككتب : جمع كتاب . قال أبوحاتم الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، وهي الخيل التى ترتبط بازاء العدوّ ، ومنه قول الشاعر :

أمر الاله بربطها لعدوّه * فى الحرب ان الله خير موفق

قال فى الكشاف ، والرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، ويجوز أن يسمى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة ، ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل ، وفصال انتهى ، ومن فسر القوّة بكل مايتقوّى به فى الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام ، وجملة ( ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم ) فى محل نصب على الحال ، والترهيب التخويف ، والضمير فى به عائد إلى مافى مااستطعتم ، أو الى المصدر المفهوم من وأعدّوا ، وهو الاعداد * والمراد بعدوّ الله وعدوّهم هم المشركون من أهل مكة وغيرهم من مشركى العرب * قوله (وآخرين من دونهم) معطوف على عدوّ الله وعدوّكم ، ومعنى من دونهم : من غيرهم ، قيل هم اليهود ، وقيل فارس والروم ، وقيل الجنّ ، ورجحه ابن جرير ، وقيل المراد بالآخرين من غيرهم كل من لاتعرف عداوته . قاله السهيلى ، وقيل هم بنو قريظة خاصة ، وقيل غير ذلك ، والأولى الوقف فى تعيينهم لقوله (لاتعلمونهم الله يعلمهم) * قوله (وماتنفقوا من شىء فى سبيل الله) أى فى الجهاد وان كان يسيرا حقيرا ( يوفّ إليكم ) جزاؤه فى الآخرة ، فالحسنة بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقا ( وأنتم لاتظلمون ) فى شىء من هذه النفقة التى تنفقونها فى سبيل الله : أى من ثوابها بل يصير ذلك اليكم وافيا ، وافرا كاملا ـ وان تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجرا عظيما ـ أنى لاأضيع عمل عامل منكم ـ .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير . قال نزلت ( إن شر الدوابّ عند الله) الآية فى ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم ) قال : قريظة يوم الخندق مالئوا على رسول الله ﷺ أعداءه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ( فشرّد بهم من خلفهم ) قال : نكل بهم من بعدهم . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية : قال نكل بهم من وراءهم . وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية : قال أنذر بهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : عظ بهم من سواهم من الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : أخفهم بهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (لعلهم يذكرون) يقول : لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك . وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال قد وضعت السلاح وما زلنا فى طلب القوم فاخرج فان الله قد أذن لك فى قريظة ، وأنزل فيهم (و إما تخافنّ من قوم خيانة) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (انهم لايعجزون) قال : لايفوتونا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة) قال : الرمى والسيوف والسلاح . وأخرج ابن اسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى قوله (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ) قال : أمرهم باعداد الخيل . وأخرج أبو الشيخ والبيهقى فى الشعب عن عكرمة فى الآية قال : القوّة ذكور الخيل ، والرباط : الاناث . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب فى الآية قال القوّة : الفرس الى السهم فمادونه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : القوّة الحصون و (من رباط الخيل) قال : الاناث . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم) ،

قال تخزون به عدوّ الله وعدوّكم . وقد ورد فى استحباب الرمى وما فيه من الأجر أحاديث كثيرة ، وكذلك ورد فى استحباب اتخاذ الخيل و إعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لايتسع المقام لبسطها . وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات .

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

الجنوح : الميل ، يقال جنح الرجل الى الرجل : مال اليه ، ومنه قيل للأضالع جوانح لأنها مالت الى الحنوة ، وجنحت الابل : اذا مالت أعناقها فى السير ، ومنه قول ذى الرمة :

اذا مات فوق الرحل أحييت روحه * بذكراك والعيس المراسيل جنح

ومثله قول عنترة :

جوانح قد أيقن أن قبيله * اذا ما التقى الجمعان أوّل غالب

يعنى الطير ، والسلم : الصلح . قرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيصن والمفضل بكسر السين . وقرأ الباقون بفتحها . وقرأ العقيلى (فاجنح) بضم النون . وقرأ الباقون بفتحها ، والأولى لغة قيس ، والثانية لغة تميم . قال ابن جنى : ولغة قيس هى القياس ، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب ، أوهى مؤوّلة بالخصلة ، أو الفعلة .

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ، فقيل هى منسوخة بقوله ـ فاقتلوا المشركين ـ وقيل ليست بمنسوخة ، لأن المراد بها قبول الجزية ، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم : فتكون خاصة بأهل الكتاب ، وقيل ان المشركين ان دعوا الى الصلح جاز أن يجابوا اليه ، وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى ـ ولاتهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ـ وقيدوا عدم الجواز بما اذا كان المسلمون فى عزة وقوة ، لا اذا لم يكونوا كذلك ، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهادنة قريش ، ومازالت الخلفاء والصحابة على ذلك ، وكلام أهل العلم فى هذه المسئلة معروف مقرّر فى مواطنه (وتوكل على الله) فى جنوحك للسلم ولاتخف من مكرهم ، فـ(انه) سبحانه (هو السميع) لما يقولون (العليم) بما يفعلون (وان يريدوا أن يخدعوك) بالصلح ، وهم مضمرون الغدر والخدع (فان حسبك الله) أى كافيك ماتخافه من شرورهم بالنكث والغدر ، وجملة (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) تعليلية : أى لاتخف من خدعهم ومكرهم فان الله الذى قوّاك عليهم بالنصر فيما مضى ، وهو يوم بدر هو الذى سينصرك ويقوّيك عليهم عند حدوث الخدع والنكث ، والمراد بالمؤمنين : المهاجرون والأنصار ، ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال (وألف بين قلوبهم) وظاهره العموم ، وأن ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التى أيد الله بها رسوله . وقال جمهور المفسرين : المراد الأوس والخزرج ، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة فألف الله بين قلوبهم بالايمان برسول الله ﷺ ، وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار ، والحمل على العموم أولى ، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا ولايحترم ماله ولادمه ، حتى جاء الاسلام فصاروا يدا واحدة ، وذهب ما كان بينهم من العصبية ، وجملة (لوأنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم) مقرّرة لمضمون ماقبلها * والمعنى أن ماكان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ الى حدّ لايمكن دفعه بحال من الأحوال ، ولو أنفق الطالب له جميع مافى الأرض لم يتم له ماطلبه من التأليف ، لأن أمرهم فى

VIII 62-57



ذلك قد تفاقم جدًا (ولكن الله ألف بينهم) بعظيم قدرته و بديع صنعه (انه عزيز) لايغالبه مغالب : ولايستعصى عليه أمر من الأمور (حكيم) فى تدبيره ونفوذ نهيه وأمره .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وان جنحوا للسلم) قال : قريظة . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال : نزلت فى بنى قريظة نسختها ـ فلاتهنوا وتدعوا الى السلم ـ الى آخر الآية وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال السلم : الطاعة . وأخرج أبو الشيخ عنه فى الآية قال : ان رضوا فارض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال : ان أرادوا الصلح فأرده . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : نسختها هذه الآية ـ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ـ الى قوله ـ وهم صاغرون ـ . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر والنحاس فى ناسخه وأبو الشيخ عن قتادة قال : ثم نسخ ذلك ـ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ـ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وان يريدوا أن يخدعوك) قال : قريظة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (وبالمؤمنين) قال : بالأنصار . وأخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا . وأخرج ابن عساكر عن أبى هريرة قال : مكتوب على العرش لاإله إلا الله أنا الله وحدى لاشريك لى ومحمد عبدى ورسولى أيدته بعلى ، وذلك قوله (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) . وأخرج ابن المبارك وابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا والنسائى والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أن هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله (لو أنفقت مافى الأرض جميعا) الآية . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقى فى شعب الأيمان ، واللفظ له عن ابن عباس قال : قرابة الرحم تقطع ، ومنة المنعم تكفر ، ولم نر مثل تقارب القلوب ، يقول الله (لو أنفقت مافى الأرض جميعا) الآية . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم والبيهقى عنه نحوه ، وليس فى هذا عن ابن عباس مايدلّ على أنه سبب النزول ، ولكن الشأن فى قول ابن مسعود رضى الله عنه ان هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله مع أن الواقع قبلها (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) والواقع بعدها (ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ومع كون الضمير فى قوله (ماألفت بين قلوبهم) يرجع الى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك ولاشبهة ، وكذلك الضمير فى قوله (ولكن الله ألف بينهم) فان هذا يدلّ على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن تَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ *

قوله (ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ليس هذا تكريرا لماقبله فان الأوّل مقيد بارادة الخدع ـ وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ـ فهذه كفاية خاصة ، وفى قوله (ياأيها النبى حسبك الله) كفاية عامة غير مقيدة : أى حسبك الله فى كل حال ، والواو فى قوله (ومن اتبعك) يحتمل أن تكون

للعطف على الاسم الشريف * والمعنى : حسبك الله وحسبك المؤمنون : أى كافيك الله وكافيك المؤمنون ويحتمل أن تكون بمعنى مع كما تقول : حسبك وزيدا درهم ، والمعنى كافيك وكافى المؤمنين الله ، لأن عطف الظاهر على المضمر فى مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرّر فى علم النحو ، وأجازه الكوفيون . قال الفراء : ليس بكثير فى كلامهم أن تقول حسبك وأخيك ، بل المستعمل أن يقال : حسبك وحسب أخيك باعادة الجار فلو كان قوله (ومن اتبعك) مجرورا لقيل : حسبك الله وحسب من اتبعك ، واختار النصب على المفعول معه النحاس ، وقيل يجوز أن يكون المعنى ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله ، فحذف الخبر * قوله (حرّض المؤمنين على القتال) أى حثهم وحضهم ، والتحريض فى اللغة : المبالغة فى الحث وهو كالتحضيض ، مأخوذ من الحرض : وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسبه الى الهلاك لو تخلف عن المأمور به ، ثم بشرهم تثبيتا لقلوبهم وتسكينا لخواطرهم بأن الصابرين منهم فى القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار ، فقال (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) ثم زاد هذا ايضاحا مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد ، بل هى جارية فى كل عدد فقال (وان تكن منكم مائة يغلبوا ألفا) وفى هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرا لايغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال ، وقد وجد فى الخارج مايخالف ذلك ، فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين ، بل مثل نصفهم بل مثلهم ، وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا فى الخارج لايخالف مافى الآية لاحتمال أن لاتكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر ، وقيل ان هذا الخبر الواقع فى الآية هو فى معنى الأمر كقوله تعالى ـ والوالدات يرضعن * والمطلقات يتربصن ـ فالمؤمنون كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم ، ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال (فان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) الى آخر الآية ، فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنين من الكفار ، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم ضعفا بفتح الضاد * وقوله (بأنهم قوم لايفقهون) متعلق بقوله (يغلبوا) : أى ان هذا الغلب بسبب جهلهم وعدم فقههم وأنهم يقاتلون على غير بصيرة ، ومن كان هكذا فهو مغلوب فى الغالب ، وقد قيل فى نكتة التنصيص على غلب العشرين للمائتين ، والمائة للألف أن سراياه التى كان يبعثها ﷺ كان لاينقص عددها عن العشرين ولا يجاوز المائة ، وقيل فى التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين والألف للألفين على أنه بشارة للمسلمين بأن عساكر الاسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات الى الألوف ، ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو باذن الله وتسهيله وتيسيره لابقوتهم وجلادتهم ، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين ، وفيه الترغيب الى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به ، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر ، لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه ، وقد اختلف أهل العلم هل هذا التخفيف نسخ أم لا ؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة .

وقد أخرج البزار عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر قال المشركون قد انتصف القوم منا اليوم ، وأنزل الله (ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أسلم مع النبى ﷺ تسعة وثلاثون رجلا وامرأة ، ثم ان عمر أسلم صاروا أربعين فنزل (ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : لما أسلم مع النبى ﷺ ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت (ياأيها النبىّ حسبك الله) . وأخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن الزهرى فى الآية قال : نزلت فى الأنصار .

VIII ٦٤-٦٥



وأخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي في قوله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) قال . حسبك الله وحسب من اتبعك . وأخرج البخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : لما نزلت (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) فكتب عليهم أن لايفرّ واحد من عشرة وأن لايفرّ عشرون من مائتين ثم نزلت (الآن خفف الله عنكم) الآية ، فكتب أن لايفرّ مائة من مائتين . قال سفيان وقال ابن شبرمة وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا ان كانا رجلين أمرهما وان كانوا ثلاثة فهو في سعة من تركهم . وأخرج البخاري والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة ، فجاء التخفيف (الآن خفف عنكم) الآية قال : فلما خفف الله عنهم من العدّة نقص من الصبر بقدر ماخفف عنهم .

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد * ومعنى (ما كان لنبيّ) ماصح له وما استقام ، قرأ أبو عمرو وسهيل ويعقوب ويزيد والمفضل أن تكون بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وقرأ أيضا يزيد والمفضل أسارى ، وقرأ الباقون أسرى ، والاسرى جمع أسير ، مثل قتلى وقتيل ، وجرحى وجريح ، ويقال في جمع أسير أيضا أسارى بضم الهمزة و بفتحها ، وهو مأخوذ من الأسر ، وهو القدّ ، لأنهم كانوا يشدّون به الأسير فسمى كل أخيذ وان لم يشدّ بالقدّ أسيرا . قال الأعشى :

وقيدني الشعر في بيته * كما قيدت الأسرات الحمارا

وقال أبو عمرو بن العلاء الأسرى هم غير الموثقين عند مايؤخذون ، والأسارى : هم الموثقون ربطا ، والاثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ، تقول العرب أثخن فلان في هذا الأمر : أى بالغ فيه ، فالمعنى : ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين و يستكثر من ذلك ، وقيل معنى الاثخان : التمكن ، وقيل هو القوّة ، أخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم ، ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال — فاما منا بعد و إما فداء — كما يأتي في سورة القتال ان شاء الله * قوله (تريدون عرض الحياة الدنيا) أي نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء ، وسمى عرضا لأنه سريع الزوال كما تزول الأعراض التي هي مقابل الجواهر (والله يريد الآخرة) أي يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب في الاثخان بالقتل ، وقرئ يريد الآخرة بالجرّ على تقدير مضاف ، وهو المذكور قبله : أى والله يريد عرض الآخرة (والله عزيز) لايغالب (حكيم) في كل أفعاله * قوله (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق ماهو على أقوال؟ * الأوّل ماسبق في علم الله من أنه سيحلّ لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرّمة على سائر الأمم * والثاني أنه مغفرة الله لأهل بدر ماتقدّم من ذنوبهم وما تأخر كما في الحديث الصحيح «ان الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم» * القول الثالث هو أنه لايعذبهم ورسول الله ﷺ فيهم كما قال

سبحانه ـ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ـ * القول الرابع أنه لا يعذب أحدا بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا * القول الخامس أنه ماقضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر * القول السادس أنه لا يعذب أحدا إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهى ، ولم يتقدّم نهى عن ذلك ، وذهب ابن جرير الطبرى إلى أن هذه المعانى كلها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمها (لمسكم) أى حلّ بكم (فيما أخذتم) أى لأجل ماأخذتم من الفداء (عذاب عظيم) ، والفاء فى (فكلوا مما غنمتم) لترتيب مابعدها على سبب محذوف : أى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم ، ويجوز أن تكون عاطفة على مقدّر محذوف : أى اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره ، وقيل ان (ما) عبارة عن الفداء : أى كلوا من الفداء الذى غنمتم فانه من جملة الغنائم التى أحلها الله لكم ، و (حلالا طيبا) منتصبان على الحال ، أوصفة المصدر المحذوف : أى أكلا حلالا طيبا (واتقوا الله) فيما يستقبل فلا تقدموا على شىء لم يأذن الله لكم به (إن الله غفور) لما فرط منكم (رحيم) بكم ، فلذلك رخص لكم فى أخذ الفداء فى مستقبل الزمان .

وقد أخرج أحمد عن أنس قال : استشار النبى ﷺ الناس فى الأسارى يوم بدر ، فقال ان الله قد أمكنكم منهم ، فقام عمر بن الخطاب فقال يارسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال ياأيها الناس ان الله قد أمكنكم منهم ، وانما هم إخوانكم بالأمس ، فقام عمر فقال يارسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق فقال يارسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء ، فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء ، فأنزل الله (لولا كتاب من الله سبق) الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جىء بالأسارى ، وفيهم العباس ، فقال رسول الله ﷺ ماترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله قومك وأهلك ، فاستبقهم لعلّ الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يارسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قدّمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس وهو يسمع قطعت رحمك ، فدخل النبى ﷺ عليهم ولم يردّ عليهم شيئا ، فقال أناس يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس يأخذ بقول عمر ، وقال قوم يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، فخرج رسول الله ﷺ فقال ان الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وان الله ليشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم عليه السلام قال ـ من تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ـ ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال ـ إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ـ ، ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال ـ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ـ ، ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال ـ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ـ أنتم عالة فلا ينفلتنّ أحد منهم الا بفداء أوضرب عنق فقال عبد الله يارسول الله الا سهيل بن بيضاء فانى سمعته يذكر الاسلام ، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ الا سهيل ابن بيضاء ، فأنزل الله (ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى) الآية . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن علىّ قال : قال النبى ﷺ فى الأسارى يوم بدر « ان شئتم قتلتموهم ، وان شئتم فاديتم واستمتعتم بالفداء ، وأستشهد منكم بعدّتهم فكان آخر السبعين ثابت بن قيس ، استشهد باليمامة » . وأخرج عبد الرزاق فى مصنفه وابن أبى شيبة عن عبيدة نحوه . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه

XIII ٦١٠٦٢



عن ابن عمر قال : لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر ، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ انى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه ، فقال له عمر فآتيهم ؟ قال نعم فأتى عمر الأنصار ، فقال أرسلوا العباس ، فقالوا لا والله لانرسله ، فقال لهم عمر فان كان لرسول الله ﷺ رضا : قالوا فان كان لرسول الله ﷺ رضا فخذه ، فأخذه عمر ، فلما صار فى يده قال له : ياعباس أسلم فوالله ان تسلم أحب إلىّ من أن يسلم الخطاب وما ذاك الا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك : قال فاستشار رسول الله أبا بكر ، فقال أبو بكر عشيرتك فأرسلهم ، فاستشار عمر فقال : اقتلهم ، ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله (ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (حتى يثخن فى الأرض) يقول حتى يظهروا على الأرض . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال الاثخان : هو القتل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد أيضا فى الآية قال ثم نزلت الرخصة بعد : ان شئت فمن ، وان شئت ففاد . وأخرج ابن المنذر عن قتادة (تريدون عرض الدنيا) قال أراد أصحاب محمد ﷺ يوم بدر الفداء ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة (تريدون عرض الدنيا) قال الخراج . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (لولا كتاب من الله سبق) قال سبق لهم المغفرة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال ماسبق لأهل بدر من السعادة . وأخرج النسائى وابن مردويه وأبو الشيخ عن ابن عباس : قال سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالمعصية . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد : قال سبق أن لايعذب أحدا حتى يبين له و يتقدم اليه .

يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞

اختلاف القراء فى أسرى (١) والأسارى هوهنا كما سبق فى الآية التى قبل هذه ، خاطب الله النبىّ ﷺ بهذا : أى قل لهؤلاء الأسرى الذين هم فى أيديكم أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء (ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا) من حسن ايمان ، وصلاح نية ، وخلوص طوية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء : أى يعوضكم فى هذه الدنيا رزقا خيرا منه ، وأنفع لكم ، أو فى الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة (و يغفر لكم) ذنوبكم (والله غفور رحيم) شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم ، ولما ذكر ماذكره من العوض لمن علم فى قلبه خيرا ذكر من هو على ضد ذلك منهم فقال (وان يريدوا خيانتك) بما قالوه لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة ، بل هو مماكرة ومخادعة ، فليس ذلك بمستبعد منهم فانهم قد فعلوا ماهو أعظم منه ، وهو أنهم خانوا الله من قبل أن تظفر بهم فكفروا به وقاتلوا رسوله (فأمكن منهم) بأن نصرك عليهم فى يوم بدر فقتلت منهم من قتلت ، وأسرت من أسرت (والله عليم) بما فى ضمائرهم (حكيم) فى أفعاله بهم.

وقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص و بعثت فيه بقلادة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق رقة شديدة وقال ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وقال العباس انى كنت مسلما يارسول الله ، قال الله أعلم

(١) هكذا بالأصل ولعله فى الأسارى فقط اه مصحح القرآن

باسلامك ، فان تكن كما تقول فالله يجزيك فافد نفسك وابنى أخويك : نوفل بن الحرث وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو ، قال ماذاك عندى يارسول الله ؟ قال فأين المال الذى دفنت أنت وأم الفضل ، فقلت لها ان أصبت فهذا المال لبنى ، فقال والله يارسول الله ان هذا لشىء ماعلمه غيرى وغيرها : فاحسب لى ما أصبتم منى عشرون أوقية من مال كان معى ، قال لا أفعل ، ففدى نفسه وابنى أخويه ، وحليفه ونزلت (قل لمن فى أيديكم من الاسرى ) الآية ، فأعطانى مكان العشرين الأوقية فى الاسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ماأرجو من مغفرة الله . وأخرج ابن سعد والحاكم وصححه عن أبى موسى أن العلاء بن الحضرمى بعث الى رسول الله ﷺ بمال من البحرين ثمانين ألفا ، فأتى رسول الله ﷺ مال أكثر منه ، فنثر على حصير ، وجاء الناس فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم وما كان يومئذ عدد ولاوزن ، فجاء العباس فقال يارسول الله انى أعطيت فدائى وفداء عقيل يوم بدر أعطنى من هذا المال ، فقال خذ فحثا فى خميصته ثم ذهب ينصرف فلم يستطع ، فرفع رأسه وقال يارسول الله ارفع على ، فتبسم رسول الله ﷺ وذهب وهو يقول «أما أحد الذين وعد الله فقد أنجزنا وماندرى مايصنع فى الأخرى (قل لمن فى أيديكم من الأسارى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم) فهذا خير مما أخذ منى ولا أدرى مايصنع فى المغفرة ، والروايات فى هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى الأسارى يوم بدر منهم العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحرث ، وعقيل بن أبى طالب . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه فى قوله (وان يريدوا خيانتك) ان كان قولهم كذبا (فقد خانوا الله من قبل) فقد كفروا وقاتلوك (فأمكن)ك الله (منهم) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞

ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذى يستعين به ، وسمى سبحانه المهاجرين الى المدينة بهذا الاسم ، لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلبا لما عند الله ، وإجابة لداعيه (والذين آووا ونصروا) هم الأنصار ، والاشارة بقوله ( أولئك ) إشارة الى الموصول الأول والآخر ، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده ، ويجوز أن يكون (بعضهم) بدلا من اسم الاشارة ، والخبر ( أولياء بعض ) أى بعضهم أولياء بعض فى النصرة والمعونة ، وقيل المعنى : ان بعضهم أولياء بعض فى الميراث . وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) ۞ قوله (والذين آمنوا) مبتدأ ، وخبره (مالكم من ولايتهم من شىء) . قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة من ولايتهم بكسر الواو . وقرأ الباقون بفتحها : أى مالكم من نصرتهم وإعانتهم ، أو من ميراثهم ، ولو كانوا

من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم (حتى يهاجروا) فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الايمان ، والهجرة (وان استنصروكم) أى هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا اذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين (فعليكم النصر) أى فواجب عليكم النصر (الا) أن يستنصروكم (على قوم بينكم و بينهم ميثاق) فلا تنصروهم ولا تنقضوا العهد الذى بينكم و بين أولئك القوم حتى تنقضى مدّته . قال الزجاج : ويجوز فعليكم النصر بالنصب على الاغراء * قوله (والذين كفروا) مبتدأ خبره (بعضهم أولياء بعض) أى بعضهم ينصر بعضا و يتولاه فى أموره ، أو يرثه اذا مات ، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لايناصرون الكفار ولا يتولونهم * قوله (إلا تفعلوه) الضمير يرجع الى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور ، وترك موالاة الكافرين (تكن فتنة فى الأرض) أى تقع فتنة ان لم تفعلوا ذلك (وفساد كبير) أى مفسدة كبيرة فى الدين والدنيا ، ثم بين سبحانه حكما آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر اليهم ونصروهم ، وهم الانصار ، فقال (أولئكهم المؤمنون حقا) أى الكاملون فى الايمان ، وليس فى هذا تكرير لما قبله فانه وارد فى الثناء على هؤلاء ، والأوّل وارد فى إيجاب الموالاة والنصرة ، ثم أخبر سبحانه أن (لهم) منه (مغفرة) لذنوبهم فى الآخرة (و) لهم فى الدنيا (رزق كريم) خالص عن الكدر طيب مستلذ ، ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأوّلين والانصار فهو من جملتهم : أى من جملة المهاجرين الأوّلين والانصار فى استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة ، وكمال الايمان ، والمغفرة ، والرزق الكريم ، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه و بينهم رحم فى الميراث ، والمراد بهم القرابات فيتناول كل قرابة ، وقيل المراد بهم هنا العصبات ، قالوا ومنه قول العرب : وصلتك رحم فانهم لايريدون قرابة الأم . قالوا ، ومنه قول قتيلة :

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه * لله أرحام هناك تشقق

ولا يخفاك أنه ليس فى هذا مايمنع من اطلاقه على غير العصبات ، وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوى الأرحام ، وهم من ليس بعصبة ولاذى سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث ، والخلاف فى ذلك معروف مقرر فى مواطنه ، وقد قيل ان هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ماتقدّم من قوله (بعضهم أولياء بعض) ومابعده بالتوارث ، وأما من فسرّها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الآية اخبارا منه سبحانه وتعالى بأن القرابات (بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) أى فى حكمه ، أو فى اللوح المحفوظ ، أو فى القرآن و يدخل فى هذه الأولوية الميراث دخولا أوّليا لوجود سببه ، أعنى القرابة (ان الله بكل شىء عليم) لايخفى عليه شى من الأشياء كائنا ما كان ، ومن جملة ذلك ماتضمنته هذه الآيات .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ان الذين آمنوا وهاجروا) الآية : قال ان المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل ، منهم المؤمن المهاجر ، المباين لقومه ، وفى قوله (والذين آووا ونصروا) قال : آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة وشهروا السيوف على من كذب وجحد ، فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض ، وفى قوله (والذين آمنوا ولم يهاجروا) قال : كانوا يتوارثون بينهم اذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية فى الدين ، وكان الذى آمن ولم يهاجر ، لايرث من أجل أنه لم يهاجر ، ولم ينصر ، فبرأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم ، وهى الولاية التى قال (مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم و بينهم ميثاق) وكان حقا على المؤمنين الذين آووا ونصروا اذا استنصروهم فى الدين أن ينصروهم ان قوتلوا الا أن يستنصروا

على قوم بينهم و بين النبي ﷺ ميثاق فلا نصر لهم عليهم الا على العدو الذى لاميثاق لهم ، ثم أنزل الله بعد ذلك أن ألحق كل ذى رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا (والذين آمنوا ولم يهاجروا ) فجعل لكل انسان من المؤمنين نصيبا مفروضا لقوله (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) الآية ، وفى رواية لابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (أولئك بعضهم أولياء بعض) قال : يعنى فى الميراث جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء ) مالكم من ميراثهم من شىء (حتى يهاجروا وان استنصروكم فى الدين ) يعنى : ان استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدو لهم فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم و بينهم ميثاق فكانو يعملون على ذلك ، حتى أنزل الله هذه الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) فنسخت الآية التى قبلها ، وصارت المواريث لذوى الأرحام . وأخرج أبو عبيد وأبوداود وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآيات : قال كان المهاجر لايتولى الأعرابى ولايرثه وهو مؤمن ، ولايرث الأعرابى المهاجر فنسختها هذه الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضا قال : قال رجل من المسلمين لنورثن ذوى القربى منا من المشركين ، فنزلت (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ المهاجرون بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة ، والطلقاء من قريش ، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن أسامة عن النبى ﷺ قال « لايتوارث أهل ملتين ولا يرث مسلم كافرا ، ولا كافر مسلما ، ثم قرأ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الآية » . وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله فينا خاصة معشر قريش (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الاخوان ، فواخيناهم ووارثناهم فآخونا ، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخى عمر فلانا ، وآخى عثمان بن عفان رجلا من بنى زريق بن أسعد الزرقى : قال الزبير وآخيت أنا كعب بن مالك ووارثونا ، ووارثناهم فلما كان يوم أحد قيل لى قد قتل أخوك كعب بن مالك جئته فانتقلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى فوالله يابنى لومات يومئذ عن الدنيا ماورثه غيرى ، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش ، والأنصار فرجعنا الى مواريثنا . وأخرج أبوداود الطيالسى والطبرانى وأبوالشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورث بعضهم من بعض ، حتى نزلت هذه الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ) فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب اه .

# تفسير سورة براءة

هي مائة وثلاثون آية ، وقيل مائة وسبع وعشرون آية ، ولها أسماء : منها سورة التوبة ، لأن فيها التوبة على المؤمنين ، وتسمى الفاضحة لانه مازال ينزل فيها : ومنهم ، ومنهم حتى كادت أن لا تدع أحدا ، وتسمى البحوث لانها تبحث عن أسرار المنافقين ، وتسمى المبعثرة ، والبعثرة البحث ، وتسمى أيضا بأسماء أخر كالمقشقشة ، لكونها تقشقش من النفاق : أي تبرئ منه ، والمخزية لكونها أخزت المنافقين ، والمثيرة لكونها تثير أسرارهم ، والحافرة لكونها تحفر عنها ، والمنكلة لما فيها من التنكيل لهم ، والمدمدمة لأنها تدمدم عليهم * وهي مدنية . قال القرطبي باتفاق . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : نزلت براءة بعد فتح مكة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزلت سورة التوبة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله ابن الزبير نحوه . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري والنسائي وابن الضريس وابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء قال : آخر آية نزلت ـ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ـ وآخر سورة نزلت تامة براءة .

وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسملة من أولها على أقوال * الأول عن المبرد وغيره انه كان من شأن العرب اذا كان بينهم و بين قوم عهد ، فاذا أرادوا نقضه كتبوا اليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة ، فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين بعث بها النبي ﷺ علي بن أبي طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل في ذلك على ماجرت به عادة العرب . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : سألت علي بن أبي طالب لم لا تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان ، و براءة نزلت بالسيف . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال ، وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال . وأخرج أبو الشيخ عن أبي رجاء قال : سألت الحسن عن الانفال و براءة أسورتان أو سورة ؟ قال سورتان . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة قال : يسمون هذه السورة

IX. 1-3



سورة التوبة ، وهى سورة العذاب . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال : فى هــذه السورة هى الفاضحة مازالت تنزل ، ومنهم حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد الا ذكر فيها . وأخرج أبو الشيخ عن عمر نحوه . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم أن رجلا قال لعبد الله بن عمر سورة التوبة ، فقال ابن عمر : وأيتهن سورة التوبة ، ثم قال وهل فعل بالناس الأفاعيل الا هى ما كنا ندعوها الا المقشقشة . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال . يسمونها سورة التوبة ، وانها لسورة عذاب . وأخرج ابن المنذر عن ابن اسحق قال كانت براءة تسمى فى زمن النبى ﷺ و بعده المبعثرة لما كشفت من سرائر الناس . وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال : كانت براءة تسمى المنقرة نقرت عما فى قلوب المشركين . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب عن أبى عطية الهمدانى قال : كتب عمر بن الخطاب : تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور ، ومن جملة الأقوال فى حذف البسملة أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريبا منها ، وانه لما سقط أولها سقطت البسملة ، روى هذا عن مالك بن أنس وابن عجلان ، ومن جملة الأقوال فى سقوط البسملة أنهم لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف الصحابة فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة ، وقال بعضهم : هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان ، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال : هما سورة واحدة ، فرضى الفريقان . قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما ، وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر ، لأنهما جميعا فى القتال ، وتعدان جميعا سابعة السبع الطوال

بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ * وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *

قوله (براءة من الله ورسوله) برئت من الشىء أبرأ براءة ، وأنا منه برىء : اذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك و بينه ، و براءة مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف : أى هذه براءة ، ويجوز أن ترتفع على الابتداء ، لأنها نكرة موصوفة ، والخبر (الى الذين عاهدتم) . وقرأ عيسى بن عمر (براءة) بالنصب على تقدير اسمعوا براءة ، أو على تقدير التزموا براءة ، لأن فيها معنى الاغراء ، ومن فى قوله (من الله) لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وقع صفة : أى واصلة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم . وقرأ روح وزيد بنصب رسوله . وقرأ الباقون بالرفع ، والعهد : العقد الموثق باليمين ، والخطاب فى عاهدتم للمسلمين ، وقد كانوا عاهدوا مشركى مكة وغيرهم باذن من الله ومن الرسول ﷺ ، والمعنى الاخبار للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض ، فصار النبذ اليهم بعهدهم واجبا على المعاهدين من المسلمين ومعنى براءة الله سبحانه وقوع الاذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم ، وفى ذلك من التفخيم لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذل والهوان ما لا يخفى * قوله (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) هــذا أمر منه سبحانه بالسياحة بعد الاخبار بتلك البراءة ، والسياحة : السير ، يقال ساح فلان فى الأرض يسيح سياحة وسيوحا وسيحانا ، ومنه سيح الماء فى الأرض وسيح الخيل ، ومنه قول طرفة بن العبد :

لو خفت هـذا منك مانلتنى * حتى ترى خيلا أمامى تسيح

ومعنى الآية أن الله سبحانه بعد أن أذن بالنبذ الى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب فى الأرض والذهاب الى حيث يريدون والاستعداد للحرب ، هذه الاربعة الاشهر ، وليس المراد من الأمر بالسياحة تكليفهم بها . قال محمد بن اسحق وغيره : ان المشركين صنفان ، صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه ، وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد ، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر ، فأما من لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الأشهر الحرم ، وذلك خمسون يوما : عشرون من ذى الحجة وشهر محرم . وقال الكلبى : انما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر ، ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذى أمر الله أن يتم له عهده بقوله (فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) ورجح هذا ابن جرير وغيره ، وسيأتى فى آخر البحث من الرواية مايتضح به معنى الآية (واعلموا أنكم غير معجزى الله) أى اعلموا أن هذا الامهال ليس لعجز ، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب ، وفى ذلك ضرب من التهديد كأنه قيل : افعلوا فى هـذه المدة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات والأدوات ، فانكم لاتفوتون الله وهو مخزيكم : أى مذلكم ومهينكم فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالعذاب ، وفى وضع الظاهر موضع المضمر اشارة الى أن سبب هـذا الاخزاء : هو الكفر ، ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوليا * قوله (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر) ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف : أو على أنه مبتدأ خبره مابعده على ماتقدم فى ارتفاع براءة ، والجملة هذه معطوفة على جملة براءة من الله ورسوله . وقال الزجاج : ان قوله وأذان معطوف على قوله براءة ، واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكن أذان مخبر عنه بالخبر الأول ، وهو الى الذين عاهدتم من المشركين ، وليس ذلك بصحيح ، بل الخبر عنه هو الى الناس ، والأذان بمعنى الايذان : وهو الاعلام كما أن الأمان والعطاء بمعنى الايمان والاعطاء ، ومعنى قوله (الى الناس) التعميم فى هـذا : أى انه ايذان من الله الى كافة الناس غـير مختص بقوم دون قوم ، فهذه الجملة متضمنة للاخبار بوجوب الاعلام لجميع الناس ، والجملة الأولى متضمنة للاخبار بالبراءة الى المعاهدين خاصة ، و(يوم الحج) ظرف لقوله وأذان ، ووصفه بالأكبر ، لأنه يجتمع فيه الناس ، أو لكون معظم أفعال الحج فيه .

وقد اختلف العلماء فى تعيين هذا اليوم المذكور فى الآية ، فذهب جمع منهم على بن أبى طالب وابن مسعود وابن أبى أوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد أنه يوم النحر ، ورجحه ابن جرير ، وذهب آخرون منهم عمر وابن عباس وطاوس أنه يوم عرفة ، والأول أرجح ، لأن النبى ﷺ أمر من بعثه لابلاغ هذا الى المشركين أن يبلغهم يوم النحر * قوله (أن الله برىء من المشركين ورسوله) قرئ بفتح أن على تقدير بأن الله برىء من المشركين ، فحذفت الباء تخفيفا . وقرئ بكسرها ، لأن فى الايذان معنى القول ، وارتفاع رسوله على أنه معطوف على موضع اسم ان ، أو على الضمير فى برىء ، أو على انه مبتدأ وخبره محذوف ، والتقدير ورسوله برىء منهم . وقرأ الحسن وغيره (ورسوله) بالنصب عطفا على لفظ اسم ان . وقرئ (ورسوله) بالجر على أن الواو للقسم ، روى ذلك عن الحسن ، وهى قراءة ضعيفة جدا اذ لامعنى للقسم برسول الله ﷺ هاهنا مع ماثبت من النهى عن الحلف بغير الله ، وقيل انه مجرور على الجوار * قوله (فان تبتم) أى من الكفر ، وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب ، قيل وفائدة هذا الالتفات زيادة التهديد ، والضمير فى قوله (فهو) راجع الى التوبة المفهومة من تبتم (خير لكم) مما أنتم فيه من الكفر (وان توليتم) أى أعرضتم عن التوبة وبقيتم

على

على الكفر (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) أى غير فائتين عليه ، بل هو مدرككم فمجازيكم بأعمالكم * قوله (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) هذا تهكم بهم ، وفيه من التهديد مالايخفى .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) الى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد قبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ، ثم قال انه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ، فأرسل أبا بكر وعليا فطافا فى الناس بذى المجاز ، و بأمكنتهم التى كانوا يبيعون بها ، أو بالموسم كله فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر ، وهى الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات عشرون من آخر ذى الحجة الى عشر تخلو من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال الى أن يموتوا . وأخرج عبدالله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند وأبو الشيخ وابن مردويه عن على قال : لما نزلت عشر آيات من براءة عن النبى ﷺ دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة ، ثم دعانى فقال لى أدرك أبا بكر ، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة ، فلحقته فأخذت الكتاب منه ، ورجع أبو بكر وقال يارسول الله نزل فىّ شئ ، قال لا ، ولكن جبريل جاءنى فقال : لن يؤدى عنك الا أنت أو رجل منك . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس نحوه . وأخرج ابن مردويه من حديث سعد بن أبى وقاص نحوه أيضا . وأخرج أحمد والنسائى وابن المنذر وابن مردويه عن أبى هريرة قال . كنت مع علىّ حين بعثه رسول الله ﷺ الى أهل مكة ببراءة فكنا ننادى : أنه لايدخل الجنة الا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه و بين رسول الله ﷺ عهد فان أجله وأمده الى أربعة أشهر ، فاذا مضت الأربعة أشهر فان الله برىء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : أن لايحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ثم أردف النبى ﷺ على بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة فأذن علىّ فى يوم النحر ببراءة : أن لايحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . وأخرج الترمذى وحسنه وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ، ثم أتبعه عليا وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات فانطلقا فحجا ، فقام علىّ فى أيام التشريق فنادى : ان الله برىء من المشركين ورسوله فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، ولا يحجن بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة الا مؤمن ، فكان علىّ ينادى فاذا أعيا قام أبو بكر ينادى بها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وصححه وابن المنذر والنحاس والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن زيد بن تبيع : قال سألت عليا بأىّ شىء بعثت مع أبى بكر فى الحج ؟ قال بعثت بأربع : لايدخل الجنة الا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع مؤمن وكافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه و بين رسول الله ﷺ عهد فعهده الى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (براءة من الله ورسوله) الآية : قال حدّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاءوا ، وحدّ أجل من ليس له عهدا انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم من يوم النحر الى انسلاخ المحرّم خمسين ليلة فاذا انسلخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد ان لم يدخلوا فى الاسلام ونقض ماسمى لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأوّل (الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) يعنى أهل مكة . وأخرج النحاس عنه نحو هذا ، وقال ولم يعاهد رسول الله ﷺ بعد هذا

أحدا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والنحاس عن الزهرى (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) قال نزلت فى شوّال فهى الأربعة أشهر ، شوّال ، وذوالقعدة ، وذوالحجة ، والمحرّم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (وأذان من الله ورسوله) قال هو إعلام من الله ورسوله . وأخرج الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن علىّ : قال سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر فقال يوم النحر . وأخرجه ابن أبى شيبة والترمذى وأبو الشيخ عنه من قوله . وأخرج أبو داود والنسائى والحاكم وصححه عن عبدالله بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ « أعظم الأيام عندالله يوم النحر ثم يوم القرّ » . وأخرج ابن مردويه عن ابن أبى أوفى عن النبى ﷺ أنه قال « يوم الأضحى هذا يوم الحج الأكبر » . وأخرج البخارى تعليقا وأبوداود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فقال أىّ يوم هـذا ؟ قالوا يوم النحر : قال هـذا يوم الحج الأكبر . وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن مردويه عن أبى هريرة قال بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى أن لايحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر : يوم النحر ، والحج الأكبر : الحج وانما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر ، فنبذ أبو بكر الى الناس فى ذلك العام ، فلم يحج عام حجة الوداع التى حج فيها رسول الله ﷺ مشرك ، وأنزل الله فى العام الذى نبذ فيـه أبو بكر الى المشركين ـ ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس ـ الآية : وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال « زمن الفتح ان هذا عام الحج الأكبر : قال اجتمع حج المسلمين وحج المشركين فى ثلاثة أيام متتابعات : واجتمع النصارى واليهود فى ثلاثة أيام متتابعات ، فاجتمع حج المسلمين والمشركين والنصارى واليهود فى ستة أيام متتابعات ولم يجتمع منذ خلق السموات والأرض كذلك قبل العام ، ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة » . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال مالكم وللحج الأكبر ؟ ذاك عام حج فيه أبو بكر استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس واجتمع فيه المسلمون والمشركون فلذلك سمى الحج الأكبر ، ووافق عيـد اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سـعيد بن المسيب قال الحج الأكبر : اليوم الثانى من يوم النحر ألم تر أن الامام يخطب فيه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال « يوم عرفة هـذا يوم الحج الأكبر » . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال الحج الأكبر يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عن أبى الصهباء البكرى قال سألت علىّ ابن أبى طالب عن يوم الحج الأكبر فقال يوم عرفة . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ان يوم عرفة يوم الحج الأكبر . وأخرج ابن جرير عن الزبير نحوه .

ولا يخفاك أن الأحاديث الواردة فى كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر هى ثابتـة فى الصحيحين وغيرهمـا من طرق فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرّحة بأنه يوم عرفة . وأخرج ابن أبى شيبة عن الشعبى أنه سئل هذا الحج الأكبر ، فما الحج الأصغر ؟ قال عمرة فى رمضان . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن اسحق قال سألت عبدالله بن شدّاد عن الحج الأكبر ؟ فقال الحج الأكبر يوم النحر ، والحج : الأصغر العمرة . وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهـد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن مسـعر قال سـئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون فى المكروه فقال ألم تسمع قوله (و بشر الذين كفروا بعذاب أليم) .

إلا

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ * فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ *

الاستثناء بقوله (الا الذين عاهدتم) . قال الزجاج انه يعود الى قوله (براءة) والتقدير براءة من الله ورسوله الى المعاهدين من المشركين الا الذين لم ينقضوا العهد منهم . وقال فى الكشاف انه مستثنى من قوله (فسيحوا) والتقدير فقولوا لهم فسيحوا الا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم فأتموا اليهم عهدهم . قال والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا فى الناكثين ، ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم * وقد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى والمستثنى منه ، وهو (وأذان من الله) الخ * وأجيب بأن ذلك لا يضرّ لأنه ليس بأجنبى ، وقيل ان الاستثناء من المشركين المذكورين قبله فيكون متصلا وهو ضعيف * قوله (ثم لم ينقصوكم شيئا) أى لم يقع منهم أىّ نقص وان كان يسيرا ، وقرأ عكرمة وعطاء بن يسار ينقضوكم بالضاد المعجمة : أى لم ينقضوا عهدكم ، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده ، ومنهم من ثبت عليه ، فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ بنقض عهد من نقض ، وبالوفاء لمن لم ينقض إلى مدّته (ولم يظاهروا عليكم أحدا) المظاهرة : المعاونة : أى لم يعاونوا عليكم أحدا من أعدائكم (فأتموا إليهم عهدهم) أى أدّوا إليهم عهدهم تاما غير ناقص (الى مدّتهم) التى عاهدتموهم اليها وان كانت أكثر من أربعة أشهر ، ولا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضىّ المدّة المذكورة سابقا ، وهى أربعة أشهر أو خمسون يوما على الخلاف السابق * قوله (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) انسلاخ الشهر : تكامله جزءا فجزءا الى أن ينقضى كانسلاخ الجلد عما يحويه ، شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه ، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده ، فاستعير لانقضاء الأشهر ، يقال سلخت الشهر تسلخه سلخا وسلوخا بمعنى خرجت منه ، ومنه قول الشاعر :

اذا ماسلخت الشهر أهللت مثله * كفى قاتلا سلخى الشهور واهلالى

ويقال سلخت المرأة درعها : نزعته ، وفى التنزيل ــ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ــ

واختلف العلماء فى تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا ، فقيل هى الأشهر الحرم المعروفة التى هى ذوالقعدة ، وذوالحجة ، ومحرّم ، ورجب : ثلاثة سرد ، وواحد فرد * ومعنى الآية على هذا وجوب الامساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الأشهر الحرم . وقد وقع النداء والنبذ الى المشركين بعهدهم يوم النحر ، فكان الباقى من الأشهر الحرم التى هى الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضى بانقضاء شهر المحرّم فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون ، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر ، وروى عن ابن عباس ، واختاره ابن جرير ، وقيل المراد بها شهور العهد المشار اليها بقوله (فأتموا اليهم عهدهم الى مدّتهم) وسميت حرما لأن الله سبحانه حرّم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرّض لهم ، والى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم مجاهد وابن اسحق وابن زيد وعمرو بن شعيب ، وقيل هى الأشهر المذكورة فى قوله (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) . وقد روى ذلك عن ابن عباس وجماعة ورجحه ابن كثير

وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن اسحاق وقتادة والسدّى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وسيأتى بيان حكم القتال فى الأشهر الحرم الدائرة فى كل سنة فى هذه السورة ان شاء الله * ومعنى (حيث وجدتموهم) فى أىّ مكان وجدتموهم من حلّ أو حرم * ومعنى (خذوهم) الأسر فان الأخيذ هو الأسير * ومعنى الحصر : منعهم من التصرّف فى بلاد المسلمين الا باذن منهم ، والمرصد : الموضع الذى يرقب فيه العدوّ ، يقال رصدت فلانا أرصده : أى رقبته ، أى اقعدوا لهم فى المواضع التى ترتقبونهم فيها . قال عامر بن الطفيل :

ولقد علمت وما اخالك عالما * ان المنية للفتى بالمرصد

وقال النابغة : أعاذل ان الجهل من لذة الفتى * وان المنايا للنفوس بمرصد

وكل فى (كل مرصد) منتصب على الظرفية وهو اختيار الزجاج ، وقيل هو منتصب بنزع الخافض : أى فى كل مرصد ، وخطأ أبو على الفارسى الزجاج فى جعله ظرفا ، وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك لايخرج عنها الا من خصته السنة ، وهو المرأة والصبى ، والعاجز الذى لايقاتل ، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم ، وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين ، والصبر على أذاهم . وقال الضحاك وعطاء والسدّى : هى منسوخة بقوله ــ فاما منا بعد و إما فداء ــ وان الأسير لايقتل صبرا بل يمنّ عليه أو يفادى . وقال مجاهد وقتادة بل هى ناسخة لقوله ــ فاما منا بعد و إما فداء ــ وانه لايجوز فى الأسارى من المشركين الا القتل . وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان . قال القرطبى وهو الصحيح لأن المنّ والقتل والفداء لم تزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب جاء بهم وهو يوم بدر * قوله (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى تابوا عن الشرك الذى هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ماهو من أعظم أركان الاسلام ، وهو اقامة الصلاة ، وهذا الركن اكتفى به عن ذكر مايتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها ، واكتفى بالركن الآخر المالى ، وهو ايتاء الزكاة عن كل مايتعلق بالأموال من العبادات لأنه أعظمها (فخلوا سبيلهم) أى اتركوهم وشأنهم فلا تأسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم (إن الله غفور) لهم (رحيم) بهم * قوله (وان أحد من المشركين استجارك فأجره) ، يقال استجرت فلانا : أى طلبت أن يكون جارا : أى محاميا ومحافظا من أن يظلمنى ظالم ، أو يتعرّض لى متعرّض ، وأحد مرتفع بفعل مقدّر يفسره المذكور بعده : أى وان استجارك أحد استجارك ، وكرهوا الجمع بين المفسر والمفسر * والمعنى : وان استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم فأجره : أى كن جارا له مؤمنا محاميا (حتى يسمع كلام الله) منك ويتدبره حق تدبره ، ويقف على حقيقة ماتدعو اليه (ثم أبلغه مأمنه) أى إلى الدار التى يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله ان لم يسلم ، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه ، ووجوب قتله حيث يوجد ، والاشارة بقوله (ذلك) الى ماتقدم من الأمر بالاجارة وما بعده (بأنهم قوم لايعلمون) أى بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز بين الخير والشر فى الحال والمآل .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إلا الذين عاهدتم) قال : هم قريش . وأخرج أيضا عن قتادة قال : هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبىّ الله زمن الحديبية ، وكان بقى من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر فأمر نبيه أن يوفى بعهدهم هذا الى مدتهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن عباد بن جعفر فى قوله (إلا الذين عاهدتم) قال : هم بنو جذيمة بن عامر من بنى بكر بن كنانة .

وأخرج

٦-٩١



وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله (فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) قال : كان بقى لبنى مدحج وخزاعة عهد ، فهو الذى قال الله (فأتموا عليهم الى مدتهم) . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله (إلا الذين عاهدتم من المشركين) قال : هؤلاء بنو ضمرة ، و بنو مدلج من بنى كنانة كانوا حلفاء للنبى ﷺ فى غزوة العسيرة من بطن ينبع (ثم لم ينقصوكم شيئا) ثم لم ينقضوا عهدكم بغدر (ولم يظاهروا عليكم أحدا) قال لم يظاهروا عدوّكم عليكم (فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم) يقول : أجلهم الذى شرطتم لهم (إن الله يحبّ المتقين) يقول : الذين يتقون الله فيما حرّم عليهم فيوفون بالعهد . قال فلم يعاهد النبى ﷺ بعد هؤلاء الآيات أحدا . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّى فى قوله (فاذا انسلخ الأشهر الحرم) قال : هى الأربعة عشرون من ذى الحجة ، والمحرّم ، وصفر ، وشهر ربيع الأوّل ، وعشر من ربيع الآخر ، قلت مراد السدّى أن هذه الاشهر تسمى حرما لكون تأمين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال ، لا أنها الأشهر الحرم المعروفة . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك فى الآية : قال هى عشر من ذى القعدة وذو الحجة والمحرم ، سبعون ليلة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هى الأربعة الأشهر التى . قال (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحو قول السدّى السابق . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ثم نسخ واستثنى ، فقال (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) ، وقال (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وان أحد من المشركين استجارك فأجره) يقول : من جاءك واستمع ماتقول . واستمع ما أنزل اليك ، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام الله حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (ثم أبلغه مأمنه) قال : ان لم يوافقه مايقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه ، وهذا ليس بمنسوخ . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله (حتى يسمع كلام الله) أى كتاب الله . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبى عروبة قال : كان الرجل يجىء اذا سمع كتاب الله وأقرّ به وأسلم فذاك الذى دعى اليه ، وان أنكر ولم يقرّ به ردّ مأمنه ، ثم نسخ ذلك ، فقال ــ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ــ .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ * ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *

قوله (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للانكار ، وعهد اسم يكون ، وفى خبره ثلاثة أوجه : الأوّل أنه كيف ، وقدم للاستفهام ، والثانى للمشركين ، وعند على هذين ظرف للعهد ، أو ليكون ، أو صفة للعهد ، والثالث أن الخبر عند الله ، وفى الآية اضمار * والمعنى : كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه ، وقيل معنى الآية محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم

أضداد لكم مضمرون للغدر فلا يطمعوا فى ذلك ولا يحدثوا به أنفسهم ، ثم استدرك ، فقال (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) أى لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذى بينكم وبينهم (فاستقيموا لهم) قيل هم بنو بكر ، وقيل بنو كنانة وبنو ضمرة ، وفى ما وجهان : أحدهما أنها مصدرية زمانية ، والثانى أنها شرطية ، وفى قوله (إن الله يحب المتقين) إشارة الى أن الوفاء بالعهد ، والاستقامة عليه من أعمال المتقين ، فيكون تعليلا للأمر بالاستقامة * قوله (كيف وإن يظهروا عليكم) أعاد الاستفهام التعجبى للتأكيد والتقرير ، والتقدير كيف يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله ؟ والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم (لا يرقبوا) أى لا يراعوا فيكم (إلا) : أى عهدا (ولا ذمة) . قال فى الصحاح الال العهد والقرابة ، ومنه قول حسان :

لعمرك أن إلك من قريش * كال السقب من رأل النعام

قال الزجاج : الال عندى على ما توجبه اللغة يدور على معنى الحدة ، ومنه الالة للحربة ، ومنه أذن مؤللة : أى محددة ، ومنه قول طرفة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدة والانتصاب :

مؤللتان يعرف العتق منهما * كسامعتى شاة بحومل مفرد

قال أبو عبيدة الال العهد ، والذمة والنديم ، وقال الأزهرى هو اسم لله بالعبرانية ، وأصله من الأليل ، وهو البريق : يقال أل لونه يؤل إلا : أى صفا ولمع ، والذمة العهد : وجمعها ذمم ، فمن فسر الال بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين ، وقال أبو عبيدة الذمة التذمم ، وقال أبو عبيد الذمة الأمان ، كما فى قوله ﷺ ويسعى بذمتهم أدناهم ، وروى عن أبى عبيدة أيضا أن الذمة ما يتذمم به : أى ما يجتنب فيه الذم * قوله (يرضونكم بأفواههم) أى يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلبا لمرضاتكم وتطييب قلوبكم ، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم ، كما يفعله أهل النفاق وذوو الوجهين ، ثم حكم عليهم بالفسق ، وهو التمرد والتجرى ، والخروج عن الحق لنقضهم العهود ، وعدم مراعاتهم للعقود ، ثم وصفهم بقوله (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) أى استبدلوا بآيات القرآن التى من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمنا قليلا حقيرا ، وهو ما آثروه من حطام الدنيا (فصدوا عن سبيله) أى فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق ، أو صرفوا غيرهم عنه * قوله (لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة) . قال النحاس ليس هذا تكريرا ، ولكن الأول لجميع المشركين ، والثانى لليهود خاصة ، والدليل على هذا (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) يعنى اليهود ، وقيل هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الاطلاق ، وفى الأول المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة (وأولئك هم المعتدون) أى المجاوزون للحلال الى الحرام بنقض العهد ، أو البالغون فى الشر والتمرد الى الغاية القصوى (فإن تابوا) عن الشرك والتزموا أحكام الاسلام (فإخوانكم) أى فهم اخوانكم (فى الدين) أى فى دين الاسلام (ونفصل الآيات) أى نبينها ونوضحها (لقوم يعلمون) بما فيها من الأحكام ويفهمونه ، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها ، والمراد بالآيات ما مر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم .

وقد أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال قريش . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل قال : كان النبى ﷺ عاهد أناسا من بنى ضمرة بنى بكر وكنانة خاصة : عاهدهم عند المسجد الحرام ، وجعل مدتهم أربعة أشهر ، وهم الذين ذكر الله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) يقول ما وفوا لكم بالعهد فوفوا لهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : هم بنو جذيمة . وأخرج ابن أبى

حاتم

IX 12-16



حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله ( الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال : هو يوم الحديبية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (إلا ولا ذمة) قال : الالّ القرابة والذمة العهد . وأخرج الفريابى وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الالّ الله عزّ وجلّ . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله ( اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ) قال : أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فان تابوا) الآية : يقول ان تركوا اللات والعزى وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فاخوانكم فى الدين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : حرّمت هذه الآية قتال أودماء أهل الصلاة .

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَـٰنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ● أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ● قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ● وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ● أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَـٰهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ●

قوله (وان نكثوا) معطوف على فان تابوا ، والنكث النقض : وأصله نقض الخيط بعد إبرامه ، ثم استعمل فى كل نقض ، ومنه نقض الايمان ، والعهود على طريق الاستعارة ● ومعنى (من بعد عهدهم) أى من بعد أن عاهدوكم ● والمعنى : أن الكفار ان نكثوا العهود التى عاهدوا بها المسلمين ، ووثقوا لهم بها وضموا الى ذلك الطعن فى دين الاسلام ، والقدح فيه فقد وجب على المسلمين قتالهم ● وأئمة الكفر : جمع امام ، والمراد صناديد المشركين ، وأهل الرئاسة فيهم على العموم . وقرأ حمزة أيمة ، وأكثر النحويين يذهب الى أن هذا لحن ، لأن فيه الجمع بين همزتين فى كلمة واحدة . وقرأ الجمهور بجعل الهمزة الثانية بين بين : أى بين مخرج الهمزة والياء . وقرىء باخلاص الياء وهو لحن ، كما قال الزمخشرى ● قوله (انهم لا أيمان لهم) هذه الجملة تعليل لما قبلها ، والأيمان : جمع يمين فى قراءة الجمهور . وقرأ ابن عامر لا إيمان لهم بكسر الهمزة ● والمعنى على قراءة الجمهور أن أيمان الكافرين ، وان كانت فى الصورة يمينا فهى فى الحقيقة ليست بيمين ، وعلى القراءة الثانية أن هؤلاء الناكثين للإيمان الطاعنين فى الدين ليسوا من أهل الايمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم وأموالهم فقتالهم واجب على المسلمين ● قوله (لعلهم ينتهون) أى عن كفرهم ونكثهم وطعنهم فى دين الاسلام ● والمعنى أن قتالهم يكون الى غاية هى الانتهاء عن ذلك .

وقد استدلّ بهذه الآية على أن الذمّىّ اذا طعن فى الدين لا يقتل حتى ينكث العهد ، كما قال أبو حنيفة لأن الله انما أمر بقتلهم بشرطين : أحدهما نقض العهد ، والثانى الطعن فى الدين ، وذهب مالك والشافعى وغيرهما الى أنه اذا طعن فى الدين قتل لأنه ينتقض عهده بذلك ، قالوا وكذلك اذا حصل من الذمّىّ مجرد النكث فقط من دون طعن فى الدين فانه يقتل ● قوله (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) الهمزة الداخلة على حرف النفى للاستفهام التوبيخى مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة فى تحققه

والمعنى أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد واخراج الرسول من مكة والبداءة بالقتال فهو حقيق بأن لايترك قتاله ، وأن يوبخ من فرط فى ذلك ، ثم زاد فى التوبيخ فقال (أتخشونهم) فان الاستفهام هذا للتوبيخ والتقريع : أى أتخشون أن ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية ، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه ، فقال (فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين) أى هو أحق بالخشية منكم ، فانه الضار النافع بالحقيقة ، ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله ، فان قضية الايمان توجب ذلك عليكم ، ثم زاد فى تأكيد الأمر بالقتال فقال (قاتلوهم) ورتب على هذا الأمر فوائد : الأولى تعذيب الله للكفار بأيدى المؤمنين بالقتل والأسر ، والثانية اخزاؤهم ، قيل بالأسر ، وقيل بما نزل بهم من الذل والهوان ، والثالثة نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم ، والرابعة أن الله يشفى بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولاحضره ، والخامسة أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذى نالهم بسبب ماوقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وحرج الصدر * فان قيل شفاء الصدور واذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكرارا * قيل فى الجواب : ان القلب أخص من الصدر ، وقيل ان شفاء الصدر اشارة الى الوعد بالفتح ولاريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر ، وأن اذهاب غيظ القلوب اشارة الى وقوع الفتح ، وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد هذه الأمور كلها ، ثم قال (ويتوب الله على من يشاء) وهو ابتداء كلام يتضمن الاخبار بما سيكون ، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح ، فانهم أسلموا وحسن اسلامهم ، وهذا على قراءة الرفع فى يتوب ، وهى قراءة الجمهور ، وقرئ بنصب يتوب باضمار أن ، ودخول التوبة فى جملة ماأجيب به الأمر من طريق المعنى . قرأ بذلك ابن أبى اسحق وعيسى الثقفى والأعرج * فان قيل كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة * وأجيب بأن القتال قد يكون سببا لها اذا كانت من جهة الكفار ، وأما اذا كانت من جهة المسلمين فوجهه أن النصر والظفر من جهة الله يكون سببا لخلوص النية والتوبة عن الذنوب * قوله (أم حسبتم أن تتركوا) أم هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل ، والهمزة والاستفهام للتوبيخ ، وحرف الاضراب للدلالة على الانتقال من كلام الى آخر ، والمعنى كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ماأنتم عليه ، وقوله أن تتركوا فى موضع مفعولى الحسبان عند سيبويه ، وقال المبرد : انه حذف الثانى ، والتقدير أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذى يستحق به الثواب والعقاب ، وجملة (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) فى محل نصب على الحال ، والمراد من نفى العلم نفى المعلوم ، والمعنى كيف تحسبون أنكم تتركون ولما يتبين المخلص منكم فى جهاده من غير المخلص ، وجملة (ولم يتخذوا) معطوفة على جاهدوا داخلة معه فى حكم النفى واقعة فى حيز الصلة ، والوليجة من الولوج : وهو الدخول ، ولج يلج ولوجا : اذا دخل ، فالوليجة : الدخيلة . قال أبو عبيدة : كل شئ أدخلته فى شئ ليس منه فهو وليجة . قال أبان بن تغلب .

فبئس الوليجة للهاربيـــن والمعتدين وأهل الريب

وقال الفراء : الوليجة البطانة المشركين ، والمعنى واحد : أى كيف تتخذون دخيلة أو بطانة من المشركين تفشون اليهم بأسراركم وتعلمونهم أموركم من دون الله (والله خبير بما تعملون) أى بجميع أعمالكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (وان نكثوا أيمانهم) قال : عهدهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال يقول الله لنبيه وان نكثوا العهد الذى بينك وبينهم فقاتلهم انهم أئمة الكفر . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله أئمة الكفر قال : أبو سفيان بن حرب وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وسهيل

ابن

ابن عمرو ، وهم الذين نكثوا عهد الله وهموا باخراج الرسول من مكة . وأخرج ابن عساكر عن مالك بن أنس مثله . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فقاتلوا أئمة الكفر قال : رءوس قريش . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر . قال : أبو سفيان بن حرب منهم . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم الديلم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة انهم ذكروا عنده هذه الآية فقال : ماقوتل أهل هـذه الآية بعد . وأخرج ابن مردويه عن عليّ نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه عن حذيفة قال : مابقي من أهل هذه الآية الاثلاثة . ولامن المنافقين الأربعة ، فقال أعرابيّ : انكم أصحاب محمد تخبرونا لاندري فما بال هؤلاء الذين ينقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا قال أولئك الفساق أجل لم يبق منهم الا أربعة * أحدهم شيخ كبير لوشرب الماء البارد لماوجد برده ، والأولى أن الآية عامة في كل رؤساء الكفار من غير تقييد بزمن معين أو بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، ومما يفيد ذلك ماأخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه كان في عهد أبي بكر الصديق الى الناس حين وجههم الى الشام قال : انكم ستجدون قوما مجوّفة رءوسهم فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف . فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب اليّ من أن أقتل سبعين من غيرهم ، وذلك بأن الله يقول (فقاتلوا أئمة الكفر) . وأخرج أبو الشيخ عن حذيفة لاأيمان لهم قال : لاعهود لهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمار مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ألاتقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) قال : قتال قريش حلفاء النبي ﷺ وهمهم باخراج الرسول ، زعموا أن ذلك عام عمرة النبي ﷺ في العام التابع للحديبية ، نكثت قريش العهد عهد الحديبية وجعلوا في أنفسهم اذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها ، فذلك همهم باخراجه ، فلم تتابعهم خزاعة على ذلك ، فلما خرج النبي ﷺ من مكة قالت قريش لخزاعة عميتمونا عن اخراجه ، فقاتلوهم فقتلوا منهم رجالا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : نزلت في خزاعة (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم) الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدّي نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه أيضا ، وقد ساق القصة ابن اسحق في سيرته وأورد فيها النظم الذى أرسلته خزاعة الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأوّله :

يارب اني ناشد محمدا * حلف أبينا وأبيه الأتلدا

وأخرج القصة البيهقي في الدلائل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الوليجة : البطانة من غير دينهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال وليجة : أي خيانة .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ *

قرأ الجمهور (يعمروا) بفتح حرف المضارعة وضم الميم من عمر يعمر : وقرأ ابن السميفع بضم حرف المضارعة من أعمر يعمر ، أى يجعلون لها من يعمرها . وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وسهل و يعقوب مسجد الله بالافراد . وقرأ الباقون مساجد بالجمع ، واختارها أبو عبيدة . قال النحاس : لأنها أعم ، والخاص يدخل تحت العام ، وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة ، وهذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال فلان يركب الخيل وان لم يركب الافرسا قال : وقد أجمعوا على الجمع فى قوله (انما يعمر مساجد الله) وروى عن الحسن البصرى أنه تعالى انما قال مساجد ، والمراد المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد كلها وامامها ، فعامره كعامر جميع المساجد . قال الفراء : العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم : فلان كثير الدرهم ، و بالعكس كقولهم فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس الاملكا واحدا ، والمراد بالعمارة اما المعنى الحقيقى أو المعنى المجازى ، وهو ملازمته والتعبد فيه ، وكلاهما ليس للمشركين ، أما الأول فلأنه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم ، وأما الثانى فلكون الكفار لاعبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام ، ومعنى (ما كان للمشركين) ماصح لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك ، و (شاهدين على أنفسهم بالكفر) حال : أى ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر باظهار ماهو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها وجعلها آلهة ، فان هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر وان أبوا ذلك بألسنتهم ، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين : عمارة المساجد التى هى من شأن المؤمنين والشهادة على أنفسهم بالكفر التى ليست من شأن من يتقرب الى الله بعمارة مساجده ، وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم فى طوافهم : لبيك لاشريك لك الا شريك هو لك تملكه وماملك ، وقيل شهادتهم على أنفسهم بالكفر : ان اليهودى يقول هو يهودى ، والنصرانى يقول هو نصرانى ، والصابىء يقول هو صابىء ، والمشرك يقول هو مشرك (أولئك حبطت أعمالهم) التى يفتخرون بها و يظنون أنها من أعمال الخير : أى بطلت ولم يبق لها أثر (وفى النار هم خالدون) وفى هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها ، ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) وفعل ماهو من لوازم الايمان من إقامة الصلاة و إيتاء الزكوة (ولم يخش) أحدا (الا الله) فمن كان جامعا بين هذه الأوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد ، لامن كان خاليا منها أو من بعضها ، واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ماعداه مما افترضه الله على عباده ، لأن كل ذلك من لوازم الايمان ، وقد تقدم الكلام فى وجه جمع المساجد ، وفى بيان ماهية العمارة ، ومن جوز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما : وفى قوله (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) حسم لأطماع الكفار فى الانتفاع بأعمالهم ، فان الموصوفين بتلك الصفات اذا كان اهتداؤهم مرجوا فقط ، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشىء من تلك الصفات ، وقيل عسى من الله واجبة ، وقيل : هى بمعنى خليق : أى فخليق أن يكونوا من المهتدين ، وقيل ان الرجاء راجع الى العباد ، والاستفهام فى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) للانكار ، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية ، وفى الكلام حذف ، والتقدير أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد ، أو أهلهما (كمن آمن) حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير فى الخبر : أى أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كعمل من آمن أو كايمان من آمن . وقرأ ابن أبى وجرة السعدى وابن الزبير وسعيد بن جبير أجعلتم سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام ، جمع ساق وعامر ، وعلى هذه القراءة لايحتاج الى تقدير محذوف ، والمعنى أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التى صورتها صورة الخير ، وان لم ينتفعوا بها

و بين

و بين إيمان المؤمنين وجهادهم فى سبيل الله ، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونهما على عمل المسلمين ، فأنكر الله عليهم ذلك ، ثم صرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال (لايستوون عند الله) أى لاتساوى تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة فى سبيله ، ودلّ سبحانه بنفى الاستواء على نفى الفضيلة التى يدعيها المشركون : أى اذا لم تبلغ أعمال الكفار الى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين ، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون ، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لايستحقون الهداية من الله سبحانه ، وفى هذا اشارة الى الفريق المفضول ، ثم صرح بالفريق الفاضل فقال (الذين آمنوا) الى آخره أى الجامعون بين الايمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس (أعظم درجة عند الله) وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحبطة الباطلة ، وفى قوله (عند الله) تشريف عظيم للمؤمنين والاشارة بقوله (أولئك) الى المتصفين بالصفات المذكورة (هم الفائزون) أى المختصون بالفوز عند الله ، ثم فسر الفوز بقوله (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) والتنكير فى الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم ، والمعنى أنها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين ، والنعيم المقيم : الدائم المستمر الذى لايفارق صاحبه ، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له ، وجملة (ان الله عنده أجر عظيم) مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل : أى أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذى عنده عظيم يهب منه مايشاء لمن يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) وقال (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) فنفى المشركين من المسجد (من آمن بالله) يقول : من وحد الله وآمن بما أنزل الله (وأقام الصلاة) يعنى الصلوات الخمس (ولم يخش الا الله) يقول : لم يعبد الا الله (فعسى أولئك) يقول : أولئك هم المهتدون كقوله لنبيه ﷺ — عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا — يقول ان ربك سيبعثك مقاما محمودا : وهى الشفاعة ، وكل عسى فى القرآن فهى واجبة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمى والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن المنذر والبيهقى فى سننه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان » قال الله تعالى (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردد اليها للطاعات . وأخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالى أن لا أعمل لله عملا بعد الاسلام الا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر ، وقال : لاترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن اذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه ، فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الى قوله (لايهدى القوم الظالمين) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية ، وذلك أن المشركين قالوا عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، فكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره ، فذكر الله سبحانه استكبارهم واعراضهم ، فقال لأهل الحرم من المشركين — قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرين به سامرا تهجرون — يعنى انهم كانوا يستكبرون بالحرم ، وقال به سامرا كانوا به يسمرون ويهجرون بالقرآن والنبى ﷺ ، فخير الايمان بالله والجهاد مع نبىّ الله على عمران المشركين البيت وقيامهم على السقاية ، ولم يكن لينفعهم عند الله مع الشرك به وان

كانوا يعمرون بيته ويخدمونه قال الله ( لايستوون عند الله والله لايهدى القوم الظالمين) يعنى الذين زعموا أنهم أهل العمارة ، فسماهم ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئا ، وفى اسناده العوفى وهو ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر ان كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسق الحاج ونفك العانى فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية : يعنى أن ذلك كان فى الشرك فلا أقبل ما كان فى الشرك . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نزلت فى على بن أبى طالب والعباس . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى قال : تفاخر علىّ والعباس وشيبة فى السقاية والحجابة فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية ، وقد روى معنى هذا من طرق :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ *

الخطاب للمؤمنين كافة ، وهو حكم باق الى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين ، وقالت طائفة من أهل العلم انها نزلت فى الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر ، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب نهوا بأن يوالوا الآباء والاخوة فيكونون لهم تبعا فى سكنى بلاد الكفر ان استحبوا : أى أحبوا كما يقال ، استجاب بمعنى أجاب ، وهو فى الأصل طلب المحبة ، وقد تقدم تحقيق المقام فى سورة المائدة فى قوله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ـ ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الايمان من الآباء والاخوان بالظلم ، فدلّ ذلك على أن تولى من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدها ، ثم أمر الله رسوله ﷺ بأن يقول لهم (ان كان آباؤكم) الى آخره ، والعشيرة : الجماعة التى ترجع الى عقد واحد ، وعشيرة الرجل قرابته الأدنون ، وهم الذين يعاشرونه وهى اسم جمع . وقرأ أبو بكر وحماد (عشيراتكم) بالجمع . قال الأخفش : لاتكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات ، وانما يجمعونها على عشائر . وقرأ الحسن (عشائركم) . وقرأ الباقون (عشيرتكم) ، والاقتراف الاكتساب ، وأصله اقتطاع الشىء من مكانه ، والتركيب يدور على الدنو ، والكاسب يدنى الشىء من نفسه ويدخله تحت ملكه ، والتجارة الأمتعة التى يشترونها ليربحوا فيها ، والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الأوطان ، ومن غرائب التفسير ماروى عن ابن المبارك أنه قال : ان المراد بالتجارة فى هذه الآية البنات والاخوات اذا كسدن فى البيت لايجدن لهن خاطبا ، واستشهد لذلك بقول الشاعر :

كسدن من الفقر فى قومهن * وقد زادهن مقامى كسادا

وهذا البيت وان كان فيه اطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهن فليس فيه جواز إطلاق اسم التجارة عليهن ، والمراد بالمساكن التى يرضونها : المنازل التى تعجبهم وتميل اليها أنفسهم ويرون الاقامة فيها أحبّ اليهم من المهاجرة الى الله ورسوله ، وأحب خبر كان : أى كانت هذه الأشياء المذكورة فى الآية

أحب

أحبّ إليكم من الله ورسوله ومن الجهاد فى سبيل الله (فتربصوا) أى انتظروا (حتى يأتى الله بأمره) فيكم وماتقتضيه مشيئته من عقوبتكم ، وقيل المراد بأمر الله سبحانه : القتال ، وقيل فتح مكة ، وفيه بعد ، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح ﴿ وفى هذا وعيد شديد ، ويؤكده إبهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب ، وتتردد بين أنواع العقوبات (والله لايهدى القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعته ، النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبد المطلب : أنا أسقى الحاج . وقال طلحة أخو بنى عبد الدار : أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر ، فأنزلت (لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى هذه الآية : قال هى الهجرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (اقترفتموها) قال أصبتموها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (حتى يأتى الله بأمره) قال بالفتح فى أمره بالهجرة ، هذا كله قبل فتح مكة . وأخرج البيهقى من حديث عبد الله ابن شوذب قال جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله ـ لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ـ الآية ، وهى تؤكد معنى هذه الآية ، وقد تقدم بيان حكم الهجرة فى سورة النساء .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿

المواطن : جمع موطن ، ومواطن الحرب : مقاماتها ، والمواطن التى نصر الله المسلمين فيها هى يوم بدر وما بعده من المواطن التى نصر الله المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين ، (ويوم حنين) معطوف على مواطن بتقدير مضاف : إما فى الأول وتقديره فى أيام مواطن ، أو فى الثانى وتقديره وموطن يوم حنين لئلا يعطف الزمان على المكان ، وردّ بأنه لااستبعاد فى عطف الزمان على المكان فلا يحتاج الى تقدير ، وقيل ان يوم حنين منصوب بفعل مقدّر معطوف على (نصركم) أى ونصركم يوم حنين ، ورجح هذا صاحب الكشاف : قال وموجب ذلك أن قوله (اذ أعجبتكم) بدل من يوم حنين ، فلو جعلت ناصبة هذا الظاهر لم يصح ، لأن كثرتهم لم تعجبهم فى جميع تلك المواطن ، ولم يكونوا كثيرا فى جميعها ، وردّ بأن العطف لايجب فيه تشارك المتعاطفين فى جميع ماثبت للمعطوف كما تقول جاءنى زيد وعمرو مع قومه ، أو فى ثيابه أو على فرسه ، وقيل ان (اذ أعجبتكم كثرتكم) ليس ببدل من يوم حنين ، بل منصوب بفعل مقدّر : أى اذكروا اذ أعجبتكم كثرتكم ، وحنين : واد بين مكة والطائف ، وانصرف على أنه اسم للمكان ، ومن العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة ، ومنه قول الشاعر :

نصروا نبيهم وشدّوا أزره ﴿ بحنين يوم تواكل الأبطال

وانما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثنى عشر ألفا ، وقيل أحد عشر ألفا ، وقيل ستة عشر ألفا ، فقال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة فوكلوا الى هذه الكلمة فلم تغن الكثرة شيئا عنهم ،

بل انهزموا وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه طائفة يسيرة منهم عمه العباس وأبوسفيان بن الحارث ، ثم تراجع المسلمون فكان النصر والظفر * والاغناء : إعطاء مايدفع الحاجة : أى لم تعطكم الكثرة شيئا يدفع حاجتكم ولم تفدكم * قوله (بما رحبت) الرحب بضم الراء : السعة ، والرحب بفتح الراء : المكان الواسع ، والباء بمعنى مع ، وما مصدرية ، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال * والمعنى : أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ماحلّ بهم من الخوف والوجل ، وقيل ان الباء بمعنى على : أى على رحبها (ثم وليتم مدبرين) أى انهزمتم حال كونكم مدبرين : أى مولين أدباركم جاعلين لها الى جهة عدوّكم * قوله (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى أنزل مايسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين ، والمراد بالمؤمنين : هم الذين لم ينهزموا ، وقيل الذين انهزموا * والظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا * قوله (وأنزل جنودا لم تروها) هم الملائكة .

وقد اختلف فى عددهم على أقوال ، قيل خمسة آلاف ، وقيل ثمانية آلاف ، وقيل ستة عشر ألفا ، وقيل غير ذلك ، وهذا لايعرف الا من طريق النبوّة . واختلفوا أيضا هل قاتلت الملائكة فى هذا اليوم أم لا . وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل الا يوم بدر ، وأنهم انما حضروا فى غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين ، وإدخال الرعب فى قلوب المشركين (وعذب الذين كفروا) بما وقع عليهم من القتل والأسر ، وأخذ الأموال ، وسبي الذرية ، والاشارة بقوله (وذلك) الى التعذيب المفهوم من عذب ، وسمى ماحلّ بهم من العذاب فى هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف ، بل لابدّ من عذاب الآخرة مبالغة فى وصف ماوقع عليهم وتعظيما له (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) أى من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم الى الاسلام (والله غفور) يغفر لمن أذنب فتاب (رحيم) بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن قتادة قال حنين : مابين مكة والطائف ، قاتل نبى الله هوازن وثقيف ، وعلى هوازن مالك بن عوف ، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفى . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا الآن نقاتل حين اجتمعنا ، فكره رسول الله ﷺ ماقالوا وما أعجبهم من كثرتهم فالتقوا فهزموا حتى مايقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول الله ﷺ ينادى أحياء العرب : الىّ الىّ فوالله مايعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه ، فالتفت الى الأنصار وهم ناحية فناداهم : يا أنصار الله وأنصار رسوله إلىّ عباد الله أنا رسول الله ، فجثوا يبكون وقالوا : يارسول الله ورب الكعبة اليك والله : فنكسوا رءوسهم يبكون وقدموا أسيافهم يضربون بين يدى رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليهم . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع أن رجلا قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله (ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم) . قال الربيع وكانوا اثنى عشر ألفا : منهم ألفان من أهل مكة . وأخرج الطبرانى والحاكم وصححه وأبونعيم والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود : قال كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار ، فكنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدما ، فقال ناولنى كفا من تراب فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا ، وولى المشركون أدبارهم ، ووقعة حنين مذكورة فى كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها فلا نطول بذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (وأنزل جنودا لم تروها) قال هم الملائكة (وعذب الذين كفروا) قال قتلهم بالسيف . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير :

قال فى يوم حنين أمدّ الله رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، ويومئذ سمى الله الأنصار مؤمنين قال فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . وأخرج ابن اسحق وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جبير بن مطعم : قال رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل النجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم فنظرت فاذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ، ولم تكن الا هزيمة القوم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ *

النجس مصدر لايثنى ولايجمع ، يقال رجل نجس وامرأة نجس ، ورجلان نجس ، وامرأتان نجس ، ورجال نجس ، ونساء نجس ، و يقال نجس ونجس بكسر الجيم وضمها ، و يقال نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك ، قيل لاتستعمل الاذاقيل معه رجس ، وقيل ذلك أكثرىّ لا كلىّ ، والمشركون مبتدأ ، وخبره المصدر مبالغة فى وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة ، أوعلى تقدير مضاف : أى ذو نجس ، لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس . وقال قتادة ومعمر وغيرهما انهم وصفوا بذلك لأنهم لايتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجاسات .

وقد استدلّ بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات كما ذهب اليه بعض الظاهرية والزيدية . وروى عن الحسن البصرى وهو محكى عن ابن عباس . وذهب الجمهور من السلف والخلف ، ومنهم أهل المذاهب الأربعة الى أن الكافر ليس بنجس الذات ، لأن الله سبحانه أحلّ طعامهم ، وثبت عن النبى ﷺ فى ذلك من فعله وقوله مايفيد عدم نجاسة ذواتهم : فأكل فى آنيتهم ، وشرب منها ، وتوضأ فيها ، وأنزلهم فى مسجده * قوله (فلايقربوا المسجد الحرام) الفاء للتفريع ، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرّع على نجاستهم * والمراد بالمسجد الحرام : جميع الحرم ، روى ذلك عن عطاء ، فيمنعون عنده من جميع الحرم ، وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم .

وقد اختلف أهل العلم فى دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد ، فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد . وقال الشافعى الآية عامة فى سائر المشركين خاصة فى المسجد الحرام ، فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد . قال ابن العربى وهذا جمود منه على الظاهر ، لأن قوله تعالى (انما المشركون نجس) تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة ، ويجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه ﷺ لثمامة ابن أثال فى مسجده ، و إنزال وفد ثقيف فيه ، وروى عن أبى حنيفة مثل قول الشافعى ، وزاد أنه يجوز دخول الذمى سائر المساجد من غير حاجة ، وقيده الشافعى بالحاجة . وقال قتادة انه يجوز ذلك للذمىّ دون المشرك * وروى عن أبى حنيفة أيضا أنه يجوز لهم دخول الحرم ، والمسجد الحرام ، وسائر المساجد ، ونهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى للمسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك فهو من باب قولهم : لا أرينك هاهنا * قوله (بعد عامهم هذا) فيه قولان : أحدهما انه سنة تسع ، وهى التى حج فيها أبو بكر على الموسم ، الثانى أنه سنة عشر . قاله قتادة : قال ابن العربى : وهو الصحيح الذى يعطيه مقتضى

اللفظ ، وان من العجب أن يقال انه سنة تسع ، وهو العام الذى وقع فيه الأذان ، ولودخل غلام رجل داره يوما ، فقال له مولاه لاتدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن المراد اليوم الذى دخل فيه انتهى ، ويجاب عنه بأن الذى يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف مازعمه ، فان الاشارة بقوله (بعد عامهم هذا) الى العام المذكور قبل اسم الاشارة ، وهو عام النداء ، وهكذا فى المثال الذى ذكره المراد النهى عن دخولها بعد يوم الدخول الذى وقع فيه الخطاب ، والأمر ظاهر لايخفى ، ولعله أراد تفسير بعد المضاف إلى عامهم ، ولاشك أنه عام عشر ، وأما تفسير العام المشار اليه بهذا ، فلاشك ولاريب أنه عام تسع ، وعلى هذا يحمل قول قتادة . وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام ، وغيره من المساجد بهذا القيد ، أعنى قوله (بعد عامهم هذا) قائلا ان النهى مختص بوقت الحج والعمرة ، فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط لاعن مطلق الدخول ، ويجاب عنه بأن ظاهر النهى عن القربان بعد هذا العام ، يفيد المنع من القربان فى كل وقت من الأوقات الكائنة بعده وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص * قوله (وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) العيلة الفقر : يقال عال الرجل يعيل اذا افتقر ، قال الشاعر :

ومايدرى الفقير متى غناه * ومايدرى الغنى متى يعيل

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود عايلة ، وهو مصدر كالقايلة ، والعافية ، والعاقبة ، وقيل معناه خصلة شاقة : يقال عالنى الأمر يعولنى : أى شق على واشتد ، وحكى ابن جرير الطبرى : أنه يقال عال يعول اذا افتقر ، وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم ، وهم كانوا يجلبون اليه الأطعمة ، والتجارات قذف الشيطان فى قلوبهم الخوف من الفقر ، وقالوا من أين نعيش ؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله) الآية ، وقال عكرمة أغناهم بادرار المطر ، والنبات وخصب الأرض وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ماأغناهم الله به ، وقيل أغناهم بالفىء ، وفائدة التقييد بالمشيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك فى كل مايتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل ، ولئلا يفتروا عن الدعاء والتضرع (ان الله عليم) باحوالكم (حكيم) فى إعطائه ومنعه ، ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن * قوله (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله) الآية ، فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف . قال أبو الوفاء بن عقيل : ان قوله (قاتلوا) أمر بالعقوبة ، ثم قال (الذين لايؤمنون بالله) فبين الذنب الذى توجبه العقوبة ، ثم قال (ولاباليوم الآخر) فأكد الذنب فى جانب الاعتقاد ، ثم قال (ولايحرمون ماحرم الله ورسوله) فيه زيادة للذنب فى مخالفة الأعمال ، ثم قال (ولا يدينون دين الحق) فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف ، والمعاندة ، والأنفة عن الاستسلام ، ثم قال (من الذين أوتوا الكتاب) تأكيد للحجة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، ثم قال (حتى يعطوا الجزية) فبين الغاية التى تمتد اليها العقوبة انتهى * قوله (من الذين أوتوا الكتاب) بيان للموصول مع مافى حيزه وهم أهل التوراة والانجيل * قوله (حتى يعطوا الجزية عن يد) الجزية وزنها فعلة من جزى يجزى ، اذا كافأ عما أسدى اليه فكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن ، وقيل سميت جزية : لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه : أى يقضوه ، وهى فى الشرع مايعطيه المعاهد على عهده ، (وعن يد) فى محل نصب على الحال * والمعنى عن يد مواتية غير ممتنعة ، وقيل معناه يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحدا ، وقيل معناه نقد غير نسيئة ، وقيل عن قهر ، وقيل معناه عن إنعام منكم عليهم ، لأن أخذها منهم نوع من أنواع الانعام عليهم ، وقيل معناه مذمومون ، وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعى وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه والثورى وأبو ثور الى أنها لاتقبل الجزية إلا من أهل الكتاب ، وقال الأوزاعى ومالك : ان

الجزية

الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائنا من كان ، ويدخل فى أهل الكتاب على القول الأوّل المجوس . قال ابن المنذر لا أعلم خلافا فى أن الجزية تؤخذ منهم .

واختلف أهل العلم فى مقدار الجزية ، فقال عطاء لامقدار لها ، وإنما تؤخذ على ماصولحوا عليه ، وبه قال يحيى بن آدم وأبو عبيد وابن جرير إلا أنه قال : أقلها دينار وأكثرها لاحدّ له ، وقال الشافعى دينار على الغنىّ والفقير من الأحرار البالغين لاينقص منه شيء ، وبه قال أبو ثور : قال الشافعى وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز وإذا زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم ، وقال مالك إنها أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهما على أهل الورق ، الغنىّ والفقير سواء ، ولو كان مجوسيا لايزيد ولاينقص ، وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل اثنا عشر وأربعة وعشرون وثمانية وأربعون ، والكلام فى الجزية مقرّر فى مواطنه ، والحق من هذه الأقوال قد قرّرناه فى شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا * قوله (وهم صاغرون) فى محل نصب على الحال ، والصغار الذل * والمعنى ان الذمىّ يعطى الجزية حال كونه صاغرا ، قيل وهو أن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم ، والمتسلم قاعد ، وبالجملة ينبغى للقابض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغرا ذليلا .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله فى قوله (إنما المشركون نجس) الآية : قال الا أن يكون عبدا أو أحدا من أهل الذمة ، وقد روى مرفوعا من وجه آخر . أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ لايدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم . قال ابن كثير تفرّد به أحمد مرفوعا ، والموقوف أصح . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون به ، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت ، قال المسلمون ، فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله (وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) قال ، فأنزل الله عليهم المطر ، وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم . وأخرج ابن مردويه عنه قال : فأغناهم الله من فضله وأمرهم بقتال أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (وان خفتم عيلة) قال الفاقة . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (فسوف يغنيكم الله من فضله) قال بالجزية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن الضحاك مثله . وأخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله (إنما المشركون نجس) قال قذر . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا : قال من صافحهم فليتوضأ . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من صافح مشركا فليتوضأ أو ليغسل كفيه » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى سننه عن مجاهد فى قوله (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله) قال : نزلت هذه الآية ، حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك . وأخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال : نزلت فى كفار قريش والعرب (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) وأنزلت فى أهل الكتاب (قاتلوا الذين لايؤمنو بالله) الآية الى قوله (حتى يعطوا الجزية) فكان أوّل من أعطى الجزية أهل نجران . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله) يعنى : الذين لايصدّقون بتوحيد الله (ولايحرّمون ماحرّم الله ورسوله) يعنى الخمر والخنزير (ولايدينون دين الحق) يعنى : دين الاسلام (من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) يعنى مذللون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (عن يد) قال : عن قهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله (عن يد) قال : من يده ولايبعث بها غيره .

IX. 30-14



وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى سنان فى قوله (عن يد) قال : عن قدرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وهم صاغرون) قال : يمشون بها متلتلين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : قال يلكزون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سلمان فى الآية : قال غير محمودين .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ *

قوله (وقالت اليهود عزير بن الله) كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين ، وعزير مبتدأ وابن الله خبره ، وقد قرأ عاصم والكسائى عزير بالتنوين . وقرأ الباقون بترك التنوين لاجتماع العجمة والعلمية فيه ، ومن قرأ بالتنوين فقد جعله عربيا ، وقيل ان سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعا بل لاجتماع الساكنين ، ومنه قراءة من قرأ ــ قل هو الله أحدُ الله الصمد ــ . قال أبو على الفارسى وهو كثير فى الشعر ، وأنشد ابن جرير الطبرى :

* لتجدنى بالامير برا * وبالقناة لامرا مكرا * اذا غطيف السلمى فرا *

وظاهر قوله (وقالت اليهود) أن هذه المقالة لجميعهم ، وقيل هو لفظ خرج على العموم ، ومعناه الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم ، وقال النقاش لم يبق يهودى يقولها ؟ بل قد انقرضوا ، وقيل انه قال ذلك للنبى ﷺ جماعة منهم ، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود ، لأن قول بعضهم لازم لجميعهم * قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله) قالوا هذا لما رأوا من إحيائه للموتى مع كونه من غير أب ، فكان ذلك سببا لهذه المقالة ، والأولى أن يقال : انهم قالوا هذه المقالة لكون فى الانجيل وصفه تارة بابن الله ، وتارة بابن الانسان كما رأينا ذلك فى مواضع متعددة من الانجيل ، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف ، والتكريم أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة ، قيل : وهذه المقالة إنما هى لبعض النصارى لا لكلهم * قوله (ذلك قولهم بأفواههم) الاشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة ، ووجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا بالفم ، بأن هذا القول لما كان ساذجا ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرّد دعوى ، لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التى ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه ، غير مفيدة لفائدة يعتدّ بها ، وقيل ان ذكر الأفواه لقصد التأكيد كما فى كتبت بيدى ، ومشيت برجلى ، ومنه قوله تعالى ــ يكتبون الكتاب بأيديهم ــ * وقوله ــ ولا طائر يطير بجناحيه ــ ، وقال بعض أهل العلم : ان الله سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زورا كقوله ــ يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ــ * وقوله ــ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ــ * وقوله ــ يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم * قوله (يضاهئون قول الذين كفروا) المضاهاة المشابهة : قيل ، ومنه قول العرب امرأة ضهياء ، وهى التى لا تحيض لأنها شابهت الرجال . قال أبو على الفارسى : من قال (يضاهئون)

مأخوذ من قولهم : امرأة ضهياء فقوله خطأ ، لأن الهمزة فى ضاهأ أصلية ، وفى ضهياء زائدة كحمراء ، وأصله يضاهئون وامرأة ضهياء * ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم ، الأول أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان فى قولهم واللات والعزى ومناة بنات الله ، القول الثانى أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين : ان الملائكة بنات الله ، الثالث أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزير ابن الله وأن المسيح ابن الله * قوله (قاتلهم الله) دعاء عليهم بالهلاك ، لأن من قاتله الله هلك ، وقيل هو تعجب من شناعة قولهم ، وقيل معنى قاتلهم الله لعنهم الله ، ومنه قول أبان بن تغلب :

قاتلها الله تلحانى وقد علمت * أنى لنفسى افسادى واصلاحى

وحكى النقاش أن أصل قاتل الله : الدعاء ، ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه على التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء ، وأنشد الأصمعى :

ياقاتل الله ليلى كيف تعجبنى * وأخبر الناس أنى لا أباليها

(أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق الى الباطل * قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) الأحبار : جمع حبر ، وهو الذى يحسن القول ، ومنه ثوب محبر ، وقيل جمع حبر بكسر الحاء قال يونس : لم أسمعه الا بكسر الحاء ، وقال الفراء : الفتح والكسر لغتان . وقال ابن السكيت : الحبر بالكسر العالم ، والحبر بالفتح العالم * والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة : وهم علماء النصارى كما أن الأحبار علماء اليهود ، ومعنى الآية أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أربابا لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب * قوله (والمسيح ابن مريم) معطوف على رهبانهم : أى اتخذه النصارى ربا معبودا ، وفيه اشارة الى أن اليهود لم يتخذوا عزيرا ربا معبودا * وفى هذه الآية مايزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله ، وتأثير مايقوله الأسلاف على مافى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فان طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ، ونطقت به كتبه وأنبياؤه هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ماحرموا وحللوا ماحللوا ، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة ، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة ، والتمرة بالتمرة ، والماء بالماء ، فياعباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله مابالكم تركتم الكتاب والسنة جانبا ؟ وعمدتم الى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاداه ، فعلتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق ، ولم تعضد بعضد الدين ، ونصوص الكتاب والسنة ، تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه فأعرتموهما آذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأفهاما مريضة ، وعقولا مهيضة ، وأذهانا كليلة ، وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا الا من غزية ان غوت * غويت وان ترشد غزية أرشد

فدعوا أرشدكم الله واياى كتبا كتبها لكم الأموات من أسلافكم واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وماجاءوكم به من الرأى بأقوال امامكم وامامهم وقدوتكم وقدوتهم : وهو الامام الأول محمد بن عبدالله ﷺ

دعوا كل قول عند قول محمد * فما آمن فى دينه كمخاطر

اللهم هادى الضال ، مرشد التائه ، موضح السبيل ، اهدنا الى الحق وأرشدنا الى الصواب ، وأوضح لنا منهج الهداية * قوله (وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحدا) هذه الجملة فى محل نصب على الحال : أى

اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ، والحال أنهم ماأمروا الا بعبادة الله وحـده ، أو وما أمر الذين اتخذوهم أربابا من الأحبار والرهبان الا بذلك ، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أربابا * قوله (لا إله الا هو) صفة ثانية لقوله إلها (سبحانه عما يشركون) أى تنزيها له عن الاشراك فى طاعته وعبادته * قوله (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) هـذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق : وهو ماراموه من إبطال الحق بأقاويلهم الباطلة التى هى مجرد كلمات ساذجة ومجادلات زائفة وهذا تمثيل لحالهم فى محاولة إبطال دين الحق ونبوّة نبىّ الصدق بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم قد أنارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفئه ويذهب أضواءه (ويأبى الله الا أن يتمّ نوره) أى دينه القويم ، وقد قيل كيف دخلت الا الاستثنائية على يأبى ، ولا يجوز كرهت أو بغضت الا زيدا . قال الفراء : انما دخلت لأن فى الكلام طرفا من الجحد . وقال الزجاج : ان العرب تحذف مع أبى ، والتقدير ويأبى الله كل شئ الا أن يتم نوره . وقال على بن سليمان : انما جاز هذا فى أبى ، لأنها منع أو امتناع فضارعت النفى ، قال النحاس : وهذا أحسن كما قال الشاعر :

وهل لى أمّ غيرها ان تركتها * أبى الله الا أن أكون لها ابنا

وقال صاحب الكشاف : ان أبى قد أجرى مجرى لم يرد : أى ولا يريد الا أن يتمّ نوره * قوله (ولو كره الكافرون) معطوف على جملة قبلها مقدرة : أى أبى الله الا أن يتم نوره ولو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوا ، ثم أكد هذا بقوله (هو الذى أرسل رسوله بالهدى) أى بما يهدى به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التى شرعها الله لعباده (ودين الحق) وهو الاسلام (ليظهره) أى ليظهر رسوله ، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين ، وقد وقع ذلك ولله الحمد (ولو كره المشركون) الكلام فيه كالكلام فى — ولو كره الكافرون — كما قدمنا ذلك .

وقد أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك ، وقد تركت قبلتنا وأنت لاتزعم أن عزير ابن الله ، فأنزل الله (وقالت اليهود عزير ابن الله) الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه قال : كنّ نساء بنى اسرائيل يجتمعن بالليل فيصلين ويعتزلن ويذكرن مافضل الله به بنى اسرائيل وماأعطاهم ، ثم سلط عليهم شر خلقه بختنصر ، فحرق التوراة ، وخرب بيت المقدس ، وعزير يومئذ غلام ، فقال عزير أو كان هذا ؟ فلحق بالجبال والوحش فجعل يتعبد فيها ، وجعل لايخالط الناس ، فاذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر وهى تبكى ، فقال : ياأمه اتقى الله واحتسبى واصبرى أما تعلمين أن سبيل الناس الى الموت ، فقالت ياعزير أتنهانى أن أبكى وأنت قد خلفت بنى اسرائيل ولحقت بالجبال والوحش ، ثم قالت انى لست بامرأة ولكنى الدنيا ، وانه سينبع فى مصلاك عين وتنبت شجرة فاشرب من ماء العين وكل من ثمرة الشجرة فانه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ماأرادا ، فلما كان من الغد نبعت العين ونبتت الشجرة ، فشرب من ماء العين وأكل من ثمرة الشجرة ، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه مافيها فألهمه الله التوراة ، فجاء فأملاه على الناس ، فعند ذلك قالوا عزير ابن الله ، تعالى الله عن ذلك . وأخرج بن أبى حاتم عنه أيضا نحو قصة ، وفيها أن عزير سأل الله بعد ماأنسى بنى اسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم أن يردّ الذى نسخ من صدره ، فبينما هو يصلى نزل نور من الله عزّ وجلّ ، فدخل جوفه فعاد اليه الذى كان ذهب من جوفه من التوراة فأذن فى قومه فقال : ياقوم قد آتانى الله التوراة وردّها إلىّ . وأخرج أبو الشيخ عن كعب قال : دعا عزير ربه أن يلقى التوراة كما أنزل على موسى فى قلبه ، فأنزلها

الله عليه فبعد ذلك قالوا : عزير ابن الله . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : ثلاث أشك فيهن فلا أدرى عزير كان نبيا أم لا ، ولا أدرى ألعن تبع أم لا ؟ قال ونسيت الثالثة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (يضاهئون) قال : يشبهون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (قاتلهم الله) قال لعنهم الله وكل شئ فى القرآن قتل فهو لعن . وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد والترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) فقال أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا اذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، واذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه . وأخرجه أيضا أحمد وابن جرير . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى سننه عن أبى البخترى قال : سأل رجل حذيفة فقال : أرأيت قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) أ كانوا يعبدونهم ؟ قال : لا ولكنهم كانوا اذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، واذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : أحبارهم قراؤهم ، ورهبانهم علماؤهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله . وأخرج أيضا عن الفضيل بن عياض قال : الاحبار العلماء والرهبان العباد . وأخرج أيضا عن السدّى فى قوله (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) قال : يريدون أن يطفئوا الاسلام بأقوالهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) يقول : يريدون أن يهلك محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى) يعنى بالتوحيد والاسلام والقرآن

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۞

لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الأحبار والرهبان المتخذين لهم أربابا ذكر حال المتبوعين فقال (ان كثيرا من الأحبار) الى آخره ، ومعنى أكلهم لأموال الناس بالباطل أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة ، وأثبت هذا للكثير منهم ، لأن فيهم من لم يتلبس بذلك ، بل بقى على ما يوجبه دينه من غير تحريف ولا تبديل ولا ميل الى حطام الدنيا ، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحبار والرهبان من علماء الاسلام من لا يأتى عليه الحصر فى كل زمان ، فالله المستعان ۞ قوله (ويصدّون عن سبيل الله) أى عن الطريق اليه وهو دين الاسلام ، أو عن ما كان حقا فى شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل ۞ قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) قيل هم المتقدّم ذكرهم من الأحبار والرهبان ، وانهم كانوا يصنعون هذا الصنع ، وقيل هم من يفعل ذلك من المسلمين ، والأولى حمل الآية على عموم اللفظ فهو أوسع من ذلك ، وأصل الكنز فى اللغة الضم والجمع ، ولا يختص بالذهب والفضة . قال ابن جرير : الكنز كل شيء مجموع بعضه الى بعض فى بطن الأرض كان أو على ظهرها انتهى ، ومنه ناقة كناز : أى مكتنزة اللحم ، واكتنز الشيء : اجتمع .

واختلف أهل العلم فى المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أم لا ؟ فقال قوم هو كنز ، وقال آخرون ليس بكنز ، ومن القائلين بالقول الأول أبوذر ، وقيده بما فضل عن الحاجة ، ومن القائلين بالقول الثانى عمر ابن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو الحق لما سيأتى من الأدلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز * قوله (ولا ينفقونها فى سبيل الله) اختلف فى وجه إفراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين ، هما الذهب والفضة : فقال ابن الانبارى انه قصد الى الأعم الأغلب وهو الفضة قال : ومثله * قوله تعالى — واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة — ردّ الكناية الى الصلاة لأنها أعم ، ومثله * قوله — واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها — أعاد الضمير الى التجارة ، لأنها الأهم ، وقيل ان الضمير راجع الى الذهب ، والفضة معطوفة عليه ، والعرب تؤنث الذهب وتذكره ، وقيل ان الضمير راجع الى الكنوز المدلول عليها بقوله (يكنزون) وقيل الى الأموال ، وقيل للزكاة ، وقيل انه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى ، وهو كثير فى كلام العرب ، وأنشد سيبويه :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راض والرأى مختلف

ولم يقل راضون ، ومثله قول الآخر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى * بريا ومن أجل الطوى رمانى

ولم يقل بريين ، ومثله قول حسان :

ان شرخ الشباب والشعر الأسـ * ود مالم يعاض كان جنونا

ولم يقل يعاضا ، وقيل ان إفراد الضمير من باب الذهاب الى المعنى دون اللفظ ، لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية ، وعدة كثيرة ، ودنانير ودراهم ، فهو كقوله — وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا — وانما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء ، وغالب ما يكنز ، وان كان غيرهما له حكمهما فى تحريم الكنز * قوله (فبشرهم بعذاب أليم) هو خبر الموصول ، وهو من باب التهكم بهم كما فى قوله : * تحية بينهم ضرب وجيع * وقيل ان البشارة هى الخبر الذى يتغير له لون البشرة لتأثيره فى القلب ، سواء كان من الفرح أو من الغم * ومعنى (يوم يحمى عليها فى نار جهنم) أن النار توقد عليها وهى ذات حمى وحرّ شديد ، ولو قال يوم تحمى : أى الكنوز لم يعط هذا المعنى ، فجعل الاحماء للنار مبالغة ، ثم حذف النار وأسند الفعل الى الجار كما تقول رفعت القصة الى الأمير ، فان لم تذكر القصة قلت رفع الى الأمير . وقرأ ابن عامر تحمى بالمثناة الفوقية . وقرأ أبو حيوة فيكوى بالتحتية ، وخص الجباه والجنوب والظهور لكون التألم بكيها أشد لما فى داخلها من الأعضاء الشريفة ، وقيل ليكون الكىّ فى الجهات الأربع : من قدام ، وخلف ، وعن يمين ، وعن يسار ، وقيل لأن الجمال فى الوجه ، والقوة فى الظهر والجنبين ، والانسان انما يطلب المال للجمال والقوة ، وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف * قوله (هذا ما كنزتم لأنفسكم) أى يقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم : أى كنزتموه لتنتفعوا به فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ (فذوقوا ما كنتم تكنزون) ما مصدرية أو موصولة : أى ذوقوا وباله ، وسوء عاقبته ، وقبح مغبته ، وشؤم فائدته .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (ان كثيرا من الأحبار والرهبان) يعنى علماء اليهود والنصارى (ليأكلون أموال الناس بالباطل) والباطل كتب كتبوها لم ينزلها الله فأكلوا بها أموال الناس ، وذلك قول الله تعالى — فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله — . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) قال هؤلاء الذين لا يؤدّون

IX 16.07



الزكاة من أموالهم ، وكل مال لاتؤدّى زكاته كان على ظهر الأرض أو فى بطنها فهو كنز ، وكل مال أديت زكاته فليس بكنز ، كان على ظهر الأرض أو فى بطنها . وأخرجه عنه ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ من وجه آخر . وأخرج مالك وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه مرفوعا . وأخرج ابن عدىّ والخطيب عن جابر نحوه مرفوعا أيضا . وأخرجه ابن أبى شيبة عنه موقوفا . وأخرج أحمد فى الزهد والبخارى وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى الآية : قال انما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للأموال ، ثم قال ماأبالى لو كان عندى مثل أحد ذهبا أعلم عدده وأزكيه وأعمل فيه بطاعة الله ؟ وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال ليس بكنز ماأدّى زكاته . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أمّ سلمة مرفوعا نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده وأبو داود وأبو يعلى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة) كبر ذلك على المسلمين ، وقالوا مايستطيع أحد منا لولده مالا يبقى بعده ، فقال عمر أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان ، فأتى النبى ﷺ ، فقال يانبىّ الله انه قد كبر على أصحابك هذه الآية ، فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها مابقى من أموالكم ، وانما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم ، فكبر عمر ، ثم قال له النبى ﷺ « ألا أخبرك بخير مايكنز المرء : المرأة الصالحة التى اذا نظر اليها سرّته ، واذا أمرها أطاعته ، واذا غاب عنها حفظته » . وقد أخرجه أحمد والترمذ وحسنه وابن ماجه عن سالم بن أبى الجعد من غير وجه عن ثوبان . وحكى البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) قال هم أهل الكتاب ، وقال هى خاصة وعامة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة ومافوقها كنز . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة قال : حلية السيوف من الكنوز ماأحدثكم الاماسمعت . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز أنهما قالا فى قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) انها نسختها الآية الأخرى ــ خذ من أموالهم صدقة ــ الآية . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « مامن صاحب ذهب ولافضة لايؤدى زكاتها الاجعل له يوم القيامة صفائح ، ثم أحمى عليها فى نار جهنم ، ثم يكوى بها جنباه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ، إما إلى الجنة ، وإما الى النار . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب . قال مررت على أبى ذر بالربذة فقلت ماأنزلك بهذه الأرض ؟ فقال كنا بالشأم فقرأت (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية ، فقال معاوية ماهذه فينا ، ماهذه الافى أهل الكتاب ، قلت انها لفينا وفيهم .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۞ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۞

قوله (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار ، وذلك أن الله سبحانه لما حكم فى كل وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسىء والكبيسة فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال (إن عدة الشهور) أى عدد شهور السنة عند الله فى حكمه وقضائه وحكمته اثنا عشر شهرا * قوله (فى كتاب الله) أى فيما أثبته فى كتابه . قال أبو على الفارسى لا يجوز : أن يتعلق فى كتاب الله بقوله : عدة الشهور ، للفصل بالأجنبي وهو الخبر : أعنى اثنا عشر شهرا فقوله : فى كتاب الله ، وقوله : يوم خلق بدل من قوله من عند الله ، والتقدير ان عدة الشهور عند الله فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، وفائدة الابدالين تقرير الكلام فى الأذهان لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند الله فى كتاب الله وثابت فى علمه فى أول ما خلق الله العالم ، ويجوز أن يكون فى كتاب الله صفة اثنا عشر : أى اثنا عشر مثبتة فى كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ * وفى هذه الآية بيان أن الله سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض ، وأن هذا هو الذى جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب ، وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التى يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوما ، و بعضها أكثر ، و بعضها أقل * قوله (منها أربعة حرم) هى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، كما ورد بيان ذلك فى السنة المطهرة * قوله (ذلك الدين القيم) أى كون هذه الشهور كذلك ، ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم ، والحساب الصحيح ، والعدد المستوفى * قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى فى هذه الأشهر الحرم بايقاع القتال فيها والهتك لحرمتها ، وقيل ان الضمير يرجع الى الشهور كلها الحرم وغيرها ، وان الله نهى عن الظلم فيها ، والأول أولى ، وقد ذهب جماعة من أهل العلم الى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية ، ولقوله ــ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ــ ولقوله ــ فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ــ الآية .

وقد ذهب جماعة آخرون الى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف ، ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما فى الآية المذكورة . فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم كما هى مقيدة بتحريم القتال فى الحرم للأدلة الواردة فى تحريم القتال فيه ، وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرتهم فى ذى القعدة بل فى شوّال ، والمحرّم انما هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم لا اتمامه ، وبهذا يحصل الجمع * قوله (وقاتلوا المشركين كافة) أى جميعا ، وهو مصدر فى موضع الحال . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع (كما يقاتلونكم كافة) أى جميعا ، وفيه دليل على وجوب قتال المشركين ، وأنه فرض على الأعيان ان لم يقم به البعض (واعلموا أن الله مع المتقين) أى ينصرهم ويثبتهم ، ومن كان الله معه فهو الغالب ، وله العاقبة والغلبة * قوله (إنما النسىّ زيادة فى الكفر) قرأ نافع فى رواية ورش عنه النسىّ بياء مشدّدة بدون همز . وقرأ الباقون بياء بعدها همزة . قال النحاس : ولم يرو أحد عن نافع هذه القراءة الا ورش وحده ، وهو مشتق من نساه وأنساه : اذا أخره ، حكى ذلك الكسائى . قال الجوهرى : النسىء فعيل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشىء فهو منسوء . اذا أخرته ، ثم تحوّل منسوء الى نسىء كما تحوّل مقتول الى قتيل . قال ابن جرير : فى النسىء بالهمزة معنى الزيادة ، يقال : نسأ ينسأ اذا زاد ، قال ولا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان كما قال تعالى ــ نسوا الله فنسيهم ــ ، وردّ على نافع قراءته * وكانت العرب تحرّم

القتال فى الأشهر الحرم المذكورة ، فاذا احتاجوا الى القتال فيها قاتلوا فيها وحرّموا غيرها ، فاذا قاتلوا فى المحرّم حرّموا بدله شهر صفر ، وهكذا فى غيره ، وكان الذى يحملهم على هذا أن كثيرا منهم انما كانوا يعيشون بالغارة على بعضهم البعض ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه ويقع بينهم بسبب ذلك القتال ، وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرّبهم تواليها وتشتدّ حاجتهم ، وتعظم فاقتهم فيحللون بعضها ويحرّمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم ، فهذا هو معنى النسيء الذى كانوا يفعلونه ، وقد وقع الخلاف فى أوّل من فعل ذلك فقيل هو رجل من بنى كنانة يقال له حذيفة بن عتيد ، ويلقب القلمس . واليه يشير الكميت بقوله :

ألسنا الناسئين على معدّ * شهور الحلّ نجعلها حراما

وفيه يقول قائلهم * ومنا ناسئ الشهر القلمس * وقيل هو عمرو بن لحىّ ، وقيل هو نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة ، وسمى الله سبحانه النسيء زيادة فى الكفر لأنه نوع من أنواع كفرهم ، ومعصية من معاصيهم المنضمة الى كفرهم بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر * قوله (يضل به الذين كفروا) : قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر (يَضل) على البناء للمعلوم . وقرأ الكوفيون على البناء للمجهول ، ومعنى القراءة الأولى أن الكفار يضلون بما يفعلونه من النسيء ، ومعنى القراءة الثانية أن الذى سنّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة ، وقد اختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد . وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب (يُضل) بضم الياء وكسر الضاد على أن فاعله الموصول ومفعوله محذوف ، ويجوز أن يكون فاعله هو الله سبحانه ومفعوله الموصول . وقرئ بفتح الياء والضاد من ضل يضل . وقرئ نضل بالنون * قوله (يحلونه عاما ويحرّمونه عاما) الضمير راجع الى النسيء : أى يحلون النسيء عاما ويحرّمونه عاما ، أو الى الشهر الذى يؤخرونه ويقاتلون فيه : أى يحلونه عاما بابداله بشهر آخر من شهور الحل ، ويحرمون عاما أى يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال ، بل يبقونه على حرمته * قوله (ليواطئوا عدّة ما حرّم الله) أى لكى يواطئوا ، والمواطأة الموافقة : يقال تواطأ القوم على كذا : أى توافقوا عليه ، واجتمعوا * والمعنى : انهم لم يحلوا شهرا الا حرّموا شهرا ، لتبقى الأشهر الحرم أربعة . قال قطرب : معناه عمدوا الى صفر فزادوه فى الأشهر الحرم وقرنوه بالمحرّم فى التحريم ، وكذا قال الطبرى * قوله (فيحلوا ما حرّم الله) أى من الأشهر الحرم التى أبدلوها بغيرها (زين لهم سوء أعمالهم) أى زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التى يعملونها ، ومن جملتها النسيء . وقرئ على البناء للفاعل (والله لا يهدى القوم الكافرين) أى المصرّين على كفرهم المستمرين عليه ، فلا يهديهم هداية توصلهم الى المطلوب ، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والارشاد اليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكر أن النبى ﷺ خطب فى حجته ، فقال « ان الزمان قد استدارك كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرّم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » . وأخرج نحوه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث ابن عمر . وأخرج نحوه ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث ابن عباس . وأخرج نحوه أيضا البزار وابن جرير وابن مردويه من حديث أبى هريرة . وأخرجه أحمد وابن مردويه من حديث أبى حرة الرقاشى عن عمه مرفوعا مطوّلا . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن ابن عباس (منها أربعة حرم) قال : المحرّم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : انما سمين حرما لئلا يكون فيهن حرب . وأخرج ابن المنذر وابن

IX-580-62



أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله) ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرما ، وعظم حرماتهن ، وجعل الذنب فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قال : فى كلهن (وقاتلوا المشركين كافة) يقول جميعا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل فى قوله (وقاتلوا المشركين كافة) قال : نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كانت العرب يحلون عاما شهرا ، وعاما شهرين ولا يصيبون الحج إلا فى كل ستة وعشرين سنة مرة ، وهى النسىء الذى ذكره الله فى كتابه ، فلما كان عام حج أبو بكر بالناس وافق ذلك العام ، فسماه الله الحج الأكبر ، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل ، واستقبل الناس الأهلة ، فقال رسول الله ﷺ « ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة ، فقال « انما النسىء من الشيطان زيادة فى الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرّمونه عاما ، فكانوا يحرّمون المحرّم عاما ، ويستحلون صفر ويحرّمون صفر عاما ، ويستحلون المحرّم ، وهى النسىء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : قال كان جنادة ابن عوف الكنانى يوافى الموسم كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة فينادى ألا ان أبا ثمامة لا يخاب ، ولا يعاب ألا وان صفر الأول العام حلال فيحله للناس ، فيحرّم صفر عاما ، ويحرم المحرّم عاما . فذلك قوله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية : قال المحرّم كانوا يسمونه صفر ، وصفر يقولون صفران الأول والآخر ، يحلّ لهم مرّة الأول ، ومرّة الآخر . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كانت النساءة حىّ من بنى مالك من كنانة من بنى فقيم ، فكان آخرهم رجلا يقال له القلمس ، وهو الذى أنسأ المحرم .

يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ *

قوله (يا أيها الذين آمنوا) لما شرح معايب أولئك الكفار عاد الى ترغيب المؤمنين فى قتالهم ، والاستفهام فى (مالكم) للانكار والتوبيخ : أى أىّ شىء يمنعكم عن ذلك ، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا لمن تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، والنفر هو

الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث * قوله (اثاقلتم إلى الأرض) أصله تثاقلتم أدغمت التاء فى الثاء لقربها منها ، وجيء بألف الوصل ليتوصل بها الى النطق بالساكن ، ومثله اداركوا واطيرتم واطيروا ، وأنشد الكسائى :

توالى الضجيع اذا ماشاقها حضرا * عذب المذاق اذا ماتابع القبل

وقرأ الأعمش (تثاقلتم) على الأصل ، ومعناه تباطأتم ، وعدّى بإلى لتضمنه معنى الميل والاخلاد ، وقيل معناه ملتم إلى الاقامة بأرضكم والبقاء فيها . وقرىء (آثاقلتم) على الاستفهام ، ومعناه التوبيخ والعامل فى الظرف ماق (مالكم) من معنى الفعل ، كأنه قيل ماعنعكم ، أو ماتصنعون اذا قيل لكم ؟ و (الى الأرض) متعلق باثاقلتم كما مر * قوله (أرضيتم بالحياة الدنيا) أى بنعيمها بدلا من الآخرة كقوله تعالى ـ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ـ أى بدلا منكم ، ومثله قول الشاعر

فليت لنا من ماء زمزم شربة * مبردة باتت على طهيان

أى بدلا من ماء زمزم ، والطهيان عود ينصب فى ناحية الدار للهواء يعلق عليه الماء ليبرد ، ومعنى (فى الآخرة) أى فى جنب الآخرة ، وفى مقابلها (إلا قليل) أى الامتاع حقير لايعبأ به ، ويجوز أن يراد بالقليل العدم ، إذ لانسبة للمتناهى الزائل الى غير المتناهى الباقى ، والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل ، اذ من البعيد أن يطبقوا جميعا على التباطؤ والتثاقل ، وإنما هو من باب نسبة مايقع من البعض إلى الكل ، وهو كثير شائع * قوله (إلا تنفروا يعذبكم) هذا تهديد شديد ، ووعيد مؤكد لمن ترك النفير مع رسول الله ﷺ (يعذبكم عذابا أليما) أى يهلككم بعذاب شديد مؤلم ، قيل فى الدنيا فقط ، وقيل هو أعمّ من ذلك * قوله (ويستبدل قوما غيركم) أى يجعل لرسله بدلا منكم ممن لايتباطأ عند حاجتهم اليهم . واختلف فى هؤلاء القوم من هم ؟ فقيل أهل اليمن ، وقيل أهل فارس ، ولاوجه للتعيين بدون دليل * قوله (ولا تضرّوه شيئا) معطوف على (يستبدل) ، والضمير قيل لله ، وقيل للنبى ﷺ : أى ولا تضروا الله بترك امتثال أمره بالنفير شيئا ، أو لاتضروا رسول الله بترك نصره والنفير معه شيئا (والله على كل شيء قدير) ، ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم * قوله (إلا تنصروه فقد نصره الله) أى ان تركتم نصره فالله متكفل به : فقد نصره فى مواطن القلة ، وأظهره على عدوّه بالغلبة والقهر ، أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه الا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه (ثانى اثنين) أى أحد اثنين ، وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضى الله عنه . وقرىء بسكون الياء . قال ابن جنى : حكاها أبو عمرو بن العلاء ، ووجهها أن تسكن الياء تشبيها لها بالألف . قال ابن عطية فهى كقراءة الحسن مابقى من الربا ، وكقول جرير :

هو الخليفة فارضوا مارضيه لكم * ماضى العزيمة ماق حكمه جنف

قوله (اذهما فى الغار) بدل من (اذ أخرجه) بدل بعض ، والغار : ثقب فى الجبل المسمى ثورا ، وهو المشهور بغار ثور ، وهو جبل قريب من مكة ، وقصة خروجه ﷺ من مكة الى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة مذكورة فى كتب السير والحديث * قوله (اذ يقول لصاحبه) بدل ثان : أى وقت قوله لأبى بكر (لاتحزن ان الله معنا) أى دع الحزن فان الله بنصره وعونه وتأييده معنا ، ومن كان الله معه فلن يغلب ، ومن لايغلب فيحق له أن لايحزن * قوله (فأنزل الله سكينته عليه) السكينة : تسكين جأشه وتأمينه حتى ذهب روعه وحصل له الأمن ، على أن الضمير فى (عليه) لأبى بكر ، وقيل هو للنبى ﷺ ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له ، ويؤيد

كون الضمير فى (عليه) للنبى ﷺ الضمير فى (وأيده بجنود لم تروها) فانه للنبى ﷺ لأنه المؤيد بهذه الجنود التى هى الملائكة كما كان فى يوم بدر، وقيل انه لامحذور فى رجوع الضمير من (عليه) إلى أبى بكر ومن (وأيده) الى النبى ﷺ فان ذلك كثير فى القرآن وفى كلام العرب (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) أى كلمة الشرك، وهى دعوتهم إليه، ونداؤهم للأصنام (وكلمة الله هى العليا) قرأ الأعمش ويعقوب بنصب كلمة حملا على جعل، وقرأ الباقون برفعها على الاستئناف. وقد ضعف قراءة النصب الفراء وأبو حاتم، وفى ضمير الفصل، أعنى (هى) تأكيد لفضل كلمته فى العلو وأنها المختصة به دون غيرها، وكلمة الله: هى كلمة التوحيد، والدعوة إلى الاسلام (والله عزيز حكيم) أى غالب قاهر لايفعل إلا مافيه حكمة وصواب، ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول ﷺ وضرب له من الأمثال ماذكره عقبه بالأمر الجزم فقال (انفروا خفافا وثقالا) أى حال كونكم خفافا وثقالا، قيل المراد منفردين أو مجتمعين، وقيل نشاطا وغير نشاط، وقيل فقراء وأغنياء، وقيل شبابا وشيوخا، وقيل رجالا وفرسانا، وقيل من لاعيال له ومن له عيال، وقيل من يسبق الى الحرب كالطلائع، ومن يتأخر كالجيش، وقيل غير ذلك، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى، لأن معنى الآية: انفروا خفت عليكم الحركة أوثقلت، قيل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى ـ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ـ، وقيل الناسخ لها قوله ـ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ـ الآية، وقيل هى محكمة وليست بمنسوخة، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله ـ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ـ وإخراج الضعيف والمريض بقوله ـ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ـ من باب التخصيص، لامن باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله (خفافا وثقالا) والظاهر عدم دخولهم تحت العموم * قوله (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال، وإيجابه على العباد: فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم * والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدوّ وبدفعه: فان كان لايقوم بالعدوّ الا جميع المسلمين فى قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين، والاشارة بقوله (ذلكم) الى ماتقدّم من الأمر بالنفير والأمر بالجهاد (خير لكم) أى خير عظيم فى نفسه، وخير من السكون والدعة (ان كنتم تعلمون) ذلك وتعرفون الأشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة * قوله (لوكان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك). قال الزجاج لو كان المدعوّ اليه فحذف لدلالة ماتقدّم عليه، والعرض: مايعرض من منافع الدنيا * والمعنى: غنيمة قريبة غير بعيدة (وسفرا قاصدا) عطف على ماقبله: أى سفرا متوسطا بين القرب والبعد، وكل متوسط بين الافراط والتفريط فهو قاصد (ولكن بعدت عليهم الشقة). قال أبو عبيدة وغيره: ان الشقة السفر الى أرض بعيدة، يقال منه شقة شاقة. قال الجوهرى: الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضا: السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر، والمراد بهذا: غزوة تبوك فانها كانت سفرة بعيدة شاقة. وقرأ عيسى بن عمر: بعدت عليهم الشقة بكسر العين والشين (وسيحلفون بالله) أى المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونكم قائلين (لو استطعنا لخرجنا معكم) أى لو قدرنا على الخروج ووجدنا مانحتاج اليه فيه مما لابدّ منه (لخرجنا معكم) هذه الجملة سادّة مسدّ جواب القسم والشرط * قوله (يهلكون أنفسهم) هو بدل من قوله (سيحلفون) لأن من حلف كاذبا فقد أهلك نفسه أو يكون حالا: أى مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك (والله يعلم انهم لكاذبون) فى حلفهم الذى سيحلفون به لكم.

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله

(يا أيها

(يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا) الآية . قال هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، وحين أمرهم بالنفير فى الصيف حين خرفت النخل، وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج فأنزل الله (انفروا خفافا وثقالا) . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) قال ان رسول الله ﷺ استنفر حيا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه، فأنزل الله هذه الآية فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال لما نزلت (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) وقد كان تخلف عنه أناس فى البدو يفقهون قومهم: فقال المؤمنون قد بقى ناس فى البوادى وقالوا هلك أصحاب البوادى، فنزلت (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) . وأخرج أبو داود وابن أبى حاتم والنحاس والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (الا تنفروا) الآية قال نسختها ـ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ـ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (الا تنصروه فقد نصره الله) قال ذكر ما كان من أوّل شأنه حين بعث، يقول: فأنا فاعل ذلك به، وناصره كما نصرته، إذ ذاك، وهو ثانى اثنين . وأخرج أبو نعيم والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب وعروة: أنهم ركبوا فى كل وجه يعنى المشركين يطلبون النبى ﷺ وبعثوا الى أهل المياه يأمرونهم ويجعلون لهم الجعل العظيم وأتوا على ثور الجبل الذى فيه الغار والذى فيه النبى ﷺ حتى طلعوا فوقه، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم: فأشفق أبو بكر وأقبل عليه الهمّ والخوف، فعند ذلك يقول له رسول الله ﷺ (لاتحزن ان الله معنا) ودعا رسول الله ﷺ فنزلت عليه السكينة من الله، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآية . وأخرج ابن شاهين وابن مردويه وابن عساكر عن حبشى بن جنادة قال: قال أبو بكر يارسول الله لو أن أحدا من المشركين رفع قدمه لأبصرنا: فقال «يا أبا بكر لاتحزن ان الله معنا» . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهرى فى قوله (إذ هما فى الغار) قال: هو الغار الذى فى الجبل الذى يسمى ثورا وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله (فأنزل الله سكينته عليه) قال: على أبى بكر لأن النبى ﷺ لم تزل معه السكينة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: دخل النبى ﷺ وأبو بكر غار حراء، فقال أبو بكر للنبى ﷺ لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرنى وإياك، فقال ﷺ «ماظنك باثنين الله ثالثهما ياأبا بكر؟ إن الله أنزل سكينته عليك وأيدنى بجنود لم تروها» . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن حبيب بن أبى ثابت (فأنزل الله سكينته عليه) قال: على أبى بكر، فأما النبى ﷺ فقد كانت عليه السكينة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) قال: هى الشرك بالله (وكلمة الله هى العليا) قال: لا إله إلا الله . وأخرج الفريابى وأبو الشيخ عن أبى الضحى قال: أوّل ما أنزل من براءة (انفروا خفافا وثقالا)، ثم نزل أوّلها وآخرها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أبى مالك نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (خفافا وثقالا) قال: نشاطا وغير نشاط . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم فى الآية: قال مشاغيل وغير مشاغيل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال: فى العسر واليسر . وأخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم قال: فتيانا وكهولا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عكرمة قال: شبابا وشيوخا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال: قالوا إن فينا الثقيل وذا الحاجة والضيعة والشغل، فأنزل الله (انفروا خفافا وثقالا) وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا وثقالا، وعلى ما كان منهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى قال: جاء

رجل زعموا أنه المقداد ، وكان عظيما سمينا فشكا اليه وسأله أن يأذن له ، فأبى ، فنزلت (انفروا خفافا وثقالا) فلما نزلت هذه الآية اشتدّ على الناس شأنها فنسخها الله ، فقال — ليس على الضعفاء ولا على المرضى — الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ان رسول الله ﷺ ، قيل له ألا تغزو بنى الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم ، فقال رجلان : قد علمت يارسول الله أن النساء فتنة ، فلا تفتنا بهن ، فأذن لنا ، فأذن لهما ، فلما انطلقا ، قال أحدهما : ان هو الا شحمة لأوّل آكل ، فسار رسول الله ﷺ ، ولم ينزل عليه شيء فى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المياه (لوكان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك) ونزل عليه — عفا الله عنك لم أذنت لهم — ونزل عليه — انما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر — ونزل عليه — انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون — . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (لو كان عرضا قريبا) قال : غنيمة قريبة ، (ولكن بعدت عليهم الشقة) قال المسير . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (والله يعلم انهم لكاذبون) قال : لقد كانوا يستطيعون الخروج ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم وزهادة فى الجهاد .

عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ *

الاستفهام فى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) للانكار من الله تعالى على رسوله ﷺ حيث وقع منه الاذن لما استأذنه فى القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم فى عذره الذى أبداه ، ومن هو كاذب فيه * وفى ذكر العفو عنه ﷺ مايدلّ على أن هذا الاذن الصادر منه كان خلاف الأولى ، وفى هذا عتاب لطيف من الله سبحانه ، وقيل ان هذا عتاب له ﷺ فى إذنه للمنافقين بالخروج معه ، لافى اذنه لهم بالقعود عن الخروج * والأوّل أولى ، وقد رخص له سبحانه فى سورة النور بقوله — فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم — ويمكن أن يجمع بين الآيتين : بأن العتاب هنا متوجه الى الاذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب ، والاذن هنالك متوجه الى الاذن بعد الاستثبات والله أعلم ، وقيل : ان قوله (عفا الله عنك) هى افتتاح كلام كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك كيف فعلت كذا ، وكذا ؟ حكاه مكى والنحاس والمهدوى ، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك ، وعلى التأويل الأوّل لايحسن ، ولا يخفاك أن التفسير الأوّل هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية ، ولا وجه لاخراجه عن معناه العربى * وفى الآية دليل على جواز الاجتهاد منه ﷺ ، والمسألة مدوّنة فى الأصول ،

وفيها

وفيها أيضا دلالة على مشرعية الاحتراز عن العجلة ، والاغترار بظواهر الأمور ، وحتى فى ( حتى يتبين لك الذين صدقوا ) للغاية ، كأنه قيل لم سارعت إلى الاذن لهم ، وهلا تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم فى العذر الذى أبداه ، وكذب من هو كاذب منهم فى ذلك ، ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ فى القعود عن الجهاد ، بل كان من عادتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك ، فقال ( لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا ) وهذا على أن معنى الآية أن لا يجاهدوا على حذف حرف النفى ، وقيل المعنى لايستأذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد ، وقيل : ان معنى الاستئذان فى الشىء الكراهة له ، وأما على مايقتضيه ظاهر اللفظ ، فالمعنى لايستأذنك المؤمنون فى الجهاد ، بل دأبهم أن يبادروا اليه من غير توقف ، ولا ارتقاب منهم لوقوع الاذن منك فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف . قال الزجاج : أن يجاهدوا فى موضع نصب باضمار فى : أى فى أن يجاهدوا ( والله عليم بالمتقين ) وهم هؤلاء الذين لم يستأذنوا ( انما يستأذنك ) فى القعود عن الجهاد ، والتخلف عنه ( الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ) وهم المنافقون ، وذكر الايمان بالله أولا ، ثم باليوم الآخر ثانيا فى الموضعين ، لأنهما الباعثان على الجهاد فى سبيل الله * قوله (وارتابت قلوبهم) عطف على قوله (الذين لايؤمنون) وجاء بالماضى للدلالة على تحقق الريب فى قلوبهم ، وهو الشك * قوله (فهم فى ريبهم يترددون) أى فى شكهم الذى حلّ قلوبهم يتحيرون ، والتردد التحير * والمعنى فهؤلاء الذين يستأذنونك ليسوا بمؤمنين بل مرتابين حائرين لايهتدون إلى طريق الصواب ، ولا يعرفون الحق * قوله (ولو أرادوا الخروج لأعدوا لهم عدة) أى لو كانوا صادقين فيما يدعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك ، ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد مايحتاج اليه لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون ، فمعنى هذا الكلام أنهم لم يريدوا الخروج أصلا ولا استعدوا للغزو ، والعدة مايحتاج اليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح * قوله (ولكن كره الله انبعاثهم) أى ولكن كره الله خروجهم فتبطوا عن الخروج ، فيكون المعنى ماخرجوا ولكن تثبطوا ، لأن كراهة الله انباعثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج ، والانبعاث الخروج : أى حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم ، لأنهم قالوا إن لم يؤذن لنا فى الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين ، وقيل المعنى لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لكراهة الله له * قوله ( وقيل اقعدوا مع القاعدين) قيل القائل لهم هو الشيطان بما يلقيه اليهم من الوسوسة ، وقيل قاله بعضهم لبعض ، وقيل قاله رسول الله ﷺ غضبا عليهم ، وقيل هو عبارة عن الخذلان : أى أوقع الله فى قلوبهم القعود خذلانا لهم * ومعنى (مع القاعدين) أى مع أولى الضرر من العميان ، والمرضى ، والنساء ، والصبيان ، وفيه من الذمّ لهم ، والازراء عليهم ، والتنقص بهم مالا يخفى * قوله ( لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا) هذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عن تخلف المنافقين ، والخبال الفساد والنميمة وايقاع الاختلاف والأراجيف ، قيل هذا الاستثناء منقطع : أى مازادوكم قوة ، ولكن طلبوا الخبال ، وقيل المعنى لايزيدونكم فيما ترددون فيه من الرأى إلا خبالا فيكون متصلا ، وقيل هو استثناء من أعمّ العام : أى مازادوكم شيئا إلا خبالا ، فيكون الاستثناء من قسم المتصل ، لأن الخبال من جملة مايصدق عليه الشىء * قوله (ولا أوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ) الايضاع سرعة السير ، ومنه قول ورقة بن نوفل :

يا ليتنى فيها جذع * أخبّ فيها وأضع

يقال أوضع البعير : إذا أسرع السير ، وقيل الايضاع سير الخبب ، والخلل الفرجة بين الشيئين ، والجمع الخلال : أى الفرج التى تكون بين الصفوف * والمعنى : لسعوا بينكم بالافساد بما يختلقونه من الأكاذيب

المشتملة على الارجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين * قوله (يبغونكم الفتنة) يقال بغيته كذا: طلبته له، وأبغيته كذا: أعنته على طلبه * والمعنى يطلبون لكم الفتنة فى ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والافساد، وقيل الفتنة هنا الشرك، وجملة - وفيكم سماعون لهم - فى محل نصب على الحال: أى والحال أن فيكم من يستمع مايقولونه من الكذب فينقله اليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم، والفساد لاخوانكم (والله عليم بالظالمين) وبما يحدث منهم لوخرجوا معكم فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لايخرجوا معكم، وكره انبعاثهم معكم، ولاينافى حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ماتقدم من عتابه على الاذن لهم فى التخلف، لأنه سارع إلى الاذن لهم، ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب ﷺ على تسرعه إلى الاذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم فى عذره من الكاذب، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتى فى هذه السورة - فان رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرج معى أبدا - الآية، وقال فى سورة الفتح - سيقولون المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم - الى قوله - قل لن تتبعونا - * قوله (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) أى لقد طلبوا الافساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التى تخلفوا عنك فيها، كما وقع من عبدالله ابن أبى وغيره - ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون - * قوله (وقلبوا لك الأمور) أى صرفوها من أمر إلى أمر، ودبروا لك الحيل والمكائد، ومنه قول العرب «حول قلب» إذا كان دائرا حول المكائد والحيل يدير الرأى فيها ويتدبره. وقرئ وقلبوا بالتخفيف (حتى جاء الحق) أى إلى غاية هى مجىء الحق، وهو النصر لك والتأييد (وظهر أمر الله) باعزاز دينه وإعلاء شرعه وقهر أعدائه، وقيل الحق القرآن (وهم كارهون) أى والحال أنهم كارهون لمجىء الحق وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم (ومنهم) أى من المنافقين (من يقول) لرسول الله ﷺ (اذن لى) فى التخلف عن الجهاد (ولاتفتنى) أى لاتوقعنى فى الفتنة أى الاثم اذا لم تأذن لى فتخلفت بغير إذنك، وقيل معناه لاتوقعنى فى الهلكة بالخروج (ألا فى الفتنة سقطوا) أى فى نفس الفتنة سقطوا، وهى فتنة التخلف عن الجهاد، والاعتذار الباطل * والمعنى أنهم ظنوا أنهم بالخروج، أو بترك الاذن لهم يقعون فى الفتنة، وهم بهذا التخلف سقطوا فى الفتنة العظيمة، وفى التعبير بالسقوط مايشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول فى الفتنة، ثم توعدهم على ذلك، فقال (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أى مشتملة عليهم من جميع الجوانب لايجدون عنها مخلصا، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال.

وقد أخرج عبدالرزاق فى المصنف وابن جرير عن عمرو بن ميمون قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشىء: اذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى، فأنزل الله (عفاالله عنك لم أذنت لهم). وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عون بن عبدالله قال: سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة، فقال (عفا الله عنك لم أذنت لهم). وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (عفا الله عنك) الآية. قال: ناس قالوا استأذنوا رسول الله ﷺ فان أذن لكم فاقعدوا، وان لم يأذن لكم فاقعدوا. وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) الثلاث الآيات. قال نسخها - فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم -. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه عنه فى قوله (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله) الآية قال: هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا فى القعود عن الجهاد بغير عذر، وعذر الله المؤمنين فقال - فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم -. وأخرج أبوعبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه

والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله (لايستأذنك) الآيتين قال: نسختها الآية التى فى سورة النور ــ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ــ الى ــ ان الله غفور رحيم ــ فجعل الله النبى ﷺ بأعلى النظرين فى ذلك، من غزا غزا فى فضيلة، ومن قعد قعد فى غير حرج ان شاء الله. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (ولكن كره الله انبعاثهم) قال: خروجهم. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فثبطهم) قال: حبسهم. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله (لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا) قال هؤلاء المنافقون فى غزوة تبوك. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ولاأوضعوا خلالكم) قال: لأسرعوا بينكم. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ولاأوضعوا خلالكم) قال لأرفضوا (يبغونكم الفتنة) يبطئونكم عبد الله بن نبتل وعبد الله بن أبىّ ابن سلول، ورفاعة بن تابوت، وأوس بن قيظى (وفيكم سماعون لهم) محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين، هم عيون للمنافقين. وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم فى المعرفة عن ابن عباس قال: لما أراد النبى ﷺ أن يخرج الى غزوة تبوك قال لجد بن قيس ياجدّ ابن قيس ماتقول فى مجاهدة بنى الأصفر فقال يارسول الله: انى امرؤ صاحب نساء ومتى أرى نساء بنى الأصفر أفتتن، فأذن لى ولاتفتنى، فأنزل الله (ومنهم من يقول ائذن لى) الآية. وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه. وأخرج ابن مردويه عن عائشة نحوه أيضا. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولاتفتنى) قال لاتحرجنى (ألا فى الفتنة سقطوا) يعنى فى الحروج. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ولاتفتنى) قال: لاتؤثمنى (ألا فى الفتنة) قال ألا فى الاثم، وقصة تبوك مذكورة فى كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها:

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ * وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ *

قوله (ان تصبك حسنة) أىّ حسنة كانت بأىّ سبب اتفق كما يفيده وقوعها فى حيز الشرط، وكذلك القول فى المصيبة، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة فى القتال كما يفيده السياق دخولا أوليا، فمن جملة ماتصدق عليه الحسنة الغنيمة والظفر، ومن جملة ماتصدق عليه المصيبة الخيبة والانهزام، وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم، والاخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين،

فان المساءة بالحسنة ، والفرح بالمصيبة من أعظم مايدل على أنهم فى العداوة قد بلغوا الى الغاية ، ومعنى (تولوا) رجعوا الى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التى أصابت المؤمنين ، ومعنى قولهم (قد أخذنا أمرنا من قبل) : أى احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحزم فلم نخرج الى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم مانالهم من المصيبة ، ثم لما قالوا هـذا القول أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أى فى اللوح المحفوظ ، أو فى كتابه المنزل علينا ، وفائدة هـذا الجواب أن الانسان اذا علم أن ماقدره الله كائن ، وأن كل مانا له من خير أو شر انما هو بقدر الله وقضائه هانت عليه المصائب ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفى الحسدة (هو مولانا) أى ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ومظهر دينه على جميع الأديان ، والتوكل على الله تفويض الأمور اليه ، والمعنى أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصا بالله سبحانه لايتوكلون على غيره . وقرأ طلحة ابن مصرف (يصينا) بتشديد الياء . وقرأ أعين قاضى الرى يصيبنا بنون مشددة ، وهو لحن ، لأن الخبر لايؤكد ، ورد بمثل قوله تعالى ـ هل يذهبن كيده مايغيظ ـ . وقال الزجاج : معناه لايصيبنا الا مااختصنا الله من النصرة عليكم أو الشهادة ، وعلى هذا القول يكون قوله (قل هل تربصون بنا الا إحدى الحسنيين) تكريرا لغرض التأكيد ، والأول أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيدا لفائدة غير فائدة الآخر ، والتأسيس خير من التأكيد ، ومعنى (هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين) هل تنتظرون بنا الا احدى الخصلتين الحسنيين : اما النصرة أو الشهادة ، وكلاهما مما يحسن لدينا ، والحسنى تأنيث الأحسن ، ومعنى الاستفهام التقريع والتوبيخ (ونحن نتربص بكم) احدى المساءتين لكم : اما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) أى بقارعة نازلة من السماء فيسحتكم بعذابه (أو) بعذاب لكم (بأيدينا) أى باظهار الله لنا عليكم بالقتل والأسر والنهب والسبى ، والفاء فى فتربصوا فصيحة ، والأمر للتهديد كما فى قوله ـ ذق انك أنت العزيز الكريم ـ أى تربصوا بنا ماذكرنا من عاقبتنا فنحن معكم متربصون ماهو عاقبتكم ؟ فستنظرون عند ذلك مايسرنا ويسوؤكم . وقرأ البزى وابن فليح هل تربصون باظهار اللام وتشديد التاء . وقرأ الكوفيون بادغام اللام فى التاء . وقرأ الباقون باظهار اللام وتخفيف التاء ✽ قوله (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم) هذا الأمر معناه الشرط والجزاء لأن الله سبحانه لايأمرهم بما لايتقبله منهم ، والتقدير ان أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم ، وقيـل هو أمر فى معنى الخبر : أى أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم فهو كقوله ـ استغفر لهم أولا تستغفر لهم ـ وفيه الاشعار بتساوى الأمرين فى عدم القبول ، وانتصاب طوعا أو كرها على الحال ، فهما مصدران فى موقع المشتقين : أى أنفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله أو مكرهين بأمر منهما ، وسمى الأمر منهما اكراها لأنهم منافقون لايأتمرون بالأمر ، فكانوا بأمرهم الذى لايأتمرون به كالمكرهين على الانفاق ، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم ، وجملة (انكم كنتم قوما فاسقين) تعليل لعدم قبول انفاقهم ، والفسق : التمرد والعتو ، وقد سبق بيانه لغة وشرعا ، ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال (ومامنعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله) ، أى كفرهم بالله وبرسوله ، جعل المانع من القبول ثلاثة أمور : الأول الكفر ، الثانى أنهم لايصلون فى حال من الأحوال الا فى حال الكسل والتثاقل ، لأنهم لايرجون ثوابا ولايخافون عقابا ، فصلاتهم ليست الارياء للناس وتظهرا بالاسلام الذى يبطنون خلافه ، والثالث أنهم لاينفقون أموالهم الاوهم كارهون ولا ينفقونها طوعا لأنهم يعدون إنفاقها وضعا لها فى مضيعة ؛ لعدم ايمانهم بما وعد الله ورسوله ✽ قوله (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) الاعجاب بالشىء : أن يسر به سرور راض به متعجب من حسنه ،

قيل مع نوع من الافتخار واعتقاد أنه ليس لغيره مايساويه ، والمعنى لاتستحسن مامعهم من الأموال والأولاد (انما يريد ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) بما يحصل معهم من الغم والحزن عند أن يغنمها المسلمون ويأخذوها قسرا من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرة أعينهم ، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك ، وترك مايجب عليهم من الزكاة فيها ، والتصدق بما يحق التصدق به ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون * قوله (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) الزهوق : الخروج بصعوبة ، والمعنى أن الله يريد أن تزهق أنفسهم وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل وتصميمهم على الكفر وتمادیهم في الضلالة ، ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال (ويحلفون بالله انهم لمنكم) أي من جملتكم في دين الاسلام والانقياد لرسول الله ﷺ ولكتاب الله سبحانه (وماهم منكم) في ذلك الا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم (ولكنهم قوم يفرقون) أي يخافون أن ينزل بهم مانزل بالمشركين من القتل والسبي ، فيظهرون لكم الاسلام تقية منهم لاعن حقيقة (لو يجدون ملجأ) يلتجئون اليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أوغيره (أو مغارات) جمع مغارة ، من غار يغير . قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار يغير ، والمغارات الغيران والسراديب : وهي المواضع التي يستترفيها ، ومنه غار الماء وغارت العين ، والمعنى لووجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هربا منكم (أومدخلا) من الدخول : أي مكانا يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات . قال النحاس : الأصل فيه متدخل قلبت التاء دالا ، وقيل أصله مدتخل . وقرأ أبي متدخلا ، وروى عنه أنه قرأ مندخلا بالنون . وقرأ الحسن وابن أبي اسحق وابن محيصن (أومدخلا) بفتح الميم واسكان الدال . قال الزجاج : ويقرأ أو مدخلا بضم الميم واسكان الدال . وقرأ الباقون بتشديد الدال مع ضم الميم (لولوا اليه) أي لالتجئوا اليه وأدخلوا أنفسهم فيه (و) الحال أن (هم يجمحون) أي يسرعون اسراعا لايردهم شيء ، من جمح الفرس : اذا لم يرده اللجام ، ومنه قول الشاعر :

سبوح جموح واحضارها * كمعمعة السعف الموقد

والمعنى لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولوا اليه مسرعين هربا من المسلمين .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء يقولون : ان محمدا وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا ، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي وأصحابه ، فساءهم ذلك فأنزل الله (ان تصبك حسنة تسؤهم) الآية . وأخرج سنيد وابن جرير عن ابن عباس (ان تصبك حسنة تسؤهم) يقول : ان يصبك في سفرك هذه الغزوة تبوك حسنة تسؤهم قال : الجد وأصحابه ، يعني الجد بن قيس . وأخرج أبو الشيخ عن السدي (قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا) قال : إلا ماقضى الله لنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) قال : فتح ، أو شهادة . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (أو بأيدينا) قال : القتل بالسيوف . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال الجد بن قيس اني اذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بمالي قال : ففيه نزلت (قل أنفقوا طوعا أو كرها) الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (فلا تعجبك أموالهم) قال : هذه من تقاديم الكلام ، يقول لاتعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في

قوله (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) قال : تزهق أنفسهم فى الحياة الدنيا (وهم كافرون) قال : هذه آية فيها تقديم وتأخير . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (فلا تعجبك) يقول : لايغررك (وتزهق) قال : تخرج أنفسهم قال فى الدنيا وهم كافرون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (لو يجدون ملجأ) الآية قال : الملجأ الحرز فى الجبال ، والمغارات : الغيران ، والمدّخل : السرب . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى (وهم يجمحون) قال : يسرعون .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ * إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

قوله (ومنهم من يلمزك) هذا ذكر نوع آخر قبائحهم ، يقال لمزه يلمزه : اذا عابه . قال الجوهرى اللمز : العيب ، وأصله الاشارة بالعين ونحوها ، وقد لمزه يلمزه ويلمزه ، ورجل لماز ، ولمزة : أى عياب . قال الزجاج : لمزت الرجل ألمزه وألمزه ، بكسر الميم وضمها : اذا عبته ، وكذا همزته * ومعنى الآية : ومن المنافقين من يعيبك فى الصدقات : أى فى تفريقها وقسمتها ، وروى عن مجاهد أنه قال : معنى (يلمزك) يروزك ويسألك ، والقول عند أهل اللغة هو الأول كما قال النحاس . وقرئ يلمزك بضم الميم ، ويلمزك بكسرها مع التشديد . وقرأ الجمهور بكسرها مخففة (فان أعطوا منها) أى من الصدقات بقدر مايريدون (رضوا) بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيبوه ، وذلك لأنه لامقصد لهم الا حطام الدنيا ، وليسوا من الدين فى شىء (وان لم يعطوا منها) أى من الصدقات مايريدونه ويطلبونه (اذا هم يسخطون) أى وان لم يعطوا فاجئوا السخط ، وفائدة اذا الفجائية أن الشرط مفاجئ للجزاء وهاجم عليه . وقد نابت اذا الفجائية مناب فاء الجزاء (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أى ماقرضه الله لهم وما أعطاهم رسول الله ﷺ من الصدقات ، وجواب لو محذوف : أى لكان خيرا لهم فان فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل (وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله) أى قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله ﷺ ماهو لهم : أى كفانا الله : سيعطينا من فضله ويعطينا رسوله بعد هذا مانرجوه ونؤمله (إنا إلى الله راغبون) فى أن يعطينا من فضله مانرجوه * قوله (إنما الصدقات للفقراء) لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ فى قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها دفعا لطعنهم وقطعا لشغبهم ، و (انما) من صيغ القصر ، وتعريف الصدقات للجنس : أى جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لايتجاوزها ، بل هى لهم لالغيرهم .

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية ، أو يجوز صرفها الى البعض دون البعض على حسب مايراه الامام ، أو صاحب الصدقة : فذهب الى الأول الشافعى وجماعة من أهل العلم ، وذهب إلى الثانى مالك وأبو حنيفة ، وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران . قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم ، احتج الأولون بما فى الآية من القصر وبحديث زياد بن الحرث الصدائى عند أبى داود والدارقطنى قال : أتيت النبى ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال أعطنى من الصدقة : فقال له ان الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها

ثمانية أصناف ، فان كنت من تلك الأجزاء أعطيتك ، وأجاب الآخرون بأن مافى الآية من التصر انما هو لبيان الصرف والمصرف ، لالوجوب استيعاب الأصناف ، و بأن فى إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم الافريقى وهو ضعيف ، ومما يؤيد ماذهب اليه الآخرون قوله تعالى ـ ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهوخير لكم ـ والصدقه تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة وصح عنه ﷺ أنه قال « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها فى فقرائكم » . وقد ادّعى مالك الاجماع على القول الآخر . قال ابن عبد البرّ يريد إجماع الصحابة فانه لايعلم له مخالفا منهم * قوله (للفقراء) قدمهم لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدّة فاقتهم وحاجتهم .

وقد اختلف أهل العلم فى الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال : فقال يعقوب بن السكيت والقتبى ويونس بن حبيب : ان الفقير أحسن حالا من المسكين . قالوا لأن الفقير : هو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه ، والمسكين : الذى لاشيء له ، وذهب الى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة . وقال آخرون بالعكس : جعلوا المسكين أحسن حالا من الفقير ، واحتجوا بقوله تعالى ـ أما السفينة فكانت لمساكين ـ فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر ، وربما ساوت جملة من المال ، و يؤيده تعوّذ النبى ﷺ من الفقر مع قوله « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا » . والى هذا ذهب الأصمعى وغيره من أهل اللغة : وحكاه الطحاوى عن الكوفيين : وهو أحد قولى الشافعى وأكثر أصحابه . وقال قوم : ان الفقير والمسكين سواء لافرق بينهما وهو أحد قولى الشافعى ، واليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك ، و به قال أبو يوسف . وقال قوم الفقير : المحتاج المتعفف ، والمسكين : السائل . قاله الأزهرى ، واختاره ابن شعبان ، وهو مروىّ عن ابن عباس . وقد قيل غير هذه الأقوال مما لايأتى الاستكثار منه بفائدة يعتدّ بها * والأولى فى بيان ماهية المسكين ماثبت عن رسول الله ﷺ عند البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فتردّه اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، قالوا فما المسكين يارسول الله ؟ قال الذى لايجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا» * قوله (والعاملين عليها) أى السعاة والجباة الذين يبعثهم الامام لتحصيل الزكاة فانهم يستحقون منها قسطا .

واختلف فى القدر الذى يأخذونه منها : فقيل الثمن ، روى ذلك عن مجاهد والشافعى ، وقيل على قدر أعمالهم من الأجرة ، روى ذلك عن أبى حنيفة وأصحابه ، وقيل يعطون من بيت المال قدر أجرتهم ، روى ذلك عن مالك ، ولاوجه لهذا ، فان الله قد أخبر بأن لهم نصيبا من الصدقة فكيف يمنعون منها و يعطون من غيرها ؟ واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشميا أملا ؟ فمنعه قوم ، وأجازه آخرون . قالوا و يعطى من غيرالصدقة * قوله (والمؤلفة قلوبهم) هم قوم كانوا فى صدر الاسلام ، فقيل : هم الكفار الذين كان النبىّ ﷺ يتألفهم ليسلموا وكانوا لايدخلون فى الاسلام بالقهر والسيف : بل بالعطاء ، وقيل : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم يحسن إسلامهم ، فكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطاء : وقيل هم من أسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع أعطاهم النبى ﷺ ليتألفوا أتباعهم على الاسلام . وقد أعطى النبىّ ﷺ جماعة ممن أسلم ظاهرا كأبى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى : أعطى كل واحد منهم مائة من الابل تألفهم بذلك ، وأعطى آخرين دونهم .

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الاسلام أملا ؟ فقال عمر والحسن والشعبى

قد انقطع هذا الصنف بعزّة الاسلام وظهوره ، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى . وقد ادّعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك . وقال جماعة من العلماء سهمهم باق ، لأن الامام ربما احتاج أن يتألف على الاسلام ، وانما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين . قال يونس سألت الزهرى عنهم : فقال لا أعلم نسخ ذلك ، وعلى القول الأوّل يرجع سهمهم لسائر الأصناف * قوله (وفى الرقاب) أى فى فك الرقاب بأن يشترى رقابا ثم يعتقها ، روى ذلك عن ابن عباس وابن عمر ، وبه قال مالك وأحمد بن حنبل وإسحق وأبو عبيد . وقال الحسن البصرى ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعى والزهرى وابن زيد انهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة ، وهو قول الشافعى وأصحاب الرأى ورواية عن مالك ، والأولى حمل مافى الآية على القولين جميعا لصدق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه ، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة * قوله (والغارمين) هم الذين ركبتهم الديون ولا وفاء عندهم بها ، ولا خلاف فى ذلك الامن لزمه دين فى سفاهة فانه لايعطى منها ولا من غيرها الا أن يتوب . وقد أعان النبى ﷺ من الصدقة من تحمل حمالة ، وأرشد الى إعانته منها * قوله (وفى سبيل الله) هم الغزاة والمرابطون يعطون من الصدقة ماينفقون فى غزوهم ومرابطتهم وان كانوا أغنياء ، وهذا قول أكثر العلماء . وقال ابن عمر : هم الحجاج والعمار ، وروى عن أحمد واسحق أنهما جعلا الحج من سبيل الله . وقال أبوحنيفة وصاحباه : لايعطى الغازى الا اذا كان فقيرا منقطعا به * قوله (وابن السبيل) هو المسافر والسبيل : الطريق ، ونسب اليها المسافر لملازمته إياها ، والمراد الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقره فانه يعطى منها وان كان غنيا فى بلده ، وان وجد من يسلفه . وقال مالك اذا وجد من يسلفه فلا يعطى * قوله (فريضة من الله) مصدر مؤكد ، لأن قوله ــ انما الصدقات للفقراء ــ معناه : فرض الله الصدقات لهم * والمعنى : أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته (والله عليم) بأحوال عباده (حكيم) فى أفعاله ، وقيل ان ــ فريضة ــ منتصبة بفعل مقدّر : أى فرض الله ذلك فريضة . قال فى الكشاف : فان قلت لم عدل عن اللام الى فى فى الأربعة الآخرة ؟ قلت للايذان بأنها أرسخ فى استحقاق التصدّق عليهم ممن سبق ذكره ، وقيل النكتة فى العدول أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال اليهم حتى يتصرفوا به كما شاءوا ، وفى الأربعة الأخيرة ، لايصرف المال اليهم ، بل يصرف الى جهات الحاجات المعتبرة فى الصفات التى لأجلها استحقوا سهم الزكاة كذا قيل .

وقد أخرج البخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : بينا رسول الله ﷺ يقسم قسما اذ جاءه ابن ذى الخويصرة التميمى فقال : اعدل يارسول الله ، فقال ويحك ، ومن يعدل اذا لم أعدل : فقال عمر بن الخطاب : ائذن لى فأضرب عنقه ! فقال النبى ﷺ دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الحديث حتى قال وفيهم نزلت (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ومنهم من يلمزك) قال يرزؤك يسألك . وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : يطعن عليك . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود . قال لما قسم النبى ﷺ غنائم حنين سمعت رجلا يقول ان هذه لقسمة ما أريد بها الله ، فأتيت النبىّ ﷺ وذكرت ذلك له : فقال رحمة الله على موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر ، ونزل (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخت هذه الآية كل صدقة فى القرآن (إنما الصدقات للفقراء) الآية . وأخرج

ابن

ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبوالشيخ عن حذيفة فى قوله ( إنما الصدقات للفقراء ) الآية قال : إن شئت جعلتها فى صنف واحد من الأصناف الثمانية التى سمى الله ، أو صنفين أو ثلاثة . وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي العالية والحسن وعطاء وابراهيم وسعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن المنذر والنحاس عن ابن عباس قال : الفقراء فقراء المسلمين والمساكين الطوّافون . وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبوالشيخ عن قتادة قال : الفقير الذى به زمانة ، والمسكين المحتاج الذى ليس به زمانة . وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر فى قوله ( إنما الصدقات للفقراء ) قال : هم زمنى أهل الكتاب . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (والعاملين عليها) قال : السعاة أصحاب الصدقة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (والمؤلفة قلوبهم) قال : هم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا ، وكان يرضخ لهم من الصدقات ، فاذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيرا قالوا : هذا دين صالح ، وان كان غير ذلك عابوه وتركوه . وأخرج البخارى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : بعث علىّ بن أبي طالب من اليمن الى النبى ﷺ بذهيبة فيها تربها فقسمها بين أربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلى وعلقمة بن علاثة العامرى وعيينة بن بدر الفزارى وزيد الخيل الطائى ، فقالت قريش والأنصار يقسم بين صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ فقال النبى ﷺ إنما أتألفهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن الزهرى أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال : من أسلم من يهودىّ أو نصرانىّ ، قلت : وان كان موسرا قال : وان كان موسرا . وأخرج هؤلاء عن أبي جعفر قال : ليس اليوم مؤلفة قلوبهم . وأخرج هؤلاء أيضا عن الشعبى مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل فى قوله (وفى الرقاب) قال : هم المكاتبون . وأخرج ابن المنذر عن النخعى نحوه . وأخرج أيضا عن عمر بن عبدالله قال : سهم الرقاب نصفان : نصف لكل مكاتب ممن يدّعى الاسلام ، والنصف الآخر يشترى به رقاب ممن صلى وصام وقدم اسلامه من ذكر وأنثى يعتقون لله . وأخرج ابن أبي شيبة وأبوعبيد وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان لايرى بأسا أن يعطى الرجل من زكاته فى الحج ، وأن يعتق منها رقبة . وأخرج ابن أبي شيبة عن الزهرى أنه سئل عن الغارمين قال : أصحاب الدين . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن أبي جعفر فى قوله (والغارمين) قال : هو الذى يسأل فى دم أو جائحة تصيبه (وفى سبيل الله) قال : هم المجاهدون (وابن السبيل) قال : المنقطع به يعطى قدر مايبلغه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ابن السبيل هو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجه وابن المنذ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ «لاتحلّ الصدقة لغنىّ إلالخمسة : العامل عليها ، أو الرجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غاز فى سبيل الله ، أو مسكين تصدّق عليه ، فأهدى منها لغنىّ . وأخرج ابن أبي شيبة وأبوداود والترمذى عن عبدالله بن عمر عن النبى ﷺ قال « لاتحلّ الصدقة لغنى ولالذى مرة سوىّ » . وأخرج أحمد عن رجل من بنى هلال قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكر مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وأبوداود والنسائى عن عبدالله بن عدى بن الخيار قال . أخبرنى رجلان أنهما أتيا رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين فقال : إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغنىّ ولا لقوىّ مكتسب .

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ

لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ * يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *

قوله (ومنهم) هذا نوع آخر مما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم ، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ على وجه الطعن والذم هو أذن . قال الجوهري : يقال رجل أذن : اذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوى فيه الواحد والجمع ، ومرادهم أقماهم الله أنهم اذا آذوا النبي و بسطوا فيه ألسنهم ، و بلغه ذلك اعتذروا له وقبل ذلك منهم ، لأنه يسمع كل مايقال له فيصدقه ، وإنما أطلقت العرب على من يسمع مايقال له فيصدقه انه أذن مبالغة ، لأنهم سموه بالجارحة التي هي آلة السماع ، حتى كأن جملته أذن سامعة ، ونظيره قولهم للربيئة عين ، وإيذاؤهم له هو قولهم (هو أذن) لأنهم نسبوه إلى أنه يصدق كل مايقال له ولايفرق بين الصحيح والباطل اغترارا منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جناياتهم كرما وحلما وتغاضيا ، ثم أجاب الله عن قولهم هذا ، فقال (قل أذن خير لكم) بالاضافة على قراءة الجمهور . وقرأ الحسن بالتنوين ، وكذا قرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه ، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نعم الأذن هو لكونه أذن خير لكم وليس بأذن في غير ذلك ، كقولهم رجل صدق ، يريدون الجودة والصلاح * والمعنى : أنه يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرئ أذن بسكون الذال وضمها ، ثم فسر كونه أذن خير بقوله (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أى يصدق بالله و يصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الايمان ، فتكون اللام في (للمؤمنين) للتقوية ، كما قال الكوفيون ، أو متعلقة بمصدر محذوف ، كما قال المبرد . قرأ الجمهور ورحمة بالرفع عطف على أذن . وقرأ حمزة بالخفض عطفا على خير * والمعنى : على القراءة الأولى هو أنه أذن خير وأنه هو رحمة للمؤمنين ، وعلى القراءة الثانية أنه أذن خير وأذن رحمة . قال النحاس : وهذا عند أهل العربية بعيد ، يعنى قراءة الجر لأنه قد تباعد بين الاسمين ، وهذا يقبح في المخفوض * والمعنى : أن النبي ﷺ أذن خير للمنافقين (ورحمة) لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم ، فكأنه قال هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسره بما هو مدح له وثناء عليه ، وان كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته ، ومعنى (للذين آمنوا منكم) أى الذين أظهروا الايمان وان لم يكونوا مؤمنين حقيقة (والذين يؤذون رسول الله) ﷺ بما تقدم من قولهم هو أذن ، ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول الله ﷺ (لهم عذاب أليم) أى شديد الألم . وقرأ ابن أبي عبلة ورحمة للمؤمنين بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف : أى ورحمة لكم يأذن لكم ، ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الأيمان الكاذبة ، فقال (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) والخطاب للمؤمنين . وذلك أن المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبي ﷺ فاذا بلغ ذلك إلى رسول الله والى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا مابلغ عنهم قاصدين بهذه الايمان الكاذبة أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فنعى الله ذلك عليهم ، وقال (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى هما أحق بذلك من إرضاء المؤمنين بالايمان الكاذبة فانهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم ، و إفراد الضمير في يرضوه اما للتعظيم للجناب الالهي بافراده بالذكر

ولكونه لافرق بين إرضاء الله وارضاء رسوله ، فارضاء الله ارضاء لرسوله ، أوالمراد الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، كما قال سيبويه ورجحه النحاس : أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الاشارة فانه يشار به إلى الواحد والمتعدد ، أوالضمير راجع الى المذكور ، وهو يصدق عليهما . وقال الفراء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه ، والله افتتاح كلام كما تقول ماشاء الله وشئت ، وهذه الجملة أعنى (والله ورسوله أحق أن يرضوه) فى محل نصب على الحال ، وجواب ان كانوا مؤمنين محذوف : أى ان كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله * قوله (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم) . قرأ الحسن وابن هرمز ألم تعلموا بالفوقية . وقرأ الباقون بالتحتية : والمحاددة وقوع هذا فى حد ، وذلك فى حد كالمشاقة : يقال حاد فلان فلانا : أى صار فى حد غير حده (فان له نار جهنم) . قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى فحق أن له نار جهنم . وقال الخليل وسيبويه : ان أن الثانية مبدلة من الأولى وزعم المبرد أن هذا القول مردود وأن الصحيح ماقال الجرمى ان الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام . وقال الاخفش المعنى : فوجوب النار له ، وأنكره المبرد : وقال هذا خطأ من أجل أن أن المفتوحة المشددة لايبتدأ بها و يضمر الخبر . وقرئ بكسر الهمزة . قال سيبويه ، وهى قراءة جيدة ، وأنشد :

وانى اذا ملت ركابى مناخها * فانى على حظى من الأمر جامح

وانتصاب خالدا على الحال ، والاشارة بقوله (ذلك) إلى ماذكر من العذاب ، وهو مبتدأ وخبره (الخزى العظيم) أى الخزى البالغ الى الغاية التى لايبلغ اليها غيره ، وهو الذل والهوان * قوله (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) قيل هوخبر وليس بأمر . وقال الزجاج : معناه ليحذر ، فالمعنى على القول الأول : أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم ، وعلى الثانى الأمر لهم بأن يحذروا ذلك ، وأن تنزل فى موضع نصب أى من أن تنزل ، ويجوز على قول سيبويه أن يكون فى موضع خفض على تقدير من واعمالها ويجوز أن يكون النصب على المفعولية . وقد أجاز سيبويه حذرت زيدا ، وانشد :

حذر أمورا لاتضير وآمن * ماليس ينجيه من الأقدار

ومنع من النصب على المفعولية المبرد * ومعنى (عليهم) أى على المؤمنين فى شأن المنافقين ، على أن الضمير للمؤمنين ، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين : أى فى شأنهم (تنبئهم) أى المنافقين (بما فى قلوبهم) مما يسرونه فضلا عما يظهرونه ، وهم وان كانوا عالمين بما فى قلوبهم فالمراد من إنباء السورة لهم اطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما فى قلوبهم ، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم ، فقال (قل استهزءوا إن الله مخرج ماتحذرون) هو أمر تهديد : أى افعلوا الاستهزاء إن الله مخرج ماتحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون إما بانزال سورة ، أو باخبار رسوله بذلك ، أو نحو ذلك * قوله (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) أى ولئن سألتهم عما قالوه من الطعن فى الدين وثلب المؤمنين بعد أن يبلغ اليك ذلك و يطلعك الله عليه ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ولم نكن فى شىء من أمرك ولا أمر المؤمنين ، ثم أمره الله أن يجيب عنهم ، فقال (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون) والاستفهام للتقريع والتوبيخ وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بانكارهم لأنهم كانوا كاذبين فى الانكار ، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به ، والباء لحرف النفى ، فان ذلك انما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته ، ثم قال (لاتعتذروا) نهيا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطلة ، فان ذلك غير مقبول منهم . وقد نقل الواحدى عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه ، من قولهم اعتذر المنزل اذا درس واعتذرت المياه اذا انقطعت (قد كفرتم) أى أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور (بعد إيمانكم) أى

بعد إظهاركم الايمان مع كونكم تبطنون الكفر (ان نعف عن طائفة منكم) وهم من أخلص الايمان وترك النفاق وتاب عنه . قال الزجاج : الطائفة فى اللغة الجماعة . قال ابن الانبارى و يطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب (نعذب طائفة) بسبب (أنهم كانوا مجرمين) مصرّين على النفاق لم يتوبوا منه قرئ (١) نعذب بالنون و بالتاء الفوقية على البناء للمفعول و بالتحتية على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن اسحق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان نبتل بن الحارث يأتى رسول الله ﷺ فيجلس اليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال لهم إنما محمد أذن من حدثه بشيء صدقه ، فأنزل الله فيه (ومنهم الذين يؤذون النبي و يقولون هو أذن) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم خلاس بن سو يد بن صامت ومخشى بن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا فى النبي ﷺ فنهى بعضهم بعضا ، وقالوا إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم ، فقال بعضهم إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا ، فنزل (ومنهم الذين يؤذون النبي) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردو يه عن ابن عباس فى قوله (هو أذن) يعنى : أنه يسمع من كل أحد . قال الله تعالى (أذن خير لكم يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين) يعنى : يصدّق بالله و يصدّق المؤمنين . وأخرج الطبرانى وابن عساكر وابن مردو يه عن عمير بن سعد قال : فىّ أنزلت هذه الآية (و يقولون هو أذن) وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة ، فيأتى النبي ﷺ فيساره حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته ، وقال (هو أذن) فأنزلت فيه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال والله ان هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ولئن كان ما يقول محمد حقا لهم شرّ من الحمير ، فسمعها رجل من المسلمين ، فقال والله ان ما يقول محمد لحق ولأنت شرّ من الحمار ، فسعى بها الرجل الى نبىّ الله ﷺ فأخبره ، فأرسل الى الرجل فدعاه ، فقال ما حملك على الذى قلت ؟ فجعل يلتعن و يحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله فى ذلك (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى مثله ، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله) يقول : يعادى الله ورسوله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (يحذر المنافقون) الآية : قال يقولون القول فيما بينهم ، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا هذا . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن شريح بن عبيد أن رجلا قال : لأبى الدرداء يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا وأبخل اذا سئلتم وأعظم لقما اذا أكلتم ؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يردّ عليه بشيء ، فأخبر بذلك عمر ابن الخطاب فانطلق عمر الى الرجل الذى قال ذلك ، فقال بثو به وخنقه وقاده إلى النبي ﷺ ، فقال الرجل إنما كنا نخوض ونلعب فأوحى الله الى نبيه ﷺ (ولئن سألتهم ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردو يه عن عبد الله بن عمر قال : قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يوما ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء ، فقال رجل فى المجلس كذبت ولكنك منافق لأخبرنّ رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن . قال عبد الله فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول يا رسول الله انما كنا نخوض ونلعب ، والنبي ﷺ يقول (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون) . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم والعقيلى فى الضعفاء وأبو الشيخ وابن مردو يه والخطيب فى رواية مالك عن ابن عمر ، فقال رأيت عبد الله بن أبىّ ، وهو يشتد قدام النبي ﷺ والأحجار تنكبه ، وهو يقول يا محمد إنما كنا

(١) صوابه قرئا بالنون على البناء للفاعل و بالياء التحتية والتاء الفوقية على البناء للمفعول اه مصحح القرآن

نخوض

IX:68-71



نخوض ونلعب والنبي ﷺ يقول (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية : قال بينما رسول الله ﷺ في غزوة الى تبوك و بين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم احبسوا عليّ هؤلاء الركب ، فأتاهم فقال قلتم كذا ، قالوا يانبيّ الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ماتسمعون . وقد روى نحو هذا من طرق عن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ( ان نعف عن طائفة ) قال : الطائفة الرجل والنفر .

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

قوله (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) ذكر هاهنا جملة أحوال المنافقين ، وأن ذكورهم في ذلك كاناثهم ، وأنهم متناهون في النفاق والبعد عن الايمان ، وفيه إشارة إلى نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وردّ لقولهم ـ ويحلفون بالله انهم لمنكم ـ ، ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادّة حالهم لحال المؤمنين فقال : (يأمرون بالمنكر) وهو كل قبيح عقلا أو شرعا (وينهون عن المعروف) وهو كل حسن عقلا أو شرعا قال الزجاج : هذا متصل بقوله ـ ويحلفون بالله انهم لمنكم وماهم منكم ـ أي ليسوا من المؤمنين ، ولكن بعضهم من بعض : أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ( ويقبضون أيديهم ) : أى يشحون فيما ينبغي إخراجه من المال في الصدقة والصلة والجهاد ؛ فالقبض كناية عن الشحّ كما أن البسط كناية عن الكرم ، والنسيان الترك : أى تركوا ماأمرهم به ، فتركهم من رحمته وفضله ، لأن النسيان الحقيقيّ لايصح اطلاقه على الله سبحانه ، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان ، ثم حكم عليهم بالفسق : أى الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه ، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون في الفسق ، ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأنه (نارجهنم) و (خالدين فيها) حال مقدّرة : اى مقدّرين الخلود ، وفي هذه الآية دليل على أن وعد يقال في الشر كما يقال في الخير ( هى حسبهم ) : أى كافيتهم لايحتاجون إلى زيادة على عذابها ، (و) مع ذلك فقد (لعنهم الله) أى طردهم وأبعدهم من رحمته (ولهم عذاب مقيم) أى نوع آخر من العذاب دائم لاينفك عنهم * قوله ( كالذين من قبلكم ) شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتا من الغيبة الى الخطاب ، والكاف محلها رفع على خبرية مبتدأ محذوف : أى أنتم مثل الذين من قبلكم ، أو محلها نصب : أى فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم من الأمم . وقال الزجاج :

التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلكم ، وقيل المعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فحذف المضاف ، ثم وصف حال أولئك الكفار الذين من قبلهم ، و بين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبى ﷺ (قوة وأ كثر أموالا وأولادا فاستمتعوا) أى تمتعوا (بخلاقهم) أى نصيبهم الذى قدره الله لهم من ملاذ الدنيا (فاستمتعتم) أنتم (بخلاقكم) أى نصيبكم الذى قدره الله لكم ( كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) أى انتفعتم به كما انتفعوا به ، والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار فى الاستمتاع بما رزقهم الله * وقد قيل ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حق الأولين مرة ، ثم فى حق المنافقين ثانيا ، ثم تكريره فى حق الأولين ثالثا * وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ ، فلما قرر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية فى المبالغة * قوله (وخضتم كالذى خاضوا ) معطوف على ماقبله ، أى كالفوج الذى خاضوا ، أو كالخوض الذى خاضوا ، وقيل أصله كالذين فحذفت النون ، والأولى أن يقال ان الذى اسم موصول مثل من وما ، يعبر به عن الواحد والجمع ، يقال : خضت الماء أخوضه خوضا وخياضا ، والموضع مخاضة ، وهو ماجاز الناس فيه مشاة وركبانا ، وجمعها المخاض والمخاوض ، و يقال منه خاض القوم فى الحديث وتخاوضوا فيه : أى تفاوضوا فيه ، والمعنى خضتم فى أسباب الدنيا واللهو واللعب ، وقيل فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب : أى دخلتم فى ذلك ، والاشارة بقوله (أولئك) الى المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين ، والمشبه بهم (حبطت أعمالهم) أى بطلت ، والمراد بالأعمال ماعملوه مما هو فى صورة طاعة ، لاهذه الأعمال المذكورة هنا ، فانها من المعاصى ، ومعنى (فى الدنيا والآخرة) أنها باطلة على كل حال : أما بطلانها فى الدنيا فلأن مايترتب على أعمالهم فيها لايحصل لهم بل يصير مايرجونه من الغنى فقرا ، ومن العز ذلا ، ومن القوة ضعفا ، وأما فى الآخرة فلأنهم يصيرون الى عذاب النار ولاينتفعون بشىء مما عملوه من الأعمال التى يظنونها طاعة وقربة (وأولئك هم الخاسرون) أى المتمكنون فى الخسران الكاملون فيه فى الدنيا والآخرة (ألم يأتهم) أى المنافقين (نبأ الذين من قبلهم) أى خبرهم الذى له شأن ، وهو مافعلوه وما فعل بهم ، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الاجمال فى المشبه بهم ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم ، لأن بلادهم : وهى الشام قريبة من بلاد العرب ، فالاستفهام للتقرير ، وأولهم قوم نوح ، وقد أهلكوا بالاغراق ، وثانيهم قوم عاد : وقد أهلكوا بالريح العقيم وثالثهم قوم ثمود ، وقد أخذوا بالصيحة ، ورابعهم قوم ابراهيم : وقد سلط الله عليهم البعوض ، وخامسهم أصحاب مدين : وهم قوم شعيب ، وقد أخذتهم الرجفة ، وسادسهم أصحاب المؤتفكات : وهى قرى قوم لوط وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة : وسميت مؤتفكات لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها والائتفاك : الانقلاب ( أتتهم رسلهم بالبينات) أى رسل هذه الطوائف الست ، وقيل رسل أصحاب المؤتفكات لأن رسولهم لوط وقد بعث الى كل قرية من قراهم رسولا ، والفاء فى (فما كان الله ليظلمهم) للعطف على مقدر يدل عليه الكلام : أى فكذبوهم فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ، لأنه قد بعث اليهم رسله فأنذروهم وحذروهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بسبب مافعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد لأنبيائه ، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمرا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (يأمرون بالمنكر ) قال : هو التكذيب قال : وهو أنكر المنكر (و ينهون عن المعروف) شهادة أن لا إله إلا الله والاقرار بما أنزل الله : وهو أعظم المعروف . وأخرج

ابن

ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ويقبضون أيديهم) قال : لايبسطونها بنفقة في حق . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (نسوا الله فنسيهم) قال : تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (كالذين من قبلكم) قال : صنع الكفار كالكفار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ماأشبه الليلة بالبارحة (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة) الى قوله (وخضتم كالذى خاضوا) هؤلاء بنو اسرائيل أشبهناهم والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله (بخلاقهم) قال : بدينهم . وأخرجا أيضا عن أبي هريرة قال الخلاق : الدين . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى في قوله (فاستمتعوا بخلاقهم) قال : بنصيبهم في الدنيا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله (وخضتم كالذى خاضوا) قال : لعبتم كالذى لعبوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (والمؤتفكات) قال : قوم لوط ائتفكت بهم أرضهم ، فجعل عاليها سافلها .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ● وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ●

قوله (بعضهم أولياء بعض) أى قلوبهم متحدة في التوادد والتحابب والتعاطف بسبب ماجمعهم من أمر الدين وضمهم من الايمان بالله ، ثم بين أوصافهم الجيدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال (يأمرون بالمعروف) أى بما هو معروف في الشرع غير منكر ، ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره (وينهون عن المنكر) أى عما هو منكر في الدين غير معروف ، وخصص اقامة الصلاة وايتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال ، وقد تقدم معنى هذا (ويطيعون الله) في صنع ماأمرهم بفعله أونهاهم عن تركه ، والاشارة (بأولئك) الى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف ، والسين في (سيرحمهم الله) للمبالغة في انجاز الوعد (ان الله عزيز) لايغالب (حكيم) في أقواله وأفعاله ، ثم ذكر تفصيل مايدخل تحت الرحمة اجمالا باعتبار الرحمة في الدار الآخرة فقال (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار) والاظهار في موقع الاضمار لزيادة التقرير ومعنى جرى الأنهار من تحت الجنات أنها تجرى تحت أشجارها وغرفها ، وقد تقدم تحقيقه في البقرة (ومساكن طيبة) أى منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت ، و (جنات عدن) يقال : عدن بالمكان اذا أقام به ، ومنه المعدن ، قيل هي أعلى الجنة ، وقيل أوسطها ، وقيل قصور من ذهب لايدخلها الا نبي أوصديق أوشهيد ، وصف الجنة بأوصاف : الأول جرى الأنهار من تحتها ، والثاني أنهم فيها خالدون ، والثالث طيب مساكنها ، والرابع أنها دار عدن : أى إقامة غير منقطعة ، هذا على ماهو معنى عدن لغة ، وقيل هو علم ، والتنكير في رضوان للتحقير : أى (ورضوان) حقير يسير (من) رضوان (الله أكبر) من ذلك كله الذى أعطاهم الله إياه ، وفيه دليل على أنه لاشيء من النعم وان جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه ، وأن أدنى رضوان منه لايساويه شيء من اللذات الجسمانية وان كانت على غاية ليس وراءها غاية ، اللهم ارض عنا رضا

لايشوبه سخط ولايكدره نكد ، يامن بيده الخير كله دقه وجله ، والاشارة بقوله (ذلك) الى ماتقدم عما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات (هو الفوز العظيم) دون كل فوز مما يعده الناس فوزا .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (يأمرون بالمعروف) قال : يدعون الى الايمان بالله ورسوله والنفقات فى سبيل الله وما كان من طاعة الله (وينهون عن المنكر) عن الشرك والكفر قال : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (بعضهم أولياء بعض) قال إخاؤهم فى الله يتحابون بجلال الله والولاية لله ، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأحاديث ماهو معروف . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى (ومساكن طيبة فى جنات عدن) قالا : على الخبير سقطت : سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال : قصر من لؤلؤة فى الجنة ، فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء ، فى كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة ، فى كل مائدة سبعون لونا من كل طعام ، فى كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى المؤمن من القوة فى كل غداة مايأتى على ذلك كله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (جنات عدن) قال : معدن الرجل الذى يكون فيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : معدنهم فيها أبدا . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله (ورضوان من الله أكبر) يعنى : اذا أخبروا أن الله عنهم راض ، فهو أكبر عندهم من التحف والتسنيم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ان الله يقول لأهل الجنة : ياأهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ومالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعطه أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : ياربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ قال أحل عليكم رضوانى . فلاأسخط عليكم بعده أبدا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَاقَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۞

الأمر للنبى ﷺ بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده ، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا ، وجهاد المنافقين يكون باقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله . وقال الحسن : إن جهاد المنافقين باقامة الحدود عليهم ، واختاره قتادة ، قيل فى توجيهه ان المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود . قال ابن العربى : ان هذه دعوى لابرهان عليها ، وليس العاصى بمنافق : انما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق دائما لابما تتلبس به الجوارح ظاهرا ، وأخبار المحدودين تشهد بسياقها أنهم لم يكونوا منافقين ۞ قوله (واغلظ عليهم) الغلظ : نقيض الرأفة ، وهو شدة القلب وخشونة الجانب ، قيل وهذه الآية نسخت كل شىء من العفو والصلح والصفح ، ثم ذكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة ، فقال (يحلفون بالله ماقالوا) .

وقد

وقد اختلف أئمة التفسير فى سبب نزول هـذه الآية ، فقيل نزلت فى الجلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت ، وذلك أنه لما كثر نزول القرآن فى غزوة تبوك فى شأن المنافقين وذمّهم ، فقالا : لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شرّ من الحمير ، فقال له عامر بن قيس أجل والله ان محمدا لصادق مصدّق ، وانك لشرّ من الحمار ، وأخبر عامر بذلك النبي ﷺ ، وجاء الجلاس : فحلف بالله ان عامرا لكاذب ، وحلف عامر لقد قال . وقال : اللهم أنزل على نبيك شيئا فنزلت ، وقيل ان الذى سمع ذلك عاصم بن عدىّ ، وقيل حذيفة ، وقيل بل سمعه ولد امرأته : أى امرأة الجلاس ، واسمه عمير ابن سعد ، فهمّ الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره ، وقيل ان هذه الآية نزلت فى عبدالله بن أبىّ رأس المنافقين لما قال ماشلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك » ، و ـ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ـ فأخبر النبي ﷺ بذلك ، فجاء عبدالله بن أبىّ فحلف انه لم يقله ، وقيل انه قول جميع المنافقين وأن الآية نزلت فيهم ، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول الى جميعهم هى باعتبار موافقة من لم يقل ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف ، ثم ردّ الله على المنافقين وكذبهم وبين أنهم حلفوا كذبا ، فقال (ولقد قالوا كلمة الكفر) وهى ماتقدّم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة (وكفروا بعد إسلامهم) أى كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للاسلام وان كانوا كفارا فى الباطن * والمعنى : أنهم فعلوا مايوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم * قوله (وهموا بما لم ينالوا) قيل هو همهم بقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة فى غزوة تبوك ، وقيل هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبىّ ، وقيل هو همّ الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم * قوله (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أى وماعابوا وأنكروا إلاماهو حقيق بالمدح والثناء ، وهو إغناء الله لهم من فضله ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ العامّ ، وهو من باب قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهنّ فلول من قراع الكتائب

ومن باب قول الشاعر :

ماتقموا من بنى أمية إلا * أنهم يحلمون ان غضبوا

فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم . وقد كان هؤلاء المنافقون فى ضيق من العيش ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة اتسعت معيشتهم وكثرت أموالهم * قوله (فان يتوبوا يك خيرالهم) أى فان تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذى فعلوه من التوبة خيرا لهم فى الدين والدنيا . وقد تاب الجلاس بن سويد وحسن إسلامه ، وفى ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر .

وقد اختلف العلماء فى قبولها من الزنديق ، فمنع من قبولها مالك وأتباعه ، لأنه لايعلم صحة توبته اذ هو فى كل حين يظهر التوبة والاسلام (وان يتولوا) أى يعرضوا عن التوبة والايمان (يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا) بالقتل والأسر ونهب الأموال (و) فى (الآخرة) بعذاب النار (ومالهم فى الأرض من ولىّ) يواليهم (ولا نصير) ينصرهم .

وقد أخرج ابن اسحاق وابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شرّ من الحمير ، فسمعها عمير بن سعد ، فقال والله ياجلاس انك لأحب الناس الىّ وأحسنهم عندى أثرا وأعزّهم علىّ أن يدخل عليه شىء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ، ولئن سكت عنها لتهلكنى ، ولاحداهما أشدّ علىّ من الأخرى ، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ماقال الجلاس ، فحلف بالله ماقال ولكن كذب علىّ عمير ، فأنزل الله (يحلفون بالله ماقالوا) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه والبيهقى

فى الدلائل عن أنس بن مالك قال : سمع زيد بن أرقم رجلا من المنافقين يقول والنبى ﷺ يخطب ان كان هذا صادقا لنحن شرّ من الحمير . قال زيد : هو والله صادق وأنت شرّ من الحمار ، فرفع ذلك الى النبى ﷺ فجحد القائل ، فأنزل الله ( يحلفون بالله ماقالوا ) الآية . وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظلّ شجرة فقال انه سيأتيكم إنسان ينظر اليكم بعينى شيطان ، فاذا جاءكم فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ماقالوا حتى تجاوز عنهم ، وأنزل الله ( يحلفون بالله ماقالوا ) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا : أحدهما من جهينة ، والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار ، فظهر الغفارى على الجهنى ، فقال عبد الله بن أبىّ للأوس : انصروا أخاكم والله ما مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك » والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ــ فسعى بها رجل من المسلمين الى رسول الله ﷺ ، فأرسل اليه فسأله فجعل يحلف بالله ماقاله ، فأنزل الله ( يحلفون بالله ) الآية ، وفى الباب أحاديث مختلفة فى سبب نزول هذه الآية ، وفيما ذكرناه كفاية . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله ( وهموا بما لم ينالوا ) قال : همّ رجل يقال له الأسود بقتل النبى ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله ( وهموا بما لم ينالوا ) قال : أرادوا أن يتوّجوا عبد الله بن أبىّ بتاج . وأخرج ابن ماجه وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ فجعل ديته اثنى عشر ألفا ، وذلك قوله ( وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ) قال : بأخذهم الدية .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ * ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *

اللام الأولى ، وهى ( لئن آتانا ) الله ( من فضله ) لام القسم ، واللام الثانية ، وهى ( لنصدّقنّ ) لام الجواب للقسم والشرط * ومعنى ( لنصدّقنّ ) لنخرج الصدقة ، وهى أعمّ من المفروضة وغيرها ( ولنكوننّ من الصالحين ) أى من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدّين التاركين لمحرّماته ( فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ) أى لما أعطاهم ماطلبوا من الرزق بخلوا به : أى بما آتاهم من فضله فلم يتصدّقوا بشىء منه كما حلفوا به ( وتولوا ) أى أعرضوا عن طاعة الله و إخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله ، ( و ) الحال أ ( نهم معرضون ) فى جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق و بعده * قوله ( فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه ) الفاعل هو الله سبحانه : أى فأعقبهم الله بسبب البخل الذى وقع منهم والاعراض نفاقا كائنا فى قلوبهم ، متمكنا منها ، مستمرا فيها ( الى يوم يلقون ) الله عزّ وجلّ ، وقيل ان الضمير يرجع الى البخل : أى فأعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه نفاقا كائنا فى قلوبهم الى يوم يلقون بخلهم : أى جزاء بخلهم * ومعنى ( فأعقبهم ) أن الله سبحانه جعل

النفاق المتمكن فى قلوبهم الى تلك الغاية عاقبة ماوقع منهم من البخل ، والباء فى ( بما أخلفوا الله ماوعدوه) للسببية : أى بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدّق والصلاح ، وكذلك الباء فى (وبما كانوا يكذبون) أى وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله ﷺ ، ثم أنكر عليهم فقال (ألم يعلموا) أى المنافقون ، وقرئ بالفوقية خطابا للمؤمنين ( أن الله يعلم سرّهم ونجواهم ) أى جميع مايسرونه من النفاق وجميع مايتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي ﷺ وعلى أصحابه ، وعلى دين الاسلام (وأن الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شيء من الأشياء المغيبة كائنا ما كان ، ومن جملة ذلك مايصدر عن المنافقين * قوله ( الذين يلمزون المطوّعين ) الموصول محله النصب ، أو الرفع على الذم ، أو الجر بدلا من الضمير فى سرّهم ونجواهم * ومعنى (يلمزون) يعيبون . وقد تقدّم تحقيقه ، والمطوّعين : أى المتطوّعين ، والتطوّع : التبرّع * والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين اذا تطوّعوا بشيء من أموالهم وأخرجوه للصدقة فكانوا يقولون : ما أغنى الله عن هذا ، ويقولون : مافعلوا هذا الارياء ، ولم يكن لله خالصا ، و (فى الصدقات) متعلق بيلمزون : أى يعيبونهم فى شأنها * قوله (والذين لايجدون الاجهدهم) معطوف على المطوّعين : أى يلمزون المتطوّعين ، ويلمزون الذين لايجدون الاجهدهم ، وقيل معطوف على المؤمنين : أى يلمزون المتطوّعين من المؤمنين ، ومن الذين لايجدون الا جهدهم ، وقرئ جهدهم بفتح الجيم ، والجهد بالضم الطاقة ، وبالفتح المشقة ، وقيل هما لغتان : ومعناهما واحد . وقد تقدّم بيان ذلك * والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدّقون بما فضل عن كفايتهم * قوله (فيسخرون منهم ) معطوف على يلمزون : أى يستهزءون بهم لحقارة مايخرجونه فى الصدقة مع كون ذلك جهدالمقلّ وغاية مايقدرعليه و يتمكن منه * قوله (سخر الله منهم) أى جازاهم على مافعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم ، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما فى غيره ، وقيل هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين (ولهم عذاب أليم ) أى ثابت مستمرّ شديد الألم .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والعسكرى فى الأمثال والطبرانى وابن منده والباوردى وأبو نعيم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى : قال جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله : ادع الله أن يرزقنى مالا . قال ويلك ياثعلبة قليل تؤدّى شكره خير من كثير لاتطيقه قال يارسول الله : ادع الله أن يرزقنى مالا . قال ويحك ياثعلبة : أما تحبّ أن تكون مثلى ، فلوشئت أن يسير ربى هذه الجبال معى ذهبا لسارت ؟ فقال يارسول الله : ادع الله أن يرزقنى مالا ، فوالذى بعثك بالحق إن آتانى الله مالا لأعطينّ كل ذى حق حقه . قال ويحك ياثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لاتطيقه . قال يارسول الله : ادع الله تعالى ، فقال رسول الله ﷺ « اللهمّ ارزقه مالا » . قال فاتخذ غنما فنمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة فتنحى بها ، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما تنمو الدود فتنحى بها ، فكان لايشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار الامن جمعة الى جمعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم نمت كما تنمو الدود فضاق بها مكانه فتنحى بها فكان لايشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجعل يتلق الركبان و يسألهم عن الأخبار ، وفقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأل عنه . فأخبروه أنه اشترى غنما ، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب » ثم ان الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات ، وأنزل ــ خذ من أموالهم صدقة ــ الآية ، فبعث

سول الله ﷺ رجلين : رجلا من جهينة ، ورجلا من بنى سلمة يأخذان الصدقات ، وكتب لهما أسنان الابل والغنم كيف يأخذانها وجوهها ، وأمرهما أن يمرّا على ثعلبة بن حاطب ، وبرجل من بنى سليم فخرجا فمرّا بثعلبة فسألا الصدقة ، فقال : أرياني كتابكما ، فنظرفيه فقال : ماهذه الا جزية انطلقا حتى تفرغا ثم مرّا الىّ ، فانطلقا ، وسمع بهما السلمى فاستقبلهما بخيار إبله ، فقالا انما عليك دون هذا ، فقال ما كنت أتقرّب الى الله الا بخير مالى ، فقبلا ، فلما فرغا مرّا بثعلبة ، فقال : أرياني كتابكما ، فنظر فيه فقال ماهذه الا جزية انطلقا حتى أرى رأيى ، فانطلقا حتى قدما المدينة ، فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما « ويح ثعلبة بن حاطب » ودعا للسلمى بالبركة ، وأنزل الله (ومنهم من عاهد الله) الثلاث الآيات قال فسمع بعض أقارب ثعلبة ، فأتى ثعلبة فقال ويحك ياثعلبة أنزل فيك كذا وكذا : قال فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال يارسول الله هذه صدقة مالى فقال رسول الله ﷺ ان الله قد منعنى أن أقبل منك ، فجعل يبكى ويحثى التراب على رأسه ، فقال رسول الله ﷺ : هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعنى فلم يقبل منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى مضى ، ثم أتى أبا بكر فقال ياأبابكر : اقبل منى صدقتى فقد عرفت منزلتى من الأنصار ، فقال أبو بكر لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقبلها فلم يقبلها أبو بكر ، ثم ولى عمر بن الخطاب فأتاه ، فقال ياأبا حفص ياأمير المؤمنين اقبل منى صدقتى . قال ويثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبى ﷺ ، فقال عمر لم يقبلها رسول ﷺ ولا أبو بكر أقبلها أنا ، فأبى أن يقبلها ، ثم ولى عثمان فسأله أن يقبل صدقته ، فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك فلم يقبلها منه ، فهلك فى خلافة عثمان ، وفيه نزلت (الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين فى الصدقات) قال وذلك فى الصدقة ، وهذا الحديث هو مروىّ من حديث معاذ بن رفاعة عن علىّ بن زيد عن أبى عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الله بن يزيد بن معاوية عن أبى أمامة الباهلى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (ومنهم من عاهد الله) الآية ، وذلك أن رجلا كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلسا فأشهدهم فقال : لئن آتانى الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه ، وتصدّقت منه ، وجعلت منه للقرابة . فابتلاه الله فآتاه من فضله : فأخلف ماوعده ، فأغضب الله بما أخلفه ماوعده ، فقصّ الله شأنه فى القرآن . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رجلا من الأنصار هو الذى قال هذا ، فمات ابن عم له فورث منه مالا فبخل به ، ولم يف بما عاهد الله عليه ، فأعقبه بذلك نفاقا فى قلبه إلى أن يلقاه . قال ذلك (بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدّق بشىء كثير ، فقالوا : مراء ، وجاء أبو عقيل بنصف صاع ، فقال المنافقون : إن الله لغنىّ عن صدقة هذا ، فنزلت (الذين يلمزون المطوّعين) الآية ، وفى الباب روايات كثيرة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله (الذين يلمزون المطوّعين) أى يطعنون على المطوّعين

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۞ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ فَإِن

رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ *

أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء ، وذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره ﷺ ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم ، فهو كقوله تعالى - قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم - ، ثم قال (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين وان أكثر النبي ﷺ من الاستغفار لهم ، وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولا كما في سائر مفاهيم الأعداد ، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول ، فقد كانت العرب تجرى ذلك مجرى المثل في كلامها عند ارادة التكثير ، والمعنى أنه لن يغفر الله لهم ، وان استغفرت لهم استغفارا بالغا في الكثرة غاية المبالغ ، وقد ذهب بعض الفقهاء الى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه ، ويدل لذلك ما سيأتى عن النبي ﷺ أنه قال لأزيدنّ على السبعين ، وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها فقال : ان السبعة عدد شريف ، لأنها عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم والنجوم السيارة والأعضاء ، وأيام الأسبوع ، فصير كل واحد من السبعة الى عشرة ، لأن الحسنة بعشر أمثالها ، وقيل خصت السبعون بالذكر لأنه ﷺ كبر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة فكأنه قال : ان تستغفر لهم سبعين مرة بازاء تكبيراتك على حمزة ، وانتصاب سبعين على المصدر كقولهم : ضربته عشرين ضربة ، ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) أى ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله (والله لايهدى القوم الفاسقين) : أى المتمرّدين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين لحدودها ، والمراد هنا الهداية الموصلة الى المطلوب ، لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق ، ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) المخلفون المتروكون ، وهم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين ، فأذن لهم وخلفهم بالمدينة فى غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم الله وثبطهم ، أو الشيطان أو كسلهم ، أو المؤمنون ، ومعنى (بمقعدهم) أى بقعودهم يقال : قعد قعودا ومقعدا : أى جلس ، وأقعده غيره ، ذكر معناه الجوهرى فهو متعلق بفرح : أى فرح المخلفون بقعودهم ، وخلاف رسول الله منتصب على أنه ظرف لمقعدهم . قال الأخفش ويونس : الخلاف بمعنى الخلف : أى بعد رسول الله ﷺ ، وذلك أن جهة الأمام التي يقصدها الانسان تخالفها جهة الخلف ، وقال قطرب والزجاج : معنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين سار وأقاموا ، فانتصابه على أنه مفعول له : أى قعدوا لأجل المخالفة ، أو على الحال مثل وأرسلها العراك : أى مخالفين له ، ويؤيد ماقاله الأخفش ويونس قراءة أبى حيوة خلف رسول الله * قوله (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس ، وعدم وجود باعث الايمان وداعى الاخلاص ووجود الصارف عن ذلك ، وهو ماهم فيه من النفاق ، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لوجود الداعى معهم ، وانتفاء الصارف عنهم (وقالوا لاتنفروا فى الحرّ) أى قال المنافقون لاخوانهم هذه المقالة تثبيطا لهم وكسرا لنشاطهم وتواصيا بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم (نار جهنم أشدّ حرّا لو كانوا يفقهون) والمعنى أنكم أيها المنافقون كيف تفرّون من هذا الحرّ اليسير ؟ ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبدا أشدّ حرّا مما فررتم منه فانكم انما فررتم من حرّ يسير فى زمن قصير ، ووقعتم فى حرّ كثير فى زمن كبير : بل غير متناه أبد الآبدين ودهر الداهرين .

فكنت كالساعي الى مثعب * موائلا من سبل الراعد

وجواب لو في لو كانوا يفقهون مقدّر : أي لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما فعلوا مافعلوا * قوله ( فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا ) هذان الأمران معناهما الخبر ، والمعنى فسيضحكون قليلا ويبكون كثيرا ، وانما جيء بهما على لفظ الأمر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لايكون غيره ، وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية : أي ضحكا قليلا وبكاء كثيرا ، أو زمانا قليلا وزمانا كثيرا ( جزاء بما كانوا يكسبون ) : أي جزاء بسبب ما كانوا يكسبونه من المعاصي ، وانتصاب جزاء على المصدرية : أي يجزون جزاء ( فان رجعك الله إلى طائفة منهم ) الرجع متعدّ كالردّ ، والرجوع لازم ، والفاء لتفريع مابعدها على ماقبلها ، وانما قال (إلى طائفة) لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين ، بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة ، وفيهم من المؤمنين من لاعذر له ، ثم عفا عنهم رسول الله ﷺ وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا ، وسيأتي بيان ذلك ، وقيل انما قال : الى طائفة ، لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف ( فاستأذنوك للخروج ) معك في غزوة أخرى بعد غزوتك هذه (فقل لهم (لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوّا) : أي قل لهم ذلك عقوبة لهم ، ولما في استصحابهم من المفاسد كما تقدم في قوله ـ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ـ . وقرئ بفتح الياء من معي في الموضعين . وقرئ بسكونها فيهما ، وجملة (انكم رضيتم بالقعود أوّل مرة) للتعليل : أي لن تخرجوا معي ولن تقاتلوا لأنكم رضيتم بالقعود والتخلف أوّل مرة ، وهي غزوة تبوك ، والفاء في (فاقعدوا مع الخالفين) لتفريع مابعدها على ماقبلها ، والخالفين جمع خالف كأنهم خلفوا الخارجين ، والمراد بهم من تخلف عن الخروج ، وقيل المعنى فاقعدوا مع الفاسدين ، من قولهم فلان خالف أهل بيته اذا كان فاسدا فيهم ، من قولك خلف اللبن : أي فسد بطول المكث في السقاء . ذكر معناه الأصمعي . وقرئ ( فاقعدوا مع الخلفين ) وقال الفراء : معناه المخالفين .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبدالله بن أبيّ قال لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله ، وهو القائل ـ ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ـ فأنزل الله ( استغفر لهم أولا تستغفر لهم ) فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأزيدنّ على السبعين : فأنزل الله ـ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ـ . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول لما توفي عبدالله بن أبيّ دعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قلت أعلى عدوّ الله عبدالله بن أبيّ القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ، أعدد أيامه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبسم حتى اذا أكثرت . قال يا عمر أخر عني اني قد خيرت ، قد قيل لي (استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ) فلو أعلم أني ان زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه فعجبت لي وجرءتي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان الا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان (ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) فما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على منافق بعد حتى قبضه الله عزّ وجلّ . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (فرح المخلفون) الآية قال : عن غزوة تبوك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ

أمر الناس أن ينبعثوا معه ، وذلك فى الصيف ، فقال رجال يارسول الله : الحرّ شديد ولانستطيع الخروج فلا تنفروا فى الحرّ . فقال الله (قل نار جهنم أشد حرّا لو كانوا يفقهون) فأمره بالخروج . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) قال : هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا ، يقول الله فليضحكوا قليلا فى الدنيا وليبكوا كثيرا فى الآخرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (فان رجعك الله الى طائفة منهم) قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين وفيهم قيل ماقيل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فاقعدوا مع الخالفين) قال هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو .

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ *

قوله (مات) صفة لأحد ، و (أبدا) ظرف لتأبيد النفى . قال الزجاج : معنى قوله (ولا تقم على قبره) أن رسول الله ﷺ كان اذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فنع هاهنا منه ، وقيل معناه لاتقم بمهمات اصلاح قبره ، وجملة (انهم كفروا) تعليل للنهى ، وانما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر ، لأن الكافر قد يكون عدلا فى دينه ، والكذب والنفاق والخداع والجبن والخبث مستقبحة فى كل دين ، ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم وأولادهم ، وهو تكرير لما سبق فى هذه السورة وتقرير لمضمونه ، وقيل ان الآية المتقدمة فى قوم ، وهذه فى آخرين ، وقيل هذه فى اليهود ، والأولى فى المنافقين ، وقيل غير ذلك ، وقد تقدم فى الآية الأولى جميع مايحتاج اليه فى تفسير هذه الآية ، ثم عاد الله سبحانه الى توبيخ المنافقين ، فقال (واذا أنزلت سورة) أى من القرآن ، ويجوز أن يراد بعض السورة ، وأن يراد تمامها ، وقيل هى هذه السورة : أى سورة براءة ، وأن فى أن آمنوا بالله مفسرة لما فى الانزال من معنى القول ، أو مصدرية حذف منها الجارّ : أى بأن آمنوا ، وانما قدم الأمر بالايمان ، لأن الاشتغال بالجهاد لايفيد الابعد الايمان (استأذنك أولوا الطول منهم) أى ذوو الفضل والسعة ، من طال عليه طولا ، كذا قال ابن عباس والحسن ، وقال الأصم الرؤساء والكبراء المنظور اليهم ، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم ، اذ لاعذر لهم فى القعود (وقالوا ذرنا) أى اتركنا (نكن مع القاعدين) أى المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء ، والزمنى والخوالف النساء اللاتى يخلفن الرجال فى القعود فى البيوت ، جمع خالفة ، وجوّز بعضهم أن يكون جمع خالف ، وهو من لاخير فيه (وطبع على قلوبهم) هو كقوله ــ ختم الله على قلوبهم ــ وقد مرّ تفسيره (فهم لايفقهون) شيئا مما فيه نفعهم وضرهم ، بل هم كالأنعام .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبىّ ابن سلول أتى ابنه عبدالله رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول

IX-89-91



الله صلى الله عليه وآله وسلم فقام عمر فأخذ ثوبه فقال : يارسول الله أتصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى على المنافقين ؟ فقال ان ربى خيرنى وقال ـ استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ـ وسأزيد على السبعين ، فقال انه منافق ، فصلى عليه فأنزل الله (ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا) الآية ، فترك الصلاة عليهم . وأخرج ابن ماجه والبزار وابن جرير وابن مردويه عن جابر قال : مات رأس المنافقين بالمدينة ، فأوصى أن يصلى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأن يكفنه فى قميصه ، فجاء ابنه الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال ان أبى أوصى أن يكفن فى قميصك ، فصلى عليه وألبسه قميصه وقام على قبره ، فأنزل الله (ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (أولوا الطول) قال : أهل الغنى . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) قال : مع النساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الخوالف النساء .

لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿﴾

المقصود من الاستدراك بقوله (لكن الرسول) الى آخره الاشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر فانه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما فى قوله ـ فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ـ . وقد تقدم بيان الجهاد بالأموال والأنفس ، ثم ذكر منافع الجهاد فقال (وأولئك لهم الخيرات) وهى جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين ، وقيل المراد به : النساء الحسان كقوله تعالى ـ فيهن خيرات حسان ـ ومفرده خيرة بالتشديد ، ثم خففت مثل هينة وهينة . وقد تقدم معنى الفلاح ، والمراد به هنا : الفائزون بالمطلوب ، وتكرير اسم الاشارة لتفخيم شأنهم ، وتعظيم أمرهم ، والجنات : البساتين . وقد تقدم بيان جرى الأنهار من تحتها ، وبيان الخلود والفوز ، والاشارة بقوله (ذلك) الى ماتقدم من الخيرات والفلاح ، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة ، ووصف الفوز بكونه عظيما يدل على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز .

وقد أخرج القرطبى فى تفسيره عن الحسن أنه قال الخيرات : هنّ النساء الحسان .

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿﴾

قرأ الأعرج والضحاك المعذرون بالتخفيف ، من أعذر ، ورواها أبو كريب عن أبى بكر عن عاصم ، ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس . قال فى الصحاح : وكان ابن عباس يقرأ (وجاء المعذرون) مخففة من أعذر ، ويقول : والله هكذا أنزلت . قال النحاس الا أن مدارها على الكلبى ، وهى من أعذر : اذا بالغ فى العذر ، ومنه «من أنذر فقد أعذر» أى بالغ فى العذر . وقرأ الجمهور المعذّرون بالتشديد ففيه وجهان ، أحدهما أن يكون أصله المعتذرون فأدغمت التاء فى الذال ، وهم الذين لهم عذر ، ومنه قول لبيد :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ﴿﴾ ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فالمعذرون

فالمعذرون على هذا : هم المحقون فى اعتذارهم . وقد روى هذا عن الفراء والزجاج وابن الأنبارى ، وقيل هو من عذّر ، وهو الذى يعتذر ولا عذر له ، يقال عذر فى الأمر : اذا قصر واعتذر بما ليس بعذر : ذكره الجوهرى وصاحب الكشاف ، فالمعذرون على هذا : هم المبطلون ، لأنهم اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها . وروى عن الأخفش والفراء وأبى حاتم وأبى عبيد أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع * والمعنى : أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن الغزو ، وطائفة أخرى لم يعتذروا ، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر ، وهم منافقو الاعراب الذين كذبوا الله ورسوله ولم يؤمنوا ولا صدقوا ، ثم توعدهم الله سبحانه ، فقال (سيصيب الذين كفروا منهم) أى من الأعراب ، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا ، بل كذبوا بالله ورسوله (عذاب أليم) أى كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وجاء المعذرون من الأعراب) أى أهل العذر منهم . وروى ابن أبى حاتم عنه نحو ذلك . وأخرج ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد عنه أيضا أنه كان يقول « لعن الله المعذرين » ، ويقرأ بالتشديد كأن الأمر عنده أن المعذر بالتشديد : هو المظهر للعذر اعتلالا من غير حقيقة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن اسحق فى قوله (وجاء المعذرون من الأعراب) قال ذكر لى أنهم نفر من بنى غفار جاءوا فاعتذروا ، منهم خفاف بن إيماء ، وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك أغارت أعراب طىء على أهالينا ومواشينا .

لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *

لما ذكر سبحانه المعذرين ذكر بعدهم أهل الأعذار الصحيحة المسقطة للغزو ، وبدأ بالعذر فى أصل الخلقة ، فقال (ليس على الضعفاء) وهم أرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج ونحو ذلك ، ثم ذكر العذر العارض فقال (ولا على المرضى) والمراد بالمرض : كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعا ، وقيل انه يدخل فى المرضى الأعمى والأعرج ونحوهما ، ثم ذكر العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن ، فقال (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) أى ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون اليه من التجهز للجهاد ، فنفى سبحانه عن هؤلاء الحرج ، وأبان أن الجهاد مع هذه الأعذار ساقط عنهم غير واجب عليهم مقيدا بقوله (إذا نصحوا لله ورسوله) وأصل النصح إخلاص العمل من الغش ، ومنه التوبة النصوح . قال نفطويه نصح الشىء : اذا خلص ، ونصح له القول : أى أخلصه له ، والنصح لله : الايمان به والعمل بشريعته ، وترك ما يخالفها كائنا ما كان ، ويدخل تحته دخولا أوليا نصح عباده ، ومحبة المجاهدين فى سبيله ، وبذل النصيحة لهم فى أمر الجهاد ، وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه ، ونصيحة الرسول ﷺ التصديق

بنبوّته ، و بما جاء به ؛ وطاعته فى كل مايأمر به أو ينهى عنه ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه ، ومحبته ، وتعظيم سنته ، و إحياؤها بعد موته بما تبلغ اليه القدرة . وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبيّ ﷺ قال « الدين النصيحة ثلاثا ، قلوا لمن ؟ قال لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامّتهم » وجملة (ماعلى المحسنين من سبيل) مقرّرة لمضمون ماسبق : أى ليس على المعذورين الناصحين من سبيل : أى طريق عقاب ومؤاخذة ، ومن مزيدة للتأكيد ، وعلى هذا فيكون لفظ (المحسنين) موضوعا فى موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقا ، أويكون المراد : ماعلى جنس المحسنين من سبيل وهؤلاء المذكورون سابقا من جملتهم ، فتكون الجملة تعليلية ، وجملة (والله غفور رحيم) تذييلية ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى ـ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ـ ، وقوله ـ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ـ ، و إسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين لايستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذى عذرهم الله عنه مع رغبتهم اليه لولا حبسهم العذر عنه ، ومنه حديث أنس عند أبى داود وأحمد ، وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « لقدتركتم بعدكم قوما ماسرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم واديا الا وهم معكم فيه ، قالوا يارسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ فقال حبسهم العذر » . وأخرجه أحمد ومسلم من حديث جابر ، ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله (ولا على الذين اذا ماأتوك لتحملهم قلت لاأجد ماأحملكم عليه) والعطف على جملة ـ ماعلى المحسنين ـ أى ولا على الذين اذا ماأتوك الى آخره من سبيل ، ويجوز أن تكون عطفا على الضعفاء : أى ولا على اذا ماأتوك الى آخره حرج * والمعنى : أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ماير كبون عليه فى الغزو فلم تجد ذلك الذى طلبوه منك ، قيل وجملة (لاأجد ماأحملكم عليه) فى محل نصب على الحال من الكاف فى أتوك باضمار قد : أى اذا ماأتوك قائلا لاأجد ، وقيل هى بدل من أتوك ، وقيل جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، والأوّل أولى * وقوله (تولوا) جواب اذا ، وجملة (وأعينهم تفيض من الدمع) فى محل نصب على الحال : أى تولوا عنك لما قلت لهم لاأجد ماأحملكم عليه حال كونهم باكين ، و (حزنا) منصوب على المصدرية ، أوعلى العلية ، أوالحالية ، و (أن لايجدوا) مفعول له ، وناصبه (حزنا) . وقال الفراء أن لابمعنى ليس : أى حزنا أن ليس يجدوا ، وقيل المعنى : حزنا على أن لايجدوا ، وقيل المعنى حزنا أنهم لايجدون ماينفقون لاعندأنفسهم ولاعندك * ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين ، فقال (انما السبيل) أى طريق العقوبة والمؤاخذة (على الذين يستأذنونك) فى التخلف عن الغزو ، (و) الحال أ (نهم أغنياء) أى يجدون مايحملهم ومايتجهزون به ، وجملة (رضوابأن يكونوا مع الخوالف) مستأنفة كأنه قيل مابالهم استأذنوا وهم أغنياء . وقد تقدّم تفسير الخوالف قريبا ، وجملة (وطبع الله على قلوبهم) معطوفة على (رضوا) أى سبب الاستئذان مع الغنى أمران : أحدهما الرضا بالصفقة الخاسرة ، وهى أن يكونوا مع الخوالف ، والثانى : الطبع من الله على قلوبهم (فهم) بسبب هذا الطبع (لايعلمون) مافيه الربح لهم حتى يختاروه على مافيه الخسر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والدارقطنى فى الافراد وابن مردويه عن زيد بن ثابت : قال كنت أكتب لرسول الله ﷺ فنزلت براءة فكنت أكتب ما أنزل عليه فانى لواضع القلم على أذنى اذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ماينزل عليه اذ جاء أعمى فقال : كيف بى يارسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت (ليس على الضعفاء) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : أنزلت هذه الآية فى عابد بن عمر المزنى . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : نزل من عند قوله ـ عفا الله

عنك

عنك ــ إلى قوله ــ ماعلى المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ــ فى المنافقين . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (ماعلى المحسنين من سبيل) قال ماعلى هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ، ولم يطيقوا الجهاد ، فعذرهم الله ؛ وجعل لهم من الأجر ماجعل للمجاهدين : ألم تسمع أن الله يقول ــ لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ــ فجعل الله للذين عذر من الضعفاء ، وأولى الضرر ، والذين لايجدون ماينفقون من الأجر مثل ماجعل للمجاهدين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ماعلى المحسنين من سبيل) قال (والله) لأهل الاساءة (غفور رحيم) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ولا على الذين اذا ماأتوك) الآية . قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزنى ، فقالوا يارسول الله احملنا ، فقال والله ماأجد ماأحملكم عليه ، فتولوا ولهم بكاء وعزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا ، فأنزل الله عذرهم (ولا على الذين إذا ماأتوك) الآية . وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : انى لأحد الرهط الذين ذكر الله (ولا على الذين اذا ماأتوك لتحملهم) الآية . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : هم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير ، ومن بنى واقف حرمى بن عمرو ، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أباليلى ، ومن بنى المعلى سلمان بن صخر ، ومن بنى حارثة عبدالرحمن بن زيد أبو عبلة ؛ ومن بنى سلمة عمرو ابن غنمة وعبد الله بن عمرو المزنى . وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة . واختلفوا فى البعض ولا يأتى التطويل فى ذلك بكثير فائدة . وأخرج ابن اسحق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم أن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤن ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، ثم ذكروا أسماءهم ، وفيه فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانوا أهل حاجة . قال (لاأجدماأحملكم عليه) . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن قال : كان معقل بن يسار من البكائين الذين . قال الله (ولاعلى الذين اذاماأتوك لتحملهم) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك فى قوله (لاأجدما أحملكم عليه) قال : الماء والزاد . وأخرج ابن المنذر عن علىّ بن صالح قال : حدثنى مشيخة من جهينة ، قالوا أدركنا الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحملان ، فقالوا ماسألناه الا الحملان على النعال . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابراهيم بن أدهم عمن حدثه فى قوله (ولا على الذين اذاماأتوك لتحملهم) قال : ماسألوه الدوابّ ماسألوه الا النعال . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن صالح فى الآية : قال استحملوه النعال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (إنما السبيل على الذين يستأذنونك) قال : هى وما بعدها الى قوله (ان الله لايرضى عن القوم الفاسقين) فى المنافقين .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ

IX 97-100



فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ * ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

قوله (يعتذرون اليكم) اخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل بأنهم يعتذرون الى المؤمنين اذا رجعوا من الغزو ، وهذا كلام مستأنف ، وانما قال (اليهم) أى الى المعتذرين بالباطل ولم يقل الى المدينة ، لأن مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لاالرجوع الى المدينة ، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول اليها ، ثم أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بما يجيب به عليهم ، فقال (قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم) فنهاهم أوّلا عن الاعتذار بالباطل ، ثم علله بقوله (لن نؤمن لكم) أى لن نصدّقكم كأنهم ادّعوا أنهم صادقون فى اعتذارهم ، لأن غرض المعتذر أن يصدّق فيما يعتذر به ، فاذا عرف أنه لايصدّق ترك الاعتذار ، وجملة (قد نبأنا الله من أخباركم) تعليلية للتى قبلها : أى لايقع منا تصديق لكم لأن الله قد أعلمنا بالوحى ماهو مناف لصدق اعتذاركم ، وانما خصّ الرسول ﷺ بالجواب عليهم ، فقال (قل لاتعتذروا) مع أن الاعتذار منهم كان الى جميع المؤمنين ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم رأسهم والمتولى لما يرد عليهم من جهة الغير ، ويحتمل أن يكون المراد بالضمير فى قوله (اليكم) هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على التأويل المشهور فى مثل هذا * قوله (وسيرى الله عملكم) أى ماستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشرّ أم تبقون عليه ؟ * وقوله (ورسوله) معطوف على الاسم الشريف ، ووسط مفعول الرؤية إيذانا ، بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أوشرهى التى يدور عليها الاثابة أو العقوبة ، وفى جملة (ثم تردّون الى عالم الغيب) الى آخرها تخويف شديد ، لما هى مشتملة عليه من التهديد ، ولاسيما مااشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمر ، لاشعار ذلك باحاطته بكل شىء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به ، واخباره لهم به ومجازاتهم عليه ، ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ماجاءوا به من الاعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين اليهم من الغزو ، وغرضهم من هذا التأكيد هو أن يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف ويظهرون الرضا عنهم كما يفيده ذكر الرضا من بعد ، وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدلّ عليه ، وهو اعتذارهم الباطل ، وأمر المؤمنين بالاعراض عنهم المراد به تركهم ، والمهاجرة لهم ، لاالرضا عنهم والصفح عن ذنبهم ، كما تفيده جملة (انهم رجس) الواقعة علة للأمر بالاعراض * والمعنى : أنهم فى أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة فكأنها قد صيرت ذواتهم رجسا ، أو أنهم ذوو رجس : أى ذوو أعمال قبيحة ، ومثله ـ إنما المشركون نجس ـ وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الارشاد الى الخير ، والتحذير من الشر فليس لهم الا الترك * وقوله (ومأواهم جهنم) من تمام التعليل فان من كان من أهل النار لايجدى فيه الدعاء الى الخير ، والمأوى كل مكان يأوى اليه الشىء ليلا أو نهارا . وقد أوى فلان الى منزله يأوى أويا وإيواء ، و(جزاء) منصوب على المصدرية ، أو على العلية ، والباء فى (بما كانوا يكسبون) للسببية ، وجملة (يحلفون لكم) بدل مما تقدم ، وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوما مما سبق ، والمحلوف عليه ، لمثل ماتقدم

و بين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم ، ثم ذكر مايفيد أنه لايجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل ، فقال ( فان ترضوا عنهم ) كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ( فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين ) واذا كان هذا هو مايريده الله سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة ، فينبغي لكم أيها المؤمنون أن لاتفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم أن لاترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتدّ به ولا مفيد لهم ، والمقصود من اخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم هو نهي المؤمنين عن ذلك لأن الرضا على من لا يرضى الله عليه مما لا يفعله مؤمن * قوله ( الأعراب أشدّ كفرا ونفاقا ) لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجا عنها من الأعراب ، و بين أن كفرهم ونفاقهم أشدّ من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم ، لأنهم أقسى قلبا ، وأغلظ طبعا ، وأجفى قولا ، وأبعد عن سماع كتب الله وما جاءت به رسله ، والأعراب : هم من سكن البوادي بخلاف العرب ، فانه عام لهذا النوع من بني آدم سواء سكنوا البوادي ، أو القرى : هكذا . قال أهل اللغة ، ولهذا قال سيبويه : ان الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب . قال النيسابوري : قال أهل اللغة رجل عربي اذا كان نسبه الى العرب ثابتا ، وجمعه عرب كالمجوسي والمجوس ، واليهودي واليهود ، فالأعرابي اذا قيل له ياعربي فرح ، واذا قيل للعربي ياأعرابي غضب ، وذلك أن من استوطن القرى العربية ، فهو عربي ، ومن نزل البادية فهو أعرابي ، ولهذا لايجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، وانما هم عرب . قال قيل انما سمي العرب عربا ، لأن أولاد اسماعيل عليه السلام نشئوا بالعرب ، وهي من تهامة فنسبوا الى بلدهم وكل من يسكن جزيرة العرب و ينطق بلسانهم فهو منهم ، وقيل لأن ألسنهم معربة عما في ضمائرهم ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة انتهى ، ( وأجدر ) معطوف على أشدّ ، ومعناه أخلق ، يقال فلان جدير بكذا : أي خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدر أو جديرون ، وأصله من جدر الحائط ، وهو رفعه بالبناء * والمعنى أنهم أحق وأخلق بـ( أن لايعلموا حدود ماأنزل الله ) من الشرائع ، والأحكام لبعدهم عن مواطن الأنبياء وديار التنزيل ( والله عليم ) بأحوال مخلوقاته على العموم ، وهؤلاء منهم ( حكيم ) فيما يجازيهم به من خير وشرّ * قوله ( ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما ) هذا تنويع لجنس الى نوعين ، الأوّل هؤلاء ، والثاني ( ومن الأعراب من يؤمن بالله ) والمغرم الغرامة والخسران ، وهو ثاني مفعولي يتخذ ، لأنه بمعنى الجعل * والمعنى : اعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران ، وأصل الغرم والغرامة ماينفقه الرجل وليس بلازم له في اعتقاده ولكنه ينفقه للرياء والتقية ، وقيل أصل الغرم اللزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لاتنبعث له النفس * ، و( الدوائر ) جمع دائرة ، وهي الحالة المنقلبة عن النعمة الى البلية ، وأصلها مايحيط بالشيء ، ودوائر الزمان نوبه وتصاريفه ودوله ، وكأنها لاتستعمل الا في المكروه ، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله ( عليهم دائرة السوء ) وجعل مادعا به عليهم مماثلا لما أرادوه بالمسلمين ، والسوء بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت اليه الدائرة للملابسة كقولك رجل صدق . وقرأ أبو عمرو وابن كثير بضم السين ، وهو المكروه . قال الأخفش : أي عليهم دائرة الهزيمة والشر . وقال الفراء ( عليهم دائرة السوء ) العذاب والبلاء . قال والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءا ومساءة ، وبالضم اسم لامصدر ، وهو كقولك دائرة البلاء والمكروه ( والله سميع ) لمايقولونه ( عليم ) عما يضمرونه * قوله ( ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ) هذا النوع الثاني من أنواع الأعراب كما تقدم : أي يصدّق بهما ( و يتخذ ماينفق ) أي يجعل ماينفقه في سبيل الله ( قربات ) وهي جمع قربة ، وهي مايتقرّب به الى الله سبحانه ، تقول منه قربت لله قربانا ، والجمع قرب وقربات * والمعنى أنه يجعل ماينفقه سببا لحصول القربات ( عند الله و ) سببا ( لصلوات الرسول ) أي لدعوات الرسول لهم لأنه

ﷺ كان يدعو للمتصدقين ، ومنه قوله (وصلّ عليهم إن صلواتك سكن لهم) ، ومنه قوله ﷺ «اللهمّ صلّ على آل أبي أوفى ، ثم انه سبحانه بين بأن ماينفقه هذا النوع من الأعراب تقرّبا الى الله مقبول واقع على الوجه الذي أرادوه » ، فقال (ألا إنها قربة لهم) فأخبر سبحانه بقبولها خبرا مؤكدا باسمية الجملة وحرفي التنبيه والتحقيق ، وفي هذا من التطييب لخواطرهم والتطمين لقلوبهم مالايقادر قدره مع مايتضمنه من النعى على من يتخذ ما ينفق مغرما ، والتوبيخ له بأبلغ وجه ، والضمير في انها راجع الى ما في ماينفق وتأنيثه باعتبار الخبر . وقرأنافع في رواية عنه قربة بضم الراء ، وقرأ الباقون بسكونها تخفيفا ، ثم فسر سبحانه القربة بقوله (سيدخلهم الله في رحمته) والسين لتحقيق الوعد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدّى في قوله (قد نبأنا الله من أخباركم) قال : أخبرنا أنكم لو خرجتم مازدتمونا الا خبالا ، وفي قوله (فأعرضوا عنهم) قال : لما رجع النبي ﷺ قال للمؤمنين لاتكلموهم ولاتجالسوهم فأعرضوا عنهم كما أمر الله . وأخرج أبوالشيخ عن الضحاك في قوله (لتعرضوا عنهم) قال لتجاوزوا عنهم . وأخرج أبوالشيخ عنه في قوله (الأعراب أشدّ كفرا ونفاقا) قال : من منافقي المدينة (وأجدر أن لايعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله) يعني الفرائض ، وماأمر به من الجهاد . وأخرج أبوالشيخ عن الكلبي أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن ، واسناد أحمد هكذا : حدّثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدّثنا سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره . قال في التقريب : وأبوموسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة ، ووهم من قال انه اسرائيل بن موسى ، وقال الترمذى بعد اخراجه حسن غريب لانعرفه الا من حديث الثورى . وأخرج أبو داود والبيهقي من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قربا الا ازداد من الله بعدا» . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله (ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرما) قال : يعني بالمغرم أنه لايرجو له ثوابا عندالله ولا مجازاة ، وانما يعطى من يعطى من الصدقات كرها (ويتربص بكم الدوائر) الهلكات . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال . هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين انما ينفقون رياء اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مغرما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد في قوله (ومن الأعراب من يؤمن بالله) قال : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم الذين قال الله ــ ولاعلى الذين اذاماأتوك لتحملهم ــ الآية . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معقل قال : كنا عشرة ولد مقرن ، فنزلت فينا (ومن الأعراب من يؤمن بالله) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وصلوات الرسول) يعني : استغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا

عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار، وبين أن منهم السابقين الى الهجرة وأن منهم التابعين لهم ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قرأ (والأنصار) بالرفع عطفا على (والسابقون) . وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر . قال الأخفش : الخفض فى الأنصار الوجه ، لأن السابقين منهم يدخلون فى قوله (والسابقون) وفى الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا القبلتين فى قول سعيد بن المسيب وطائفة ، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان . وهى بيعة الحديبية فى قول الشعبي ، أو أهل بدر فى قوله محمد بن كعب وعطاء بن يسار ، ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها . قال أبو منصور البغدادى أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقون ، ثم البدريون ، ثم أصحاب أحد ، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية * قوله (والذين اتبعوهم باحسان) . قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه (الذين اتبعوهم) محذوف الواو ، وصفا للأنصار على قراءته برفع الانصار فراجعه فى ذلك زيد بن ثابت فسأل أبيّ بن كعب فصدّق زيدا فرجع عمر عن القراءة المذكورة كما رواه أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، ومعنى الذين اتبعوهم باحسان الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم الى يوم القيامة ، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحا ، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية ، فتكون من فى قوله (من المهاجرين) على هذا للتبعيض ، وقيل انها للبيان ، فيتناول المدح جميع الصحابة ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة الى يوم القيامة * وقوله (باحسان) قيد للتابعين : أى والذين اتبعوهم متلبسين باحسان فى الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين * قوله (رضى الله عنهم) خبر للمبتدا ، وما عطف عليه ، ومعنى رضاه سبحانه عنهم أنه قبل طاعاتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم (ورضوا عنه) بما أعطاهم من فضله ، ومع رضاه عنهم فقد (أعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار) فى الدار الآخرة . وقرأ ابن كثير (تجرى من تحتها الأنهار) بزيادة من . وقرأ الباقون بحذفها والنصب على الظرفية ، وقد تقدّم تفسير جرى الأنهار من تحت الجنات وتفسير الخلود والفوز * قوله (وممن حولكم من الأعراب منافقون) هذا عود الى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة ومن يقرب منها من الأعراب ، وممن حولكم خبر مقدّم ، ومن الأعراب بيان ، وهو فى محل نصب على الحال ، ومنافقون هو المبتدأ ، قيل وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة ، ومزينة وأشجع وغفار ، وجملة (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) معطوفة على الجملة الأولى عطف جملة على جملة وقيل ان من أهل المدينة عطف على الخبر فى الجملة الأولى ، فعلى الأول يكون المبتدأ مقدرا : أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، وعلى الثانى يكون التقدير ، وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا ، ولكون جملة مردوا على النفاق مستأنفة لا محل لها ، وأصل مرد وتمرّد اللين والملاسة

والتجرّد ، فكأنهم تجرّدوا للنفاق ، ومنه غصن أمرد لاورق عليه ، وفرس أمرد لاشعر فيه ، وغلام أمرد لاشعر بوجهه : وأرض مرداء لانبات فيها ، وصرح ممرّد مجرّد ، فالمعنى أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه . قال ابن زيد : معناه لجوا فيه وأتوا غيره ، وجملة (لاتعلمهم) مبينة للجملة الأولى ، وهى مردوا على النفاق : أى ثبتوا عليه ثبوتا شديدا ومهروا فيه حتى خفى أمرهم على رسول الله ﷺ فكيف سائر المؤمنين ؟ والمراد عدم علمه ﷺ بأعيانهم لامن حيث الجملة ، فان للنفاق دلائل لاتخفى عليه ﷺ وجملة (نحن نعلمهم) مقرّرة لماقبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم فى النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى وماتجنه الضمائر وتنطوى عليه السرائر ، ثم توعدهم سبحانه فقال (سنعذبهم مرتين) قيل المراد بالمرّتين : عذاب الدنيا بالقتل والسبى ، وعذاب الآخرة ، وقيل الفضيحة بانكشاف نفاقهم ، والعذاب فى الآخرة ، وقيل المصائب فى أموالهم وأولادهم ، وعذاب القبر ، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه ، والظاهر أن هذا العذاب المكرر هو فى الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب ، وأنهم يعذبون مرة بعد مرة ، ثم يردون بعد ذلك الى عذاب الآخرة وهو المراد بقوله (ثم يردون الى عذاب عظيم) ومن قال ان العذاب فى المرة الثانية هو عذاب الآخرة . قال معنى قوله (ثم يردّون الى عذاب عظيم) انهم يردّون بعد عذابهم فى النار كسائر الكفار الى الدرك الأسفل منها ، أوأنهم يعذبون فى النار عذابا خاصا بهم دون سائر الكفار ، ثم يردون بعد ذلك الى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار ، ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون فى دينهم فقال (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) وهو معطوف على قوله منافقون : أى وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون ، ويجوز أن يكون آخرون مبتدأ ، واعترفوا بذنوبهم صفته ، وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا خبره ، والمعنى أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوّغ للتخلف ، ثم ندموا على ذلك ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون ، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم ، والمراد بالعمل الصالح ماتقدم من اسلامهم وقيامهم بشرائع الاسلام وخروجهم الى الجهاد فى سائر المواطن ، والمراد بالعمل السيء : هو تخلفهم عن هذه الغزوة ، وقد أتبعوا هذا العمل السيء عملا صالحا ، وهو الاعتراف به والتوبة عنه ، وأصل الاعتراف الاقرار بالشيء ، ومجرد الاقرار لا يكون توبة الا اذا اقترن به الندم على الماضى والعزم على تركه فى الحال والاستقبال ، وقد وقع منهم مايفيد هذا كما سيأتى بيانه ان شاء الله ، ومعنى الخلط : أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن ، واللبن بالماء ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولك بعت الشاء شاة ودرهما : أى بدرهم ، وفى قوله (عسى الله أن يتوب عليهم) دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف مايفيد التوبة ، أوأن مقدمة التوبة ، وهى الاعتراف قامت مقام التوبة ، وحرف الترجى ، وهو عسى هو فى كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع ، لأن الاطماع من الله سبحانه ايجاب لكونه أكرم الأكرمين (ان الله غفور رحيم) أى يغفر الذنوب ويتفضل على عباده * قوله (خذ من أموالهم صدقة) اختلف أهل العلم فى هذه الصدقة المأمور بها فقيل : هى صدقة الفرض وقيل هى مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها ، لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ، و(من) للتبعيض على التفسيرين ، والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة ، والصدقة مأخوذة من الصدق ، إذ هى دليل على صدق مخرجها فى إيمانه * قوله (تطهرهم وتزكيهم بها) الضمير فى الفعلين للنبى صلى الله عليه وآله وسلم : أى تطهرهم وتزكيهم يامحمد بما تأخذه من الصدقة منهم ، وقيل الضمير فى تطهرهم للصدقة : أى تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم ، والضمير فى تزكيهم للنبى صلى الله عليه وآله وسلم أى تزكيهم يامحمد بالصدقة المأخوذة ، والأوّل أولى لما فى الثانى من الاختلاف فى الضميرين فى الفعلين

المتعاطفين ، وعلى الأوّل فالفعلان منتصبان على الحال ، وعلى الثانى فالفعل الأوّل صفة لصدقة ، والثانى حال منه ﷺ ، ومعنى التطهير : إذهاب مايتعلق بهم من أثر الذنوب ، ومعنى التزكية : المبالغة فى التطهير قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبى ﷺ : أى فانك يامحمد تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستئناف ، ويجوز الجزم على جواب الأمر * والمعنى ان تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم . وقد قرأ الحسن بجزم تطهرهم . وعلى هذه القراءة فيكون (وتزكيهم) على تقدير مبتدأ : أى وأنت تزكيهم بها * قوله (وصلّ عليهم) : أى ادع لهم بعدأخذك لتلك الصدقة من أموالهم . قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه أن الصلاة فى كلام العرب الدعاء ، ثم علل سبحانه أمره لرسوله ﷺ بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة ، فقال (إن صلواتك سكن لهم) . قرأ حفص وحمزة والكسائى (صلاتك) بالتوحيد . وقرأ الباقون بالجمع ، والسكن ماتسكن اليه النفس وتطمئنّ به * قوله (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) لما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقا . قال الله (ألم يعلموا) : أى غيرالتائبين ، أو التائبون قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صدقاتهم (أن الله هو يقبل التوبة) لاستغنائه عن طاعة المطيعين ، وعدم مبالاته بمعصية العاصين . وقرئ (ألم تعلموا) بالفوقية ، وهو اما خطاب للتائبين ، أو لجماعة من المؤمنين ، ومعنى (ويأخذ الصدقات) : أى يتقبلها منهم ، وفى إسناد الأخذ اليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها * وقوله (وأن الله هو التوّاب الرحيم) معطوف على قوله (أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه : أى ان هذا شأنه سبحانه . وفى صيغة المبالغة فى التواب وفى الرحيم مع توسيط ضمير الفصل . والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم مالايخفى * قوله (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) فيه تخويف وتهديد : أى ان عملكم لايخفى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين ، فسارعوا الى أعمال الخير وأخلصوا أعمالكم لله عزّ وجلّ ، وفيه أيضا ترغيب وتنشيط ، فان من علم أن عمله لايخفى سواء كان خيرا أو شرا رغب الى أعمال الخير ، وتجنب أعمال الشر ، وما أحسن قول زهير .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

والمراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر منهم من الأعمال ، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال (وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة) : أى وستردّون بعد الموت الى الله سبحانه الذى يعلم ماتسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وماتبدونه ، وفى تقديم الغيب على الشهادة إشعار بسعة علمه عزّ وجلّ ، وأنه لايخفى عليه شىء ويستوى عنده كل معلوم ، ثم ذكر سبحانه ماسيكون عقب ردّهم اليه فقال (فينبئكم) : أى يخبركم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا ، فيجازى المحسن باحسانه ، والمسىء باساءته ، ويتفضل على من يشاء من عباده * قوله (وآخرون مرجون لأمر الله) ذكر سبحانه ثلاثة أقسام فى المتخلفين : الأوّل المنافقون الذين مردوا على النفاق ، الثانى التائبون المعترفون بذنوبهم ، الثالث الذين بقى أمرهم موقوفا فى تلك الحال ، وهم المرجون لأمر الله ، من أرجيته وأرجأته : اذا أخرته . قرأ حمزة والكسائى ونافع وحفص (مرجون) بالواو من غير همز . وقرأ الباقون بالهمزة المضمومة بعد الجيم * والمعنى أنهم مؤخرون فى تلك الحال لايقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها . بل هم على مايتبين من أمر الله سبحانه فى شأنهم (إما يعذبهم) ان بقوا على ماهم عليه ولم يتوبوا (وإما يتوب عليهم) إن تابوا توبة صحيحة ، وأخلصوا إخلاصا تاما ، والجملة فى محل نصب على الحال ، والتقدير (وآخرون مرجون لأمر الله) حال كونهم ، إما معذبين ، وإما متوبا عليهم (والله عليم) بأحوالهم (حكيم) فيما يفعله بهم من خير أو شرّ .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نعيم في المعرفة عن أبي موسى أنه سئل عن قوله (والسابقون الأولون) فقال : هم الذين صلوا القبلتين جميعا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن سعيد بن المسيب مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو نعيم عن الحسن ومحمد بن سيرين مثله أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : هم أبو بكر وعمر وعليّ وسلمان وعمار بن ياسر . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن الشعبي قال : هم من أدرك بيعة الرضوان . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ( والذين اتبعوهم باحسان ) قال : التابعون . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : هم من بقي من أهل الاسلام الى أن تقوم الساعة . وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن أبي صخر حميد بن زياد قال : قلت لمحمد بن كعب القرظي ، أخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ وانما أريد الفتن قال : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم ، قلت له : وفي أيّ موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه ؟ قال : ألا تقرءون قوله تعالى (والسابقون الأولون) الآية ، أوجب لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطا لم يشرطه فيهم ، قلت وما اشترط عليهم ؟ قال اشترط عليهم أن يتبعوهم باحسان ، يقول يقتدون بهم في أعمالهم الحسنة ، ولا يقتدون بهم في غير ذلك . قال أبو صخر فوالله لكأني لم أقرأها قبل ذلك وما عرفت تفسيرها حتى قرأها عليّ محمد بن كعب . وأخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي قال : حدّثني يحيى بن أبي كثير والقسم ومكحول وعبدة بن أبي لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي ﷺ يقولون لما أنزلت هذه الآية (والسابقون الأولون) إلى قوله (ورضوا عنه) قال رسول الله ﷺ : هذا لأمتي كلهم ، وليس بعد الرضا سخط . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وممن حولكم من الأعراب) الآية ، قال قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيبا . فقال قم يا فلان فاخرج فانك منافق ، اخرج يا فلان فانك منافق ، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له ، فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظنّ الناس قد انصرفوا ، واختبئوا هم من عمر ، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر المسجد فاذا الناس لم ينصرفوا ، فقال له رجل : أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم ، فهو العذاب الأول ، والعذاب الثاني عذاب القبر . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله (وممن حولكم من الأعراب) قال جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (مردوا على النفاق) قال أقاموا عليه ولم يتوبوا كما تاب آخرون . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال : ماتوا عليه : عبد الله بن أبيّ وأبو عامر الراهب والجدّ بن قيس . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (سنعذبهم مرّتين) قال : بالجوع والقتل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك قال : بالجوع وعذاب القبر . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن قتادة قال : عذاب في القبر ، وعذاب في النار ، وقد روى عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين ، والظاهر ماقدّمنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا) قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، وكان ممرّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا رجع عليهم ، فلما رآهم قال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ قالوا هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يارسول الله حتى تطلقهم وتعذرهم قال : وأنا

أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم ، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لانطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا ، فنزلت (عسى الله أن يتوب عليهم) وعسى من الله واجب ، فلما نزلت أرسل اليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعذرهم ، فجاءوا بأموالهم ، فقالوا : يارسول الله هذه أموالنا فتصدّق بها عنا واستغفر لنا قال ، ماأمرت أن آخذ أموالكم ، فأنزل الله عزّ وجلّ (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم) يقول : استغفر لهم (ان صلواتك سكن لهم) يقول : رحمة لهم ، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم ، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ ـ لقد تاب الله على النبي ـ الى قوله ـ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ـ الى قوله ـ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التوّاب الرحيم ـ يعنى : ان استقاموا وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله سواء . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن مجاهد فى قوله (اعترفوا بذنوبهم) قال : هو أبولبابة إذ قال لقريظة ماقال ، وأشار الى حلقه بأن محمدا يذبحكم ان نزلتم على حكمه ، والقصة مذكورة فى كتب السير . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (خلطوا عملا صالحا) قال : غزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وآخر سيئا) قال : تخلفهم عنه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (وصلّ عليهم) قال استغفر لهم من ذنوبهم التى كانوا أصابوها (إن صلواتك سكن لهم) قال رحمة لهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبى أوفى : قال كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال « اللهمّ صلّ على آل فلان ، فأتاه أبى بصدقته فقال اللهمّ صلّ على آل أبى أوفى » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) قال هذا وعيد من الله عزّ وجلّ . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم والبيهقى فى الشعب وابن أبى الدنيا والضياء فى المختارة عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله (وآخرون مرجون لأمر الله) قال هم الثلاثة الذين خلفوا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هم هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله (إما يعذبهم) يقول يميتهم على معصية (وإما يتوب عليهم) فأرجأ أمرهم ثم نسخها فقال ـ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ـ .

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

لما ذكر الله أصناف المنافقين و بين طرائقهم المختلفة عطف على ماسبق هذه الطائفة منهم ، وهم الذين

اتخذوا مسجدا ضرارا ، فيكون التقدير ، ومنهم الذين اتخذوا على أن الذين مبتدأ ، وخبره منهم المحذوف ، والجملة معطوفة على ماتقدمها و يجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على الذم . وقرأ المدنيون وابن عامر ( الذين اتخذوا ) بغير واو ، فتكون قصة مستقلة ، الموصول مبتدأ ، وخبره ( لاتقم ) قاله الكسائى . وقال النحاس ان الخبر هو ( لايزال بنيانهم الذى بنوا ) ، وقيل الخبر محذوف ، والتقدير يعذبون ، وسيأتى بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار ، و ( ضرارا ) منصوب على المصدرية ، أوعلى العلية ( وكفرا وتفريقا وإرصادا ) معطوفة على ( ضرارا ) . فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة : الأوّل الضرار لغيرهم ، وهو المضاررة ، الثانى الكفر بالله ، والمباهاة لأهل الاسلام ، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق ، الثالث التفريق بين المؤمنين ، لانهم أرادوا أن لايحضروا مسجد قباء ، فتقلّ جماعة المسلمين ، وفى ذلك من اختلاف الكلمة و بطلان الألفة مالا يخفى ، الرابع الارصاد لمن حارب الله ورسوله : أى الاعداد لأجل من حارب الله ورسوله . قال الزجاج الارصاد : الانتظار . وقال ابن قتيبة الارصاد : الانتظار مع العداوة . وقال الأكثرون هو الاعداد ، والمعنى متقارب ، يقال أرصدت لكذا : إذا أعددته مرتقبا له به . وقال أبو زيد : يقال رصدته وأرصدته فى الخير ، وأرصدت له فى الشرّ . وقال ابن الأعرابى : لايقال إلا أرصدت ، ومعناه : ارتقبت ، والمراد بمن حارب الله ورسوله : المنافقون ، ومنهم أبوعامر الراهب : أى أعدوه لهؤلاء ، وارتقبوا به وصولهم وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين ، وقوله ( من قبل ) متعلق باتخذوا : أى اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء و يبنوا مسجد الضرار ، أو متعلق بحارب : أى لمن وقع منه الحرب لله ولرسوله من قبل بناء مسجد الضرار * قوله ( وليحلفنّ ان أردنا إلا الحسنى ) أى ماأردنا الا الخصلة الحسنى ، وهى الرفق بالمسلمين ، فردّ الله عليهم بقوله ( والله يشهد انهم لكاذبون ) فيما حلفوا عليه ، ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الصلاة فى مسجد الضرار ، فقال ( لاتقم فيه أبدا ) أى فى وقت من الأوقات ، والنهى عن القيام فيه يستلزم النهى عن الصلاة فيه . وقد يعبر عن الصلاة بالقيام ، يقال فلان يقوم الليل : أى يصلى ، ومنه الحديث الصحيح « من قام رمضان إيمانا به واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » ، ثم ذكر الله سبحانه علة النهى عن القيام فيه بقوله ( لمسجد أسس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه ) واللام فى ( لمسجد ) لام القسم ، وقيل لام الابتداء ، وفى ذلك تأكيد لمضمون الجملة ، وتأسيس البناء : تثبيته ورفعه * ومعنى تأسيسه على التقوى : تأسيسه على الخصال التى تتق بها العقوبة .

واختلف العلماء فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقالت طائفة : هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبى وغيرهم . وذهب آخرون الى أنه مسجد النبى ﷺ * والأوّل أرجح لما سيأتى قريبا ان شاء الله ، و ( من أوّل يوم ) متعلق بأسس : أى أسس على التقوى من أوّل يوم من أيام تأسيسه . قال بعض النحاة ان ( من ) هنا بمعنى منذ : أى منذ أوّل يوم ابتدئ بنائه ، وقوله ( أحق أن تقوم فيه ) خبر المبتدأ * والمعنى : لو كان القيام فى غيره جائزا لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكرالله ، لكونه أسس على التقوى من أوّل يوم ، ولكون ( فيه رجال يحبون أن يتطهروا ) وهذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه ﷺ فيه : أى كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل فهو أولى من جهة الحالّ فيه ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال : أى حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد * ومعنى محبتهم للتطهر : أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه ، وقيل معناه : يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار * والأوّل أولى ،

وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المطهرة من الذنوب فحموا جميعا ، وهـذا ضعيف جدّا * ومعنى محبة الله لهم الرضا عنهم ، والاحسان اليهم كما يفعل المحبّ بمحبوبه ، ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بونا بعيدا ، فقال (أفمن أسس بنيانه) والهمزة للانكار التقريرى ، والبنيان مصـدر كالعمران ، وأريد به المبنىّ ، والجملة مستأنفة * والمعنى : أن من أسس بناء دينه على قاعـدة قوية محكمة ، وهى تقوى الله ورضوانه خير ممن أسس دينه على ضدّ ذلك ، وهو الباطل والنفاق ، والموصول مبتدأ ، وخبره خير ، وقرئ أسس بنيانه على بناء الفعل للفاعل ، ونصب بنيانه ، واختارهذه القراءة أبوعبيدة ، وقرئ على البناء للمجهول ، وقرئ أساس بنيانه باضافة أساس الى بنيانه ، وقرئ أسّ بنيانه ، والمراد : أصول البناء ، وحكى أبوحاتم قراءة أخرى ، وهى آساس بنيانه على الجمع ، ومنه :

أصبح الملك ثابت الآساس * بالبهاليل من بنى العباس

والشفا : الشفير ، والجرف : مايتجرف بالسيول ، وهى الجوانب التى تنجرف بالماء ، والاجتراف : اقتلاع الشىء من أصله ، وقرئ بضم الراء من جرف و باسكانها ، والهار : الساقط ، يقال هار البناء : اذا سقط ، وأصله هائر كماقالوا : شاك السلاح وشائك كذاقال الزجاج . وقال أبو حاتم ان أصـله هاور . قال فى شمس العلوم الجرف : ماجرف السيل أصله ، وأشرف أعلاه ، فان انصدع أعلاه فهو الهار اه ، جعل الله سبحانه هذا مثلا لما بنوا عليـه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ، ثم قال (فانهار به فى نار جهنم) وفاعل فانهارضمير يعود إلى الجرف : أى فانهار الجرف بالبنيان فى النار ، ويجوز أن يكون الضمير فى (به) يعود الى من ، وهو البانى * والمعنى : أنه طاح الباطل بالبناء ، أو البانى فى نار جهنم ، وجاء بالانهيارالذى هوللجرف ترشيحا للمجاز ، وسبحان الله ماأبلغ هـذا الكلام ، وأقوى تراكيبه ، وأوقع معناه ، وأفصح مبناه ، ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هـذا موجب لمزيد ريبهم ، واستمرار تردّدهم وشكهم ، فقال (لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) أى شكا فى قلوبهم ونفاقا ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وقيل معنى الريبة : الحسرة والندامة ، لأنهم ندمواعلى بنيانه . وقال المبرد : أى حزازة وغيظا . وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين فى دينهم ، ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله ﷺ له نفاقا وتصميما على الكفر ، ومقتا للاسلام لما أصابهم من الغيظ الشديد والغضب العظيم بهدمه ، ثم ذكر سبحانه مايدلّ على استمرار هـذه الريبة ودوامها ، وهو قوله (الا أن تقطع قلوبهم) أى لايزال هـذا الا أن تتقطع قلوبهم قطعا ، وتتفرّق أجزاء : إما بالموت أو بالسيف ، والمقصود أن هـذه الريبة دائمة لهم ماداموا أحياء ، ويجوز أن يكون ذكرالتقطع تصويرا لحال زوال الريبة ، وقيل معناه الا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم . وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص و يعقوب وأبوجعفر بفتح حرف المضارعة . وقرأ الجمهور بضمها . وروى عن يعقوب أنه قرأ تقطع بالتخفيف ، والخطاب للنبى ﷺ : أى الا أن تقطع يامحمد قلوبهم . وقرأ أصحاب عبـد الله بن مسعود ولو تقطعت قلوبهم . وقرأ الحسن و يعقوب وأبو حاتم الى أن تقطع على الغاية : أى لايزالون كذلك الى أن يموتوا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنـذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (والذين اتخـذوا مسجدا ضرارا) قال هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر الراهب : ابنوامسجدكم ، واستمدوا بمـااستطعتم من قوة وسـلاح فانى ذاهب الى قيصر ملك الروم ، فآتى بجند من الروم ، فأخرج محمدا وأصحابه ، فلمـا فرغوا من مسجدهم أتوا النبى صلى الله عليـه وآله وسلم فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فيجب أن تصلى فيـه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله (لاتقم فيه أبدا) .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه قال : لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بجدح جد عبد الله بن حنيف ووديعة بن حزام ومجمع بن جارية الأنصاري ، فبنوا مسجد النفاق ، فقال رسول الله ﷺ لبجدح : ويلك يابجدح ماأردت الى ماأرى ، فقال يارسول الله والله ماأردت الا الحسنى وهو كاذب ، فصدّقه رسول الله ﷺ وأراد أن يعذره ، فأنزل الله تعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله) يعني رجلا يقال له أبو عامر كان محاربا لرسول الله ﷺ وكان قد انطلق الى هرقل ، وكانوا يرصدون اذا قدم أبو عامر أن يصلي فيه ، وكان قد خرج من المدينة محاربا لله ولرسوله . وأخرج ابن اسحاق وابن مردويه عنه أيضا قال : دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، فقال مالك لعاصم : أنظرني حتى أخرج اليك بنار من أهلي فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه ، وخرج أهله فتفرقوا عنه ، فأنزل الله هذه الآية ، ولعل في هذه الرواية حذفا بين قوله ﷺ دعا رسول الله مالك بن الدخشم ، و بين قوله فقال مالك لعاصم ، و يبين ذلك ما أخرج ابن اسحاق وابن مردويه عن أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري ، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة قال : أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان ، بلد بينه و بين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز الى تبوك ، فقالوا يارسول الله انا بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة ، وانا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه . قال : اني على جناح سفر ولو قدمنا ان شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه ، فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن ابن عدي ، وأخاه عاصم بن عدي أحد بني العجلان ، فقال : انطلقا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج اليك ، فدخل الى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان ، وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) الى آخر القصة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ان الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثنى عشر رجلا ، وذكرا أسماءهم . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال : اختلف رجلان : رجل من بني خدرة ، وفي لفظ تماريت أنا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال الخدري : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال العمري : هو مسجد قباء فأتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألاه عن ذلك فقال : هو هذا المسجد لمسجد رسول الله ﷺ وقال في ذلك خير كثير يعني مسجد قباء . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والزبير بن بكار في أخبار المدينة وأبو يعلى وابن حبان والطبراني والحاكم في الكنى ، وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب والضياء في المختارة عن أبيّ بن كعب قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى قال «هو مسجدي هذا» . وأخرج الطبراني والضياء المقدسي في المختارة عن زيد بن ثابت مرفوعا مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه والطبراني من طريق عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت قال : المسجد الذي أسس على التقوى من أوّل يوم مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قال عروة : مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم خير منه ، انما أنزلت في مسجد قباء . وأخرج بن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : المسجد الذي

أسس على التقوى : مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج المذكوران عن أبي سعيد الخدري مثله ، وقد روى عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس انه مسجد قباء . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله * ولايخفاك أن النبي ﷺ قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى ، وجزم بأنه مسجده صلى الله عليه وآله وسلم كما قدمنا من من الأحاديث الصحيحة ، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولاجماعة منهم ولاغيرهم ولا يصلح لايراده في مقابلة ماقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولافائدة في ايراد ماورد في فضل الصلاة في مسجد قباء ، فان ذلك لايستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى ، على أن ماورد في فضائل مسجده ﷺ أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء بلاشك ولا شبهة نعم . وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) قال وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ، وفي اسناده يونس ابن الحرث ، وهو ضعيف . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى عويم بن ساعدة فقال : ماهذا الطهور الذي أثنى الله عليكم ؟ فقالوا : يارسول الله ماخرج منا رجل ولاامرأة من الغائط الاغسل فرجه ، أوقال مقعدته فقال النبي : صلى الله عليه وسلم هوهذا ، وأخرج أحمد وابن خزيمة والطبراني والحاكم وابن مردويه عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تتطهرون به؟ قالوا : والله يارسول الله مانعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، رواه أحمد عن حسن بن محمد حدثنا أبوأويس حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة فذكره . وقد أخرجه ابن خزيمة في صحيحه . وأخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الجارود في المنتقى والدارقطني والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عن طلحة بن نافع قال : حدثني أبوأيوب وجابر ابن عبد الله وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) قال : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يامعشر الأنصار ان الله قد أثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهوركم هذا ؟ قالوا : نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، قال : فهل مع ذلك غيره ؟ قالوا : لاغيرأن أحدنا اذا خرج الى الغائط أحب أن يستنجي بالماء قال : هو ذاك فعليكموه . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في تاريخه وابن جرير والبغوي في معجمه والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن محمد بن عبدالله بن سلام عن أبيه قال : لما أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد الذي أسس على التقوى مسجد قباء فقال : ان الله قد أثنى عليكم في الطهور خيرا أفلا تخبروني ؟ يعني قوله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) فقالوا يارسول الله إنا لنجده مكتوبا علينا في التوراة الاستنجاء بالماء ، ونحن نفعله اليوم ، واسناد أحمد في هذا الحديث هكذا : حدثنا يحي بن آدم حدثني مالك يعني ابن مغول سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبدالله بن سلام . وقد روى عن جماعة من التابعين في ذكر سبب نزول الآية نحو هذا * ولايخفاك أن بعض هذه الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله ، و بعضها ضعيف ، و بعضها لاتصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء ، وعلى كل حال لاتقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صحتها وصراحتها . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فانهار به في نار جهنم) قال :

IX 112-113



يعنى قواعده فى نار جهنم . وأخرج مسدّد فى مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله ﷺ . وأخرج ابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) قال : يعنى الشك (إلا أن تقطع قلوبهم) يعنى الموت . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن حبيب بن أبى ثابت فى قوله (ريبة فى قلوبهم) قال : غيظا فى قلوبهم (إلا أن تقطع قلوبهم) قال : إلى أن يموتوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله (إلا أن تقطع قلوبهم) قال : إلا أن يتوبوا .

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ *

لما شرح فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، وذكر أقسامهم ، وفرّع على كل قسم منها ماهو لائق به عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه ، وذكر الشراء تمثيل كما فى قوله — أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى — مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله بالشراء ، وأصل الشراء بين العباد هو إخراج الشىء عن الملك بشىء آخر مثله أو دونه أو أنفع منه ، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التى أعدّها للمؤمنين : أى بأن يكونوا من جملة أهل الجنة ، وممن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم ، وهى أنفس الاعلاق ، والجود بها غاية الجود .

يجود بالنفس ان ضنّ الجبان بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وجاد الله عليهم بالجنة ، وهى أعظم مايطلبه العباد ، ويتوسلون اليه بالأعمال ، والمراد بالأنفس هنا أنفس المجاهدين ، وبالأموال ماينفقونه فى الجهاد * قوله (يقاتلون فى سبيل الله) بيان للبيع الذى يقتضيه الاشتراء المذكور ، كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة ؟ فقيل يقاتلون فى سبيل ، ثم بين هذه المقاتلة فى سبيل الله بقوله (فيقتلون ويقتلون) والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار فى الحرب ويبذلون أنفسهم فى ذلك ، فان فعلوا فقد استحقوا الجنة ، وان لم يقع القتل عليهم بعد الابلاء فى الجهاد ، والتعرّض للموت بالاقدام على الكفار . قرأ الأعمش والنخعى وحمزة والكسائى وخلف بتقديم المبنىّ للمفعول على المبنىّ للفاعل . وقرأ الباقون بتقديم المبنى للفاعل على المبنى للمفعول * وقوله (وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن) إخبار من الله سبحانه أن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها . قد ثبت الوعد بها من الله فى التوراة والانجيل كما وقع فى القرآن ، وانتصاب وعدا ، وحقا على المصدرية ، أوالثانى نعت للأوّل ، وفى التوراة متعلق بمحذوف : أى وعدا ثابتا فيها * قوله (ومن أوفى بعهده من الله) فى هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين فى الجهاد ، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال مالا يخفى فانه أوّلا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وجاء بهذه العبارة الفخيمة ، وهى كون

الجنة

الجنة قد صارت ملكا لهم ، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك فى كتبه المنزلة ، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لابدّ من حصول الموعود به فانه لاأحد أوفى بعهده من الله سبحانه ، وهوصادق الوعد لايخلف الميعاد ، ثم زادهم سرورا وحبورا ، فقال (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) أى أظهروا السرور بذلك ، والبشارة هى إظهار السرور ، وظهوره يكون فى بشرة الوجه ، ولذا يقال أسارير الوجه : أى التى يظهرفيها السرور . وقد تقدّم ايضاح هذا ، والفاء لترتيب الاستبشار على ماقبله * والمعنى أظهروا السرور بهذا البيع الذى بايعتم به الله عزّ وجلّ فقد ربحتم فيه ربحا لم يربحه أحد من الناس الا من فعل مثل فعلكم ، والاشارة بقوله (ذلك) إلى الجنة ، أوالى نفس البيع الذى ربحوا فيه الجنة ، ووصف الفوز ، وهو الظفر بالمطلوب بالعظم يدل على أنه فوز لافوز مثله * قوله (التائبون) خبر مبتدأ محذوف : أى هم التائبون ، يعنى المؤمنين ، والتائب الراجع : أى هم الراجعون الى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة . وقال الزجاج : الذى عندى أن قوله (التائبون العابدون) رفع بالابتداء وخبره مضمر : أى التائبون ومن بعدهم الى آخر الآية لهم الجنة أيضا وان لم يجاهدوا . قال وهذا أحسن اذ لو كانت هذه أوصافا للمؤمنين المذكورين فى قوله (اشترى من المؤمنين) لكان الوعد خاصا بمجاهدين . وقد ذهب الى ماذهب اليه الزجاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين ، وذهب آخرون الى أن هذه الأوصاف راجعة الى المؤمنين فى الآية الأولى ، وأنها على جهة الشرط : أى لايستحق الجنة بتلك المبايعة الامن كان من المؤمنين على هذه الأصاف ، وفى مصحف عبدالله بن مسعود : التائبين العابدين الى آخرها ، وفيه وجهان : أحدهما أنها أوصاف للمؤمنين ، الثانى أن النصب على المدح ، وقيل ان ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير يقاتلون ، وجوّز صاحب الكشاف أن يكون التائبون مبتدأ ، وخبره العابدون ، وما بعده أخبار كذلك : أى التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال ، وفيه من البعد مالا يخفى ، والعابدون القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الاخلاص ، و (الحامدون) الذين يحمدون الله سبحانه على السراء والضراء ، و (السائحون) قيل : هم الصائمون ، واليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قوله تعالى ــ عابدات سائحات ــ ، وانما قيل للصائم سائح ، لأنه يترك اللذات كما يتركها السائح فى الأرض ، ومنه قول أبى طالب بن عبد المطلب :

وبالسائحين لايذوقون فطرة * لربهم والراكدات العوامل

وقال آخر : تراه يصلى ليله ونهاره * يظل كثير الذكر لله سائحا

قال الزجاج ومذهب الحسن : أن السائحين هاهنا هم الذين يصومون الفرض ، وقيل انهم الذين يديمون الصيام . وقال عطاء السائحون المجاهدون . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم السائحون المهاجرون . وقال عكرمة : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم ، وقيل هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر ، والسياحة فى اللغة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء ، وهى مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر فى مخلوقات الله سبحانه ، و (الراكعون الساجدون) معناه المصلون ، و (الآمرون بالمعروف) القائمون بأمر الناس بما هو معروف فى الشريعة (والناهون عن المنكر) القائمون بالانكار على من فعل منكرا : أى شيئا ينكره الشرع (والحافظون لحدود الله) القائمون بحفظ شرائعه التى أنزلها فى كتبه وعلى لسان رسله ، وانما أدخل الواو فى الوصفين الآخرين ، وهما (والناهون عن المنكر والحافظون) الخ ، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة ، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه ، وقيل ان العطف فى الصفات يجىء بالواو و بغيرها كقوله ــ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ــ ، وقيل ان الواو زائدة ، وقيل هى واو الثمانية المعروفة

عند النحاة ، كما فى قوله تعالى ـ ثيبات وأبكارا ـ * وقوله ـ وفتحت أبوابها ـ * وقوله ـ سبعة وثامنهم كلبهم ـ ، وقد أنكروا الثمانية أبو على الفارسى وناظره فى ذلك ابن خالويه (و بشر المؤمنين) الموصوفين بالصفات السابقة .

وقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ اشترط لربك ولنفسك ماشئت . قال أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم . قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال الجنة ، قال ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت ( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله . قال أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، وهو فى المسجد ( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ) فكبر الناس فى المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه ، فقال يارسول الله أنزلت هذه الآية ، قال نعم ؟ فقال الأنصارى بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل . وقد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ اشترط فى بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة والسمع والطاعة ولا ينازعوا فى الأمر أهله ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم ، قالوا نعم . قال قائل الأنصار نعم ، هذا لك يارسول الله ، فما لنا ؟ قال الجنة . وأخرجه ابن سعد أيضا من وجه آخر وليس فى قصة العقبة مايدل على أنها سبب نزول الآية .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : من مات على هذه التسع ، فهو فى سبيل الله (التائبون العابدون) الى آخر الآية . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن المنذر عن ابن عباس قال : الشهيد من كان فيه التسع الخصال المذكورة فى هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : العابدون الذين يقيمون الصلاة . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ « أول من يدعى الى الجنة الحامدون الذين يحمدون الله على السراء والضراء » . وأخرج ابن جرير عن عبيد ابن عمير قال : سئل النبى ﷺ عن السائحين ، فقال هم الصائمون . وأخرج الفريابى وابن جرير والبيهقى فى شعب الايمان من طريق عبيد بن عمير عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار من طريق أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مثله . وقد روى عن أبى هريرة موقوفا ، وهو أصح من المرفوع من طريقه ، وحديث عبيد ابن عمير مرسل ، وقد أسنده من طريق أبى هريرة فى الرواية الثانية . وقد روى من قول جماعة من الصحابة مثل هذا : منهم عائشة عند ابن جرير وابن المنذر ، ومنهم ابن عباس عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبى الشيخ ، ومنهم ابن مسعود عند هؤلاء المذكورين قبله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى أمامة أن رجلا استأذن رسول الله ﷺ فى السياحة ، فقال « ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » وصححه عبد الحق . وأخرج أبو الشيخ عن الربيع فى هذه الآية قال : هذه أعمال قال : فيها أصحاب النبى ﷺ ان الله قضى على نفسه فى التوراة والانجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيدا ، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله . وأخرج ابن المنذر عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : الشهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة ، قال : وقال ابن عباس من مات وفيه تسع فهو شهيد . وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ( ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ) يعنى بالجنة ، ثم قال (التائبون) الى قوله (والحافظون لحدود

الله

الله ) يعنى القائمين على طاعة الله ، وهو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد ، واذا وفوا لله بشرطه وفى لهم بشرطهم .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *

لما بين الله سبحانه فى أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة بين سبحانه هنا مايزيد ذلك تأكيدا ، وصرح بأن ذلك متحتم ، ولو كانوا أولى قربى ، وأن القرابة فى مثل هذا الحكم لاتأثير لها . وقد ذكر أهل التفسير أن «ما كان» فى القرآن يأتى على وجهين ، الأول على النفى نحو — ماكان لنفس أن تموت إلا باذن الله — ، والآخر على معنى النهى نحو — ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله — و (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار ، وتحريم الاستغفار لهم ، والدعاء بما لايجوز لمن كان كافرا ، ولاينافى هذا ماثبت عنه ﷺ فى الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه : اللهم اغفر لقومى ، فانهم لايعلمون ، لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين ، وعلى فرض أنه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول ، فانه قبل يوم أحد بمدة طويلة ، وسيأتى ، فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء كما فى صحيح مسلم عن عبدالله ، قال : كأنى أنظر الى النبى ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ، ويقول : رب اغفر لقومى فانهم لايعلمون ، وفى البخارى أن النبى ﷺ ذكر نبيا قبله شجه قومه ، فجعل النبى ﷺ يخبر عنه بأنه قال : اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون * قوله (من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) هذه الجملة تتضمن التعليل للنهى عن الاستغفار * والمعنى أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا ، وعدم الاعتداد بالقرابة لأنهم ماتوا على الشرك . وقد قال سبحانه — ان الله لايغفر أن يشرك به — فطلب المغفرة لهم فى حكم المخالفة لوعد الله ووعيده * قوله (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه) الآية : ذكر الله سبحانه السبب فى استغفار ابراهيم لأبيه أنه كان لأجل وعد تقدم من ابراهيم لأبيه بالاستغفار له ، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه ترد لماتبين له انه عدو لله ، وأنه غير مستحق للاستغفار ، وهذا يدل على أنه انما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار ، ومن أعداء الله ، فلاحاجة الى السؤال الذى يورده كثير من المفسرين أنه كيف خفى ذلك على إبراهيم فانه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر ومات عليه ، وهو لم يعلم ذلك إلا باخبار الله سبحانه له بأنه عدو لله ، فان ثبوت هذه العداوة تدل على الكفر ، وكذلك لم يعلم نبينا ﷺ بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية ، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لابالعقل ، وقيل المراد من استغفار إبراهيم لأبيه دعاؤه إلى الاسلام ، وهو ضعيف جدا ، وقيل المراد بالاستغفار فى هذه الآية النهى عن الصلاة على جنائز الكفار ، فهو كقوله — ولاتصل على أحد منهم مات أبدا — ولاحاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولاملجئ إلى ذلك ، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم ، فقال (إن إبراهيم لأواه) وهو كثير التأوه كما تدل على ذلك صيغة المبالغة .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى الأواه ، فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير : انه الذى يكثر الدعاء . وقال

الحسن وقتادة انه الرّحيم بعباد الله ، وروى عن ابن عباس انه المؤمن بلغة الحبشة . وقال الكلبي انه الذي يذكر الله في الأرض القفر ، وروى مثله عن ابن المسيب ، وقيل الذي يكثر الذكر لله من غير تقييد ، روى ذلك عن عقبة بن عامر ، وقيل هو الذي يكثر التلاوة ، حكى ذلك عن ابن عباس ، وقيل انه النقيه قاله مجاهد والنخعي ، وقيل المتضرع الخاضع ، روى ذلك عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، وقيل هو الذي اذا ذكر خطاياه استغفر لها ، روى ذلك عن أبي أيوب ، وقيل هو الشفيق : قاله عبد العزيز بن يحيى ، وقيل انه المعلم للخير ، وقيل انه الراجع عن كل ما يكرهه الله . قاله عطاء ، والمطابق لمعنى الأوّاه لغة أن يقال انه الذي يكثر التأوّه من ذنوبه ، فيقول مثلا : آه من ذنوبي آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك ، وبه قال الفراء : وهو مروىّ عن أبي ذرّ ، ومعنى التأوه هو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء . قال في الصحاح ، وقد أوّه الرجل تأويها ، وتأوّه تأوّها اذا قال أوه ، والاسم منه آهة بالمدّ ، قال :

اذا ما قمت أرحلها بليل * تأوّه آهة الرجل الحزين

و (الحليم) الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة ، وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى ، وقيل الذي لا يعاقب أحدا قط الا لله .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية ، فقال النبي ﷺ : أي عمّ قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ، فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعاندانه بتلك المقالة ، فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال النبي ﷺ «لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك ، فنزلت (ما كان للنبي) الآية وأنزل الله في أبي طالب ــ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ــ . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان والضياء في المختارة عن عليّ قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال أولم يستغفر إبراهيم لأبيه ؛ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت (ما كان للنبي) الآية . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عليّ قال : أخبرت النبي ﷺ بموت أبي طالب ، فبكى ، فقال اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه ، ففعلت وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياما ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه (ما كان للنبي) الآية ، وقد روى كون سبب نزول الآية استغفار النبي ﷺ لأبي طالب من طرق كثيرة : منها عن محمد بن كعب عند ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وهو مرسل ، ومنها عن عمرو بن دينار عند ابن جرير وهو مرسل أيضا ، ومنها عن سعيد بن المسيب عند ابن جرير ، وهو مرسل أيضا ، ومنها عن عمر بن الخطاب عند ابن سعد وأبي الشيخ وابن عساكر ، ومنها عن الحسن البصري عند ابن عساكر وهو مرسل ، وروى أنها نزلت بسبب زيارة النبي ﷺ لقبر أمه واستغفاره لها من طريق ابن عباس عند الطبراني وابن مردويه ومن طريق ابن مسعود عند ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، وعن بريدة عند ابن مردويه وما في الصحيحين مقدّم على ما لم يكن فيهما على فرض أنه صحيح ، فكيف وهو ضعيف غالبه . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ــ وقضى ربك ألا تعبدوا الا إياه ــ الى قوله ــ كما ربياني صغيرا ــ قال ثم استثنى فقال (ما كان للنبي) الى قوله (الا عن موعدة وعدها إياه) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (فلما تبين له أنه عدوّ لله) قال تبين له حين مات وعلم أن التوبة قد انقطعت منه . وأخرج الفريابي وابن جرير

وابن

وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو بكر الشافعي في فوائده والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : لم يزل ابراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدوّ لله فتبرأ منه . وأخرج ابن مردويه عن جابر أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر ، فقال رجل لو أن هذا خفض صوته ، فقال رسول الله ﷺ «دعه فانه أوّاه» . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذوالنجادين انه أوّاه ، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء . وأخرجه أيضا أحمد قال : حدثنا موسى ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن عليّ بن رباح عن عقبة بن عامر فذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن شدّاد بن الهاد قال : قال رجل يارسول الله ماالأوّاه ؟ قال «الخاشع المتضرّع الدّعاء» ، وهذا ان ثبت وجب المصير اليه وتقديمه على ماذكره أهل اللغة في معنى الأوّاه ، واسناده عند ابن جرير هكذا : حدثني المثنى ، حدثني الحجاج بن منهال ، حدثنا عبدالحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب عن عبدالله بن شداد فذكره . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ان ابراهيم لأوّاه حليم) قال : كان من حامه أنه كان اذا أذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ *

لما نزلت الآية المتقدّمة في النهي عن الاستغفار للمشركين ، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار ، فأنزل الله سبحانه (وما كان الله ليضلّ قوما) الخ : أي ان الله سبحانه لايوقع الضلال على قوم ، ولا يسميهم ضلالا بعد أن هداهم الى الاسلام ، والقيام بشرائعه مالم يقدموا على شيء من المحرّمات بعد أن يتبين لهم أنه محرّم ، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا اثم عليهم ولا يؤاخذون به ، ومعنى (حتى يبين لهم مايتقون) حتى يتبين لهم مايجب عليهم اتقاؤه من محرّمات الشرع (ان الله بكل شيء عليم) مما يحلّ لعباده ويحرم عليهم ، ومن سائر الأشياء التي خلقها ، ثم بين لهم أن له سبحانه ملك السموات والأرض لايشاركه في ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع يتصرف في ملكه بماشاء من التصرفات التي من جلتها أنه يحيي من قضت مشيئته باحيائه : ويميت من قضت مشيئته باماتته وما لعباده من دونه من وليّ يواليهم ولا نصير ينصرهم ، فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، فان القرابة لاتنفع شيئا ولا تؤثر أثرا ، بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده * قوله (لقد تاب الله على النبيّ) فيما وقع منه ﷺ من الاذن في التخلف ، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين ، وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله ، لأن كل العباد محتاج الى التوبة والاستغفار ، وقد تكون التوبة منه تعالى على النبي من باب أنه ترك ماهو الأولى والأليق كما في قوله ـ عفا الله عنك لم أذنت لهم ـ ، ويجوز أن يكون ذكر النبي

ﷺ لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والأنصار فيما قد اقترفوه من الذنوب، ومن هذا القبيل ما صح عنه ﷺ من قوله ان الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم، ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبي ﷺ فلم يتخلفوا عنه، وساعة العسرة هي غزوة تبوك، فانهم كانوا في عسرة شديدة، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة، ولم يرد ساعة بعينها، والعسرة صعوبة الأمر * قوله (من بعدما كان تزيغ قلوب فريق منهم) في كاد ضمير الشأن، وقلوب مرفوع بتزيغ عند سيبويه، وقيل هي مرفوعة بكاد، ويكون التقدير من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ. وقرأ الأعمش وحمزة وحفص يزيغ بالتحتية. قال أبو حاتم: من قرأ بالياء التحتية، فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد. قال النحاس: والذي لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجمع، ومعنى (تزيغ) تتلف بالجهد والمشقة والشدة، وقيل معناه تميل عن الحق، وتترك المناصرة والممانعة، وقيل معناه: تهم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة، وفي قراءة ابن مسعود (من بعد مازاغت) وهم المتخلفون على هذه القراءة، وفي تكرير التوبة عليهم بقوله (ثم تاب عليهم ليتوبوا) تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها، هذا ان كان الضمير راجعا الى من تقدم ذكر التوبة عنهم، وان كان الضمير الى الفريق فلا تكرار * قوله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أي وتاب على الثلاثة الذين خلفوا: أي أخروا، ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم. قال ابن جرير معنى خلفوا: تركوا، يقال خلفت فلانا فارقته. وقرأ عكرمة بن خالد (خلفوا) بالتخفيف: أي أقاموا بعد نهوض رسول الله ﷺ والمؤمنين الى الغزو. وقرأ جعفر بن محمد (خالفوا) وهؤلاء الثلاثة: هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم، وقيل معنى خلفوا فسدوا، مأخوذ من خلوف الفم * قوله (حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) معناه أنهم أخروا عن قبول التوبة الى هذه الغاية، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وما مصدرية: أي برحبها، لاعراض الناس عنهم، وعدم مكالمتهم من كل أحد، لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم، والرحب الواسع، يقال: منزل رحب ورحيب ورحاب، وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديبا لهم لينزجروا عن المعاصي * ومعنى ضيق أنفسهم عليهم أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة، وعبر بالظن في قوله (وظنوا أن لاملجأ من الله الا اليه) عن العلم: أي علموا أن لا ملجأ يلجئون اليه قط الا الى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار * قوله (ثم تاب عليهم ليتوبوا) أي رجع عليهم بالقبول والرحمة، وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا، أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان ان فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها ويرجعوا الى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم (إن الله هو التواب) أي الكثير القبول لتوبة التائبين، (الرحيم) أي الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده * قوله (وكونوا مع الصادقين) هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الاشارة الى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ماحصل من توبة الله، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم) قال نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى. قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه (حتى يبين لهم مايتقون) قال حتى ينهاهم قبل ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: بيان الله للمؤمنين

فى الاستغفار للمشركين خاصة ، وفى بيانه طاعته ومعصيته غامض ما فعلوا أو تركوا . وأخرج ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى والضياء فى المختارة عن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله الى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل مابقى على كبده : فقال أبو بكر الصديق يارسول الله ان الله قد عوّدك فى الدعاء خيرا فادع لنا فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأهطلت ثم سكبت : فملئوا مامعهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر . وقد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هى غزوة تبوك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن منده وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله فى قوله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) قال كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار . وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط الا فى غزوة تبوك غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، انما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم و بين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر وان كانت بدر أذكر منها فى الناس وأشهر ، ثم ذكر القصة الطويلة المشهورة فى كتب الحديث والسير ، وهى معلومة عند أهل العلم فلا نطول بذكرها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) قال يعنى خلفوا عن التوبة لم يتب عليهم حين تاب الله على أبى لبابة وأصحابه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن عساكر عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن نافع فى قوله (وكونوا مع الصادقين) قال نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا : قيل لهم كونوا مع محمد وأصحابه . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير فى قوله وكونوا مع الصادقين . قال مع أبى بكر وعمر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن الضحاك فى الآية قال مع أبى بكر وعمر وأصحابهما . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال مع على ابن أبى طالب . وأخرج ابن عساكر عن أبى جعفر قال مع الثلاثة الذين خلفوا .

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞

فى قوله (ما كان لأهل المدينة الخ) زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وتحريم التخلف عنه : أى ماصح وما استقام لأهل المدينة (ومن حولهم من الأعراب) كمزينة ، وجهينة ، وأشجع وأسلم ، وغفار (أن يتخلفوا عن رسول الله) ﷺ فى غزوة تبوك ، وانما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا ، بخلاف غيرهم من العرب فانهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة

IB-123-124



والمتابعة لرسول الله ﷺ (ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أى وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فيشحون بها ويصونونها ولا يشحون بنفس رسول الله ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، يقال رغبت عن كذا: أى ترفعت عنه، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق، ويبذلوا أنفسهم دون نفسه، وفى هذا الاخبار معنى الأمر لهم مع مايفيده ايراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتقريع الشديد، والتهييج لهم، والازراء عليهم، والاشارة بقوله (ذلك) إلى مايفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أى ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب، وأصناف الشدائد، والظمأ: العطش، والنصب: التعب، والمخمصة: المجاعة الشديدة التى يظهر عندها ضمور البطن. وقرأ عبيد بن عمير ظماء بالمد. وقرأ غيره بالقصر، وهما لغتان مثل خطأ وخطاء، و(لا) فى هذه المواضع زائدة للتأكيد * ومعنى (فى سبيل الله) فى طاعة الله * قوله (ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار) أى لايدوسون مكانا من أمكنة الكفار بأقدامهم أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار، والموطئ: اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدرا (ولا ينالون من عدوّ نيلا) أى يصيبون من عدوّهم قتلا، أو أسرا، أو هزيمة، أو غنيمة، وأصله من نلت الشىء أنال: أى أصيب. قال الكسائى هو من قولهم أمر منيل منه، وليس هو من التناول: انما التناول من نلته بالعطية. قال غيره: نلت أنول من العطية، ونلته أناله: أدركته، والضمير فى (به) يعود الى كل واحد من الأمور المذكورة، والعمل الصالح: الحسنة المقبولة: أى الا كتبه الله لهم حسنة مقبولة يجازيهم بها، وجملة (ان الله لايضيع أجر المحسنين) فى حكم التعليل لماسبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين هنا صدقا أوليا * قوله (ولا ينفقون نفقة) معطوف على ماقبله: أى ولا يقع منهم الانفاق فى الحرب وان كان شيئا صغيرا يسيرا (ولا يقطعون واديا) وهو فى الأصل: كل منفرج بين جبال، وآكام يكون منفذا للسيل، والعرب تقول: واد وأودية على غير قياس. قال النحاس ولايعرف فيما علمت فاعل وأفعلة (الا كتب لهم) أى كتب لهم ذلك الذى عملوه من النفقة والسفر فى الجهاد (ليجزيهم الله) به (أحسن ما كانوا يعملون) أى أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال، ويجوز أن يكون فى قوله (الا كتب لهم) ضمير يرجع الى عمل صالح. وقد ذهب جماعة الى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها وهى قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) فانها تدل على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض، وسيأتى.

وقد أخرج ابن أبى حاتم من طريق عمر بن مالك عن بعض الصحابة قال لما نزلت (ما كان لأهل المدينة) الآية. قال رسول الله ﷺ «والذى بعثنى بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية الا كنت فيها». وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (ما كان لأهل المدينة) قال هذا حين كان الاسلام قليلا لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله ﷺ فلما كثر الاسلام وفشا. قال الله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة). وأخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى وعبد الله بن المبارك وابراهيم ابن محمد الفزارى وعيسى بن يونس السبيعى أنهم قالوا فى قوله تعالى (ولا ينالون من عدوّ نيلا) قالوا هذه الآية للمسلمين الى أن تقوم الساعة.

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم

مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ *

اختلف المفسرون فى معنى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) فذهب جماعة الى أنه من بقية أحكام الجهاد ، لأنه سبحانه لما بالغ فى الأمر بالجهاد والانتداب الى الغزو كان المسلمون اذا بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية الى الكفار ينفرون جميعا ويتركون المدينة خالية ، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك : أى ماصح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعا ، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة . قالوا ويكون الضمير فى قوله (ليتفقهوا) عائدا إلى الفرقة الباقية * والمعنى أن طائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ، ومن بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم ، ويعلمون الغزاة اذا رجعوا اليهم من الغزو ، أو يذهبون فى طلبه الى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين وينذروا قومهم وقت رجوعهم اليهم ، وذهب آخرون الى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد ، وهى حكم مستقل بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين ، جعله الله سبحانه متصلا بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد ، فيكون السفر نوعين : الأول سفر الجهاد ، والثانى السفر لطلب العلم ، ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم انما يكون اذا لم يجد الطالب من يتعلم منه فى الحضر من غير سفر * والفقه : هو العلم بالأحكام الشرعية ، وبما يتوصل به الى العلم بها : من لغة ، ونحو وصرف وبيان ، وأصول * ومعنى (فلولا نفر) فهلا نفر ، والطائفة فى اللغة الجماعة . وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه فى الدين ، وانذار من لم يتفقه ، فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين ، وهما تعلم العلم وتعليمه ، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين ، فهو طالب لغرض دنيوى لا لغرض دينى ، فهو كما قلت :

وطالب الدنيا بعلم الدين أى بائس * كمن غدا لنعله يمسح بالقلانس

ومعنى (لعلهم يحذرون) الترجى لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله فيترك ، أو فيما يجب تركه فيفعل ، ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا فى مقاتلة من يليهم من الكفار ، وأن يأخذوا فى حربهم بالغلظة ، والشدة ، والجهاد واجب لكل الكفار ، وان كان الابتداء بمن يلى المجاهدين منهم أهم وأقدم ، ثم الأقرب فالأقرب ، ثم أخبرهم الله بما يقوى عزائمهم ويثبت أقدامهم ، فقال (واعلموا أن الله مع المتقين) أى بالنصرة لهم وتأييدهم على عدوهم ، ومن كان الله معه لم يقم له شىء .

وقد أخرج أبو داود فى ناسخه وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخ هؤلاء الآيات - انفروا خفافا وثقالا . وان لا تنفروا يعذبكم - قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول : لتنفر طائفة وتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ ، فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون فى الدين وينذرون اخوانهم اذا رجعوا اليهم من الغزو ، ولعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله فى كتابه وحدوده . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عنه نحوه من طريق أخرى بسياق أتم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآية : قال ليست هذه الآية فى الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجدبت بلادهم ، فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالاسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم ، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين ، فردهم الى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله (ولينذروا قومهم اذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ، وفى الباب روايات عن جماعة من التابعين . وأخرج

13. 1343-150



ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ( قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ) قال : الأدنى ، فالأدنى . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن غزو الديلم . فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قال الروم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (وليجدوا فيكم غلظة) قال شدة .

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ * أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *

قوله (واذا ما أنزلت سورة) حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين : أي اذا ما أنزل الله على رسوله ﷺ سورة من كتابه العزيز فمن المنافقين (من يقول) لاخوانه منهم ( أيكم زادته هذه) السورة النازلة (إيمانا) يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين ، ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الاسلام وتزهيدهم فيه ، وأيكم مرفوع بالابتداء وخبره زادته . وقد تقدم بيان معنى السورة ، ثم حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيمانا الى إيمانهم ، والحال انهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحي ومايشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية (وأما الذين في قلوبهم مرض) وهم المنافقين (فزادتهم) السورة المنزلة (رجسا إلى رجسهم) أي خبثا إلى خبثهم الذين هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد ، واظهار غير مايضمرونه وثبتوا على ذلك واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفارا منافقين ، والمراد بالمرض هنا الشك والنفاق ، وقيل المعنى زادتهم إثما الى اثمهم * قوله (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين) قرأ الجمهور يرون بالتحتية . وقرأ حمزة و يعقوب بالفوقية خطابا للمؤمنين . وقرأ الأعمش أولم يروا . وقرأ طلحة ابن مصرف أولا ترى ، خطابا لرسول الله ﷺ ، وهي قراءة ابن مسعود * ومعنى (يفتنون) يختبرون ، قاله ابن جرير وغيره أو يبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدة . قاله مجاهد : وقاله ابن عطية بالأمراض والأوجاع . وقال قتادة والحسن بالغزو والجهاد مع النبي ﷺ ويرون ماوعد الله من النصر (ثم لايتوبون) بسبب ذلك (ولاهم يذكرون) وثم لعطف مابعدها على يرون ، والهمزة في أولا يرون للانكار والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر : أي لاينظرون ولايرون ، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق واهمالهم للنظر والاعتبار ، ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه ، فقال ( واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض) أي نظر بعض المنافقين الى البعض الآخر قائلين (هل يراكم من أحد) من المؤمنين لننصرف عن المقام الذي ينزل فيه الوحي ، فانه لاصبر لنا على استماعه ، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك ، وقيل المعنى : واذا أنزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم . قال بعض من يحضر مجلس رسول الله ﷺ للبعض الآخر منهم هل يراكم من أحد ، ثم انصرفوا الى منازلهم ، وحكى ابن جرير عن بعض أهل العلم ، أنه قال (نظر)

فى هذه الآية موضوع ،موضع قال : أى قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحد * قوله (ثم انصرفوا) أى عن ذلك المجلس الى منازلهم ، أو عن مايقتضى الهداية والايمان الى مايقتضى الكفر والنفاق ، ثم دعا الله سبحانه عليهم ، فقال (صرف الله قلوبهم) أى صرفها عن الخير ومافيه الرشد لهم والهداية ، وهو سبحانه مصرّف القلوب ومقلبها ، وقيل المعنى أنه خذلهم عن قبول الهداية ، وقيل هو دعاء لايراد به وقوع مضمونه كقولهم : قاتله الله ، ثم ذكر سبحانه السبب الذى لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية ، أوالسبب الذى لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله ـ صرف الله قلوبهم ـ ، فقال (بأنهم قوم لايفقهون) مايسمعونه لعدم تدبرهم وانصافهم ، ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهوّن عنده بعض مااشتملت عليه من التكاليف الشاقة ، فقال (لقد جاءكم) يامعشر العرب (رسول) أرسله الله اليكم له شأن عظيم (من أنفسكم) من جنسكم فى كونه عربيا والى كون هذه الآية خطابا للعرب ، ذهب جمهور المفسرين ، وقال الزجاج : هى خطاب لجميع العالم * والمعنى (لقد جاءكم رسول من) جنسكم فى البشرية (عزيز عليه ماعنتم) مامصدرية * والمعنى : شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثا لهدايتكم ، والعنت التعب لهم والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه ، أو بعذاب الآخرة بالنار ، أو بمجموعهما (حريص عليكم) أى شحيح عليكم بأن تدخلوا النار ، أوحريص على إيمانكم * والأول أولى ، وبه قال الفراء ، والرءوف الرحيم . قدتقدم بيان معناهما : أى هذا الرسول (بالمؤمنين) منكم أيها العرب أوالناس (رءوف رحيم) ، ثم قال مخاطبا لرسوله ومسليا له ، ومرشدا له الى مايقوله عند أن يعصى (فان تولوا) أى أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه (فقل) يامحمد (حسبى الله) أى كافىّ الله سبحانه المنفرد بالألوهية (عليه توكلت) أى فوضت جميع أمورى (وهو رب العرش العظيم) وصفه بالعظم ، لأنه أعظم المخلوقات . وقد قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لعرش . وقرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب . وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) قال : كان اذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيمانا وتصديقا وكانوا بها يستبشرون . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (رجسا الى رجسهم) قال : شكا الى شكهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أولا يرون أنهم يفتنون) قال : يقتلون . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه : وقال بالسنة والجوع . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال بالعدوّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : بالغزو فى سبيل الله . وأخرج أبو الشيخ عن بكار بن مالك قال : يمرضون فى كل عام مرّة أو مرّتين . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال : كانت لهم فى كل عام كذبة أوكذبتان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة قال : كنا نسمع فى كل عام كذبة أوكذبتين ، فيضل بها فئام من الناس كثير . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (نظر بعضهم الى بعض) قال : هم المنافقون . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لاتقولوا انصرفنا من الصلاة ، فان قوما انصرفوا صرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلاة . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر نحوه * وأقول الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر ، وليس فى اطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير مايدل على أنه لايطلق الا على نحو ذلك والالزم أن كل لفظ يستعمل فى لغة العرب فى الأمور المتعدّدة اذا استعمل فى القرآن فى حكاية ماوقع من الكفار لايجوز استعماله فى حكاية ماوقع عن أهل الخير ، كالرجوع ، والذهاب ، والدخول والخروج والقيام

والقعود ، واللازم باطل بالاجماع ، فالملزوم مثله ، ووجه الملازمة ظاهر لايخفى . وأخرج عبد بن حميد والحارث ابن أبي أسامة فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم فى دلائل النبوة وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال ليس من العرب قبيلة الا وقد ولدت النبي ﷺ مضريها وربيعها ويمانيها . وأخرج ابن سعد عنه فى قوله (من أنفسكم) قال : قد ولدتموه يامعشر العرب . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله : لقد جاءكم رسول من أنفسكم قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله ﷺ « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وهذا فيه انقطاع ولكنه قد وصله الحافظ الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى ، فقال : حدّثنا أبو أحمد يوسف بن هرون بن زياد ، حدّثنا ابن أبى عمر ، حدّثنا محمد بن جعفر بن محمد قال أشهد على أبى يحدثنى عن أبيه عن جدّه عن علىّ بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم الى أن ولدنى أبى وأمى » . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، فقال علىّ بن أبى طالب يارسول الله مامعنى من أنفسكم ؟ قال نسبا وصهرا وحسبا ليس فىّ ولافى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح . وأخرج الحاكم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قرأ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) يعنى من أعظمكم قدرا . وأخرج ابن سعد عنه نحو حديث علىّ الأوّل . وأخرج الطبرانى عنه أيضا نحوه . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عائشة نحوه ، وفى الباب أحاديث بمعناه ، ويؤيده مافى صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة ابن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسمعيل ، واصطفى من ولد اسمعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ ان الله حين خلق الخلق جعلنى من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلنى فى خير الفريقين ، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتا وخيرهم نفسا ، وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن أبى شيبة واسحق ابن راهويه وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : آخر آية أنزلت على النبى ﷺ ، وفى لفظ : آخر ماأنزل من القرآن (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخر الآية ، وروى عنه نحوه من طريق أخرى أخرجها عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن الضريس فى فضائله ، وابن أبى داود فى المصاحف وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل والخطيب فى تلخيص المتشابه والضياء فى المختارة . وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا له : انك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا قال : ولم سألتم هذا ؟ قالوا نطلب الأمن فأنزل الله هذه الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (فان تولوا فقل حسبى الله) يعنى الكفار تولوا عن النبى ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : انما سمى العرش عرشا لارتفاعه ، وقد رويت أحاديث كثيرة فى صفة العرش وماهيته وقدره .

والى هنا انتهى الثلث الأول من التفسير المسمى «فتح القدير» الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه: محمد بن على الشوكانى. غفر الله لهما. وكان تمام هذا الثلث فى نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرّم سنة ١٢٢٧ هـ

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

الحمد لله: انتهى سماعا على مؤلفه. أطال الله مدّته فى شهر جمادى الأولى من عام سنة ١٢٣٥ هـ

يحي بن على الشوكانى
غفر الله لهما آمين

# تفسير سورة يونس

هى مكية الا ثلاث آيات من قوله ـ فان كنت فى شك ـ الى آخرهن، هكذا روى القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس، وحكى عن مقاتل أنها مكية الا آيتين، وهى قوله ـ فان كنت فى شك ـ فانها نزلت فى المدينة، وحكى عن الكلبى أنها مكية الا قوله ـ ومنهم من لا يؤمن به ـ فانها نزلت بالمدينة، وحكى عن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر أنها مكية من غير استثناء. وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة يونس بمكة. وأخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال: كانت سورة يونس بعد السابعة. وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «ان الله أعطانى الرائيات الى الطواسين مكان الانجيل. وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن الأحنف قال: صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ * إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ

كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿

قوله (الر) قد تقدم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور فى أوّل سورة البقرة فلا نعيده ، ففيه مايغنى عن الاعادة . وقد قرأ بالامالة أبو عمرو وحمزة وخلف وغيرهم . وقرأ جماعة من غير إمالة ، وقد قيل ان معنى (الر) أنا الله أرى . قال النحاس : ورأيت أبا اسحق يميل الى هذا القول ، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب ، وأنشد ﴿ بالخير خيرات وان شرا فا ﴿ أى وان شرا فشر . وقال الحسن وعكرمة الر قسم ، وقال سعيد عن قتادة (الر) اسم للسورة ، وقيل غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر الله بعلمه ، وقد اتفق القراء على أن (الر) ليس بآية ، وعلى أن طه آية ، وفى مقنع أبى عمرو الدانى أن العادّين لطه آية هم الكوفيون فقط ، قيل ولعل الفرق أن (الر) لايشاكل مقاطع الآى التى بعده ، والاشارة بقوله (تلك) الى ماتضمنته السورة من الآيات ، والتبعيد للتعظيم ، واسم الاشارة مبتدأ وخبره مابعده . وقال مجاهد وقتادة أراد التوراة والانجيل وسائر الكتب المتقدمة ، فان تلك اشارة الى غائب مؤنث ، وقيل (تلك) بمعنى هذه : أى هذه آيات الكتاب الحكيم ، وهو القرآن ، ويؤيد كون الاشارة الى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر ، وأن الحكيم من صفات القرآن لامن صفات غيره ، (والحكيم) المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ، قاله أبو عبيدة وغيره ، وقيل الحكيم معناه الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل كقوله ــ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ــ ، وقيل الحكيم بمعنى المحكوم فيه فهو فعيل بمعنى مفعول : أى حكم الله فيه بالعدل والاحسان ، قاله الحسن وغيره ، وقيل الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها والاستفهام فى قوله (أكان للناس عجبا) لانكار التعجب مع مايفيده من التقريع والتوبيخ ، واسم كان (أن أوحينا) وخبرها (عجبا) أى أكان ايحاؤنا عجبا للناس . وقرأ ابن مسعود عجب على أنه اسم كان ، على أن كان تامة ، وأن أوحينا بدل من عجب . وقرئ باسكان الجيم من رجل فى قوله (الى رجل منهم) أى من جنسهم وليس فى هذا الايحاء الى رجل من جنسهم مايقتضى التعجب ، فانه لايلابس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه الا من كان من جنسه ، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجن ويتعذر المقصود حينئذ من الارسال ، لأنهم لايأنسون إليه ولايشاهدونه ، ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره ، فاما أن يظهر فى غير شكل النوع الانسانى ، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم ، أو فى الشكل الانسانى فلابدّ من انكارهم لكونه فى الأصل غير انسان ، هذا ان كان التعجب منهم لكونه من جنسهم ، وان كان لكونه يتيما أو فقيرا ، فذلك لايمنع من أن يكون من كان كذلك جامعا من خصال الخير والشرف مالا يجمعه غيره وبالغا فى كمال الصفات الى حدّ يقصر عنه من كان غنيا ، أو كان غير يتيم ، وقد كان لرسول الله ﷺ قبل أن يصطفيه الله بارساله من خصال الكمال عند قريش ماهو أشهر من الشمس وأظهر من النهار ، حتى كانوا يسمونه الأمين ﴿ قوله (أن أنذر الناس) فى موضع نصب بنزع الخافض : أى بأن أنذر الناس وقيل هى المفسرة لأن فى الايحاء معنى القول ، وقيل : هى المخففة من الثقيلة ﴿ قوله (قدم صدق) أى منزل صدق ، وقال الزجاج : درجة عالية ، ومنه قول ذى الرمة :

لكم قدم لاينكر الناس أنها ﴿ مع الحسب العالى طمت على البحر

وقال ابن الأعرابى : القدم المتقدّم فى الشرف ، وقال أبو عبيدة والكسائى : كل سابق من خير أوشرّ فهو عند العرب قدم ، يقال : لفلان قدم فى الاسلام ، وله عندى قدم صدق ، وقدم خير ، وقدم شرّ ، ومنه قول العجاج :

ذلّ

زلّ بنى العوام عند آل الحكم * وتركوا الملك لملك ذى قدم

وقال ثعلب : القدم كل ماقدمت من خير ، وقال ابن الانبارى : القدم كناية عن العمل الذى لايقع فيه تأخير ولا ابطاء ، وقال قتادة : سلف صدق ، وقال الربيع : ثواب صدق ، وقال الحسن : هو محمد ﷺ وقال الحكيم الترمذى : قدمه ﷺ فى المقام المحمود ، وقال مقاتل : أعمالا قدموها ، واختاره ابن جرير ومنه قول الوضاح :

صلّ لذى العرش واتخذ قدما * ينجيك يوم الخصام والزلل

وقيل غير ماتقدم مما لاحاجة الى التطويل بايراده * قوله (قال الكافرون ان هذا لسحر مبين) . قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش وابن محيصن لساحر على أنهم أرادوا رسول الله ﷺ باسم الاشارة . وقرأ الباقون (لسحر) على أنهم أرادوا القرآن ، وقد تقدم معنى السحر فى البقرة ، وجملة (قال الكافرون) مستأنفة كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب ، وقال القفال : فيه اضمار والتقدير فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك ، ثم ان الله سبحانه جاء بكلام يبطل به التعجب الذى حصل للكفار من الايحاء الى رجل منهم ، فقال (ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) أى من كان له هذا الاقتدار العظيم الذى تضيق العقول عن تصوره كيف يكون ارساله لرسول الى الناس من جنسهم محلا للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك ، فكيف لايعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى الاعراف فى قوله ــ ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ــ فلا نعيده هنا ، ثم ذكر مايدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه ، فقال (يدبر الأمر مامن شفيع الامن بعد اذنه) وترك العاطف ، لأن جملة يدبر كالتفسير والتفصيل لما قبلها ، وقيل هى فى محل نصب على الحال من ضمير استوى ، وقيل مستأنفة جواب سؤال مقدر ، وأصل التدبير النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول ، وقال مجاهد : يقضيه ويقدره وحده ، وقيل يبعث الأمر ، وقيل ينزل الأمر ، وقيل يأمر به ويمضيه ، والمعنى متقارب ، واشتقاقه من الدبر ، والأمر الشأن : وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق . قال الزجاج : ان الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون ان الأصنام شفعاؤنا عند الله ، فردّ الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع اليه فى شيء الا بعد إذنه ، لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب ، وقد تقدم معنى الشفاعة فى البقرة ، وفى هذا بيان لاستبداده بالأمور فى كل شيء سبحانه وتعالى ، والاشارة بقوله (ذلكم) الى فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير : أى الذى فعل هذه الأشياء العظيمة (الله ربكم) واسم الاشارة مبتدأ وخبره الاسم الشريف ، وربكم بدل منه أو بيان له أو خبر ثان ، وفى هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله (ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض) ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره ، فكيف يعبدون الجمادات التى لاتسمع ولا تبصر ولاتنفع ولاتضر ، والاستفهام فى قوله (أفلا تذكرون) للانكار والتوبيخ والتقريع ، لأن من له أدنى تذكر وأقل اعتبار يعلم بهذا ولايخفى عليه ، ثم بين لهم مايكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا ، فقال (اليه مرجعكم جميعا) وفى هذا من التهديد والتخويف مالايخفى ، وانتصاب (وعد الله) على المصدر ، لأن فى قوله اليه مرجعكم جميعا معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر ، والمراد بالمرجع الرجوع اليه سبحانه اما بالموت أو بالبعث أو بكل واحد منهما ، ثم أكد ذلك الوعد بقوله (حقا) فهو تأكيد لتأكيد فيكون فى الكلام من الوكادة ماهو الغاية فى ذلك . وقرأ ابن أبى عبلة (وعد الله حق) على الاستئناف ، ثم علل سبحانه ماتقدم بقوله (انه يبدأ الخلق ثم يعيده) أى ان هذا شأنه يبتدئ خلقه من التراب ثم يعيده الى

التراب ، أو معنى الاعادة الجزاء يوم القيامة . قال مجاهد : ينشئه ثم يميته ، ثم يحييه للبعث ، وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال الى حال . وقرأ يزيد بن القعقاع : أنه يبدأ الخلق بفتح الهمزة ، فتكون الجملة فى موضع نصب بما نصب به وعد الله : أى وعدكم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ويجوز أن يكون التقدير لانه يبدأ الخلق ، وأجاز الفراء أن تكون أن فى موضع رفع فتكون اسما . قال أحمد بن يحيى بن ثعلب يكون التقدير حقا ابداؤه الخلق ، ثم ذكر غاية مايترتب على الاعادة فقال (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ) أى بالعدل الذى لاجورفيه (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفا على الموصول الأول : أى ليجزى الذين آمنوا ويجزى الذين كفروا وتكون جملة لهم شراب من حميم فى محل نصب على الحال هى وماعطف عليها : أى وعذاب أليم ويكون التقدير هكذا ويجزى الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب ، ولكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء ، ويمكن أن يقال ان الموصول فى والذين كفروا مبتدأ وما بعده خبره ، فلا يكون معطوفا على الموصول الأول ، والباء فى (بما كانوا يكسبون) للسببية : أى بسبب كفرهم ، والحميم : الماء الحار ، وكل مسخن عند العرب فهو حميم :

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله ( الر ) قال : فواتح أسماء من أسماء الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن النجار فى تاريخه عنه قال : فى قوله (الر) أنا الله أرى . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك مثله أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله تلك آيات الكتاب قال يعنى هذه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (تلك آيات الكتاب) قال : الكتب التى خلت قبل القرآن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمدا ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، فأنزل الله ( أكان الناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم ) الآية ـ وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم ـ الآية ، فلما كرر الله سبحانه عليهم الحجج قالوا : واذا كان بشرا ، فغير محمد كان أحق بالرسالة ، ـ فلولا نزل هذا على رجل من القريتين عظيم ـ يقول أشرف من محمد يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفى من الطائف ، فأنزل الله ردا عليهم ـ أهم يقسمون رحمة ربك ـ الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) قال ماسبق لهم من السعادة فى الذكر الأول . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : القدم هو العمل الذى قدموا . قال الله سبحانه ـ سنكتب ماقدموا وآثارهم ـ والآثار ممشاهم . قال مشى رسول الله ﷺ بين اسطوانتين من مسجدهم ثم قال هذا أثر مكتوب . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله (قدم صدق) قال محمد ﷺ يشفع لهم . وأخرج ابن مردويه عن على بن أبى طالب مثله . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى بن كعب قال سلف صدق ، والروايات عن التابعين وغيرهم فى هذا كثيرة . وقد قدمنا أكثرها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (يدبر الأمر) قال يقضيه وحده ، وفى قوله (انه يبدأ الخلق ثم يعيده) قال يحييه ثم يميته ثم يحييه .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ

ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ *

ذكرها هنا بعض نعمه على المكلفين ، وهى مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته باتقان صنعه فى هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ماذكر قبل هذا إبداعه للسموات والأرض ، واستواءه على العرش ، وغيرذلك * والضياء قيل جمع ضوء كالسياط والحياض . وقرأقنبل عن ابن كثير ضئاء بجعل الياء همزة مع الهمزة ، ولاوجه له لأن ياءه كانت واوا مفتوحة ، وأصله ضواء فقلبت ياء لكسر ماقبلها . قال المهدوى ، ومن قرأ ضئاء بالهمز فهومقلوب قدمت الهمزة التى بعد الألف ، فصارت قبل الألف ، ثم قلبت الياء همزة ، والأولى أن يكون ضياء مصدرا لاجمعا ، مثل قام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، ولابدّمن تقديرمضاف : أى جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نورا إلا أن يحمل على المبالغة وكأنهما جعلا نفس الضياء والنور * قيل الضياء أقوى من النور ، وقيل الضياء هوما كان بالذات ، والنور ما كان بالعرض ، ومن هنا قال الحكماء : ان نور القمر مستفاد من ضوء الشمس * قوله ( وقدره منازل ) أى قدرمسيره فى منازل ، أوقدره ذا منازل ، والضمير راجع الى القمر ، ومنازل القمر هى المسافة التى يقطعها فى يوم وليلة بحركته الخاصة به ، وجملتها ثمانية وعشرون وهى معروفة ينزل القمر فى كل ليلة منها منزلا لايتخطاه ، فيبدو صغيرا فى أول منازله ، ثم يكبر قليلا قليلاحتى يبدو كاملا ، واذا كان فى آخر منازله رقّ واستقوس ، ثم يستتر ليلتين اذا كان الشهر كاملا ، أو ليلة اذا كان ناقصا ، والكلام فى هذا يطول ، وقد جمعنا فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال : أورده علينا بعض الأعلام ، وقيل ان الضمير راجع الى كل واحد من الشمس والقمر ، كما قيل فى قوله تعالى ـ واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها ـ ؛ وفى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راض والرأى مختلف

وقد قدمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير ، والأولى رجوع الضمير الى القمر وحده ، كما فى قوله تعالى ـ والقمر قدرناه منازل ـ ؛ ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير ، فقال ( لتعلموا عدد السنين والحساب ) فان فى العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية مالايحصى ، وفى العلم بحساب الأشهر والأيام والليالى من ذلك مالا يخفى ، ولولا هذا التقدير الذى قدره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا مايتعلق به كثيرمن مصالحهم * والسنة تتحصل من اثنى عشر شهرا ، والشهر يتحصل من ثلاثين يوما ان كان كاملا ، واليوم يتحصل من ساعات معلومة هى أربع وعشرون ساعة لليل والنهار قد يكون لكل واحدمنهما اثنا عشرة ساعة فى أيام الاستواء ، ويزيد أحدهما على الآخر فى أيام الزيادة ، وأيام النقصان ، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف ، ثم بين سبحانه أنه ماخلق الشمس والقمر ، واختلاف تلك الأحوال الابالحق والصواب دون الباطل والعبث ، فالاشارة بقوله (ذلك) الى المذكور قبله ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، ومعنى تفصيل الآيات تبيينها ، والمرادبالآيات التكوينية أوالتنزيلية أومجموعهما ، وتدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولا أوليا فى ذلك . قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب يفصل بالتحتية . وقرأ ابن السميفع تفصل بالفوقية على البناء للمفعول . وقرأ الباقون بالنون ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى ، ولعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل ( ماخلق الله ذلك إلا بالحق ) وبعده ( وماخلق الله فى السموات والأرض ) ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من

X٠٦-١١



اختلاف الليل والنهار وماخلق فى السموات والأرض من تلك المخلوقات ، فقال ( ان فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) أى الذين يتقون الله سبحانه ويجتنبون معاصيه وخصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر فى مخلوقات الله سبحانه حذرا منهم عن الوقوع فى شىء مما يخالف مراد الله سبحانه ونظرا لعاقبة أمرهم ، وما يصلحهم فى معادهم . قال القفال من تدبر فى هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها ، وان خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل واذا كان كذلك فلا بدّ من أمر ونهى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله تعالى (جعل الشمس ضياء والقمر نورا) قال لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكى يعرف الليل من النهار ، وهوقوله (فمحونا آية الليل) الآية . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : وجوههما الى السموات ، وأقفيتهما الى الأرض . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو مثله . وأخرج أبو الشيخ عن خليفة العبدى : قال لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ماعبده أحد ، ولكن المؤمنون تفكروا فى مجىء هذا الليل اذا جاء فملأ كل شىء وغطى كل شىء ، وفى مجىء سلطان النهار اذا جاء فمحا سلطان الليل ، وفى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفى النجوم ، وفى الشتاء والصيف ، فوالله مازال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ *

شرع الله سبحانه فى شرح أحوال من لايؤمن بالمعاد ، ومن يؤمن به ، وقدّم الطائفة التى لم تؤمن ، لأن الكلام فى هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لاعجب فيه ، ويهملون النظر والتفكر فيما لاينبغى إهماله مما هو مشاهد لكل حىّ طول حياته ، فيتسبب عن إهمال النظر ، والتفكر الصادق عدم الايمان بالمعاد ، ومعنى الرجاء هنا الخوف ، ومنه قول الشاعر :

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وخالفها فى بيت نوب عواسل

وقيل يرجون يطمعون ، ومنه قول الشاعر :

أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى * وقومى تميم والفلاة ورائيا

فالمعنى على الأوّل لايخافون عقابا ، وعلى الثانى لايطمعون فى ثواب اذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته ، فان كان المراد به حقيقته كان المعنى لايخافون رؤيتنا أو لايطمعون فى رؤيتنا ، وقيل المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع ، فيكون المعنى ( لايرجون لقاءنا ) لايتوقعون لقاءنا فهم لايخافونه ولا يطمعون فيه ( ورضوا بالحياة الدنيا ) أى رضوا بها عرضا عن الآخرة ، فعملوا لها ( واطمأنوا بها ) أى سكنت أنفسهم اليها وفرحوا بها ( والذين هم عن آياتنا غافلون ) لايعتبرون بها ولايتفكرون فيها ( أولئك مأواهم ) أى مثواهم ومكان إقامتهم النار ، والاشارة الى المتصفين بالصفات السابقة من عدم الرجاء ، وحصول الرضا والاطمئنان ، والغفلة ( بما كانوا يكسبون ) أى بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد

فهذا حال الذين لايؤمنون بالمعاد ، وأما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله (ان الذين آمنوا) أى فعلوا الايمان الذى طلبه الله منهم بسبب ماوقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدم ذكره من الآيات (وعملوا الصالحات) التى يقتضيها الايمان ، وهى ماشرعه الله لعباده المؤمنين (يهديهم ربهم بإيمانهم) أى يرزقهم الهداية بسبب هذا الايمان المضموم اليه العمل الصالح ، فيصلون بذلك الى الجنة ، وجملة (تجرى من تحتهم الأنهار) مستأنفة أو خبر ثان أو فى محل نصب على الحال * ومعنى من تحتهم من تحت بساتينهم أو من بين أيديهم لأنهم على سرر مرفوعة * وقوله (فى جنات النعيم) متعلق بتجرى أو بيهديهم أو خبر آخر أو حال من الأنهار * قوله (دعواهم) أى دعاؤهم ونداؤهم ، وقيل الدعاء العبادة كقوله تعالى ــ وأعتزلكم وماتدعون من دون الله ــ وقيل معنى دعواهم هنا الادّعاء الكائن بين المتخاصمين * والمعنى : أن أهل الجنة يدعون فى الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعايب والاقرار له بالالهية . قال القفال أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه الى من يحكم بينهما ، وقيل معناه طريقتهم وسيرتهم ، وذلك أن المدّعى للشىء مواظب عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة وان لم يكن فى قوله (سبحانك اللهم) دعوى ولادعاء ، وقيل معناه تمنيهم كقوله ــ ولهم مايدّعون ــ وكأن تمنيهم فى الجنة ليس الا تسبيح الله وتقديسه ، وهو مبتدأ وخبره سبحانك اللهم ، و (فيها) أى فى الجنة * والمعنى : على القول الأوّل أن دعاءهم الذى يدعون به فى الجنة هو تسبيح الله وتقديسه ، والمعنى : نسبحك يالله تسبيحا * قوله (وتحيتهم فيها سلام) أى تحية بعضهم للبعض ، فيكون المصدر مضافا الى الفاعل ، أو تحية الله أو الملائكة لهم ، فيكون من اضافة المصدر الى المفعول . وقد مضى تفسير هذا فى سورة النساء * قوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أى وخاتمة دعائهم الذى هو التسبيح أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين . قال النحاس مذهب الخليل أنّ أن هذه مخففة من الثقيلة * والمعنى : أنه الحمد لله . وقال محمد بن يزيد المبرد : ويجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة . والرفع أقيس ولم يحك أبو عبيد الا التخفيف . وقرأ ابن محيصن بتشديد أنّ ونصب الحمد .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ورضوا بالحياة الدنيا) قال مثل قوله ــ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها ــ الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد أيضا فى قوله (يهديهم ربهم بإيمانهم) قال : يكون لهم نور يمشون به . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (يهديهم ربهم بإيمانهم) قال : حدّثنا الحسن قال بلغنا أن رسول الله ﷺ قال « إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة فيقول له ما أنت ؟ فوالله انى لأراك عين امرئ صدق ، فيقول له أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة ، وأما الكافر فاذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة فيقول له ما أنت ؟ فوالله انى لأراك عين امرئ سوء فيقول له أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « اذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم مااشتهوا من الجنة من ربهم » وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى الهذيل قال : الحمد أوّل الكلام وآخر الكلام ، ثم تلا (وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين) .

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

X 15-16



فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

لما ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الايمان بالمعاد ، ذكر أن هذا العذاب من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيا . قال القفال : لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب فبين الله سبحانه أنه لامصلحة فى ايصال الشر اليهم فلعلهم يتوبون ويخرج من أصلابهم من يؤمن ، قيل معنى ( ولو يعجل الله للناس الشرّ استعجالهم بالخير ) لو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون بالثواب والخير (لقضى اليهم أجلهم) : أى ماتوا ، وقيل المعنى لو فعل الله مع الناس فى إجابته الى المكروه مثل مايريدون فعله معهم فى إجابته إلى الخير لأهلكهم ، وقيل الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث وما يترتب عليه . قال فى الكشاف : وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارا بسرعة إجابته واسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له ، والمراد أهل مكة وقولهم — فأمطر علينا حجارة من السماء — الآية قيل ، والتقدير ولو يعجل الله لهم الشرّ عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به فحذف ماحذف لدلالة الباقى عليه . قال أبو علىّ الفارسى : فى الكلام حذف ، والتقدير (ولو يعجل الله للناس الشرّ) تعجيلا مثل (استعجالهم بالخير) ، ثم حذف تعجيلا وأقام صفته مقامه ، ثم حذف صفته وأقام المضاف اليه مقامه قال : هذا مذهب الخليل وسيبويه ، وهو قول الأخفش والفراء قالوا وأصله كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب . قال الفراء : كما تقول ضربت زيدا ضربك : أى كضربك ، ومعنى ( لقضى إليهم أجلهم ) لأهلكوا ، ولكنه سبحانه لم يعجل لهم الشرّ فأمهلوا ، وقيل معناه أميتوا . وقرأ ابن عامر لقضى على البناء للفاعل وهى قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله ( ولو يعجل الله ) * قوله (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ) الفاء للعطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام ، لأنّ قوله (ولو يعجل الله) يتضمن نفى التعجيل ، فكأنه قيل لكن لا يعجل لهم الشرّ ولا يقضى اليهم أجلهم فنذرهم الخ أى فنتركهم ونمهلهم ، والطغيان : التطاول ، وهو العلوّ والارتفاع ، ومعنى ( يعمهون ) يتحيرون : أى نتركهم يتحيرون فى تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجا لهم منه سبحانه وخذلانا ، ثم بين الله سبحانه أنهم كاذبون فى استعجال الشرّ ولو أصابهم ماطلبوه لأظهروا العجز والجزع فقال ( وإذا مسّ الانسان الضرّ) أى هذا الجنس الصادق على كل مايحصل التضرر به (دعانا لجنبه) اللام للوقت كقوله جئته لشهر كذا ، أو فى محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدا أوقائما عليه ، وتكون اللام بمعنى على : أى دعانا مضطجعا (أوقاعدا أوقائما) وكأنه قال دعانا فى جميع الأحوال المذكورة وغيرها ، وخصّ المذكورة

بالذكر

بالذكر لأنها الغالب على الانسان ، وماعداها نادر كالركوع والسجود ، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود ، وقاعدا غير قادر على القيام ، وقائما غير قادر على المشي ، والأول أولى قال الزجاج : ان تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرة ، لأنه اذا كان داعيا على الدوام ، ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب * قوله (فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه) : أي فلما كشفنا عنه ضره الذي مسه كما تفيده الفاء مضى على طريقته التي كان عليها قبل أن يمسه الضر ونسي حالة الجهد والبلاء ، أومضى عن موقف الدعاء والتضرع لايرجع اليه كأنه لاعهد له به كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضر الى كشف ذلك الضر الذي مسه . وقيل معنى (مر) استمر على كفره ولم يشكر ولم يتعظ قال الأخفش : أن في (كأن لم يدعنا) هي المخففة من الثقيلة ، والمعنى كأنه انتهى . والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال . وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لاتختص بأهل الكفر . بل تتفق لكثير من المسلمين تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول مايكرهون بهم . فاذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرع وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم من اجابة دعائهم ورفع مانزل بهم من الضر ودفع ماأصابهم من المكروه . وهذا مما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الانسان : اللهم أوزعنا شكر نعمك واذكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها باجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذي لانطيق سواه ولانقدر على غيره وماأغناك عنه وأحوجنا اليه — ولان شكرتم لأزيدنكم — والاشارة بقوله (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) الى مصدر الفعل المذكور بعده كما مر غير مرة أي مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم . والمسرف في اللغة هوالذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس . ومحل كذلك النصب على المصدرية . والتزيين هو اما من جهة الله تعالى على طريقة التخلية وعدم اللطف بهم . أو من طريق الشيطان بالوسوسة . أو من طريق النفس الأمارة بالسوء * والمعنى أنه زين لهم الاعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات . ثم ذكر سبحانه مايجري مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) يعني الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي ﷺ أي أهلكناهم من قبل زمانكم ، وقيل الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر ، و (لما) ظرف لأهلكنا : أي أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب ، والتجاري على الرسل ، والتطاول في المعاصي من غير تأخير لاهلاكهم كما أخرنا اهلاككم : والواو في (وجاءتهم رسلهم بالبينات) للحال باضمار قد : أي وقد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم اليهم بالبينات : أي بالآيات البينات الواضحات الدالة على صدق الرسل ، وقيل الواو للعطف على (ظلموا) والأول أولى ، وقيل المراد بالظلم هنا هو الشرك ، والواو في (وما كانوا ليؤمنوا) للعطف على على ظلموا ، أو الجملة اعتراضية ، واللام لتأكيد النفي : أي وماصح لهم ومااستقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك وسلب الألطاف عنهم (كذلك نجزي القوم المجرمين) أي مثل ذلك الجزاء نجزي القوم المجرمين ، وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم ، وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار ، أو لكفار مكة على الخصوص ، ثم خاطب سبحانه الذين بعث اليهم رسول الله ﷺ فقال (ثم جعلناكم خلائف) : أي أي استخلفناكم في الأرض بعد تلك القرون التي تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها ، والخلائف جمع خليفة ، وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة الأنعام ، واللام في (لننظر كيف تعملون) لام كي : أي لكي ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشر ، و (كيف) في محل نصب بالفعل الذي بعده : أي لننظر أي عمل تعملونه ، أو في محل نصب على الحالية : أي على أي حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف ،

ثم حكى الله سبحانه نوعا ثالثا من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله فقال (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) وفيه التفات من الخطاب الى الغيبة اعراضا عنهم ، والمراد بالآيات الآيات التى فى الكتاب العزيز : أى واذا تلا التالى عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد وابطال الشرك حال كونها بينات : أى واضحات الدلالة على المطلوب (قال الذين لايرجون لقاءنا) وهم المنكرون للمعاد ، وقد تقدم تفسيره قريبا : أى قلوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله ﷺ (ائت بقرآن غير هذا أو بدله) طلبوا من رسول الله ﷺ لما سمعوا ماغاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادة الأوثان ، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين : إما الاتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله ، واما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق ارادتهم و يلائم غرضهم فأمره الله أن يقول فى جوابهم (مايكون لى) أى ماينبغى لى ولا يحل لى ، أن أبدّله من تلقاء نفسى ، فنفى عن نفسه أحد القسمين ، وهو التبديل لأنه الذى يمكنه لو كان ذلك جائزا بخلاف القسم الآخر ، وهو الاتيان بقرآن آخر ، فان ذلك ليس فى وسعه ولا يقدر عليه ، وقيل انه ﷺ نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على نفى أصعبهما بالطريق الأولى وهذا منه ﷺ من باب مجاراة السفهاء اذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك ، وهو أعلم بمصالح عباده و بما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة ، و (تلقاء) مصدر استعمل ظرفا ، من قبل نفسى . قال الزجاج : سألوه اسقاط مافيه من ذكر البعث والنشور ، وقيل سألوه أن يسقط مافيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، وقيل سألوه أن يحوّل الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما ، ثم أمره أن يؤكد ماأجاب به عليهم من أنه ماصح له ولا استقام أن يبدّله من تلقاء نفسه بقوله (ان أتبع إلا مايوحى الىّ) أى ماأتبع شيئا من الأشياء إلا مايوحى الىّ من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف ولا تصحيف ، فقصر حاله ﷺ على اتباع مايوحى اليه ، ور بما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبى ﷺ بأن القرآن كلامه وأنه يقدر على الاتيان بغيره والتبديل له ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم تكميلا للجواب عليهم (انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) فان هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها ، واليوم العظيم هو يوم القيامة : أى (انى أخاف ان عصيت ربى) بفعل ماتطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة ، ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله وأنه ﷺ إنما يبلغ اليهم منه ماأمره الله بتبليغه لايقدر على غير ذلك ، فقال (قل لوشاء الله ماتلوته عليكم) أى ان هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وارادته ولوشاء الله أن لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم اياه ماتلوته ، فالأمر كله منوط بمشيئة الله ليس لى فى ذلك شىء * قوله (ولا أدراكم به) معطوف على ماتلوته ، ولوشاء الله ما أدراكم بالقرآن : أى ماأعلمكم به على لسانى يقال : دريت الشىء وأدرانى الله به . هكذا قرأ الجمهور بالألف من أراده يدرى به أعلمه يعلمه . وقرأ ابن كثير (ولأدراكم به) بغير ألف بين اللام والهمزة * والمعنى : ولوشاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم ، فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقد قرئ أدرؤكم بالهمزة فقيل هى منقلبة عن الألف لكونهما من واد واحد و يحتمل أن يكون من درأته اذا دفعته وأدرأته اذا جعلته داريا * والمعنى : لأجعلكم بتلاوته خصماء تدرءوننى بالجدال وتكذبوننى . وقرأ ابن عباس والحسن (ولاأدراتكم به) قال أبو حاتم أصله ولاأدريتكم به ، فأبدل من الياء ألفا . قال النحاس وهذا غلط ، والرواية عن الحسن ولا أدرأتكم بالهمزة * قوله (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) تعليل لكون ذلك بمشيئة الله ولم يكن من النبى ﷺ الا التبليغ : أى قد أقمت فيما بينكم عمرا من قبله : أى زمانا طويلا ، وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفوننى بالصدق

والأمانة

X 18.19



والأمانة لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب (أفلا تعقلون) الهمزة للتقريع والتوبيخ : أى أفلا تجرون ء مايقتضيه العقل من عدم تكذيبي لما عرفتم من العادة المستمرة الى المدّة الطويلة بالصدق والامانة ، وعدم قراءتى للكتب المنزلة على الرسل وتعلمى لما عند أهلها من العلم ولاطلبى لشىء من هذا الشأن ولاحرصى عليه ، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذى عجزتم عن الاتيان بسورة منه وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها الى مبلغ لايتعلق به غيركم .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ولو يعجل الله للناس الشرّ) الآية . قال هو قول الانسان لولده وماله اذا غضب عليهم : اللهم لاتبارك فيه والعنه (لقضى اليهم أجلهم) قال لأهلك من دعا عليه وأماته . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال : قول الرجل للرجل : اللهم العنه : اللهم اخزه ، وهو يحب أن يستجاب له . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له . وحكى القرطبى فى تفسيره عن ابن اسحق ومقاتل فى الآية قالا : هو قول النضر بن الحارث ـ اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ـ فلو عجل لهم هذا لهلكوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (دعانا لجنبه) قال مضطجعا . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله (دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) قال على كل حال . وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك .

وأقول أنا أكثر من شكر الله على السراء يدفع عنك الضراء ، فان وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة : اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم ، فانا نشكرك عدد ماشكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان ، ونحمدك عدد ماحمدك الحامدون بكل لسان فى كل زمان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض) الآية . قال ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال : صدق ربنا ماجعلنا خلائف فى الأرض الا لينظر الى أعمالنا ، فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار والسرّ والعلانية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : خلائف فى الأرض لأمة محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ائت بقرآن غير هذا أو بدّله) قال هذا قول مشركى أهل مكة للنبى ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ولاأدراكم به) أعلمكم به . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : ولاأدراكم به ولاأشعركم به . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ولاأنذرتكم به) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) قال لم أتل عليكم ولم أذكر . وأخرجا عنه قال : لبث أربعين سنة قبل أن يوحى اليه ورأى الرؤيا سنتين ، وأوحى الله اليه عشر سنين بمكة ، وعشرا بالمدينة ، وتوفى وهو ابن اثنتين وستين سنة . وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى والترمذى عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى اليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ

فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَٰحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۞

قوله (فمن أظلم) استفهام فيه معنى الجحد. أى لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب وزيادة (كذبا) مع أن الافتراء لا يكون الا كذبا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب فى نفسه، فربما يكون الافتراء كذبا فى الاسناد فقط، كما اذا أسند ذنب زيد الى عمرو، ذكر معنى هذا أبو السعود فى تفسيره، قيل وهذا من جملة رده ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن، أو يبدله، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله، ولا ظلم يماثل ذلك، وقيل المفترى على الله الكذب هم المشركون، والمكذب بآيات الله هم أهل الكتاب (انه لا يفلح المجرمون) تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته: أى لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير، والضمير فى (انه) للشأن: أى ان الشأن هذا، ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الأصنام، وبين أنها لا تنفع من عبدها ولا تضر من لم يعبدها، فقال (ويعبدون من دون الله) أى متجاوزين الله سبحانه الى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته بالكلية (ما لا يضرهم ولا ينفعهم) أى ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع، ومن حق المعبود أن يكون مثيبا لمن أطاعه معاقبا لمن عصاه، والواو لعطف هذه الجملة على جملة (واذا تتلى عليهم آياتنا)، و (ما) فى ما لا يضرهم موصولة أو موصوفة، والواو فى (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) للعطف على ويعبدون، زعموا أنهم يشفعون لهم عند الله فلا يعذبهم بذنوبهم، وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة فى المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر فى الحال، وقيل أرادوا بهذه الشفاعة اصلاح أحوال دنياهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب عنهم، فقال (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) قرأ أبو السمال العدوى (تنبئون) بالتخفيف من أنبأ ينبئ. وقرأ من عداه بالتشديد من نبأ ينبئ ۞ والمعنى: أتخبرون الله أن له شركاء فى ملكه يعبدون كما يعبد، أو أتخبرونه أن لكم شفعاء بغير اذنه والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكا ولا شفيعا بغير اذنه من جميع مخلوقاته الذين هم فى سمواته وفى أرضه، وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلا، وفى هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى، ثم نزه الله سبحانه نفسه عن اشراكهم وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل فى الكلام الذى أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبى ﷺ أن يقوله لهم جوابا عليهم. قرأ حمزة والكسائى (عما يشركون) بالتحتية. وقرأ الباقون بالفوقية، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ۞ قوله (وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا) قد تقدم تفسيره فى البقرة ۞ والمعنى أن الناس ما كانوا جميعا الا أمة واحدة موحدة لله سبحانه مؤمنة به فصار البعض كافرا، وبقى البعض الآخر مؤمنا فخالف بعضهم بعضا. وقال الزجاج هم العرب كانوا على الشرك. وقيل كل مولود يولد على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ، والأول أظهر، وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للأخرى، بل المراد كفر البعض، وبقى البعض على التوحيد كما قدمنا (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه الا يوم القيامة (لقضى بينهم) فى الدنيا (فيما) هم (فيه يختلفون) لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التى لا تتخلف، وقيل معنى (لقضى بينهم) باقامة الساعة عليهم، وقيل لفرغ من هلاكهم، وقيل الكلمة ان الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب فى الدنيا، وقيل الكلمة أنه لا يأخذ أحدا الا بحجة، وهى إرسال الرسل كما قال

تعالى – وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا – ، وقيل الكلمة : قوله « سبقت رحمتى غضبى » . وقرأ عيسى بن عمر لقضى بالبناء للفاعل . وقرأ من عداه بالبناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال النضر اذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى فأنزل الله (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لايفلح المجرمون ، ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم) الآية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا) . قال ابن مسعود كانوا على هدى ، وروى أنه قرأ هكذا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وما كان الناس الا أمة واحدة) قال آدم وحده (فاختلفوا) قال حين قتل أحد ابنى آدم أخاه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال كان الناس أهل دين واحد على دين آدم فكفروا فلولا أن ربك أجلهم الى يوم القيامة لقضى بينهم .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

قوله (ويقولون) ذكر سبحانه هاهنا نوعا رابعا من مخازيهم ، وهو معطوف على قوله (ويعبدون) وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ماقالوه ، قيل والقائلون : هم أهل مكة كأنهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التى لو لم يكن منها الا القرآن لكفى به دليلا بينا ومصدقا قاطعا : أى هلا أنزلت عليه آية من الآيات التى نقترحها عليه ونطلبها منه كاحياء الأموات وجعل الجبال ذهبا ونحو ذلك ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال (قل انما الغيب لله) أى ان نزول الآية غيب ، والله هو المختص بعلمه ، المستأثر به ، لاعلم لى ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته (فانتظروا) نزول مااقترحتموه من الآيات (انى معكم من المنتظرين) لنزولها ، وقيل المعنى انتظروا قضاء الله بينى وبينكم باظهار الحق على الباطل * قوله (واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذالهم مكر فى آياتنا) لما بين سبحانه فى الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عنادا ومكرا ولجاجا ، أكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه اذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم فى آيات الله ، والمراد باذاقتهم رحمته سبحانه أنه وسع عليهم فى الأرزاق ، وأدرّ عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار بعد أن مستهم الضراء بالجدب وضيق المعايش ، فما شكروا نعمته ولاقدروها حق قدرها ، بل أضافوها الى أصنامهم التى لاتنفع ولاتضر ، وطعنوا فى آيات الله واحتالوا فى دفعها بكل حيلة ، وهو معنى المكر فيها ، واذا الأولى شرطية ، وجوابها إذالهم مكر : وهى فجائية ، ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه ، ثم أمر الله سبحانه رسوله

أن يجيب عنهم فقال (قل الله أسرع مكرا) أى أعجل عقوبة ، وقد دلّ أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعا ، ولكن مكرالله أسرع منه ، واذا الفجائية يستفاد منها السرعة لان المعنى أنهم فاجئوا المكر : أى أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة ، وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرا من باب المشاكلة كما قرّر فى مواطن من عبارات الكتاب العزيز (ان رسلنا يكتبون ماتمكرون) قرأ يعقوب فى رواية وأبو عمرو فى رواية يمكرون بالتحتية . وقرأ الباقون بالفوقية ، والمعنى أن رسل الله وهم الملائكة يكتبون مكر الكفار لايخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة ، فكيف يخفى على العليم الخبير ، وفى هذا وعيد لهم شديد ، وهذه الجملة تعليلية للجملة التى قبلها ، فان مكرهم اذا كان ظاهرا لايخفى ، فعقوبة الله كائنة لامحالة ، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهى ــ واذا مسّ الانسان الضرّ ــ وفى هذه زيادة ، وهى أنهم لايقتصرون على مجرد الاعراض ، بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتى ينكشف المراد انكشافا تاما ، ومعنى تسييرهم فى البر أنهم يمشون على أقدامهم التى خلقها لهم لينتفعوا بها ويركبون ماخلقه الله لركوبهم من الدواب ، ومعنى تسييرهم فى البحر أنه ألهمهم لعمل السفائن التى يركبون فيها فى لجج البحر ، ويسرذلك لهم ودفع عنهم أسباب الهلاك ، وقد قرأ ابن عامر (وهو الذى ينشركم فى البحر) بالنون والشين المعجمة من النشر كما فى قوله ــ فانتشروا فى الأرض ــ أى ينشرهم سبحانه فى البحر فينجى من يشاء ويغرق من يشاء (حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث ، وقد تقدّم تحقيقه ، وجرين أى السفن بهم : أى بالراكبين عليها ، وحتى لانتهاء الغاية والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها ، فالقيود المعتبرة فى الشرط ثلاثة: أوّلها الكون فى الفلك * والثانى جريها بهم بالريح الطيبة التى ليست بعاصفة * وثالثها فرحهم ، والقيود المعتبرة فى الجزاء ثلاثة : الأوّل جاءتها : أى جاءت الفلك ريح عاصف أوجاءت الريح الطيبة : أى تلقتها ريح عاصف ، والعصوف شدة هبوب الريح ، والثانى وجاءهم الموج من كل مكان : أى من جميع الجوانب للفلك والمراد جاء الراكبين فيها ، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر ، والثالث ظنوا أنهم أحيط بهم : أى غلب على ظنونهم الهلاك ، وأصله من احاطة العدوّ بقوم أو بلد ، فجعل هذه الاحاطة مثلا فى الهلاك وان كان بغير العدو كما هنا ، وجواب اذا فى قوله (اذا كنتم فى الفلك) قوله (جاءتها) الى آخره ويكون قوله (دعوا الله) بدلا من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم انما كان عند ظنّ الهلاك وهو الباعث عليه ، فكان بدلا منه بدل اشتمال لاشتماله عليه ، ويمكن أن يكون جملة دعوا مستأنفة كأنه قيل :ماذا صنعوا ؟ فقيل دعوا الله ، وفى قوله (وجرين بهم) التفات من الخطاب الى الغيبة ، جعل الفائدة فيه صاحب الكشاف المبالغة ، وقال الرازى : الانتقال من مقام الخطاب الى مقام الغيبة فى هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما أن عكس ذلك فى قوله ــ اياك نعبد ــ دليل الرضا والتقريب ، وانتصاب مخلصين على الحال : أى لم يشوبوا دعاءهم بشىء من الشوائب كما جرت عادتهم فى غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم فى الدعاء ، وليس هذا لأجل الايمان بالله وحده ، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم أنه لاينجيهم سوى الله سبحانه ، وفى هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله فى الشدائد ، وان المضطر يجاب دعاؤه وان كان كافرا ، وفى هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لايلتفتون الى أصنامهم فى هذه الحالة وما يشابهها ، فياعجبا لما حدث فى الاسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ، فاذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك الينا تواترا يحصل به القطع ، فانظر هداك الله مافعلت هذه الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها ، والى أين رمى بهم الشيطان ، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم ؟ حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ولا فى بعضه من عباد الأوثان ، فانا لله وانا

اليه راجعون ، واللام فى (لئن أنجيتنا من هذه) هى اللام الموطئة للقسم : أى قائلين ذلك ، والاشارة بقوله (من هـذه) الى ماوقعوا فيه من مشارفة الهلاك فى البحر ، واللام فى (لنكونن) جواب القسم : أى لنكونن فى كل حال ممن يشكر نعمك التى أنعمت بها علينا ، منها هذه النعمة التى نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا وتنجينا منها ، وقيل ان هذه الجملة مفعول دعوا (فلما أنجاهم) الله من هذه المحنة التى وقعوا فيها وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم ، بل فعلوا فعل الجاحدين لافعل الشاكرين ، وجعلوا البغى فى الأرض بغير الحق مكان الشكر ، واذا فى (اذاهم يبغون) هى الفجائية : أى فاجئوا البغى فى الأرض بغير الحق والبغى : هو الفساد ، من قولهم بغى الجرح : اذا ترامى فى الفساد ، وزيادة فى الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض ، والبغى وان كان ينافى أن يكون بحق ، بل لايكون الا بالباطل ، لكن زيادة بغير الحق اشارة الى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم ، بل تمرّدا وعنادا ، لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة * قوله (ياأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون فى الأرض بغير الحق ذكر عاقبة البغى وسوء مغبته . قرأ ابن اسحاق وحفص والمفضل بنصب متاع . وقرأ الباقون بالرفع ، فمن قرأ بالنصب جعل ماقبله جملة تامة : أى بغيكم وبال على أنفسكم فيكون بغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبره ، ويكون متاع فى موضع المصدر المؤكد ، كأنه قيل تتمتعون متاع الحياة الدنيا ويكون المصدر مع الفعل المقدّر استئنافا ، وقيل ان متاع على قراءة النصب ظرف زمان نحو مقدم الحاج : أى زمن متاع الحياة الدنيا : وقيل هو مفعول له : أى لأجل متاع الحياة الدنيا ، وقيل منصوب بنزع الخافض : أى كمتاع ، وقيل على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول : أى ممتعين ، وقد نوقش غالب هذه الأقوال فى توجيه النصب . وأما من قرأ برفع متاع فيجعله خبر المبتدأ : أى بغيكم متاع الحياة الدنيا ، ويكون على أنفسكم متعلق بالمصدر ، والتقدير انما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التى لابقاء لها ، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه أبناء جنسهم ، وعبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة ، وقيل ارتفاع متاع على أنه خبر ثان ، وقيل على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أى هو متاع . قال النحاس : على قراءة الرفع يكون بغيكم مرتفعا بالابتداء وخبره متاع الحياة الدنيا ، وعلى أنفسكم مفعول البغى ، ويجوز أن يكون خبره على أنفسكم ويضمر مبتدأ : أى ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا انتهى . وقد نوقش أيضا بعض هذه الوجوه المذكورة فى توجيه الرفع بما يطول به البحث فى غير طائل * والحاصل أنه اذا جعل خبر المبتدا على أنفسكم ، فالمعنى أن مايقع من البغى على الغير هو بغى على نفس الباغى باعتبار مايؤول اليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه ، وان جعل الخبر متاع ، فالمراد أن بغى هذا الجنس الانسانى على بعضه بعضا هو سريع الزوال قريب الاضمحلال كسائر أمتعة الحياة الدنيا فانها ذاهبة عن قرب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى ، ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغى من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال (ثم الينا مرجعكم) وتقديم الخبر للدلالة على القصر ، والمعنى أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون الى الله فيجازى المسىء باساءته والمحسن باحسانه (فننبئكم بما كنتم تعملون) فى الدنيا : أى فنخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير وشر والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن أساء : سأخبرك بما صنعت ، وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله (فانتظروا انى معكم من المنتظرين) قال : خوفهم عذابه وعقوبته . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر فى آياتنا) قال : استهزاء وتكذيب . وأخرج ابن المنذر

X ٨٧-٣١



عن ابن جريج فى قوله (وظنوا أنهم أحيط بهم) قال: هلكوا. وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص ماحاصله، أن النبى ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة: منهم عكرمة بن أبى جهل هرب من مكة وركب البحر، فأصابهم عاصف. فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة أخلصوا، فان آلهتكم لاتغنى عنكم شيئا، فقال عكرمة لئن لم ينجنى فى البحر الاخلاص ماينجينى فى البر غيره، اللهم ان لك عهدا ان أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوا كريما، فجاء فأسلم. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب فى تاريخه والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث هن رواجع على أهلها: المكر، والنكث، والبغى، ثم تلا رسول الله ﷺ ياأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم، ولايحيق المكر السيء الا بأهله، ومن نكث فانما ينكث على نفسه». وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ «لاتبغ ولا تكن باغيا فان الله يقول انما بغيكم على أنفسكم». وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال: ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر والبغى والنكث قال الله سبحانه (انما بغيكم على أنفسكم).

أقول أنا: وينبغى أن يلحق بهذه الثلاث التى دل القرآن على أنها تعود على فاعلها: الخدع، فان الله يقول ـ يخادعون الله والذين آمنوا ومايخادعون الا أنفسهم ـ. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما». وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ *

لما ذكر الله سبحانه ماتقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يتضمن بيان حالها وسرعة تقضيها، وأنها تعود بعد أن تملأ الأعين بروقها، وتجتلب النفوس ببهجتها، وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضا، ويهتكوا حرمهم حبا لها وعشقا لجمالها الظاهرى، وتكالبا على التمتع بها، وتهافتا على نيل ماتشتهى الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب، فقال (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء)

الى آخر الآية * والمعنى : أن مثلها فى سرعة الذهاب ، والاتصاف بوصف يضادّ ما كانت عليه وبيانه مثل ما على الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه بعد أن كان غضا مخضرا طريا قد تعانقت أغصانه المتمايلة ، وزهت أوراقه المتصافحة ، وتلألأت أنوار نوره ، وحاكت الزهر أنواع زهره ، وليس المشبه به هو مادخله الكاف فى قوله ( كماء أنزلناه من السماء ) بل مايفهم من الكلام ، والباء فى ( فاختلط به نبات الأرض ) للسببية : أى فاختلط بسببه نبات الأرض بأن اشتبك بعضه ببعض حتى بلغ الى حدّ الكمال ، ويحتمل أن يراد أن النبات كان فى أوّل بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع فاذا نزل الماء عليه اهتز وربا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ( مما يأكل الناس والأنعام ) من الحبوب والثمار والكلأ والتبن وأخذت الأرض زخرفها ، قال فى الصحاح الزخرف : الذهب ، ثم يشبه به كل مموّه مزوّر انتهى ، والمعنى أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب ، و بعضه للون الفضة وبعضه للون الياقوت ، وبعضه للون الزمرّذ ، وأصل ازينت تزينت أدغمت التاء فى الزاى وجىء بألف الوصل لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن ، والساكن لا يمكن الابتداء به . وقرأ ابن مسعود وأبيّ بن كعب ، وتزينت على الأصل . وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية (وأزينت) على وزن أفعلت : أى أزينت بالزينة التى عليها ، شبهها بالعروس التى تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألوانا كثيرة . وقال عوف بن أبى جميلة . قرأ أشياخنا وازيانت على وزن اسوادّت ، وفى رواية المقدمى وازاتت والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت . وقرأ الشعبى وقتادة أزينت ، ومعنى هذه القراءات كلها هو ماذكرنا ( وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها ) أى غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها ، والضمير فى عليها للارض ، والمراد النبات الذى هو عليها ( أتاها أمرنا ) جواب اذا ، أى جاءها أمرنا باهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ( فجعلناها حصيدا ) أى جعلنا زرعها شبيها بالمحصود فى قطعه من أصوله . قال أبو عبيدة : الحصيد المستأصل ( كأن لم تغن بالأمس ) أى كأن لم يكن زرعها موجودا فيها بالأمس مخضرا طريا ، من غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح اذا أقام به ، والمراد بالأمس الوقت القريب ، والمغانى فى اللغة المنازل . وقال قتادة كأن لم تنعم قال لبيد :

غنيت سبتا قبل مجرى داحس * لو كان للنفس اللجوج خلود

وقرأ قتادة ( كأن لم يغن ) بالتحتية بارجاع الضمير الى الزخرف . وقرأ من عداه (تغن) بالفوقية بارجاع الضمير الى الأرض ( كذلك ) أى مثل ذلك التفصيل البديع (نفصل الآيات) القرآنية التى من جملتها هذه الآية ( لعلهم يتفكرون ) فيما اشتملت عليه ، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية * قوله (والله يدعو إلى دار السلام ) لما نفر عباده عن الميل الى الدنيا بما ضرب به لهم من المثل السابق رغبهم فى الدار الآخرة باخبارهم بهذه الدعوة منه عزّ وجلّ الى دار السلام ، قال الحسن وقتادة : السلام هو الله تعالى وداره الجنة . وقال الزجاج : المعنى والله يدعو الى دار السلامة ، ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة ، ومنه قول الشاعر :

تحيي بالسلامة أمّ بكر * وهل لك بعد قومك من سلام

وقيل أراد دار السلام الذى هو التحية ، لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية كما فى قوله ـ تحيتهم فيها سلام ـ ، وقيل السلام اسم لأحد الجنان السبع : أحدها دار السلام ، والثانية دار الجلال ، والثالثة جنة عدن ، والرابعة جنة المأوى ، والخامسة جنة الخلد ، والسادسة جنة الفردوس ، والسابعة جنة النعيم ، وقيل المراد دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض فى الجنة ، وقد اتفقوا على أن دار السلام هى الجنة ، وانما اختلفوا فى سبب التسمية بدار السلام ( ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ) جعل

سبحانه الدعوة الى دار السلام عامة ، والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلا للحجة واظهارا للاستغناء عن خلقه ، ثم قسم سبحانه أهل الدعوة الى قسمين ، وبين حال كل طائفة فقال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أى للذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصى ، والمراد بالحسنى المثوبة الحسنى . قال ابن الانبارى : العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ، ولذلك ترك موصوفها ، وقيل المراد بالحسنى الجنة ، وأما الزيادة فقيل المراد بها مايزيد على المثوبة من التفضل كقوله ـ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ـ وقيل الزيادة النظر الى وجهه الكريم ، وقيل الزيادة هى مضاعفة الحسنة الى عشر أمثالها ، وقيل الزيادة غرفة من لؤلؤ ، وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان ، وقيل هى انه سبحانه يعطيهم فى الدنيا من فضله مالايحاسبهم عليه ، وقيل غير ذلك مما لافائدة فى ذكره ، وسيأتى بيان ماهو الحق فى آخر البحث (ولايرهق وجوههم قتر ولاذلة) معنى يرهق يلحق ، ومنه قيل : غلام مراهق اذا لحق بالرجال * وقيل يعلو ، وقيل يغشى * والمعنى : متقارب ، والقتر الغبار ، ومنه قول الفرزدق

متوج برداء الملك يتبعه * موج ترى فوقه الرايات والقترا

وقرأ الحسن قتر باسكان المثناة * والمعنى واحد : قاله النحاس وواحد القتر قترة ، والذلة مايظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان ، والمعنى : أنه لايعلو وجوههم غبرة ولايظهر فيها هوان ، وقيل القتر الكآبة ، وقيل سواد الوجوه ، وقيل هو دخان النار (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) الاشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة الخالدون فيها المتنعمون بأنواع نعيمها (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) هذا الفريق الثانى من أهل الدعوة ، وهو معطوف على (للذين أحسنوا) كأنه قيل وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، أو يقدر وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها : أى يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لايزاد عليها ، وهذا أولى من الأول لكونه من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين ، والمراد بالسيئة إما الشرك أو المعاصى التى ليست بشرك ، وهى مايتلبس به العصاة من المعاصى قال ابن كيسان : الباء زائدة ، والمعنى جزاء سيئة مثلها ، وقيل الباء مع مابعدها الخبر ، وهى متعلقة بمحذوف قامت مقامه ، والمعنى جزاء سيئة كائن بمثلها كقولك انما أنا بك ، ويجوز أن تتعلق بجزاء والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن كحذف خبر المبتدأ ، ويجوز أن يكون (جزاء) مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة فيكون مثل قوله ـ فعدة من أيام أخر ـ أى فعليه عدة ، والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف كأنه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة * قوله (ترهقهم ذلة) أى يغشاهم هوان وخزى . وقرئ (يرهقهم) بالتحتية (مالهم من الله من عاصم) أى لايعصمهم أحد كائنا من كان من سخط الله وعذابه ، أو مالهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ، والأول أولى ، والجملة فى محل نصب على الحالية ، أو مستأنفة (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) قطعا جمع قطعة ، وعلى هذا يكون مظلما منتصبا على الحال من الليل : أى أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حال ظلمته . وقد قرأ بالجمع جمهور القراء . وقرأ الكسائى وابن كثير (قطعا) باسكان الطاء ، فيكون مظلما على هذا صفة لقطعا ، ويجوز أن يكون حالا من الليل ، قال ابن السكيت : القطع طائفة من الليل (أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفات الذميمة (أصحاب النار هم فيها خالدون) واطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر فى السنة من خروج عصاة الموحدين * قوله (ويوم نحشرهم جميعا) الحشر الجمع ، وجميعا منتصب على الحال (ويوم) منصوب بمضمر : أى أنذرهم يوم نحشرهم ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة * والمعنى : أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم (ثم نقول للذين أشركوا) فى حالة

الحشر ووقت الجمع تقريعا لهم على رءوس الاشهاد وتوبيخا لهم مع حضور من يشاركهم فى العبادة وحضور معبوداتهم (مكانكم) أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا فى موضعكم (أنتم وشركاؤكم) هذا الضمير تأكيد للضمير الذى فى مكانكم لسده مسد الزموا ، وشركاؤكم معطوف عليه . وقرئ بنصب شركاؤكم على أن الواو واو مع * قوله (فزيلنا بينهم) : أى فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا . يقال زيلته فتزيل : أى فرقته فتفرق ، والمزايلة المفارقة : يقال زايله مزايلة وزيالا اذا فارقه ، والتزايل التباين . قال الفراء : وقرأ بعضهم (فزايلنا) والمراد بالشركاء هنا الملائكة ، وقيل الشياطين ، وقيل الأصنام ، وان الله سبحانه ينطقها فى هذا الوقت ، وقيل المسيح ، وعزير ، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنا ما كان ، وجملة (وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، والمعنى وقد قال شركاؤهم لذين عبدوهم وجعلوهم شركاء الله سبحانه ما كنتم إيانا تعبدون ، وانما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين أغووكم ، وانما أضاف الشركاء اليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه ، لكونهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم فهم شركاؤهم فى أموالهم من هذه الحيثية ، وقيل لكونهم شركاءهم فى هذا الخطاب ، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم ، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) إن كنا أمرناكم بعبادتنا أو رضينا ذلك منكم (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) إن هى المخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية ، والقائل لهذا الكلام هم المعبودون . قالوا لمن عبدهم من المشركين إنا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين ، والمراد بالغفلة هنا : عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم ، وفى هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم ، ويمكن أن يكونوا من الشياطين ، ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم ولا أكرهوهم عليها (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت) أى فى ذلك المكان وفى ذلك الموقف ، أو فى ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل ، فمعنى (تبلو) تذوق وتختبر ، وقيل تعلم ، وقيل تتبع ، وهذا على قراءة من قرأ تبلو بالمثناة الفوقية باسناد الفعل الى كل نفس ، وأما على قراءة من قرأ نبلوا بالنون ، فالمعنى أن الله يبتلى كل نفس ويختبرها ، ويكون ما أسلفت بدلا من كل نفس * والمعنى : أنه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد أحوالها * قوله (وردوا الى الله مولاهم الحق) معطوف على (زيلنا) ، والضمير فى ردوا عائد الى الذين أشركوا : أى ردوا الى جزائه ، وما أعد لهم من عقابه ، ومولاهم : ربهم ، والحق صفة له : أى الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة ، وقرئ الحق بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ضاع وبطل ما كانوا يفترون من أن الآلهة التى لهم حقيقة بالعبادة لتشفع لهم الى الله وتقربهم إليه * والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون فى ذلك المقام الى الحق ، ويعترفون به ، ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلها ، ولكن حين لا ينفعهم ذلك .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (فاختلط به نبات الأرض) قال اختلط فنبت بالماء كل لون (مما يأكل الناس) كالحنطة والشعير ، وسائر حبوب الأرض ، والبقول ، والثمار ، وما يأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (وازينت) قال أنبتت وحسنت ، وفى قوله (كأن لم تغن بالأمس) قال كأن لم تعش كأن لم تنعم . وأخرج ابن جرير عن أبى بن كعب وابن عباس ومروان بن الحكم أنهم كانوا يقرءون بعد قوله (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) وما كان الله ليهلكها الا بذنوب أهلها . وأخرج

ابن جرير وابن المنذر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه كان يقرأ وما أهلكناها الا بذنوب أهلها (كذلك نفصل الآيات). وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي مجلز قال كان مكتوب في سورة يونس إلى جنب هذه الآية (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) الى (يتفكرون)، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا، ولا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، فمحيت. وأخرج أبو نعيم والدمياطي في معجمه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (والله يدعو إلى دار السلام) يقول يدعو الى عمل الجنة، والله: السلام، والجنة: داره. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (ويهدى من يشاء) قال يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات. وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «ما من يوم طلعت شمسه الا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم الا الثقلين: يأيها الناس هلموا إلى ربكم فما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمسه الا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين: اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا — والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى الى قوله — للعسرى —. وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد ابن أبي هلال سمعت أبا جعفر محمد بن علي وتلا (والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم) فقال حدثني جابر قال خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال «انى رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا، فقال اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك: انما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ دارا، ثم بنى فيها بيتا، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولا يدعو الناس الى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من ترك، فالله: هو الملك، والدار: الاسلام، والبيت: الجنة، وأنت يا محمد رسول، فمن أجابك دخل الاسلام، ومن دخل الاسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها. وقد روى معنى هذا من طرق. وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (والله يدعو الى دار السلام) قال ذكر لنا أن في التوراة مكتوبا: ياباغي الخير هلم، وياباغي الشر انته. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنه كان اذا قرأ (والله يدعوا الى دار السلام) قال لبيك ربنا وسعديك. وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال اذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى مناد: يأهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، فيقولون وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار. قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه، فوالله ماأعطاهم الله شيئا أحب اليهم من النظر اليه، ولا أقر لأعينهم. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني في الرؤية وابن مردويه عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ «ان الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى بصوت يسمعه أولهم وآخرهم: ان الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر الى وجه الرحمن. وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الرؤية عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال الزيادة: النظر الى وجه الرحمن. وأخرج هؤلاء والدارقطني وابن أبي حاتم عن أبي ابن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال الذين أحسنوا أهل التوحيد، والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر الى وجه الله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا

نحوه . وأخرج أبو الشيخ والدارقطني وابن مردويه والخطيب وابن النجار عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطني وابن مردويه والبيهقي عن أبي بكر الصديق في الآية قال الحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر الى وجه الله . وأخرج ابن مردويه من طريق الحرث عن علي بن أبي طالب في الآية مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطني والبيهقي عن حذيفة في الآية قال الزيادة : النظر الى وجه الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني والبيهقي عن أبي موسى نحوه . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم واللالكائي عن ابن مسعود نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن علي قال الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها وأبوابها من لؤلؤة واحدة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (وزيادة) قال هو مثل قوله ـ ولدينا مزيد ـ يقول يجزيهم بعملهم ، ويزيدهم من فضله . وقال ـ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ـ . وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها أنها النظر الى وجه الله سبحانه . وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ فلم يبق حينئذ لقائل مقال ، ولا التفات الى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لايعرفون من السنة المطهرة ماينتفعون به ، فانهم لوعرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم ، والله المستعان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا يرهق وجوههم) قال لايغشاهم (قتر) قال سواد الوجوه . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء في الآية قال القتر : سواد الوجه . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال خزي . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن صهيب عن النبي ﷺ (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) قال بعد نظرهم إليه عز وجل . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله (والذين كسبوا السيئات) قال الذين عملوا الكبائر (جزاء سيئة بمثلها) قال النار (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) القطع : السواد نسختها الآية في البقرة ـ بلى من كسب سيئة ـ الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (وترهقهم ذلة) قال تغشاهم ذلة وشدة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله (مالهم من الله من عاصم) يقول من مانع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ويوم نحشرهم) قال الحشر : الموت . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله (فزيلنا بينهم) قال فرقنا بينهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال تنصب الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله فيقول هؤلاء الذين كنتم تعبدون من الله ؟ فيقولون نعم هؤلاء الذين كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة : والله ما كنا نسمع ، ولا نبصر ، ولا نعقل ، ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا ، فيقولون بلى والله لإياكم كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونهم حتى يوردهم النار ، ثم تلا رسول الله ﷺ : هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » . وأخرج أبو الشيخ عن السدي (هنالك تبلو) يقول تتبع . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال (تبلو) تختبر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد (تبلو) قال تعاين (كل نفس ما أسلفت) ماعملت (وضل عنهم ما كانوا يفترون) ما كانوا يدعون معه من الأنداد . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله (وردوا الى الله مولاهم الحق) قال نسختها قوله ـ الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم ـ .

X.12-42.



قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ * كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ *

لما بين فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والاعادة والارشاد والهدى ، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب الى المسئولين ليكون أبلغ فى إلزام الحجة وأوقع فى النفوس ، فقال (قل) يامحمد للمشركين احتجاجا لحقية التوحيد وبطلان ماهم عليه من الشرك (من يرزقكم من السماء والأرض) من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات والمعادن ، فإن اعترفوا حصل المطلوب ، وان لم يعترفوا فلابد أن يعترفوا بأن الله هوالذى خلقهما (أم من يملك السمع والأبصار) أم هى المنقطعة ، وفى هذا انتقال من سؤال الى سؤال ، وخص السمع والبصر بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة والقدرة الباهرة العظيمة : أى من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ، ويحصلون بهما من الفوائد مالايدخل تحت حصر الحاصرين ، ثم انتقل الى حجة ثالثة ، فقال (ومن يخرج الحىّ من الميت) الانسان من النطفة ، والطير من البيضة ، والنبات من الحبة ، أو المؤمن من الكافر (ويخرج الميت من الحى) أى النطفة من الانسان أو الكافر من المؤمن ، والمراد من هذا الاستفهام عمن يحيي ويميت ، ثم انتقل الى حجة رابعة ، فقال (ومن يدبر الأمر) أى يقدّره ويقضيه ، وهذا من عطف العام على الخاص لأنه قد عمّ ماتقدّم وغيره (فسيقولون الله) أى سيكون قولهم فى جواب هذه الاستفهامات ان الفاعل لهذه الأمور هو الله سبحانه ان أنصفوا وعملوا على مايوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم ، وارتفاع الاسم الشريف على أنه خبر مبتدأ محذوف أومبتدأ خبره محذوف ، أى الله يفعل ذلك ، ثم أمره الله سبحانه بعد أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم (أفلا تتقون) والاستفهام للانكار ، والفاء للعطف على مقدّر : أى تعلمون ذلك أفلا تتقون وتنعلون

مايوجبه هـذا العلم من تقوى الله الذى يفعل هـذه الأفعال (فذلكم الله ربكم الحق) أى فذلكم الذى يفعل هـذه الأفعال هو ربكم المتصف بأنه الحق لاماجعلتموهم شركاء له ، والاستفهام فى قوله (فماذا بعد الحق الا الضلال) للتقريع والتوبيخ ان كانت ما استفهامية ، لا ان كانت نافية كما يحتمله الكلام والمعنى أىّ شىء بعد الحق الا الضلال ، فان ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق باقرارهم ، فكان غيره باطلا لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحدا فى ذاته وصفاته (فأنى تصرفون) أى كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون فى الضلال اذ لاواسطة بينهما ، فمن تخلى أحدهما وقع فى الآخر ، والاستفهام للانكار ، والاستبعاد والتعجب (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون) أى كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة ربك : أى حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا : أى خرجوا من الحق الى الباطل وتمردوا فى كفرهم عنادا ومكابرة ، وجملة (أنهم لايؤمنون) بدل من الكلمة . قاله الزجاج : أى حقت عليهم هـذه الكلمة ، وهى عدم ايمانهم ، ويجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام : أى لأنهم لايؤمنون . وقال الفراء . انه يجوز انهم لايؤمنون بالكسر على الاستئناف ، وقد قرأ نافع وابن عامر (كلمات ربك) بالجمع . وقرأ الباقون بالافراد * قوله (قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده) أورد سبحانه فى هذا حجة خامسة على المشركين ، أمر نبيه ﷺ أن يقولها لهم ، وهم وان كانوا لايعترفون بالمعاد ، لكنه لما كان أمرا ظاهرا بينا ، وقد أقام الأدلة عليه فى هـذه السورة على صورة لايمكن دفعها عند من أنصف ولم يكابر كان كالمسلم عندهم الذى لايجحد له ولا انكار فيه ، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم (قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) أى هو الذى يفعل ذلك لاغيره ، وهذا القول الذى قاله النبى ﷺ عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين فى الجواب ، اما على طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وارشادهم الى مايقولون ، واما لكون هـذا المعنى قد بلغ فى الوضوح الى غاية لايحتاج معها الى اقرار الخصم ومعرفة مالديه ، واما لكون المشركين لاينطقون بما هو الصواب فى هـذا الجواب فرارا منهم عن أن تلزمهم الحجة أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة ان حادوا عن الحق ، ومعنى فأنى تؤفكون فكيف تؤفكون : أى تصرفون عن الحق وتنقلبون منه الى غيره ، ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة سادسة فقال (قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق) والاستفهام هاهنا كالاستفهامات السابقة ، والاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيرا فى القرآن كقوله ـ الذى خلقنى فهو يهدين ـ وقوله ـ الذى أعطى كلّ شىء خلقه ثم هدى ـ وقوله الذى خلق فسوّى . والذى قدّر فهدى ـ وفعل الهداية يجىء متعديا باللام وإلى ، وهما بمعنى واحد . روى ذلك عن الزجاج * والمعنى قل لهم يا محمد هل من شركائكم من يرشد الى دين الاسلام ويدعو الناس الى الحق ، فاذا قالوا لا ، فقل لهم الله يهدى للحق دون غيره ، ودليل ذلك ماتقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا ، وهداية الله سبحانه لعباده الى الحق هى بما نصبه لهم من الآيات فى المخلوقات ، وإرساله للرسل وإنزاله للكتب ، وخلقه لما يتوصل به العباد الى ذلك من العقول والأفهام والاسماع والابصار ، والاستفهام فى قوله (أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أم من لايهدى الا أن يهدى) للتقرير وإلزام الحجة

وقد اختلف القراء فى لايهدى . فقرأ أهل المدينة الا نافعا يهدى بفتح الياء واسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا فى قراءتهم هذه بين ساكنين . قال النحاس : والجمع بين ساكنين لايقدر أحد أن ينطق به قال محمد بن يزيد : لابدّ لمن رام مثل هـذا أن يحرك حركة خفيفة الى الكسر ، وسيبويه يسمى هذا اختلاسا . وقرأ أبو عمرو وقالون فى رواية بين الفتح والاسكان . وقرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن محيصن بفتح الياء والهاء وتشديد الدال . قال النحاس : هذه القراءة بينة فى العربية ، والأصل فيها يهتدى أدغمت التاء فى

الدال وقلبت حركتها الى الهاء . وقرأحفص و يعقوب والأعمش ؛ مثل قراءة ابن كثير الأنهم كسروا الهاء قالوا لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين . وقرأ أبو بكر عن عاصم (يهدى) بكسر الياء والهاء وتشديد الدال وذلك للاتباع . وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى بن وثاب (يهدى) بفتح الياء واسكان الهاء وتخفيف الدال من هدى يهدى . قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان في العربية ؛ وان كانت بعيدة : الأوّل أن الكسائي والفراء قالا : ان يهدى بمعنى يهتدى ، الثاني أن أبا العباس قال : ان التقدير أم من لايهدى غيره ، ثم تمّ الكلام وقال بعد ذلك (الا أن يهدى) أى لكنه يحتاج أن يهدى ، فهو استثناء منقطع كما تقول فلان لايسمع غيره الا أن يسمع : أى لكنه يحتاج أن يسمع * والمعنى على القراءات المتقدمة : أفمن يهدى الناس إلى الحق ، وهو الله سبحانه أحق أن يتبع ويقتدى به أم الأحق بأن يتبع ويقتدى به من لايهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره فضلا عن أن يهدى غيره ، والاستثناء على هذا استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال * قوله (فما لكم كيف تحكمون) هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين : أى أىّ شىء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله ، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ ، وكيف في محل نصب بتحكمون ، ثم بين سبحانه ماهؤلاء عليه في أمر دينهم ، وعلى أىّ شىء بنوه ، و بأىّ شىء اتبعوا هذا الدين الباطل ؛ وهو الشرك ، فقال (وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لايغنى من الحق شيئا) وهذا كلام مبتدأ غير داخل في الأوامر السابقة ، والمعنى مايتبع هؤلاء المشركون في اشراكهم بالله وجعلهم له أندادا الا مجرد الظن والتخمين والحدس ، ولم يكن ذلك عن بصيرة ، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقرّبهم الى الله ، وأنها تشفع لهم ، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط ، بل مجرد خيال مختل وحدس باطل ، ولعل تنكير الظن هنا للتحقير : أى الا ظنا ضعيفا لايستند الى ماتستند اليه سائر الظنون ، وقيل المراد بالآية انه مايتبع أكثرهم في الايمان بالله والاقرار به الا ظنا ، والأوّل أولى ، ثم أخبرنا الله سبحانه بان مجرد الظن لايغنى من الحق شيئا ، لأن أمر الدين انما يبنى على العلم ، و به يتضح الحق من الباطل ، والظن لايقوم مقام العلم ، ولايدرك به الحق ، ولايغنى عن الحق في شىء من الأشياء ، ويجوز انتصاب شيئا على المصدرية أو على أنه مفعول به ، ومن الحق حال منه والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن و بطلانه (ان الله عليم بما يفعلون) من الأفعال القبيحة الصادرة لاعن برهان * قوله (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع في تثبيت أمر النبوّة : أى وماصح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة ، والبراهين الواضحة يفترى من الخلق من دون الله ، وانما هو من عند الله عز وجل ، وكيف يصح أن يكون مفترى ، وقد عجز عن الاتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانا ، وأدقهم أذهانا (ولكن) كان هذا القرآن (تصديق الذى بين يديه) من الكتب المنزلة على الأنبياء ، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة ؛ لأن أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة ، مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يطلع على ذلك ، ولا تعلمه ، ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك ، وانتصاب تصديق على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن ، ويجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف : أى لكن أنزله الله تصديق الذى بين يديه . قال الفراء : ومعنى الآية ، وما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى كقوله ــ وما كان لنبىّ أن يغلّ ــ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ــ ، وقيل إن أن بمعنى اللام : أى وما كان هذا القرآن ليفترى ، وقيل بمعنى لا : أى لايفترى . قال الكسائي والفراء : ان التقدير في قوله (ولكن تصديق) ولكن كان تصديق ، ويجوز عندهما الرفع أى ولكن هو تصديق ، وقيل المعنى : ولكن القرآن تصديق (الذى بين يديه) من الكتب : أى أنها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصدقا لها ، وقيل المعنى : ولكن تصديق النبىّ الذى بين يدى القرآن ،

وهو محمد ﷺ لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن * قوله (وتفصيل الكتاب) عطف على قوله (ولكن تصديق الذى بين يديه) فيجىء فيه الرفع والنصب على الوجهين المذكورين فى تصديق ، والتفصيل : التبيين ، أى يبين ما فى كتب الله المقدّمة ؛ والكتاب للجنس ، وقيل أراد ما بين فى القرآن من الأحكام ، فيكون المراد بالكتاب : القرآن * قوله (لاريب فيه) الضمير عائد الى القرآن ، وهو داخل فى حكم الاستدراك خبر ثالث ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال من الكتاب ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لامحلّ لها ، ومن ربّ العالمين خبر رابع : أى كائن من ربّ العالمين ، ويجوز أن يكون حالا من الكتاب ، أومن ضمير القرآن فى قوله (لاريب فيه) أى كائنا من ربّ العالمين ، ويجوز أن يكون متعلقا بتصديق وتفصيل ، وجملة (لاريب فيه) معترضة * قوله (أم يقولون افتراه) الاستفهام للانكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة ، وأم هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة : أى بل أيقولون افتراه واختلقه . وقال أبو عبيدة أم بمعنى الواو : أى و يقولون افتراه ، وقيل الميم زائدة ، والتقدير أيقولون افتراه ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، ثم أمره الله سبحانه أن يتحدّاهم حتى يظهر عجزهم ، ويتبين ضعفهم . فقال (قل فأتوا بسورة مثله) أى إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدا افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله فى البلاغة ، وجودة الصناعة ، فأنتم مثله فى معرفة لغة العرب ، وفصاحة الألسن ، و بلاغة الكلام (وادعوا) مظاهريكم ومعاونيكم (من استطعتم) دعاءه ، والاستعانة به من قبائل العرب ، ومن آلهتكم التى تجعلونهم شركاء لله ، وقوله (من دون الله) متعلق بادعوا : أى ادعوا من سوى الله من خلقه (ان كنتم صادقين) فى دعواكم أن هذا القرآن مفترى .

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها ، وأظهرها للعقول ، فانهم لما نسبوا الافتراء الى واحد منهم فى البشرية والعربية . قال لهم هذا الذى نسبتموه الىّ وأنا واحد منكم ليس عليكم الا أن تأتوا وأنتم الجمع الجمّ بسورة مماثلة لسورة من سوره ، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم ، وتباين مساكنهم ، أو من غيرهم من بنى آدم ، أو من الجنّ ، أو من الأصنام ، فان فعلتم هذا بعد الاباء والتى فأنتم صادقون فيما نسبتموه الىّ ، وألصقتموه بى ، فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف ، والتنزل البالغ بكلمة ، ولا نطقوا ببنت شفة ، بل كاعوا عن الجواب ، وتشبثوا بأذيال العناد البارد ، والمكابرة المجردة عن الحجة ، وذلك مما لايعجز عنه مبطل ، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحدى البالغ (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) فأضرب عن الكلام الأوّل ، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن ، قبل أن يتدبروه و يفهموا معانيه ، وما اشتمل عليه ، وهكذا صنع من تصلب فى التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق ، وتمسك بذيول الانصاف ، بل ردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه ، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ، ويعلم مبناه ، كما تراه عيانا ، وتعلمه وجدانا * والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة ، والبرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه ، فهو لم يتمسك بشىء فى هذا التكذيب الا بمجرد كونه جاهلا لما كذب به غير عالم به ، فكان بهذا التكذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت ، ومسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل ، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شىء :

مايبلغ الاعداء من جاهل * مايبلغ الجاهل من نفسه

قوله (ولما يأتهم تأويله) معطوف على (لم يحيطوا بعلمه) أى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، و بما لم يأتهم تأويله ، أو هذه الجملة فى محل نصب على الحال : أى كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ، ولا بلغته عقولهم * والمعنى أن التكذيب منهم وقع قبل الاحاطة بعلمه ، وقبل

X.٩٦-٩٥



أن يعرفوا مايئول اليه من صدق ماشتمل عليه من حكاية ماسلف من أخبار الرسل المتقدمين ، والامم السابقين ، ومن حكايات ماسيحدث من الأمور المستقبلة التى أخبر عنها قبل كونها ، أو قبل أن يفهموه حق الفهم ، وتتعقله عقولهم ، فانهم لوتدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغى ، وعرفوا مااشتمل عليه من الأمور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام الله ، وعلى هذا فعنى تأويله مايئول اليه لمن تدبره من المعانى الرشيقة ، واللطائف الأنيقة ، وكلمة التوقع أظهر فى المعنى الأول (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه ، فانهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه ، وقبل أن يأتيهم تأويله (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) من الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسخ ، ونحو ذلك من العقوبات التى حلت بهم كما حكى ذلك القرآن عنهم ، واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم * قوله (ومنهم من يؤمن به) أى ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به فى نفسه ، ويعلم أنه صدق وحق ، ولكنه كذب به مكابرة وعنادا ، وقيل المراد : ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن كذب به فى الحال ، والموصول مبتدأ ، وخبره منهم (ومنهم من لايؤمن به) ولايصدقه فى نفسه ، بل كذب به جهلا كما مر تحقيقه ، أو لايؤمن به فى المستقبل ، بل يبقى على جحوده وإصراره ، وقيل الضمير فى الموضعين للنبى ﷺ . وقد قيل ان هذا التقسيم خاص بأهل مكة ، وقيل عام فى جميع الكفار (وربك أعلم بالمفسدين) فيجازيهم بأعمالهم ، والمراد بهم : المصرون المعاندون ، أو بكلا الطائفتين وهم الذين يؤمنون به فى أنفسهم ويكذبون به فى الظاهر ، والذين يكذبون به جهلا ، أو الذين يؤمنون به فى المستقبل ، والذين لايؤمنون به ، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم ان أصروا على تكذيبه واستمروا عليه (لى عملى ولكم عملكم) أى لى جزاء عملى ، ولكم جزاء عملكم فقد أبلغت إليكم ماأمرت بابلاغه ، وليس على غير ذلك ، ثم أكد هذا بقوله (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) أى لاتؤاخذون بعملى ، ولا أؤاخذ بعملكم . وقد قيل ان هذا منسوخ بآية السيف كما ذهب إليه جماعة من المفسرين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس فى قوله (كذلك حقت كلمة ربك) يقول سبقت كلمة ربك . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال صدقت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (أم من لايهدى الا أن يهدى) قال الأوثان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (وان كذبوك فقل لى عملى) الآية . قال أمره بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي

ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ◈

قوله (ومنهم من يستمعون) الخ بين الله سبحانه فى هـذا أن فى أولئك الكفار من بلغت حاله فى النفرة والعداوة إلى هـذا الحدّ ، وهى أنهم يستمعون إلى النبى ﷺ إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع فى الظاهر ، ولكنهم لايسمعون فى الحقيقة لعدم حصول أثر السماع ، وهوحصول القبول والعمل بما يسمعونه ولهذا قال (أفأنت تسمع الصمّ) يعنى أن هؤلاء وإن استمعوا فى الظاهر فهم صمّ ، والصمم مانع من سماعهم فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع ، وهو الصمم ، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك أنهم لايعقلون ، فان من كان أصمّ غير عاقل لايفهم شيئا ، ولا يسمع مايقال له ، وجمع الضمير فى يستمعون حملا على معنى من ، وأفرده فى (ومنهم من ينظر) حملا على اللفظ ، قيل والنكتة : كثرة المستمعين بالنسبة الى الناظرين ، لأن الاستماع لايتوقف على مايتوقف عليه النظر من المقابلة ، وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع ، والنور الموافق لنور البصر ، والتقدير فى قوله (ومنهم من يستمعون ، ومنهم من ينظر) ومنهم ناس يستمعون ، ومنهم بعض ينظر ، والهمزتان فى (أفأنت تسمع . أفأنت تهدى) للانكار ، والفاء فى الموضعين للعطف على مقدّر كأنه قيل أيستمعون اليك فأنت تسمعهم ! أينظرون اليك فأنت تهديهم ؟ والكلام فى (ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون) كالكلام فى (ومنهم من يستمعون) الخ ، لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه فى النظر . وقد انضمّ الى فقد البصر فقد البصيرة ، لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح مايفهم به فى بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر ، وكذلك الأصمّ العاقل قد يتحدس تحدسا يفيده بعض فائدة ، بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الادراك . وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسدّ عليه باب الهدى ، وجواب لو فى الموضعين محذوف دلّ عليهما ماقبلهما ، والمقصود من هـذا الكلام تسلية رسول الله ﷺ ، فان الطبيب اذا رأى مريضا لايقبل العلاج أصلا أعرض عنه واستراح من الاشتغال به ◈ قوله (إن الله لايظلم الناس شيئا ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون) ذكر هذا عقب ماتقدّم من عدم الاهتداء بالاسماع والابصار لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة ، بل لأجل ماصار فى طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق ، والمجادلة بالباطل ، والاصرار على الكفر ، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك ، ولم يظلمهم الله شيئا من الأشياء ، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر مايدركون به أكمل إدراك ، وركب فيهم من الحواس مايصلون به إلى مايريدون ، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم ، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية ، فعلى نفسها براقش تجنى . وقرأ حمزة والكسائى ولكن الناس بتخفيف النون ورفع الناس ، وقرأ الباقون بتشديدها ونصب الناس . قال النحاس زعم جماعة من النحويين : منهم الفراء أن العرب إذا قالت ولكن بالواو شدّدوا النون ، وإذا حذفوا الواو خففوها ، قيل والنكتة فى وضع الظاهر موضع المضمر زيادة التعيين والتقرير ، وتقديم المفعول على الفعل لافادة القصر ، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة ◈ قوله (ويوم نحشرهم) الظرف منصوب بمضمر : أى واذكر يوم نحشرهم (كأن لم يلبثوا) أى كأنهم لم يلبثوا ، والجملة فى محلّ نصب على الحال : أى مشبهين من لم يلبث (إلا ساعة من النهار) : أى شيئا قليلا منه ، والمراد باللبث هو اللبث فى الدنيا ، وقيل فى القبور ، استقلوا المدّة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم فى الدنيا ، فجعلوا وجودها كالعدم ، أو استقصروها للدهش والحيرة ، أو لطول وقوفهم فى المحشر ، أو لشدّة ماهم فيه

من العذاب نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ، ومثل هذا قولهم ـ لبثنا يوما أو بعض يوم ـ وجملة (يتعارفون بينهم) فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة * والمعنى يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا ، وذلك عند خروجهم من القبور ، ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول المذهلة للأفهام ، وقيل ان هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى ـ ولا يسأل حميم حميما ـ وقوله ـ فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ـ فيجمع بأن المراد بالتعارف : هو تعارف التوبيخ ، وعليه يحمل قوله ـ ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول ـ ، وقد جمع بين الآيات المختلفة فى مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون فى بعض المواقف ما لا يكون فى الآخر (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران ، والجملة فى محل النصب على الحال ، والمراد بلقاء الله يوم القيامة عند الحساب والجزاء ، ونفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم * قوله (واما نرينك بعض الذى نعدهم) أصله ان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد ، والمعنى ان حصلت منا الإراءة لك بعض الذى وعدناهم من اظهار دينك فى حياتك بقتلهم وأسرهم ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير فتراه ، أو فذاك ، وجملة (أو نتوفينك) معطوفة على ماقبلها * والمعنى : أولا نرينك ذلك فى حياتك بل نتوفينك قبل ذلك (فالينا مرجعهم) فعند ذلك نعذبهم فى الآخرة فنريك عذابهم فيها ، وجواب (أو نتوفينك) محذوف أيضا ، والتقدير أو نتوفينك قبل الاراءة فنحن نريك ذلك فى الآخرة ، وقيل ان جواب (أو نتوفينك) هو قوله (فالينا مرجعهم) لدلالته على ما هو المراد من إراءة النبى ﷺ تعذيبهم فى الآخرة وقيل العدول الى صيغة المستقبل فى الموضعين لاستحضار الصورة ، والأصل أريناك أو توفيناك ، وفيه نظر فان إراءته ﷺ لبعض ما وعد الله المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة * وحاصل معنى هذه الآية ان لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا . وقد أراه الله سبحانه قتلهم وأسرهم وذلهم وذهاب عزهم وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به فى يوم بدر وما بعده من المواطن ، فلله الحمد * قوله (ثم الله شهيد على ما يفعلون) جاء بثم الدالة على التبعيد مع كون الله سبحانه شهيدا على ما يفعلونه فى الدارين للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء أو ما يحصل من انطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابورى (ولكل أمة) من الأمم الخالية فى وقت من الأوقات (رسول) يرسله الله اليهم ، ويبين لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة (فاذا جاء رسولهم) اليهم وبلغهم ما أرسله الله به فكذبوه جميعا (قضى بينهم) أى بين الأمة ورسولها (بالقسط) أى العدل فنجا الرسول وهلك المكذبون له كما قال سبحانه ـ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ـ ويجوز أن يراد بالضمير فى بينهم الأمة على تقدير أنه كذبه بعضهم وصدقه البعض الآخر ، فيهلك المكذبون وينجو المصدقون (وهم لا يظلمون) فى ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ، ولا يؤاخذون بغير حجة ، ومنه قوله تعالى ـ وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ـ وقوله ـ فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد ـ والمراد المبالغة فى اظهار العدل والنصفة بين العباد ، ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار ، وذلك أن النبى ﷺ كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا (يقولون متى هذا الوعد) والاستفهام منهم للانكار والاستبعاد والقدح فى النبوة (ان كنتم صادقين) خطابا منهم للنبى ﷺ وللمؤمنين ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ماقبله ، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين أرسلهم الله اليهم ،

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادة الشبهة و يقطع اللجاج فقال (قل لا أملك لنفسى ضرّا ولا نفعا) أى لا أقدر على جلب نفع لها ولا دفع ضرّ عنها ، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيرى ، وقدّم الضرّ ، لأن السياق لاظهار العجز عن حضور الوعد الذى استعجلوه واستبعدوه ، والاستثناء فى قوله (إلا ماشاء الله) منقطع كما ذكره أئمة التفسير : أى ولكن ماشاء الله من ذلك كان ، فكيف أقدر على أن أملك لنفسى ضرّا أو نفعا * وفى هذه أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ والاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه ، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ مالا يقدر على تحصيله الا الله سبحانه ، فان هذا مقام ربّ العالمين الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم وأحياهم و يميتهم ، فكيف يطلب من نبىّ من الأنبياء أو ملك من الملائكة ، أو صالح من الصالحين ماهو عاجز عنه غير قادر عليه و يترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كل شىء الخالق الرازق المعطى المانع * وحسبك بما فى هذه الآية موعظة ، فان هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده : لا أملك لنفسى ضرّا ونفعا ، فكيف يملكه لغيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا تبلغ الى منزلته لنفسه فضلا عن أن يملكه لغيره ، فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى و يطلبون منهم من الحوائج مالا يقدر عليه الا الله عزّ وجلّ كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ولا يتنبهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا الله ، ومدلول ـ قل الله أحد ـ ، وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على مايقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم و بين الرجوع الى الجاهلية الأولى ، بل الى ماهو أشدّ منها ، فان أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق المحيى المميت الضارّ النافع ، وانما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقرّبين لهم اليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضرّ والنفع ، و ينادونهم تارة على الاستقلال : وتارة مع ذى الجلال ، وكفاك من شرّ سماعه والله ناصر دينه ومطهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر ، ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة الى ماتقرّ به عينه و ينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة ـ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ـ إنا لله وانا إليه راجعون ـ ثم بين سبحانه أن لكل طائفة حدّا محدودا لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال (لكل أمة أجل) فاذا جاء ذلك الوقت أنجز وعده وجازى كلا بما يستحقه * والمعنى : أن لكل أمة ممن قضى بينهم و بين رسولهم ، أو بين بعضهم البعض أجلا معينا ووقتا خاصا يحلّ بهم مايريده الله سبحانه لهم عند حلوله (إذا جاء أجلهم) أى ذلك الوقت المعين ، والضمير راجع الى كل أمة (فلا يستأخرون) عن ذلك الأجل المعين (ساعة) أى شيئا قليلا من الزمان (ولا يستقدمون) عليه ، وجملة لا يستقدمون معطوفة على جملة لا يستأخرون ، ومثله قوله تعالى (ماتسبق من أمة أجلها ومايستأخرون والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدم فى تفسير الآية التى فى أول الأعراف فلا نعيده .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله (يتعارفون بينهم) قال : يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (واما نرينك) الآية قال : سوء العذاب فى حياتك (أو نتوفينك) قبل (فالينا مرجعهم) وفى قوله (ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم) قال : يوم القيامة .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ

X 52-59



آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ *

قوله (قل أرأيتم ان أتاكم عذابه) هذا منه سبحانه تزييف لرأى الكفار فى استعجال العذاب بعد التزييف الأول : أى أخبرونى ان أتاكم عذاب الله ( بياتا ) أى وقت بيات ، والمراد به الوقت الذى يبيتون فيه وينامون ويغفلون عن التحرز ، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم ، وهو منتصب على الظرفية ، وكذلك نهارا : أى وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب ، والضمير فى منه راجع إلى العذاب ، وقيل راجع الى الله ، والاستفهام فى ( ماذا يستعجل منه المجرمون ) للانكار المتضمن للنهى كما فى قوله ـ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ـ ووجه الانكار عليهم فى استعجالهم أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتأباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له ؟ والجملة المصدّرة بالاستفهام جواب الشرط بحذف الفاء ، وقيل ان الجواب محذوف ، والمعنى تندموا على الاستعجال ، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه ، وقيل ان الجواب قوله ( أثم اذا ماوقع ) وتكون جملة ( ماذا يستعجل منه المجرمون ) اعتراضا ، والمعنى ان أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لاينفعكم الايمان ، والأوّل أولى ، وانما قال يستعجل منه المجرمون ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على مايوجب ترك الاستعجال ، وهو الاجرام ، لأن من حقّ المجرم أن يخاف من العذاب بسبب اجرامه ، فكيف يستعجله ؟ كما يقال لمن يستوخم أمرا اذا طلبه : ماذا تجنى على نفسك . وحكى النحاس عن الزجاج أن الضمير فى ( منه ) ان عاد إلى العذاب كان لك فى ( ماذا ) تقديران : أحدهما أن تكون ما فى موضع رفع بالابتداء ، وذا بمعنى الذى ، وهو خبر ما ، والعائد محذوف ، والتقدير الآخر أن يكون (ماذا) اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر مابعده ، وان جعل الضمير فى ( منه ) عائدا إلى الله تعالى كان (ماذا) شيئا واحدا فى موضع نصب بيستعجل * والمعنى : أىّ شىء يستعجل منه المجرمون : أى من الله عزّ وجلّ ، ودخول الهمزة الاستفهامية فى ( أثم إذا ماوقع آمنتم به ) على ثم كدخولها على الواو والفاء ، وهى لانكار إيمانهم حيث لاينفع الايمان وذلك بعد نزول العذاب ، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتفظيع مافعلوه فى غير وقته مع تركهم له فى وقته الذى يحصل به النفع والدفع ، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به ، وجىء بكلمة ثم التى للتراخى دلالة على الاستبعاد ، وجىء باذا مع زيادة ما للتأكيد دلالة على تحقق وقوع الايمان منهم فى غير وقته ليكون فى ذلك زيادة استجهال لهم * والمعنى أبعد ماوقع عذاب الله عليكم ، وحلّ بكم سخطه وانتقامه آمنتم حين لاينفعكم هذا الايمان شيئا ، ولايدفع عنكم ضرّا ، وقيل ان هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به ، وأنها من قول الملائكة استهزاء بهم ، وازراء عليهم * والأول أولى ، وقيل ان ثم هاهنا

هى بفتح التاء فتكون ظرفية بمعنى هناك ، والأوّل أولى * قوله (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) ، قيل هو استئناف بتقدير القول غير داخل تحت القول الذى أمر الله رسوله ﷺ أن يقوله لهم : أى قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون : أى بالعذاب تكذيبا منكم واستهزاء ، لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ، ويكون المقصود بأمره ﷺ أن يقول لهم هذا القول التوبيخ لهم ، والاستهزاء بهم ، والازراء عليهم ، وجملة ، وقد كنتم به تستعجلون ، فى محل نصب على الحال ، وقرئ آلان بحذف الهمزة التى بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام * قوله (ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد) معطوف على الفعل المقدّر ، قبل آلآن ، والمراد منه : التقريع والتوبيخ لهم : أى قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان : ان هذا الذى تطلبونه ضرر محض ، عار عن النفع من كل وجه ، والعاقل لايطلب ذلك ، ويقال لهم عن سبيل الاهانة لهم ذوقوا عذاب الخلد : أى العذاب الدائم الذى لاينقطع ، والقائل لهم هذه المقالة والتى قبلها قيل هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم ، ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص ، أو المؤمنون على العموم (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) فى الحياة من الكفر والمعاصى ، والاستفهام للتقرير ، وكأنه يقال لهم هذا القول عند استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة ، ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة ، والجوابات عن أقوالهم الباطلة : أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب ، فقال (ويستنبئونك أحق هو) أى يستخبرونك عن جهة الاستهزاء منهم والانكار أحق ماتعدنا به من العذاب فى العاجل والآجل ، وهذا السؤال منهم جهل محض ، وظلمات بعضها فوق بعض ، فقد تقدّم ذكره عنهم مع الجواب عليه ، فصنيعهم فى هذا التكرير صنيع من لايعقل مايقول ولا مايقال له ، وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن حقية القرآن ، وارتفاع حق على أنه خبر مقدّم ، والمبتدأ هو الضمير الذى بعده ، وتقديم الخبر للاهتمام ، أو هو مبتدأ ، والضمير مرتفع به سادّ مسدّ الخبر ، والجملة فى موضع نصب بيستنبئونك ، وقرئ آلحق هو على أن اللام للجنس ، فكأنه قيل أهو الحق لا الباطل * قوله (قل إى وربى انه لحق) أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة جواب عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء : أى قل لهم يامحمد غير ملتفت إلى ماهو مقصودهم من الاستهزاء : إى وربى إنه لحق : أى نعم وربى إن ماأعدّكم به من العذاب لحق ثابت كائن لامحالة ، وفى هذا الجواب تأكيد من وجوه : الأوّل القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم ، الثانى دخول ان المؤكدة ، الثالث اللام فى لحق ، الرابع اسمية الجملة ، وذلك يدلّ على أنهم قد بلغوا فى الانكار والتمرّد الى الغاية التى ليس وراءها غاية ، ثم توعدهم بأشد توعد ، ورهبهم بأعظم ترهيب ، فقال (وما أنتم بمعجزين) أى فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذى لاينفع ، والمكابرة التى لاتدفع من قضاء الله شيئا ، وهذه الجملة إما معطوفة على جملة جواب القسم ، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم عن عذاب الله بوجه من الوجوه ، ثم زاد فى التأكيد ، فقال (ولو أن لكل نفس ظلمت مافى الأرض لافتدت به) أى ولو أن لكل نفس من الأنفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر بالله وعدم الإيمان به مافى الأرض من كل شىء من الأشياء التى تشتمل عليها من الأموال النفيسة والذخائر ، الفائقة لافتدت به : أى جعلته فدية لها من العذاب ؛ ومثله قوله تعالى ـ ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحد ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ـ وقد تقدّم * قوله (وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب) الضمير راجع الى الكفار الذين سياق الكلام معهم ، وقيل راجع الى الأنفس المدلول عليها بكل نفس * ومعنى أسروا : أخفوا : أى لم يظهروا الندامة بل أخفوها لما قد شاهدوه فى ذلك الموطن

مما سلب عقولهم ، وذهب بتجلدهم ، ويمكن أنه بقى فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم الى العصبية التى كانوا عليها فى الدنيا ، فأسروا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون ، وقيل أسرّها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم خوفا من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين أضلوهم وحالوا بينهم و بين الاسلام ، ووقوع هذا منهم كان عنـد رؤية العذاب ، وأمابعد الدخول فيه ، فهم الذين ـ قلوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ـ وقيل معنى أسروا : أظهروا ، وقيل وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم ، لأن الندامة لايمكن إظهارها ، ومنه قول كثير :

فأسررت الندامة يوم نادى ✽ بردّ جمال غاضرة المنادى

وذكر المبرد فى ذلك وجهين : الأوّل أنها بدت فى وجوههم أسرة الندامة ، وهى الانكسار ، واحدها سرار ، وجمعها أسارير ، والثانى ماتقدم ، وقيـل معنى ( أسرّوا الندامة ) أخلصوها ، لأن إخفاءها : إخلاصها ، و (لما) فى قوله ( لما رأوا العذاب ) ظرف بمعنى حين منصوب بأسرّوا ، أو حرف شرط جوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه (وقضى بينهم بالقسط) أى قضى الله بين المؤمنين و بين الكافرين أو بين الرؤساء والأتباع ، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين ، وقيل معنى القضاء بينهم : إنزال العقوبة عليهم ، والقسط : العـدل ، وجملة ( وهم لايظلمون ) فى محل نصب على الحال : أى لايظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذى حل بهم فانه بسبب ما كسبوا ، وجملة (ألا إن لله مافى السموات والأرض) مسوقة لتقرير كمال قدرته لأن من ملك مافى السموات والأرض تصرف به كيف يشاء ، وغلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات ، قيل لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما فى الأرض لو كان لهم ذلك بين أن الأشياء كلها لله ، وليس لهم شىء يتمكنون من الافتداء به ، وقيل لما أقسم على حقية ماجاء به النبى ﷺ أراد أن يصحب ذلك بدليل البرهان البين بأن مافى العالم على اختلاف أنواعه ملكه يتصرف به كيف يشاء ، وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه تنبيه للغافلين ، و إيقاظ للذاهلين ، ثم أكد ماسبق بقوله (ألا إن وعد الله حق) أى كائن لامحالة ، وهو عامّ يندرج فيه مااستعجلوه من العذاب اندراجا أوّليا ، وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا فى التى قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين ( ولـكن أكثر الناس ) أى الكفار (لايعلمون) مافيه صلاحهم فيعملون به ، ومافيه فسادهم فيجتنبونه (هو يحيى ويميت) يهب الحياة و يسلبها (واليه ترجعون) فى الدار الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه ، و يتفضل على من يشاء من عباده ✽ قوله (ياأيها الناس قد جاءتـكم موعظة من ربكم) يعنى القرآن فيه مايتعظ به من قرأه وعرف معناه ، والوعظ فى الأصل : هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب أو الترهيب ، والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضرّه ، ومن فى (من ربكم) متعلقة بالفعل ، وهو جاءتـكم ، فتـكون ابتدائية ، أومتعلقة بمحذوف ، فتـكون تبعيضية (وشفاء لما فى الصدور) من الشكوك التى تعترى بعض المرتابين لوجود مايستفاد منـه فيه من العقائد الحقة ، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة ، والهدى : الارشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيـه إلى الطريق الموصلة إلى الجنة ، والرحمة : هى مايوجـد فى الكتاب العزيز من الأمور التى يرحم الله بها عباده ، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها ، فالقرآن العظيم مشتمل على هـذه الأمور ، ثم أمر رسول الله ﷺ وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم ، فقال (قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا) المراد بالفضل من الله سبحانه : هو تفضله على عباده فى الآجل والعاجل بما لايحيط به الحصر ، والرحمة : رحمتـه لهم . وروى عن ابن عباس أنه قال فضل الله : القرآن ، ورحمتـه : الاسلام ، وروى عن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة أن فضل الله : الايمان ، ورحمته : القرآن ✽ والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم ، ويدخـل فى ذلك مافى القرآن منهما دخولا أوّليا ، وأصـل الـكلام : قل بفضل الله و برحمته

فليفرحوا

X.60062



فليفرحوا ، ثم حذف هـذا الفعل لدلالة الثانى فى قوله (فبذلك فليفرحوا) عليه ، قيـل والفاء فى هذا الفعل المحذوف داخلة فى جواب شرط مقـدر كأنه قيل إن فرحوا بشىء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح ، وتكرير الباء فى برحمته للدلالة على أن كل واحـد من الفضل والرحمة سبب مستقل فى الفرح ، والفرح : هو اللذة فى القلب بسبب إدراك المطلوب ، وقد ذمّ الله سـبحانه الفرح فى مواطن كقوله ـ لاتفرح إن الله لايحبّ الفرحين ـ ، وجوّزه فى قوله ـ فرحين بما آتاهم الله من فضله ـ وكما فى هـذه الآية ، ويجوز أن تتعلق الباء فى بفضل الله وبرحمته بقوله (جاءتكم) ، والتقدير جاءتكم موعظة بفضـل الله وبرحمته فبذلك : أى فبمجيئها فليفرحوا ، وقرأ يزيد بن القعقاع ويعقوب فلتفرحوا بالفوقية ، وقرأ الجمهور بالتحتية ، والضمير فى هو خير راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة ، أو إلى المجىء على الوجـه الثانى ، أو إلى اسم الاشارة فى قوله (فبذلك) * والمعنى : أن هـذا خير لهم مما يجمعونه من حطام الدنيا . وقد قرئ بالتاء الفوقية فى (يجمعون) مطابقة للقراءة بها فى (فلتفرحوا) . وقد تقرّر فى العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب الا فى لغة قليلة جاءت هذه القراءة عليها ، وقرأ الجمهور بالمثناة التحتية فى يجمعون كما قرءوا فى فليفرحوا ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالفوقية فى يجمعون ، والتحتية فى فلتفرحوا .

وقد أخرج الطبرانى وأبو الشيخ عن أبى الأحوص : قال جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال إن أخى يشتكى بطنه ، فوصف له الخمر ، فقال سبحان الله ! ماجعل الله فى رجس شفاء ، انما الشفاء فى شىء من القرآن والعسل فهما شفاء لما فى الصدور وشفاء للناس . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال « إن الله جعل القرآن شفاء لما فى الصدور ، ولم يجعله شفاء لأمراضكم » . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال جاء رجـل الى النبى ﷺ فقال : انى أشتكى صدرى ، فقال « اقرأ القرآن » يقول الله شفاء لما فى الصـدور . وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن واثلة بن الأسقع أن رجلا شكا الى النبى ﷺ وجع حلقه قال « عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما فى الصدور والعسل شفاء من كل داء » . وأخرج أبو داود والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبىّ قال : أقرأنى رسول الله ﷺ بالتاء يعنى الفوقية ، وقد روى نحو هذا من غير هذه الطريق . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ (قل بفضل الله وبرحمته) قال : بفضل الله القرآن ، وبرحمته أن جعلكم من أهله . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن البراء مثله من قوله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : بكتاب الله وبالاسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه قال : فضله الاسلام ، ورحمته القرآن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنـه أيضا قال : بفضل الله القرآن ، وبرحمته حين جعلهم من أهله . وقد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدّمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس هو خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ

مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *

أشار سبحانه بقوله (قل أرأيتم ما أنزل الله) الخ الى طريق أخرى غير ما تقدم فى اثبات النبوة وتقرير ذلك ما حاصله أنكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض فان كان بمجرد التشهى والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم ، وان كان لاعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك الا بطريق موصلة الى الله ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام الامن جهة الرسل الذين أرسلهم الله الى عباده ، ومعنى أرأيتم : أخبرونى ، و (ما) فى محل نصب بأرأيتم المتضمن لمعنى أخبرونى ، وقيل ان ما فى محل الرفع بالابتداء وخبرها آلله أذن لكم ، وقل فى قوله (قل آلله أذن لكم) تكرير للتأكيد والرابط محذوف ، ومجموع المبتدأ والخبر فى محل نصب بأرأيتم ، والمعنى أخبرونى الذى أنزل الله اليكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا آلله أذن لكم فى تحليله وتحريمه (أم على الله تفترون) وعلى الوجهين ، فمن فى منه حراما للتبعيض ، والتقدير فجعلتم بعضه حراما وجعلتم بعضه حلالا ، وذلك كما كانوا يفعلونه فى الأنعام حسبما سبق حكاية ذلك عنهم فى الكتاب العزيز ، ومعنى انزال الرزق : كون المطر ينزل من جهة العلو ، وكذلك يقضى الأمر فى أرزاق العباد فى السماء على ما قد ثبت فى اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه وتعالى لكل شىء فيه ، وروى عن الزجاج أن ما فى موضع نصب بأنزل ، وأنزل بمعنى خلق كما قال ــ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ــ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ــ وعلى هذا القول والقول الأول يكون قوله (قل آلله أذن لكم) مستأنفا ، قيل ويجوز أن تكون الهمزة فى (آلله أذن لكم) للانكار ، وأم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله ، واظهار الاسم الشريف ، وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء * وفى هذه الآية الشريفة ما يصك مسامع المتصدرين للافتاء لعباد الله فى شريعته ، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه ، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ، ولا يفهمونها ولا يدرون ما هى ، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه فى دينهم ، وجعلوه شارعا مستقلا ، ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه ، أو فهمه وأخطأ الصواب فى اجتهاده وترجيحه فهو فى حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد ، مع كون من قلدوه متعبدا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوما عليه بأحكامها كما هو محكوم عليهم بها ، وقد اجتهد رأيه وأدى ما عليه ، وفاز بأجرين مع الاصابة وأجر مع الخطأ ، انما الشأن فى جعلهم لرأيه الذى أخطأ فيه شريعة مستقلة ، ودليلا معمولا به . وقد أخطئوا فى هذا خطأ بينا ، وغلطوا غلطا فاحشا ، فان الترخيص للمجتهد فى اجتهاد رأيه يخصه وحده ، ولا قائل من أهل الاسلام المعتد بأقوالهم انه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدا له ، واقتداء به ، وما جاء به المقلدة فى تقويم هذا الباطل ، فهو من الجهل العاطل : اللهم كما رزقتنا من العلم ما نميز به بين الحق والباطل ، فارزقنا من الانصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير ، ثم قال (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أى أى شىء ظنهم فى هذا اليوم ، وما يصنع بهم فيه ، وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذى أمر الله رسوله ﷺ أن يقوله لهم بل مبتدأة مسوقة

لبيان

لبيان ماسيحل بهم من عذاب الله ، ويوم القيامة منصوب بالظن ، وذكر الكذب بعد الافتراء ، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لزيادة التأكيد ، وقرأ عيسى بن عمر وماظن على أنه فعل (إن الله لذو فضل على الناس) يتفضل عليهم بأنواع النعم فى الدنيا والآخرة (ولكن أكثرهم لايشكرون) الله على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه فى كل وقت من الأوقات ، وطرفة من الطرفات * قوله (وما تكون فى شأن) الخطاب لرسول الله ﷺ ، وما نافية ، والشأن : الأمر بمعنى القصد ، وأصله الهمز ، وجمعه شؤون . قال الأخفش تقول العرب : ماشأنت شأنه : أى ماعملت عمله (وما تتلوا منه من قرآن) . قال الفراء والزجاج الضمير فى منه يعود على الشأن ، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف : أى تلاوة كائنة منه ، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه ﷺ ، والمعنى أنه يتلو من أجل الشأن الذى حدث القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو يتلو القرآن الذى ينزل فى ذلك الشأن . وقال ابن جرير الطبرى الضمير عائد فى منه الى الكتاب : أى ما يكون من كتاب الله من قرآن ، وأعاده تفخيما له كقوله — انى أنا الله — ، والخطاب فى (ولا تعملون من عمل) لرسول الله وللأمة ، وقيل الخطاب لكفار قريش (الا كنا عليكم شهودا) استثناء مفرغ من أعم الأحوال للمخاطبين : أى شهودا عليكم بعمله منكم ، والضمير فى فيه من قوله (تفيضون فيه) عائد على العمل ، يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل : اذا اندفع فيه . وقال الضحاك الضمير فى فيه عائد على القرآن * والمعنى اذ تشيعون فى القرآن الكذب * قوله (ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) قرأ الكسائى يعزب بكسر الزاى ، وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان فصيحتان * ومعنى يعزب : يغيب ، وقيل يبعد . وقال ابن كيسان يذهب ، وهذه المعانى متقاربة ، ومن فى (من مثقال) زائدة للتأكيد : أى ومايغيب عن ربك وزن ذرة : أى نملة حمراء ، وعبر بالأرض والسماء مع أنه سبحانه لايغيب عنه شىء لافيهما ولافيما هو خارج عنهما لأن الناس لايشاهدون سواهما وسوى مافيهما من المخلوقات ، وقدم الأرض على السماء لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون مافيها من قرب ، والواو فى (ولاأصغر من ذلك ولاأكبر) للعطف على لفظ مثقال ، وانتصبا لكونهما ممتنعين ، ويجوز أن يكون العطف على ذرة ، وقيل انتصابهما بلا التى لنفى الجنس ، والواو للاستئناف ، وليس من متعلقات وما يعزب ، وخبر لا (إلا فى كتاب) * والمعنى ولا أصغر من مثقال الذرة ولا أكبر منه الا وهو فى كتاب مبين فكيف يغيب عنه ؟ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر ، ووجه ذلك أنه معطوف على محل من مثقال ، ومحله الرفع ، وقد أورد على توجيه النصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحله ، أو على لفظ ذرة اشكال ، وهو أنه يصير تقدير الآية لايعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء إلا فى كتاب ، ويلزم منه أن يكون ذلك الشىء الذى فى الكتاب خارجا عن علم الله وهو محال ، وقد أجيب عن هذا الاشكال بأن الأشياء المخلوقة قسمان : قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والأرض ، وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد ، ولا شك أن هذا القسم الثانى متباعد فى سلسلة العلية عن مرتبة الأول ، فالمراد من الآية أنه لايبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شىء فى الأرض ولا فى السماء إلا وهو فى كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات ، والغرض : الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات ، وأجيب أيضا بأن الاستثناء منقطع : أى لكن هو فى كتاب مبين ، وذكر أبو على الجرجانى أن إلا بمعنى الواو على أن الكلام قد تم عند قوله (ولا أكبر) ، ثم وقع الابتداء بقوله (إلا فى كتاب مبين) أى وهو أيضا فى كتاب مبين . والعرب قد تضع إلا موضع الواو ، ومنه قوله تعالى — إنى لايخاف لدى المرسلون إلا من ظلم — يعنى ومن ظلم * وقوله — لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا — أى والذين ظلموا ، وقدر هو بعد

الولو التى جاءت الا بمعناها كما فى قوله ــ وقولوا حطة ــ أى هى حطة ، ومثله ــ ولا تقولوا ثلاثة ــ ــ وماتسقط من ورقة الايعلمها ولا فى حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ــ . وقال الزجاج ان الرفع على الابتداء فى قراءة من قرأ بالرفع ، وخبره (الا فى كتاب) واختاره صاحب الكشاف ، واختار فى قراءة النصب التى قرأ بها الجمهور أنهما منصوبان بلا التى لنفى الجنس ، واستشكل العطف بنحو ماقدّمنا ، ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء ، وكان فى ذلك تقوية لقلوب المطيعين وكسر لقلوب العاصين : ذكر حال المطيعين ، فقال (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) الولىّ فى اللغة : القريب * والمراد بأولياء الله : خلص المؤمنين كأنهم قرّبوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته . وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله (الذين آمنوا وكانوا يتقون) أى يؤمنون بما يجب الايمان به ، و يتقون مايجب عليهم اتقاؤه من معاصى الله سبحانه ، والمراد بنفى الخوف عنهم أنهم لايخافون أبدا كما يخاف غيرهم ، لأنهم قدقاموا بما أوجب الله عليهم ، وانتهوا عن المعاصى التى نهاهم عنها ، فهم على ثقة من أنفسهم ، وحسن ظنّ بربهم ، وكذلك لايحزنون على فوت مطلب من المطالب ، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره فيسلمون للقضاء والقدر ، ويريحون قلوبهم عن الهمّ والكدر ، فصدورهم منشرحة وجوارحهم نشطة ، وقلوبهم مسرورة ، ومحل الموصول النصب على أنه بدل من أولياء أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أوهومبتدأ وخبره لهم البشرى ، فيكون غيرمتصل بما قبله ، أوالنصب أيضا على المدح أو على أنه وصف لأولياء * قوله (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) تفسير لمعنى كونهم أولياء الله أى لهم البشرى من الله ماداموا فى الحياة بما يوحيه الى أنبيائه ، وينزله فى كتبه ، من كون حال المؤمنين عنده هو ادخالهم الجنة ورضوانه عنهم ، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين فى القرآن الكريم ، وكذلك مايحصل لهم من الرؤيا الصالحة ، وما يتفضل الله به عليهم من إجابة دعائهم ، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم ، لاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ، وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب ، والبشرى مصدرأريدبه المبشربه ، والظرفان فى محل نصب على الحال : أى حال كونهم فى الدنيا وحال كونهم فى الآخرة ، ومعنى (لاتبديل لكلمات الله) لاتغير لأقواله على العموم فيدخل فيها ماوعد به عباده الصالحين دخولا أوّليا ، والاشارة بقوله (ذلك) الى المذكورقبله من كونهم مبشرين بالبشارتين فى الدارين (هوالفوزالعظيم) الذى لايقادرقدره ولايماثله غيره ، والجملتان : أعنى (لاتبديل لكلمات الله (و) ذلك هو الفوز العظيم) اعتراض فى آخر الكلام عندمن يجوّزه ، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه ، أوالأولى اعتراضية ، والثانية تذييلية

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق) قال : هم أهل الشرك كانوا يحلون من الأنعام والحرث ماشاءوا ويحرّمون ماشاءوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (إذ تفيضون فيه) قال إذ تفعلون . وأخرج الفريابى وابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (وما يعزب عن ربك) قال لايغيب عنه وزن ذرّة (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) قال هو الكتاب الذى عندالله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (ألا إن أولياء الله) قيل من هم يارب ؟ قال : هم الذين آمنوا وكانوايتقون . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : هم الذين اذا رؤوا ذكر الله . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعا وموقوفا قال هم الذين اذا رؤوا يذكر الله لرؤيتهم . وأخرج عنه ابن المبارك والحكيم الترمذى فى نوادر

الأصول والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه مرفوعا مثله . وأخرجه ابن المبارك وابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير مرفوعا وهو مرسل . وروى نحوه من طرق أخرى مرفوعا وموقوفا . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبى ﷺ يقول لايحق العبد حق صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض لله ، فاذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاء من الله ، وان أوليائى من عبادى ، وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم . وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبى ﷺ : خيار عباد الله الذين اذا رؤوا ذكر الله ، وشرار عباده المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة الباغون البرآء العنت . وأخرج الحكيم الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « خياركم من ذكركم الله رؤيته ، وزاد فى علمكم منطقه ، ورغبكم فى الآخرة عمله » . وأخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر مرفوعا : ان لله عبادا ليسوا بالأنبياء ولاشهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه ، فجثا أعرابى على ركبتيه ، فقال يارسول الله صفهم لنا حلهم لنا ؟ قال قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل تصافوا فى الله وتحابوا فى الله يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم يخاف الناس ولايخافون ، هم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الايمان عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه ، قال ابن كثير واسناده جيد . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله (ألا إن أولياء الله) الآية فقال : الذين يتحابون فى الله . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا مثله . وقد ورد فى فضل المتحابين فى الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه والحكيم فى نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال : سألت أبا الدرداء عن معنى قوله (لهم البشرى فى الحياة الدنيا) فقال ماسألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال : ماسألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت علىّ هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو ترى له ، فهى بشراه فى الحياة الدنيا ، وبشراه فى الآخرة الجنة ، وفى إسناده هذا الرجل المجهول . وأخرج أبو داود الطيالسى وأحمد والدارمى والترمذى وابن ماجه والحكيم الترمذى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله (لهم البشرى فى الحياة الدنيا) قال : هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له . وأخرج أحمد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن عبدالله بن عمرو عن رسول الله ﷺ فى قوله ( لهم البشرى فى الحياة الدنيا ) قال : الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها الحديث . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى الآية قال : هى فى الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له ، وفى الآخرة الجنة . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده من طريق أبى جعفر عن جابر أن رسول الله ﷺ فسر البشرى فى الحياة الدنيا بالرؤيا الحسنة ، وفى الآخرة بشارة المؤمن عند الموت ان الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك . وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا مثل حديث جابر . وأخرج ابن مردويه

عن ابن مسعود مرفوعا الشطر الأوّل من حديث جابر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن ابن عباس مثله ، وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات وأنها جزء من أجزاء النبوّة ، ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية ، وقد روى أن المراد بالبشرى فى الآية هى قوله ـ و بشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ـ أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عنه من طريق مقسم أنها قوله ـ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ . وأخرج ابن جرير والحاكم والبيهقى عن نافع قال خطب الحجاج فقال : ان ابن الزبير بدّل كتاب الله فقال ابن عمر لاتستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير لاتبديل لكلمات الله .

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِن سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ *

قوله (ولايحزنك قولهم) نهى للنبى ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح فى دينه ، والمقصود التسلية له والتبشير ، ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسوله ﷺ معللا لما ذكره من النهى لرسوله ﷺ فقال (ان العزة لله جميعا) أى الغلبة والقهر له فى مملكته وسلطانه ليست لأحد من عباده ، واذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لايملكون من الغلبة شيئا . وقرئ يحزنك من أحزنه . وقرئ أن العزة بفتح الهمزة على معنى ، لأن العزة لله ، ولا ينافى مافى هذه الآية من جعل العزة جميعها لله تعالى قوله سبحانه ـ فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين ـ لأن كل عزة بالله فهى كلها لله ، ومنه قوله ـ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى ـ انا لننصر رسلنا ـ (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الأرض) ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبى ﷺ ، واذا كانوا فى ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء ، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله ﷺ بما لا يأذن الله به ، وغلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف ، وفى الآية نعى على عباد البشر والملائكة والجمادات ، لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك ، وذلك مخالف لما يوجبه العقل ، ولهذا عقبه بقوله (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) والمعنى أنهم وان سموا معبوداتهم شركاء لله فليست شركاء له على الحقيقة ، لأن ذلك محال ـ لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ـ وما فى ومايتبع نافية وشركاء مفعول يتبع ، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفا ، والأصل ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة : انما هى أسماء لامسميات لها ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون ، وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى أىّ شىء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، ويكون على هذا الوجه شركاء منصوبا بيدعون ، والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم والازراء عليهم ويجوز أن تكون ماموصولة معطوفة على من فى السموات : أى لله من فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع

الذين يدعون من دون الله شركاء ، والمعنى أن الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من فى السموات ومن فى الأرض ، ثم زاد سبحانه فى تأكيد الردّ عليهم والدفع لأقوالهم ، فقال (ان يتبعون الا الظنّ) أى مايتبعون يقينا : انما يتبعون ظنا ، والظنّ لايغنى من الحق شيئا (ان هم الا يخرصون) أى يقدرون أنهم شركاء تقديرا باطلا وكذبا بحتا ، وقد تقدمت هذه الآية فى الأنعام ، ثم ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه ، فقال (هو الذى جعل الليل لكم لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى جعل لعباده الزمان منقسما الى قسمين ، أحدهما مظلم : وهو الليل ، لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكدّ والكسب ، والآخر مبصر لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم ، وتوفير معايشهم ، ويحصلون مايحتاجون اليه فى وقت مضىء منير ، لايخفى عليهم فيه كبير ولا حقير ، وجعله سبحانه للنهار مبصرا مجاز ٭ والمعنى أنه مبصر صاحبه كقولهم : نهاره صائم ، والاشارة بقوله (ان فى ذلك) الى الجعل المذكور (لآيات) عجيبة كثيرة (لقوم يسمعون) أى يسمعون مايتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه هاهنا منها ومن غيرها مما لم يذكره ، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون ، فيكون ذلك من أعظم أسباب الايمان ٭ قوله (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنىّ) هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التى كانوا يتكلمون بها ، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولدا ، فردّ ذلك عليهم بقوله (سبحانه هو الغنىّ) فتنزه جلّ وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين ، وبين أنه غنىّ عن ذلك وأن الولد إنما يطلب للحاجة ، والغنىّ المطلق لاحاجة له حتى يكون له ولد يقضيها ، واذا انتفت الحاجة انتفى الولد ، وأيضا انما يحتاج الى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه ، والأزلىّ القديم لايفتقر الى ذلك . وقد تقدم تفسير الآية فى البقرة ، ثم بالغ فى الردّ عليهم بما هو كالبرهان ، فقال (له مافى السموات وما فى الأرض) ، واذا كان الكل له وفى ملكه فلا يصح أن يكون شىء مما فيهما ولدا له للمنافاة بين الملك والبنوّة والأبوّة ، ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا دليل ، فقال (ان عندكم من سلطان بهذا) أى ماعندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذى تقولونه ، ومن فى (من سلطان) زائدة للتأكيد ، والجار والمجرور فى (بهذا) متعلق إما بسلطان ، لأنه بمعنى الحجة والبرهان ، أو متعلق بما عندكم لما فيه من معنى الاستقرار ، ثم وبخهم على هذا القول العاطل ، عن الدليل الباطل ، عند العقلاء ، فقال (أتقولون على الله مالا تعلمون) ، ويستفاد من هذا أن كل قول لادليل عليه ليس هو من العلم فى شىء ، بل من الجهل المحض ، ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم قولا يدلّ على أن ماقالوه كذب ، وأن من كذب على الله لايفلح ، فقال (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون) أى كل مفتر هذا شأنه ، ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا . وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق فى مواضع من الكتاب العزيز ٭ والمعنى أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لايفوزون بمطلب من المطالب ، ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بشىء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل فى الدنيا ، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله ، فيعذب المفترى عذابا مؤبدا ، فيكون متاع خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة لبيان أن مايحصل للمفترى بافترائه ليس بفائدة يعتدّ بها ، بل هو متاع يسير فى الدنيا يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على الله . وقال الأخفش ان التقدير لهم متاع فى الدنيا ، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر . وقال الكسائى التقدير ذلك متاع أو هو متاع ، فيكون المحذوف على هذا هو المبتدأ .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى (ولايحزنك) لما لم ينتفعوا بما جاءهم من

٣.٦٦-٦٥



الله وأقاموا على كفرهم كبر ذلك على رسول الله ﷺ فجاءه من الله نبأ يعاتبه (ولا يحزنك قولهم إن العزّة لله جميعا هو السميع العليم) يسمع مايقولون ويعلمه ، فلو شاء بعزّته لانتصر منهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله (والنهار مبصرا) قال منيرا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله (إن عندكم من سلطان بهذا) يقول ماعندكم سلطان بهذا .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ *

لما بالغ سبحانه فى تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبه المنهارة شرع فى ذكر قصص الأنبياء لما فى ذلك من التسلية لرسول الله ﷺ ، فقال (واتل عليهم) أى على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة (نبأ نوح) أى خبره ، والنبأ هو الخبر الذى له خطر وشأن ، والمراد : ماجرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش وأمثالهم (إذ قال لقومه) أى وقت قال لقومه والظرف منصوب بنبأ أو بدل منه بدل اشتمال ، واللام فى (لقومه) لام التبليغ (ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى) أى عظم وثقل ، والمقام بفتح الميم : الموضع الذى يقام فيه ، وبالضم الاقامة وقد اتفق القراء على الفتح ، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان : أى لأجله ، ومنه ــ ولمن خاف مقام ربه ــ أى خاف ربه ، ويجوز أن يراد بالمقام المكث : أى شقّ عليكم مكثى بين أظهركم ، ويجوز أن يراد بالمقام القيام ، لأن الواعظ يقوم حال وعظه * والمعنى : إن كان كبر عليكم قيامى بالوعظ فى مواطن اجتماعكم ، وكبر عليكم تذكيرى لكم (بآيات الله) التكوينية والتنزيلية (فعلى الله توكلت) هذه الجملة جواب الشرط * والمعنى إنى لاأقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله ، فإن ذلك دأبى الذى أنا عليه قديما وحديثا . ويجوز أن يريد احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل ، ويجوز أن يكون جواب الشرط (فأجمعوا) وجملة (فعلى الله توكلت) اعتراض كقولك : ان كنت أنكرت علىّ شيئا فالله حسبى * ومعنى (فأجمعوا أمركم) اعتزموا عليه ، من أجمع الأمر : اذا نواه وعزم عليه : قاله الفراء ، وروى عن الفراء أنه قال أجمع الشيء : أعدّه . وقال مؤرج السدوسى أجمع الأمر أفصح من أجمع عليه ، وأنشد :

يا ليت شعرى والمنى لاتنفع * هل أغدون يوما وأمرى مجمع

وقال أبو الهيثم أجمع أمره : جعله جميعا بعد ما كان متفرقا ، وتفرقه أن تقول مرّة أفعل كذا ، ومرّة أفعل كذا ، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه : أى جعله جميعا ، فهذا هو الأصل فى الاجماع ، ثم صار بمعنى العزم ، وقد اتفق جمهور القراء على نصب شركاءكم ، وقطع الهمزة من أجمعوا ، وقرأ يعقوب وعاصم الجحدرى بهمزة وصل فى أجمعوا على أنه من جمع يجمع جمعا ، وقرأ الحسن وابن أبى اسحق ويعقوب وشركاؤكم بالرفع . قال النحاس ، وفى نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه : الأول بمعنى وادعوا شركاءكم ،

قاله الكسائي والفراء : أى ادعوهم لنصرتكم ، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر . وقال محمد بن يزيد المبرد هو معطوف على المعنى كما قال الشاعر :

يا ليت زوجك فى الوغى * متقلدا سيفا ورمحا

والرمح لايتقلد به ، لكنه محمول كالسيف . وقال الزجاج : المعنى مع شركائكم ، فالواو على هذا واو مع ، وأما على قراءة اجمعوا بهمزة وصل فالعطف ظاهر : أى اجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم . وأما توجيه قراءة الرفع ، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع فى أجمعوا ، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر فى ذلك أن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره ، وهذه القراءة بعيدة لأنه لو كان شركاؤكم مرفوعا لرسم فى المصحف بالواو ، وليس ذلك موجودا فيه . قال المهدوى : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء ، والخبر محذوف : أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم ، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لاتعقل لقصد التوبيخ والتقريع لمن عبدها ، وروى عن أبىّ أنه قرأ : وادعوا شركاءكم باظهار الفعل * قوله (ثم لايكن أمركم عليكم غمة) الغمة : التغطية من قولهم ، غمّ الهلال : إذا استتر : أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا . قال طرفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغمة * نهارى ولا ليلى علىّ بسرمد

هكذا قال الزجاج . وقال الهيثم معناه : لايكن أمركم عليكم مبهما ، وقيل ان الغمة : ضيق الأمر كذا روى عن أبى عبيدة * والمعنى لايكن أمركم عليكم بمصاحبتى والمجاملة لى ضيقا شديدا ، بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بمباشتم وقد رتم عليه ، وعلى الوجهين الأولين يكون المراد بالأمر الثانى هو الأمر الأول ، وعلى الثالث يكون المراد به غيره * قوله (ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون) أى ذلك الأمر الذى تريدونه بى ، وأصل اقضوا من القضاء ، وهو الاحكام * والمعنى : أحكموا ذلك الأمر . قال الأخفش والكسائى هو مثل ـ وقضينا اليه ذلك الأمر ـ أى أنهيناه اليه ، وأبلغناه اياه ، ثم لاتنظرون : أى لاتمهلون ، بل عجلوا أمركم واصنعوا مابدالكم ، وقيل معناه : ثم امضوا الىّ ولا تؤخرون . قال النحاس هذا قول صحيح فى اللغة ، ومنه قضى الميت : مضى . وحكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ ثم أفضوا بالفاء وقطع الهمزة : أى توجهوا ، وفى هذا الكلام من نوح عليه السلام مايدلّ على وثوقه بنصر ربه وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه ، ثم بين لهم أن كل ماأتى به اليهم من الاعذار والانذار وتبليغ الشريعة عن الله ليس هو لطمع دنيوىّ ، ولا لغرض خسيس ، فقال (فان توليتم فما سألتكم من أجر) أى ان أعرضتم عن العمل بنصحى لكم وتذكيرى إياكم ، فما سألتكم فى مقابلة ذلك من أجر تؤدّونه الىّ حتى تتهمونى فيما جئت به ، والفاء فى (فان توليتم) لترتيب مابعدها على ماقبلها والفاء فى (فما سألتكم) جزائية (ان أجرى الا على الله) أى ماثوابى فى النصح والتذكير الا عليه سبحانه فهو يثيبنى آمنتم أو توليتم ، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص بتحريك الياء من أجرى وقرأ الباقون بالسكون (وأمرت أن أكون من المسلمين) المنقادين لحكم الله الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه لايأخذون عليها أجرا ولا يطمعون فى عاجل * قوله (فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك) أى استمروا على تكذيبه وأصرّوا على ذلك ، وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن ، والمراد بمن معه من قد أجابه وصار على دينه ، والخلائف جمع خليفة * والمعنى أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التى كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به أغرقهم الله بالطوفان (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) فيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد للمشركين وتهويل

Z.76-57



عليهم (ثم بعثنا من بعده) أى من بعد نوح (رسلا) كهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب (فجاءوهم بالبينات) أى بالمعجزات و بما أرسلهم الله به من الشرائع التى شرعها الله لقوم كل نبىّ (فما كانوا ليؤمنوا) أى فما أحدثوا الايمان بل استمروا على الكفر وأصرّوا عليه * والمعنى: أنه ماصح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل الله اليهم رسله أن يؤمنوا فى وقت من الأوقات (بما كذبوا به من قبل) أى من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجىء الرسل اليهم * والمعنى: أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل الله اليهم الرسول المبعوث اليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه اليهم لأنهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين، ولو كانوا مؤمنين لم يبعث اليهم رسولا، وهذا مبنىّ على أن الضمير فى (فما كانوا ليؤمنوا) وفى (بما كذبوا) راجع الى القوم المذكورين فى قوله (الى قومهم) وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح: أى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتى هؤلاء الأقوام الذين جاءوا من بعدهم (وجاءتهم رسلهم بالبينات) وقيل ان الباء فى بما كذبوا به من قبل للسببية: أى فما كانوا ليؤمنوا عند مجىء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم، وفيه نظر، وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل: أى فى عالم الذرّ فان فيهم من كذب بقلبه، وان آمنوا ظاهرا. قال النحاس ومن أحسن ماقيل انه لقوم بأعيانهم (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) أى مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحدّ المعهود فى الكفر. وقد تقدّم تفسير هذا فى غير موضع.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الأعرج فى قوله (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) يقول فأحكموا أمركم وادعوا شركاءكم. وأخرج أيضا عن الحسن فى الآية: أى فليجمعوا أمرهم معكم. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ثم لايكن أمركم عليكم غمة) قال لايكبر عليكم أمركم (ثم اقضوا) ما أنتم قاضون. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ثم اقضوا) قال انهضوا (الىّ ولاتنظرون) يقول ولاتؤخرون.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَٰتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّٰحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *

قوله (ثم بعثنا من بعدهم) معطوف على قوله (ثم بعثنا من بعده رسلا) والضمير فى من بعدهم راجع الى الرسل المتقدّم ذكرهم ، وخصّ موسى وهرون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما وخطر شأن ماجرى بينهما و بين فرعون ، والمراد بالملا الأشراف ، والمراد بالآيات المعجزات ، وهى التسع المذكورة فى الكتاب العزيز (فاستكبروا) عن قبولها ولم يتواضعوا لها و يذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق من جاء بها (وكانوا قوما مجرمين) أى كانوا ذوى اجرام عظام وآثام كبيرة ، فبسبب ذلك اجترءوا على ردّها ، لأن الذنوب تحول بين صاحبها و بين إدراك الحق وابصار الصواب ، قيل وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ماقبلها * قوله (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذ لسحر مبين) أى فلما جاء فرعون وملأه الحق من عند الله وهو المعجزات لم يؤمنوا بها بل حملوها على السحر مكابرة منهم ، فردّ عليهم موسى قائلا (أتقولون للحقّ لما جاءكم أسحر هذا) قيل فى الكلام حذف ، والتقدير أتقولون للحقّ سحر فلا تقولوا ذلك ، ثم استأنف انكارا آخر من جهة نفسه فقال (أسحر هذا) فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثانى ، والملجئ إلى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكى ماقالوه بقوله (أسحر هذا) بل هم قاطعون بأنه سحر ، لأنهم قالوا (إن هذا لسحر مبين) فحينئذ لا يكون قوله (أسحر هذا) من قولهم وقال الأخفش هو من قولهم ، وفيه نظر لما قدّمنا ، وقيل معنى (أتقولون) أتعيبون الحقّ وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له ، ثم قال أسحر هذا منكرا لما قالوه ، وقيل ان مفعول (أتقولون) محذوف ، وهو مادل عليه قولهم (ان هذا لسحر) والتقدير أتقولون ماتقولون : يعنى قولهم ان هـذا لسحر مبين ثم قيل أسحر هذا ، وعلى هذا التقدير ، والتقدير الأوّل فتكون جملة (أسحر هذا) مستأنفة من جهة موسى عليه السلام ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعـد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل ماذا قال لهم موسى لما قالوا ان هذا لسحر مبين ؟ فقيل قال أتقولون للحق لما جاءكم على طريقة الاستفهام الانكارى * والمعنى أتقولون للحق لما جاءكم انّ هذا لسحر مبين ، وهو أبعد شىء من السحر ، ثم أنكر عليهم وقرّعهم ووبخهم فقال (أسحر هذا) فجاء موسى عليه السلام بانكار بعد انكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل ، وجملة (ولايفلح الساحرون) فى محل نصب على الحال : أى أتقولون للحق انه سحر ، والحال أنه لايفلح الساحرون فلا يظفرون بمطلوب ولايفوزون بخير ولاينجون من مكروه فكيف يقع فى هـذا من هو مرسل من عند الله ، وقد أيده بالمعجزات والبراهين الواضحة ، وجملة (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا قالوا بعـد أن قال لهم موسى ماقال ، وفى هذا يدلّ على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن ابراز الحجة ، ولم يجدوا مايجيبون به عما أورده عليهم بل لجئوا إلى مايلجأ إليـه أهل الجهل والبلادة ، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر وضموا الى ذلك ماهو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة ، وهو الرياسة الدنيوية التى خافوا عليها وظنوا أنها ستذهب عنهم ان آمنوا ، وكم بقى على الباطل ، وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم فى سابق الدهر ولاحقه ، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ، ومنهم من حبسه عن الخروج الى السنة من البدعة ، والى الرواية الصحيحة من الرأى البحت ، يقال لفته لفتا اذا صرفه عن الشىء ولواه عنه ، ومنه قول الشاعر :

تلفت نحو الحىّ حتى رأيتنى * وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

أى تريد أن تصرفنا عن الشىء الذى وجـدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، والمراد بالكبرياء الملك قال الزجاج : سمى الملك كبرياء ، لأنه أكبر مايطلب من أمر الدنيا ، وقيل سمى بذلك لأن الملك يتكبر

والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين : التمسك بالتقليد للآباء ، والحرص على الرياسة الدنيوية ، لأنهم اذا أجابوا النبي وصدّقوه صارت مقاليد أمر أمته اليه ولم يبق للملك رئاسة تامة ، لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات ، ثم قالوا (وما نحن لكما بمؤمنين) تصريحا منهم بالتكذيب وقطعا للطمع في إيمانهم ، وقد أفردوا الخطاب لموسى في قولهم : أجئتنا لتلفتنا ، ثم جمعوا بينه وبين هرون في الخطاب في قولهم (وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) ووجه ذلك أنهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم الى موسى ، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ماشرعه لهم ، وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين ، لأن الكبرياء شامل لهما في زعمهم ولكون ترك الايمان بموسى يستلزم ترك الايمان بهرون ، وقد مرّت القصة في الأعراف * قوله (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم) قال هكذا لما رأى اليد البيضاء والعصا ، لأنه اعتقد أنهما من السحر ، فأمر قومه بأن يأتوه بكل سحار عليم هكذا قرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش سحار . وقرأ الباقون ساحر . وقد تقدم الكلام على هذا في الأعراف ، والسحار صيغة مبالغة : أي كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه (فلما جاء السحرة) في الكلام حذف ، والتقدير هكذا وقال فرعون ائتوني بكل سحار عليم فأتوا بهم اليه ، فلما جاء السحرة ، فتكون الفاء للعطف على المقدّر المحذوف * قوله (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) أي قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له : إما أن تلقي ، وإما أن نكون نحن الملقون : أي اطرحوا على الأرض مامعكم من حبالكم وعصيكم (فلما ألقوا) ما ألقوه من ذلك (قال) لهم (موسى ماجئتم به السحر) أي الذي جئتم به السحر على أن ما موصولة مبتدأ والخبر السحر ، والمعنى انه سحر ، لا أنه آية من آيات الله ، وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم ، وتكون ما شرطية ، والشرط جئتم ، والجزاء ان الله سيبطله على تقدير الفاء : أي فان الله سيبطله ، وقيل ان السحر منتصب على المصدر : أي ماجئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام فلا يحتاج على هذا الى حذف الفاء ، واختاره النحاس . وقال حذف الفاء في المجازاة لايجيزه كثير من النحويين إلا في ضرورة الشعر . وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر آلسحر على أن الهمزة للاستفهام ، والتقدير أهو السحر فتكون ما على هذه القراءة استفهامية . وقرأ أبيّ ماأتيتم به سحر ان الله سيبطله : أي سيمحقه فيصير باطلا بما يظهره على يديّ من الآيات المعجزة (ان الله لايصلح عمل المفسدين) أي عمل هذا الجنس فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد ويدخل فيه السحر والسحرة دخولا أوّليا ، والواو في (ويحق الله الحق) للعطف على سيبطله : أي يبينه ويوضحه (بكلماته) التي أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين (ولو كره المجرمون) من آل فرعون أو المجرمون على العموم ويدخل تحتهم آل فرعون دخولا أوّليا ، والاجرام الآثام * قوله (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) الضمير يرجع إلى موسى : أي من قوم موسى ، وهم طائفة من ذراري بني اسرائيل . وقيل المراد طائفة من ذراري فرعون فيكون الضمير عائدا على فرعون ، قيل ومنهم مؤمن آل فرعون وامرأته وماشطة ابنته وامرأة خازنه ، وقيل هم قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني اسرائيل ، روى هذا عن الفراء (على خوف من فرعون وملائهم) الضمير لفرعون وجمع لأنه لما كان جبارا جمعوا ضميره تعظيما له ، وقيل ان قوم فرعون سموا بفرعون مثل ثمود ، فرجع الضمير اليهم بهذا الاعتبار ، وقيل انه عائد على مضاف محذوف ، والتقدير على خوف من آل فرعون ، وروى هذا عن الفراء ، ومنع ذلك الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما قامت هند وأنت تريد غلامها ، وروى عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية ، وقوّاه النحاس (أن يفتنهم) أي يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم ، وهو بدل اشتمال ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بالمصدر

(وان)

(وانّ فرعون لعال فى الأرض) أى عات متكبر متغلب على أرض مصر (وانه لمن المسرفين) المجاوزين للحدّ فى الكفر وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات * قوله (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) قيل : ان هـذا من باب التكرير للشرط ، فشرط فى التوكل على الله الايمان به والاسلام : أى الاستسلام لقضائه وقدره ، وقيل ان هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالايمان هو وجوب التوكل ، والمشروط بالاسلام وجوده ، والمعنى أن يسلموا أنفسهم لله : أى يجعلوها له سالمة خالصة لاحظ للشيطان فيها لأن التوكل لا يكون مع التخليط . قال فى الكشاف ونظيره فى الكلام ان ضربك زيد فاضربه ان كانت لك به قوة (فقالوا) أى قوم موسى مجيبين له (على الله توكلنا) ثم دعوا الله مخلصين فقالوا (ربنا لاتجعلنا فتنة) أى موضع فتنة (للقوم الظالمين) والمعنى لاتسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا أو لاتجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا فيقولون لهم لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم ، وعلى المعنى الأوّل تكون الفتنة بمعنى المفتون ، ولما قدموا التضرع الى الله سبحانه فى أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) وفى هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم * قوله (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوّآ لقومكما بمصر بيوتا) أن هى المفسرة لأن فى الايحاء معنى القول أن تبوّآ : أى اتخذا لقومكما بمصر بيوتا ، يقال بوّأت زيدا مكانا و بوّأت لزيد مكانا ، والمبوأ : المنزل الملزوم ، ومنه بوّأه الله منزلا : أى ألزمه اياه وأسكنه فيه ، ومنه الحديث «من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار» ومنه قول الراجز .

نحن بنو عدنان ليس شك * تبوّأ المجد بنا والملك

قيل ومصر فى هذه الآية هى الاسكندرية ، وقيل هى مصر المعروفة ، لا الاسكندرية (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى متوجهة الى جهة القبلة ، قيل والمراد بالبيوت هنا المساجد ، واليه ذهب جماعة من السلف ، وقيل المراد البيوت التى يسكنون فيها ، أمروا بأن يجعلوها متقابلة ، والمراد بالقبلة على القول الأوّل هى جهة بيت المقدس ، وهو قبلة اليهود الى اليوم ، وقيل جهة الكعبة : وأنها كانت قبلة موسى ومن معه ، وقيل المراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرا لئلا يصيبهم من الكفار معرّة بسبب الصلاة ، ومما يؤيد هذا قوله (وأقيموا الصلاة) أى التى أمركم الله باقامتها فانه يفيد أن القبلة هى قبلة الصلاة اما فى المساجد أو فى البيوت لاجعل البيوت متقابلة ، وانما جعل الخطاب فى أوّل الكلام مع موسى وهرون ، ثم جعله لهما ولقومهما فى قوله (واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة) ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك ، فقال (وبشر المؤمنين) لأن اختيار المكان مفوّض الى الأنبياء ، ثم جعل عاما فى استقبال القبلة واقامة الصلاة لأن ذلك واجب على الجميع لايختص بالأنبياء ، ثم جعل خاصا بموسى ، لأنه الأصل فى الرسالة وهرون تابع له ، فكان ذلك تعظيما للبشارة وللمبشر بها ، وقيل ان الخطاب فى و بشر المؤمنين لنبينا محمد ﷺ على طريقة الالتفات والاعتراض ، والأوّل أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (لتلفتنا) قال : لتلوينا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى قال : لتصدّنا عن آلهتنا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض) قال العظمة والملك والسلطان . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (فما آمن لموسى الاذرية) قال الذرية القليل . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله (ذرية من قومه) قال من بنى اسرائيل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هم أولاد الذين أرسل اليهم موسى من طول الزمان ومات

آباؤهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال كانت الذرية التى آمنت لموسى من أناس غير بنى اسرائيل من قوم فرعون منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه . وأخرج عبدالرزاق وسعيد بن منصور ونعيم بن حماد فى الفتن وأبوالشيخ عن مجاهد فى قوله (ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين) قال لاتسلطهم علينا فيفتنونا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عنه قال فى تفسير الآية لاتعذبنا بأيدى قوم فرعون ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون لو كانوا على الحق ماعذبوا ولاسلطنا عليهم فيفتنون بنا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبى قلابة فى الآية قال سأل ربه أن لايظهر علينا عدونا فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنون بذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مجلز نحوه . وأخرج أبوالشيخ عن قتادة فى قوله (وأوحينا الى موسى وأخيه) الآية . قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة فأمروا أن يجعلوا مساجدهم فى بيوتهم وأن يوجهوها نحو القبلة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (أن تبوآ لقومكما بمصر) قال مصر الاسكندرية . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد فى الآية قال كانوا لايصلون الا فى البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : أمروا أن يتخذوا فى بيوتهم مساجد . وأخرج أبوالشيخ عن أبى سنان قال القبلة : الكعبة ، وذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال يقابل بعضها بعضا .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۞ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ۞

لما بالغ موسى عليه السلام فى إظهار المعجزات ، و إقامة الحجج البينات ، ولم يكن لذلك تأثير فى من أرسل اليهم دعا عليهم بعد أن بين سبب إصرارهم على الكفر ، وتمسكهم بالجحود والعناد ، فقال مبينا للسبب أولا (ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) قدتقدم أن الملأ هم الأشراف ، والزينة : اسم لكل مايتزين به من ملبوس ، ومركوب ، وحلية ، وفراش ، وسلاح ، وغير ذلك ، ثم كرر النداء للتأكيد ، فقال (ربنا ليضلوا عن سبيلك) .

وقد اختلف فى هذه اللام الداخلة على الفعل ، فقال الخليل وسيبويه انها لام العاقبة والصيرورة ۞ والمعنى أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم ماأعطاهم من النعم ليضلوا ، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت ، وقيل انها لام كى : أى أعطيتهم لكى يضلوا . وقال قوم ان المعنى : أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا ، فحذفت لا كما قال سبحانه ـ يبين الله لكم أن تضلوا ـ . قال النحاس ظاهر هذا الجواب

حسن الا أن العرب لاتحذف لاالامع أن ، فوّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله ــ يبين الله لكم أن تضلوا ــ ، وقيل اللام للدعاء عليهم * والمعنى : ابتلهم بالهلاك عن سبيلك ، واستدلّ هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا : اطمس واشدد . وقد أطال صاحب الكشاف فى تقرير هذا بما لا طائل تحته ، والقول الأوّل هو الأولى . وقرأ الكوفيون ليضلوا بضم حرف المضارعة : أى يوقعوا الاضلال على غيرهم . وقرأ الباقون بالفتح : أى يضلون فى أنفسهم (ربنا اطمس على أموالهم) . قال الزجاج طمس الشيء : إذهابه عن صورته * والمعنى الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها ، وقرئ بضم الميم من اطمس (واشدد على قلوبهم) أى اجعلها قاسية مطبوعة لاتقبل الحق ، ولاتنشرح للإيمان * قوله (فلا يؤمنوا) . قال المبرد والزجاج هو معطوف على ليضلوا * والمعنى : آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا ، ويكون مابين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضا . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة هو دعا بلفظ النهى ، والتقدير : اللهمّ فلا يؤمنوا ، ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ماانزوى * ولا تلقنى إلا وأنفك راغم

وقال الأخفش انه جواب الأمر : أى اطمس واشدد فلا يؤمنوا ، فيكون منصوبا * وروى هذا عن الفراء أيضا ، ومنه :

ياناق سيرى عنقا فسيحا * إلى سليمان فنستريحا

(حتى يروا العذاب الأليم) أى لايحصل منهم الايمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به ، وعند ذلك لاينفع إيمانهم . وقد استشكل بعض أهل العلم مافى هذه الآية من الدعاء على هؤلاء . وقال إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم ، وأجيب بأنه لايجوز لنبيّ أن يدعو على قومه إلا باذن الله سبحانه ، وإنما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن . ولهذا لما أعلم الله نوحا عليه السلام بأنه لايؤمن من قومه إلا من قد آمن . قال ــ ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ــ . (قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) جعل الدعوة هاهنا مضافة إلى موسى وهرون ، وفيما تقدّم أضافها إلى موسى وحده ، فقيل ان هرون كان يؤمّن على دعاء موسى فسمى هاهنا داعيا ، وإن كان الداعى موسى وحده ، ففى أوّل الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعى ، وهاهنا أضافه اليهما تنزيلا للمؤمّن منزلة الداعى ، ويجوز أن يكونا جميعا داعيين ، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى فى أوّل الكلام لاصالته فى الرسالة . قال النحاس سمعت علىّ بن سليمان يقول الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى ربنا ولم يقل رب ، وقرأ علىّ والسلمى دعواتكما ، وقرأ ابن السميفع دعوتكما ، والاستقامة : الثبات على ماهما عليه من الدعاء إلى الله . قال الفراء وغيره أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه على دعاء فرعون وقومه إلى الايمان إلى أن يأتيهما تأويل الاجابة أربعين سنة ثم أهلكوا ، وقيل معنى الاستقامة : ترك الاستعجال ، ولزوم السكينة ، والرضا ، والتسليم لما يقضى به الله سبحانه * قوله (ولا تتبعانّ سبيل الذين لايعلمون) بتشديد النون للتأكيد وحرّكت بالكسر لكونه الأصل ولكونها أشبهت نون التثنية ، وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفى لاعلى النهى ، وقرئ بتخفيف الفوقية الثانية من تتبعان * والمعنى النهى لهما عن سلوك طريقة من لايعلم بعادة الله سبحانه فى إجراء الأمور على ماتقتضيه المصالح تعجيلا وتأجيلا * قوله (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) هو من جاوز المكان : اذا خلفه وتخطاه ، والباء للتعدية ، أى جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط ، لأن الله سبحانه جعل البحر يبسا فمرّوا فيه حتى خرجوا منه الى البرّ . وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة البقرة فى قوله سبحانه ــ واذ فرقنا بكم البحر ــ ، وقرأ الحسن وجوّزنا ، وهما لغتان (فأتبعهم

فرعون وجنوده) يقال تبع وأتبع بمعنى واحد : اذا لحقه . وقال الأصمعي يقال أتبعه بقطع الألف : اذا لحقه وأدركه ، واتبعه بوصل الألف : اذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه . وكذا قال أبو زيد . وقال أبو عمرو ان اتبعه بالوصل : اقتدى به ، وانتصاب بغيا وعدوا على الحال ، والبغي : الظلم ، والعدو : الاعتداء ، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة : أي للبغي والعدو ، وقرأ الحسن وعدوا بضم العين والدال وتشديد الواو مثل علا يعلو علوا ، وقيل ان البغي : طلب الاستعلاء في القول بغير حق ، والعدو في الفعل (حتى إذا أدركه الغرق) أي ناله ووصله وألجه * وذلك أن موسى خرج ببني اسرائيل على حين غفلة من فرعون ، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ، ففرق الله البحر لموسى و بني اسرائيل ، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر ، وتبعهم فرعون ، والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه ، فلما تكامل دخول جنود فرعون ، وكادوا أن يخرجوا من الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك ( قال آمنت أنه لا إله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل) أي صدقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه ، فحذفت الباء ، والضمير للشأن . وقرىء بكسر انّ على الاستئناف ، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف : أي آمنت ، فقلت انه ، ولم ينفعه هذا الايمان لأنه وقع منه بعد ادراك الغرق له كما تقدم في النساء ، ولم يقل اللعين آمنت بالله أو برب العالمين ، بل قال آمنت أنه لا إله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل ، لأنه بقي فيه عرق من دعوى الالهية * قوله ( وأنا من المسلمين ) أي المستسلمين لأمر الله المنقادين له الذين يوحدونه و ينفون ماسواه ، وهذه الجملة اما في محل نصب على الحال أو معطوفة على آمنت * قوله ( آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) هو مقول قول مقدّر معطوف على قال آمنت : أي فقيل له أتؤمن الآن .

وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة ؟ فقيل هي من قول الله سبحانه ، وقيل من قول جبريل ، وقيل من قول ميكائيل ، وقيل من قول فرعون . قال ذلك في نفسه لنفسه ، وجملة وقد عصيت قبل في محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدّر بعد القول المقدر ، وهو أتؤمن الآن ، والمعنى انكار الايمان منه عند أن ألجمه الغرق ، والحال أنه قد عصى الله من قبل ، والمقصود التقريع والتوبيخ له ، وجملة وكنت من المفسدين معطوفة على عصيت داخلة في الحال : أي كنت من المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق و إضلالك لغيرك * قوله (فاليوم ننجيك ببدنك) قرىء ننجيك بالتخفيف ، والجمهور على التثقيل . وقرأ اليزيدي ننحيك بالحاء المهملة من التنحية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ، ومعنى ننجيك بالجيم نلقيك على نجوة من الأرض ، وذلك أن بني اسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق ، وقالوا هو أعظم شأنا من ذاك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض : أي مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه ، وقيل المعنى نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر ونجعلك طافيا ليشاهدوك ميتا بالغرق ، ومعنى ننحيك بالمهملة نطرحك على ناحية من الأرض ، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ بأبدانك .

وقد اختلف المفسرون في معنى ببدنك ، فقيل معناه بجسدك بعد سلب الروح منه ، وقيل معناه بدرعك والدرع يسمى بدنا ، ومنه قول كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبغات * على الأبطال واليلب الحصينا

أراد بالأبدان الدروع ، وقال عمرو بن معدي كرب :

ومضى نساؤهم بكل مفاضة * جدلاء سابغة و بالأبدان

أي بدروع سابغة ودروع قصيرة : وهي التي يقال لها أبدان كما قال أبو عبيدة ، وقال الاخفش :

وأما قول من قال بدرعك فليس بشيء ، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد * قوله (لتكون لمن خلفك آية) هـذا تعليل لتنجيته ببدنه ، وفى ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه الا لهذه العلة لاسوى والمراد بالآية علامة أى لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك ، وأنك لست كما تدعى ويندفع عنهم الشك فى كونك قد صرت ميتا بالغرق ، وقيل المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله يعتبر بها الناس أو يعتبر بها من سيأتى من الامم اذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه ، فان هذا الذى بلغ الى مابلغ اليـه من دعوى الالهية واستمر على ذلك دهرا طويلا كانت له هذه العاقبة القبيحة . وقرئ لمن خلفك على صيغة الفعل الماضى أى لمن يأتى بعدك من القرون أومن خلفك فى الرياسة أوفى السكون فى المسكن الذى كنت تسكنه (وان كثيرا من الناس عن آياتنا) التى توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة (لغافلون) عما توجبه الآيات وهذه الجملة تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ربنا اطمس على أموالهم) يقول دمر على أموالهم وأهلكها (واشدد على قلوبهم) قال اطبع (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وهو الغرق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال : سألنى عمر بن عبدالعزيز عن قوله ربنا اطمس على أموالهم فأخبرته أن الله طمس على أموال فرعون وآل فرعون حتى صارت حجارة فقال عمر : كما أنت حتى آتيك ، فدعا بكيس مختوم ففكه ، فاذا فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة والدنانير والدراهم وأشباه ذلك من الأموال حجارة كلها ، وقد روى أن أموالهم تحوّلت حجارة من طريق جماعة من السلف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال قد أجيبت دعوتكما قال فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الايمان . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال كان : موسى اذا دعا أمّن هرون على دعائه يقول آمين . قال أبو هريرة : وهو اسم من أسماء الله ، فذلك قوله (قد أجيبت دعوتكما) . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب القرظى نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هـذه الدعوة أربعين سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله . وأخرج الحكيم الترمذى عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنـذر عن ابن عباس فاستقيما فامضيا لأمرى ، وهى الاستقامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : العدو والعتو والعلو فى كتاب الله : التجبر . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما خرج آخر أصحاب موسى ودخل آخر أصحاب فرعون أوحى الله الى البحر أن انطبق عليهم فخرجت أصبع فرعون بلا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل قال جبريل : فعرفت أن الرب رحيم وخفت أن تدركه الرحمة فرمسته بجناحى وقلت آلآن وقد عصيت قبل ، فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف من قوم فرعون : ماغرق فرعون ولا أصحابه ولكنهم فى جزائر البحر يتصيدون ، فأوحى الله الى البحر أن الفظ فرعون عريانا ، فلفظه عريانا أصلع أخينس قصيرا فهو قوله (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) لمن قال ان فرعون لم يغرق ، وكان نجاة غيره لم تكن نجاة عافية ، ثم أوحى الله الى البحر أن الفظ مافيك فلفظهم على الساحل ، وكان البحر لايلفظ غريقا فى بطنه حتى يأكله السمك فليس يقبل البحر غريقا الى يوم القيامة . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «أغرق الله فرعون فقال (آمنت أنه لا إله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل) قال لى جبريل يامحمد لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه

X 93-155



مخافة أن تدركه الرحمة ، وقد روى هذا الحديث الترمذى من غيروجه ، وقال حسن صحيح غريب وصححه أيضا الحاكم ، وروى عن ابن عباس مرفوعا من طرق أخرى . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال «قال لى جبريل ما كان على الأرض شىء أبغض الىّ من فرعون فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة وأنا أغطه خشية أن تدركه الرحمة» . وأخرج ابن جرير والبيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج أبو الشيخ عن أبى أمامة مرفوعا نحوه أيضا ، وفى اسناد حديث أبى هريرة رجل مجهول ، وباقى رجاله ثقات * والعجب كل العجب ممن لا علم له بفنّ الرواية من المفسرين ، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه كيف يتجارى على الكلام فى أحاديث رسول الله ﷺ والحكم ببطلان ماصح منها ، ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت ، والقصور الفاضح الذى يضحك منه كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث ، فيامسكين مالك ولهذا الشأن الذى لست منه فى شىء ؟ ألا تستر نفسك ، وتربع على ضلعك ، وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين ، وتشتغل بماهو علمك الذى لاتجاوزه ، وحاصلك الذى ليس لك غيره ، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآليـة ، ولقد صار صاحب الكشاف رحمه الله بسبب مايتعرّض له فى تفسيره من علم الحديث الذى ليس هو منـه فى ورد ولا صدر سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين ، فتارة يروى فى كتابه الموضوعات وهو لايدرى أنها موضوعات ، وتارة يتعرض لردّ ماصح ، ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله والبهت عليه ، وقد يكون فى الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج ، وأدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم فى علم لايعلمه ، ولايدرى به أقلّ دراية ، وان كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التى يتواضع عليها طائفة من الناس ، ويصطلحون على أمور فيما بينهم ، فما بالك بعلم السنة الذى هو قسيم كتاب الله ، وقائله رسول الله ﷺ وراويه عنه خير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وكل حرف من حروفه . وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عامّ لجميع أهل الاسلام . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فاليوم ننجيك ببدنك) قال أنجى الله فرعون لبنى اسرائيل من البحر فنظروا اليه بعد ماغرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الانبارى وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : بجسدك ، قال : كذب بعض بنى اسرائيل بموت فرعون فألقى على ساحل البحر حتى يراه بنو اسرائيل أحمر قصيرا كأنه ثور . وأخرج ابن الانبارى عن محمد بن كعب فى قوله (فاليوم ننجيك ببدنك) قال بدرعك ، وكان درعه من لؤلؤة يلاقى فيها الحروب .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ *
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * فَلَوْلَا كَانَتْ
قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ * وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ

حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ *

قوله (ولقد بوّأنا) هذا من جملة ماعـدّده الله سبحانه من النعم التي أنعم بها على بنى اسرائيل ، ومعنى بوّأنا أسكنا يقال : بوّأت زيدا منزلا أسكنته فيه والمبوأ اسم مكان أومصدر ، واضافته الى الصدق على ماجرت عليه قاعدة العرب ، فانهم كانوا اذا مدحوا شيئا أضافوه الى الصدق ، والمراد به هنا المنزل المحمود المختار ، قيل : هوأرض مصر ، وقيل الأردن وفلسطين ، وقيل الشام (ورزقناهم من الطيبات) أى المستلذات من الرزق (فما اختلفوا) فى أمر دينهم وتشعبوا فيه شعبا بعدما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة (حتى جاءهم العلم) أى لم يقع منهم الاختلاف فى الدين الابعد ماجاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوّة محمد ﷺ ، وقيل المعنى أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم ، وهو القرآن النازل على نبينا ﷺ فاختلفوا فى نعته وصفته وآمن به من آمن منهم وكفر به من كفر ، فيكون المراد بالمختلفين على القول الأوّل هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها ، وعلى القول الثانى هم اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ (ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيـه يختلفون) فيجازى المحسن باحسانه والمسىء باساءته والمحقّ بعمله بالحق والمبطل بعمله بالباطل (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) الشك فى أصل اللغة ضم الشىء بعضه الى بعض ، ومنه شك الجوهر فى العقد ، والشاك كأنه يضم الى مايتوهمه شيئا آخر خلافه فيتردّد و يتحير ، والخطاب للنبى ﷺ ، والمراد غـيره كما ورد فى القرآن فى غير موضع . قال أبو عمر محمد بن عبدالواحد الزاهد سمعت الامامين ثعلبا والمبرد يقولان معنى (فان كنت فى شك) أى قل يامحمد للكافر فان كنت فى شك (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) يعنى مسلمى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله ، وقد كان عبـدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم و يقرّون بأنهم أعلم منهم ، فأمر الله سبحانه نبيه أن يرشد الشاكين فيما أنزله الله اليـه من القرآن أن يسألوا أهـل الكتاب الذين قد أسلموا فانهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقا وأن هذا رسوله وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به ، وفى هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر . وقال القتيبى : المراد بهذه الآية من كان من الكفار غـير قاطع بتكذيب النبى ﷺ ولا بتصديقه ، بل كان فى شك ، وقيل المراد بالخطاب النبى ﷺ لاغيره ، والمعنى : لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به ، فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك ، وقيل الشك هو ضيق الصدر : أى ان ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم ، وقيل معنى الآية الفرض والتقدير كأنه قال له فان وقع لك شك مثلا وخيـل لك الشيطان خيالا منـه تقديرا ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب ، فانهم سيخبرونك عن نبوّتك وما نزل عليك و يعترفون بذلك لأنهم يجدونه مكتوبا عنـدهم ، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم * قوله (لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين) فى هذا بيان مايقلع الشك من أصله و يذهب به بجملته ، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذى وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير فى الشك هو الحق الذى لايخالطه باطل ولاتشوبه شبهة ، ثم عقبه بالنهى للنبى ﷺ عن الامتراء فيما أنزل الله عليه بل يستمر على ماهو عليه من اليقين وانتفاء الشك ، و يمكن أن يكون هذا النهى له تعريضا لغيره كما فى مواطن من الكتاب العزيز ، وهكذا القول فى نهيه ﷺ عن التكذيب بآيات الله ، فان الظاهر فيـه التعريض ولاسيما بعد تعقيبه بقوله ــ فتكون من الخاسرين ــ وفى هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ماهو

أبلغ وأوقع من النهى لهم أنفسهم لأنه اذا كان بحيث ينهى عنه من لايتصوّر صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن منه ذلك * قوله (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون) قد تقدّم مثله فى هذه السورة ، والمعنى أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرّون على الكفر ويموتون عليه لايقع منهم الايمان بحال من الأحوال وان وقع منهم ماصورته صورة الايمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب ، فهو فى حكم العدم (ولو جاءتهم كل آية) من الآيات التكوينية والتنزيلية ، فان ذلك لاينفعهم لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم (حتى يروا العذاب الأليم) فيقع منهم ماصورته صورة الايمان وليس بايمان ولايترتب عليه شىء من أحكامه * قوله (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها) لولا هذه هى التحضيضية التى بمعنى هلا ، كما قال الأخفش والكسائى وغيرهما ، ويدل على ذلك مافى مصحف أبىّ وابن مسعود فهلا قرية * والمعنى : فهلا قرية واحدة من هذه القرى التى أهلكناها آمنت ايمانا معتدًا به ، وذلك بأن يكون خالصا لله قبل معاينة عذابه ولم يؤخره كما أخره فرعون ، والاستثناء بقوله (الا قوم يونس) منقطع ، وهو استثناء من القرى لأن المراد أهلها ، والمعنى لكن قوم يونس (لما آمنوا) إيمانا معتدا به قبل معاينة العذاب أوعند أوّل المعاينة قبل حلوله بهم (كشفنا عنهم عذاب الخزى) وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الأئمة منهم الكسائى والأخفش والفراء ، وقيل يجوز أن يكون متصلا ، والجملة فى معنى النفى كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة الا قوم يونس وانتصابه على أصل الاستثناء . وقرئ بالرفع على البدل . وقال الزجاج فى توجيه الرفع يكون المعنى غير قوم يونس ، ولكن جاءت الا عليها وتعذر جعل الأعراب عليها فأعرب الاسم الذى بعدها باعراب غير . قال ابن جرير خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب ، وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج انه لم يقع العذاب ، وانما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان ، وهذا أولى من قول ابن جرير ، والمراد بعذاب الخزى الذى كشفه الله عنهم ، وهو العذاب الذى كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ، ولم يروه ، أو الذى قد رأوا علاماته دون عينه (ومتعناهم الى حين) أى بعد كشف العذاب عنهم متعهم الله فى الدنيا الى حين معلوم قدره لهم ، ثم بين سبحانه أن الايمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره ، فقال (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم) بحيث لايخرج عنهم أحد (جميعا) مجتمعين على الايمان لايتفرقون فيه ويختلفون ، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفا للمصلحة التى أرادها الله سبحانه ، وانتصاب جميعا على الحال كما قال سيبويه . قال الأخفش جاء بقوله جميعا بعد كلهم للتأكيد كقوله ــ لاتتخذوا إلهين اثنين ــ ولما كان النبى ﷺ حريصا على ايمان جميع الناس أخبره الله بأن ذلك لايكون ، لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لاتقتضى ذلك ، فقال (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) فان ذلك ليس فى وسعك يامحمد ولاداخل تحت قدرتك ، وفى هذا تسلية له ﷺ ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل الذى لو كان لم يكن صلاحا محققا بل يكون الى الفساد أقرب ، ولله الحكمة البالغة ، ثم بين سبحانه ماتقدم بقوله (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) أى ماصح وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن بالله الا باذنه : أى بتسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك فلايقع غيرمايشاؤه كائنا ما كان (ويجعل الرجس على الذين لايعقلون) أى العذاب أو الكفر أو الخذلان الذى هو سبب العذاب . وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل ونجعل بالنون ، وفى الرجس لغتان ضم الراء وكسرها ، والمراد بالذين لايعقلون هم الكفار الذين لايتعقلون حجج الله ولايتفكرون فى آياته ولايتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن قتادة فى قوله (ولقد

بوّأنا

بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) قال بوأهم الله الشام وبيت المقدس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : منازل صدق مصر والشام . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) قال العلم كتاب الله الذى أنزله وأمره الذى أمرهم به . وقد ورد فى الحديث أن اليهود اختلفوا على احدى وسبعين فرقة وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، وهو فى السنن والمسانيد ، والكلام فيه يطول . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله (فان كنت فى شك) الآية . قال لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لا أشك ولا أسأل ، وهو مرسل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) قال : التوراة والانجيل الذين أدركوا محمدا من أهل الكتاب وآمنوا به ، يقول سلهم ان كنت فى شك بأنك مكتوب عندهم . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) قال حق عليهم سخط الله بما عصوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (فلولا كانت قرية آمنت) يقول فما كانت قرية آمنت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : لم يكن هذا فى الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب الا قوم يونس ، فاستثنى الله قوم يونس . قال وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل ، فلما فقدوا نبيهم قذف الله فى قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشى وفرقوا بين كل بهيمة وولدها فعجوا الى الله أربعين صباحا فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على مامضى منهم كشف عنهم العذاب بعد ماتدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب الا ميل . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال ان يونس دعا قومه فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب ، فقال انه يأتيكم يوم كذا وكذا ، ثم خرج عنهم وكانت الأنبياء اذا وعدت قومها العذاب خرجت ، فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها ، وبين السخلة وولدها ، وخرجوا يعجون الى الله ، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب وقعد يونس فى الطريق يسأل عن الخبر ، فمر به رجل فقال مافعل قوم يونس ؟ فحدثه بما صنعوا ، فقال لا أرجع الى قوم قد كذبتهم ، وانطلق مغاضبا يعنى مراغما . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب اذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دما . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير عن ابن عباس أن العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثى ميل فلما دعوا كشفه الله عنهم . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى الجلد قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا الى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا له ماترى ؟ قال قولوا ياحى حين لاحى وياحى محيى الموتى وياحى لا إله الا أنت ، فقالوا فكشف عنهم العذاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ويجعل الرجس) ، قال السخط . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الرجس الشيطان ، والرجس العذاب .

قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ

3. 1504-109



فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قُلْ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ *

قوله (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) لما بين سبحانه أن الايمان لايحصل الا بمشيئة الله أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية ، والمراد بالنظر : التفكر والاعتبار : أى قل يامحمد للكفار تفكروا واعتبروا بما فى السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته ، وماذا مبتدأ ، وخبره فى السموات والأرض ، أو المبتدأ ما ، وذا بمعنى الذى ، وفى السموات والأرض صلته ، والموصول وصلته خبر المبتدأ : أى أىّ شىء الذى فى السموات والأرض ، وعلى التقديرين فالجملة فى محل نصب بالفعل الذى قبلها ، ثم ذكر سبحانه أن التفكر والتدبر فى هذه الدلائل لاينفع فى حق من استحكمت شقاوته فقال (وماتغنى الآيات والنذر) أى ماتنفع على أن مانافية ، ويجوز أن تكون استفهامية : أى أىّ شىء ينفع ، والآيات هى التى عبر عنها بقوله (ماذا فى السموات والأرض) والنذر جمع نذير ، وهم الرسل أو جمع انذار وهو المصدر (عن قوم لايؤمنون) فى علم الله سبحانه * والمعنى أن من كان هكذا لايجدى فيه شىء ولايدفعه عن الكفر دافع * قوله (فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) أى فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد ﷺ الامثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء فقد كان الأنبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب وهم يكذبونهم و يصممون على الكفرحتى ينزل الله عليهم عذابه ويحلّ بهم انتقامه ، ثم قال (قل) يامحمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك (فانتظروا) أى تربصوا لوعد ربكم انى معكم من المتربصين لوعد ربى ، وفى هذا تهديد شديد ، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء مانزل بأولئك من الاهلاك ، وثم فى قوله (ثم ننجى رسلنا) للعطف على مقدّر يدلّ عليه ماقبله كأنه قيل أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلين اليهم . وقرأ يعقوب ثم ننجى مخففا . وقرأ كذلك أيضا فى (حقا علينا ننج المؤمنين) . وروى كذلك عن الكسائى وحفص فى الثانية ، وقرأ الباقون بالتشديد ، وهما لغتان فصيحتان : أنجى ينجى إنجاء ، ونجى ينجى تنجية بمعنى واحد (والذين آمنوا) معطوف على رسلنا : أى نجيناهم ونجينا الذين آمنوا ، والتعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلا لأمرها (كذلك حقا علينا) أى حق ذلك علينا حقا ، أو إنجاء مثل ذلك الانجاء حقا (ننج المؤمنين) من عذابنا للكفار ، والمراد بالمؤمنين : الجنس ، فيدخل فى ذلك الرسل وأتباعهم ، أو يكون خاصا بالمؤمنين ، وهم أتباع الرسل ، لأن الرسل داخلون فى ذلك بالأولى * قوله (قل ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى) أمر سبحانه رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطبا لجميع الناس ، أو للكفار منهم ، أو لأهل مكة على الخصوص بقوله إن كنتم فى شك من دينى الذى أنا

عليه ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، ولم تعلموا بحقيقته ، ولا عرفتم صحته ، وأنه الدين الحق الذى لادين غيره فاعلموا أنى برىء من أديانكم التى أنتم عليها (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) فى حال من الأحوال (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) أى أخصه بالعبادة لا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها ، وخصّ صفة التوفى من بين الصفات لما فى ذلك من التهديد لهم : أى أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم مايفعل من العذاب الشديد ، ولكونه يدل على الخلق أوّلا ، وعلى الاعادة ثانيا ، ولكونه أشدّ الأحوال مهابة فى القلوب ، ولكونه قد تقدّم ذكر الاهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة فكأنه قال : أعبد الله الذى وعدنى باهلاككم ، ولما ذكر أنه لايعبد الا الله بين أنه مأمور بالايمان ، فقال (وأمرت أن أكون من المؤمنين) أى بأن أكون من جنس من آمن بالله وأخلص له الدين ، وجملة (وأن أقم وجهك للدين) معطوفة على جملة (أن أكون من المؤمنين) ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر ، لأن المقصود من أن الدلالة على المصدر ، وذلك لايختلف بالخبرية والانشائية أو يكون المعطوف عليه فى معنى الانشاء كأنه قيل : كن مؤمنا ثم أقم * والمعنى أن الله سبحانه أمره بالاستقامة فى الدين ، والثبات فيه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال ، وخصّ الوجه لأنه أشرف الأعضاء أو أمره باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم التحوّل عنها ، وحنيفا حال من الدين ، أو من الوجه : أى مائلا عن كل دين من الأديان إلى دين الاسلام ، ثم أكد الأمر المتقدّم بالنهى عن ضدّه ، فقال (ولا تكوننّ من المشركين) وهو معطوف على أقم ، وهو من باب التعريض لغيره ﷺ * قوله (ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرّك) معطوف على ــ قل يا أيها الناس ــ غير داخل تحت الأمر ، وقيل معطوف على ولا تكوننّ : أى لاتدع من دون الله على حال من الأحوال مالا ينفعك ولا يضرّك بشىء من النفع والضرّ إن دعوته ، ودعاء من كان هكذا لايجلب نفعا ، ولايقدر على ضرّ ضائع لايفعله عاقل على تقدير أنه لايوجد من يقدر على النفع والضرّ غيره ، فكيف اذا كان موجودا ؛ فان العدول عن دعاء القادر الى دعاء غير القادر أقبح وأقبح (فان فعلت) أى فان دعوت ، ولكنه كنى عن القول بالفعل (فانك إذا من الظالمين) هذا جزاء الشرط : أى فان دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرّك فانك فى عداد الظالمين لأنفسهم ؛ والمقصود من هذا الخطاب التعريض بغيره ﷺ ، وجملة (وان يمسسك الله بضرّ) الى آخرها مقرّرة لمضمون ماقبلها * والمعنى أن الله سبحانه هو الضارّ النافع ، فان أنزل بعبده ضرّا لم يستطع أحد أن يكشفه كائنا من كان ، بل هو المختصّ بكشفه كما اختصّ بانزاله (وان يردك بخير) أىّ خير كان لم يستطع أحد أن يدفعه عنك ويحول بينك و بينه كائنا من كان ، وعبر بالفضل مكان الخير للارشاد الى أنه يتفضل على عباده بما لايستحقونه بأعمالهم . قال الواحدى : ان قوله (وان يردك بخير) هو من القلب ، وأصله وان يرد بك الخير ، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر . قال النيسابورى : وفى تخصيص الارادة بجانب الخير ، والمس بجانب الشرّ دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات ، والشرّ بالعرض * قلت وفى هذا نظر فان المسّ هو أمر وراء الارادة فهو مستلزم لها ، والضمير فى يصيب به راجع الى فضله : أى يصيب بفضله من يشاء من عباده ، وجملة (وهو الغفور الرحيم) تذييلية ثم ختم هذه السورة بما يستدلّ به على قضائه وقدره ، فقال (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) أى القرآن (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فانما يضلّ عليها) أى منفعة اهتدائه مختصة به ، وضرر كفره مقصور عليه لايتعدّاه ، وليس لله حاجة فى شىء من ذلك ، ولا غرض يعود اليه (وما أنا عليكم بوكيل) أى بحفيظ يحفظ أموركم وتوكل إليه : انما أنا بشير ونذير ، ثم أمره الله سبحانه أن يتبع

ما أوحاه اليه من الأوامر والنواهي التي يشرعها الله له ولأمته ، ثم أمره بالصبر على أذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعانيه من تلوّن أخلاق المشركين وتعجرفهم ، وجعل ذلك الصبر ممتدا الى غاية هي قوله (حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) أى يحكم الله بينه و بينهم فى الدنيا بالنصر له عليهم ، وفى الآخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه ﷺ هو وأمته ، المتبعون له المؤمنون به ، العاملون بما يأمرهم به ، المنتهون عما ينهاهم عنه يتقلبون فى نعيم الجنة الذى لاينفد ، ولا يمكن وصفه ، ولا يوقف على أدنى مزاياه .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم) يقول عند قوم (لايؤمنون) نسخت قوله ــ حكمة بالغة فما تغنى النذر ــ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) قال وقائع الله فى الذين خلوا من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع فى الآية قال خوّفهم عذابه ونقمته وعقوبته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى الله رسله والذين آمنوا ، فقال (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) الآية . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله (و إن يردك بخير) يقول بعافية . وأخرج البيهقى فى الشعب عن عامر بن قيس قال : ثلاث آيات فى كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق : أوّلهن (و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو و إن يردك بخير فلا رادّ لفضله) ، والثانية ــ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له ــ ، والثالثة ــ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ــ . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (فلا رادّ لفضله) قال هو الحق المذكور فى قوله (قد جاءكم الحق من ربكم) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله (واصبر حتى يحكم الله) . قال هذا منسوخ ، أمره بجهادهم والغلظة عليهم .

# تفسير سورة هود

هى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . قال ابن عباس وقتادة الا آية وهى قوله ــ وأقم الصلاة طرفى النهار ــ . وأخرج النحاس فى ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال نزلت سورة هود بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج الدارمى وأبو داود فى مراسيله وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر والبيهقى فى الشعب عن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « اقرءوا هود يوم الجمعة » . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر من طريق مسروق عن أبى بكر الصديق قال قلت يارسول الله لقد أسرع اليك الشيب ، فقال شيبتنى هود والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، واذا الشمس كوّرت . وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أنس عنه مرفوعا بلفظ : قلت يارسول الله عجل إليك الشيب . قال شيبتنى هود وأخواتها ، والواقعة ، والحاقة وعمّ يتساءلون ، وهل أتاك حديث الغاشية . وأخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه عن أنس قال :

قال أصحاب رسول الله ﷺ لقد عجل اليك الشيب ، فقال شيبتني هود وأخواتها من المفصل . وأخرج الترمذي وحسنه وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يارسول الله قد شبت ، قال شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات وعم يتساءلون ، و إذا الشمس كورت . وأخرج ابن عساكر من طريق عطاء عنه أن الصحابة قالوا يارسول الله لقد أسرع اليك الشيب ، قال أجل شيبتني هود وأخواتها . قال عطاء وأخواتها : اقتربت الساعة والمرسلات ، و إذا الشمس كورت . وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال : قال عمر بن الخطاب يارسول الله : أسرع اليك الشيب ، قال شيبتني هود وأخواتها : الواقعة ، وعم يتساءلون ، و إذا الشمس كورت . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ شيبتني هود وأخواتها : الواقعة ، والحاقة ، و إذا الشمس كورت . وأخرجا أيضا عن ابن مسعود أن أبا بكر قال يارسول الله ماشيبك ؟ قال هود ، والواقعة . وفي اسناده عمرو بن ثابت وهو متروك . وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن عقبة بن عامر أن رجلا قال يارسول الله قد شبت ، قال شيبتني هود واذا الشمس كورت وأخواتها . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو يعلى والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أبي جحيفة قال : قالوا يارسول الله نراك قد شبت ، قال شيبتني هود وأخواتها . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال له أصحابه قد أسرع اليك الشيب ، قال شيبتني هود وأخواتها من المفصل . وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « شيبتني هود وأخواتها ومافعل بالأمم قبل .

## بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ * وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ * إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ * أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ * وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ *

قوله (الر) ان كان مسرودا على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له ، وان كان اسما للسورة

فهو فى محل رفع على أنه مبتدأ خبره مابعده أوخبر مبتدأ محذوف ، و ( كتاب) يكون على هذا الوجه خبرا لمبتدأ محذوف : أى هذا كتاب وكذا على تقدير أن (الر) لامحل له ، ويجوز أن يكون (الر) فى محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اذكر ، أواقرأ ، فيكون كتاب على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف ، والاشارة فى المبتدأ المقدّر إما الى بعض القرآن أوالى مجموع القرآن ، ومعنى (أحكمت آياته) صارت محكمة متقنة لانقص فيها ولانقض لها كالبناء المحكم ، وقيل معناه انها لم تنسخ بخلاف التوراة والانجيل ، وعلى هذا فيكون هـذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب ، وهو المحكم الذى لم ينسخ ، وقيل معناه أحكمت آياته بالأمر والنهى ، ثم فصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وقيـل أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام ، وقيل أحكمت جملته ، ثم فصلت آياته ، وقيل جمعت فى اللوح المحفوظ ثم فصلت بالوحى ، وقيل أيدّت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عندالله ، وقيل معنى إحكامها أن لافساد فيها ، أخذا من قولهم أحكمت الدابة : اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ، و (ثم فصلت) معطوف على أحكمت ، ومعناه ماتقدم والتراخى المستفاد من ثم ، إما زمانى ان فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح ، و إما رتبى ان فسر بغيره عما تقدّم ، والجمل فى محل رفع على أنها صفة لكتاب أوخبر آخر لمبتدأ أوخبر لمبتدأ محذوف ، وفى قوله (من لدن حكيم خبير) لف ونشر ، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور * قوله (ألا تعبدوا إلا الله) مفعول له حذف منه اللام : كذا فى الكشاف ، وفيه أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلل ، وقيـل أن هى المفسرة لما فى التفصيل من معنى القول ، وقيل هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله محكيا على لسان النبى ﷺ . قال الكسائى والفراء : التقدير أحكمت بأن لاتعبدوا الا الله . وقال الزجاج : أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله ، ثم أخبرهم رسول الله ﷺ بأنه نذير و بشير فقال (انى لكم منه نذير و بشير) أى ينذرهم ويخوّفهم من عذابه لمن عصاه ، و يبشرهم بالجنة والرضوان لمن أطاعه ، والضمير فى منه راجع الى الله سبحانه : أى انى لكم نذير و بشير من جهة الله سبحانه ، وقيل هو من كلام الله سبحانه كقوله ـ ويحذركم الله نفسه ـ * قوله (وأن استغفروا ربكم) معطوف على ألاتعبدوا ، والكلام فى أن هذه كالكلام فى التى قبلها * وقوله (ثم توبوا اليه) معطوف على استغفروا ، وقدم الارشاد الى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة اليها ، وقيل ان التوبة من متممات الاستغفار ، وقيل معنى استغفروا توبوا ، ومعنى توبوا : أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، وقيـل استغفروا من سالف الذنوب ، ثم توبوا من لاحقها ، وقيل استغفروا من الشرك ثم ارجعوا اليه بالطاعة . قال الفراء : ثم هاهنا بمعنى الواو : أى وتوبوا اليه لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هى الاستغفار ، وقيـل انما قدم ذكر الاستغفار ، لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب اليها ، وما كان آخرا فى الحصول كان أوّلا فى الطلب ، وقيل استغفروا فى الصغائر وتوبوا اليه فى الكبائر ، ثم رتب على ماتقدم أمرين ، الأوّل (يمتعكم متاعا حسنا) أصل الامتاع : الاطالة ، ومنه أمتع الله بك ، فمعنى الآية يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق ورغد العيش (الى أجل مسمى) الى وقت مقدّر عند الله وهو الموت ، وقيل القيامة ، وقيـل دخول الجنة ، والأوّل أولى * والأمر الثانى قوله (ويؤت كل ذى فضل فضله) أى يعط كل ذى فضل فى الطاعة والعمل فضله : أى جزاء فضله اما فى الدنيا أوفى الآخرة أوفيهما جميعا ، والضمير فى فضله راجع الى كل ذى فضل ، وقيل راجع الى الله سبحانه على معنى أن الله يعطى كل من فضلت حسناته فضله الذى يتفضل به على عباده ، ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال (وان تولوا) أى تتولوا وتعرضوا عن الاخلاص فى العبادة والاستغفار والتوبة (فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) وهو يوم القيامة ، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال ، وقيل اليوم الكبير يوم بدر ، ثم بين سبحانه

عذاب اليوم الكبير بقوله (الى الله مرجعكم) أى رجوعكم اليه بالموت ، ثم البعث ، ثم الجزاء ، لا إلى غيره (وهو على كل شيء قدير) ومن جملة ذلك عذابكم على عدم الامتثال ، وهـذه الجملة مقررة لما قبلها ، ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الانذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم ، ولا لانت له قلوبهم ، بل هم مصرّون على العناد مصممون على الكفر ؛ فقال مصدّر الهذا الأخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم وأنه أمر ينبغى أن يتنبه له العقلاء و يفهموه (ألا انهم يثنون صدورهم) يقال ثنى صدره عن الشيء إذا ازورّ عنه وانحرف منه ، فيكون فى الكلام كناية عن الاعراض ، لأن من أعرض عن الشيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ، وقيل معناه يعطفون صدورهم على مافيها من الكفر والاعراض عن الحق ، فيكون فى الكلام كناية عن الاخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين ، والوجه الثانى أولى ، و يؤيده قوله (ليستخفوا منه) أى ليستخفوا من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين ، أوليستخفوا من رسول الله ﷺ ثم كرر كلمة التنبيه مبينا للوقت الذى يثنون فيه صدورهم فقال (ألا حين يستغشون ثيابهم) أى يستخفون فى وقت استغشاء الثياب : وهو التغطى بها ، وقد كانوا يقولون اذا أغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ وقيل معنى حين يستغشون : حين يأوون الى فراشهم و يتدثرون بثيابهم وقيل انه حقيقة ، وذلك أن بعض الكفار كان اذا مرّ به رسول الله ﷺ ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله ﷺ ، وجملة (يعلم مايسرون ومايعلنون) مستأنفة لبيان أنه لافائدة لهم فى الاستخفاء ، لأن الله سبحانه يعلم مايسرونه فى أنفسهم أوفى ذات بينهم وما يظهرونه ، فالظاهر والباطن عنده سواء ، والسرّ والجهر سيان ، وجملة (انه عليم بذات الصدور) تعليل لما قبلها وتقرير له ، وذات الصدور هى الضمائر التى تشتمل عليها الصدور ، وقيل هى القلوب ، والمعنى انه عليم بجميع الضمائر ، أوعليم بالقلوب وأحوالها فى الاسرار والاظهار ، فلا يخفى عليه شيء من ذلك ، ثم أكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الاحسان فقال (ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها) أى الرزق الذى تحتاج اليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف أنواعه تفضلا منه واحسانا ، وانما جيء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة «على» اعتبارا بسبق الوعد به منه ، ومن زائدة للتأكيد ، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ماقسمه له من الرزق ، فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله ، والدابة كل حيوان يدب (ويعلم مستقرها) أى محل استقرارها فى الأرض أو محل قرارها فى الاصلاب (ومستودعها) موضعها فى الأرحام ، وما يجرى مجراها كالبيضة ونحوها . وقال الفراء : مستقرها حيث تأوى اليه ليلا أونهارا ، ومستودعها : موضعها الذى تموت فيه ، وقد مرّ تمام الأقوال فى سورة الأنعام ، ووجه تقدم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر ، وأما على القول الأوّل فلعل وجه ذلك أن المستقر أنسب باعتبار ماهى عليه حال كونها دابة * والمعنى ومامن دابة فى الأرض الا يرزقها الله حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة وقبل كونها دابة ، وذلك حيث تكون فى الرحم ونحوه ، ثم ختم الآية بقوله (كل فى كتاب مبين) أى كل مما تقدم ذكره من الدواب ومستقرها ومستودعها ورزقها فى كتاب مبين ، وهو اللوح المحفوظ : أى مثبت فيه ، ثم أكد دلائل قدرته بالتعرّض لذكر خلق السموات والأرض ، وكيف كان الحال قبل خلقها فقال (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) قد تقدّم بيان هـذا فى الأعراف ، قيل والمراد بالأيام الأوقات : أى فى ستة أوقات كما فى قوله ــ ومن يولهم يومئذ دبره ــ وقيل مقدار ستة أيام ، ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة ، وهى المقابلة لليالى ، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء وليس اليوم الاعبارة عن مدّة كون الشمس فوق الأرض ، وكان خلق السموات فى يومين والأرضين فى

يومين وماعليهما من أنواع الحيوان والنبات والجاد فى يومين كما سيأتى فى حم السجدة * قوله (وكان عرشه على الماء) أى كان قبل خلقهما عرشه على الماء ، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السموات والأرضين * قوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) اللام متعلقة بخلق : أى خلق هـذه المخلوقات ليبتلى عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملا فيما أمر به ونهى عنه ، فيجازى المحسن باحسانه والمسىء باساءته ، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملا من غيره ، ويدخل فى العمل الاعتقاد ، لأنه من أعمال القلب ، وقيل المراد بالأحسن عملا : الأتمّ عقلا ، وقيل الأزهد فى الدنيا ، وقيل الأكثر شكرا ، وقيل الأتقى لله * قوله (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعـد الموت ليقولن الذين كفروا ان هـذا الا سحر مبين) ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره ، والمعنى لئن قلت لهم يامحمد على ماتوجبه قضية الابتلاء انكم مبعوثون من بعد الموت فيجازى المحسن باحسانه والمسىء باساءته ليقولن الذين كفروا من الناس ان هذا الذى تقوله يامحمد الاباطل كبطلان السحر وخدع كخدعه ، ويجوز أن تكون الاشارة بهذا الى القرآن ، لأنه المشتمل على الاخبار بالبعث . وقرأ حمزة والكسائى (ان هذا الا ساحر) يعنون النبى ﷺ وكسرت إنّ من قوله (انكم) لأنها بعد القول ، وحكى سيبويه الفتح على تضمين قلت معنى ذكرت ، أو على أن بمعنى علّ : أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون ، على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين : أى توقعوا ذلك ولاتبتوا القول بانكاره (ولئن أخرنا عنهم العذاب) أى الذى تقدّم ذكره فى قوله (عذاب يوم كبير) وقيـل عذاب يوم القيامة ومابعده ، وقيل يوم بدر (الى أمة معدودة) أى الى طائفة من الأيام قليلة ، لأن مايحصره العدّ قليل ، والأمة اشتقاقها من الأم : وهو القصد ، وأراد بها الوقت المقصود لايقاع العذاب ، وقيل هى فى الأصل الجماعة من الناس ، وقد يسمى الحين باسم مايحصل فيه كقولك كنت عند فلان صلاة العصر : أى فى ذلك الحين ، فالمراد على هذا الى حين تنقضى أمة معدودة من الناس (ليقولن مايحبسه) أى أىّ شىء يمنعه من النزول استعجالا له على جهة الاستهزاء والتكذيب ، فأجابهم الله بقوله (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم) أى ليس محبوسا عنهم ، بل واقع بهم لامحالة ، ويوم منصوب بمصروفا (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) أى أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ، ووضع يستهزءون مكان يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم ، وعبر بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه فكأنه قد حاق بهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قرأ (الر كتاب أحكمت آياته) قال : هى كلها محكمة يعنى سورة هود (ثم فصلت) قال : ثم ذكر محمدا ﷺ فحكم فيما بينه و بين من خالفه . وقرأ مثل الفريقين الآية كلها ، ثم ذكر قوم نوح ثم هود ، فكان هذا تفصيل ذلك ، وكان أوله محكما قال : وكان أبى يقول ذلك يعنى زيد بن أسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنـذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله كتاب أحكمت آياته قال : أحكمت بالأمر والنهى ، وفصلت بالوعد والوعيد . وأخرج هؤلاء عن مجاهد فصلت قال : فسرت . وأخرج هؤلاء أيضا عن قتادة فى الآية قال : أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ، وفى قوله (من لدن حكيم) يعنى من عند حكيم ، وفى قوله (يمتعكم متاعا حسنا) قال : فأنتم فى ذلك المتاع فخذوه بطاعة الله ومعرفة حقه ، فان الله منعم يحب الشاكرين وأهل الشكر فى مزيد من الله ، وذلك قضاؤه الذى قضاه ، وفى قوله (الى أجل مسمى) يعنى الموت ، وفى قوله (يؤت كل ذى فضل فضله) أى فى الآخرة . وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد فى قوله يؤت كل ذى فضل فضله : أى فى الآخرة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : يؤت كل ذى فضل فى الاسلام فضل الدرجات فى الآخرة . وأخرج ابن

جرير عن ابن مسعود فى قوله (ويؤت كل ذى فضل فضله) قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فان عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وان لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة و بقيت له تسع حسنات ، ثم يقول هلك من غلب آحاده أعشاره .
وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله (ألا انهم يثنون صدورهم) الآية قال كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا الى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا الى السماء ، فنزل ذلك فيهم . قال البخارى وعن ابن عباس (يستغشون) يغطون رءوسهم ، وروى البخارى أيضا عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية يعنى به الشك فى الله ، وعمل السيئات ، وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهما : أى انهم كانوا يثنون صدورهم اذا قالوا شيئا أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل (يعلم مايسرون) من القول (ومايعلنون) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن شداد بن الهاد فى قوله (ألا إنهم يثنون صدورهم) قال كان المنافقون اذا مر أحدهم بالنبى ﷺ ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه ، فنزلت ، وأخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله (ألا حين يستغشون ثيابهم) قال فى ظلمة الليل فى أجواف بيوتهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى رزين فى الآية . قال كان أحدهم يحنى ظهره و يستغشى بثوبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله . قال تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون) وذلك أخفى مايكون ابن آدم ، اذا أحنى ظهره ، واستغشى بثوبه ، وأضمر همه فى نفسه ، فان الله لايخفى عليه ذلك .
وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : فى الآية يكتمون مافى قلوبهم ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ماعملوا بالليل والنهار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ومامن دابة) الآية قال يعنى كل دابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ومامن دابة) الآية قال : يعنى ماجاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعا ، ولكن ما كان لها من رزق لها فمن الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ويعلم مستقرّها) قال حيث تأوى ، ومستودعها . قال حيث تموت . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (ويعلم مستقرّها) قال يأتيها رزقها حيث كانت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرّها فى الأرحام ومستودعها حيث تموت ، و يؤيد هذا التفسير الذى ذكره ابن مسعود ماأخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : اذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له اليها حاجة حتى اذا بلغ أقصى أثره منها ، فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة هذا مااستودعتنى . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (وكان عرشه على الماء) على أىّ شيء كان الماء ؟ قال على متن الريح . وقد وردت أحاديث كثيرة فى صفة العرش وفى كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فقال مامعنى ذلك يارسول ؟ قال ليبلوكم أيكم أحسن عقلا ، ثم قال : وأحسنكم عقلا أورعكم عن محارم الله وأعملكم بطاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : انكم أتمّ عقلا . وأخرج أيضا عن سفيان قال أزهدكم فى الدنيا . وأخرج ابن المنذر

وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نزلت ــ اقترب للناس حسابهم ــ قال ناس ان الساعة قد اقتربت فتناهوا فتناهى القوم قليلا ، ثم عادوا الى أعمالهم أعمال السوء ، فأنزل الله ــ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ــ فقال ناس من أهل الضلال هذا أمر الله قد أتى فتناهى القوم ، ثم عادوا الى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (الى أمة معدودة) قال الى أجل معدود . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (ليقولن ما يحبسه) يعنى أهل النفاق . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى فى قوله (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) يقول وقع بهم العذاب الذى استهزءوا به .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ *

اللام فى ( ولئن أذقنا الانسان ) هى الموطئة للقسم ، والانسان الجنس ، فيشمل المؤمن والكافر ، ويدل على ذلك الاستثناء بقوله ( إلا الذين صبروا ) وقيل المراد جنس الكفار ، ويؤيده أن اليأس والكفران ، والفرح والفخر هى أوصاف أهل الكفر ، لا أهل الاسلام فى الغالب ، وقيل المراد بالانسان الوليد بن المغيرة ، وقيل عبد الله بن أمية المخزومى ، والمراد بالرحمة هنا النعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن (ثم نزعناها منه) أى سلبناه اياها (انه ليئوس) أى آيس من الرحمة شديد القنوط من من عودها وأمثالها ، والكفور عظيم الكفران ، وهو الجحود بها قاله ابن الاعرابى ، وفى ايراد صيغتى المبالغة فى (ليئوس كفور) مايدل على أن الانسان كثير اليأس ، وكثير الجحد عند أن يسلبه الله بعض نعمه فلا يرجو عودها ، ولا يشكر ماقد سلف له منها ، وفى التعبير بالذوق مايدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه ، لأن الاذاقة والذوق أقل مايوجد به الطعم ، والنعماء انعام يظهر أثره على صاحبه ، والضراء ظهور أثر الاضرار على من أصيب به * والمعنى : أنه ان أذاق الله سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة ، والغنى بعد أن كان فى ضر من فقر أو مرض أو خوف لم يقابل ذلك بما يليق

به من الشكر لله سبحانه ، بل يقول ذهب السيئات أى المصائب التى ساءته من الضر والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها غير شاكر لله ولا مثن عليه بنعمه (انه لفرح فخور) أى كثير الفرح بطرا وأشرا كثير الفخر على الناس والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم ، وفى التعبير عن ملابسة الضر له بالمس مناسبة للتعبير فى جانب النعماء بالاذاقة فان كلاهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة ، كما تقدم (الا الذين صبروا) فان عادتهم الصبر عند نزول المحن ، والشكر عند حصول المنن . قال الأخفش هو استثناء ليس من الأول : أى ولكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة . وقال الفراء هو استثناء من لئن أذقناه : أى من الانسان ، فان الانسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ، فهو استثناء متصل ، والاشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات (لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر) يؤجرون به لأعمالهم الحسنة (كبير) متناه فى الكبر ، ثم سلى الله سبحانه رسوله ﷺ ، فقال (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك) أى فلعلك لعظم ماتراه منهم من الكفر والتكذيب ، واقتراح الآيات التى يقترحونها عليه على حسب هواهم وتعنتهم تارك بعض ما يوحى اليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه مما يشق عليهم سماعه أو يستشقون العمل به كسب آلهتهم وأمرهم بالايمان بالله وحده ، قيل وهذا الكلام خارج مخرج الاستفهام : أى هل أنت تارك ، وقيل هو فى معنى النفى مع الاستبعاد : أى لا يكون منك ذلك بل تبلغهم جميع ما أنزل الله عليك أحبوا ذلك أم كرهوه ، شاءوا أم أبوا (وضائق به صدرك) معطوف على تارك ، والضمير فى به راجع الى ما أو الى بعض ، وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم (أن يقولوا) أى كراهة أن يقولوا ، أو مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا (لولا أنزل عليه كنز) أى هلا أنزل عليه كنز : أى مال مكنوز مخزون ينتفع به (أو جاء معه ملك) يصدقه ويبين لنا صحة رسالته ، ثم بين سبحانه أن حاله ﷺ مقصور على النذارة ، فقال (انما أنت نذير) ليس عليك الا الانذار بما أوحى اليك ، وليس عليك حصول مطلوبهم وايجاد مقترحاتهم (والله على كل شىء وكيل) يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ۞ قوله (أم يقولون افتراه) أم هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، أضرب عما تقدم من تهاونهم بالوحى ، وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة ، وشرع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد من ذلك ، وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراه ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والضمير المستتر فى افتراه للنبى ﷺ والبارز الى ما يوحى ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم ، فقال (قل فأتوا بعشر سور مثله) أى مماثلة له فى البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعانى ، ووصف السور بما يوصف به المفرد ، فقال ، مثله ولم يقل أمثاله ، لأن المراد مماثلة كل واحد من السور ، أو لقصد الايماء الى وجه الشبه ومداره المماثلة فى شىء واحد ، وهو البلاغة البالغة الى حد الاعجاز ، وهذا انما هو على القول بأن المطابقة فى الجمع والتثنية والافراد شرط ، ثم وصف السور بصفة أخرى ، فقال (مفتريات وادعوا) للاستظهار على المعارضة بالعشر السور (من استطعتم) دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الانسانى ، وممن تعبدونه وتجعلونه شريكا لله سبحانه ۞ وقوله (من دون الله) متعلق بادعوا : أى ادعوا من استطعتم متجاوزين الله تعالى (ان كنتم صادقين) فيما تزعمون من افترائى له (فان لم يستجيبوا لكم) أى فان لم يفعلوا ماطلبته منهم وتحديتهم به من الاتيان بعشر سور مثله ، ولا استجابوا الى المعارضة المطلوبة منهم ، ويكون الضمير فى لكم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين أو للنبى ﷺ وحده ، وجمع تعظيما وتفخيما (فاعلموا) أمر لرسول الله ﷺ وللمؤمنين أو للرسول وحده على التأويل الذى سلف قريبا . ومعنى أمرهم بالعلم

أمرهم بالثبات عليه لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الاتيان بعشر سور مثله ، أوالمراد بالأمر بالعلم الأمر بالازدياد منه الى حدّ لايشوبه شك ولاتخالطه شبهة ، وهوعلم اليقين ، والأوّل أولى : ومعنى (أنما أنزل بعلم الله) أنه أنزل متلبسا بعلم الله المختص به الذى لاتطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الأفهام لما اشتمل عليه من الاعجاز الخارج عن طوق البشر (وأن لا إله إلا هو) أى واعلموا أن الله هو المتفرد بالألوهية لاشريك له ولا يقدر غيره على مايقدر عليه ، ثم ختم الآية بقوله (فهل أنتم مسلمون) أى ثابتون على الاسلام مخلصون له متزادون من الطاعات ، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الاتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم عليه و بصيرة زائدة وان كنتم مسلمين من قبل هذا فان الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه ، والطمأنينة به مطلوب منكم ، وقيل ان الضمير فى فان لم يستجيبوا للموصول فى من استطعتم ، وضمير لكم للكفار الذين تحداهم رسول الله ﷺ ، وكذلك ضمير فاعلموا ، والمعنى فان لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الاتيان بعشر سور من سائر الكفار ، ومن يعبدونهم و يزعمون أنهم يضرّون و ينفعون ، فاعلموا أن هذا القرآن الذى أنزله الله على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى لما اشتمل عليه من الاعجاز الذى تتقاصر دونه قوّة المخلوقين ، وأنه أنزل بعلم الله الذى لاتحيط به العقول ولاتبلغه الأفهام ، واعلموا أنه المتفرد بالألوهية لاشريك له فهل أنتم بعد هذا مسلمون : أى داخلون فى الاسلام متبعون لأحكامه مقتدون بشرائعه ، وهذا الوجه أقوى من الوجه الأوّل من جهة وأضعف منه من جهة ، فأما جهة قوّته فلاتساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها الى تأويل ، وأما ضعفه فلما فى ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه الى تكلف ، وهو أن يقال ان عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم على نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم فى عدم ايمانهم واستمرارهم على الكفر يفيد حصول العلم لهؤلاء الكفار بأن هذا القرآن من عند الله ، وأن الله سبحانه هو الاله وحده لاشريك له ، وذلك يوجب دخولهم فى الاسلام * واعلم أنه قد اختلف التحدّى للكفار بمعارضة القرآن ، فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله — قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله — و بعشر سور كما فى هذه الآية ، وذلك لأن العشرة أوّل عقد من العقود ، و بسورة منه كما تقدم وذلك لأن السورة أقل طائفة منه ، ثم ان الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لايطلب غيرها ولا يريد سواها ، فقال (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها) ، قال الفراء انّ كان هذه زائدة ، ولهذا جزم الجواب . وقال الزجاج من كان فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه نوف اليهم : أى من يكن يريد .

واختلف أهل التفسير فى هذه الآية . فقال الضحاك نزلت فى الكفار ، واختاره النحاس بدليل الآية التى بعدها — أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار — ، وقيل الآية واردة فى الناس على العموم كافرهم ومسلمهم * والمعنى أن من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك ، والمراد بزينتها : مايزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق ، وارتفاع الحظ ، ونفاذ القول ، ونحو ذلك ، و إدخال كان فى الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم لايكادون يريدون الآخرة ، ولهذا قيل انهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون فى الآخرة لأنهم جردوا قصدهم الى الدنيا ولم يعملوا للآخرة * وظاهر قوله (نوف اليهم أعمالهم فيها) أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوى ولا محالة ، ولكن الواقع فى الخارج يخالف ذلك ، فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته و إن عمل لها وأرادها فلا بدّ من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه . قال القرطبى ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ، وكذلك الآية التى فى الشورى — من

كان

كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ـ ، وكذلك ـ من كان يريد ثواب الدنيا نؤته منها ـ قيدتها وفسترتها التى فى « سبحان » ـ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ـ * قوله (وهم فيها لايبخسون) أى وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها : أى فى الدنيا لايبخسون : أى لاينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها ، وذلك فى الغالب وليس بمطرد ، بل ان قضت به مشيئته سبحانه ، ورجحته حكمته البالغة . وقال القاضى معنى الآية : من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا ، وهو ماينالون من الصحة ، والكفاف وسائر اللذات والمنافع ، نخص الجزاء بمثل ماذكره ، وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلا يسيرا * قوله (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار) الاشارة إلى المريدين المذكورين ، ولا بدّ من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتدّ بها الموجبة للجزاء الحسن فى الدار الآخرة ، أو تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدم (وحبط ماصنعوا) أى ظهر فى الدار الآخرة حبوط ماصنعوه من الأعمال التى كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروى ، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم ، وعدم الخلوص ، وارادة ماعند الله فى دار الجزاء ، بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها ، ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم ، فقال (وباطل ما كانوا يعملون) أى انه كان عملهم فى نفسه باطلا غير معتدّ به ، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ، ويترتب عليه مايترتب على العمل الصحيح * قوله (أفمن كان على بينة من ربه) بين سبحانه أن بين من كان طالبا للدنيا فقط ، ومن كان طالبا للآخرة تفاوتا عظيما ، وتباينا بعيدا * والمعنى : أفمن كان على بينة من ربه فى اتباع النبى ﷺ والايمان بالله كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها ، وقيل المراد بمن كان على بينة من ربه النبى ﷺ : أى أفمن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقرآن ، ومعه شاهد كجبريل . وقد بشرت به الكتب السالفة كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها * ومعنى البينة : البرهان الذى يدلّ على الحق ، والضمير فى قوله (ويتلوه شاهد) راجع الى البينة باعتبار تأويلها بالبرهان ، والضمير فى منه راجع الى القرآن ، لأنه قد تقدّم ذكره فى قوله ـ أم يقولون افتراه ـ أو راجع الى الله تعالى * والمعنى : ويتلو البرهان الذى هو البينة شاهد يشهد بصحته من القرآن ، أو من الله سبحانه ، والشاهد : هو الاعجاز الكائن فى القرآن ، أو المعجزات التى ظهرت لرسول الله ﷺ فان ذلك من الشواهد التابعة للقرآن ، وقال الفراء قال بعضهم ويتلوه شاهد منه الانجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن فى التصديق ، والهاء فى منه لله عزّ وجلّ ، وقيل المراد بمن كان على بينة من ربه : هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه * قوله (ومن قبله كتاب موسى) معطوف على شاهد ، والتقدير ويتلو الشاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى ، فهو وإن كان متقدما فى النزول فهو يتلو الشاهد فى الشهادة ، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا فى الوجود لكونه وصفا لازما غير مفارق فكان أعرق فى الوصفية من كتاب موسى * ومعنى شهادة كتاب موسى ، وهو التوراة أنه بشر بمحمد ﷺ وأخبر بأنه رسول من الله . قال الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ، لأن النبى ﷺ موصوف فى كتاب موسى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ (ومن قبله كتاب موسى) بالنصب ، وحكاه المهدوى عن الكلبى فيكون معطوفا على الهاء فى يتلوه * والمعنى ويتلو كتاب موسى جبريل ، وانتصاب إماما ورحمة على الحال ، والامام : هو الذى يؤتمّ به فى الدين ويقتدى به ، والرحمة : النعمة العظيمة التى أنعم الله بها على من أنزله عليهم وعلى من بعدهم باعتبار مااشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن ، والاشارة بقوله (أولئك) إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة ، وهو الكون على

البينة من الله، واسم الاشارة مبتدأ وخبره (يؤمنون به) أى يصدقون بالنبي ﷺ أو بالقرآن (ومن يكفر به من الأحزاب) أى بالنبي أو بالقرآن، والأحزاب: المتحزبون على رسول الله ﷺ من أهل مكة وغيرهم، أو المتحزبون من أهل الأديان كلها (فالنار موعده) أى هو من أهل النار لامحالة، وفى جعل النار موعدا إشعار بأن فيها مالا يحيط به الوصف من أفانين العذاب، ومثله قول حسان:

أوردتموها حياض الموت ضاحية * فالنار موعدها والموت لاقيها

(فلاتك فى مرية منه) أى لاتك فى شك من القرآن، وفيه تعريض بغيره ﷺ لأنه معصوم عن الشك فى القرآن، أو من الموعد (انه الحق من ربك) فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال (ولكن أكثر الناس لايؤمنون) بذلك مع وجوب الايمان به، وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقا، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلا.

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (فهل أنتم مسلمون) قال لأصحاب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس فى قوله (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) قال نزلت فى اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الله بن معبد قال: قام رجل إلى علىّ فقال: أخبرنا عن هذه الآية (من كان يريد الحياة الدنيا) إلى قوله (وباطل ماكانوا يعملون) قال ويحك: ذاك من كان يريد الدنيا لايريد الآخرة. وأخرج النحاس عن ابن عباس (من كان يريد الحياة الدنيا) أى ثوابها (وزينتها) مالها (نوف اليهم) نوفر لهم بالصحة والسرور فى الأهل والمال والولد (وهم فيها لايبخسون) لاينقصون، ثم نسخها — من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء — الآية. وأخرج أبو الشيخ عن السدى مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لايعمله الا التماس الدنيا، يقول الله أوفيه الذى التمس فى الدنيا وحبط عمله الذى كان يعمل، وهو فى الآخرة من الخاسرين. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال نزلت هذه الآية فى أهل الشرك. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله (نوف اليهم أعمالهم) قال طيباتهم. وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج نحوه. وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله (وحبط ماصنعوا فيها) قال حبط ماعملوا من خير وبطل فى الآخرة ليس لهم فيها جزاء. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال هم أهل الرياء. وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم فى المعرفة عن علىّ بن أبى طالب قال مامن رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل ما نزل فيك؟ قال أما تقرأ سورة هود (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) رسول الله ﷺ بينة من ربه وأنا شاهد منه. وأخرج ابن عساكر وابن مردويه من وجه آخر عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أفمن كان على بينة من ربه أنا، ويتلوه شاهد منه علىّ». وأخرج أبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله (أفمن كان على بينة من ربه) قال ذاك محمد ﷺ. وأخرج أبو الشيخ عن ابراهيم نحوه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ عن محمد بن علىّ بن أبى طالب قال قلت لأبى: ان الناس يزعمون فى قول الله سبحانه (ويتلوه شاهد منه) أنك أنت التالى. قال وددت أنى أنا هو، ولكنه لسان محمد ﷺ. وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة عن ابن عباس أن الشاهد جبريل، ووافقه سعيد بن جبير. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال جبريل فهو شاهد من الله بالذى يتلوه من كتاب الله الذى أنزل على محمد (ومن قبله كتاب موسى) قال ومن قبله التوراة على لسان موسى كما تلا القرآن على لسان محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم

وأبو

وأبو الشيخ وابن عساكر عن الحسن بن عليّ فى قوله (ويتلوه شاهد منه) قال محمد هو الشاهد من الله. وأخرج أبو الشيخ عن ابراهيم (ومن قبله كتاب موسى) قال ومن قبله جاء الكتاب الى موسى. وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة (ومن يكفر به من الأحزاب) قال الكفار أحزاب كلهم على الكفر. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال (ومن يكفر به من الأحزاب) قال من اليهود والنصارى.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَـٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ *

قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا بقولهم لأصنامهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقولهم: الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه سبحانه الى غيره، واللفظ وان كان لا يقتضى الا نفى وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الانكارى، فالمقام يفيد نفى المساوى لهم فى الظلم * فالمعنى على هذا: لا أحد مثلهم فى الظلم فضلا عن أن يوجد من هو أظلم منهم، والاشارة بقوله أولئك الى الموصوفين بالظلم المتبالغ، وهو مبتدأ، وخبره يعرضون على ربهم فيحاسبهم على أعمالهم، أو المراد بعرضهم: عرض أعمالهم (ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) الأشهاد: هم الملائكة الحفظة، وقيل المرسلون، وقيل الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بابلاغه، وقيل جميع الخلائق * والمعنى أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض: هؤلاء المعروضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم بما نسبوه اليه ولم يصرّحوا بما كذبوا به كأنه كان أمرا معلوما عند أهل ذلك الموقف * قوله (ألا لعنة الله على الظالمين) هذا من تمام كلام الأشهاد: أى يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ويقولون: ألا لعنة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه قاله بعد ما قال الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، والأشهاد جمع شهيد، ورجحه أبو عليّ بكثرة ورود شهيد فى القرآن كقوله ــ ويكون الرسول عليكم شهيدا. فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ــ، وقيل هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب، والفائدة فى قول الأشهاد بهذه المقالة المبالغة فى فضيحة الكفار، والتقريع لهم على رءوس الأشهاد، ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم (الذين يصدّون عن سبيل الله) أى يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه (ويبغونها عوجا) أى يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها، أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج منها الى الكفر، يقال بغيتك شرّا: أى طلبته لك (و) الحال أ(نهم بالآخرة هم كافرون) أى يصفونها بالعوج، والحال أنهم بالآخرة غير مصدّقين فكيف يصدّون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت! وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به، حتى كأن كفر غيرهم غير معتدّ به بالنسبة الى عظيم كفرهم (أولئك)

الموصوفون بتلك الصفات (لم يكونوا معجزين فى الأرض) أى ما كانوا يعجزون الله فى الدنيا ان أراد عقوبتهم (وما كان لهم من دون الله من أولياء) يدفعون عنهم مايريده الله سبحانه من عقوبتهم و إنزال بأسه بهم ، وجملة (يضاعف لهم العذاب) مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والتراخى عن تعجيله لهم ليكون عذابا مضاعفا . وقرأ ابن كثير وابن عامر و يزيد و يعقوب يضعف مشددا (ما كانوا يستطيعون السمع) أى أفرطوا فى إعراضهم عن الحق وبغضهم له ، حتى كأنهم لايقدرون على السمع ولا يقدرون على الابصار لفرط تعاميهم عن الصواب ، ويجوز أن يراد بقوله : وما كان لهم من دون الله من أولياء أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك ، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعا أو يدفعون عنهم ضررا ، ويجوز أن تكون ماهى المدية * والمعنى أنه يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والبصر . قال الفراء ما كانوا يستطيعون السمع لأن الله أضلهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج لبغضهم النبى ﷺ وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفهموا عنه . قال النحاس : هذا معروف فى كلام العرب ، يقال فلان لايستطيع أن ينظر الى فلان اذا كان ثقيلا عليه (أولئك) المتصفون بتلك الصفات (الذين خسروا أنفسهم) بعبادة غير الله * والمعنى : اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسرانهم فى تجارتهم أعظم خسران (وضلّ عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهب وضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التى يدّعون أنها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم الا الخسران * قوله (لاجرم) قال الخليل وسيبويه لاجرم بمعنى حق فهى عندهما بمنزلة كلمة واحدة ، و به قال الفراء ، وروى عن الخليل والفراء أنها بمنزلة قولك لابدّ ولامحالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا . وقال الزجاج ان جرم بمعنى كسب : أى كسب ذلك الفعل لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، وأنّ منصوبة بجرم . قال الأزهرى : وهذا من أحسن ماقيل فى هذه اللفظة ، وقال الكسائى : معنى لاجرم لاصدّ ولا منع عن أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ، وقال جماعة من النحويين : ان معنى لاجرم لاقطع قاطع (أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) قالوا : والجرم القطع ، وقد جرم النخل واجترمه : أى قطعه ، وفى هذه الآية بيان أنهم فى الخسران قد بلغوا الى حدّ يتقاصر عنه غيرهم ولا يبلغ اليه ، وهذه الآيات مقرّرة لما سبق من نفى المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، و بين من كان على بينة من ربه (ان الذين آمنوا) أى صدقوا بكل مايجب التصديق به من كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الايمان (وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) أى أنابوا اليه ، وقيل خشعوا ، وقيل خضعوا ، قيل وأصل الاخبات الاستواء فى الخبت : وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان . قال الفراء : الى ربهم ، ولربهم واحد (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات الصالحة (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) * قوله (مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع) ضرب للفريقين مثلا وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع ، على أن كل فريق شبه بشيئين ، أوشبه بمن جمع بين الشيئين ، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم ، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر ، وعلى هذا تكون الواو فى والأصمّ ، وفى والسميع لعطف الصفة على الصفة ، كما فى قول الشاعر :

* الى الملك القرم وابن الهمام * والاستفهام فى قوله (هل يستويان) للانكار : يعنى الفريقين ، وهذه الجملة مقررة لما تقدم من قوله (أفمن كان على بينة من ربه) وانتصاب مثلا على التمييز من فاعل يستويان : أى هل يستويان حالا وصفة (أفلا تذكرون) فى عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذى لايخفى على من له تذكر ، وعنده تفكر وتأمل ، والهمزة لانكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين.

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (ومن أظلم) قال : الكافر والمنافق (أولئك يعرضون على ربهم) فيسألهم عن أعمالهم (ويقول الأشهاد) الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) شهدوا به عليهم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : الأشهاد الملائكة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه ، وفى الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه و يستره من الناس و يقرّره بذنوبه ، ويقول له أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول رب أعرف ، حتى اذا قرّره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فانى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله ( الذين يصدّون عن سبيل الله) قال هو محمد يعنى سبيل الله ، صدّت قريش عنه الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (ويبغونها عوجا) يعنى يرجون بمكة غير الاسلام دينا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله ( أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ) الآية قال : أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك و بين طاعته فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فانه قال (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وأما فى الآخرة فانه قال ــ ولا يستطيعون خاشعة ــ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ما كانوا يستطيعون السمع) قال : ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيرا فينتفعوا به ، ولا يبصروا خيرا فيأخذوا به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (أخبتوا) قال خافوا . وأخرج ابن جرير عنه قال الاخبات : الانابة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ قال الاخبات : الخشوع والتواضع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : اطمأنوا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (مثل الفريقين كالأعمى والاصمّ) قال : الكافر (والبصير والسميع) قال : المؤمن .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ
ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ *
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَٰنِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ
أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ * وَيَٰقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّى أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَٰقَوْمِ مَنْ
يَنْصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ
ٱلْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ
كُنْتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ
نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ أنواع الدلائل التى هى أوضح من الشمس أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن فى الكلام ، ونقله من أسلوب الى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين ، والقبول أتم ، فقال (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة على تقدير حرف الجر : أى أرسلناه بأنى : أى أرسلناه متلبسا بذلك الكلام ، وهو أنى لكم نذير مبين . وقرأ الباقون بالكسر على ارادة القول : أى قائلا انى لكم ، والواو فى ولقد للابتداء ، واللام هى الموطئة للقسم ، واقتصر على النذارة دون البشارة ، لأن دعوته كانت لمجرد الانذار ، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به ، وجملة (أن لاتعبدوا الاالله) بدل من انى لكم نذير مبين : أى أرسلناه بأن لاتعبدوا الاالله ، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا ، أو بنذير ، أو بمبين ، وجملة (انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) تعليلية * والمعنى نهيتكم عن عبادة غيرالله لأنى أخاف عليكم ، وفيها تحقيق لمعنى الانذار واليوم الأليم هو يوم القيامة ، أو يوم الطوفان ، ووصفه بالأليم من باب الاسناد المجازى مبالغة ، ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم فى نبوته من ثلاث جهات ، فقال (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) والملأ الاشراف كما تقدم غير مرة ، ووصفهم بالكفر ذما لهم ، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة (مانراك الابشرا مثلنا) هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم فى نبوته : أى نحن وأنت مشتركون فى البشرية فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا ، والجهة الثانية (ومانراك اتبعك الاالذين هم أراذلنا) ولم يتبعك أحد من الأشراف ، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك ، والأراذل جمع أرذل وأرذل جمع رذل مثل أكالب وأكلب وكلب ، وقيل الأراذل جمع الأرذل كالأساود جمع أسود ، وهم السفلة . قال النحاس : الأراذل الفقراء والذين لاحسب لهم ، والخسيسو الصناعات . قال الزجاج : نسبوهم الى الحياكة ، ولم يعلموا أن الصناعات لاأثر لها فى الديانة . وقال ثعلب عن ابن الأعرابى السفلة هو الذى يصلح الدنيا بدينه ، قيل له فمن سفلة السفلة ؟ قال الذى يصلح دنيا غيره بفساد دينه ، والظاهر من كلام أهل اللغة أن السفلة هو الذى يدخل فى الحرف الدنية ، والرؤية فى الموضعين ان كانت القلبية فبشرا فى الأول واتبعك فى الثانى هما المفعول الثانى ، وان كانت البصرية فهما منتصبان على الحال ، وانتصاب بادى الرأى على الظرفية والعامل فيه اتبعك * والمعنى فى ظاهر الرأى من غير تعمق ، يقال بدا يبدو : اذا ظهر . قال الازهرى : معناه فيما يبدو لنا من الرأى * والوجه الثالث من جهات قدحهم فى نبوته (وما نرى لكم علينا من فضل) خاطبوه فى الوجهين الأولين منفردا ، وفى هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه : أى مانرى لك ولمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل تتميزون به وتستحقون ماتدعونه ، ثم أضربوا عن الثلاثة المطاعن وانتقلوا الى ظنهم المجرد عن البرهان الذى لامستند له الامجرد العصبية والحسد واستبقاء ماهم فيه من الرياسة الدنيوية ، فقالوا (بل نظنكم كاذبين) فيما تدعونه ، ويجوز أن يكون هذا خطابا للأراذل وحدهم ، والأول أولى ، لأن الكلام مع نوح لامعهم الابطريق التبعية له ، ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم ، فقال (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) أى أخبرونى ان كنت على برهان من ربى فى النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ماجعلتموه قادحا ليس بقادح فى الحقيقة ، فان المساواة فى صفة البشرية لاتمنع المفارقة فى صفة النبوة ، واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة فانهم مثلكم فى البشرية والعقل والفهم ، فاتباعهم لى حجة عليكم لا لكم ، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة (وآتانى رحمة من عنده) هى النبوة ، وقيل الرحمة المعجزة ، والبينة النبوة ، قيل ويجوز أن تكون الرحمة هى البينة نفسها ، والأولى تفسير الرحمة بغير مافسرت به البينة ، والافراد فى (فعميت) على ارادة كل واحدة منهما ، أو على ارادة البينة ، لأنها هى التى تظهر لمن تفكر وتخفى على

من لم يتفكر ، ومعنى عميت خفيت ، وقيل الرحمة هى على الخلق ، وقيل هى الهداية الى معرفة البرهان ، وقيل الايمان ، يقال عميت عن كذا ، وعمى علىّ كذا : اذا لم أفهمه ، قيل وهو من باب القلب ، لأن البينة أو الرحمة لاتعمى وانما يعمى عنها فهو كقولهم : أدخلت القلنسوة رأسى. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى وحفص فعميت بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول : أى فعماها الله عليكم ، وفى قراءة أبىّ (فعماها عليكم) والاستفهام فى (أنلزمكموها) للانكار : أى لايمكننى أن أضطركم الى المعرفة بها والحال انكم لها كارهون ، والمعنى أخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوّتى الا أنها خافية عليكم أيمكننا أن نضطركم الى العلم بها ، والحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها ، فان ذلك لايقدر عليه الا الله عزّ وجلّ ، وحكى الكسائى والفراء اسكان الميم الأولى فى أنلزمكموها تخفيفا كما فى قول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب ＊ إثما من الله ولا واغل

فان إسكان الباء فى أشرب للتخفيف . وقد قرأ أبو عمرو كذلك ＊ قوله (وياقوم لاأسألكم عليه مالا إن أجرى الا على الله) فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لايطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلا للتهمة ، ويكون لقول الكافرين مجال بانه انما ادّعى ما ادّعى طلبا للدنيا ، والضمير فى عليه راجع الى ماقاله لهم فيما قبل هذا ＊ وقوله (وما أنا بطارد الذين آمنوا) كالجواب عما يفهم من قولهم (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) من التلميح منهم الى ابعاد الأراذل عنه ، وقيل انهم سألوه طردهم تصريحا لاتلميحا ، ثم علل ذلك بقوله (انهم ملاقوا ربهم) أى لا أطردهم ، فانهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو مجازيهم على ايمانهم لأنهم طلبوا بايمانهم ماعنده سبحانه ، وكأنه قال هذا على وجه الاعظام لهم ، ويحتمل أنه قاله خوفا من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم ، ثم بين لهم ماهم عليه فى هذه المطالب التى طلبوها منه والعلل التى اعتلوا بها عن اجابته فقال (ولكنى أراكم قوما تجهلون) كل ماينبغى أن يعلم ، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يطردهم ، ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله (وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم) أى من يمنعنى من عذاب الله وانتقامه ان طردتهم ؟ فان طردهم بسبب سبقهم الى الايمان والاجابة الى الدعوة التى أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم لايقع من أنبياء الله المؤيدين بالعصمة ، ولو وقع ذلك منهم فرضا وتقديرا لكان فيه من الظلم مالا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس ＊ وقوله (أفلا تذكرون) معطوف على مقدر كأنه قيل : أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر أفلا تذكرون من أحوالهم ماينبغى تذكره وتتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ ، وماهم عليه من الصواب ＊ قوله (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) بين لهم أنه كما لايطلب منهم شيئا من أموالهم على تبليغ الرسالة ، كذلك لايدعى أن عنده خزائن الله حتى يستدلوا بعدمها على كذبه ، كما قالوا (ومانرى لكم علينا من فضل) والمراد بخزائن الله خزائن رزقه (ولا أعلم الغيب) أى ولاأدعى أنى أعلم بغيب الله ، بل لم أقل لكم الا أنى نذير مبين . انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم (ولا أقول) لكم (انى ملك) حتى تقولوا مانراك إلا بشرا مثلنا ＊ وقد استدلّ بهذا من قال ان الملائكة أفضل من الأنبياء ، والأدلة فى هذه المسئلة مختلفة ، وليس لطالب الحق الى تحقيقها حاجة ، فليست مما كلفنا الله بعلمه (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) أى تحتقر ، والازدراء مأخوذ من أزرى عليه : اذا عابه ، وزرى عليه : اذا احتقره ، وأنشد الفراء :

يباعده الصديق وتزدريه ＊ حليلته وينهره الصغير

والمعنى أنى لا أقول لهؤلاء المتبعين لى المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم (لن يؤتيهم الله خيرا) بل قد آتاهم الخير العظيم بالايمان به واتباع نبيه ، فهو مجازيهم بالجزاء العظيم فى الآخرة ورافعهم فى الدنيا

الى أعلى محل ، ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئا (الله أعلم بما فى أنفسهم) من الايمان به والاخلاص له فمجازيهم على ذلك ، ليس لى ولا لكم من أمرهم شىء (انى اذا لمن الظالمين) لهم ان فعلت ماتريدونه بهم ، أو من الظالمين لأنفسهم ان فعلت ذلك بهم ، ثم جاوبوه بغير ما تقدم من كلامهم وكلامه عجزا عن القيام بالحجة وقصورا عن رتبة المناظرة وانقطاعا عن المباراة بقولهم (يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) أى خاصمتنا بأنواع الخصام ودفعتنا بكل حجة لها مدخل فى المقام ، ولم يبق لنا فى هذا الباب مجال ، فقد ضاقت علينا المسالك وانسدت أبواب الحيل (فأتنا بما تعدنا) من العذاب الذى تخوفنا منه وتخافه علينا (ان كنت من الصادقين) فيما تقوله لنا ، فأجاب بأن ذلك ليس اليه وانما هو بمشيئة الله وارادته ، و (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) فان قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم ، وان قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره (وما أنتم بمعجزين) بفائتين عما أراده الله بكم بهرب أومدافعة (ولا ينفعكم نصحى) الذى أبذله لكم وأستكثر منه قياما منى بحق النصيحة لله بابلاغ رسالته ، ولكم بايضاح الحق و بيان بطلان ما أنتم عليه (ان أردت أن أنصح لكم) وجواب هذا الشرط محذوف ، والتقدير إن أردت أن أنصح لكم لاينفعكم نصحى ، كما يدل عليه ماقبله (إن كان الله يريد أن يغويكم) أى إن كان الله يريد إغواءكم فلا ينفعكم النصح منى ، فكان جواب هذا الشرط محذوفا كالأول ، وتقديره ماذكرنا ، وهذا التقدير انما هو على مذهب من يمنع من تقدم الجزاء على الشرط ، وأما على مذهب من يجيزه ، فجزاء الشرط الأول ولا ينفعكم نصحى ، وجزاء الشرط الثانى الجملة الشرطية الأولى وجزاؤها . قال ابن جرير : معنى يغويكم يهلككم بعذابه ، وظاهر لغة العرب أن الاغواء الاضلال ، فمعنى الآية لاينفعكم نصحى ان كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد ويخذلكم عن طريق الحق ، وحكى عن طىّ أصبح فلان غاويا : أى مريضا ، وليس هذا المعنى هو المراد فى الآية وقد ورد الاغواء بمعنى الاهلاك ، ومنه ــ فسوف يلقون غيا ــ وهو غير ما فى الآية هذه (هو ربكم) فاليه الاغواء واليه الهداية (واليه ترجعون) فيجازيكم بأعمالكم ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) ، قال فيما ظهر لنا . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء مثله . وأخرج ابن جرير وابو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (إن كنت على بينة من ربى) قال : قد عرفتها وعرفت بها أمره ، وأنه لا إله إلا هو ، (وآتانى رحمة من عنده) قال : الاسلام ، والهدى ، والايمان ، والحكم ، والنبوة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (أنلزمكموها) قال أما والله لو استطاع نبىّ الله لألزمها قومه ، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يملكه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه كان يقرأ أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية . قال فى قراءة أبىّ أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبىّ بن كعب أنه قرأ أنلزمكموها من شطر قلوبنا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (وما أنا بطارد الذين آمنوا) ، قال : قالوا له يانوح إن أحببت أن نتبعك فاطردهم ، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأرض سواء ، وفى قوله (إنهم ملاقوا ربهم) قال : فيسألهم عن أعمالهم (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) التى لايفنيها شىء ، فأكون إنما دعوتكم لتتبعونى عليها ، لأعطيكم بملكه لى عليها (ولا أعلم الغيب) لا أقول : اتبعونى على علمى بالغيب (ولا أقول إنى ملك) نزلت من السماء برسالة ، ما أنا إلا بشر مثلكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) . قال : حقرتموهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله (لن يؤتيهم الله خيرا) قال : يعنى إيمانا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (فأتنا بما تعدنا) قال: تكذيبا بالعذاب وأنه باطل.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ * وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ *

قوله (أم يقولون افتراه) أنكر سبحانه عليهم قولهم: إن ما أوحى إلى نوح مفترى، فقال (أم يقولون افتراه) ثم أمره أن يجيب بكلام منصف، فقال (قل إن افتريته فعلىّ إجرامى) بكسر الهمزة على قراءه الجمهور، مصدر أجرم: أى فعل مايوجب الاثم، وجرم وأجرم بمعنى قاله النحاس * والمعنى: فعلىّ إثمى أو جزاء كسبى، ومن قرأ بفتح الهمزة، قال: هو جمع جرم ذكره النحاس أيضا (وأنا برىء مما تجرمون) أى من إجرامكم بسبب ماتنسبونه إلىّ من الافتراء، قيل وفى الكلام حذف والتقدير لكن ما افتريته، فالاجرام وعقابه، ليس إلا عليكم وأنا برىء منه.

وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية، فقيل انها حكاية عن نوح، وما قاله لقومه، وقيل هى حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد ﷺ وكفار مكة، والأول أولى، لأن الكلام قبلها و بعدها مع نوح عليه السلام. قوله (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) أنه لن يؤمن فى محل رفع، على أنه نائب الفاعل الذى لم يسمّ، ويجوز أن يكون فى موضع نصب بتقدير الباء: أى بأنه، وفى الكلام تأييس له من إيمانهم، وأنهم مستمرّون على كفرهم، مصممون عليه، لايؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانه (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) البؤس: الحزن، أى فلا تحزن، والبائس: المستكين، نهاه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين، لأن الابتئاس حزن فى استكانة. ومنه قول الشاعر:

وكم من خليل أو حميم رزئته * فلم أبتئس والرزء فيه جليل

ثم ان الله سبحانه لما أخبره أنهم لايؤمنون ألبتة، عرفه وجه اهلاكهم، وألهمه الأمر الذى يكون به خلاصه وخلاص من آمن معه، فقال (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) أى اعمل السفينة متلبسا بأعيننا: أى بمرءى منا، والمراد بحراستنا لك، وحفظنا لك، وعبر عن ذلك بالأعين، لأنها آلة الرؤية، والرؤية هى التى

تكون بها الحراسة والحفظ فى الغالب ، وجمع الأعين للتعظيم لا للتكثير ، وقيل المعنى (بأعيننا) أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك ، وقيل (بأعيننا) بعلمنا ، وقيل بأمرنا * ومعنى بوحينا بما أوحينا إليك من كيفية صنعتها (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) أى لا تطلب امهالهم ، فقدحان وقت الانتقام منهم ، وجملة (انهم مغرقون) للتعليل : أى لا تطلب منا إمهالهم ، فانه محكوم منا عليهم بالغرق ، وقدمضى به القضاء ، فلا سبيل إلى دفعه ولا تأخيره ، وقيل : المعنى ولا تخاطبنى فى تعجيل عقابهم فانهم مغرقون فى الوقت المضروب لذلك ، لا يتأخر إغراقهم عنه ، وقيل المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه (ويصنع الفلك) أى وطفق يصنع الفلك ، أو وأخذ يصنع الفلك ، وقيل هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة وجملة ، (وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه) فى محل نصب على الحال : أى استهزءوا به لعمله السفينة . قال الأخفش والكسائى ، يقال سخرت به ومنه ، وفى وجه سخريتهم منه قولان : أحدهما أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة ، فيقولون يانوح صرت بعد النبوة نجارا ، والثانى أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة ، وكانو لا يعرفونها قبل ذلك ، قالوا يانوح ماتصنع بها ؟ قال أمشى بها على الماء ، فعجبوا من قوله ، وسخروا به ، ثم أجاب عليهم بقوله (إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال = أنه قيل فماذا قال لهم ؟ والمعنى : إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم فانا نسخر منكم غدا عند الغرق ، ومعنى السخرية هنا : الاستجهال ، أى إن تستجهلونا فانا نستجهلكم كما تستجهلون ، واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم ، والا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده ، والتشبيه فى قوله (كما تسخرون) لمجرد التحقق والوقوع ، أوالتجدد والتكرر ، والمعنى : إنا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك ، أومتجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك ، وقيل معناه : نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق ، وفيه نظر فان حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية ، إذ هم فى شغل شاغل عنها ، ثم هددهم بقوله (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) وهو عذاب الغرق فى الدنيا (ويحلّ عليه عذاب مقيم) وهو عذاب النار الدائم ، ومعنى يحلّ : يحل المؤجل حالا ، مأخوذ من حلول الدين المؤجل ، ومن موصولة فى محل نصب ، ويجوز أن تكون استفهامية فى محل رفع : أى أينا يأتيه عذاب يخزيه ، وقيل فى موضع رفع بالابتداء ، ويأتيه الخبر ، ويخزيه صفة لعذاب . قال الكسائى ان ناسا من أهل الحجاز يقولون سوف تعلمون ، قال ومن قال ستعلمون أسقط الواو والفاء جميعا ، وجوز الكوفيون سف تعلمون ومنعه البصريون ، والمراد بعذاب الخزى العذاب الذى يخزى صاحبه ويحل عليه العار * قوله (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) حتى هى الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله : واصنع الفلك بأعيننا .

والتنور اختلف فى تفسيرها على أقوال ، الأول أنها وجه الأرض والعرب تسمى وجه الأرض تنورا ، روى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن عيينة ، الثانى أنه تنور الخبز الذى يخبزون فيه ، وبه قال مجاهد وعطية والحسن ، وروى عن ابن عباس أيضا ، الثالث أنه موضع اجتماع الماء فى السفينة ، روى عن الحسن ، الرابع أنه طلوع الفجر ، من قولهم تنوّر الفجر ، روى عن علىّ بن أبى طالب ، الخامس أنه مسجد الكوفة ، روى عن علىّ أيضا ومجاهد . قال مجاهد كان ناحية التنور بالكوفة ، السادس أنه أعالى الأرض والمواضع المرتفعة . قاله قتادة ، السابع أنه العين التى بالجزيرة المسماة عين الوردة ، روى ذلك عن عكرمة ، الثامن أنه موضع بالهند . قال ابن عباس كان تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والارض . قال ـ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا ـ ، فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان

علامة ، هكذا قال ، وفيه نظر ، فان القول الرابع ينافى هذا الجمع ، ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء الا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخرا . وقد ذكر أهل اللغة أن الفور : الغليان ، والتنور : اسم عجمى عرّبته العرب ، وقيل معنى فار التنور : التمثيل بحضور العذاب كقولهم : حمى الوطيس : اذا اشتدّ الحرب ، ومنه قول الشاعر :

تركتم قدركم لاشيء فيها ٭ وقدر القوم حامية تفور

يريد الحرب ٭ قوله (قلنا احمل فيها من كلّ زوجين اثنين) أى قلنا يانوح احمل فى السفينة من كل زوجين مما فى الأرض من الحيوانات اثنين ذكرا وأنثى ، وقرأ حفص من كلّ بتنوين كل : أى من كل شيء زوجين ، والزوجان للاثنين اللذين لايستغنى أحدهما عن الآخر ، و يطلق على كل واحد منهما زوج كما يقال للرجل زوج وللمرأة زوج ، و يطلق الزوج على الاثنين اذا استعمل مقابلا للفرد ، و يطلق الزوج على الضرب والصنف ، ومنه قوله تعالى ــ وأنبتت من كل زوج بهيج ــ ، ومنه قول الأعشى :

وكل ضرب من الديباج يلبسه ٭ أبوحذافة محبوّ بذاك معا

أراد كل صنف من الديباج (وأهلك) عطف على زوجين ، أوعلى اثنين على قراءة حفص ، وعلى محل كل زوجين ، فانه فى محلّ نصب باحمل ، أوعلى اثنين على قراءة الجمهور ، والمراد امرأته ، و بنوه ، ونساؤهم (إلا من سبق عليه القول) أى من تقدّم الحكم عليه بأنه من المغرقين فى قوله (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) على الاختلاف السابق فيهم ، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة (احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك) ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامرأته ، واعلة أمّ كنعان جعل الاستثناء من أهلك ، ويكون متصلا ان أريد بالأهل ماهو أعمّ من المسلم والكافر منهم ، ومنقطعا ان أريد بالأهل المسلمون منهم فقط ٭ قوله (ومن آمن) معطوف على أهلك : أى واحمل فى السفينة من آمن من قومك ، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم ، أوللاستثناء منهم على القول الآخر ، ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة الى من كفر به ، فقال (وما آمن معه الا قليل) قيل هم ثمانون إنسانا : منهم ثلاثة من بنيه ، وهوسام ، وحام ، و يافث ، وزوجاتهم ، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين ، وهى موجودة بناحية الموصل ، وقيل كانوا عشرة ، وقيل سبعة ، وقيل كانوا اثنين وسبعين ، وقيل غير ذلك ٭ قوله (وقال اركبوا فيها) القائل نوح ، وقيل الله سبحانه ٭ والأوّل أولى ، لقوله (ان ربى لغفور رحيم) والركوب : العلوّ على ظهر الشيء حقيقة نحو ركب الدابة ، أو مجازا نحو ركبه الدين ، وفى الكلام حذف : أى اركبوا الماء فى السفينة فلا يرد أن ركب يتعدّى بنفسه ، وقيل ان الفائدة فى زيادة (فى) أنه أمرهم بأن يكونوا فى جوف السفينة لاعلى ظهرها ، وقيل انها زيدت لرعاية جانب المحلية فى السفينة كما فى قوله ــ فاذا ركبوا فى الفلك ــ ، وقوله ــ حتى اذا ركبا فى السفينة ــ قيل ولعلّ نوحا قال هذه المقالة بعد إدخال ماأمر بحمله من الأزواج ، كأنه قيل : فحمل الأزواج وأدخلها فى الفلك ، وقال للمؤمنين ، و يمكن أن يقال انه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج ، والأهل والمؤمنين ، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لايعقل من الحيوانات ، أويكون هذا على طريقة التغليب ٭ قوله (بسم الله) متعلق باركبوا ، أوحال من فاعله : أى مسمين الله ، أو قائلين (بسم الله مجراها ومرساها) قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضمّ الميم فيهما الا من شذّ منهم على أنهما اسما زمان ، وهما فى موضع نصب على الظرفية : أى وقت مجراها ومرساها ، ويجوز أن يكونا مصدرين : أى وقت إجرائها و إرسائها . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى وحفص مجراها بفتح الميم ، ومرساها بضمها ، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها فيهما .

وقرأ مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدرى وأبو رجاء العطاردى مجريها ومرسيها على أنهما وصفان لله ، ويجوز أن يكونا فى موضع رفع بإضمار مبتدأ : أى هو مجريها ومرسيها (إن ربى لغفور) للذنوب (رحيم) بعباده ، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلا منه لبقاء هذا الجنس الحيوانى ، وعدم استئصاله بالغرق * قوله (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) هذه الجملة متصلة بجملة محذوفة دلّ عليها الأمر بالركوب ، والتقدير فركبوا مسمين ، وهى تجرى بهم ، والموج جمع موجة ، وهى ماارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح ، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض * قوله (ونادى نوح ابنه) هو كنعان ، قيل وكان كافرا ، واستبعد كون نوح ينادى من كان كافرا مع قوله ـ ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ـ ، وأجيب بأنه كان منافقا فظن نوح أنه مؤمن ، وقيل حمله شفقة الأبوّة على ذلك ، وقيل انه كان ابن امرأته ولم يكن بابنه ، ويؤيده ماروى أن عليا قرأ ونادى نوح ابنها ، وقيل انه كان لغير رشدة ، وولد على فراش نوح ، وردّ بأن قوله (ونادى نوح ابنه) ، وقوله (ان ابنى من أهلى) يدفع ذلك على مافيه من عدم صيانة منصب النبوّة (وكان فى معزل) أى فى مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح : اركبوا فيها ، وقيل فى معزل من دين أبيه ، وقيل من السفينة ، قيل وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق ، بل كان فى أوّل فور التنور * قوله (يابنىّ اركب معنا) قرأ عاصم بفتح الياء ، والباقون بكسرها ، فأما الكسر فلجعله بدلا من ياء الاضافة ، لأن الأصل يابنيّ ، وأما الفتح فلقلب ياء الاضافة ألفا لخفة الألف ، ثم حذف الألف وبقيت الفتحة لتدلّ عليه ، قال النحاس : وقراءة عاصم مشكلة . وقال أبو حاتم أصله يابنياه ثم تحذف ، وقد جعل الزجاج للفتح وجهين ، وللكسر وجهين ، أما الفتح بالوجه الأوّل ماذكرناه ، والوجه الثانى أن تحذف الألف لالتقاء الساكنين ، وأما الكسر فالوجه الأوّل ماذكرناه ، والثانى أن تحذف لالتقاء الساكنين كذا حكى عنه النحاس . وقرأ أبو عمرو والكسائى وحفص (اركب معنا) بادغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج . وقرأ الباقون بعدم الادغام (ولاتكن مع الكافرين) نهاه عن الكون مع الكافرين : أى خارج السفينة ، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم ، ثم حكى الله سبحانه ماأجاب به ابن نوح على أبيه فقال (قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) أى يمنعنى بارتفاعه من وصول الماء إلىّ ، فأجاب عنه نوح بقوله (لاعاصم اليوم من أمر الله) أى لامانع فانه يوم قد حقّ فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه ، نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق فى ذلك اليوم اندراجا أوّليا ، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره والاستثناء قال الزجاج : هو منقطع : أى لكن من رحمه فهو يعصمه ، فيكون من رحم فى موضع نصب ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا على أن يكون عاصم بمعنى معصوم : أى لامعصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله : مثل ـ ماء دافق ـ وعيشة راضية ـ ومنه قول الشاعر :

دع المكارم لاتنهض لبغيتها * واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

أى المطعم المكسوّ ، واختار هذا الوجه ابن جرير ، وقيل العاصم بمعنى ذى العصمة : كلابن وتامر ، والتقدير لاعاصم قط الا مكان من رحم الله ، وهو السفينة ، وحينئذ فلا يرد مايقال ان معنى من رحم من رحمه الله ، ومن رحمه الله هو معصوم ، فكيف يصحّ استثناؤه عن العاصم ، لأن فى كل وجه من هذه الوجوه دفعا للاشكال . وقرئ (إلا من رحم) على البناء للمفعول (وحال بينهما الموج) أى حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق ، وقيل بين ابن نوح وبين الجبل ، والأوّل أولى ، لأن تفرّع (فكان من المغرقين) عليه يدل على الأوّل لاعلى الثانى ، لأن الجبل ليس بعاصم * قوله (وقيل ياأرض ابلعى ماءك)

يقال

يقال : بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع ، و بلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائى والفراء : والبلع الشرب ، ومنه البالوعة ، وهى الموضع الذى يشرب الماء ، والازدراد ، يقال بلع ما فى فمه من الطعام اذا ازدرده واستعير البلع الذى هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج (ويا سماء أقلعى) الاقلاع الامساك ، يقال أقلع المطر اذا انقطع * والمعنى أمر السماء بامساك الماء عن الارسال ، وقدّم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها (وغيض الماء) أى نقص ، يقال غاض الماء وغضته أنا ( وقضى الأمر) أى أحكم وفرغ منه : يعنى أهلك الله قوم نوح على تمام و إحكام (واستوت على الجودىّ) أى استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودى ، وهو جبل بقرب الموصل ، وقيل إن الجودى اسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل :

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به * وقبلنا سبح الجودىّ والجمد

و يقال انه من جبال الجنة فلذا استوت عليه (وقيل بعدا للقوم الظالمين) القائل هو الله سبحانه ليناسب صدر الآية ، وقيل هو نوح وأصحابه * والمعنى : وقيل هلا كا للقوم الظالمين ، وهو من الكلمات التى تختص بدعاء السوء ، ووصفهم بالظلم للاشعار بأنه علة الهلاك ، وللايماء الى قوله ـ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة الى محل يتقاصر عنه الوصف وتضعف عن الاتيان بما يقارب به قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الأقدام فى علم البيان الراسخين فى علم اللغة المطلعين على ماهو مدوّن من خطب مصاقع خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها ، وقد تعرّض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم فأطالوا وأطابوا ، رحمنا الله واياهم برحمته الواسعة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فعلىّ اجرامى) قال عملى (وأنا برىء مما تجرمون) أى بما تعملون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) وذلك حين دعا عليهم نوح قال ـ لا تذر على الأرض من الكفار ديارا ـ . وأخرج أحمد فى الزهد وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن قال : ان نوحا لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فلا تبتئس) قال فلا تحزن . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عنه فى قوله (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) قال بعين الله ووحيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك ، فأوحى الله اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ كان نوح مكث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جعل يعملها سفينة و يمرّون فيسألونه فيقول أعملها سفينة فيسخرون منه ، و يقولون يعمل سفينة فى البرّ ، وكيف تجرى ؟ قال سوف تعلمون فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء فى السكك خشيته أمّ الصبى عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أمّ الصبى ، وقد ضعفه الذهبى فى مستدركه على مستدرك الحاكم . وقد روى فى صفة السفينة وقدرها أحاديث وآثار ليس فى ذكرها هنا كثير فائدة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (من يأتيه عذاب يخزيه) قال هو الغرق (ويحلّ عليه عذاب مقيم) قال هو الخلود فى النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه

XI. ٤٧٦-٤٧١



عنه قال : كان بين دعوة نوح و بين هلاك قومه ثلثمائة سنة ، وكان فار التنور بالهند وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعا . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : التنور العين التي بالجزيرة عين الوردة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال : فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة . وقد روى عنه نحو هذا من طرق . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : التنور وجه الأرض ، قيل له اذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن علي وفار التنور . قال طلع الفجر قيل له اذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك . وقد روى في تفسير التنور غير هذا . وقد قدمنا الاشارة الى ذلك ، وروى في صفة القصة وماحمله نوح في السفينة ، وكيف كان الغرق وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لامدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ( بسم الله مجراها ومرساها ) قال حين يركبون ويجرون ويرسون . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كان اذا أراد أن ترسى قال بسم الله فأرست ، واذا أراد أن تجرى قال بسم الله فجرت . وأخرج أبو يعلى والطبراني وابن السني وابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله ﷺ « أمان لأمتي من الغرق اذا ركبوا الفلك أن يقولوا : بسم الله الملك الرحمن بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم وماقدروا الله حق قدره الى آخر الآية » وأخرجه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ . وأخرجه أيضا أبو الشيخ عنه مرفوعا من طريق أخرى . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان . وأخرج عبدالرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله ( لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ) قال : لاناج إلا أهل السفينة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن القاسم ابن أبي بزة في قوله ( وحال بينهما الموج ) قال : بين ابن نوح والجبل . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله ( ياأرض ابلعي ) قال : هو بالحبشية . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه في ابلعي قال بالحبشية : أي ازدرديه . وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : معناه اشربي بلغة الهند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله ، أقول وثبوت لفظ البلع ومايشتق منه في لغة العرب ظاهر مكشوف ، فما لنا وللحبشة والهند .

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۞ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۞

معنى (ونادى نوح ربه) دعاه ، والمراد أراد دعاءه بدليل الفاء في ( فقال رب ان ابني من أهلي )

وعطف الشيء على نفسه غير سائغ ، فلابدّ من التقدير المذكور ، ومعنى قوله ( إن ابني من أهلي ) أنه من الأهل الذين وعدتني بتنجيتهم بقولك : وأهلك * فان قيل كيف طلب نوح عليه السلام نجاز ماوعده الله بقوله (وأهلك) وهو المستثنى منه ، وترك مايفيده الاستثناء ، وهو ( إلا من سبق عليه القول ) * فيجاب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول ، فانه كان يظنه من المؤمنين ( وان وعدك الحق ) الذي لاخلف فيه ، وهذا منه ( وأنت أحكم الحاكمين ) أي أتقن المتقنين لما يكون به الحكم ، فلايتطرق إلى حكمك نقض ، وقيل أراد بأحكم الحاكمين أعلمهم وأعدلهم : أي أنت أكثر علما وعدلا من ذوي الحكم ، وقيل إن الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدارع ، ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل ، وأنه خارج بقيد الاستثناء ( قال يانوح انه ليس من أهلك ) الذين آمنوا بك وتابعوك وان كان من أهلك باعتبار القرابة ، ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين لاقرابة النسب وحده ، فقال (انه عمل غير صالح) قرأ الجمهور عمل على لفظ المصدر . وقرأ ابن عباس وعكرمة والكسائي و يعقوب عمل على لفظ الفعل ، ومعنى القراءة الأولى المبالغة في ذمه كأنه جعل نفس العمل ، وأصله ذو عمل غير صالح ، ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل . كذا قال الزجاج وغيره ، ومعنى القراءة الثانية ظاهر : أي انه عمل عملا غير صالح ، وهو كفره وتركه لمتابعة أبيه ، ثم نهاه عن مثل هذا السؤال ، فقال (فلا تسألن ماليس لك به علم) لما بين له بطلان مااعتقده من كونه من أهله فرّع على ذلك النهي عن السؤال ، وهو وان كان نهيا عاما بحيث يشمل كل سؤال لايعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب ، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولا أوليا ، وفيه عدم جواز الدعاء بما لايعلم الانسان مطابقته للشرع ، وسمي دعاءه سؤالا لتضمنه معنى السؤال ( اني أعظك أن تكون من الجاهلين ) أي أحذرك أن تكون من الجاهلين كقوله ـ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ـ وقيل المعنى : أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين و يعليه بها إلى مقام العلماء العاملين ، ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع ، وأن دعاءه ناشيء عن وهم كان يتوهمه بادر الى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة ، ( قال ربّ اني أعوذ بك أن أسألك ماليس لي به علم ) أي أعوذ بك أن أطلب منك مالاعلم لي بصحته وجوازه ، (وان لاتغفرلي) ذنب ما دعوت به على غير علم مني (وترحمني) برحمتك التي وسعت كل شيء فتقبل توبتي ( أكن من الخاسرين ) في أعمالي فلا أربح فيها * القائل هو الله ، أو الملائكة ( قيل يانوح اهبط ) أي انزل من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض فقد بلعت الأرض ماءها وجفت (بسلام منا) أي بسلامة وأمن ، وقيل بتحية (و بركات) أي نعم ثابتة ، مشتق من بروك الجمل ، وهو ثبوته ، ومنه البركة لثبوت الماء فيها ، وفي هذا الخطاب له دليل على قبول تو بته ومغفرة زلته ( وعلى أمم ممن معك ) أي ناشئة ممن معك ، وهم المتشعبون من ذرية من كان معه في السفينة ، وقيل أراد من في السفينة ، فانهم أمم مختلفة وأنواع من الحيوانات متباينة ، قيل أراد الله سبحانه بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمنا من ذريتهم ، وأراد بقوله (وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) من صار كافرا من ذريتهم الى يوم القيامة ، وارتفاع أمم في قوله (وأمم سنمتعهم) على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي ومنهم أمم ، وقيل على تقدير ويكون أمم ، وقال الأخفش : هو كماتقول : كلمت زيدا وعمرو جالس ، وأجاز الفراء في غير القراءة وأمما سنمتعهم : أي ونمتع أمما ، ومعنى الآية : وأمم سنمتعهم في الدنيا بما فيها من المتاع ، ونعطيهم منها مايعيشون به ثم يمسهم منا في الآخرة عذاب أليم ، وقيل يمسهم إما في الدنيا أو في الآخرة ، والاشارة بقوله (تلك) الى قصة نوح ، وهي مبتدأ والجمل بعده أخبار (من أنباء

XI 52-63



الغيب) من جنس أنباء الغيب ، والأنباء جمع نبأ وهو الخبر : أى من أخبار الغيب التى مرت بك فى هذه السورة ، والضمير فى (نوحيها اليك) راجع الى القصة ، والمجىء بالمضارع لاستحضار الصورة (ماكنت) يامحمد (تعلمها أنت ولا) يعلمها (قومك) بل هى مجهولة عندكم من قبل الوحى ، أومن قبل هذا الوقت (فاصبر) على مالاقيه من كفار زمانك ، والفاء لتفريع مابعدها على ماقبلها (ان العاقبة) المحمودة فى الدنيا والآخرة (للمتقين) لله المؤمنين بما جاءت به رسله ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتبشير له بأن الظفر للمتقين فى عاقبة الأمر ، ولااعتبار بمباديه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : نادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى ، وانك قد وعدتنى أن تنجى لى أهلى ، وان ابنى من أهلى . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس قال « مابغت امرأة نبى قط » ، وقوله (إنه ليس من أهلك) يقول ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال ان نساء الأنبياء لايزنين ، وكان يقرؤها انه عمل غير صالح ، يقول مسألتك اياى يانوح عمل غير صالح لاأرضاه لك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (فلا تسألنى ماليس لك به علم) قال بين الله لنوح أنه ليس بابنه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله (يانوح اهبط بسلام منا) قال أهبطوا والله عنهم راض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال دخل فى ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة ، ودخل فى ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة الى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك (وعلى أمم ممن معك) يعنى ممن لم يولد : أوجب الله لهم البركات لماسبق لهم فى علم الله من السعادة (وأمم سنمتعهم) يعنى متاع الحياة الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم) لماسبق لهم فى علم الله من الشقاوة . وأخرج أبو الشيخ قال ثم رجع الى محمد ﷺ فقال (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولاقومك) يعنى العرب (من قبل هذا) القرآن .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۞ يَٰقَوْمِ
لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ۞
قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِن نَّقُولُ
إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ
فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ
بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ
وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۞ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا
نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۞ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۞ وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۞

قوله

قوله (والى عاد أخاهم هودا) معطوف على وأرسلنا نوحا : أى وأرسلنا الى عاد أخاهم : أى واحدا منهم ، وهودا عطف بيان ، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان . وقد تقدّم مثل هذا فى الأعراف ، وقيل هم عاد الأولى ، وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم عاد الأولى ، وعاد الأخرى هم شدّاد ، ولقمان ، وقومهما المذكورون فى قوله ـ إرم ذات العماد ـ ، وأصل عاد : اسم رجل ثم صار اسما للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما (مالكم من إله غيره) قرئ غيره بالجرّ على اللفظ ، وبالرفع على محل من إله ، وقرئ بالنصب على الاستثناء (ان أنتم إلا مفترون) أى ماأنتم باتخاذ إله غير الله إلا كاذبون على الله عزّ وجلّ ، ثم خاطبهم فقال (ياقوم لاأسألكم عليه أجرا) أى لاأطلب منكم أجرا على ماأبلغه إليكم وأنصحكم به من الارشاد الى عبادة الله وحده وأنه لاإله لكم سواه ، فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام . وقد تقدّم معنى هذا فى قصة نوح (ان أجرى إلا على الذى فطرنى) أى ماأجرى الذى أطلب إلا من الذى فطرنى : أى خلقنى فهو الذى يثيبنى على ذلك (أفلا تعقلون) أن أجر الناصحين إنما هو من ربّ العالمين ، قيل انما قال فيما تقدّم فى قصة نوح : مالا ، وهنا قال : أجرا ، لذكر الخزائن بعده فى قصة نوح ، ولفظ المال بها أليق ، ثم أرشدهم الى الاستغفار والتوبة * والمعنى : اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم ، ثم توسلوا إليه بالتوبة . وقد تقدّم زيادة بيان لمثل هذا فى قصة نوح ، ثم رغبهم فى الايمان بالخير العاجل ، فقال (يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) أى كثير الدرور ، وهو منصوب على الحال ، درّت السماء تدرّ وتدرّ ، فهى مدرار ، وكان قوم هود أهل بساتين وزرع وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن (ويزدكم قوّة إلى قوّتكم) معطوف على يرسل : أى شدّة مضافة إلى شدّتكم ، أو خصبا إلى خصبكم ، أو عزّا إلى عزّكم . قال الزجاج المعنى : يزدكم قوّة فى النعم (ولا تتولوا مجرمين) أى لاتعرضوا عما أدعوكم إليه وتقيموا على الكفر مصرّين عليه ، والاجرام : الآثام كما تقدّم ، ثم أجابه قومه بما يدلّ على فرط جهالتهم ، وعظيم غباوتهم ، (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) أى بحجة واضحة نعمل عليها ، ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله و براهينه عنادا و بعدا عن الحق (وما نحن بتاركى آلهتنا) التى نعبدها من دون الله * ومعنى (عن قولك) صادرين عن قولك ، فالظرف فى محل نصب على الحال (وما نحن لك بمؤمنين) أى بمصدّقين فى شىء مما جئت به (إن نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) أى مانقول الا أنه أصابك بعض آلهتنا التى تعيبها وتسفه رأينا فى عبادتها بسوء بجنون ، حتى نشأ عن جنونك ماتقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها ، يقال عراه الأمر واعتراه : اذا ألمّ به ، فأجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه ، وأنهم لايقدرون على شىء مما يريده الكفار به ، بل الله سبحانه هو الضار النافع فـ (قال انى أشهد الله واشهدوا) أنتم (أنى برىء مما تشركون) به (من دونه) أى من إشرا ككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطانا (فكيدونى جميعا) أنتم وآلهتكم ان كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الاضرار بى وأنها اعترتنى بسوء (ثم لاتنظرون) أى لاتمهلونى ، بل عاجلونى واصنعوا مابدا لكم وفى هذا من اظهار عدم المبالاة بهم و بأصنامهم التى يعبدونها مايصك مسامعهم و يوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شىء (انى توكلت على الله ربى وربكم) فهو يعصمنى من كيدكم ، وان بلغتم فى تطلب وجوه الاضرار بى كل مبلغ ، فمن توكل على الله كفاه ، ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض اليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، وأنه مالك للجميع ، وأن ناصية كل دابة من دواب الأرض بيده وفى قبضته وتحت قهره ، وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل ، وكانوا اذا أسروا الأسير وأرادوا اطلاقه ، والمنّ عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره . قال الفراء : معنى آخذ بناصيتها مالكها

والقادر عليها ، وقال القتبي : قاهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته ، والناصية قصاص الشعر من مقدم الرأس ، ثم علل ما تقدم بقوله (إن ربى على صراط مستقيم) أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم علىّ (فان تولوا) أى تتولوا فحذفت احدى التاءين * والمعنى فان تستمروا على الاعراض عن الاجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) ليس علىّ الا ذلك ، وقد لزمتكم الحجة (و يستخلف ربى قوما غيركم) جملة مستأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك : أى يستخلف فى دياركم وأموالكم قوما آخرين ، ويجوز أن يكون عطفا على فقد أبلغتكم ، وروى حفص عن عاصم أنه قرأ (و يستخلف) بالجزم حملا على موضع فقد أبلغتكم (ولا تضرونه شيئا) أى بتوليكم ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير (ان ربى على كل شيء حفيظ) أى رقيب مهيمن عليه يحفظه من كل شيء ، قيل وعلى بمعنى اللام ، فيكون المعنى لكل شيء حفيظ ، فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا الذى هو اهلاك عاد (نجينا هودا والذين آمنوا معه) من قومه (برحمة منا) أى برحمة عظيمة كائنة منا ، لأنه لا ينجو أحد الا برحمة الله ، وقيل هى الايمان (من عذاب غليظ) أى شديد ، قيل وهو السموم التى كانت تدخل أنوفهم (وتلك عاد) مبتدأ وخبر ، وأنث الاشارة اعتبارا بالقبيلة . قال الكسائى : ان من العرب من لا يصرف عاد ويجعله اسما للقبيلة (جحدوا بآيات ربهم) أى كفروا بها وكذبوها وأنكروا المعجزات (وعصوا رسله) أى هودا وحده ، لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ، وانما جمع هنا لأن من كذب رسولا ، فقد كذب جميع الرسل ، وقيل انهم عصوا هودا ومن كان قبله من الرسل ، أو كانوا بحيث لو بعث الله اليهم رسلا متعددين لكذبوهم (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) الجبار المتكبر ، والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيدة العنيد العنود والعاند والمعاند : وهو المعارض بالخلاف منه ، ومنه قيل للعرق الذى يتفجر بالدم عاند . قال الراجز : * انى كبير لا أطيق العندا * (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) أى ألحقوها ، وهى الابعاد من الرحمة والطرد من الخير ، والمعنى أنها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا فى الدنيا (و) أتبعوها (يوم القيامة) فلعنوا هنالك كما لعنوا فى الدنيا (ألا ان عادا كفروا ربهم) أى بربهم . وقال الفراء : كفروا نعمة ربهم ، يقال كفرته وكفرت به : مثل شكرته وشكرت له (ألا بعدا لعاد قوم هود) أى لا زالوا مبعدين من رحمة الله ، والبعد : الهلاك والبعد : التباعد من الخير ، يقال بعد يبعد بعدا : اذا تأخر وتباعد ، و بعد يبعد بعدا : اذا هلك ، ومنه قول الشاعر :

لا يبعدن قومى الذين هم * سم العداة وآفة الجزر

وقال النابغة :

فلا تبعدن انّ المنية منهل * وكل امرئ يوما به الحال زائل

ومنه قول الشاعر :

ما كان ينفعنى مقال نسائهم * وقتلت دون رجالهم لا تبعد

وقد تقدم أن العرب تستعمله فى الدعاء بالهلاك .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (الا على الذى فطرنى) أى خلقنى . وأخرج ابن عساكر عن الضحاك قال : أمسك الله عن عاد القطر ثلاث سنين ، فقال لهم هود (استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا) فأبوا الا تماديا . وأخرج أبو الشيخ عن هارون التيمى فى قوله (يرسل السماء عليكم مدرارا) قال : المطر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ويزدكم قوة الى قوتكم) قال : شدة الى شدتكم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله ويزدكم قوة الى قوتكم قال : ولد الولد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس

فى قوله (ان نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) قال : أصابتك بالجنون . وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى ابن سعيد قال : مامن أحد يخاف لصا عاديا ، أو سبعا ضاريا ، أو شيطانا ماردا فيتلو هذه الآية الاصرفه الله عنه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد (ان ربى على صراط مستقيم) قال : الحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (عذاب غليظ) قال : شديد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (كل جبار عنيد) قال : المشرك . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : العنيد المشاق . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) قال : لم يبعث نبى بعد عاد الالعنت على لسانه . وأخرج ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : تتابعت عليهم لعنتان من الله : لعنة فى الدنيا ، ولعنة فى الآخرة .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ *

قوله (والى ثمود أخاهم صالحا) معطوف على ماتقدم ، والتقدير وأرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا ، والكلام فيه وفى قوله (ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) كما تقدم فى قصة هود . وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب والى ثمود بالتنوين فى جميع المواضع . واختلف سائر القراء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع ، فالصرف باعتبار التأويل بالحى ، والمنع باعتبار التأويل بالقبيلة ، وهكذا سائر مايصح فيه التأويلان ، وأنشد سيبويه فى التأنيث باعتبار التأويل بالقبيلة :

غلب المساميح الوليد سماحة * وكفى قريش المعضلات وسادها

(هو أنشأكم من الأرض) أى ابتدأ خلقكم من الأرض ، لأن كل بنى آدم من صلب آدم ، وهو مخلوق من الأرض (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارها وسكانها ، من قولهم أعمر فلان فلانا داره فهى له عمرى ، فيكون استفعل بمعنى أفعل : مثل استجاب بمعنى أجاب . وقال الضحاك : معناه أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثلثمائة الى ألف ، وقيل معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار (فاستغفروه) أى سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام (ثم توبوا اليه) أى ارجعوا الى عبادته (ان ربى قريب مجيب) أى قريب الاجابة لمن دعاه ، وقد تقدم القول فيه فى البقرة عند قوله تعالى ــ فانى قريب أجيب دعوة الداعى ــ (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) : أى كنا نرجو أن تكون فينا سيدا مطاعا ننتفع برأيك ،

ونتعد بسيادتك قبل هذا الذى أظهرته من ادّعائك النبوّة ودعوتك الى التوحيد ، وقيل كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون رجوعه الى دينهم ، فلما دعاهم الى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك ، والاستفهام فى قوله (أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا) للانكار أنكروا عليه هذا النهى ، وأن نعبد فى محل نصب بحذف الجار : أى بأن نعبد ، ومعنى مايعبد آباؤنا ما كان يعبد آباؤنا ، فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة (وإننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب) من أربته فأنا أريبه : اذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة ، وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة ، أو من أراب الرجل : اذا كان ذا ريبة ، والمعنى : اننا لفى شك مما تدعونا اليه من عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان موقع فى الريب (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) أى حجة ظاهرة وبرهان صحيح (وآتانى منه) أى من جهته (رحمة) أى نبوّة ، وهذه الأمور وان كانت متحققة الوقوع ، لكنها صدّرت بكلمة الشك اعتبارا بحال المخاطبين ، لأنهم فى شك من ذلك ، كما وصفوه عن أنفسهم (فمن ينصرنى من الله) استفهام معناه النفى : أى لاناصر لى يمنعنى من عذاب الله (ان عصيته) فى تبليغ الرسالة ومراقبتكم وفترت عما يجب علىّ من البلاغ (فما تزيدوننى) بتثبيطكم اياى (غير تخسير) بأن تجعلونى خاسرا بإبطال عملى ، والتعرّض لعقوبة الله لى . قال الفراء : أى تضليل وابعاد من الخير ، وقيل المعنى فما تزيدوننى باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم * قوله (وياقوم هذه ناقة الله لكم آية) قدمر تفسير هذه الآية فى الأعراف ، ومعنى : لكم آية معجزة ظاهرة ، وهى منتصبة على الحال ، ولكم فى محل نصب على الحال من آية مقدّمة عليها ، ولو تأخرت لكانت صفة لها ، وقيل ان ناقة الله بدل من هذه ، والخبر لكم ، والأوّل أولى ، وانما قال ناقة الله ، لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم ، وقيل من صخرة صماء (فذروها تأكل فى أرض الله) أى دعوها تأكل فى أرض الله مما فيها من المراعى التى تأكلها الحيوانات . قال أبو اسحق الزجاج : ويجوز رفع تأكل على الحال والاستئناف ، ولعله يعنى فى الأصل على ماتقتضيه لغة العرب لا فى الآية ، فالمعتمد القراآت المروية على وجه الصحة (ولا تمسوها بسوء) قال الفراء : بعقر ، والظاهر أن النهى عما هو أعمّ من ذلك (فيأخذكم عذاب قريب) جواب النهى أى قريب من عقرها ، وذلك ثلاثة أيام (فعقروها) أى فلم يمتثلوا الأمر من صالح ، ولا النهى ؛ بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها (فقال) لهم صالح (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) أى تمتعوا بالعيش فى منازلكم ثلاثة أيام فان العقاب نازل عليكم بعدها ، قيل انهم عقروها يوم الأربعاء ، فأقاموا الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد ، والاشارة بقوله (ذلك) الى مايدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام (وعد غير مكذوب) أى غير مكذوب فيه ، فحذف الجارّ اتساعا ، أو من باب المجاز ، كأن الوعد اذا وفى به صدق ولم يكذب ، ويجوز أن يكون مصدرا : أى وعد غير كذب (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا ، أو أمرنا بوقوع العذاب (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) قد تقدم تفسير هذا فى قصة هود (ومن خزى يومئذ) أى ونجيناهم من خزى يومئذ ، وهو هلاكهم بالصيحة ، والخزى : الذل والمهانة ، وقيل من عذاب يوم القيامة ، والأول أولى . وقرأ نافع والكسائى بفتح يوم على أنه اكتسى البناء من المضاف اليه . وقرأ الباقون بالكسر (ان ربك هو القوى العزيز) القادر الغالب الذى لايعجزه شىء (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أى فى اليوم الرابع من عقر الناقة ، صيح بهم فماتوا ، وذكر الفعل ، لأن الصيحة والصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقى ؛ قيل صيحة جبريل ، وقيل صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا ، وتقدم فى الأعراف ـ فأخذتهم الرجفة ـ قيل ولعلها وقعت عقب الصيحة (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير اذا جثمت (كأن لم يغنوا فيها) أى كأنهم لم يقيموا فى بلادهم أو ديارهم ، والجملة فى محل نصب على الحال والتقدير مماثلين لمن لم يوجد

ولم

ولم يقم فى مقام قط ( ألا أن ثمودا كفروا ربهم ) وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة البيان ، وصرح بكفرهم مع كونه معلوما تعليلا للدعاء عليهم بقوله (ألا بعدا لثمود) وقرأ الكسائى بالتنوين . وقد تقدم تفسير هذه القصة فى الأعراف بما يحتاج الى مراجعته ليضم مافى احدى القصتين من الفوائد الى الأخرى .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدى (هو أنشأكم من الأرض) قال خلقكم من الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (واستعمركم فيها) قال : أعمركم فيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد (واستعمركم فيها) قال : استخلفكم فيها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد (فما تزيدوننى غير تخسير) يقول : ما تزدادون أنتم إلا خسارا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن عطاء الخراسانى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) قال : ميتين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (كأن لم يغنوا فيها) قال : كأن لم يعيشوا فيها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه ، قال : كأن لم يعمروا فيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : كأن لم ينعموا فيها .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ * يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ *

هذه قصة لوط عليه السلام وقومه ، وهو ابن عم ابراهيم عليه السلام ، وكانت قرى لوط بنواحى الشام وابراهيم ببلاد فلسطين . فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط ، مرّوا بابراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه ، وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة ، فظنهم أضيافا ، وهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل . وقيل كانوا تسعة ، وقيل أحد عشر ، والبشرى التى بشروه بها هى بشارته بالولد ، وقيل باهلاك قوم لوط ، والأولى أولى (قالوا سلاما) منصوب بفعل مقدر ، أى سلمنا عليك سلاما (قال سلام) ارتفاعه على أنه خبر مبتدا محذوف : أى أمركم سلام ، أو مرتفع على أنه مبتدا والخبر محذوف ، والتقدير عليكم سلام (فما لبث) أى ابراهيم (أن جاء بعجل حنيذ) قال أكثر النحويين (أن) هنا بمعنى حتى : أى فما لبث حتى جاء ، وقيل انها فى محل نصب بسقوط حرف الجر والتقدير فما لبث عن أن جاء : أى ما أبطأ ابراهيم عن مجيئه بعجل ، وما نافية قاله سيبويه ، وقال الفراء ، فما لبث مجيئه : أى ما أبطأ مجيئه ، وقيل ان ما موصولة وهى مبتدأ ، والخبر أن جاء بعجل حنيذ ، والتقدير ، فالذى لبث ابراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ ، والحنيذ : المشوىّ مطلقا ، وقيل المشوىّ بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار ، يقال حنذ الشاة يحنذها ، جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ ، وقيل معنى حنيذ : سمين ، وقيل الحنيذ هو السميط ، وقيل النضيج ، وهو فعيل بمعنى مفعول ،

وإعمالهم بعجل ، لأن البقر كانت أكثر أمواله (فلما رأى أيديهم لاتصل اليه) أى لايمدونها إلى العجل كما يمدّ يده من يريد الأكل (نكرهم) يقال: نكرته ، وأنكرته ، واستنكرته ، إذا وجدته على غير ماتعهد ، ومنه قول الشاعر .

فأنكرتنى وما كان الذى نكرت * من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فجمع بين اللغتين ، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر :

اذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها * خرجت مع البازى علىّ سواد

وقيل يقال : أنكرت لما تراه بعينك ، ونكرت لما تراه بقلبك ، قيل وإنما استنكرمنهم ذلك ، لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم ، ولم يأكل من طعامهم ، ظنوا أنه قد جاء بشرّ (وأوجس منهم) أى أحسّ فى نفسه منهم (خيفة) أى خوفا وفزعا ، وقيل معنى أوجس : أضمر فى نفسه خيفة ، والأول ألصق بالمعنى اللغوى ، ومنه قول الشاعر :

جاء البريد بقرطاس يخبّ به * فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

وكأنه ظنّ أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره ، أو لتعذيب قومه (قالوا لاتخف) قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف ، بل أوجس ذلك فى نفسه ، فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه ، أو قالوه له بعدماقال عقب ماأوجس فى نفسه من الخيفة قولا يدلّ على الخوف كما فى قوله فى سورة الحجر ــ قال إنا منكم وجلون ــ ، ولم يذكر ذلك هاهنا اكتفاء بما هنالك ، ثم عللوا نهيه عن الخوف بقولهم (إنا أرسلنا الى قوم لوط) أى أرسلنا اليهم خاصة ، ويمكن أن يكون ابراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه ــ قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين ــ ، وجملة (وامرأته قائمة فضحكت) فى محل نصب على الحال ، قيل كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر ، وقيل كانت قائمة تخدم الملائكة وهوجالس ، والضحك هنا هوالضحك المعروف الذى يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور . وقال مجاهد وعكرمة انه الحيض ، ومنه قول الشاعر :

وانى لآتى العرس عند طهورها * وأهجرها يوما اذا تك ضاحكا

وقال الآخر : وضحك الأرانب فوق الصفا * كمثل دم الخوف يوم اللقا

والعرب تقول ضحكت الأرنب : اذا حاضت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت (فبشرناها باسحق) ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك . وقال الفراء فيه تقديم وتأخير ، والمعنى : فبشرناها فضحكت سرورا بالولد ، وقرأ محمد بن زياد من قراء مكة فضحكت بفتح الحاء ، وأنكره المهدوى (ومن وراء إسحق يعقوب) ، قرأ حمزة وابن عامر وحفص بنصب يعقوب على أنه مفعول فعل دلّ عليه فبشرناها ، كأنه قال : ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب ، وأجاز الكسائى والأخفش وأبو حاتم أن يكون يعقوب فى موضع جرّ . وقال الفراء لايجوز الجرّ الا باعادة حرفه . قال سيبويه ، ولو قلت مررت بزيد أوّل من أمس ، وأمس عمرو كان قبيحا خبيثا ، لأنك فرّقت بين المجرور وما يشركه كما يفرق بين الجار والمجرور ، وقرأ الباقون برفع يعقوب على أنه مبتدأ ، وخبره الظرف الذى قبله ، وقيل الرفع بتقدير فعل محذوف : أى ويحدث لها ، أو وثبت لها . وقد وقع التبشير هنا لها ، ووقع لابراهيم فى قوله تعالى ــ فبشرناه بغلام حليم . و بشروه بغلام عليم ــ ، لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما ، وجملة (قالت ياويلتا) مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل فماذا قالت ؟ قال الزجاج أصلها ياويلتى فأبدل من الياء ألف لأنها أخفّ من الياء والكسرة ، وهى لم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تقع كثيرا

على

على أفواه النساء اذا طرأ عليهنّ مايعجبن منه ، وأصل الويل : الخزى ، ثم شاع فى كل أمر فظيع ، والاستفهام فى قولها (ءألد وأنا عجوز) للتعجب : أى كيف ألد وأنا شيخة قد طعنت فى السنّ ، يقال عجزت تعجز مخففا ومثقلا عجزا وتعجيزا : أى طعنت فى السنّ ، ويقال عجوز وعجوزة ، وأما عجزت بكسر الجيم فمعناه : عظمت عجيزتها ، قيل كانت بنت تسع وتسعين ، وقيل بنت تسعين (وهذا بعلى شيخا) أى وهذا زوجى ابراهيم شيخا لاتحبل من مثله النساء ، وشيخا منتصب على الحال ، والعامل فيه معنى الاشارة . قال النحاس وفى قراءة أبىّ وابن مسعود شيخ بالرفع على أنه خبر المبتدأ ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وعلى الأوّل يكون بعلى بدلا من اسم الاشارة ، قيل كان ابراهيم ابن مائة وعشرين سنة ، وقيل ابن مائة ، وهذه المبشرة هى سارة امرأة ابراهيم . وقد كان ولد لابراهيم من هاجر أمته اسمعيل ، فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست منه لكبر سنها ، فبشرها الله به على لسان ملائكته (إن هذا لشىء عجيب) أى ماذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونها فى هذه السنّ العالية التى لايولد لمثلها شىء يقضى منه العجب ، وجملة (قالوا أتعجبين من أمر الله) مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والاستفهام فيها للانكار : أى كيف تعجبين من قضاء الله وقدره ، وهولايستحيل عليه شىء ، وانما أنكروا عليها مع كون ماتعجبت منه من خوارق العادة ، لأنها من بيت النبوّة ، ولايخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه ، ولهذا قالوا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى الرحمة التى وسعت كل شىء ، والبركات وهى النموّ والزيادة ، وقيل الرحمة : النبوّة ، والبركات : الأسباط من بنى اسرائيل لما فيهم من الأنبياء ، وانتصاب أهل البيت على المدح ، أو الاختصاص ، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم (انه حميد) أى يفعل موجبات حمده من عباده على سبيل الكثرة (مجيد) كثير الاحسان الى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات ، والجملة تعليل لقوله : رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت * قوله (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) أى الخيفة التى أوجسها فى نفسه ، يقال ارتاع من كذا : اذا خاف ، ومنه قول النابغة :

فارتاع من صوت كلاب فبات له * طوع الشوامت من خوف ومن حذر

(وجاءته البشرى) أى بالولد ، أو بقولهم لاتخف * قوله (يجادلنا فى قوم لوط) . قال الأخفش والكسائى ان يجادلنا فى موضع جادلنا ، فيكون هو جواب لما ، لما تقرّر من أن جوابها يكون بالماضى لابالمستقبل . قال النحاس : جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضى مكان المستقبل فى الشرط ، وقيل ان الجواب محذوف ، ويجادلنا فى موضع نصب على الحال : قاله الفراء ، وتقديره فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا : أى يجادل رسلنا ، وقيل ان المعنى أخذ يجادلنا ، ومجادلته لهم ، قيل انه لما سمع قولهم ـ انا مهلكوا أهل هذه القرية ـ قال أرأيتم ان كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا لا . قال فأربعون ؟ قالوا لا . قال فعشرون ؟ قالوا لا ، ثم قال فعشرة فخمسة ؟ قالوا لا . قال فواحد ؟ قالوا لا ـ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ـ الآية ، فهذا معنى مجادلته فى قوم لوط : أى فى شأنهم وأمرهم ، ثم أثنوا على إبراهيم ، أوأثنى الله عليه ، فقال (إن إبراهيم لحليم) أى ليس بعجول فى الأمور ، ولا بموقع لها على غير ماينبغى ، والأوّاه : كثير التأوّه ، والمنيب : الراجع إلى الله . وقد تقدّم فى براءة الكلام على الأوّاه * قوله (ياابراهيم أعرض عن هذا) هذا قول الملائكة له : أى أعرض عن هذا الجدال فى أمر قد فرغ منه ، وجفّ به القلم ، وحق به القضاء (انه قد جاء أمر ربك) الضمير للشأن ، ومعنى مجىء أمر الله : مجىء عذابه الذى قدّره عليهم ، وسبق به قضاؤه (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) أى لايردّه دعاء ولا جدال ، بل هو واقع بهم لامحالة ، ونازل بهم على كل حال ليس بمصروف ولا مدفوع .

٦٩٤٥٥



وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عثمان بن محصن في ضيف ابراهيم قال كانوا أربعة : جبريل ، وميكائيل واسرافيل ، ورافئيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (بعجل حنيذ) قال نضيج . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال مشوى . وأخرج أبوالشيخ عنه أيضا قال سميط . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال الحنيذ : الذي أنضج بالحجارة . وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي يزيد البصري في قوله (فلما رأى أيديهم لاتصل اليه) قال لم ير لهم أيديا فنكرهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (نكرهم) قال كانوا اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير ، وأنه يحدث نفسه بشر ، ثم حدثوه عند ذلك بما جاءوا فيه فضحكت امرأته . وأخرج ابن المنذر عن المغيرة قال في مصحف ابن مسعود وامرأته قائمة وهو جالس . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد (وامرأته قائمة) قال في خدمة أضياف إبراهيم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن قتادة قال : لما أوجس ابراهيم في نفسه خيفة حدثوه عند ذلك بما جاءوا فيه ، فضحكت امرأته تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة ، ومما أتاهم من العذاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (فضحكت) قال حاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (فضحكت) قال حاضت وكانت ابنة بضع وتسعين سنة ، وكان ابراهيم ابن مائة سنة . وأخرج أبوالشيخ عن عكرمة قال حاضت . وأخرج أبوالشيخ عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ومن وراء إسحق يعقوب) قال هو ولد الولد . وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء عن حسان بن أبجر : قال كنت عند ابن عباس فجاءه رجل من هذيل ، فقال له ابن عباس مافعل فلان ؟ قال مات وترك أربعة من الولد ، وثلاثة من الوراء ، فقال ابن عباس (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) قال ولد الولد . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وأبو الشيخ والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس أنه كان ينهى عن أن يزاد في جواب التحية على قولهم : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ويتلو هذه الآية (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) . وأخرج البيهقي عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد في قوله (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) قال الفرق (يجادلنا في قوم لوط) قال يخاصمنا . وأخرج عبد الرزاق وأبوالشيخ عن قتادة في تفسير المجادلة قال انه قال لهم يومئذ أرأيتم ان كان فيهم خمسون من المسلمين ؟ قالوا ان كان فيهم خمسون لم نعذبهم . قال أربعون ؟ قالوا وأربعون . قال ثلاثون ؟ قالوا وثلاثون حتى بلغوا عشرة . قالوا إن كان فيهم عشرة لم نعذبهم . قال ماقوم لايكون فيهم عشرة فيهم خير ؟ قال قتادة انه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف انسان ، أو ماشاء الله من ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس . قال لما جاءت الملائكة الى ابراهيم قالوا لابراهيم : ان كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب . وأخرج أبوالشيخ عن عمرو بن ميمون قال الأواه : الرحيم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال المنيب : المقبل الى طاعة الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال المنيب : المخلص .

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا

تخزون

XI. 91-٢٧٠



تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ *

لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم وكان بين ابراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ جاءوا الى لوط ، فلما رآهم لوط وكانوا فى صورة غلمان حسان مرد (سيء بهم) أى ساءه مجيئهم ، يقال ساءه يسوءه ، وأصل سيء بهم سوئ بهم نقلت حركة الواو الى السين فقلبت الواو ياء ، ولما خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء . وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو باشمام السين الضم (وضاق بهم ذرعا) قال الأزهرى : الذرع يوضع موضع الطاقة ، وأصله أن البعير يذرع بيده فى سيره على قدر سعة خطوه : أى يبسطها ، فاذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك ، فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر ، وقيل هو من ذرعه القيء : اذا غلبه وضاق عن حبسه * والمعنى أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة فى تلك الصورة خوفا عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط (وقال هذا يوم عصيب) أى شديد . قال الشاعر :

وإنك إن لم ترض بكر بن وائل * يكن لك يوم بالعراق عصيب

يقال عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير ، أى يوم مكروه يجتمع فيه الشر ، ومنه قيل عصبة وعصابة : أى مجتمعو الكلمة ، ورجل معصوب : أى مجتمع الخلق (وجاءه قومه يهرعون اليه) أى جاءوا لوطا ، الجملة فى محل نصب على الحال * ومعنى يهرعون اليه : يسرعون اليه . قال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة ، لا يكون الاهراع إلا إسراعا مع رعدة ، يقال أهرع الرجل إهراعا : أى أسرع فى رعدة من برد أو غضب أو حمى ، قال مهلهل .

فجاءوا يهرعون وهم أسارى * نقودهم على رغم الأنوف

وقيل يهرعون : يهرولون ، وقيل هو مشى بين الهرولة والعدو * والمعنى أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة فى تلك الصورة ، أسرعوا إليه ، كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) أى ومن قبل مجيء الرسل فى هذا الوقت كانوا يعملون السيئات ، وقيل ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات ، أى كانت عادتهم إتيان الرجال ، فلما جاءوا إلى لوط ، وقصدوا أضيافه لذلك العمل ، قام إليهم لوط مدافعا ، (وقال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) أى تزوجوهن ، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافى ، وقد كان له ثلاث بنات ، وقيل اثنتان ، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهن ، فيمتنع لخبثهم ، وكان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه ، وقيل أراد بقوله (هؤلاء بناتى) النساء جملة ، لأن نبى القوم أب لهم ، وقالت طائفة : إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ، ولم يرد الحقيقة * ومعنى (هن أطهر لكم) أى أحل وأنزه ، والتطهر : التنزه عما لا يحل ، وليس فى صيغة أطهر دلالة على التفضيل ، بل هى مثل الله أكبر وقرأ الحسن وعيسى بن عمر بنصب أطهر ، وقرأ الباقون بالرفع ، ووجه النصب أن يكون اسم الاشارة مبتدأ ، وخبره بناتى ، وهن ضمير فصل ، وأطهر حال . وقد منع الخليل وسيبويه والأخفش مثل هذا ، لأن

ضمير الفصل الذى يسمى عمادا انما يكون بين كلامين ، بحيث لايتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى) أى اتقوا الله بترك ماتريدون من الفاحشة بهم ، ولا تذلونى وتجلبوا علىّ العار فى ضيفى ، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، لأنه فى الأصل مصدر ، ومنه قول الشاعر :

لاتعدمى الدهر شفار الجازر * للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع ، والأول أكثر . يقال خزى الرجل خزاية : أى استحيا أوذل أوهان ، وخزى خزيا إذا افتضح ، ومعنى فى ضيفى : فى حق ضيفى ، فخزى الضيف خزى للمضيف ، ثم وبخهم فقال (أليس منكم رجل رشيد) يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه ، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به ، وأرشدهم إليه بقولهم (مالنا فى بناتك من حق) أى مالنا فيهم من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق * ومعنى مانسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لاحاجة لهم إلى النساء ، ويمكن أن يريدوا : أنه لاحق لنا فى نكاحهن ، لأنه لاينكحهن ويتزوج بهن إلا مؤمن ، ونحن لانؤمن أبدا ، وقيل انهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم ، وكان من سنتهم أن من خطب فردّ فلاتحل المخطوبة أبدا (وإنك لتعلم مانريد) من إتيان الذكور ، ثم انه لما علم تصميمهم على الفاحشة وأنهم لايتركون ماقد طلبوه ، (قال لو أن لى بكم قوة) وجواب لو محذوف ، والتقدير لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم ، وهذا منه عليه السلام على طريق التمنى : أى لو وجدت معينا وناصرا ، فسمى مايتقوى به قوة (أو آوى إلى ركن شديد) عطف على مابعد لو ، لما فيه من معنى الفعل ، والتقدير لو قويت على دفعكم أو آويت إلى ركن شديد ، وقرئ أو آوى بالنصب عطفا على قوة كأنه قال : لو أن لى بكم قوة ، أو إيواء إلى ركن شديد ، ومراده بالركن الشديد : العشيرة ، وما يمتنع به عنهم هو ومن معه ، وقيل أراد بالقوة : الولد ، وبالركن الشديد : من ينصره من غير ولده ، وقيل أراد بالقوة : قوته فى نفسه . ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ، ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم (قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) أخبروه أوّلا أنهم رسل ربه ، ثم بشروه بقولهم (لن يصلوا إليك) وهذه الجملة موضحة لما قبلها ، لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه ، لم يصل عدوّه إليه ولم يقدروا عليه ، ثم أمروه أن يخرج عنهم ، فقالوا له (فاسر بأهلك بقطع من الليل) قرأ نافع وابن كثير بالوصل ، وقرأ غيرهما بالقطع ، وهما لغتان فصيحتان . قال الله تعالى ـ والليل إذا يسر ـ وقال ـ سبحان الذى أسرى ـ وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال .

حى النضير وربة الخدر * أسرت عليه ولم تكن تسرى

وقيل أن أسرى للسير من أول الليل ، وسرى للسير من آخره ، والقطع من الليل : الطائفة منه ، قال ابن الأعرابى بقطع من الليل : بساعة منه ، وقال الأخفش بجنح من الليل ، وقيل بظلمة من الليل ، وقيل بعد هدوّ من الليل ، قيل أن السرى لايكون إلا فى الليل ، فما وجه زيادة بقطع من الليل ؟ قيل لولم يقل بقطع من الليل ، لجاز أن يكون فى أوله قبل اجتماع الظلمة ، وليس ذلك بمراد (ولا يلتفت منكم أحد) أى لاينظر إلى ما وراءه ، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره ، قيل وجه النهى عن الالتفات أن لايروا عذاب قومهم ، وهول مانزل بهم ، فيرحموهم ، ويرقوا لهم ، أولئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات ، فانه لابدّ للملتفت من فترة فى سيره (إلا امرأتك) بالنصب على قراءة الجمهور ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالرفع على البدل ، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله (فاسر بأهلك) أى اسر

بأهلك

بأهلك جميعا إلا امرأتك فلا تسر بها فـ (انه مصيبها ما أصابهم) من العذاب ، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة ، وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد ، وقال لا يصح ذلك إلا برفع يلتفت ، ويكون نعتا لأن المعنى يصير إذا أبدلت وجزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات ، وليس المعنى كذلك ، قال النحاس وهذا العمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحله من العربية لايجب أن يكون ، والرفع على البدل له معنى صحيح ، وهو أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات : أى لايلتفت منكم أحد إلا امرأتك فانها تلتفت وتهلك ، وقيل ان الرفع على البدل من أحد ، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف ، فكأنه قال ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك ، فانها تتخلف ، والملجئ الى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين ، والضمير في انه مصيبها ما أصابهم للشأن ، والجملة خبر إن (إن موعدهم الصبح) هذه الجملة تعليل لما تقدّم من الأمر بالاسراء والنهى عن الالتفات ، والمعنى أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة ، والاستفهام في (أليس الصبح بقريب) للانكار التقريرى ، والجملة تأكيد للتعليل وقرأ عيسى بن عمر (أليس الصبح) بضم الباء ، وهى لغة ، ولعل جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم (فلما جاء أمرنا) أى الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه ، أو المراد بالأمر نفس العذاب (جعلنا عاليها سافلها) أى عالى قرى قوم لوط سافلها ، والمعنى أنه قلبها على هذه الهيئة ، وهى كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها ، وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) قيل انه يقال أمطرنا في العذاب ومطرنا في الرحمة ، وقيل هما لغتان . يقال مطرت السماء وأمطرت ، حكى ذلك الهروى ، والسجيل الطين المتحجر بطبخ أوغيره ، وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة ، وقيل السجيل الكثير ، وقيل ان السجيل لفظة غير عربية ، أصله سج وجيل ، وهما بالفارسية حجر وطين عرّبتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا ، وقيل هو من لغة العرب وذكر الهروى : أن السجيل اسم لسماء الدنيا . قال ابن عطية وهذا ضعيف يردّه وصفه بمنضود ، وقيل هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض ، وقيل هى جبال في السماء . وقال الزجاج : هو من التسجيل لهم : أى ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين ، ومنه قوله تعالى ــ وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم ــ وقيل هو من أسجلته إذا أعطيته ، فكأنه عذاب أعطوه ومنه قول الشاعر :

من يساجلني يساجل ماجدا ٭ يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ومعنى (منضود) أنه نضد بعضه فوق بعض ، وقيل بعضه في أثر بعض ، يقال نضدت المتاع : اذا جعلت بعضه على بعض ، فهو منضود ونضيد ، والمسوّمة المعلمة : أى التى لها علامة : قيل كان عليها أمثال الخواتيم ، وقيل مكتوب على كل حجر اسم من رمى به : وقال الفراء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد فى بياض ، فذلك تسويمها ، ومعنى (عند ربك) فى خزائنه (وماهى من الظالمين ببعيد) أى وماهذه الحجارة الموصوفة من الظالمين ، وهم قوم لوط ببعيد ، أو ماهى من كل ظالم من الظلمة ، ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ببعيد . فهم لظلمهم مستحقون لها . وقيل (وماهى) أى قرى (من الظالمين) من كفر بالنبي ﷺ (ببعيد) فانها بين الشام والمدينة ، وفى امطار الحجارة قولان : أحدهما انها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل ، والثانى أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها ، وكان خارجا عنها ، وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجرائه على موصوف مذكر : أى شىء بعيد ، أومكان بعيد ، أو لكونه مصدرا ، كالزفير ، والصهيل ، والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا) قال ساء ظنا بقومه : وضاق ذرعا بأضيافه (وقال هذا يوم عصيب) يقول شديد . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (يهرعون اليه) قال يسرعون (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) قال يأتون الرجال . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا قال (يهرعون اليه) يستمعون اليه . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا في قوله (هؤلاء بناتي) قال ماعرض لوط بناته على قومه لاسفاحا ولانكاحا ، انما قال هؤلاء نساؤكم ، لان النبي اذا كان بين ظهراني قوم فهو أبوهم : قال الله تعالى في القرآن ــ وأزواجه أمهاتهم وهو أبوهم ــ في قراءة أبيّ . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لم تكن xxxiii. 6.
بناته ، ولكن كنّ من أمته وكل نبيّ أبو أمته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن السدّي نحوه . قال وفي قراءة عبد الله ــ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم ــ وأخرج ابن أبي حاتم عن حذيفة بن اليمان قال : عرض عليهم بناته تزويجا ، وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته . وأخرج أبو الشيخ عن السدّي في قوله (ولا تخزون في ضيفي) قال : لاتفضحوني . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك (أليس منكم رجل رشيد) قال : رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس (أليس منكم رجل رشيد) قال : واحد يقول لا إله إلا الله . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدّي (وانك لتعلم مانريد) قال : إنما نريد الرجال (قال) لوط (لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد) يقول : الى جند شديد لقاتلتكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أو آوي الى ركن شديد قال : عشيرة . وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « يغفر الله للوط ان كان يأوي الى ركن شديد » وهو مروي في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس (بقطع من الليل) قال : جوف الليل . وأخرجا عنه قال : بسواد الليل . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال : بطائفة من الليل . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا يلتفت منكم أحد) قال : لايتخلف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (ولا يلتفت منكم أحد) قال : لاينظر وراءه أحد (إلا امرأتك) . وأخرج أبو عبيد وابن جرير عن هارون قال ، في حرف ابن مسعود فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) قال : لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم فقلعها من أركانها ، ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها ثم صعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم قلبها ، فكان أول ماسقط منها سرادقها ، فلم يصب قوما ما أصابهم ، ثم ان الله طمس على أعينهم ، ثم قلبت قريتهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة ، وليس في ذكرها فائدة ، لاسيما وبين من قال بشيء من ذلك ، وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لايتيسر له في مثله إسناد صحيح ، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب ، وحالهم في الرواية معروف . وقد أمرنا بأنا لانصدّقهم ولانكذبهم ، فاعرف هذا ، فهو الوجه في حذفنا لكثير من هذه الروايات الكائنة في قصص الأنبياء وقومهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وماهي من الظالمين ببعيد) قال : يرهب بها قريشا أن يصيبهم ماأصاب القوم . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في الآية قال : من ظلمة العرب ان لم يؤمنوا فيعذبوا بها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبي حاتم عن قتادة قال : من ظالمي هذه الأمة .

XI.15-99

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ *

أى وأرسلنا إلى مدين وهم قوم شعيب أخاهم فى النسب شعيبا ، وسموا مدين باسم أبيهم ، وهو مدين ابن ابراهيم ، وقيل باسم مدينتهم . قال النحاس : لاينصرف مدين لأنه اسم مدينة ، وقد تقدم الكلام على هذا فى الأعراف بأبسط مما هنا ، وقد تقدم تفسير ( قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ) فى أول السورة ، وهذه الجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قال لهم شعيب لما أرسله الله اليهم ؟ وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه ، أمرهم أولا بعبادة الله سبحانه الذى هو الاله وحده لاشريك له ، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان ، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف ، كانوا اذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد ، وكذلك اذا وصل اليهم الموزون أخذوا بوزن زائد ، واذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص ، وجملة ( انى أراكم بخير ) تعليل للنهى : أى لاتنقصوا المكيال والميزان لأنى أراكم بخير : أى بثروة وسعة فى الرزق فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والاضرار بعباده ، ففى هذه النعمة مايغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها ، ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى ، فقال ( وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ) فهذه العلة فيها الاذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الاذكار لهم بنعيم الدنيا ، ووصف اليوم بالاحاطة ، والمراد العذاب ، لأن العذاب واقع فى اليوم ، ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم أنه لايشذ منهم أحد عنه ولا يجدون منه ملجأ ولامهربا ، واليوم هو يوم القيامة ،

وقيل هو يوم الانتقام منهم فى الدنيا بالصيحة ، ثم أكد النهى عن نقص الكيل والوزن بقوله (وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) والايفاء هو الاتمام ، والقسط العدل ، وهو عدم الزيادة والنقص ، وان كان الزيادة على الايفاء فضل وخير ، ولكنها فوق مايفيده اسم العدل ، والنهى عن النقص ، وان كان يستلزم الايفاء ففى تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن ، ثم زاد ذلك تأكيدا فقال (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) قد مرّ تفسير هذا فى الأعراف ، وفيه النهى عن البخس على العموم ، والاشياء أعمّ مما يكال ويوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن فى هذا دخولا أوّليا ، وقيل البخس المكس خاصة ، ثم قال (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) قد مرّ أيضا تفسيره فى البقرة ، والعثى فى الأرض يشمل كل مايقع فيها من الاضرار بالناس ، فيدخل فيه مافى السياق من نقص المكيال والميزان ، وقيده بالحال وهو قوله (مفسدين) ليخرج ما كان صورته من العثى فى الأرض ، والمقصود به الاصلاح كما وقع من الخضر فى السفينة (بقيت الله خير لكم) أى مايبقيه لكم من الحلال بعد ايفاء الحقوق بالقسط أكثر خيرا وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد فى الأرض ، ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين وقال مجاهد : بقية الله طاعته . وقال الربيع وصيته . وقال الفراء مراقبته ، وانما قيد ذلك بقوله (ان كنتم مؤمنين) لأن ذلك انما ينتفع به المؤمن لا الكافر ، أو المراد بالمؤمنين هنا المصدقون لشعيب (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظكم من الوقوع فى المعاصى من التطفيف والبخس وغيرهما ، أو أحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها ، وجملة (قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قالوا لشعيب ؟ وقرئ (أصلاتك) بالافراد ، وأن نترك فى موضع نصب وقال الكسائى موضعها خفض على إضمار الباء ، ومرادهم مما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون من الأوثان ، والاستفهام للانكار عليه والاستهزاء به ، لأن الصلوات عندهم ليست من الخير الذى يقال لفاعله عند ارادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة اذا فعل مالا يناسب الصواب : أصدقتك امرأتك بهذا ، وقيل المراد بالصلاة هنا القراءة ، وقيل المراد بها الدين ، وقيل المراد بالصلوات أتباعه ، ومنه المصلى الذى يتلو السابق ، وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده ، وقولهم (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) جواب له عن أمرهم بايفاء الكيل والوزن ونهيهم عن نقصهما وعن بخس الناس وعن العثى فى الأرض وهذه الجملة معطوفة على مافى مايعبد آباؤنا * والمعنى أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا وتأمرك أن نترك أن نفعل فى أموالنا مانشاء من الأخذ والاعطاء والزيادة والنقص . وقرئ (تفعل ماتشاء) بالفوقية فيهما . قال النحاس : فتكون أو على هذه القراءة للعطف على أن الأولى ، والتقدير أصلواتك تأمرك أن تفعل فى أموالنا ماتشاء . وقرئ نفعل بالنون وماتشاء بالفوقية ، ومعناه أصلواتك تأمرك أن نفعل نحن فى أموالنا ماتشاؤه أنت وندع مانشاؤه نحن ومايجرى به التراضى بيننا ، ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا (انك لأنت الحليم الرشيد) على طريقة التهكم به ، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما ، أو يريدون إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك . وفى اعتقادك ، ومعناهم أن هذا الذى نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ماتعتقده فى نفسك من الحلم والرشد ، وقيل انهم قالوا ذلك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك وأنكروا عليه الأمر والنهى منه لهم بما يخالف الحلم والرشد فى اعتقادهم . وقد تقدّم تفسير الحلم والرشد ، وجملة (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) مستأنفة كالجمل التى قبلها * والمعنى أخبرونى ان كنت على حجة واضحة من عند ربى فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه (ورزقنى منه) أى من فضله وخزائن ملكه (رزقا حسنا) أى كثيرا واسعا حلالا طيبا ، وقد كان عليه السلام كثير المال ، وقيل أراد بالرزق النبوّة ، وقيل الحكمة

وقيل العلم ، وقيل التوفيق ، وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه سياق الكلام تقديره «أترك أمركم ونهيكم أو أتقولون فى شأنى ماتقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء (وما أريد أن أخالفكم الى ماأنهاكم عنه) أى وما أريد بنهيى لكم عن التطفيف والبخس أن أخالفكم الى مانهيتكم عنه فأفعله دونكم ، يقال خالفه الى كذا اذا قصده وهو مولّ عنه ، وخالفته عن كذا فى عكس ذلك (ان أريد الا الاصلاح) أى ماأريد بالأمر والنهى إلا الاصلاح لكم ودفع الفساد فى دينكم ومعاملاتكم (مااستطعت) مابلغت اليه استطاعتى ، وتمكنت منه طاقتى (وماتوفيقى إلا بالله) أى ماصرت موفقا هاديا نبيا مرشدا إلا بتأييد الله سبحانه و إقدارى عليه ومنحى إياه (عليه توكلت) فى جميع أمورى التى منها أمركم ونهيكم (واليه أنيب) أى أرجع فى كل مانابنى من الأمور وأفوّض جميع أمورى الى مايختاره لى من قضائه وقدره ، وقيل معناه واليه أرجع فى الآخرة ، وقيل إنّ الانابة الدعاء ، ومعناه وله أدعوا * قوله (ويا قوم لايجرمنكم شقاق) قال الزجاج : معناه لايكسبنكم شقاق اصابة العذاب اياكم كما أصاب من كان قبلكم ، وقيل معناه لايحملنكم شقاق ، والشقاق العداوة ، ومنه قول الأخطل :

ألا من مبلغ عنى رسولا * فكيف وجدتم طعم الشقاق

و (أن يصيبكم) فى محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمنكم (مثل ماأصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الصيحة ، وقد تقدّم تفسير يجرمنكم وتفسير الشقاق (وما قوم لوط منكم ببعيد) يحتمل أن يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم ، أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم أو ليسوا ببعيد منكم فى السبب الموجب لعقوبتهم ، وهو مطلق الكفر ، وأفرد لفظ (بعيد) لمثل ماسبق فى (وماهى من الظالمين ببعيد) ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إنّ ربى رحيم ودود) وقد تقدّم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه فى أوّل السورة ، وتقدّم تفسير الرحيم ، والمراد هنا أنه عظيم الرحمة للتائبين ، والودود المحبّ . قال فى الصحاح : وددت الرجل أودّه ودّا : اذا أحببته ، والودود المحب ، والودّ والودّ والودّ : المحبة ، والمعنى هنا أنه يفعل بعباده مايفعله من هو بليغ المودّة بمن يودّه من اللطف به وسوق الخير اليه ودفع الشرّ عنه ، وفى هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة ، وجملة (قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول) مستأنفة كالجمل السابقة ، والمعنى أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الاخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور ولانفقه ذلك : أى نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة ، فيكون نفى الفقه على هذا حقيقة لامجازا ، وقيل قالوا ذلك اعراضا عن سماعه ، واحتقار الكلام مع كونه مفهوما لديهم معلوما عندهم ، فلا يكون نفى الفقه حقيقة بل مجازا ، يقال فقه يفقه اذا فهم فقها وفقها ، وحكى الكسائى فقهانا ، و يقال فقه فقها إذا صار فقيها (و إنا لنراك فينا ضعيفا) أى لاقوّة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا ، وقيل المراد أنه ضعيف فى بدنه قاله علىّ بن عيسى ، وقيل انه كان مصابا ببصره قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيف أى قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير : أى قد ضرّ بذهاب بصره ، وقيل الضعيف المهين ، وهو قريب من القول الأوّل (ولولا رهطك لرجمناك) رهط الرجل عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوّى بهم ، ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده ، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة ، وانما جعلوا رهطه مانعا من انزال الضرر به مع كونهم فى قلة والكفار ألوف مؤلفة ، لأنهم كانوا على دينهم فتركوه احتراما لهم . لاخوفا منهم ، ثم أكدوا ماوصفوه به من الضعف بقولهم (وماأنت علينا بعزيز) حتى نكف عنك لأجل عزتك عندنا ، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا ، ومعنى لرجمناك لقتلناك بالرجم ، وكانوا اذا قتلوا

افسانا رجوه بالحجارة ، وقيل معنى لرجناك لشتمناك ، ومنه قول الجعدى :

تراجعنا بمرّ القول حتى * نصير كأننا فرسا رهان

ويطلق الرجم على اللعن ، ومنــه الشيطان الرجيم ، وجملة (قال ياقوم أرهطى أعزّ عليكم من الله) مستأنفة ، وانما قال أعز عليكم من الله ، ولم يقل أعز عليكم منى لأن نفى العزة عنــه واثباتها لقومه كما يدل عليـه ايلاء الضمير حرف النفى استهانة به ، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل ، فقــد تضمن كلامهم أن رهطه أعزّ عليهم من الله ، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه وألزمهم مالا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام ، وفى هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة و إلقام الخصم الحجر مالا يخفى ، ولأمر ماسمى شعيب خطيب الأنبياء ، والضمير فى (واتخذتموه) راجع الى الله سبحانه * والمعنى : واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذى أرسله اليكم (وراءكم ظهريا) أى منبوذا وراء الظهر لاتبالون به ، وقيل المعنى واتخذتم أمر الله الذى أمرنى بابلاغــه اليكم ، وهو ماجئتكم به وراء ظهوركم ، يقال : جعلت أمره بظهر : اذا قصرت فيه ، و (ظهريا) منسوب الى الظهر ، والكسر لتغيير النسب (ان ربى بما تعملون محيط) لايخفى عليه شىء من أقوالكم وأفعالكم (وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون) لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم ، وعدم تأثير الموعظة فيهم ، توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم ، يقال مكن مكانة : اذا تمكن أبلغ تمكن ، وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدره الله ، ثم بالغ فى التهديد والوعيد بقوله (سوف تعلمون) أى عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والاضرار بعباده ، وقد تقدم مثله فى الأنعام (من يأتيه عذاب يخزيه) من فى محل نصب بتعلمون : أى سوف تعلمون من هو الذى يأتيه العذاب المخزى الذى يتأثر عنه الذلّ والفضيحة والعار ، (ومن هو كاذب) معطوف على من يأتيه ، والمعنى : ستعلمون من هو المعذب ومن هو الكاذب ؟ وفيــه تعريض بكذبهم فى قولهم : لولا رهطك لرجناك وما أنت علينا بعزيز ، وقيل ان من مبتدأ ومابعدها صلتها ، والخبر محذوف ، والتقدير من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره . قال الفراء : انما جاء بهو فى من هو كاذب ، لأنهم لايقولون من قائم : انما يقولون من قام ، ومن يقوم ، ومن القائم ، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قول الشاعر :

من رسولى الى الثريا فانى * ضقت ذرعا بهجرها والكتاب

(وارتقبوا انى معكم رقيب) أى انتظروا انى معكم منتظر لما يقضى به الله بيننا (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه) أى لما جاء عذابنا أو أمرنا بعذابهم نجينا شعيبا وأتباعه الذين آمنوا به (برحمة منا) لهم بسبب إيمانهم ، أو برحمة منا لهم : وهى هدايتهم للإيمان (وأخذت الذين ظلموا) غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر (الصيحة) التى صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم ، وفى الأعراف ــ فأخذتهم الرجفة ــ وكذا فى العنكبوت . وقد قدمنا أن الرجفة الزلزلة وأنها تكون تابعــة للصيحة لتموّج الهوى المفضى اليها (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى ميتين . وقد تقدم تفسيره وتفسير (كأن لم يغنوا فيها) قريبا . وكذا تفسير (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) وحكى الكسائى أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ (كما بعدت ثمود) بضم العين . قال المهدوى من ضم العين من بعدت فهى لغة يستعمل فى الخير والشر و بعدت بالكسر على قراءة الجمهور يستعمل فى الشر خاصة ، وهى هنا بمعنى اللعنة .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (إنى أراكم بخير) قال رخص السعر (و إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) قال غلاء السعر . وأخرج ابن جرير عنه (بقية الله) قال رزق الله . وأخرج عبد الرزاق

وابن

وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (بقية الله خير لكم) يقول حظكم من ربكم خير لكم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال: طاعة الله. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الأعمش في قوله (أصلواتك تأمرك) قال: أقراءتك. وأخرج ابن عساكر عن الأحنف أن شعيبا كان أكثر الأنبياء صلاة. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله (أوأن نفعل في أموالنا مانشاء) قال: نهاهم عن قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا انما هي أموالنا نفعل فيها مانشاء ان شئنا قطعناها وان شئنا أحرقناها، وان شئنا طرحناها. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه. وأخرجا عن زيد بن أسلم نحوه أيضا. وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن المنذر وأبو الشيخ وعبد بن حميد عن سعيد بن المسيب نحوه أيضا. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (انك لأنت الحليم الرشيد) قال: يقولون انك لست بحليم ولا رشيد. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال: استهزاء به. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله (ورزقني منه رزقا حسنا) قال: الحلال. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (وماأريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) قال: يقول لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (واليه أنيب) قال: اليه أرجع. وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي قال: قلت يارسول الله أوصني قال «قل: الله ربي ثم استقم قلت ربي الله وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب، قال ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شربا، ونهلته نهلا» وفي إسناده محمد بن يوسف الكديمي. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (لايجرمنكم شقاق) لايحملنكم فراق. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: شقاق عداوتي. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي قال: لايحملنكم عداوتي. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله (وما قوم لوط منكم ببعيد) قال: إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد نوح وثمود. وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير (وانا لنراك فينا ضعيفا) قال: كان أعمى، وانما عمي من بكائه من حب الله عز وجل. وأخرج الواحدي وابن عساكر عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي. وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس في قوله (وانا لنراك فينا ضعيفا) قال: كان ضرير البصر. وأخرج أبو الشيخ عن أبي صالح مثله. وأخرج أبو الشيخ عن سفيان في قوله (وانا لنراك فينا ضعيفا) قال: كان أعمى، وكان يقال له خطيب الأنبياء. وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال: معناه انما أنت واحد. وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب وانا لنراك فينا ضعيفا قال: كان مكفوفا، فنسبوه الى الضعف (ولولا رهطك لرجمناك) قال علي: فوالله الذي لا إله غيره ماهابوا جلال ربهم ماهابوا الا العشيرة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (واتخذتموه وراءكم ظهريا) قال: نبذتم أمره. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال في الآية لاتخافونه. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: تهاونتم به.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ *

XI. 103-115



وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ *

المراد بالآيات التوراة ، والسلطان المبين : المعجزات ، وقيل المراد بالآيات هي التسع المذكورة فى غير هذا الموضع ، والسلطان المبين : العصا ، وهى وان كانت من التسع لكنها لما كانت أبهرها أفردت بالذكر ، وقيل المراد بالآيات مايفيد الظنّ ، والسلطان المبين مايفيد القطع بما جاء به موسى ، وقيل هما جميعا عبارة عن شىء واحد : أى أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية ، وكونه سلطانا مبينا ، وقيل ان السلطان المبين : ماأورده موسى على فرعون فى المحاورة بينهما (الى فرعون وملائه) أى أرسلناه بذلك الى هؤلاء . وقد تقدّم أن الملأ أشراف القوم ، وانما خصهم بالذكر دون سائر القوم ، لأنهم أتباع لهم فى الاصدار والايراد ، وخصّ هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله (فاتبعوا أمر فرعون) أى أمره لهم بالكفر ، لأن حال فرعون فى الكفر أمر واضح ، اذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم انما هو مستند الى كفره ، ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقته فيعمّ الكفر وغيره (وما أمر فرعون برشيد) أى ليس فيه رشد قط ، بل هو غيّ وضلال ، والرشيد بمعنى المرشد ، والاسناد مجازى ، أو بمعنى ذى رشد ، وفيه تعريض بأن الرشد فى أمر موسى (يقدم قومه يوم القيامة) من قدمه بمعنى تقدّمه : أى يصير متقدّما لهم يوم القيامة سابقا لهم الى عذاب النار كما كان يتقدّمهم فى الدنيا (فأوردهم النار) أى انه لايزال متقدّما لهم وهم يتبعونه حتى يوردهم النار ، وعبر بالماضى تنبيها على تحقق وقوعه ، ثم ذمّ الورد الذى أوردهم إليه ، فقال (وبئس الورد المورود) لأن الوارد الى الماء الذى يقال له الورد ، انما يرده ليطفىء حرّ العطش ، ويذهب ظمأه ، والنار على ضدّ ذلك ، ثم ذمهم بعد ذمّ المكان الذى يردونه ، فقال (وأتبعوا فى هذه لعنة) أى أتبع قوم فرعون مطلقا ، أو الملأ خاصة ، أوهم وفرعون فى هذه الدنيا لعنة عظيمة : أى طردا وإبعادا (ويوم القيامة) أى وأتبعوا لعنة يوم القيامة يلعنهم أهل المحشر جميعا ، ثم انه جعل اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم ، فقال (بئس الرفد المرفود) . قال الكسائى وأبو عبيدة رفدته أرفده رفدا : أعنته وأعطيته ، واسم العطية الرفد : أى بئس العطاء ، والاعانة ماأعطوهم إياه ، وأعانوهم به ، والمخصوص بالذمّ محذوف : أى رفدهم ، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة كأنها لعنة بعد لعنة تمدّ الأخرى الاولى وتؤيدها ، وذكر الماوردى حكاية عن الأصمعى أن الرفد بالفتح : القدح ، وبالكسر : مافيه من الشراب فكأنه ذمّ مايسقونه فى النار ، وهذا أنسب بالمقام ، وقيل ان الرفد : الزيادة : أى بئس مايرفدون به بعد الغرق ، وهو الزيادة : قاله الكلبى ، والاشارة بقوله (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) أى ماقصه الله سبحانه فى هذه السورة من أخبار الأمم السالفة ، وما فعلوه مع أنبيائهم : أى هو مقصوص عليك خبر بعد خبر . وقد تقدّم تحقيق معنى

القصص ، والضمير فى منها عائد الى القرى : أى من القرى قائم ، ومنها حصيد ، والقائم : ما كان قائما على عروشه ، والحصيد : مالا أثر له ، وقيل القائم : العامر ، والحصيد : الخراب ، وقيل القائم : القرى الخاوية على عروشها ، والحصيد : المستأصل بمعنى محصود ، شبه القرى بالزرع القائم على ساقه والمقطوع . قال الشاعر :

والناس فى قسم المنية بينهم ❊ كالزرع منه قائم وحصيد

(وماظلمناهم) بما فعلنا بهم من العذاب (ولكن ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصى (فما أغنت عنهم آلهتهم) أى فما دفعت عنهم أصنامهم التى يعبدونها من دون الله شيئا من العذاب (لما جاء أمر ربك) أى لما جاء عذابه (وما زادوهم غير تتبيب) التتبيب : الهلاك والخسران : أى مازادتهم الأصنام التى يعبدونها إلا هلاكا وخسرانا ، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع (وكذلك أخذ ربك) قرأ الجحدرى وطلحة بن مصرف أخذ على أنه فعل . وقرأ غيرهما أخذ على المصدر (إذا أخذ القرى وهى ظالمة) أى أهلها وهم ظالمون (إن أخذه) أى عقوبته للكافرين (أليم شديد) أى موجع غليظ (إن فى ذلك لآية) أى فى أخذ الله سبحانه لأهل القرى ، أو فى القصص الذى قصه على رسوله لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب الآخرة) لأنهم الذين يعتبرون بالعبر ، و يتعظون بالمواعظ ، والاشارة بقوله (ذلك يوم مجموع له الناس) الى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة أى يجمع فيه الناس للمحاسبة والمجازاة ، (وذلك) أى يوم القيامة (يوم مشهود) أى يشهده أهل المحشر ، أو مشهود فيه الخلائق ، فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول (وما نؤخره الا لأجل معدود) أى وما نؤخر ذلك اليوم الا لانتهاء أجل معدود معلوم بالعدد ، قد عين الله سبحانه وقوع الجزاء بعده (يوم يأت) قرأ أهل المدينة وأبو عمرو والكسائى باثبات الياء فى الدرج ، حذفها فى الوقف . وقرأ أبى وابن مسعود باثباتها وصلا ووقفا . وقرأ الأعمش بحذفها فيهما ، ووجه حذف الياء مع الوقف ماقاله الكسائى أن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم فحذفت الياء كما تحذف الضمة . ووجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل أنهم رأوا رسم المصحف كذلك . وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول لاأدر فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر ، وأنشد الفراء فى حذف الياء :

كفاك كف ماتليق درهما ❊ جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

قال الزجاج : والأجود فى النحو إثبات الياء ❊ والمعنى حين يأتى يوم القيامة (لاتكلم نفس) أى لاتتكلم حذفت إحدى التاءين تخفيفا : أى لاتتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها من الكلام ، وقيل لاتكلم بحجة ولا شفاعة (إلا باذنه) سبحانه لها فى التكلم بذلك ، وقد جمع بين هذا و بين قوله — هذا يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون — باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة . وقد تكرر مثل هذا الجمع فى مواضع (فمنهم شقى وسعيد) أى من الأنفس شقى ، ومنهم سعيد ، فالشقى من كتبت عليه الشقاوة ، والسعيد من كتبت له السعادة ، وتقديم الشقى على السعيد ، لأن المقام مقام تحذير (فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق) أى فأما الذين سبقت لهم الشقاوة فمستقرون فى النار لهم فيها زفير وشهيق . قال الزجاج الزفير : من شدة الأنين ، وهو المرتفع جدا . قال وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير ، والشهيق بمنزلة آخره ، وقيل الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف ، وقيل الزفير : إخراج النفس ، والشهيق : رد النفس ، وقيل الزفير من الصدر ، والشهيق من الحلق ، وقيل الزفير : ترديد النفس من شدة الخوف ، والشهيق : النفس الطويل الممتد ، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل مالهم فيها ؟ أوفى محل نصب على الحال (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) أى مدة دوامهما .

وقد اختلف العلماء فى بيان معنى هذا التوقيت ، لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأبيد عذاب الكفار فى النار وعدم انقطاعه عنهم ، وثبت أيضا أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا ، فقالت طائفة ان هذا الاخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة فى دوام الشيء . قالوا هو دائم مادامت السموات والأرض ، ومنه قولهم لا آتيك ماجنّ ليل ، وما اختلف الليل والنهار ، وماناح الحمام ونحو ذلك فيكون معنى الآية : أنهم خالدون فيها أبدا لا انقطاع لذلك ، ولا انتهاء له ، وقيل ان المراد سموات الآخرة وأرضها ، فقد ورد مايدل على أن للآخرة سموات وأرضا غير هذه الموجودة فى الدنيا ، وهى دائمة بدوام دار الآخرة ، وأيضا لابدّ لهم من موضع يقلهم ، وآخر يظلهم ، وهما أرض وسماء * قوله (الا ماشاء ربك) .

قد اختلف أهل العلم فى معنى هذا الاستثناء على أقوال . الأول أنه من قوله (فى النار) كأنه قال إلا ماشاء ربك من تأخير قوم عن ذلك . روى هذا أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى . الثانى أن الاستثناء انما هو للعصاة من الموحدين ، وأنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله سبحانه (فأما الذين شقوا) عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من خالدين ، وتكون ما بمعنى من ، وبهذا قال قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم . وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد فكان ذلك مخصصا لكل عموم . الثالث أن الاستثناء من الزفير والشهيق : أى لهم فيها زفير وشهيق (الا ماشاء ربك) من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق : قاله ابن الانبارى . الرابع أن معنى الاستثناء أنهم خالدون فيها مادامت السموات والأرض لايموتون إلا ماشاء ربك فانه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا ، ثم يجدّد الله خلقهم ، روى ذلك عن ابن مسعود . الخامس أن إلا بمعنى سوى * والمعنى مادامت السموات والأرض سوى مايتجاوز ذلك من الخلود كأنه ذكر فى خلودهم ماليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له : حكاه الزجاج . السادس ماروى عن الفراء وابن الأنبارى وابن قتيبة من أن هذا لاينافى عدم المشيئة كقولك : والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك ، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم الا المدة التى شاء الله ، فالمشيئة قد حصلت جزما . وقد حكى هذا القول الزجاج أيضا . السابع أن المعنى : خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك من مقدار موقفهم فى قبورهم وللحساب : حكاه الزجاج أيضا . الثامن أن المعنى خالدين فيها الاماشاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم : حكاه أيضا الزجاج ، واختاره الحكيم الترمذى . التاسع أن الا بمعنى الواو قاله الفراء ، والمعنى وما شاء ربك من الزيادة . قال مكى وهذا القول بعيد عند البصريين أن تكون الا بمعنى الواو . العاشر أن الا بمعنى الكاف ، والتقدير كماشاء ربك ، ومنه قوله تعالى ــ ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الا ماقد سلف ــ أى كما قد سلف . الحادى عشر أن هذا الاستثناء انما هو على سبيل الاستثناء الذى ندب اليه الشارع فى كل كلام فهو على حد قوله ــ لتدخلنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ــ روى نحو هذا عن أبى عبيد ، وهذه الأقوال هى جملة ماوقفنا عليه من أقوال أهل العلم . وقد نوقش بعضها بمناقشات ، ودفعت بدفوعات . وقد أوضحت ذلك فى رسالة مستقلة جمعتها فى جواب سؤال ورد من بعض الأعلام (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض) قرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى سعدوا بضم السين . وقرأ الباقون بفتح السين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال سيبويه لايقال سعد فلان كما لايقال شق فلان لكونه مما لايتعدى . قال النحاس ورأيت علىّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائى بضم السين مع علمه بالعربية ، وهذا لحن لايجوز ، ومعنى الآية كما مرّ فى قوله (فأما الذين شقوا) * قوله (إلا ماشاء ربك) قدعرف من الأقوال المتقدمة مايصلح

لمل هذا الاستثناء عليه (عطاء غير مجذوذ) أى يعطيهم الله عطاء غير مجذوذ ، والمجذوذ : المقطوع ، من جذه يجذه إذا قطعه ، والمعنى أنه ممتد إلى غير نهاية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (يقدم قومه يوم القيامة) يقول أضلهم فأوردهم النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : فرعون يمضى بين أيدى قومه حتى يهجم بهم على النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (فأوردهم النار) قال : الورود الدخول . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (بئس الرفد المرفود) قال : لعنة الدنيا والآخرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه (منها قائم وحصيد) يعنى : قرى عامرة وقرى خامدة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة منها قائم يرى مكانه ، وحصيد لا يرى له أثر . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج : منها قائم خاو على عروشه ، وحصيد ملصق بالأرض . وأخرج أبو الشيخ عن أبى عاصم (فما أغنت عنهم) قال : ما نفعت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عمر فى قوله (وما زادوهم غير تتبيب) أى هلكة . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال : تخسير . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة معناه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ «ان الله سبحانه وتعالى ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد» . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) يقول : إنا سوف نفى لهم بما وعدناهم فى الآخرة كما وفينا للأنبياء أنا ننصرهم . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) قال : يوم القيامة ، وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (يوم يأت) قال : ذلك اليوم . وأخرج الترمذى وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت (فمنهم شقى وسعيد) قلت يارسول الله فعلام نعمل على شىء قد فرغ منه ، أو على شىء لم يفرغ منه ؟ قال « بل على شىء قد فرغ منه وجرت به الأقلام ياعمر ، ولكن كلٌّ ميسر لما خلق له » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : هاتان من المخبآت قول الله : فمنهم شقى وسعيد ــ ويوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا ــ أما قوله : فمنهم شقى وسعيد ، فهم قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ماشاء بذنوبهم ، ثم يأذن فى الشفاعة لهم فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة ، فسماهم أشقياء حين عذبهم فى النار (وأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك) حين أذن فى الشفاعة لهم وأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة وهم هم (وأما الذين سعدوا) يعنى بعد الشقاء الذى كانوا فيه (ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك) يعنى الذين كانوا فى النار . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن قتادة أنه تلا هذه الآية (فأما الذين شقوا) فقال : حدثنا أنس أن رسول الله ﷺ قال « يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال أهل حروراء : انّ من دخلها بقى فيها . وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قرأ رسول ﷺ (فأما الذين شقوا) الى قوله (إلا ماشاء ربك) قال : قال رسول الله ﷺ «ان شاء الله أن يخرج أناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل» . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن خالد بن معدان فى قوله (إلا ماشاء ربك) قال : انها فى التوحيد من أهل القبلة . وأخرج عبد الرزاق وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله أو عن

أبى سعيد الخدرى أو رجل من أصحاب النبى ﷺ فى قوله (إلا ماشاء ربك) قال : هذه الآية قاضية على القرآن كله ، يقول حيث كان فى القرآن خالدين فيها تأتى عليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن أبى نضرة قال : ينتهى القرآن كله الى هذه الآية (ان ربك فعال لما يريد) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (مادامت السموات والأرض) قال : لكل جنة سماء وأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج البيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس فى قوله (إلاماشاء ربك) قال : فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء فى النار وأن يخلد هؤلاء فى الجنة . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (إلا ماشاء ربك) قال : استثنى الله من النار أن تأكلهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله مانسخها ، فأنزل بالمدينة ـ ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولاليهديهم طريقا ـ الى آخر الآية فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها ، وأوجب لهم خلود الأبد * وقوله (وأما الذين سعدوا) الآية . قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله مانسخها ، فأنزل بالمدينة ـ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات ـ الى قوله ـ ظلا ظليلا ـ فأوجب لهم خلود الأبد . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه . وأخرج اسحاق بن راهويه عن أبى هريرة قال « سيأتى على جهنم يوم لايبقى فيها أحد ، وقرأ فاما الذين شقوا الآية » . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابراهيم قال « مافى القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلاماشاء ربك ، قال : وقال ابن مسعود ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها » . وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : « جهنم أسرع الدارين عمرانا وأسرعهما خرابا » . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (الاماشاء ربك) قال الله أعلم بثنيته على ماوقعت . وقد روى عن جماعة من السلف مثل ماذكره عمر وأبو هريرة وابن مسعود كابن عباس وعبد الله بن عمر وجابر وأبى سعيد من الصحابة ، وعن أبى مجلز وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما من التابعين . وورد فى ذلك حديث فى معجم الطبرانى الكبير عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى ، واسناده ضعيف . ولقد تكلم صاحب الكشاف فى هذا الموضع بما كان له فى تركه سعة ، وفى السكوت عنه غنى ، فقال : ولايخدعنك قول المجبرة ان المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار فان الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم ، وماظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت عن ابن عمرو ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد ، ثم قال : وأقول ما كان لابن عمرو فى سيفيه ومقاتلته بهما على بن أبى طالب رضى الله عنه مايشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى .

وأقول أما الطعن على من قال : بخروج أهل الكبائر من النار فالقائل بذلك ياسكين رسول الله ﷺ كما صح عنه فى دواوين الاسلام التى هى دفاتر السنة المطهرة ، وكما صح عنه فى غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر ، فمالك والطعن على قوم عرفوا ماجهلته وعملوا بما أنت عنه فى مسافة بعيدة ، وأى مانع من حمل الاستثناء على هذا الذى جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب الى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف ، وأما ماظننته من أن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلامناداة ولامخالفة ، وأى مانع من حمل الاستثناء فى الموضعين على العصاة من هذه الأمة فالاستثناء الأول يحمل على معنى إلا ماشاء ربك من خروج العصاة من هذه الأمة من النار ، والاستثناء الثانى يحمل على معنى إلاماشاء ربك من عدم خلودهم فى الجنة كما يخلد غيرهم وذلك لتأخر دخولهم اليها

مقدار

XI-111-116



مقدار المدّة التى لبثوا فيها فى النار . وقد قال بهذا من أهل العلم من قدّمنا ذكره ، وبه قال ابن عباس حبر الأمّة ، وأما الطعن على صاحب رسول الله وحافظ سنته وعابد الصحابة عبدالله بن عمرو رضى الله عنه ، فالى أين يامحمود : أتدرى ماصنعت ، وفى أىّ واد وقعت ، وعلى أى جنب سقطت ، ومن أنت حتى تصعد الى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة ورجلك العرجاء ، أما كان لك فى مكسرى طلبتك من أهل النحو واللغة ماردك عن الدخول فيما لاتعرف والتكلم بما لاتدرى فيالله العجب مايفعل القصور فى علم الرواية والبعد عن معرفتها الى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه .

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والأشقياء ، سلى رسوله ﷺ بشرح أحوال الكفرة من قومه فى ضمن النهى له عن الامتراء فى أن مايعبدونه غير نافع ولا ضارّ ولا تأثير له فى شىء وحذف النون فى لاتك لكثرة الاستعمال ، والمرية الشك ، والاشارة بهؤلاء الى كفار عصره ﷺ ، وقيل المعنى لاتك فى شك من بطلان مايعبد هؤلاء ، وقيل لاتك فى شك من سوء عاقبتهم ، ولامانع من الحمل على جميع هذه المعانى ، وهذا النهى له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شىء من الشك ، فانه ﷺ لايشك فى ذلك أبدا ، ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل ، وفى هذا الاستئناف تعليل للنهى عن الشك * والمعنى أنهم سواء فى الشرك بالله وعبادة غيره فلا يكن فى صدرك حرج مما تراه من قومك ، فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك ، وجاء بالمضارع فى كما يعبد آباؤهم لاستحضار الصورة ، ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال (وانا لموفوهم نصيبهم) من العذاب كما وفينا آباءهم لاينقص من ذلك شىء ، وانتصاب غير على الحال ، والتوفية لاتستلزم عدم النقص ، فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص كما يجوز أن يوفى وهو كامل ، وقيل المراد نصيبهم من الرزق ، وقيل ماهو أعمّ من الخير والشر (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فاختلف فيه) أى فى شأنه وتفاصيل أحكامه ، فآمن به قوم وكفر به آخرون وعمل بأحكامه قوم ، وترك العمل ببعضها آخرون ، فلا يضق صدرك يامحمد بما وقع من هؤلاء فى القرآن (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) أى لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم الى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح لقضى بينهم : أى بين قومك ، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين فأثيب المحق وعذب المبطل ، أو الكلمة هى أن رحمته سبحانه سبقت غضبه فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك ، وقيل ان الكلمة هى أنهم لايعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له ﷺ ، ثم وصفهم بأنهم فى شك من الكتاب فقال (وانهم لفى شك منه مريب) أى من القرآن ان حمل على قوم

محمد ﷺ ، أومن التوراة ان حمل على قوم موسى عليه السلام ، والمريب الموقع فى الريبة ، ثم جمع الأولين والآخرين فى حكم توفية العذاب لهم ، أوهو والثواب ، فقال (وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم) . قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر وان بالتخفيف على أنها ان المخففة من الثقيلة وعملت فى كلا النصب ، وقد جوّز عملها الخليل وسيبويه ، وقد جوّز البصريون تخفيف إن مع إعمالها ، وأنكر ذلك الكسائى وقال ماأدرى على أى شىء قرئ وان كلا ؟ وزعم الفراء أن انتصاب كلا بقوله ليوفينهم ، والتقدير وان ليوفينهم كلا ، وأنكر ذلك عليه جميع النحويين . وقرأ الباقون بتشديد ان ونصبوا بها كلا ، وعلى كلا القراءتين فالتنوين فى كلا عوض عن المضاف اليه : أى وان كل المختلفين . وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر لما بالتشديد وخففها الباقون . قال الزجاج ، لام لما لام ان ، وما زائدة مؤكدة ، وقال الفراء : ما بمعنى من كقوله ـ وان منكم لمن ليبطئن ـ أى وان كلا لمن ليوفينهم ، وقيل ليست بزائدة : بل هى اسم دخلت عليها لام التوكيد والتقدير وان كلا لمن خلق ، قيل وهى مركبة : وأصلها لمن ما ، فقلبت النون ميما واجتمعت ثلاث ميمات ، فحذفت الوسطى . حكى ذلك النحاس عن النحويين ، وزيف الزجاج هذا وقال : من اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون ، وذهب بعض النحويين الى أن لما هذه بمعنى الا ، ومنه قوله تعالى ـ إن كل نفس لما عليها حافظ ـ وقال المازنى : الأصل لما المخففة ثم ثقلت . قال الزجاج : وهذا خطأ انما يخفف المثقل ولا يثقل المخفف . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام يجوز أن يكون التشديد من قولهم لممت الشىء ألمه : اذ جمعته ، ثم بنى منه فعلى كما قرئ ـ ثم أرسلنا رسلنا تترى ـ وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى الا الاستثنائية . وقد روى ذلك عن الخليل وسيبويه وجميع البصريين ورجحه الزجاج ويؤيده أن فى حرف أبىّ (وان كلا الا ليوفينهم) كما حكاه أبو حاتم عنه وقرئ بالتنوين : أى جميعا . وقرأ الأعمش (وان كل لما) بتخفيف ان ورفع كل وتشديد لما وتكون إن على هذه القراءة نافية (انه بما يعملون) أيها المختلفون (خبير) لا يخفى عليه منه شىء ، والجملة تعليل لما قبلها ، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال (فاستقم كما أمرت) أى كما أمرك الله ، فيدخل فى ذلك جميع ما أمره به وجميع مانهاه عنه ، لأنه قد أمره بتجنب مانهاه عنه : كما أمره بفعل ماتعبده بفعله ، وأمته أسوته فى ذلك ، ولهذا قال (ومن تاب معك) أى رجع من الكفر الى الاسلام وشاركك فى الايمان ، وهو معطوف على الضمير فى فاستقم ، لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد : أى وليستقم من تاب معك وماأعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها ، فان الاستقامة كما أمر الله لاتقوم بها الا الأنفس المطهرة والذوات المقدسة ، ولهذا يقول المصطفى ﷺ «شيبتنى هود» كما تقدم (ولا تطغوا) الطغيان مجاوزة الحد ، لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الغلوّ فى العبادة والافراط فى الطاعة على وجه تخرج به عن الحدّ الذى حدّه والمقدار الذى قدّره ممنوع منه منهىّ عنه ، وذلك كمن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام ويترك الحلال الذى أذن الله به ورغب فيه ، ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه ، أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأنكح النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ، والخطاب للنبى ﷺ ولأمته تغليبا لحالهم على حاله ، أو النهى عن الطغيان خاص بالأمة (انه بما تعملون بصير) يجازيكم على حسب ماتستحقون ، والجملة تعليل لما قبلها * قوله (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) قرأ الجمهور بفتح الكاف . وقرأ طلحة بن مصرّف وقتادة وغيرهما (تركنوا) بضم الكاف . قال الفراء : وهى لغة تميم وقيس ، قال أبو عمرو وقراءة الجمهور هى لغة أهل الحجاز قال : ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف ، وهم يكسرون حرف المضارعة فى كل ما كان من باب علم يعلم وقرأ ابن أبى عبلة بضم التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه . قال فى الصحاح ركن إليه يركن

بالضم

بالضم . وحكى أبو زيد ركن اليه بالكسر يركن ركونا فيهما : أى مال اليه وسكن قال الله تعالى ـ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ، وأما ماحكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فانما هو على الجمع بين اللغتين انتهى . وقال فى شمس العلوم : الركون السكون ، يقال ركن إليه ركونا ، قال الله تعالى ( ولا تركنوا الى الذين ظلموا ) انتهى . وقال فى القاموس : ركن اليه كنصر وعلم ومنع ركونا : مال وسكن انتهى ، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال : فان الركون هو الميل اليسير ، وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد الا من كان من المقيدين بما ينقله صاحب الكشاف ، ومن المفسرين من ذكر فى تفسير الركون قيودا لم يذكرها أئمة اللغة . قال القرطبى فى تفسيره : الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون الى الشىء والرضا به ، ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوى . فروى عن قتادة وعكرمة فى تفسير الآية أن معناها لاتودوهم ولاتطيعوهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية : الركون هنا الادهان ، وذلك أن لاينكر عليهم كفرهم : وقال أبو العالية معناه لاترضوا أعمالهم .

وقد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين فى هذه الآية هل هى خاصة بالمشركين أو عامة ؟ فقيل خاصة وان معنى الآية النهى عن الركون الى المشركين ، وأنهم المرادون بالذين ظلموا ، وقد روى ذلك عن ابن عباس ، وقيل انها عامة فى الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب * فان قلت قد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتا لايخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد فى بعض ألفاظ الصحيح « أطيعوا السلطان وان كان عبدا حبشيا رأسه كالزبيبة » . وورد وجوب طاعتهم ماأقاموا الصلاة ، ومالم يظهر منهم الكفر البواح ، ومالم يأمروا بمعصية الله * وظاهر ذلك أنهم وان بلغوا فى الظلم الى أعلى مراتبه ، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به الى الكفر البواح ؛ فان طاعتهم واجبة حيث لم يكن ماأمروا به من معصية الله ، ومن جملة مايأمرون به تولى الأعمال لهم والدخول فى المناصب الدينية التى ليس الدخول فيها من معصية الله ، ومن جملة مايأمرون به الجهاد ، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا ، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم ، وإقامة الحدود على من وجبت عليه ، وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم فى كل مايأمرون به مما لم يكن من معصية الله ، ولا بد فى مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ، ونحو ذلك مما لابد منه ، ولا محيص عن هذا الذى ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الأدلة الواردة به ، بل قد ورد به الكتاب العزيز ـ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ـ بل ورد أنهم يعطون الذى لهم من الطاعة ، وإن منعوا ماهو عليهم للرعايا كما فى بعض الأحاديث الصحيحة « أعطوهم الذى لهم ، واسألوا الله الذى لكم » بل ورد الأمر بطاعة السلطان ، وبالغ فى ذلك النبى ﷺ حتى قال « وإن أخذ مالك وضرب ظهرك » . فان اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ماتستلزمه من المخالطة هى ميل وسكون ، وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهرا وباطنا فلا يتناول النهى فى هذه الآية من مال اليهم فى الظاهر لأمر يقتضى ذلك شرعا كالطاعة ، أو للتقية ومخافة الضرر منهم ، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة ، إذا لم يكن له ميل اليهم فى الباطن ولا محبة ولا رضا بأفعالهم * قلت أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن فى معصية الله ، فهى على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهى عنه بأدلتها التى قدمنا الاشارة إليها ، ولا شك فى هذا ولا ريب فكل

من أمروه ابتداء أن يدخل فى شىء من الأعمال التى أمرها اليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها اذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل اليه فذلك واجب عليه فضلا عن أن يقال جائزله . وأما ماورد من النهى عن الدخول فى الامارة ، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والأمراء جمعا بين الأدلة ، أومع ضعف المأمور عن القيام بما أمربه كما ورد تعليل النهى عن الدخول فى الامارة بذلك فى بعض الأحاديث الصحيحة ، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أوخاصة أودفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ماهم عليه من الظلم وعدم ميل النفس اليهم ومحبتها لهم ، وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أودفع تلك المفسدة فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد والأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء مانوى ، ولا تخفى على الله خافية ، وبالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتى ومايذر بميزان الشرع ، فان زاغ عن ذلك «فعلى نفسها براقش تجنى» ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له والأليق به .

يامالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين : اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لايخافون فيك لومة لائم ، وقونا على ذلك ويسره لنا ، وأعنا عليه . قال القرطبى فى تفسيره : وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهى بحال الاضطرار انتهى . وقال النيسابورى فى تفسيره . قال المحققون : الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم فى شىء من تلك الأبواب ، فأما مداخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة ، فغير داخلة فى الركون . قال وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ، ومقتضى التقوى هوالاجتناب عنهم بالكلية ــ أليس الله بكاف عبده ــ انتهى * قوله (فتمسكم النار) بسبب الركون اليهم ، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار ، أو كالنار ، ومصاحبة النار توجب لامحالة مس النار ، وجملة (ومالكم من دون الله من أولياء) فى محل نصب على الحال من قوله : فتمسكم النار * والمعنى أنها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها (ثم لاتنصرون) من جهة الله سبحانه ، إذ قد سبق فى علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذى نهيتم عنه فلم تنتهوا عنادا وتمردا * قوله (وأقم الصلاة طرفى النهار) لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الايمان وانتصاب طرفى النهار على الظرفية ، والمراد صلاة الغداة والعشى ، وهما الفجر والعصر ، وقيل الظهر موضع العصر ، وقيل الطرفان الصبح والمغرب ، وقيل هما الظهر والعصر ، ورجح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب . قال والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدل على أن الطرف الآخر المغرب (وزلفا من الليل) أى فى زلف من الليل ، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ، ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن القعقاع وأبواسحق وغيرهما زلفا بضم اللام جمع زليف ، ويجوز أن يكون واحده زلفة . وقرأ ابن محيصن باسكان اللام . وقرأ مجاهد زلفى : مثل فعلى . وقرأ الباقون زلفا بفتح اللام كغرفة وغرف . قال ابن الأعرابى : الزلف الساعات واحدتها زلفة . وقال قوم الزلفة : أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس . قال الأخفش : معنى زلفا من الليل : صلاة الليل (ان الحسنات يذهبن السيئات) أى ان الحسنات على العموم ، ومن جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم ، وقيل المراد بالسيئات : الصغائر ، ومعنى يذهبن السيئات يكفرنها حتى كأنها لم تكن ، والاشارة بقوله (ذلك ذكرى للذاكرين) الى قوله (فاستقم) ومابعده ، وقيل الى القرآن ذكرى للذاكرين : أى موعظة للمتعظين (واصبر) على ماأمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان

والركون الى الذين ظلموا ، وقيل ان المراد الصبر على ماأمر به دون مانهى عنه ، لأنه لامشقة فى اجتنابه وفيه نظر ، فان المشقة فى اجتناب المنهىّ عنه كائنة ، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر ، فذلك لايخرجها عن مطلق المشقة (فان الله لايضيع أجر المحسنين) أى يوفيهم أجورهم ولايضيع منها شيئا فلا يهمله ولا يبخسه بنقص .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) قال ماقدّر لهم من خير أوشرّ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن زيد فى الآية . قال من العذاب . وأخرجا عن أبى العالية . قال من الرزق . وأخرجا أيضا عن قتادة فى قوله (فاستقم كما أمرت) قال أمر الله نبيه أن يستقيم على أمره ، ولايطغى فى نعمته . وأخرج أبوالشيخ عن سفيان فى الآية قال : استقم على القرآن . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية فاستقم كما أمرت قال : شمروا شمروا فمارؤى ضاحكا . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج (ومن تاب معك) قال آمن . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن العلاء بن عبد الله بن بدر فى قوله (ولاتطغوا) قال لم يرد أصحاب النبى ﷺ إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (ولاتطغوا) يقول لاتظلموا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال الطغيان : خلاف أمره وارتكاب معصيته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) قال يعنى الركون إلى الشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه (ولا تركنوا) قال لاتميلوا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال (ولا تركنوا) لاتدهنوا . وأخرج أبوالشيخ عن عكرمة فى الآية قال أن تطيعوهم أوتودّوهم أوتصطنعوهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وأقم الصلاة طرفى النهار) قال صلاة المغرب والغداة (وزلفا من الليل) قال صلاة العتمة . وأخرجا عن الحسن قال الفجر والعصر (وزلفا من الليل) قال هما زلفتان : صلاة المغرب ، وصلاة العشاء قال : وقال رسول الله ﷺ هما زلفتا الليل . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الطرفين : قال صلاة الفجر وصلاتى العشىّ : يعنى الظهر والعصر (وزلفا من الليل) قال المغرب والعشاء . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وزلفا من الليل) قال ساعة بعد ساعة يعنى صلاة العشاء الآخرة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يستحبّ تأخير العشاء ، ويقرأ زلفا من الليل . وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (ان الحسنات يذهبن السيئات) قال الصلوات الخمس . وأخرج عبدالرزاق والفريابى وابن أبى شيبة ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (ان الحسنات يذهبن السيئات) قال الصلوات الخمس ، والباقيات الصالحات : الصلوات الخمس . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها ، فأنزلت عليه (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات) فقال الرجل يارسول الله إلى هذه ؟ قال هى لمن عمل بها من أمتى . وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن أبى أمامة أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال يارسول الله أقم فىّ حدّ الله مرّة أو مرّتين ، فأعرض عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فلما فرغ قال أين الرجل ؟ قال أناذا ، قال أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا ؟ قال نعم . قال فانك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد ، وأنزل الله حينئذ على رسوله (وأقم الصلاة طرفى النهار) . وفى الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة ، ووردت أحاديث أيضا « ان

XI 114-123



الصلوات الخمس كفارات لما بينهن » . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن فى قوله (ذلك ذكرى للذاكرين) قال هم الذين يذكرون الله فى السرّاء والضرّاء ، والشدّة والرخاء ، والعافية والبلاء . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : لما نزع الذى قبل المرأة تذكر فذلك قوله (ذكرى للذاكرين) .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ * وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَٱنتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ * وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

هذا عود الى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد و يأمر بالرشاد ، فقال (فلولا) أى فهلا (كان من القرون) الكائنة (من قبلكم أولوا بقية) من الرأى والعقل والدين (ينهون) قومهم (عن الفساد فى الأرض) ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل ، وقوّة الدين ، وفى هذا من التوبيخ للكفار مالايخفى ، والبقية فى الأصل لما يستبقيه الرجل مما يخرجه ، وهو لا يستبقى الا أجوده وأفضله ، فصار لفظ البقية مثلا فى الجودة ، والاستثناء فى (الا قليلا) منقطع : أى لكن قليلا (ممن أنجينا منهم) ينهون عن الفساد فى الأرض ، وقيل هو متصل لأن فى حرف التحضيض معنى النفى ؛ فكأنه قال : ما كان فى القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض الا قليلا ممن أنجينا منهم ، ومن فى ممن أنجينا بيانية لأنه لم ينج الا الناهون ؛ قيل هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر — الا قوم يونس — وقيل هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) معطوف على مقدّر يقتضيه الكلام ، تقديره الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ، والمعنى أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم للفساد وتركهم للنهى عنه ما أترفوا فيه ، والمترف : الذى أبطرته النعمة ، يقال صبىّ مترف : منعم البدن ، أى صاروا تابعين للنعم التى صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال وسعة الرزق ، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة ، واستغرقوا أعمارهم فى الشهوات النفسانية ، وقيل المراد بالذين ظلموا تاركو النهى ، وردّ بأنه يستلزم خروج مباشرى الفساد عن الذين ظلموا وهم أشدّ ظلما ممن لم يباشر ، وكان ذنبه ترك النهى . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه وأتبع الذين ظلموا على البناء للمفعول ، ومعناه أتبعوا جزاء ما أترفوا فيه ، وجملة (وكانوا مجرمين) متضمنة لبيان سبب إهلاكهم ، وهى معطوفة على أترفوا : أى وكان هؤلاء الذين أتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين ، والاجرام الآثام * والمعنى أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم للشهوات واشتغالهم بها عن الأمور التى يحق الاشتغال بها ، ويجوز أن تكون جملة (وكانوا مجرمين) معطوفة على واتبع الذين ظلموا : أى اتبعوا شهواتهم ، وكانوا بذلك الاتباع مجرمين (وما كان

ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ) أى ماصح ولا استقام أن يهلك الله سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك ، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم فى تعاطى الحقوق لايظلمون الناس شيئا * والمعنى أنه لايهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضم اليه الفساد فى الأرض ، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم ، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء ، وقيل ان قوله (بظلم) حال من الفاعل * والمعنى وما كان الله ليهلك القرى ظالما لهم حال كونهم مصلحين غير مفسدين فى الأرض ، ويكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه وتعالى عن صدور ذلك منه بلاسبب يوجبه على تصوير ذلك بصورة مايستحيل منه ، والا فكل أفعاله كائنة ما كانت لاظلم فيها ، فانه سبحانه ليس بظلام للعبيد قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى وما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه ، وان كان على نهاية الصلاح لأن تصرفه فى ملكه ، دليله قوله تعالى ــ ان الله لايظلم الناس شيئا ــ وقيل المعنى وما كان ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون : أى مخلصون فى الايمان ، فالظلم المعاصى على هذا (ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أى أهل دين واحد ، اما أهل ضلالة ، أو أهل هدى ، وقيل معناه جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه ، أو مجتمعين على دين الاسلام دون سائر الأديان ، ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن ، ولهذا قال (ولايزالون مختلفين) فى ذات بينهم على أديان شتى ، أولايزالون مختلفين فى الحق أودين الاسلام ، وقيل مختلفين فى الرزق : فهذا غنىّ ، وهذا فقير (إلامن رحم ربك) بالهداية الى الدين الحق ، فانهم لم يختلفوا ، أوالا من رحم ربك من المختلفين فى الحق ، أودين الاسلام بهدايته إلى الصواب الذى هو حكم الله وهو الحق الذى لاحق غيره أو الا من رحم ربك بالقناعة ، والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء فى (الا من رحم ربك) واضحا غير محتاج الى تكلف (ولذلك) أى لما ذكر من الاختلاف (خلقهم) أو ولرحمته خلقهم ، وصحّ تذكير الاشارة إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى ، والضمير فى خلقهم راجع الى الناس ، أوالى من فى من رحم ربك ، وقيل الاشارة بذلك الى مجموع الاختلاف والرحمة ، ولامانع من الاشارة بها الى شيئين كما فى قوله ــ عوان بين ذلك . وابتغ بين ذلك سبيلا ــ فبذلك فليفرحوا ــ * قوله (وتمت كلمة ربك) معنى تمت ثبتت كما قدره فى أزله ، واذا تمت امتنعت من التغيير والتبديل ، وقيل الكلمة هى قوله (لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى ممن يستحقها من الطائفتين ، والتنوين فى (وكلا) للتعويض عن المضاف اليه ، وهو منصوب بنقصّ * والمعنى وكل نبأ من أنباء الرسل مما يحتاج اليه نقصّ عليك : أى نخبرك به . وقال الأخفش (كلا) حال مقدّمة كقولك : كلا ضربت القوم ، والأنباء الاخبار (ما نثبت به فؤادك) أى مانجعل به فؤادك مثبتا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ووفورطمأنينته ، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ فى النفس وأقوى للعلم ، وجملة (مانثبت) بدل من أنباء الرسل ، وهو بيان لكلا ، ويجوز أن يكون (مانثبت) مفعولا لنقصّ ، ويكون كلا مفعولا مطلقا ، والتقدير كل أسلوب من أساليب الاقتصاص نقص عليك مانثبت به فؤادك (وجاءك فى هذه الحق) أى جاءك فى هذه السورة ، أو فى هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد (وموعظة) يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين (وذكرى) يتذكر بها من تفكر فيها منهم ، وخصّ المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر ، وقيل المعنى وجاءك فى هذه الدنيا الحق ، وهو النبوّة ، وعلى التفسير الأول يكون تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها مع كونه قد جاء فى غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك لابيان كونه موجودا فيها دون غيرها (وقل للذين لايؤمنون) بهذا الحق ولايتعظون ولايتذكرون (اعملوا على مكانتكم) على تمكنكم وحالكم وجهتكم . وقد تقدم تحقيقه (إنا عاملون) على مكانتنا وحالنا وجهتنا

من الايمان بالحق والاتعاظ والتذكر ، وفى هـذا تشديد للوعيد والتهديد لهم ، وكذلك قوله (وانتظروا إنا منتظرون) فيه من الوعيد والتهديد مالا يخفى * والمعنى انتظروا عاقبة أمرنا فانا منتظرون عاقبة أمركم وما يحل بكم من عـذاب الله وعقوبته (ولله غيب السموات والأرض) أى علم جميع ماهو غائب عن العباد فيهما ، وخص الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود ، كما يعلم بما هو مغيب ، لكونه من العلم الذى لايشاركه فيه غيره ، وقيل ان غيب السموات والأرض نزول العـذاب من السماء وطلوعه من الأرض ، والأول أولى ، وبه قال أبوعلى الفارسى وغيره ، وأضاف الغيب الى المفعول توسعا (واليه يرجع الأمر كله) أى يوم القيامة فيجازى كلا بعمله . وقرأ نافع وحفص يرجع على البناء للمفعول . وقرأ الباقون على البناء للفاعل (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك كل ماتكره ، ومعطيك كل ماتحب ، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة ، والتوكل على كون مرجع الأمور كلها الى الله سبحانه (وما ربك بغافل عما تعملون) بل عالم بجميع ذلك ومجازعليه ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص (تعملون) بالفوقية على الخطاب وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (فلولا) قال فهلا . وأخرج ابن مردويه عن أبى ابن كعب قال أقرأنى رسول الله ﷺ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية وأحلام ينهون عن الفساد فى الأرض . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج الا قليلا ممن أنجينا منهم يستقلهم الله من كل قوم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (واتبع الذين ظلموا ماأترفوا فيه) قال : فى ملكهم وتجبرهم وتركهم الحق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج قال قال ابن عباس : أترفوا فيـه أبطروا فيه ، وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن جرير « قال سمعت رسول الله ﷺ يسئل عن تفسير هذه الآية وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ، فقال رسول الله ﷺ وأهلها ينصف بعضهم بعضا » . وأخرجه ابن أبى حاتم والخرائطى فى مساوى الأخلاق موقوفا على جرير . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحـدة) قال : أهل دين واحد أهل ضلالة أو أهـل هدى . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (ولايزالون مختلفين) قال أهل الحق وأهل الباطل (إلامن رحم ربك) قال أهل الحق (ولذلك خلقهم) قال للرحمة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنـه الامن رحم ربك . قال الا أهـل رحمته فانهم لايختلفون . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لايزالون مختلفين فى الأهواء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن عطاء بن أبى رباح (ولا يزالون مختلفين) أى اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية ، وهم الذين رحم ربك الحنيفية . وأخرج هؤلاء عن الحسن فى الآية قال : الناس مختلفون على أديان شتى الا من رحم ربك فمن رحم ربك غير مختلف (ولذلك خلقهم) قال للاختلاف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد (ولايزالون مختلفين) قال أهل الباطل (الا من رحم ربك) قال أهـل الحق (ولذلك خلقهم) قال للرحمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرجا عن الحسن قال : لايزالون مختلفين فى الرزق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ولذلك خلقهم . قال خلقهم فريقين فريقا يرحم فلايختلف وفريقا لايرحم يختلف فذلك قوله ـ فمنهم شقى وسعيد ـ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبوالشيخ عن ابن جريج فى قوله (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك) لتعلم يامحمد مالقيت الرسل قبلك من أممهم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : وجاءك فى هذه الحق . قال فى هذه السورة . وأخرج ابن

جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد ابن جبير مثله أيضا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال فى هذه الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (اعملوا على مكانتكم) أى منازلكم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج (وانتظروا إنا منتظرون) قال يقول انتظروا مواعيد الشيطان اياكم على ما يزين لكم ، وفى قوله (واليه يرجع الأمر كله) قال فيقضى بينهم بحكم العدل وأخرج عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند وابن الضريس فى فضائل القرآن وابن جرير وأبو الشيخ عن كعب قال فاتحة التوراة فاتحة الانعام ، وخاتمة التوراة خاتمة هود (ولله غيب السموات والارض) الى آخر الآية .

﴿ بحمد الله تعالى تمّ طبع الجزء الثانى من التفسير المسمى « فتح القدير » تأليف حجة الاسلام محمد بن على بن محمد الشوكانى ، ويليه الجزء الثالث ، وأوّله تفسير سورة يوسف عليه السلام ﴾

تنبيه

سقط حرف ـ غ ـ من كلمة « غيب » بصحيفة ٥٠٨ بأوّل سطر ١٠ ووضع بدله حرف ـ و ـ خطأ

# الجواهر

## في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف


الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين


مطبوع على ورق جيد بحرف جميل . والقرآن مضبوط بالشكل الكامل

محلى بالصور الشمسية العديدة ، قد نجز منه

احدى وعشرون جزءا

لغاية تفسير سورة - محمد - صلى الله عليه وسلم

وباقيه جار طبعه ، ويتم بعون الله قريبا

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0036758620
BP
130.4
.S542
v. 2
NOV 26 1975
NOV 26 1975